

عبدالرحمن بن صالح الشبيلي

أعلام بلا إعلام

الجزء الأول



الطبعة الأولى
صفر ١٤٢٨هـ - مارس ٢٠٠٧م
الرياض


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أعلام بلا إعلام

عبد الرحمن الشبيلي

أعلام بلا إعلام

الجزء الأول

الطبعة الأولى

صفر ١٤٢٨هـ - مارس ٢٠٠٧م

الرياض

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشبيلي ، عبدالرحمن بن صالح

أعلام بلا إعلام / عبدالرحمن بن صالح الشبيلي.-

الرياض ، ١٤٢٧هـ.

٤٠٠ ص، ١٧ X ٢٤ سم

ردمك : ٧ ـ ٥٤٥ ـ ٥٢ ـ ٩٩٦٠

١ ـ السعودية ـ تراجم أ . العنوان

ديوي ٩٢٠,٠٥٣١ ١٤٢٧/١٧٠٢

رقم الإيداع : ١٤٢٧/١٧٠٢

ردمك : ٧ ـ ٥٤٥ ـ ٥٢ ـ ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

صفر ١٤٢٨هـ ـ مارس ٢٠٠٧م

الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

صدق الله العظيم

آل عمران ، الآية (٢٠٠)

ملأى السنابل تنحني بتواضع

والفارغات رؤوسهنّ شوامخ(*)

(*) لم يعثر المؤلف على قائله.

المحتويات

صفحة

صفحة



مقدمة المؤلف(*)

لا أبلغ من أن يحترف الإنسان مهنة من المهن، أو يمارس فناً من الفنون، ثم يقف مع نفسه بعض الوقت لالتقاط الأنفاس، والتأمل في طريقه، ليرى إذا كان يسير في الاتجاه الصحيح، وليجري تقويماً شاملاً لمسيرته، وليعود إلى ما سجله غيره من الممارسين، وإلى ما كتبه المنظّرون من قبله، فيستفيد من آرائهم وخبراتهم.

تلكم هي نظرتي عند الحديث عن تجربة هي إلى الهواية أقرب من الاحتراف، إذ لم يسبق من قبلُ أن نظرت في تجربة الآخرين، أو فتشت عما سلكه الأسبقون، أو قرأت فيما كتبه أساتذة الأدب عن أصول هذا الفن وقواعده وتاريخه.

فالكتابة في السير والتراجم بشقيها: سير الذات وسير الغير، هي في الواقع، ميدان فسيح من ميادين الأدب، له أصوله وأنماطه، وقد كُتبت فيه دراسات وأطروحات، وعرفته الثقافة العربية منذ أمد

(*) كانت في الأساس محاضرة بعنوان: تجربتي في كتابة السيرة والترجمة، ألقاها المؤلف في مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية في الجوف مع افتتاح موسمها الثقافي (مساء الخميس ١٥/١٠/١٤٢٦هـ. ١٧/١١/٢٠٠٥م)، ونشرت في مجلة الجزيرة الثقافية، العددان (١٣٠ و ١٣١) بتاريخ ١٩ شوال ١٤٢٦هـ (٢١/١١/٢٠٠٥م) والأسبوع اللاحق له، ثم طوّرت لتصبح مقدمة لهذا الكتاب.

بعيد، حيث يزخر التراث بالمئات من الكتب التي سجلت سير الزعماء والمصلحين وطبقاتهم، وسبرت مكامن القوة في شخصياتهم .

وفي عصرنا الحديث، شاع مصطلح التراجم، وهو تعبير مولّد يطلق على السير الموجزة، ثم انتشر منذ عقود قليلة نمط السير الذاتية (بما فيه اليوميات والذكريات والاعترافات ونحوها)، وهو ما يحكي فيه المرء قصة حياته بأسلوب ضمير الغائب (الرواية) أو باستخدام ضمير المتكلم، وسواء أكتبه بقلمه أم أذن لغيره بالكتابة عنه.

يقول د. عبدالله الحيدري في كتابه المتميّز: السيرة الذاتية في الأدب السعودي (دار طويق، ١٤٢٤هـ) والذي كان في الأساس رسالة ماجستير، وعلّق عليه الشيخ حمد الجاسر: «والنوع الأول هو المعروف بالسير الغيرية، أو ما يعرف لدى الغرب بتعبير Biography، وهو البحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذّ، والكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي عاشها والأحداث التي واجهها في محيطه والأثر الذي خلفه في جيله، وإن النقد العربي قد استوعب التفرقة بين المصطلحين المركّبين، فأطلق تعبير Biography لسير الغير ومصطلح Autobiography للسير الذاتية التي يتحدث فيها الكاتب عن نفسه» أ. هـ.

ومع حداثة هذه التجربة في مجتمعنا، فإن المتتبع لما صدر من سير، من أمثال ما كتبه عزيز ضياء في سيرته الذاتية: حياتي مع الحب

والجوع والحرب، وحمد الجاسر في سوانحه، ود. غازي القصيبي في كتابه: حياة في الإدارة، وفي سيرته الشعرية، والأستاذ أبو عبدالرحمن ابن عقيل في تباريحه، والدكتور عبدالعزيز الخويطر في «وسم على أديم الزمن»، وإبراهيم الحسون في خواطره، وهي جميعها من نوع السير الذاتية، وليست تراجم للغير، فإنها ـ في ظني ـ قد بلغت من الجودة ما يضاهي ما تضمه المكتبات من نتاج عربي، وهي تتفوق بشكل ملحوظ على ما أنتجته المكتبة السعودية من كتب وتراجم للغير.

لم يكن لي قبل عام ١٤١٤هـ (١٩٩٤م) سابق خبرة في كتابة السير، لكنني أستذكر هنا خطوة مرحلية قديمة يعود تاريخها إلى عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م)، وكانت بمثابة التمهيد لاهتماماتي التوثيقية في هذا المجال.

ففي أواخر سنوات عملي في وزارة الإعلام، جالت في خاطري فكرة تنشيط ذاكرة المشاهدين بتاريخ أبرز أعلام الوطن الذين قدموا خدمات جليلة في سبيل تأسيسه وتوحيده ونهضته، وقد قمت، من ثمّ، بتسجيل حلقات تلفزيونية توثيقية مع بعضهم، تتحدث عن مراحل حياتهم، وعن شهاداتهم الشفوية حول الأحداث التي عاشوها أو شاركوا فيها.

كان من تلك المقابلات ـ ما عرض في حينه وما لم يعرض ـ ما حوى مادة ثرية معمقة، فعملت منذ وفاة الشيخ محمد بن جبير عام ١٤٢١هـ (٢٠٠٣م) على تحويل تلك التسجيلات إلى سلسلة كتب توثيقية

شملت حتى الآن الشيخ حمد الجاسر والأمير مساعد بن عبدالرحمن، بالإضافة إلى الأمير خالد السديري (تحت الطبع)، وكانت الحوارات التلفزيونية تمثل المتون الرئيسية لتلك الكتب، ثم أضفت إليها قراءات من بعض عارفيهم، وصوراً وهوامش تتضمن تراجم موجزة للتعريف بالشخصيات الأخرى التي عرض لها كل حوار، حتى إن كتاب الأمير مساعد بن عبدالرحمن حمل أربعين تعريفاً بآخرين، ورد ذكرهم في ثنايا المقابلة الأساسية التي كنت أجريتها معه قبل ثلاثين عاماً.

لكنني قبل أن أقرر تحويل هذه الحلقات التسجيلية القديمة إلى كتب، بدءاً بكتاب الشيخ ابن جبير، كنت مررت بالتجربة الأثرى والأكثر تميّزاً حتى الآن :

فلقد كنت منذ عام ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م) أرسم في الذهن ـ كما يفعل المعماريون ـ تصوّراً لكتاب يوثق سيرة أحد أقاربي ممن اتفق المجتمع على تقدير أعماله وخدماته، وكنت أبحث عن متعهد ينفذ الرسومات والتصاميم، ويحيل الفكرة إلى واقع، أو كما يتمنى إنسان تحوك في خاطره مشاعر، أن يتحول إلى شاعر يصوغ أفكاره في قصيدة معبرة.

وبعد طول انتظار جرت خلاله محاولات ـ من قبل آخرين ـ لتنفيذ الفكرة، كان على المصمم نفسه أن يتحول إلى مقاول، وأن يقوم بتنفيذ أفكاره بنفسه، فإذا بالكتاب يرى النور في شوال عام ١٤١٤هـ (١٩٩٤م)،

كتاب من (٥٠٠ صفحة)، يتحدث عن سيرة طيب الذكر، السفير محمد الحمد الشبيلي، ويلقى من الحفاوة ما لم يحلم به مؤلفه.

أما التجربة الثالثة، من تجارب كتابة السير والتراجم، فقد مررت بها بين عامي ١٤١٧هـ و ١٤٢٠هـ (١٩٩٧ ـ ٢٠٠٠م)، حينما كنت أعكف على تأليف كتابي التوثيقي عن تاريخ الإعلام السعودي، الصادر عام ١٤٢١هـ، وقد أسفر البحث عن التطرق إلى عشرات من رجال الثقافة والإعلام في المجتمع السعودي، مما شجع على كتابة مقالات عن كل شخصية على حدة، نُشرت مجّزأةً في جريدة الجزيرة، ثم مجتمعةً في كتاب (إعلام وأعلام)، الصادر بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيس المملكة ١٤١٩هـ (١٩٩٩م).

إن ما تتسم به هذه التجارب، على اختلاف موضوعاتها من حيث الإطالة والعمق، هو تجنب الإغراق في تفاصيل الحوادث، وسهولة اللغة والتراكيب وبساطة الأسلوب، مع الانعتاق من التشدد في شروط البحث الأكاديمي وقيوده، ذلك أن معظم تلك السير والتراجم قد أعدت أساساً للنشر الصحفي، وكانت موجهة إلى جمهور المثقفين والمتخصصين وإلى السواد الأعظم من القراء على حدٍ سواء .

ثم دخلت في تجربة رابعة من نوع أكثر عمقاً في مجال كتابة التراجم الموجزة، عندما التزمت لجريدة عكاظ في مطلع شهر شعبان

عام ١٤٢٤هـ (سبتمبر ٢٠٠٣م) ـ تحت عنوان: تحية وبعد ـ بكتابة سلسلة مقالات عن شخصيات تتفادى الأضواء وتعزف عن الظهور، مع أنها بلغت مكانة عالية ـ علمية أو عملية ـ في المجتمع، وقدمت جهوداً مشكورة في خدمة الوطن، وقد أفاد نشر تلك المقالات سلفاً في الصحافة في تلقي بعض التعليقات والتصويبات عليها، ومع الأيام صارت تلك الحلقات أكثر تفصيلاً وطولاً، وأصبحت تشمل شخصيات قديمة ومعاصرة، كما توسَّع نشرها صحفياً ليشمل جريدتي الحياة والشرق الأوسط ومجلتي الشورى والمجلة، وهي الحلقات التي تضمنها ـ بعد جمعها ـ كتابي هذا بعنوان: **أعلام بلا إعلام**.

لقد شجعت الحفاوة التي استُقبلت بها تلك السلسلة من المقالات عند نشرها في الصحف، على جمعها وإضافة ما جدّ عليها، وروعي في تسلسل وضع كل مقال تاريخ نشره في المطبوعات الصحفية، كما هو مدوّن في هامش عنوانه في هذا الكتاب.

لم تخل تلك التجارب من فوائد واستنتاجات، تعرض الوقفات الآتية لأبرزها مع التركيز على كتاب السفير الشبيلي نموذجاً لتلك السير والتراجم :

الوقفة الأولى: كانت شخصية ذلك الكتاب أحد السفراء السعوديين، المشهود لهم بالشمائل الكريمة، خدم بلاده ومواطنيه سفيراً في خمس

دول، وأمضى نحواً من ستة عقود في الوظيفة العامة، مكرساً وقته وجهوده وإمكاناته في إسعاد غيره، وصون سمعة وطنه، وعُرضت عليه الوزارة فاعتذر، فكان احتفاء المجتمع بصدور الكتاب بمستوى منزلة الرجل، لدرجة غفرت كون مؤلفه أحد الأقربين.

فأهمية الشخصية التي يُكتب عنها، والتوافق في شهادة الناس على منزلته فيما تميز به، تكون دون شك، العامل الأول في نجاح المؤلَّف، والإقبال على اقتنائه والحفاوة به، ومفتاح تعليقات وسائل الإعلام عليه.

الوقفة الثانية: كان الكتاب في مسوداته المبكرة يضم ثلاثة فصول، وكانت صياغته تتسم بالعمومية، ومعلوماته غير مكتملة التوثيق، ولكن ما أن انفتحت أمام المؤلف خزينة الأوراق الخاصة، وألبومات الصور التي كانت تزخر بها غرفة المقتنيات الشخصية للسفير الشبيلي، حتى تغيّرت صورة الكتاب، وتحول حجمه من فصول ثلاثة إلى ثمانية، وزادت الصور إلى عشرة أضعاف، وحظي بالكثير من الأسانيد والوثائق الخاصة، وصارت المعلومة تدل على المعلومة، والصورة توحي بالفكرة، والوثيقة تقود إلى مصادر المعلومات، وقد أثبتت تلك التجربة أن البحث عن القرائن والدلائل والتواريخ غاية تستحق شد الرحال، مهما كانت القيمة أو كان التأخير.

وكان بين ما تم العثور عليه، شواهد وإثباتات أصيلة للعديد من القصص والروايات التي وردت على ألسنة رواتها، ومن الطبيعي، أن يشكّل العثور على صورة تخدم موضوعها، وتوضع في مكانها المناسب في الكتاب، سعادة لا توصف لأي مؤلف، وأن ترد قصة في ثنايا الروايات وقد مضى على حدوثها نصف قرن، ثم يجد الباحث بين أوراق شخصية الكتاب ما يؤكد تفاصيل الواقعة ورموزها وتواريخها، وأن تحتل صورة مكاناً بارزاً في إخراج الكتاب، ثم يجد مؤلفه، والكتاب ماثل للطبع، من يعرّف باسم صاحبها، فهي مواقف تمثل متعة في عالم مؤلف السير والتراجم لا يقدر مدى الإحساس بها إلا من مرّ بها أو جرّبها، بل إن استذكارها، مع مضي الزمن، لا يقل نشوة وإسعاداً عن تذكر مطاردة قنص عاشها هواته.

الوقفة الثالثة: تتصل بضرورة إلمام المؤلف بخلفية الموضوع، وبالمعلومات التاريخية المتعلقة به، وبالشخصيات الواردة فيه، إذ لا أتخيل مؤلفاً يمكنه أن يكتب عن شخصية لا يعرف عنها إلا القليل، فضلاً عن أن يكون قد تأثر بها أو تشبعّ بمعرفتها أو تفاعل معها من قبل، وإن من نافلة القول: إن أفضل أنواع الكتابة وأكثرها بلاغة هو ما يصدر عن عاطفة، مهما بلغ احتراف المؤلف وقدرته على الصياغة والتعبير.

وما من شك في أن القراءة المكثفة في الموضوع الذي يراد التأليف

فيه، وزيارة المواقع التي سيتم التطرق إليها، والالتقاء مراراً مع الشخصية التي سيكتب عنها ومع معارفه، هي بعض الوسائل التي تعزز من قدرة الكاتب على استيعاب موضوعه وإجادة الكتابة فيه.

الوقفة الرابعة: وتتحدث عن مرحلة يمكن تسميتها: مرحلة التدقيق والمقارنة، إذ لابد لكل مؤلِّف في موضوع ذي صلة بالتاريخ، ألا يأخذ مأخذ التسليم كل ما يقع عليه ناظراه من معلومات دون أن يعرضها للتحقيق والمقارنة، فضلاً عن ضرورة أن يراجع مسوداته ويقارن بين تواريخ تخص واقعة بعينها وردت في مواضع مختلفة من كتابه، حتى لا يحصل تنافر في الكتاب نفسه.

إن المعلومات الخطأ التي ترد في بعض الكتب، لا تشوّه الكتاب نفسه بقدر ما تريك الكتب والأبحاث التي تبنى عليه، وما لم يقم الناقل بالتثبت من كل معلومة ينقلها، فإن الخطأ قد يتراكم، ويصبح جرثومة أو (فيروساً) يلوّث جميع ما يصدر بعده من كتب أو نقولات .

ومن اللافت للنظر، أن هناك العديد من السير والتراجم التي صدرت في المملكة، وهي تمتلئ بالمعلومات الجديدة والموضوعات الأصيلة الجيدة، لكنها لا تُسند بتواريخ أحداثها، ولا تختم بالفهارس والكشافات التي تساعد الباحث والقارئ على تحديد مواضع المعلومات عند العودة إليها، وفي ظني، أن توثيق التواريخ وتكشيف المعلومات، هما أهم عناصر

الكتابة التاريخية، ويمثلان عصب التأليف في مجال السير والتراجم، ودليلاً على تمكّن الكاتب ومثابرته وجدّيته في البحث والتنقيب.

الوقفة الخامسة: وتتناول مرحلة النقد والتقويم، وهي مرحلة لا يوليها بعض المؤلفين المستعجلين ما تستحقه من اهتمام، مع أنها يمكن أن تكشف لهم عيوباً لا يكون في مقدور المؤلف أن يكتشفها بمفرده، وقد قيل فيما مضى: إن المؤلف يقرأ نفسه، وبالتالي فقد يمر عليه الخطأ المطبعي وغيره دون أن يلحظه.

ولعل أفضل طريقة لنقد الكتاب وتقويمه قبل طبعته النهائية أن يعقد المؤلف ندوة للمتخصصين في موضوعه، أو لمجموعة من النقاد المحتملين، لمعرفة آرائهم في مسوداته الأخيرة، فقد تكفل هذه الخطوة تخفيف الملحوظات التي تبدى على الكتاب فيما بعد، وهنا ينبغي على المؤلف ألا يتأفف من أي رأي، ولا يتذمر من التأخير، أو من كثرة التعديلات وإعادة الصياغة، فالتصويبات التي ترد إليه قبل الطبع تفضُل بمراحل ما يتلقاه بعده، وخير له أن يتلمس عيوب كتابه قبل الصدور من أن يُلفت نظره إليها بعد فوات الأوان، وعندما يحظى المؤلف بمساعدة من محترف في التصحيح والمراجعة والصياغة، أو عندما يكون هو نفسه مؤهلاً لذلك، فإنها قمة الحظ في عالم الكتابة والتأليف، وإن ما يقضيه المؤلف من جهد ووقت في هذه المرحلة خير

وسيلة لإتقان العمل وتحري كماله وضمان تميّزه، ودليلٌ على احتراف المؤلف وثقته بنفسه.

إن كل ما أصدرته حتى الآن من كتب في مجال الإعلام أو في مجال السير، قد استغرق ما بين عشر إلى خمس عشرة تجربة (بروفة) طباعية، مارست فيها أقصى درجات المراجعة والتمحيص الممكنة، ومع ذلك فلم يخل واحد منها من الأخطاء بأنواعها.

الوقفة السادسة: هل يمكن الحكم على ما يكتبه كاتب السير والتراجم بالموضوعية والحيدة؟ أو بعبارة أخرى: هل تتوافر شروط النزاهة في كل ما يكتبه مؤلفو التراجم؟

إن من الصعب على أي كاتب سيرة المحافظة على ذلك، خاصة إذا ما كان اختياره للأشخاص مبنياً على الإعجاب المسبق بهم، فالكتابة في السير تظل بَوْحاً عن الذات أو تعبيراً عن الآخرين، رغم ما قد يلتزم به الكاتب من اعتدال في الطرح، وتجنب في مبالغات الثناء والألقاب، وأضيف: إنه ما لم تعرض كتابات السير على المعايير العلمية وتطبق عليها، فإن من غير المحتمل أن يحافظ كتّاب السير على موضوعيتهم وحيدتهم في كتابات أعدت للأغراض الإعلامية، أو لاستكشاف جوانب التميز في الأشخاص.

السؤال الثاني الذي يُطرح في هذا المقام، هو عن مدى تطابق المعلومات التي ترد في تلك السير مع واقع حياة الشخصيات التي تكتب عنها، خاصة أن الكثيرين قد لا يعرفون محتوى تلك الكتابات قبل نشرها، وهو ما يتم في الغالب مع معظم ما كتبت، ولعل في استشارة المحيطين بالشخصيات المترجم لها ما يكفل دقة المعلومات الواردة فيها، وضمان صحة ما ورد عنها من معلومات.

الوقفة السابعة: وتتصل - باختصار - بإشكالية ما يواجهه بعض كتب السير والتراجم في بلادنا خاصة، من بعض الحساسيات الاجتماعية، نتيجة إيراد كلمات أو معلومات أو قصص قد تثير النعرات القبلية والإقليمية، وربما يلحق بها مسألة الدخول في قضية الأعمار وأمثالها، وهي أمور يحتاج التطرق إليها كثيراً من الحذر والحيطة، فلقد تسببت إثارة مثل هذه الموضوعات في إيقاف العديد من مؤلفات السير والتراجم حتى بعد فسحها وتداولها.

الوقفة الثامنة: إن من عوامل التشويق في مثل هذه الكتابات، هو التوسع فيما يمكن تسميته عنصر «الشخصنة»، وهو الغوص في أعماق الشخصية، والتطرق في السياق نفسه إلى أسماء شخصيات أخرى ذات علاقة بالشخصية الرئيسية .

لقد سبق الإخوة من كتاب الحجاز ومصر، قديمهم وحديثهم، إلى

الأخذ بهذا العنصر والاهتمام به، حتى لا تكاد مقالة أو كتاب سيرة تخلو من الحديث عن مأكل الإنسان، وعن رفاقه، وعن اهتماماته الأسرية، وعن الإتيان بأسماء من حوله من أقاربه، مع رفع الكلفة عند الكتابة عن الدواخل النفسية والإنسانية، فمتى ما توافر عنصر «الشخصنة»، وهو أمر أساسي في كتابة السير، ضمن عوامل الظُرف والتشويق وسهولة العبارة والإيجاز، فإنه - في ظني - مدعاة لإمتاع القارئ وجذبه وارتياحه .

أما بالنسبة للتراجم الواردة في هذا الكتاب، فإنها في الواقع، خلاصة تجربة متواضعة امتدت اثني عشر عاماً، من الانشغال في فن لم يكن لكاتبها سابق خبرة فيه أو تخصص، ومن الطبيعي أن تكون عرضة للنقد، خاصة إذا ما عرف أن تلك التراجم - على تباين أصنافها - قد التزمت منهجاً مبسطاً في الأسلوب، يتحرر من وثاق البحث العلمي المتشدد .

لقد حاولت تلك السير والتراجم التركيز على الجوانب الطريفة والمشوّقة، وربما المجهولة من حياة شخصياتها، وروعي في انتقاء الأسماء أن تكون لها مكانة شعبية في المجتمع أو ذات ماض مؤثر وناجح، وبالتالي، تجتذب القارئ وتغريه على الاستزادة من المعلومات الإنسانية عنها .

ولاشك في أن تلك الأسماء المختارة، القديمة منها والمعاصرة، ليست سوى عينة محدودة لقائمة طويلة من الشخصيات التي تجتمع فيها

السمات نفسها في سائر أنحاء الوطن، لكن الأمل أن يكون هذا الكتاب نواة لغيره يتابعه المؤلف أو آخرون من الكتّاب والمؤلفين فيما بعد، خاصة أن هناك توجّهاً متزايداً في الساحة الثقافية للكتابة في مجال التراجم والسير، على أنه لابد من التأكيد مرة أخرى على أن هذه المقالات، وإن كانت تشبه إلى حد ما في نهجها كتابة السير، إلا أنها ـ دون شك ـ لا ترقى إلى منزلة التراجم الكاملة لأصحابها.

ومع تواضع هذه التجربة القصيرة التي عرضت لها، والتأكيد على أنها لا تتعدى الهواية ولا تدخلني بين المؤرخين، فلقد اتخذت المحاولات التي قمت بها للكتابة في السير قوالب فنية مختلفة، لكنها ـ بأي حال من الأحوال ـ لم تأخذ الشكل التقليدي لكتابة السير، التي تبدأ عادة بمكان الولادة وتاريخها ثم بسرد المراحل العلمية والعملية وعدد الذرية إلى آخر هذه المعلومات الشخصية، بل نحت منحىً متحرراً يركز في بدايته على أبرز ملامح الشخص أو خصاله وما هو معروف أو مجهول عنه، وغالباً ما توضع المعلومات (البيوغرافية) في نهاية المقال أو البحث، وهناك سيرٌ أخذت نمط استعراض عمل فكري قام به، وذلك مثلما حصل عند استعراض سيرة خليل الرواف وإبراهيم الحسون، وعلى كل حال، فإنه عندما يأتي الأمر إلى تقويم منهج الكتابة ونقد أسلوبها فهو شأن ينبغي أن يصدر الحكم عليه من غير كاتبها.

سيلاحظ القارئ الكريم أن بعض مقالات الكتاب قد أُعدت للنشر في صحف تصدر في الخارج، مستخدمة التاريخ الميلادي فقط، بينما أُعد بعضها الآخر للنشر في الداخل، مستخدمة التاريخين، الهجري والميلادي، فبقي كل منهما على حاله دون تغيير في التواريخ، بل وفي المضمون.

وإن المؤلف ليتقدم إلى كل من أسهم في إعدادها، سواء قبل النشر الأول أو بعده، ولكل من أمده بالصور أو بالملحوظات بخالص الامتنان والتقدير، خاصاً في هذا الشأن الأستاذ عبدالله بن محمد الناصر (من مكتبة الملك فهد الوطنية)، مع شكر خاص لأخي الشيخ عبدالعزيز السالم، وأخي الأستاذ إبراهيم بن عبدالرحمن التركي، ولأخي الأستاذ منصور بن عبدالله أبالخيل اللذين تفضلوا بالاطلاع على مشروع الكتاب، وأبدوا تصويبات وجيهة عليه.

وإذا كانت فكرة هذا الكتاب ومقالاته قد انطلقت من إبراز عينة من شخصيات في المجتمع السعودي، ظلت بعيدة عن دائرة الأضواء، وعازفة عن بريقها ووهجها، فإن كاتب التقديم الأخ د. عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر، هو شخصية لا تختلف بالأسلوب والتواضع والعمق، عن شخصيات الكتاب، بل لعله الأنموذج الأوضح لها، ومن هنا جاء اختياره، ليتوّج الكتاب بقلمه، فله كل الشكر على تجاوبه، وعلى ما أهداه للمؤلف من أفكار.

المؤلف

الرياض

١٤٢٧/١٠/٠١هـ - ٢٠٠٦/١٠/٢٣م



تقديم

بقلم الدكتور
عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

لا أكاد أَكُفُّ عن حثّ أصدقائي على جمع ما يكتبونه في الصحف في كتاب يضم شمل مقالاتهم وأُعدِّد الأسباب التي أقنعتني بصحة هذا الاتجاه، وسلامة نتائجه، والخسارة الواضحة في عدم الإقدام على هذه الخطوة، وكان من جملة ما أقدمه بين يديّ حثّي هذا أن للصحف قراءً وللكتب قراءً، ومن يعجبه مقال استدعى الأمر في وقت لاحق أن يعود إليه فمن السهل عليه أن يجده في كتاب عنده على رف مكتبته، والكتاب الذي يحوي مقالات شتى في مواضيع متجانسة أو متقاربة يصبح مرجعاً علمياً يأخذ مكانه بين مراجع الأصل، ويصبح بغية الباحث وعضده.

ومن بين الذين آمنوا مثلي بهذه الفكرة أخي وصديقي الأستاذ الدكتور عبدالرحمن بن صالح الشبيلي، الذي وجد الفائدة الكبرى من هذا الاتجاه، والرأي الصائب، بعد أن عمل على إخراج كتاب عن حياة شخص حبيب علينا، عزيز عند كثير من الناس: أبو سليمان

محمد الحمد الشبيلي، ونعم الوسيلة لتبنّي فكرة، ونعم المقنع للسير في خط لابد أن تحمد عقباه، ويُرحَّب بما ينتج منه وفيه.

الدكتور عبدالرحمن من الذين لا يملّون التأمّل في طرْق أبواب شيّقة، ولا يتوقفون عن التفكير في شيء جديد يكون مبنياً على منهج منتظم، وخطط متقنة، فهو في كتابه الذي بين أيدينا: «أعلام بلا إعلام» يحدّد سمة محتوى الكتاب، فيتحدث عن أناس بارزين في عملهم، منتجين إنتاجاً وافياً شافياً في الأمور التي وكلت إليهم، أو اتخذوها نهجاً لعملهم وحياتهم، وابتعدوا عن الضجيج، ولم يفكروا في الإعلان عن أنفسهم، ولا عمّا فعلوه، ولا عمّا أنجزوه، وكانوا، ما استطاعوا، يبتعدون عن الإعلام، ويتحاشون الضجيج وصخب التحدث عن الذات، رغم أن هناك من كان يلهث خلف بعضهم ليقتطف شيئاً من فكرهم، أو عقيدتهم في العمل، أو إلقاء ضوء على ما يعرف الناس من فتات يفرّ من الوأد، ويختبئ خلف ستر التواضع الذي كان لازماً لبعضهم، وهو تواضع يزيد من جاذبية الحرص على الخروج بشيء أقل من القليل، وهو في أعين الناس كثير لما يحويه من منهج مبدع، وسير منفرد.

ومجرد تفكير الدكتور عبدالرحمن في هذا النهج دليل على نضج في الفكر، وسلامة في الاتجاه، وانفراد في النهج. ثم يلي هذا حُسن اختيار الأشخاص ليدخلوا بإتقان في الإطار المرسوم سابقاً، ولم يقف

الدكتور عبدالرحمن عند رسم هذا الإطار وحشوه دون أن يكون وراء كل خطوة فكر عميق يجعل ما جاء في النهاية محل إعجاب.

فالدكتور عبدالرحمن تلمّس أعلامه من أحياء وأموات، وفي كلا الحالين أخذهم من مهن مختلفة، ومن ثقافات متعددة، ومن مناطق متباينة، ومن أزمنة بعضها متصل وبعضها منفصل، وكانت أعمال «أعلامه» الجاذب فيها مشاركتها بطريقة ما بالمساهمة في تثبيت الكيان مع من منهم في قمة المسؤولية، سواء كان هذا فكرياً بالكتابة والتأليف، أو بالقيام بعمل رسمي، أو عمل تجاري، أو غير ذلك من المجالات التي كان للمساهمة بالعمل بها بإخلاص دفع لعجلة التقدم في الوطن، في المجالات المختلفة.

إن في تدوين حياة هؤلاء الأعلام تسجيلاً لتاريخنا، ونحن في حاجة إلى رسم جوانبه من جميع النواحي، إن في ذلك الحديث عن هؤلاء الأعلام بالطريقة التي اختارها الدكتور عبدالرحمن توضيح صور لا يمكن أن تُتصور أو تُعرف إلا عن طريق مثل هذا العرض المتقن، والمبني على بحث مستفيض، وتحقيق دقيق، وتحرٍّ للحقائق في صورتها الموثقة، وبجانب فائدة هذا النهج، واختيار هذا الأسلوب، هناك تحرٍّ للجاذبية، وإبعاد للملل، وهذا واضح من الاختصار في بعض المواد، والإسهاب في مواد أخرى، وهي مَقْدرة لا يتقن السير فيها إلا من عرف أنفُسَ الناس،

وجعلته التجارب يختار نهجاً محموداً مثل هذا.

لو لم يكن المجال هنا كتابة «مقدمة» لجاء الحديث عن الكتاب صفحات وصفحات، فكل موضوع عن عَلَم من هذه «الأعلام» له مِنّا، أهل هذا الجيل، ما يجعلنا، وفاءً له، نُحلل ونُعدِّد ونُمثِّل، ونذهب خلف الأسطر لنرى ما هناك من إشعاع حجم الكتابة أوجب على كاتب «الأعلام» أن يختصر فيما كان بإمكانه أن يسهب ويطيل، ويُمتّع روحه بأنه أدّى ما يبهجه أن يؤديه، ولكن طبيعة المقالات في الصحف تحتم عليه الاقتصار على المساحات المخصصة لمثل هذا الفن من الكتابة.

لا أشك في أن الدكتور عبدالرحمن وقد حمد هذا الطريق، وحمدناه معه، سوف يستمر في تلمس «الأعلام» الذين لم يلمسهم في هذه المقالات، وأن نرى منه ما يجعلنا نطمئن إلى أن جانباً مهمّاً من التاريخ وجانباً مهماً من الوفاء قد وُفّي حقه. وشكراً للدكتور عبدالرحمن بأن تكفّل في هذا الجانب الذي كان لابد أن يتبناه أحد من الكُتّاب القادرين، وتهنئة له على هذا، وتهنئة لنا، نحن القرّاء، على هذه الهديّة القيّمة، وفّق الله المؤلّف، وجزاه خير الجزاء على ما قدّم.

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

١٤٢٧/٠٨/٣٠هـ (٢٠٠٦/٠٩/٢٣م)

(١)

محمد بن عبد الله النويصر

عكاظ: الإثنين ٣ شعبان ١٤٢٤هـ ، الموافق (٢٩ سبتمبر ٢٠٠٣م)، العدد (١٣٥٤٧).



تربطني صلة بعيدة بمعالي الشيخ محمد النويصر، لكن العام والعامين يمضيان دون التوقف لإلقاء التحية عليه، وربما، لم يكن لهذه الكلمات أن تظهر لولا مناسبة هذه الرسائل التي تتوجّه إلى بعض المتوارين عن الأضواء.

هذا الإنسان العامل بصمت، الذي لا يهزه الإطراء، ولا يأبه بموقعه في أدوات الدعاية والإعلام، حقق التوازن في نهجه، والقسط والاعتدال في التدبير والتصرف الشخصي، وحظي باحترام رؤسائه وزملائه ومرؤوسيه، وصار مدرسة في الصمت والهدوء وملامسة قلم الرصاص على المعاملات، وأصبح الرقم المهم طيلة عقود خمسة.

يبكر في الحضور، ويتأخر في الانصراف، واهباً نفسه ووقته لواجبات وظيفته، ممتنعاً عن الشكليات الاجتماعية ليكون رهن عمله، وتعامل مع مسؤولياته بوسطية وعقل راجح كبير.

عرفته لأول مرة، في اليوم الأول لتولّي الملك فيصل مقاليد الحكم قبل أربعين عاماً (١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م)، فوجدته الملازم الأمين الذي يصمد أمام الصروف والظروف، السهل منها والعسير، الحلو منها والمرّ، وكأنّي به، وهو المغبوط الأكثر على الوجاهة والحظوة، كان الغارق

في بحر لجيٍّ من الضغوط والإحراجات والوساطات التي قد تجعل مثله يدني المهدّئات من كرسيّه وسرير نومه، ثم إن هناك العديد من الجوانب الخيرة في سيرته، لكن المقام هنا ليس مقام تزكية أو شهادة، فهو قد تجاوزهما من ناحية، فضلاً عن أن هذه المسائل أمانات عند الله، لكن الحديث في هذه الزاوية ينحصر في جزئيتين:

❖ **الأولى**: أنه من فئة من العقلاء، الذين حافظوا على سمتهم وصمتهم ولم يعرضوا أنفسهم للبروز، ولم يتخذوا منصّات للوجاهات الاجتماعية، وهي أمور يندر وجودها بين المسؤولين، ويصعب عليهم أن يقاوموها ويثابروا على النأي بأنفسهم عنها.

فهو، مع كل ما يتمتع به من جاذبية موضوعية ووظيفية، لم يتحفز يوماً لمقابلة إعلامية، تظن فئات كثيرة أن الأهمية تمر عبر بوابة نجوميتها.

❖ **الثانية**: أنه من مدرسة متميزة في الإدارة، جمع فيها بين التقليدية والتحديث وبين الكلاسيكية والتطوير، حافظ فيها على أساليب متوارثة، واحتفى بكل تقنية حديثة، واتسع فكره للجديد، تآخى عنده الشيوخ والشباب، واحتضن التطويريين، وأفسح المجال للطاقات المبدعة كي يتواءم الديوان الملكي مع كل مستجدات العصرية، وأوجد جيلاً خلاّقاً منسجماً من الطاقات والكفايات المؤهلة.

الشيخ محمد بن عبدالله بن صالح النويصر (أبو عبدالرحمن) الذي يقترب عمره الوظيفي من إكمال ستة عقود، ـ هو من أسرة النويصر المعروفة في مدينة الخَبْراء بالقصيم ـ كان قد ولد في مكة المكرمة في حدود عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م)، وقد درس في مدرسة الفلاح فيها، وتخرج منها في حدود عام ١٣٥٣هـ، ثم التحق بأول عمل له في وزارة المالية (أيام كان الشيخ عبدالله السليمان وزيرها)، ثم أوفد إلى حائل مع اللنجاوي لتنظيم شؤون المالية فيها، وقد استبقاه الأمير عبدالعزيز بن مساعد عدة سنوات، تزوج الشيخ النويصر خلالها بوالدة أبنائه الكبار، ثم التحق بديوان الملك في الحجاز، وسكرتيراً مع الشيخ إبراهيم السليمان العقيل، وهو ما مكّنه من مرافقة مكتب الأمير (الملك) فيصل في رحلاته، التي ربما كان أقدمها رحلته إلى سان فرانسيسكو عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٤م) للتوقيع على ميثاق الأمم المتحدة، وهي الفترة التي بدأت معها صلته بالملك فيصل تتوثق وتتدرج حتى صار بعدها رئيساً لديوانه الملكي.

وللشيخ محمد عشرة من الأبناء وعشر من البنات، يغمرهم بحنانه ويقف على رعايتهم، ويخصهم بنصيب من وقت يكرّس جلّه على شؤون مكتبه في الديوان الملكي والذي لا يكاد يُبقي له وقتاً للراحة والصلاة ومداعبة الأطفال.

لقد ترجّل الشيخ النويصر عن صهوة الوظيفة العامة في يوم السبت ١٤٢٦/٩/٥هـ (٢٠٠٥م) بعد أن سجل أطول فترة قضاها رئيس سابق في منصبه رئيساً للديوان الملكي، (٤٢ عاماً)، ولعله سجل أيضاً أطول فترة قضاها موظف في الوظيفة العامة (نحو ثمانية وستين عاماً).

إنها خواطر صادقة، استوجبت طبيعة هذه السلسلة الجديدة الإفصاح عنها، مختومة بالدعاء له بعمر مديد وحياة هنيئة، وعسى أن يكون للتاريخ نصيب من قلمه بما تسمح الظروف له بتسجيله وقوله.

(٢)

عبد المحسن بن حمد المنقور

عكاظ: الإثنين ١٠ شعبان ١٤٢٤هـ ، الموافق (٦ أكتوبر ٢٠٠٣م)، العدد (١٣٥٥٤).



والحديث يتصل، عن هؤلاء الأعلام، الذين أسهموا، ومازالوا، في بناء النهضة الاجتماعية والثقافية والإدارية، لكنهم يتوارَونْ عن الأضواء، لا زهداً فيها فحسب، ولكن اقتناعاً، بأن الطريق الأبلغ والأكثر أصالة وصدقاً إلى خدمة الوطن، هو في التواضع ونكران الذات، وتجنّب المنّة وانتظار المقابل والمردود.

تتحدث هذه الحلقة، عن رمز وطني آخر، ينحدر من أسرة علم وكرم وفضل، بلغ تجرّدها أنك لا تدري إن كانت من هذه المنطقة «سدير» أو تلك «الاحساء»، إذ لم تسع إلى تكريس المنشأ والمحتد والأصل، بل اهتمت بخدمة الإنسان ومصلحة الوطن والمجتمع بعامة.

الكل يتذكر ذلك التربوي الطيب الذي يذوب خجلاً وتواضعاً، ويعتذر لوطنه لأنه لم يقدم ما له عليه، وهو الأستاذ عبدالمحسن بن حمد المنقور، الذي خبرناه سفيراً «غير متوّج» عندما كان ملحقاً ثقافياً في لبنان «١٣٧٧هـ إلى ١٣٩٤هـ»، ثم أصبح وكيلاً للحرس الوطني في المنطقةالشرقية «١٣٩٤هـ إلى ١٤٠٤هـ»، واختار مدينة الدمام مقراً لاقامته الدائمة بعد تقاعده، لتضيف إلى وداعته رقّة، وينثر مزيداً من المودّة بين أرجائها، ولقد كان في كل موقع تبوأه، وفي كل مدينة مرّ بها أو أقام، ذلك الكريم، الذي يغمر زائره بحفاوة لا تنقطع، وبسخاء

لا يقارن أو يوصف، وهو الأبيّ الذي لا يعطي الفرصة لمحبيه أن يبادلوه الحفاوة، مقلّلاً باستمرار من كل ما يقدمه نحوهم.

الشيخ المنقور، ولد في حوطة سدير في منتصف الأربعينيات الهجرية، (العشرينيات الميلادية)، وتلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة الهفوف الأميرية، ثم انخرط في سلك التعليم، مدرساً في المدرسة ذاتها، ورافق الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ، والشيخ عبدالوهاب عبدالواسع، في مسيرة التعليم الصاعدة «كمّاً وكيفاً» التي رعياها، وسقيا غراسها في تلك الفترة «١٣٨٠هـ ـ ١٣٩٥هـ»، وله من البنات واحدة (شعاع)، ومن الأبناء ثلاثة هم: حمد وعادل ونزار.

وأسرة المنقور كما ذكرت، خرَّجت عدداً من المربّين الأفاضل، من بينهم أخوه الأصغر السفير ناصر المنقور، (انظر ص ١٨٣)، الذي لا تنسى جامعة الملك سعود إسهامه في تأسيسها، وابن عمهما الأستاذ عبدالعزيز بن محمد المنقور، الذي يذكره المبتعثون «من جيلي» إلى أمريكا، حيث كان ملحقاً تعليمياً متألقاً هناك.

وإذا ذكرت أسرة المنقور وعلماؤها فإن أول من يقفز إلى الذهن منها هو المؤرخ الشيخ أحمد بن محمد المنقور، المتوفّى في حوطة سدير عام ١١٢٥هـ، وهو صاحب المؤلفات الفقهية، الذي تناوله الشيخ حمد الجاسر ود. عبدالله الشبل في كتاباتهما، وألف عنه د. عبدالعزيز

الخويطر دراسة تحقيقية «١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م».

لا يُنكر على أبي حمد هذا الإفراط في التواضع والصمت، لكنه يطالب بتوثيق هذه المرحلة التي مرّ بها، وبخاصة في مجال التعليم، وأن يفتح صدره وأرشيفه ويُجري قلمه ليكتب تجربته الثرية الواسعة ويدوّنها.

إن عبدالمحسن المنقور، نموذج سعودي من نوع خاص، ومعلّم وطني متميّز، والحديث عنه هو حديث عن جنسه الكثير في مجتمعنا، لكنهم يتوارون عن الأضواء والذكر، وينبغي أن يشار إليهم بالثناء والتقدير، متع الله حياتهم بالعافية[1].

---

(١) توفي، رحمه الله، بالسكتة القلبية وهو نائم في بيروت، ودفن في الدمام بتاريخ ١٤٢٧/٣/٣هـ (٢٠٠٦/٤/١م)، ولمزيد عن سيرته، يرجى الرجوع إلى ما تضمنته جريدة الجزيرة، العدد (١٢٥٦٤) بتاريخ ١٤٢٨/٢/٢هـ (٢٠٠٧/٢/٢١م) بمناسبة تدشين مركز صحي أقيم على نفقته وإخوانه في حوطة سدير.

(٣)

حسن بن محمد كتبي

عكاظ: الإثنين ١٧ شعبان ١٤٢٤هـ، الموافق (١٣ أكتوبر ٢٠٠٣م)، العدد (١٣٥٦١).





لما كان نهج هذه الزاوية هو تتبع حياة رموز وطنية، أسهمت في نهضة هذه البلاد، لكنها تتوارى عن الأضواء، فإن اسم الشيخ حسن كتبي يرد في صلب القائمة، وضمن الأوائل فيها.

عرفته إبان عمله وزيراً للحج والأوقاف في مطلع التسعينات الهجرية «السبعينات الميلادية» وصادفته في إحدى رحلاته الخارجية، فعرفت من خلالها كثيراً من خصاله وأسلوب تفكيره.

قد لا تضيف هذه الزاوية جديداً لقرائها عن سيرة هذا الرجل الكريم، لكننا خبرناه صاحب قلم متمكناً، وأديباً، أغنى الدوريات بكتاباته الفكرية المعمقة، وأهدى المكتبة الثقافية السعودية جملة من الإصدارات القديمة والمعاصرة.

ولد الشيخ حسن كتبي في الطائف سنة ١٣٢٩هـ «١٩١٠م» والتحق في مكة المكرمة بمدرسة الفلاح، ثم اختاره مؤسسها الحاج محمد علي زينل للدراسة في الهند مدة ثلاث سنوات، ضمن مجموعة كان يرغب في تأهيلها لتدريس العلوم الشرعية.

وفي عام ١٣٥٢هـ «١٩٣٣م» عمل مدرساً في مدرسة الفلاح بمكة المكرمة ثم انتقل للعمل أستاذاً للأدب العربي في المعهد العلمي السعودي

بمكة المكرمة، وشارك في تحرير جريدة «صوت الحجاز» التي أصدرها محمد صالح نصيف بين عامي ١٣٥٠ ـ ١٣٦٠هـ (١٩٣٠ ـ ١٩٤٠م) والتي صارت فيما بعد نواة لجريدة «البلاد»، ثم تقلب في عدد من الوظائف التعليمية والإدارية، وأقام فترة في جنوب إفريقيا وفي مصر، ثم عين وزيراً للحج والأوقاف ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) في عهد الملك فيصل.

كتب سيرة حياته «هذه حياتي» في كتيّب صغير صدر سنة ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م)، وألَّف جملة من الكتب منها على سبيل المثال: الأدب الفني، وأشخاص في حياتي، ودورنا في زحمة الأحداث، وسياساتنا وأهدافنا، والسياسة علم وفن وأدب، ونظرات ومواقف».

كان حسن كتبي مساوياً في العمر لحمد الجاسر، لكن الأول درَّس الثاني في المعهد العلمي السعودي، حيث كان أحمد عبدالغفور عطار صاحب ومنشئ جريدة «عكاظ» وحسين عرب، من تلاميذها أيضاً، وقد كشفت مذكرات الشيخ عبدالله خياط عن صلة وثيقة علمية وأدبية كانت تربط بينهما، وتوثقت إبّان عملهما في المعهد العلمي السعودي، حيث انضم الشيخ الكتبي إلى هيئة تحرير صحيفة المعهد «الشباب الناهض» وكان الشيخ الخياط مديراً لها، ثم جاء في المذكرات أن الهيئة حاولت تحويل الصحيفة إلى مجلة للعموم، يكون الكتبي رئيساً لتحريرها لكنها لم تفلح.

لقد تميزت كتابات الشيخ حسن كتبي - وكتبه بوجه خاص - بمناهضة الشيوعية في أوج توهجها قبل أربعة عقود، وبالدراسات الإسلامية الفلسفية، وهو منهج انفرد به - أو كاد - بين كتّاب جيله السعوديين، ولعل من أبرز كتبه في هذا الموضوع مخطوطاً لم يقدر له الطبع والظهور بعنوان: السياسة الإسلامية ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م)، ومخطوطاً آخر عن سيرة الشيخ محمد سرور الصبّان.

المعروف أن حسن محمد كتبي قد تفرغ للعبادة وأعمال الخير، لكن المأمول أن ينقشع انطواؤه وصمته عن عمل يوثّق المرحلة الثانية التي لم يوثّقها من حياته. وأن يخرج ما قد يكون مخطوطاً، فاسمه «الكتبي» يفرض عليه ألا يُطلِّق التأليف، وألا يبتعد عن الكتاب، فلقد عودنا في كل فترة ينطوي فيها على نفسه أن يخرج منها بإبداع أدبي أو فكري إسلامي.

أجزل الله له في الأجر والثواب.

(٤)

أحمد بن محمد المانع

عكاظ: الإثنين ٢٤ شعبان ١٤٢٤هـ، الموافق (٢٠ أكتوبر ٢٠٠٣م)، العدد (١٣٥٦٨).



الحديث في هذا الأسبوع عن شخصية تعليمية تربوية، باحث في الفقه والتراث، لم يدّخر وسعاً طيلة الارتباط بالخدمة العامة، أن يضع كل إمكاناته في التيسير على الطلاب وتسهيل انتهاء فترات إيفادهم بنجاح.

كرّس حياته، قبل الوظيفة وأثناءها وبعدها، في قضاء حاجات الناس، وفي طلب العلم، حتى صار نسخةً من والده (الشيخ محمد المانع)، ومع ذلك لم يكن للأضواء حيّز في اهتماماته، لم يُصبه أي شكل من أشكال حب الظهور ولفت الأنظار، أو شعور بالأستاذية أو الفوقيّة والتعالي على المبتدئين.

ذلك هو الأستاذ أحمد ابن الشيخ محمد المانع، أحد رجالات التعليم المخضرمين في بلادنا، الذي عُرف أكثر ما عرف، أثناء عمله في الملحقية الثقافية في مصر، بقية السبعينيات وطيلة الثمانينيات والتسعينيات الهجرية من القرن الهجري الفائت.

الأستاذ أحمد (أبو عبدالله)، هو أوسط أبناء الشيخ محمد بن مانع، والده هو العلامة، ذائع الصيت في مديرية المعارف العامة، الذي ولد في عنيزة سنة ١٣٠٠هـ، وتنقل يطلب العلم بين نجد والحجاز والأحساء

وقطر والعراق ومصر، ثم أصبح في عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٥م) مديراً عاماً للمعارف، خلفاً للشيخ محمد طاهر الدباغ مكملاً جهوده المشهودة في نشر التعليم في سائر أنحاء البلاد، حتى سُلِّمت الأمانة إلى خادم الحرمين الشريفين ـ الملك فهد ـ عند تحويل مديرية المعارف إلى وزارة سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م)، في السنة ذاتها التي توفي فيها الملك عبدالعزيز ـ طيّب الله ثراه ـ.

لازم الشيخ المانع (الأب) الأمير فهد بن عبدالعزيز، بصفة مستشار في وزارة المعارف برتبة وكيل وزارة، حتى طلبته حكومة قطر (عام ١٣٧٧هـ) في عهد حاكمها عبدالله بن قاسم آل ثاني وابنه على الإشراف على القضاء والتعليم في قطر.

وقد توفي عام ١٣٨٥هـ، إثر عملية جراحية كانت تُجرى له في لبنان، ودفن في قطر.

خلّف الشيخ المانع (الأب) ثلاثة من الأبناء، وهم عبدالعزيز وعبدالرحمن، وأحمد (موضوع هذا المقال) الذي ولد في حدود عام ١٣٤٧هـ، ورافق والده، يسير على خطاه في طلب العلم والاهتمام بخدمة طلابه، وهو، حقيقةً، من العلماء التراثيين المجتهدين، الذين يمكن للمحقق أن يركن إلى معلوماتهم وإجاباتهم، وبخاصة في الدراسات الجغرافية ومعرفة القبائل وكتب التراث، لدرجة قد يبزّ بها كبار

المتخصصين والأكاديميين، مع أنه، من تواضعه، لا يعدّ نفسه منهم، ولا يضع اسمه في مواضعهم ومراتبهم، وقد قال عنه محمد بن عبدالله آل عبدالقادر في كتابه «تحفة المستفيد»: إنه فقيه محقّق، متخصص في معرفة الكتب ومؤلفيها.

الجميل في حالة الأستاذ أحمد المانع ونظرائه، المتوارين عن الأضواء، العازفين عن الظهور، أنهم ظلوا على صلة بالكتاب والبحث، وذلك بالرغم من أن علاقتهم بالوظيفة قد انتهت، وأن تواصلهم مع الاطلاع والعلم لا يقود إلى ترقية أو نيل درجة أو شهادة، ولهذا يزداد تقديرهم ويعظُمُ إجلالهم.

كان طيلة إقامته في مصر، الحريص على حضور الندوات العلمية، والمشاركة في اللقاءات الثقافية، ومن المواظبين على الصالونات والمنتديات الخاصة (ومنها على سبيل المثال ندوة الأستاذ محمود شاكر الأدبية، رغم انعقادها أسبوعياً بعيداً عن منزله).

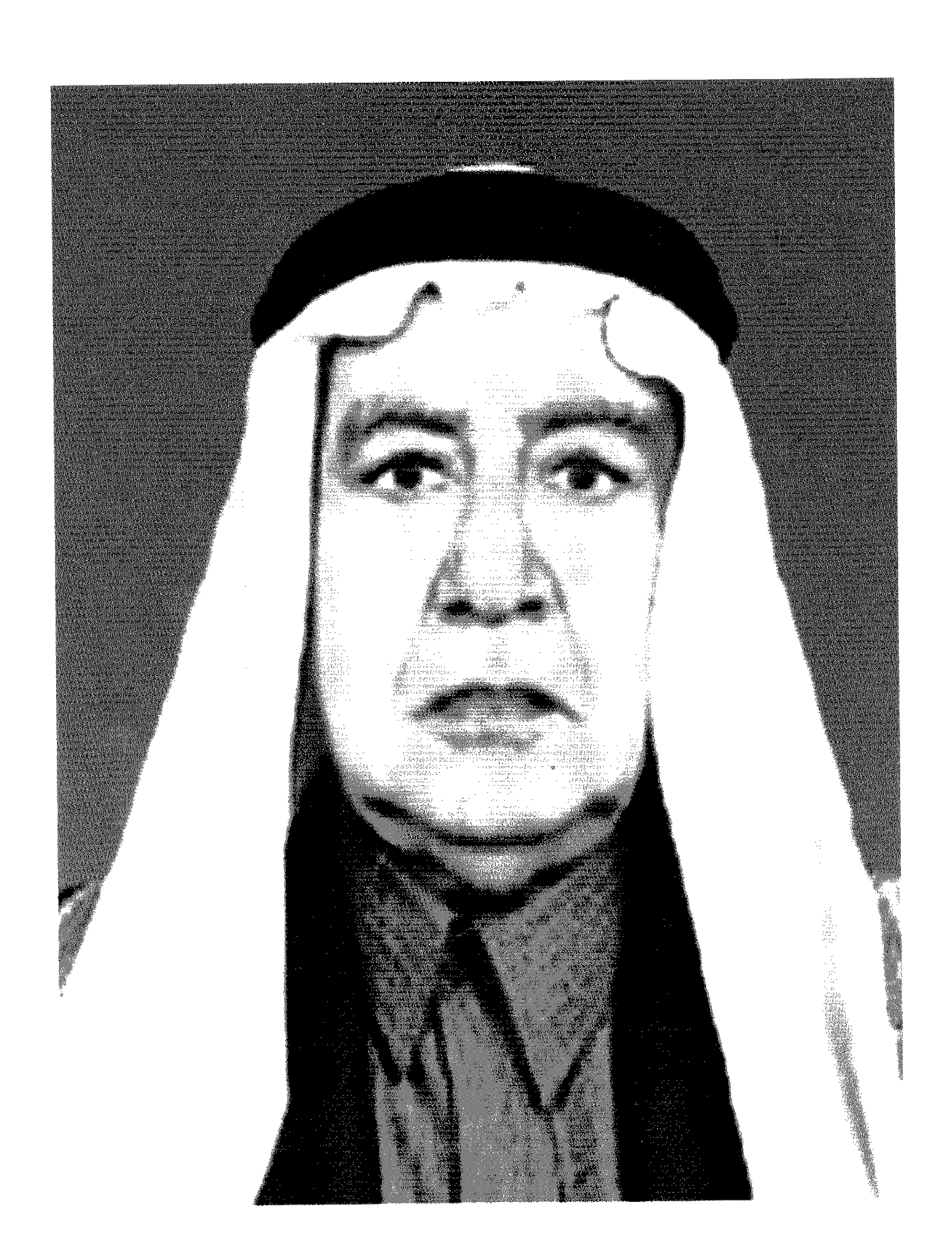
ظلّ الأستاذ المانع طيلة عمله في الملحقية الثقافية السعودية في القاهرة سنداً للمبتعثين، مرناً معهم، سخيّاً بماله الخاص، يستضيف ويسلّف، ويوظّف علاقاته في سبيل تسهيل قبولهم، والحصول على مقاعد ومنح دراسية في الكليات العلمية بالذات، حتى لقد استطاع في أحد الأعوام أن يحصل على (٣٠٠) مقعد للطلبة السعوديين في كليات الطب فقط.

الأستاذ أحمد المانع، متعه الله بالصحة والعافية، له أربعة من الأبناء وبنتان، وإذا كان هناك من رجاء، أتوجه به باسم رجال التربية والتعليم إلى أبي عبدالله، فهو أن يسعى إلى استكمال توثيق جهود والده، وجمع نتاجه العلمي المتناثر، وتدوين سيرته، وتبيين مكانته العلمية، وهي مسؤولية نشاركه ونسانده فيها جميعاً.

(٥)

عبد الله بن علي الحبشي

عكاظ: الإثنين ١ رمضان ـ ١٤٢٤هـ، الموافق (٢٧ أكتوبر ٢٠٠٣م)، العدد (١٣٥٧٥).



«إذا ذكر القطيف، فلابد أن يسجّل اسمه ضمن أبرز رموز مثقفيه ومفكّريه المعاصرين، فلقد ولد في القطيف على ساحل الخليج العربي في حدود عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م) وأقام فترة في العراق، تولّى تحرير مجلة (الغَرِيّ) النجفية فترة من الزمن ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) ثم عاد إلى أرض الوطن سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م)، يواصل اسهاماته في التأليف وفي الصحافة السعودية والخليجية، والغَرِيّ (المثنى الغَرِيّان) أسطورة في التراث العربي لها علاقة بمدينة الحيرة العراقية».

هذا ما كتبته عنه في أحد إصداراتي عن تاريخ الإعلام السعودي، إنه الشاعر والمؤرخ عبدالله بن علي الجشّي، الذي يقيم في القطيف بين قلمه وكتابه، بين الشعر والتاريخ، بعيداً عن بريق الشهرة إلا عند محبيه وعارفيه.

له من دواوين الشعر: الحب للأرض والإنسان، وقطرات ضوء، وغزل، وملحمة «شراع على السحاب» ودواوين أخرى مخطوطة، وله مؤلفات تاريخية منها: الدولة القرمطية في البحرين، وتاريخ النفط في العالم حتى عام ١٨٥٨م، وله من الأولاد ابن واحد (قطيف) وبنت واحدة (يمامة).

اخترت من شعره نماذج من أربع قصائد، كتب الأولى منها عام

١٣٧١هـ (١٩٥١م) في أواخر عهد الملك عبدالعزيز، حين زار القطيف وفد من جامعة القاهرة، بينه د. عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) فأقام أهل القطيف حفل تكريم له، أدرجت فيه قصيدته التي تضمنها أحد مقررات وزارة المعارف آنذاك، وهي مكونة من (٣٠) بيتاً، وهي منشورة في كتاب: أرض المعجزات لبنت الشاطئ، يقول مطلعها:

يا قادة الجيل الجديد تحيَّة
أزكى من الزهر النديّ وأنضرُ

ثم يقول في آخرها:

هذي بلادي في قديم عهودها
عِلمٌ وفنٌ خالدٌ لا يُدثر

أما القصيدة الثانية فقد كتبها لابنته «يمامة» (نشرتها جريدة الرياض يوم ٣٠/٠٥/١٩٩٥م)، وهي بعنوان: «بين اليمامتين» (٣٠ بيتاً) يقول في بدايتها:

طوفي «يمامة» بالجزيرة، حلوة الأنغام نشوى
طيري «يمامة» «لليمامة» فالذُّرى للطير مأوى

إلى أن قال:

كـم «لليمامـة» قصـةٌ عربيـة تُتلـى وتُـروى
حَفَلت بأمجادٍ مخلّدة المعالم مثل «رضوى»

ثم وجد كثيرٌ من القراء في قصيدته (فاتك السراب)، التي نشرت في جريدة الرياض، العدد ٩٥٠٤، في (١٤٠٥/٠١/٢٣هـ) عزماً منه على اعتزال الشعر، فلم يوافقوه، وقد جاء فيها:

لا تقـل لـي بالأمـس كنت مجيـداً
نـــزح الأمــس والزمـــان نـــزوح

إلا أن علاقته الوثيقة بصديقه الراحل حمد الجاسر جعلته يرثيه شعراً بقصيدة عصماء (٥٥ بيتاً) بعنوان (شيخ الجزيرة) يقول فيها:

تلـــد الجــزيرة للفتــوح وتنجـــب
وكـــتائب مـــلء التخـــوم تأهـــبّ
لكـنها وهــي الولــود شـــحيحة
لا منهـــل عـــذب ونبـــت طـــيب

والشيخ الجشّي شاعر وطني مبدع، حمل هموم أمته، وعبّر عن خلجات المتحمّسين من شباب عصره، درس في العراق وكتب في صحافته، وكان على صلة بالبحرين، أسهم في نهضتها، وكُتب عنه في أكثر من (٢٠) مصدراً، وبخاصة تلك التي توثق لأدب الخليج العربي ومثقفيه.

وهو أحد كبار أسرة الجشّي القطيفية، التي ينحدر منها د. جميل الجشّي، وعدد من الأدباء والشعراء والفقهاء وتجار اللؤلؤ في المنطقة الشرقية.

التحق الأديب عبدالله الجشّي بأول عمل له في منتصف السبعينيات الهجرية (الخمسينيات الميلادية) في مصلحة العمل والعمال بالمنطقة الشرقية، ثم واكب تأسيس الوزارة الذي بني على مكاتب العمل في الدمام والرياض وجدة، فانتقل عمله إلى الوزارة، معاصراً أول ثلاثة من وزراء العمل (الأمير فيصل بن تركي «الأول» بن عبدالعزيز، وناصر المنقور، وعبدالرحمن أبا الخيل)، كما ارتبط بصداقة وثيقة مع عبدالكريم الجهيمان وعبدالله بن إدريس وغيرهما، وكان قد أسهم في إنشاء أول مكتبة عامة في القطيف والمنطقة الشرقية.

أقيم له عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٦م) حفل تكريمي في المنطقة الشرقية، شاركت فيه مجموعة من أدباء المملكة والخليج، وهو سيبقى عزيزاً مكرماً من الجميع رفيعاً بأدبه وفكره، ندعو له بمديد العمر مع دوام الصحة واستمرار العطاء[١].

---

(١) كُرِّم في مهرجان التراث والثقافة التاسع عشر في الجنادرية ١٤ محرم ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥/٠٢/٢٣م)، ومنح وسام الملك عبدالعزيز من الدرجة الأولى، وعقدت عنه ندوة فكرية ضمن فعاليات المهرجان، كما كتب عنه المؤلف مقالاً آخر بتلك المناسبة نشرته المجلة العربية في عدد محرم ١٤٢٦هـ (فبراير ٢٠٠٥م).

(٦)

عبد الرحمن بن صالح الحليسي

نشر من جزأين، **عكاظ**: الإثنين ٨ رمضان المبارك ١٤٢٤هـ ، الموافق (٣ نوفمبر ٢٠٠٣م)، العدد (١٣٥٨٢)، وعدد يوم الإثنين اللاحق.



الحديث في هذه الحلقة عن شخصية دبلوماسية لها عبق تاريخي خاص، تُذكِّر بجيل السفراء القدامى، وبقية رموز الدولة الكبار، أو بأولئك الرجال الذين أقاموا علاقات تجارية مع بلدان العراق والشام ومصر والهند، فتعلموا وتفتحت أذهانهم واتسعت مداركهم، أو بأولئك الذين هاجروا وتأثروا بثقافات خارجية، مع محافظتهم على عراقتهم وعاداتهم ولهجتهم.

وهو عندما يتحدث تحس بأنك أمام التاريخ يتكلم، فلا يسعك المقام والمقال إلاّ الإنصات بكل جوارحك، والأخذ بكل تحليلاته، والتسليم من الأعماق بكل ما يورده.

وهو بالرغم مما شاهده وعاشه من ظروف الفاقة وشظف الحياة التي عايشها جيله، وما أدركه من أوضاع معيشية صعبة كانت تعم أنحاء البلاد قبل أن تنعم بالاستقرار والموارد الطبيعية، فإنه مثال جيد على امتزاج الأصالة والمعاصرة في مسكنه وأسلوب حياته، وهو صورة معبّرة للرواد الذين أسهموا في بناء النهضة الإدارية الحديثة في العهود المبكرة لهذه البلاد.

هذه الشخصية العريقة، لا تعرف وسائل الإعلام داره، أو الطريق

إلى بابه، مع أنه من الأكارم، والمتحدث اللبق الجاذب، والعارف بأصول الدبلوماسية والتشريفات (البروتوكول).

لكن أحداً لم ينجح بعد في إقناعه بالإفراج عما تختزنه ذاكرته من أسرار ومحفوظات، والتخلي عن سياسة الصمت والاحتفاظ بكل المعلومات لنفسه وأدراج مكتبته الخاصة ورفوفها العالية.

إنه الشيخ عبدالرحمن الصالح الحليسي، أحد من أعتز بجيرتهم منذ أعوام، وأحد مخازن التاريخ المعاصر المتوارية عن الأضواء، وصاحب التجربة الإدارية والدبلوماسية الثرية.

أبو صالح، ولد في بريدة بالقصيم سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٢م) ودرس الثانوية في مصر، وتخصص في الحقوق من جامعة القاهرة (١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م)، ثم التحق بوزارة الخارجية، وشارك مع وفد المملكة إلى نيويورك (١٩٤٧م) لمناقشة القضية الفلسطينية في الأمم المتحدة، عُيّن بعدها في السفارة السعودية في لندن عندما كان الشيخ حافظ وهبة سفيراً هناك، وكان الشيخ الحليسي يقوم بعمل السفير في بعض الأحيان (قائم بالأعمال) عند غيابه.

وفي مطلع عهد الملك سعود وبداية تشكيل الجيل الثاني من الوزارات أعير الشيخ الحليسي إلى وزارة الزراعة (الجديدة آنذاك) وكيلاً لها،

مع وزيرها الأمير سلطان بن عبدالعزيز، وكانت له إسهامات في جهود تطوير البحث العلمي الزراعي.

وبعد ما يقرب من أربع سنوات في الزراعة، عاد إلى وزارة الخارجية، ليكون أول سفير للمملكة في السودان بعد استقلالها (من عام ١٩٥٧ إلى ١٩٦٠م)، ثم صار سفيراً في إيطاليا، وافتتح وهو في روما أول سفارة سعودية في النمسا، وفي عام ١٩٥٥م وقع الاختيار عليه خليفة لحافظ وهبة، سفيراً لدى المملكة المتحدة، وكان إلى جانب ذلك سفيراً غير مقيم لدى الدنمارك، كما حضر في عام ١٩٦٢م مؤتمر عدم الانحياز في يوغسلافيا.

ثم تقاعد وعاد إلى المملكة في عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) بعد عشر سنوات قضاها سفيراً في بريطانيا وبعد حياة حافلة بالعطاء الإداري والدبلوماسي.

ومنذ ذلك التاريخ، عاد الشيخ الحليسي إلى عشق قديم له في الزراعة، فأنشأ مكتباً استشارياً يباشر فيه أعماله بنفسه، ويتسلّى في وقت فراغه، وأصبح في إحدى الفترات رئيساً لمجلس إدارة بنك القاهرة السعودي قبل اندماجه.

لقد جمع الشيخ الحليسي بين التجربة الدبلوماسية في أعرق مواطنها

بريطانيا وإيطاليا، والتخصص في القانون الدولي والتجاري من خلال دراسته الجامعية، والإلمام بالاقتصاد من خلال متابعة دراساته العليا في جامعة لندن (London School of Economics) أثناء إقامته الأولى.

الشيخ الحليسي، الذي يستقبل زائره بحفاوة بالغة، ولا يسمح له بالخروج من منزله إلا بعد استيفاء كل شروط الضيافة، هو كنز لم يستثمر من ذكريات لم تسجل، وله من الأولاد ابنان هما: صالح وعبدالعزيز، وبنتان هن: هدى وهالة.

يروي د. عبدالعزيز الخويطر في أحاديثه الشفوية وفي ذكرياته المكتوبة طرفاً من مواقف الشيخ الحليسي مع الطلبة المبتعثين في لندن، وكيف كان يمشي في خدمتهم، ويُخضع مقدرات السفارة ومقدّراته لرعايتهم.. ألبسه الله ثوب الصحة والعافية.

(٧)

عبدالله بن عبدالرحمن الملحوق

عكاظ (ط ٢) : الإثنين ٢٢ رمضان المبارك ١٤٢٤هـ ، الموافق (١٧ نوفمبر ٢٠٠٣م)، العدد (١٣٥٩٦)، ثم ظهر في طبعتها الأولى في الأسبوع اللاحق.



شخصية هذه الحلقة خلطة من التعليم والإعلام والدبلوماسية، كان له منها جميعاً نصيب كبير، لكنه بالإضافة إلى كل ذلك كان أحد الشهود الأبرز على ما أصاب هذه البلاد من بلاء الإرهاب بل كان أحد ضحاياه، وإليكم سيرته الذاتية، كما استقرئت من عدة مصادر (مقرّبة) أو منشورة (وهو دأب هذه الحلقات) أو كما ظهر في سجله الوظيفي في وزارة الخارجية.

ولد الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الملحوق في الرياض في مطلع الأربعينيات الهجرية (العشرينيات الميلادية)، وتلقى تعليمه في مكة المكرمة، ثم التحق بالبعثة التعليمية الثالثة إلى مصر، حيث درس في دار العلوم، وكان من زملائه في تلك البعثة: أحمد عبدالغفور عطار، ومحمود عارف، وإبراهيم السويّل، وعبدالله عريف، وعبدالله الخيّال، وعبدالله عبدالجبار.

كانت أولى وظائفه الحكومية المراقبة على مدارس أرامكو ومطبوعاتها وهي وظيفة مارسها في أواسط الستينيات الهجرية (١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٣م)، وكان شاغلها يوفد من الديوان الملكي، وأول من عمل بها الشيخ حمد الجاسر.

ثم صار رئيساً لديوان إمارة المنطقة الشرقية أيام الأمير سعود بن جلوي، وقد عمل فيها نحواً من أربع سنوات (١٣٦٥هـ حتى ١٣٦٩هـ)،

ثم انتقل إلى بيروت ملحقاً إعلامياً (مشرفاً على مكتب الصحافة والنشر في السفارة السعودية في لبنان)، حيث تدرج في عدد من الوظائف الدبلوماسية، ونال عدداً من الأوسمة الرفيعة السعودية ومن الدول التي عمل فيها، فهو في بداية التسعينيات الهجرية (١٩٧٣م)، عُين سفيراً للمملكة في السودان، ثم في الجزائر فاليونان، وقد أحيل على التقاعد سنة ١٤١٧هـ (١٩٩٧م)، وذكر معجم المطبوعات العربية في المملكة للدكتور علي جواد الطاهر، أن للملحوق كتابين هما: (فيصل) عندما كان نائباً للملك في الحجاز، وقد ألفه وهو طالب في مصر (١٣٥٨هـ، ٨٠ ص)، و (السعوديات الكبرى) وقد طبعه في بيروت في (١٥٨ ص)، وهو عن زيارة ولي العهد الأمير سعود إلى لبنان وسوريا والعراق، وكان قد أسس مكتباً في لبنان قبيل عمله هناك، شاركه فيه من عبدالكريم الجهيمان ومحمد عودة (فلسطيني)، وهو المكتب العربي السعودي للتأليف والنشر.

هناك محطات كثيرة ـ كما رأينا ـ في حياة هذا الإنسان الكريم، البعيد عن الأضواء، لكن هذا الحّيز المتاح قد لا يسمح بأكثر من التركيز على محطتين بارزتين:

ـ الأولى: أنه ومجموعة معه، من بينهم عبدالعزيز القصيبي وعبدالله أبو عايشة، كانوا قد عملوا على تأسيس، أول مطبعة في المنطقة الشرقية وهي (شركة الخط للطبع والترجمة والنشر في مدينة الدمام) وقد تزامن

ذلك مع جهد مماثل كان يقوم به الشاعر خالد الفرج في أواخر عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م)، أما لفظ (الخط) الذي اتخذ اسماً لشركة الطبع فهو المدلول الجغرافي لمنطقة القطيف وساحلها (من صفوى والعقير إلى الظهران).

مهد قيام هذه المطابع لبدء الصحافة الأهلية في المنطقة الشرقية، حيث تعاون عبدالله الملحوق وعبدالكريم الجهيمان في إصدار أول هذه الصحف (أخبار الظهران ١/١/١٣٧٤هـ)، وأصدر يوسف الشيخ يعقوب جريدة (الفجر الجديد ١١/٧/١٣٧٤هـ) وتبعهم سعد البواردي في إصدار مجلة (الإشعاع في محرم ١٣٧٥هـ) وعبدالله شباط في إصدار مجلة (الخليج العربي ١٣٧٦هـ) وجريدة (الخليج العربي) بعد ذلك بعام.

وكانت أرامكو سبقت هذه الجهود الفردية بإصدار جريدتها (الشمس والوهج) بالإنجليزية ومجلتها (قافلة الزيت) بالعربية، وقد صدرتا إبّان حياة الملك عبدالعزيز.

ـ أما المحطة الثانية المثيرة في حياة الأستاذ الملحوق، فهي تعرّضه (في مارس من عام ١٩٧٣م) إلى هجوم إرهابي في منزله، عندما كان سفيراً وعميداً للسلك الدبلوماسي في السودان، يقيم حفلاً وداعياً كبيراً لأحد السفراء، فقد هاجمتهم مجموعة ملثمة من (٨) أعضاء من منظمة أيلول الأسود الفلسطينية، واحتجزت اثنين من الدبلوماسيين الأمريكيين والقائم بالأعمال البلجيكي والسفير الأردني والسفير السعودي (الشيخ الملحوق)،

وقد فضّلت زوجته (أم محمد) البقاء إلى جواره بعدما ضمنت الإفراج عن أولادهما.

أسفر الاحتجاز، الذي استمر أربعة أيام، عن قتل عدد من هؤلاء الرهائن وعن الإفراج، بعد اتصالات واسعة، عن السفير السعودي.

وعندما التحق الشيخ الملحوق بعمله اللاحق سفيراً في الجزائر، شهد الفصل الأخير من حادثة الاختطاف الشهيرة التي تعرض لها وزير البترول السعودي الأسبق الشيخ أحمد زكي يماني التي انتهت في الجزائر، أما في اليونان، وهي محطته الأخيرة التي بقي فيها عدة سنوات فقد استهدفته سيارة مفخخة، وهو في طريقه إلى مقر عمله في السفارة، لكن الله شاء له أن ينجو (بأعجوبة) إذ كان قد ترجّل عن سيارته قبل الحادث بلحظات، ليكمل مشواره ماشياً على الأقدام[1].

الشيخ عبدالله، متعه الله في عمره وصحته وأعانه على طاعته، يقيم في مسقط رأسه (الرياض) وله من الأولاد ابن واحد (محمد) وأربع بنات (سارة ونورة ولولوة وسُلاف)، حفظهم الله جميعاً من كل مكروه.

---

(١) صدر مؤلَّف عن دار الساقي في بيروت، لحرمه عصمت الحجّار الملحوق، بعنوان: الدبلوماسية واجهة ومواجهة، تروي فيه تفاصيل تلك الحوادث (٢٠٠٥م).

(٨)

سارة الفيصل بن عبد العزيز

عكاظ: الإثنين ٧ شوال ١٤٢٤هـ ، الموافق (١ ديسمبر ٢٠٠٣م)، العدد (١٣٦١٠).



تنطبق مقاييس هذه الزاوية تمام الانطباق في اختيارها للشخصيات المتوارية عن التباهي في المحافل العامة، وتوثيق سيرتها، على سيّدة سعوديّة عازفة عن الأضواء، نذرت نفسها ومقدّراتها منذ نشأتها لخدمة العمل الإنساني والخيري والاجتماعي، وإفراغ شحنات كبيرة من شحنات الحب والعاطفة التي وهبها الله إياها لرعاية اليتيم والمعاق والفقير.

ليس غريباً في مجتمع التكافل الاجتماعي في بلاد المسلمين عامة، وفي مهد الحرمين الشريفين بخاصة، أن تجد من يكرّس حياته لخدمة غيره من المحتاجين، ولكن القليل النادر من يؤدي ذلك بعيداً عن الأنظار ووسائل الإعلام وبريقها.

وليس جديداً في مجتمع الأسر المخمليّة في الشرق والغرب على وجه العموم، وفي بلادنا على وجه الخصوص، أن يوجد من يهتم بتخصيص جزء معتبر من وقته لأعمال البر، أو للعناية بالمعاقين، أو بتنمية موارد الجمعيات الخيرية، أو بتبنّي مشروعات الإسكان التنموي والشعبي والمخفض، لكن الشخصية التي اختارتها هذه الزاوية، جنّدت نفسها منذ الصغر لكل ما يسمى أعمال الخير بمختلف أشكاله، ووظّفت جهودها - دون مقابل - لتنمية روح التكافل الجماعي وتوجيهه

لخدمة ذوي الحاجة والمعوزين.

أكبر ما يميز سارة الفيصل بن عبدالعزيز، من بين الآثار الكريمة التي غرستها في هذا المجتمع، أنها أسست مدرسة للعمل الإنساني، يتدرّب فيها ويتخرّج منها أرتال من محبي تجنيد الذات في هذا الاتجاه، وأنها أوجدت نموذجاً يحتذى به في بقية المناطق لجمعيات متخصّصة في هذا المجال، وبالفعل أصبحت جمعية النهضة النسائية الخيرية، التي شقت طريقها ورسّخت سمعتها التكافلية الخيرية منذ عام (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م) أكاديمية تعليمية وتدريبية وتأهيلية لتخريج متخصصات في العمل الإنساني بكل فروعه ومجالاته وأشكاله.

لم تكن سارة الفيصل الأولى، وليست الوحيدة في هذا المجال، لكنها كانت رائدة في نكران الذات، وفي استقطاب مجموعة معها من سيدات المجتمع بكل أطيافه، لإدارة هذه الجمعية ـ المدرسة العريقة ـ والإيمان بأهدافها ومقاصدها، والتفرغ جزئياً أو كلياً للعمل فيها وزرع القدوة بين منسوباتها بالتواجد والحضور، حتى صارت الجمعية بالفعل، مثلاً في العمل الخيري الرصين، والبحث الميداني في الأحياء الفقيرة، واستقصاء حقيقة العوز عند بعض الأسر المحتاجة.

لقد علّمنا الزمن، أن التصدي للعمل الخيري حبل طويل وطريق شاق وعمل مضن، يتطلب الدأب ومغالبة النفس وقهر الرغبات، لا تنجح فيه طالبة الوجاهة الاجتماعية، ولابد أن ينبع عن عقيدة راسخة وإيمان أصيل ورغبة صادقة، وجهد متصل لا ينتظر المردود أو الشكران.

وسارة الفيصل ومثيلاتها من وجيهات المجتمع النسائي السعودي اللواتي اقترنت هذه الجمعيات بأسمائهن وثابرن على السهر على رعايتها وعكفن على متابعة شؤونها، لم يكنّ بحاجة إلى مجد أو جاه، من هنا صارت مباشرتهن وعكوفهن على العمل الخيري طيلة هذه العقود أموراً لا تحتمل التأويلات الأخرى، والأحرى بهذا المجتمع بكتَّابه ومسؤوليه، أن يشيد بجهودهن ويعمل على تكريم الرائدات منهن ويبرز تضحياتهن وإنجازاتهن.

لقد أصبحت جمعية النهضة النسائية الخيرية بالرياض، بجهود راعيتها سارة الفيصل وزميلاتها مَعْلَماً إنسانياً حضارياً على مستوى الوطن، ومؤسسة اجتماعية تنموية تقوم على جهود فاضلات متبرعات لا يرتجين إلا جزاء الله الأوفى، وأن تتحقق من خلال هذه الجمعيات أهداف التكافل والبر في المجتمع المسلم المتراحم، وأن يطمئن المواطن إلى مقاصدها وغاياتها الإنسانية.

حيّا الله سارة الفيصل، العاملة بصمت ومثابرة، وحيّا الله كل من سار على خطاها في عمل الخير وتلمّس حاجات الأسرة المعوزة في كل أرجاء الوطن، وأكثر من أمثالها.

ورحم الله والدتها ومعلّمتها (الأميرة عفّت الثنيان آل سعود) التي كانت لها أياد بيضاء معروفة ورائدة في العمل الاجتماعي والتربوي الخيري في وقت الندرة والكفاف وقلة الكفايات.. وكل عام وأنتم بخير.

(٩)

محمد بن ناصر العبودي

عكاظ: الإثنين ١٤ شوال ١٤٢٤هـ، الموافق (٨ ديسمبر ٢٠٠٣م)، العدد (١٣٦١٧).



إنه صاحب الرقم الأول أو يكاد، بين المؤلّفين السعوديين المعاصرين في غزارة الإنتاج والتأليف، فلقد أصدر حتى تاريخه ما ينوف على (١٣٠) كتاباً، مع ما يقرب من (١٠٠) مخطوط تنتظر الطبع.

كان جُلّ تأليفه فيما يسمى أدب الرحلات، فهو لم يُبق بلداً واحداً في العالم - على ما أظن - إلا مرّت عليه قدماه، إذ مكنته وظائفه الحالية والسابقة من أن يجوب الدنيا بجهاتها الأربع وقاراتها الست، يتفقد أحوال الأكثريات والأقليات المسلمة، ثم يبادر فور عودته إلى تدوين معلوماته وانطباعاته، يسجلّ أدق التفاصيل عن عادات الشعوب، ويوثّق أوضاعها، حتى أصبح، بحق، الخبير السعودي الأول بأحوال المسلمين في العالم ومعرفة جغرافية بلدانهم، وصار لديه حتى الآن (١٦٠) كتاباً نصفها مخطوط والنصف الآخر مطبوع في ثقافة الرحلات، بدأها بكتابه (في أفريقيا الخضراء) المطبوع في بيروت سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م).

من بين كتبه المخطوطة على سبيل المثال: ثلاثة عن سيبيريا، وأربعة عن رحلاته في بقية روسيا، وأربعة عن جولاته في جمهوريات الموز، وسبعة عن سفراته في دول البلقان، وثلاثة في رحلات الكاريبي، وثمانية عن أمريكا الجنوبية.. وهكذا، وهو يخص إذاعة القرآن الكريم ببرنامج إسبوعي يروي فيه تجاربه وانطباعاته في تلك الرحلات.

أما المجال الثاني الذي أبدع فيه فهو تراث الأمثال الشعبية والألفاظ العامية، التي تناولها في نحو عشرة كتب، صدر آخرها قبل أيام (كلمات قضت) معجماً من عدة أجزاء للكلمات النجدية القديمة المنقرضة والباقية والمتجددة، ولعل كتابه عن الأمثال العامية في نجد المطبوع في القاهرة عام ١٣٧٩هـ (١٩٥٩م) في خمسة مجلدات هو أقدم مؤلفاته على الإطلاق، وقد قدّمه العلاّمة حمد الجاسر.

إنه في منهجه التأليفي لا يجمع الأمثال والمصطلحات فحسب، لكنه يبحث في أصولها، فيرجع الفصيح منها إلى منبته، ويبين حال الدخيل منها والمعرّب.

ووضع الشيخ العبودي يده بيد الشيخ الجاسر لإصدار المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، الذي شاركت في تأليفه قمم الباحثين، فألف الجزء الخاص ببلاد القصيم، في ستة مجلدات صدرت في سنة ١٣٩٩هـ (١٩٨٠م) مطبوعة في الرياض، وقد أُعيد طبعها بعد عشرة أعوام.

أما المجال الرابع الذي اهتم به فهو الأنساب، حيث يُعد الشيخ العبودي أحد المراجع المطّلعة في معرفة الأسر والقبائل، وبخاصة في منطقة القصيم، وقد وضع كتاباً في هذا الميدان (من عدة أجزاء) بين مخطوطاته العديدة التي تنتظر الطبع، وهو بعنوان «معجم أسر القصيم».

لكن الشيخ العبودي، وهو الأهم، قبل أن يكون رحالة وباحثاً لغوياً ونسّابة ومحققاً جغرافياً، هو رجل تعليم وتربية، والمحتسب الداعي إلى الله، ففي سبيل الدعوة والتبليغ جاب الآفاق، وأسهم في برنامج هذه البلاد لنشر الدعوة المحمدية إلى الخير والمحبة والسلام، وعلى أساس من الرفق واللين وتبسيط الأمور وضرب المثال الحسن، كما ألّف مجموعة من الكتب التي تحمل نفحات من الإيمان وقبسات من سكينة القرآن.

أشرف الشيخ العبودي على الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة لمدة أربع عشرة سنة (بين عامي ١٣٨٠هـ و ١٣٩٤هـ) ثم أصبح أميناً عاماً للهيئة العليا للدعوة الإسلامية، وفي عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) عُيّن أميناً عاماً مساعداً لرابطة العالم الإسلامي، وهو المنصب الذي يشغله الآن.

والشيخ محمد بن ناصر العبودي من مواليد بريدة بالقصيم عام ١٣٤٥هـ وله من الأولاد ثلاثة أبناء هم: ناصر وخالد وطارق وست بنات، والكل من أم واحدة، فأبو ناصر، بالرغم من وجوده في محيط يكثر فيه المعدّدون، يلتزم بالتوحيد ويتمسك به عقيدة ومسلك حياة.

وإذا كان قد فاتني مع الأسف حضور تكريمه في صالون عبد المقصود خوجة (سنة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) وفي نادي القصيم الأدبي (سنة ١٤٢١هـ

ـ ٢٠٠٠م)، فقد أسعدني الحظ بالمشاركة في تكريم الوطن له في مهرجان الجنادرية التاسع عشر.

وفقه الله في حله وترحاله، وأمدّ له في حياته ليواصل جهاده الدعوي وجهده العلمي، وجزاه عما قدّم لدينه وأمته ووطنه خير الجزاء.

(١٠)

محمد بن عبد الرحمن الشيباني

عكاظ: الإثنين ٢١ شوال ١٤٢٤هـ، الموافق (١٥ ديسمبر ٢٠٠٣م)، العدد (١٣٦٢٤).



كان سرور كاتب هذه الزاوية غامراً، وهو يرى شيخه الإداري والإعلامي محمد عبدالرحمن الشيباني في حال من الصحة والحيوية، يحضر في الرياض قبل ثلاثة أعوام زفاف حفيدته، محتفظاً بروحه المرحة المعهودة وبشاشته المعتادة.

عرفت هذا الوجه السمح منذ أيامي الأولى في وزارة الإعلام بجدة قبل أربعين عاماً، في مبناها المجاور لمؤسسة النقد (قرب المطار القديم)، وهو يحظى باحترام زملائه ومرؤوسيه ومحبتهم وتقديرهم.

وهو وُلد ـ حسب إقراره ـ في عام ١٣٣٨هـ (١٩١٩م) في المدينة المنورة، ونال الابتدائية من المدرسة الأميرية فيها، ثم التحق بمدرسة تحضير البعثات في مكة المكرمة، لكن ظروفه المادية أجبرته على الانسحاب منها بعد ثلاثة أعوام، ليتنقّل بعد ذلك بين عدة وظائف بريدية وتعليمية ومحاسبية في إدارة البرق والبريد والمعارف والمالية بين عامي ١٣٦١ و ١٣٦٧هـ (١٩٤٢ ـ ١٩٤٨م).

وبالرغم من قسوة الظروف المعيشية والمناخية في الظهران ـ مقارنة مع الحياة الأنعم في مكة المكرمة والمدينة المنورة آنذاك ـ فإن الحظ قد ابتسم له هناك بعدما انتقل للعمل مراقباً للغة العربية في مدارس أرامكو،

وهي وظيفة يُوفد شاغلها ـ كما جاء في حلقة سابقة عند الحديث عن عبدالله الملحوق ـ من الديوان الملكي، فكان انتقاله للعمل في الظهران (سنة ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٨م) بمثابة نقلة نوعية في حياته الوظيفية، فهناك تعرّف على أمير المنطقة الشرقية سعود بن جلوي، الذي اختاره رئيساً لديوان الإمارة في وظيفة ظل يشغلها سبع سنوات.

وفي المنطقة الشرقية أيضاً، توثقت صلته برئيسه الشيخ حمد الجاسر مراقب عام مدارس أرامكو ومطبوعاتها، فقامت بينهما صداقة متينة امتدت عبر السنين.

ثم شاء الله، أن تُمثّل عودته إلى جدة مرحلة مهمة أخري في حياته الوظيفية، حيث دخل مجال الإعلام من أوسع الأبواب، فعمل في بداية الأمر مراقباً عاماً لشؤون البرامج في مديرية الإذاعة أيام كان الشيخ عبدالله بلخير مديراً عاماً للإذاعة والصحافة والنشر ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م)، ثم أصبح رئيساً لتحرير الجريدة الرسمية (أم القرى) لفترة تقارب ثلاث سنوات (بدءًا من عام ١٣٧٨ وحتى ١٣٨١هـ).

رافق الشيباني الإرهاصات التي قادت إلى تحويل تلك المديرية إلى وزارة سنة ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م)، فَعُيِّن في البداية مستشاراً ومشرفاً على الجوانب المالية والإدارية والفنية، في حين كان حمزة بوقري وكيلاً للشؤون الإعلامية، ثم أصبح الشيخ الشيباني، وكيلاً للوزارة في حين

حلّ فهد بن خالد السديري محل البوقري في عمله المذكور، وظل أبو خضر الشيباني يشغل عمله هذا حتى سنة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م)، حيث تقاعد وفقاً لرغبته، وله من الأولاد اثنان وعشرون (مناصفة بين الذكور والإناث).

وبعد.. ليس من اليسير إيجاز تاريخ الشيخ محمد عبدالرحمن الشيباني في زاوية كهذه، محصورة بين الإعلان والخبر والصور، لكنه إنسان متواضع فاضل، بكل ما تترجمه هاتان الكلمتان من معاني ومفاهيم، وهو ذو ثقافة إسلامية وتربوية عالية، وصاحب مدرسة إدارية ومالية مرنة أسهمت في القفزة الإعلامية التي رافقت تأسيس وزارة الإعلام.

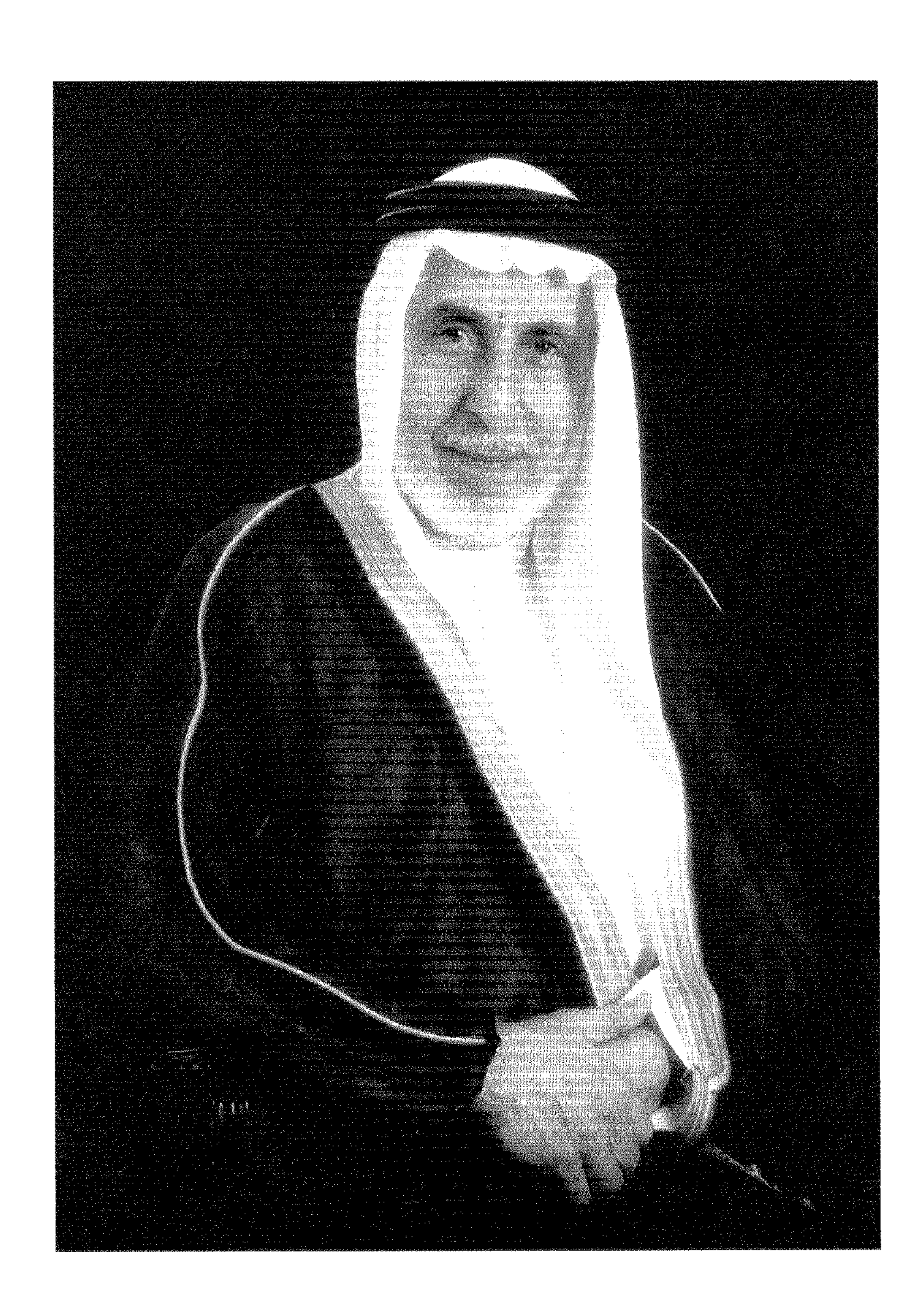
إنه، منذ أن تقاعد، يتخذ من جوار بيت الله الحرام موطناً لإقامته، والتفرّغ للعبادة والتأمل والقراءة، لكن زملاءه وتلاميذه الإعلاميين يطمعون بأن يخصهم بشيء من وقته لتدوين ذكرياته، بارك الله له في جواره، وأبلغه الأجر والثواب.



(١١)

مُقبل بن عبد العزيز العيسى

عكاظ: الإثنين ٢٨ شوال ١٤٢٤هـ ، الموافق (٢٢ ديسمبر ٢٠٠٣م)، العدد (١٣٦٣١).



تتسابق في الذهن قائمة الشخصيات التي تنطبق عليها معايير هذه الزاوية، ممن هم في المقام الأول، بعيدون عن الأضواء، عازفون عنها، رغم عطائهم وخدماتهم في سبيل إنهاض هذا الوطن وتنميته، وممن يعيشون بيننا ولم يسبق لي أن كتبت عنهم في مناسبات سابقة، حريصاً، قدر الإمكان، على أن أكتب عن أحدهم عن معرفة شخصية موثقة.

وصاحب العنوان، هذا الأسبوع، شاعر يقيم في جدة، منذ أن تقاعد عام (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م) عن عمله الدبلوماسي في عدد من البلدان والمواقع والمسؤوليات، وُلد في مدينة عنيزة بمنطقة القصيم في حدود عام ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م) وانتقل مع أسرته إلى الحجاز ودرس الابتدائية في الطائف، كما حصل على الثانوية من مدرسة تحضير البعثات في مكة المكرمة، ثم ابتعث إلى القاهرة سنة ١٣٧٠هـ (١٩٥٠م) حيث نال شهادة الليسانس في الحقوق، والتحق بالعمل الدبلوماسي في وزارة الخارجية، وعمل في لبنان وسويسرا، وله من الأولاد عبدالعزيز وإيمان، كتب عنه د. إبراهيم الفوزان في كتابه عن الأدب في الحجاز، وعبدالكريم بن حمد الحقيل في كتابه عن شعراء العصر الحديث، وصالح جمال في كتاب: وحي البعثات السعودية، ود. علي جواد الطاهر في كتابه: معجم المطبوعات في المملكة، وعبدالعزيز الرفاعي في المكتبة الصغيرة، كما أوردت مجلة

(المنهل) ترجمة لحياته، وحوى معجم عبدالعزيز البابطين عن شعراء العرب نبذة عن حياته، وتناول شعره كثير من المحللين والناقدين ومنهم عبدالله بن إدريس ومحمد العامر الرميح ود. أحمد الضبيب.

صدرت له مجموعة من الدواوين الشعرية منها: قصائد من مقبل العيسى ١٣٩٢هـ (١٩٧١م)، وديوان غربة الروح (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م) تقديم د. أحمد الضبيب، والهروب من حاضر، الذي أصدره سنة (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م) أيضاً، كما نشرت المطبوعات الصحفية المحلية كثيراً من شعره ونثره، وكان من أقدم ما عثرت له قصيدة في تحية الملك عبدالعزيز مطلعها: (أقبل فها أم القرى مزدانة) نشرتها الجريدة الرسمية أم القرى (١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م).

قيل عن شعره: إن فيه مسحة من التشاؤم، وإن جلّه في موضوعات قومية ووطنية وغزلية، وإن أقدم قصيدة له قد نظمها في مطلع الستينات الهجرية (الأربعينيات الميلادية)، وإنه نهج بشعره نهج الشعراء المحدثين.

وقال عنه د. الضبيب في تقديم ديوانه غربة الروح: «**إنه ديوان شعر جيد، يصدر في وقت بَعُدَ العهد فيه بيننا وبين الشعر الجيّد، أحسست أنني بإزاء شاعر ذي كلمة واضحة وجرَسْ هادئ، وألفاظ تستمدد جذورها من تراث العرب الأصيل**»، ثم استشهد د. الضبيب من لمحات شعره الرقيقة بأبيات من قصيدة نظمها في نكسة سنة ١٩٦٧م يقول في مطلعها:

أختـاه مـا ـ أقسـاه مـن قَـدَرٍ   أن يفقـد الإنسـان مـا أغلـى
حسب القضا أن تخسري وطنا   في غـربةٍ أو تصبحـي ثكلـى

كما يستشهد من شعره في الغزل العذري الرقيق النابع من خصال المروءة والعفة من قصيدة يقول فيها:

تبت يدي إن لامستْ لي صبوة   يمناي أو قتل الظما لي مذهبي
لي من صفات المؤمنين شـمائل   لسوى طريق المؤمنين لم تتعصبِ

واقتبست هذه الزاوية من ديوانه (الهروب من حاضر) بيتين من قصيدة بعنوان (شيخ الصحافة) قالها بمناسبة تكريم أحمد السباعي سنة (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م):

يا عاشق الحرف كم تحلو الدُّنا بيدٍ   للصالحات وكم تشقى بصنع يدِ
لئن جفاك نجوم كنت تلهمها   فلن تهون على الأقمار في بلدي

ويقول من قصيدة له بعنوان: لك الله يا شعب العراق (١٩٩٠م):

لك الله يا شعب العراق أترتضي   حروبـاً وأنت الثاكل المغلـولُ
وحظك منها ثاكل ومعذب   بجـرح وعجـز دائـمٍ وفلـول

إلى أن قال:

تبصَّر، فربعي في الجهاد كتائب   لنصر وماضي الرافدين دليل

ويبدو أن للشاعر تجربةً مع الشعر العامي، إذ عثرتُ له على قصيدة من (١٦) بيتاً، كتبها بتاريخ ١٤٠٥/٣/١٥هـ (١٩٨٤/١٢/٧م)، موجهة إلى أمير منطقة الجوف عبدالرحمن بن أحمد السديري بمناسبة صدور ديوانه (القصايد) يقول في مطلعها:

الله، على شقٍّ صخيّ الوسايد ... في نقرةٍ تهدى نسايم عليله
في نقرةٍ للجوف ما هي صهايد ... تشوي ملامح طارشٍ في مقيله

حيَّا اللَّه مقبل العيسى، فهو وإن توارى عن الأضواء، يظل نجماً مضيئاً في سماء الحركة الثقافية السعودية، ورمزاً له مذاق خاص، من رموزها التي نالت الاحترام والإكبار، لأدبه وعزة نفسه وفكره المستنير[1].

(١) توفي، رحمه الله، يوم الإثنين ١٤٢٦/٠٢/١٨هـ، وقد رثاه المؤلف بكلمة منشورة في جريدة الجزيرة (الجمعة ١٤٢٦/٠٢/٢٩هـ الموافق ٢٠٠٥/٠٤/٠٨م، العدد ١١٨٨٠)، وكتبت نويّر العنزي، الدَّارسة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية رسالة ماجستير عن شعره.

(١٢)

مُحَمَّد المرشِد الزغيبي

عكاظ: الإثنين ٦ ذو القعدة ١٤٢٤هـ، الموافق (٢٩ ديسمبر ٢٠٠٣م)، العدد (١٣٦٣٨).



ومن الشخصيات المتوارية عن الأضواء، الممعنة في نكران الذات والتواضع رغم ما احتلته في يوم من الأيام من مكانة إدارية وسياسية واجتماعية رفيعة، وما تحتله اليوم في أفئدة عارفيها من سمعة وتقدير واحترام، هو الشيخ محمد المرشد الزغيبي، الذي يتحلق في دارته بحي الحمراء بجدة مساء كل يوم جَمْعٌ من زملائه وعارفيه ومحبيه، تتبلج أساريره لرؤيتهم، فيفتح لهم قلبه وبيته لاستضافتهم وحواراتهم ويضفي عليهم من كرمه ومحبته وإنسانيته مناخ الألفة والصفاء.

أبو مرشد، كما يعرف عند الجميع، هو من أسرة الزغيبي من عنيزة في القصيم، التي اشتهر منها العالم الفاضل خاله الشيخ صالح بن عبدالله الزغيبي إمام المسجد النبوي وخطيبه لمدة «٤٠» عاماً في أواخر عهد الأشراف ومطلع الدولة السعودية في المدينة المنورة، والمتوفى عام ١٣٧١هـ وقيل ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م).

كما عرف من هذه الأسرة الكريمة محمد بن إبراهيم الزغيبي الذي تولى خفر السواحل في بدايات الدولة السعودية في الحجاز أيضاً (١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م).

ولد محمد المرشد الزغيبي - شخصية هذا المقال - في حدود عام

١٣٣٠هـ (١٩١٢م) في عنيزة، ثم درس في المدينة المنورة، والتحق بأول عمل له في خفر السواحل، في أثناء فترة ابن عم والده محمد الإبراهيم الزغيبي، ثم استمر فيها في أثناء فترة سليمان النانيه الذي تولى إدارتها في حدود عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م).

ثم انتقل عام ١٣٥٨هـ إلى الشعبة السياسية في الديوان الملكي، التي كانت تعد المطبخ السياسي الأهم في الدولة، أو وزارة الخارجية المصغرة المرافقة للملك عبدالعزيز في حله وترحاله، فعمل فيها في أوج عصرها الذهبي في الخمسينيات والستينيات الهجرية (الثلاثينيات والأربعينيات الميلادية)، وكان يرأسها يوسف ياسين ويساعده رشدي ملحس، ومن زملائه عبدالعزيز بن معمر، وعبدالله بن إبراهيم بن معمر، ومحمد العبدالرحمن الشبيلي، وعبدالرحمن المطلق، وعبدالله بن عبدالعزيز التويجري، وعبدالله بن عبدالمحسن التويجري، ومحمد العُمري، وطاهر رضوان.

عني الزغيبي بتنظيم أرشيف الشعبة السياسية، بما تضمه من معاهدات واتفاقيات ومخاطبات دولية ومحلية، ويبدو أنه التحق خلال تلك الفترة بدورة في مصر جعلته أحد المتخصصين القلائل في مجال التوثيق.

وقد نقل خبرته هذه معه إلى وزارة الخارجية عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٦م)،

فأشرف على فهرسة وثائق هذه الوزارة التي تلي الديوان الملكي في أهميتها، وتعد أولى الوزارات.

وفي منتصف السبعينيات الهجرية (١٩٥٥م)، عُين الشيخ الزغيبي وزيراً مفوضاً في السفارة السعودية في القاهرة مع الشيخ إبراهيم السليمان العقيل، ثم خلفه في شعبان ١٣٨٠هـ (مطلع عام ١٩٦١م) سفيراً فيها.

وفي ٩/١٠/١٣٨١هـ (مارس ١٩٦٢م) اختير الزغيبي وزيراً للمواصلات خلفاً للشيخ عبدالله السعد القبلان، وبقي فيها حتى ٣/٦/١٣٨٢هـ (أكتوبر ١٩٦٢م) حينما خلفه الشيخ محمد عمر توفيق.

محمد المرشد الزغيبي هو والد كل من مرشد وأحمد وعبدالوهاب وخالد ويوسف وليلى ومها، وهو صاحب سيرة عطرة، وشخصية ودودة محببة، تشجع على قول ما هو أكثر، لكنه الحيز المحدود الذي يضيق عن قول كل ما في الخاطر، منَّ اللّه عليه بالعفو والعافية.

(١٣)

عبدالله عثمان القصبي

عكاظ: الإثنين ١٣ ذو القعدة ١٤٢٤هـ، الموافق (٥ يناير ٢٠٠٤م)، العدد (١٣٦٤٥).



صاحب قلم صريح، ورأي اصلاحي مستنير، يتوارى عن الأضواء منذ أعوام في مزرعته، بين مكة المكرمة والطائف، يفلح ويقرأ ويتأمل، ولعله يكتب، بعد أن فرّغ نفسه من صخب معدات المقاولات، ومعاناة المراجعات، وصداع المناقصات، وما يستتبعها من منغصات.

الشيخ عبدالله عثمان القصبي، هو من جيل من النجديين النازحين، من أهالي سدير والوشم والزلفي والقصيم الذين قطنوا جنوب العراق لمدد متفاوتة، في فترات مختلفة منذ أوائل القرن الفائت أو قبله، هاجر آباؤهم، وولد الشباب منهم هناك، فنهلوا من علوم حديثة لم تكن تتوافر في كتاتيب هذه البلاد القائمة عند تأسيسها.

كانت هناك ـ بخاصة ـ مدرسة مشهورة في الزبير اسمها «النجاة» أسسها الشيخ محمد أمين الشنقيطي سنة ١٣٣٨هـ (١٩١٩م)، وخرَّجت كثيراً ممن قادوا الحركة التعليمية والثقافية فيما بعد في مدارس القصيم وسدير والأحساء والكويت والبحرين وقطر وغيرها.

فمن المتقدمين الذين درسوا في مدارس جنوب العراق شخصيات مثل المشايخ: محمد بن مانع وصالح بن ناصر الصالح وعبدالعزيز العتيقي ومحمد بن ضاوي وعبدالمحسن أبابطين.

ومن المحدثين شخصيات مثل: السفير محمد الحمد الشبيلي وعبداللطيف أبابطين والدكتور صالح حمدان الحمدان والدكتور عبدالرحمن السويلم والمهندس عبدالمحسن السويلم والشيخ عبدالرحمن أبا الخيل والشيخ عبدالله القصبي وعدد من آل البسّام وغيرهم.

الأستاذ القصبي ولد في الزبير في أوائل الأربعينيات الهجرية (١٩٢٢م) ودرس الابتدائية والثانوية في العراق، وحصل على ليسانس الآداب والماجستير في الصحافة من جامعة القاهرة سنة ١٩٥٧م، وتنسب أسرته إلى بلدة «القصب» المعروفة في إقليم الوشم، شمال غربي الرياض قريباً من شقراء، وتسمى العائلة «آل قاسم».

أسهم مع الأمير طلال بن عبدالعزيز في تأسيس وزارة المواصلات وشارك في وضع هيكلها التنظيمي الأول عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م)، وكان من بين اهتماماته في الوزارة أمور السكك الحديدية، وقد تلقى دورة تدريبية في بريطانيا في إدارتها، ثم عين بعد حين مديراً عاماً لمصلحة الطرق، ثم رئيساً لبلدية جدة.

وبعد استقالته، عمل مديراً لمؤسسات عبدالله هاشم ثم أصبح مديراً عاماً لمؤسسة المدينة الصحفية لفترتين، وكان أحد أعضائها المؤسسين وأحد كتّابها المبرزين في تلك الفترة.

ومازلت أذكر سلسلة مقالات جريئة ناقش فيها وضع المؤسسات الصحفية بوجه خاص، والإعلام السعودي بشكل عام، في مطلع التسعينيات الهجرية (السبعينيات الميلادية)، نشرها في جريدة المدينة المنورة في حينه.

ثم برز اسم الشيخ عبدالله القصبي بوصفه واحداً من أبرز المقاولين السعوديين في مجالات التشييد والطرق والإنشاءات، وذلك في أعقاب تكوين مؤسسته (كرا) في عام ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م)، التي نفذت عدداً من مشروعات المشاعر المقدسة وأنفاقها، كما تولى رئاسة مجلس إدارة شركة مكة للإنشاء والتعمير، وعدد آخر من الشركات، وكان في بعض آخر عضواً في مجالس إدارتها.

ثم أدخل مؤسسته (كرا) في مجال الصناعة والتعدين، فحصلت على مجموعة من الامتيازات، مما جعله يتجه قبل أربعة أعوام إلى تفريغ نفسه وتركيز نشاطه على تطوير أعمالها بالتوجيه والإشراف العام، ولولا أن «أبا ماجد» قد حقق نجاحات مشهودة في مجال الأعمال، لكان الظن أنه أقرب إلى العمل الفكري الثقافي الذي لا يسمح أحياناً بأي منافسة من نوع آخر، لكنه الدليل على ما يتميز به الشيخ القصبي من ذهن متفتح وكفايات متنوعة.

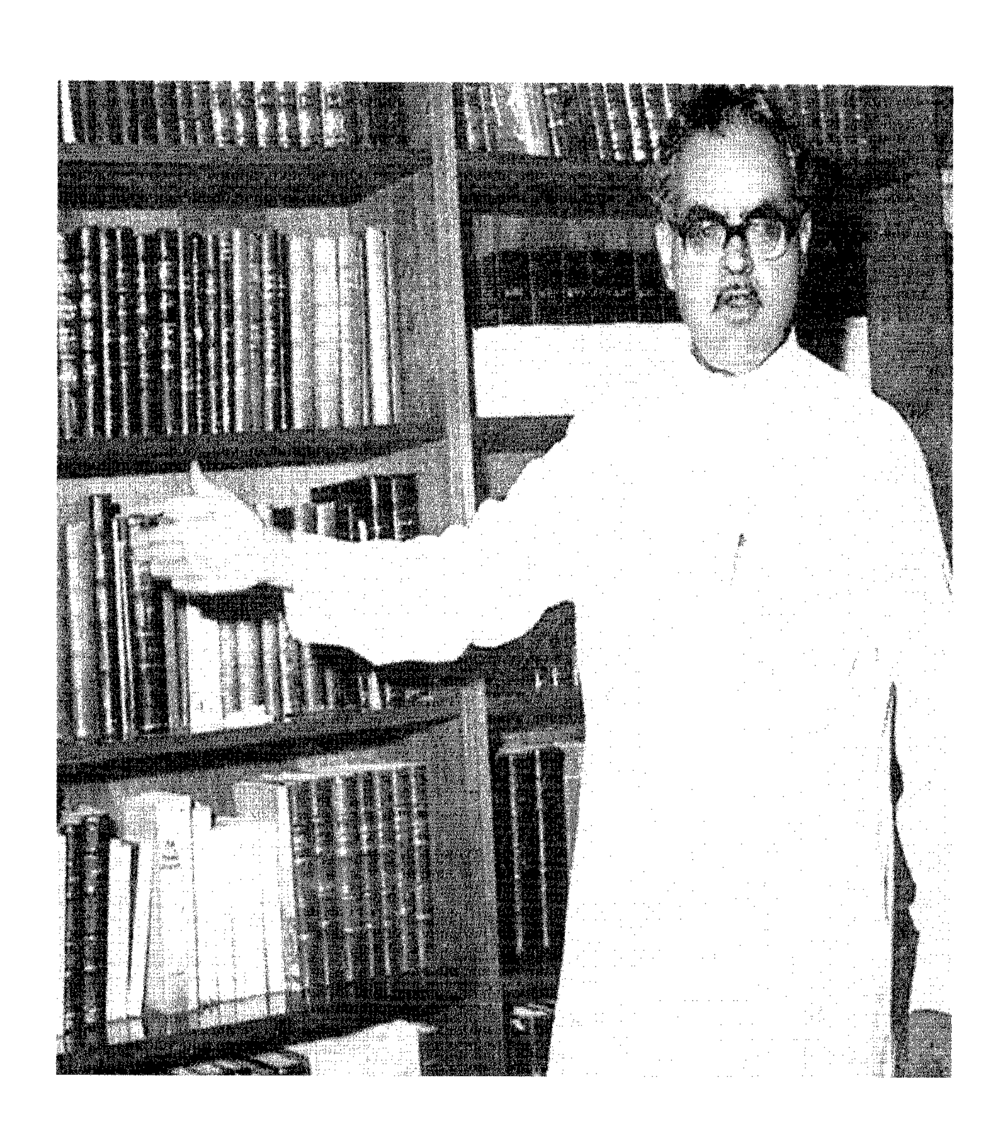
شخصية هذا المقال هو والد د. ماجد القصبي وإخوانه أسامة ومنى ومي، وعلى صحافتنا، وبخاصة جريدة المدينة، التي خدمها بقلمه ورأيه

وإدارته أن تخرجه من عزلته، فهو والحمد لله مايزال متوقد الذهن، واضح الرؤية، ومجتمعنا هو أحوج ما يكون في هذه الفترة بالذات إلى كل من يمتلك الفكر واللسان والقلم للإسهام في صونه وتنويره.

(١٤)

د. عبدالله بن ناصر الوهيبي

عكاظ: نشر في جزأين: الإثنين ٢٠ ذو القعدة ١٤٢٤هـ ، الموافق (١٢ يناير ٢٠٠٤م)، العدد (١٣٦٥٢)، وعدد يوم الإثنين اللاحق له.



من بين قائمة الشخصيات العازفة عن الأضواء، التي مر ذكرها، لا أحد حيرني صمته وعزلته مثل الدكتور عبدالله بن ناصر الوهيبي، حتى كاد يفتقده المجتمع الثقافي والتعليمي، بالرغم من أنه سليل علم، ومؤرخ ومتابع، وأستاذ كبير في التراث والأدب العربي، ويمتلك مكتبة ثرية عامرة.

أبو ناصر، كما يميزه بهذا اللقب محبوه وعارفوه، يقبع في دارته بحي الربوة في مدينة الرياض، يأنس بزيارة أصدقائه وأقاربه مساء كل يوم، فيستمعون إلى طرفه وتعليقاته ويستمتعون بأحاديثه وذكرياته، ويستفيدون من علمه ومخزون مكتبته.

هو في الاعتبار والعلم أشبه بالعمدة في حيّه يسعى لتطويره ويتابع شؤونه ويهتم بجيرانه ويقوم بواجباته الاجتماعية خير قيام.

وهو المتابع للحركة الثقافية وللجدية في نتاج الطبع والنشر، والحريص على حضور ندوة أستاذه الشيخ حمد الجاسر ضحى كل يوم خميس، والعالم الذي لا يبخل بمعرفته بل يتبنى حاجة الباحثين حتى يلبيها ويحققها لهم دون منّة أو جلبة أو تظاهر، وهو المرجع، بتواضع، لمن تعترضه مشكلة أو معلومة ناقصة، أو العثور على كتاب نافد، أو خلاف علمي تراثي.

فهو وإن احتجب عن التظاهرات الاجتماعية والثقافية، فإنه لا يحجب نفسه عن خدمة الباحثين، أو متابعة ما يدور في الساحة الثقافية والتراثية

من مستجد، أو قديم مبعوث من جديد.

أبدأ بالتعريف بوالده المولود سنة ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م) في رياض الخَبْراء بالقصيم ودرس في المدينة المنورة، ثم التحق بفرقة الهجانة وارتحل معها إلى ضبا، وصار قاضياً فيها ثم نقل إلي قضاء تبوك فأملج فينبع، ثم الطائف، عين عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٨م) في رئاسة القضاء بمكة المكرمة، ثم أصبح مستشاراً في ديوان المظالم بعيد تأسيسه على يد الأمير مساعد ابن عبدالرحمن في عهد الملك سعود، وانتهى به المطاف نائباً لرئيس الديوان إلى أن توفي عام ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م).

أما بالنسبة لشخصية هذا المقال د. عبدالله بن ناصر الوهيبي، فقد ولد عام ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) في رياض الخَبْراء أيضاً، ودرس في كتَّابي عمّه وعمّة أبيه، ثم لحق بأبيه في أملج، ودرس فيها الابتدائية، وعمل كاتباً في محكمة البلدة مع والده، ثم تنقل معه إلى ينبع والطائف ومكة المكرمة، حيث ترك الوظيفة والتحق بالمعهد العلمي السعودي ثم بمدرسة تحضير البعثات.

ثم ابتعث إلى مصر عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م)، وبعد أن سجل للماجستير بعد نيل البكالوريوس أجبره مرض والده على العودة ليكون إلى جواره، فالتحق بسلك الإدارة التعليمية في وزارة المعارف، وانتهى به الأمر أميناً عاماً لجامعة الملك سعود في بداياتها.

وقد تهيأت له الفرصة بعد وفاة والده لاستئناف البعثة إلى جامعة لندن، حيث نال الدكتوراه في الأدب العربي عام ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م).

كان يقيم في «كمبردج» على بُعد ساعتين من لندن، لكنه قبل افتتاح الملحقية التعليمية في بريطانيا لرعاية المبتعثين، ورغم بُعده عن لندن، يبذل نفسه وماله لاستقبال الموفدين الجدد، وتذليل سكنهم وقبولهم، وقد أورد الأستاذ عبدالعزيز الذكير كاتب زاوية «نافذة الرأي» اليومية في جريدة الرياض قصيدة نبطية قالها الشاعر المعروف سعد العبدالعزيز السليم عندما زاره في كمبردج يقول فيها:

ويش كمبردج لولا حمد والوهيبي

حريمها عجز على بسكليتات

يقصد حمد العبدالله العلي الزامل والدكتور الوهيبي.

جاءت أطروحته حول كتابات الجغرافيين العرب عن شمال الحجاز حتى القرن الرابع الهجري، طبعت في بيروت بنصها الإنجليزي، عن دار الرسالة ١٩٧٣م، (٥٠٠) صفحة، مهداة إلى صديقه معالي الشيخ ناصر المنقور.

وبعودة أبي ناصر إلى أرض الوطن، عاد إلى الجامعة أميناً عاماً لها، ثم طلب التفرغ للتدريس، وتقاعد مبكراً عام ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).

للدكتور الوهيبي أبحاث معمّقة في مجال تخصصه، نشرها في دائرة المعارف الإسلامية، وفي مجلة (العرب) لشيخه حمد الجاسر، وفي غيرهما

من الدوريات العلمية العربية «وكان مما اطلعت عليه من أعماله استدراك على كتاب المناسك الذي كان الشيخ الجاسر يرجّح نسبته للحربي، فقد رأى الوهيبي أن اسم الكتاب هو: منازل الطريق، وأنه للقاضي وكيع، مجلة العرب، محرم ١٤٠٥هـ».

وكان من أبرز خدماته المجتمعية ذات المساس بطبقة واسعة من المحتاجين رئاسته لمجلس إدارة بنك التسليف الزراعي ولمجلس إدارة الصندوق العقاري في فترة من الفترات، كما كانت له آراء رصينة في قضايا اجتماعية عدة، ومشاركات نيّرة أصيلة، لكنه تدرّج من الإقلال إلى ما يشبه الإقلاع عن نشر إسهاماته، في وقت تحتاج البلاد إلى آرائه وأمثاله وأصواتهم وأقلامهم، فهل يا تُرى سيظهر بعد هذا المقال من يُخرج لنا «أبا ناصر» من صمته واختفائه؟.

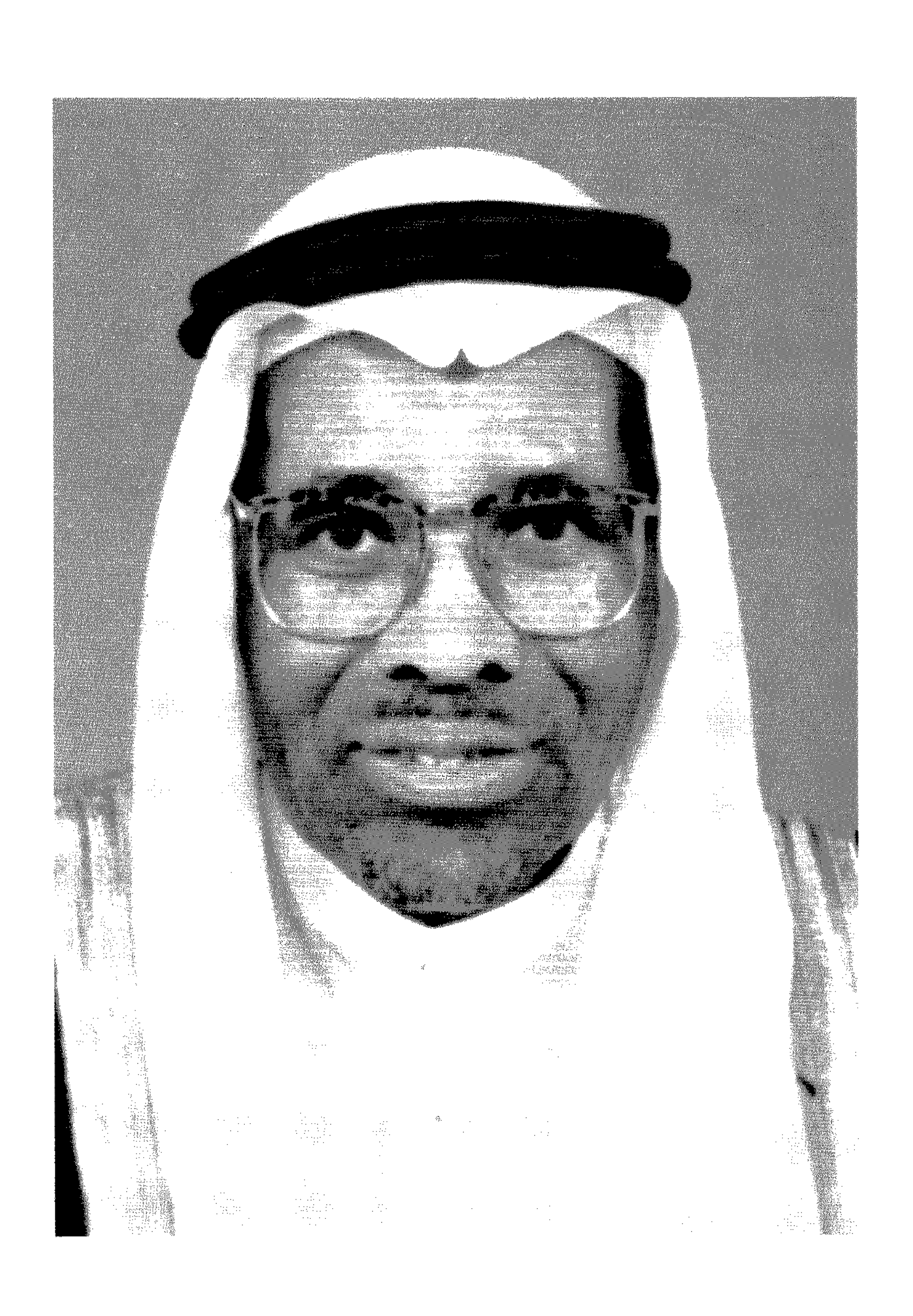
أسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وأبقى نور داره - كعادته - مضاء ليستمر مشعلاً للباحثين وموئلاً للقاصدين والمحبين[1].

(١) توفي خارج المملكة، ونقل جثمانه إلى الرياض ودفن فيها يوم الخميس ٢٥ ذي القعدة ١٤٢٥هـ (٢٠٠٥/٠١/٠٦م)، وللكاتب مقال يرثيه نشرته جريدة الشرق الأوسط في اليوم نفسه، كما خصصت خميسية الشيخ حمد الجاسر «ضحوية» يوم ١٤٢٦/٠١/٠٧هـ - ٢٠٠٥/٠٢/١٧م، تحدث فيها الحاضرون عن مآثره.

(١٥)

د. أحمد محمد علي

عكاظ: الإثنين ٤ ذو الحجة ١٤٢٤هـ ، الموافق (٢٦ ينايـر ٢٠٠٤م)، العدد (١٣٦٦٦).



جرّه عالم التنمية في العالم الإسلامي وشؤون اقتصاده، حتى كاد المجتمع ينسى أنه، تاريخاً وممارسة، ومن رأسه إلى قدميه، رجل تربية وتعليم، ولولا أن في وظيفته، رئيساً للبنك الإسلامي للتنمية منذ ثلاثة عقود، خدمة للإسلام والمسلمين، لكان التعليم إليه أحوج وهو منه أقرب وفيه أنفع[1].

لكن شخصية هذه المقالة، وقبل الحديث عن جوانب من سيرة حياته، إنسان تنطبق عليه معايير هذه الحلقات أشد الانطباق، فهو من ناحية، أمضى زهرة شبابه وبإخلاص في خدمة بلاده وأمته، ثم إنه رجل فاضل، يؤدي عمله بعيداً عن المظاهر والأضواء، ولولا أن مناسبة الحج السنوية، تذكّر الناس بعلاقة البنك بقضية الهَدي والفدية، لظننت أن الناس في جدة، وهم الأقرب إليه، لا يعرفون عن البنك ورئيسه الكثير.

لكن الهيئة التعليمية والطلاب، في وزارة التربية والتعليم وفي جامعة الملك عبدالعزيز، يذكرون فضله وخدماته الجليلة التي أسداها لهذه المؤسسات في فترة السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات الهجرية، مما سجّله له تاريخ التعليم وبقي محفوراً في ذاكرته، وبما لا يسمح لعالم

(١) منح جائزة الملك فيصل العالمية في خدمة الإسلام (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م).

البنوك والتنمية أن يمسحه أو يخفيه حتى وإن اندمج فيه وغاص في أعماقه.

ولد الدكتور أحمد علي في المدينة المنورة سنة ١٣٥٢هـ (١٩٣٤م) ودرس الثانوية فيها، ثم نال شهادتين جامعيتين في التجارة والحقوق من جامعة القاهرة في سنتي ١٣٧٦ و ١٣٧٨هـ (١٩٥٧ و ١٩٥٩م).

ثم أضاف تخصص الإدارة العامة «مع التركيز على الإدارة المالية» إلى سلة تخصصاته المتنوعة، فنال فيه درجتي الماجستير والدكتوراه من جامعتين أمريكيتين مرموقتين، وكانت أطروحة الدكتوراه دراسة مقارنة لنظامي الرقابة المالية في المملكة وولاية نيويورك.

كان الدكتور أحمد قد تقلّب في مناصب تعليمية عدة في وزارة المعارف منذ أن حصل على شهادته الجامعية الأولى، ثم أصبح رئيساً بالنيابة لجامعة الملك عبدالعزيز، بعد أن تحوّلت من جامعة أهليّة إلى حكومية، ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م)، وبعد أن حصل هو على الدكتواره، ثم خلف د. محمد عبده يماني في وكالة وزارة المعارف للشؤون الفنية ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م) ولمدة ثلاثة أعوام حين أصبح أول رئيس للبنك الإسلامي للتنمية، الذي أنشئ تحت مظلة منظمة المؤتمر الإسلامي، ليكون البنك ذراعها في تنمية الدول الأعضاء اقتصادياً، متخذاً من جدة مقراً له.

لبث د. أحمد علي رئيساً لهذا البنك الإقراضي، الذي تسهم المملكة بجزء كبير من رأسماله، لمدة عشرين عاماً، اختير بعدها أميناً عاماً لرابطة العالم الإسلامي ولمدة عامين ١٤١٤ ـ ١٤١٦هـ (١٩٩٣ ـ ١٩٩٥م) عاد بعدها إلى رئاسة البنك وحتى تاريخه.

ومع أن المعروف أن طبيعة عمل البنك تقتصر على التواصل مع الحكومات، لكنه منذ عدة أعوام تصدى لمشكلة كانت مدار البحث عن مُنقذ وحلّ، ألا وهي مشكلة الهدر الاقتصادي للحوم الهدي والفدى في موسم الحج، حيث كانت تُسفك وتتُرك في مِنى، مصدراً من مصادر التلوّث والأمراض، فتبنى البنك بالتعاون مع شركة الراجحي المصرفية وأمانة العاصمة المقدسة، تنظيماً جيداً يكفل الاستفادة من هذه الثروة، ويصرفها لمستحقيها في سائر أنحاء العالم الإسلامي، تتكفل المملكة بجزء كبير من أعباء تنفيذه، ويُنسب الفضل فيه بعد الله إلى اهتمامه ومتابعته الشخصية.

جزاه الله عما قدّمه لوطنه الإسلامي الكبير خير الجزاء، وأمدّ في حياته كي يواصل هذا البنك الفاعل المؤثر خدماته الإيجابية في زمن فقد المسلم ثقته في كل مؤسسة مشتركة، هذا البنك، التنموي في خدماته، وبرئيسه الإنساني، الذي لم يسلم من هجمة العداء الغربية على تشويه كل ما هو خيري.

أما على الصعيد الأسري، فإن للدكتور أحمد ابناً واحداً وأربع بنات، لكن ما لا يعرفه الكثيرون، أن إنسانية هذا الرجل قد شملت الطير فهو السعودي الوحيد ـ على ما أظن ـ الذي ينتمي لجمعية مراقبة الطيور العالمية، يمضي الساعات على شواطئ المملكة، ينظر في هجراتها وعاداتها، ويتأمّل في قدرة خالقها، إنه نموذج حي لنزاهة اليد والاستقامة الشخصية ونكران الذات، نتمناه شائعاً في مجتمعنا .

(١٦)

عبد الرحمن عبد القادر فقيه

عكاظ: نشر في جزأين: الإثنين ١١ ذو الحجة ١٤٢٤هـ، الموافق (٢ فبراير ٢٠٠٤م)، العدد (١٣٦٧٣)، وعدد اليوم اللاحق له.



تخطر على البال صورة هذا الرجل، كلما مرّت العين على عرفات الله، أو كلما طاف في الذهن خيالها، فهو أحد النماذج المعاصرة للقادرين الذين وهبهم الله ثروة، فوظّفوها في بلدهم، واستشعروا واجب حمدها في رعاية ضيوف الرحمن وإكرام وفادتهم وسقياهم، دون بهرجة أو دعاية أو إعلام.

ساند عبدالرحمن فقيه جهود الدولة في خدمة الحرمين الشريفين، وأسهم بنصيب الفرد في بعض مشروعات أصيلة ونافعة، كسقيا الحجاج، وتشجير عرفات وتلطيف أجوائها بالرذاذ، وظلت مشروعاته لسنوات طي الكتمان، لأنه لا يرجو فيها سوى وجه الله ورضوانه إن شاء الله.

وإذا كان هناك من سلبيات تذكر في قيام الحكومة بتحمّل كل نفقات إعمار الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة، فهي أن الناس اعتمدوا على الدولة حتى انحسرت إسهاماتهم أو كادت، وانحصرت في أوجه خيرية محدودة معروفة، مع أن التاريخ يذكر أوقافاً وهبات وتبرعات كبيرة، كان الأقدمون يقدمونها لكل جوانب إعمار المدينتين المقدستين وسكة حديد الحجاز، التي نُفّذت بأموال المحسنين في أوائل القرن الماضي.

الأمر الثاني الذي تبرز فيه صورة عبدالرحمن فقيه، هو ذلك المُنتج الوطني، الذي استطاع أن يسوّقه بأسعار معقولة، ويرتقي به إلى مصاف

(الماركات) الغذائية الشهيرة، بعد أن أوجد المقومات التحتية الكفيلة بإعداده وتحضيره من مواده الأولية محلياً، وأقصد بذلك سلسلة مطاعم (طازج)، التي بدأت تنتشر داخلياً، وتصل إلى بعض الأسواق الخارجية تدريجياً، تحمل العلامة السعودية المميّزة.

قاوم الشيخ فقيه إغراءات رفع الأسعار، فالتزم بأقيام منخفضة خدمة للمستهلكين، مكتفياً بالربح القليل، وضارباً المثل بالقناعة في التجارة، ورابحاً ثقة الزبون واحترامه.

الأمر الثالث الذي يُحتسب للشيخ فقيه، ويُحمد له، هو اهتمامه بالجانب البحثي في «صناعة» الدواجن، وهو جانب حيوي مهم، لكونه يتصل بغذاء الناس واقتصاد الوطن، واهتمامه به ينبئ عن ذهن مستنير، لم نتعوّده إلا من شركات عملاقة مثل أرامكو وسابك ونحوهما، من الشركات التي تعتمد على الخبرات الأجنبية، وتقدّر الأبحاث العلمية ولا تستخسر نفقاتها الآنيّة في مقابل فوائدها بعيدة المدى.

كان مما اهتم به مركز فقيه للأبحاث والتطوير تخصيص جوائز محفزة على سنوات لدراسة تقنية المياه، ولابتكار أفكار تتصل بخدمة حجاج بيت الله الحرام.

الأمر الرابع الذي يقدّر للشيخ فقيه ولا تُنسى جهوده فيه، هو إسهاماته في تطوير المنطقة المركزية حول المسجد الحرام، والدراسات الأخرى الهادفة

إلى الاستفادة من محيط جبل عمر المطل على الحرم الشريف، والتي عمل لسنوات على رعايتها من خلال شركة مكة للإنشاء والتعمير، لتكون المشروع المشترك القادم لها بالتعاون مع هيئة تطوير العاصمة المقدسة.

أكتفي بذكر هذه النماذج الأربعة من أعماله الجليلة، في خدمة حجاج بيت الله الحرام، وفي تنمية الاقتصاد الوطني والبحث العلمي، وإلا فإن القراء الكرام من مواطني منطقة مكة المكرمة بخاصة، أعرف من كاتب هذه الزاوية بمآثره الأخرى.

والشيخ فقيه من مواليد عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٥م) في مكة المكرمة، لم ينل قسطاً وافراً من الدراسة المنهجية، لكنه تابع تثقيف نفسه ببعض العلوم الضرورية لممارسة حياته العملية والتجارية، كالإنجليزية وشيء من دروس العلوم والكيمياء.

عاضد والده في تجارة بيع الأصواف والحرير، ثم تحوّل إلى تجارة الأغذية، فصار أول سعودي يتخصص فيما يمكن تسميته (صناعة الدواجن)، التي كان من ملامحها إنشاء مزارع لإنتاج البيض والدجاج والأعلاف في مناطق مختلفة من البلاد، ثم تطور في هذا المجال فأقام إلى جانبها سلسلة المطاعم الوطنية الشهيرة (طازج) منذ عام ١٤١٥هـ (١٩٩٥م)، بل لعله طوّر هذه الصناعة المتكاملة بإضافة حلقة صناعية أخيرة لإنتاج الأسمدة العضوية من مخلفات الدواجن.

ما يميز عبدالرحمن فقيه وأمثاله من أصحاب البيوتات التجارية العريقة في التجارة والصناعة، عدم دخولهم في المضاربات العقارية وإن كانت كالأسهم - قد تدرّ عوائد عالية وسريعة - لكنه شخصياً يبتعد عنها لشعوره بأن بعض ممارساتها لا تخلو من الاستغلال، فضلاً عن إيمانه بالتصنيع بوصفه خياراً أساسياً في مستقبل الوطن ورخائه.

اقترن اسم الشيخ فقيه بإسهاماته الفاعلة في كثير من المجالات الإنسانية والخيرية، كجمعيات البر، ورعاية السجناء، وإسكان المحتاجين والسعي لإصلاح ذات البين، والتوسط مع المسؤولين، والشفاعة في أعمال الخير ومساعدة الناس.

كما اقترن اسمه برئاسة الغرفة التجارية والصناعية في مكة المكرمة حتى أعوام قريبة، وبرئاسة مجلس الأوقاف في المدينة المقدسة حتى تاريخ نشر هذا المقال، وبعضوية مؤسسة مكة للإعلام التي تصدر جريدة (الندوة).

وسيذكر له تاريخ إعمار مكة المكرمة وتطويرها جهوده في تحقيق مقاصد الحكومة في تنمية المنطقة المركزية المحيطة بالحرم الشريف، بإزالة المباني المجاورة وتوسعة الساحات الملاصقة مع اختيار أنظمة مبان سكنية وفندقية ذات كفاية استيعابية أفضل.

ومن بين اهتماماته الجديدة، التي أصبح له قدم ريادة وسبق فيها، مشروعات سياحية مبتكرة في جدة مثل: المتحف المائي (الإكوريوم) ومنتجعات النورس والشراع والشلال.

والشيخ عبدالرحمن، كما هو معروف، هو الثاني في الترتيب بين إخوانه: محمد وعمر (وزير الدولة السابق) والدكتور سليمان (صاحب المستشفى المعروف) وصالح وأخواتهم الثلاث، كما أنه والد كل من: طلال وطارق وعبدالقادر ومحمود وأخواتهم: فوزية وسعاد وخيرية.

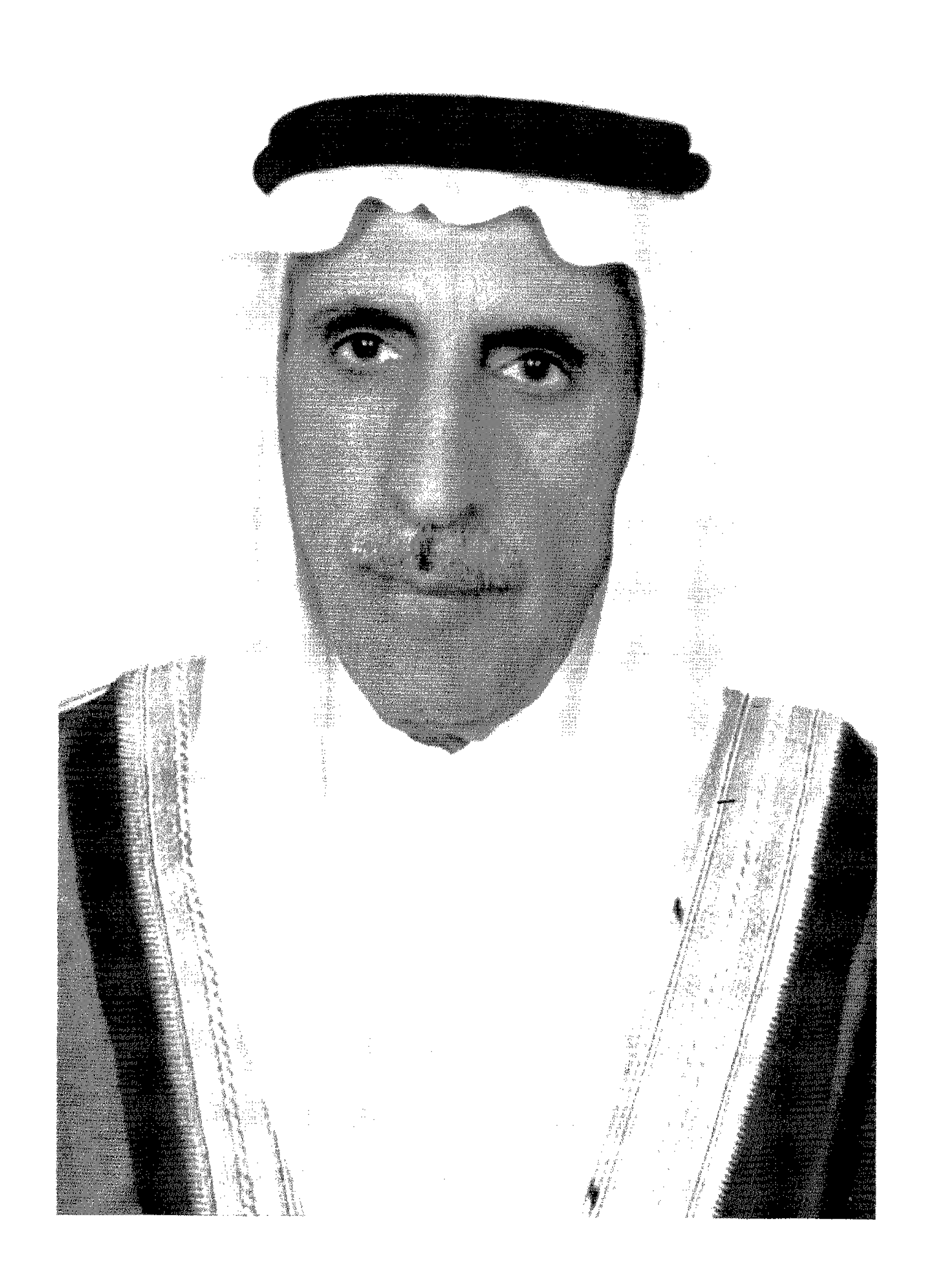
هذه ملامح موجزة من سيرة رمز من رموز الاقتصاد الوطني، الذي جنّد نفسه وماله وجاهه لخدمة أمته ووطنه، فحاز على تقدير المجتمع واحترامه، فادعوا له بمديد العمر والأجر والثواب، وأن يؤهّل المقصّرين من رجال الأعمال والقادرين ليحذوا حذوه وأكثر في خدمة هذا الوطن العزيز وإنمائه ونهضته.

وعلى الله قصد السبيل.

(١٧)

عمران بن محمد العمران

عكاظ: الإثنين ١٨ ذو الحجة ١٤٢٤هـ، الموافق (٩ فبراير ٢٠٠٤م)، العدد (١٣٦٨٠).



عرفته منذ عقود، أديباً وصحفياً ورجل مجتمع، ثم صحبته عن قرب في الدورتين الأولى والثانية لمجلس الشورى، زميلاً، يضفي عليه أدبه الجمّ سمتاً وصمتاً وهدوءًا، وتعقلاً في معالجة الأمور، ونظرة ثاقبة في الإصلاح والتطوير، ونزاهة في التعامل، يستنكر الإسراف، ويتجنب الأضواء والمظاهر، ويؤدي واجباته الاجتماعية والإنسانية بمثالية واعتدال، لكن هذا المقام المحدود مساحته، يتوقف عند محطات ثلاث منسيّة من محطات حياته الثقافية:

الأولى: أنه كان السند الكبير لشيخه العلامة حمد الجاسر في إصدار مجلة اليمامة (١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م)، وهي رائدة المطبوعات الصحفية في الرياض والمنطقة الوسطى كافة، حيث كان يعتمد عليه عند حضوره أو غيابه، في تحريرها وطباعتها وإدارتها، وعاش معه معظم الفترات والظروف الصعبة التي مرّت الصحيفة بها.

النقطة الثانية: أنه بعد أن صدرت جريدة (الرياض)، أول إصدارات مؤسسة اليمامة الصحفية، خلف الشيخ الجاسر في رئاسة تحريرها، إذ كان حمد الجاسر تولّى الإشراف مؤقتاً على بداياتها، ثم عُيّن الأستاذ عمران أول رئيس رسمي لتحريرها خلال عام ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م)، حين خلفه لفترات متفاوتة كل من عبدالعزيز التويجري، ثم عبدالعزيز

العمران، ثم أحمد الهوشان، ثم رئيس التحرير الحالي تركي بن عبدالله السديري.

أما **المحطة الثالثة:** فهي أن القليلين يعرفون عن موهبته الشعرية، ويتذكرون دواوينه ودراساته النقديّة والأدبيّة، ذلك أنه قليل التظاهر بشاعريته، وربما طغت أعماله الإدارية على سماته الثقافية، واهتماماته بالشأن الفكري، كما سنرى.

فمن نماذج شعره قصيدة بعنوان «**الأمل الظامئ**»، وهي واحدة من بين (٧٥) قصيدة ضمها ديوانه الذي يحمل اسم القصيدة نفسها:

كلّما قيل: وحدة العُرب لاحت فَطَرِبْنَا لها دَهَانا مصاب

كالمحب الولهان يرمق «ليلاه» فتقسو على مناه الصعاب

فرقة تبعث الشجون تباعاً ويذيب الفؤاد منها التهاب

شهد الله كم تحجّر دمعي في مآقيَّ واعتراني اكتئاب

إلى أن يقول:

ليت شعري أين المفرّ فأفق العُرب ما انفك يعتريه الضباب

فإلى أين؟ لست أدري ولكن ملء كفي تشاؤم وسراب..

ينتمي الأستاذ عمران إلى أسرته الكبيرة المعروفة في الرياض

والأحساء، التي ينحدر منها العبيكان والثنيّان والراشد والعبدالقادر، ومنها العديد من العلماء والسفراء ورجال التربية والأعمال.

ولد عمران في الرياض سنة ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م)، وحاز في سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) الشهادة الجامعية في اللغة العربية، ثم حصل على دبلوم عال من معهد الدراسات العربية في مصر، وقد عمل بعد تخرّجه في لجنة الأنظمة بمجلس الوزراء (١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م)، ثم انتقل إلى وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، حيث رأس مكتب العمل في المنطقة الشرقية، ثم أُعيرَت خدماته مديراً عاماً لشركة كهرباء الرياض، ثم صار مديراً عاماً للشؤون المالية والإدارية في مصلحة الأشغال العامة (١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م)، وارتبط اسمه كثيراً في الذهن بآخر عمل حكومي تولاّه قبل عضويّة مجلس الشورى، وهو عمله مديراً عاماً لمصلحة المياه بالرياض بين عامي ١٣٩٧ ـ ١٤١٤هـ (١٩٧٧ ـ ١٩٩٤م).

وله من الأبناء خمسة هم: محمد وعبدالعزيز ويوسف وأحمد وعبدالله، ومن البنات ثلاث هن: مريم وندى وسارة.

أما مؤلفاته فإن من أبرزها كتاب: من أعلام الشعر اليمامي (القدامى) ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م)، وكتابه عن الشاعر الأحسائي البحريني ابن المقرّب ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م)، وكتابه شؤون وآراء ١٤١٣هـ (١٩٩٣م)، وكتابه: هوامش أدبية ١٤١٣هـ (١٩٩٢م)، وديوان: الأمل الظامئ «شعر»

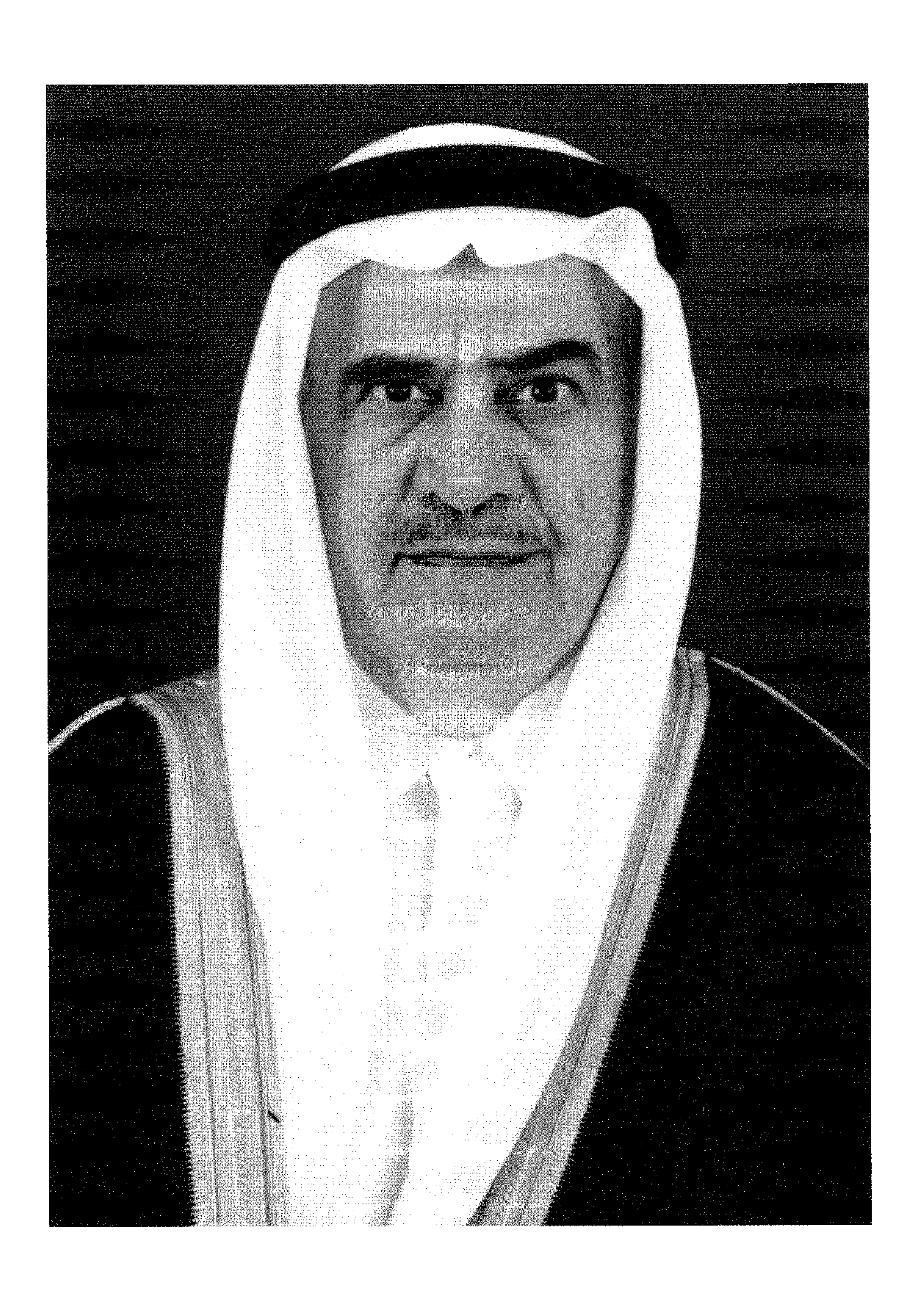
١٤٠٣هـ (١٩٨٣م)، وكان ينشر إنتاجه في مجلة (اليمامة)، ثم في صحيفتي (الرياض والجزيرة) ومجلتي (الدعوة والمعرفة) وغيرها.

الأستاذ العمران، الخلوق في تعامله، المقتصد في ظهوره، ينتظر منه تاريخ الصحافة بالذات أن يسجّل ذكرياته، وهو الذي عايش البدايات، وذاق من آلامها، وتذوّق مسرّاتها، وهو قدرة عالية في الكتابة الاجتماعية والأدبية، لكنه كاتب مقلّ أو بالأحرى منقطع، في وقت يحتاج المجتمع إلى قلمه وأقلام أمثاله من الكتّاب المتميّزين الملتزمين بالوسطية والاعتدال، والنقد الهادف، والرؤية الموضوعية المتعقلة للأمور ومجرياتها.

(١٨)

عبد العزيز بن زيد القريشي

عكاظ: نشر في جزأين: الإثنين ٢٥ ذو الحجة ١٤٢٤هـ، الموافق (١٦ فبراير ٢٠٠٤م)، العدد (١٣٦٨٧)، وعدد يوم الإثنين اللاحق له.



«لو لم أكن عبدالعزيز الخويطر لرغبت في أن أكون عبدالعزيز القريشي»..

لا أعتقد أن هناك أبلغ من هذه الشهادة، يدلي بها قائلها بمثل هذه الشفافية، في لقاء صحفي كرره ـ د. الخويطر ـ في كتابه: حديث الركبتين، الصادر عام ١٤٢١هـ (٢٠٠١م) ص ٢١١.

ثم أضاف يقول: «**لأن الميزات التي فيه تُخطب، عقل وهدوء وكفاءة وصمت وحب للخير، وهي بعض الصفات الجميلة فيه، وهي الصفات الأقرب إلى ذهني الآن، وإلا فإن ما يتبعها من صفات حميدة لا تحصى، ولا أظن أحداً من أصدقائنا إلا ويُؤَمِّن على كلامي**».

لقد كان د. الخويطر، وهو الأخ الأكبر والمعلّم والصديق، من أوائل من احتفى بهذه الزاوية منذ أن بدأت في مطلع شهر شعبان الماضي، لأنه إمام من ينكرون الذات، ويعزفون عن الأضواء، وهي السمات التي تتحراها هذه الحلقات في الشخصيات التي تختارها، فإذا به يلمح لي بأن يكون الشيخ القريشي أحدها، وأجزم أن بين الشخصيتين كثيراً من القواسم المشتركة.

وإذا صح لهذه الحلقة أن تضيف شيئاً يوضح مقاصد تلك التزكية

البليغة من د. الخويطر، في جملتها الموجزة والمعبرة عن شخصية هذا المقال، فهو أن الشهادة الكبرى تظل في يد المجتمع، عندما يحافظ المسؤول على مكانته فيه بعد أن يترك الوظيفة العامة، ويظل مرفوع الرأس، كبيراً في أعين الناس، والسر يكمن في خلطة سحرية تتكون من عدة عناصر منها: الكفاءة، وعزة النفس، ونزاهة اليد واللسان، وخدمة الناس، والإخلاص للوطن، وهي عناصر، أظن - ولا تزكية على الله لأحد - أنها تجتمع فيه.

ثم إن الشيخ عبدالعزيز، كان أحد قلّة من كبار المسؤولين في الدولة، الذين ترجّلوا عن سدة وظائفهم القيادية بمحض رغبتهم وإرادتهم وذلك في أثناء ذروة نجاحهم، إما عزوفاً عن الاستمرار في الوظيفة العامة بعد أن خدموها مدة كافية، أو ابتعاداً عن مظنة التداخل مع مصالحهم الخاصة، أو رغبة في التفرغ لأعمالهم، ويذكر منهم، المحامي د. عبدالله العمران، والشيخ صالح الحصيّن، ود. سليمان السليم، والسفير محمد الشبيلي الذي اعتذر عن عدم قبول منصب وزير العمل والشؤون الاجتماعية (١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م) قبل أن يؤدي القَسَم.

والشيخ القريشي غاية في تنظيم وقته وأعماله والتزاماته، وأحسب أن برنامج العام الكامل يعدّه سلفاً ويضعه أمامه على مكتبه، حتى أصبح قدوة لأقرانه في حسن إدارة الوقت، كما عرف بين الجميع بالصمت وعفة الكلمة ودقة اختيار التعبير، وسلامة الموضع والمناسبة والتوقيت،

مع الالتزام بأداء الموجبات الاجتماعية والاهتمام ـ بهدوء وكتمان ـ بحل مشكلات معارفه وأقربائه، حتى كسب احترام الجميع وتقديرهم.

وهو عقلية إدارية متفتحة متقدمة ومرنة، رافق، بوصفه أول مدير عام سعودي، نقل إدارة سكة الحديد من إدارتها الأجنبية «الأمريكية» بشكل انسيابي، وحافظ على مكاسبها وتقاليدها ونظمها، ثم نقل ديوان الموظفين العام «كما كان يسمى قبل تغيير اسمه إلى وزارة» عبر نظامه المطوّر الثالث الذي صدر في عهده (١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م)، والذي رفع من شأن الوظيفة العامة وقيمتها.

أما في مؤسسة النقد، التي أصبح أول محافظ سعودي لها، بعد أن حققت إدارة أنور علي وسابقيه من خريجي صندوق النقد الدولي أهدافها، فقد اتسمت فترته بإنجازين مهمّين، تمثل أحدهما في الكفاءة العالية، بإدارة واردات الخزينة العامة بعد نشوء فوائض مالية نقدية عالية جداً في سنوات الطفرة التي تلت ارتفاع أسعار البترول، وبخاصة في ضوء ندرة الكفاءات الوطنية المتخصصة ونقص التجربة لديها في هذا الميدان.

أما الإنجاز الثاني، فهو بدء تحويل البنوك الأجنبية المرخص لها في المملكة إلى بنوك وطنية مشتركة، يمتلك السعوديون فيها الحصة الأكبر في رأسمالها (٦٠٪) مع إبرام عقود مع الشريك الأجنبي السابق لإدارة هذه البنوك، حتى تحوّل معظمها فيما بعد إلى إدارة وطنية.

ارتبط التاريخ الإداري للأستاذ القريشي بأولويات مهمة، تحتسب لظهور جيل جديد من الإداريين السعوديين الذين أثبتوا جدارتهم في مراكز كانت تعدّ حكراً على الأجانب، أو بتعبير آخر أدق، بدأ هؤلاء الإداريون المواطنون بتغيير أسطورة المديرين والمستشارين غير السعوديين، الذين اضطرت البلاد للاستعانة بهم، بسبب نقص الكفاءات المتخصصة «التكنوقراط» لديها، وقد أفادت البلاد منهم، وقدرت لهم إسهاماتهم، منذ أن بدأت طلائعهم تصل إلى البلاد منذ مطلع عهد المؤسس الراحل الملك عبدالعزيز.

لقد حصل أبو عادل القريشي ـ وهو المولود في شهر ربيع الآخر ١٣٤٩هـ (سبتمبر ١٩٣٠م) ـ على الماجستير في إدارة الأعمال من جامعة جنوب كاليفورنيا بلوس أنجلوس، وتقلد عدداً من المناصب الحكومية الرفيعة، قبل أن يتفرغ في حدود عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) لإدارة أعماله الخاصة ولإدارة بعض الشركات الأهلية وشبه الأهلية.

كان في مقدمة وظائفه الحكومية، اختياره أول مدير عام سعودي لسكة الحديد (من عام ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م إلى عام ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م)، وكانت هذه المؤسسة منذ انشائها في عام ١٣٧١هـ (١٩٥١م) تدار من قبل خبير أمريكي «فيلدي» عيّنته أرامكو التي تولت الإشراف على إقامة الخط بين الدمام والرياض (أواخر عهد الملك عبدالعزيز).

ثم أصبح رئيساً لديوان الموظفين العام عام ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م)، وبعد عامين، عُيّن وزيراً للدولة عضواً في مجلس الوزراء، إلى جانب رئاسته لديوان الموظفين، وقد خلفه في هذا المنصب نائبه الأستاذ تركي الخالد السديري (١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م) بعد فترة وجيزة تولاه فيها د. عبدالعزيز الخويطر.

وفي خطوة، قد تُعد مقدمة لانسحابه من الوظيفة العامة، والاتجاه تدريجياً نحو القطاع الخاص، وهو الشخصية ـ المكسب لأي من القطاعين، اختير في عام ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) أول محافظ سعودي لمؤسسة النقد العربي السعودي، خلفاً للمرحوم أنور علي، وهو خبير باكستاني، اكتسب الجنسية السعودية لاحقاً، كانت الحكومة قد استعانت به وبغيره من مدرسة صندوق النقد الدولي، لتنفيذ برنامج الإصلاح النقدي، في أعقاب الأزمة المالية التي واجهتها البلاد (١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م).

ظل الشيخ القريشي فيها نحواً من عشر سنوات، تحدثت الأسطر السابقة، حسب تقدير كاتب المقال، عن أبرز انجازاته فيها مما له تأثير على الاقتصاد الوطني، وكان من بين ما قام به بعد عمله فيها، رئاسة مجلس إدارة البنك السعودي العالمي بلندن، الذي أسهمت المؤسسة بالجزء الأكبر من رأس ماله، ثم اندمج مع بنك الخليج الدولي فيما بعد.

وقد ترك في جميع هذه المسؤوليات «سكة الحديد، ديوان الموظفين،

مؤسسة النقد» بصمات مشهودة، ومدرسة فريدة واضحة، يذكرها له معاصروه مما لا يتسع المجال للتفصيل فيها، غير أن أحد مساعديه في ديوان الموظفين (الأستاذ عثمان الأحمد) وصف ذهنه الإداري بقوله: **«كنت أعد أفكاري لعرض بعض الأمور عليه، وكان يستمع بدقة وهدوء، ثم يطرح أسئلته، وفي مواقف عدة كنت أطوي أوراقي وأسعى لتغيير الموضوع، لأن أسئلته حكم مقنع وموضوعي على عدم صواب ما طرحت»**.

وبعد تفرغه، ترأس مجلس إدارة الشركة السعودية للتأمين التعاوني «التعاونية» عند إحداثها، والمجموعة السعودية للاستثمارات الصناعية، وشركة شيفرون السعودية للبتروكيماويات، كما استمر عضواً في مجلس إدارة مؤسسة النقد، واختير عضواً في الهيئة الاستشارية للمجلس الأعلى لمجلس التعاون، وهو يتولى رئاسة مجلس رجال الأعمال السعودي الأمريكي، الذي صارت تعقد له ملتقيات دورية منتظمة.

أما على صعيد الأعمال الخاصة، فإنه يشرف على الشركة العائلية: (علي زيد القريشي وإخوانه للتجارة) منذ تفرغه عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٤م).

أسرة القريشي، كما هو معروف، تعود إلى قبيلة بني خالد المنتشرة في أنحاء المملكة، وبخاصة في شرقها وشمالها الشرقي، وقد استوطنت الأسرة في حائل ومدن أخرى، والشيخ عبدالعزيز هو الثاني في ترتيب

إخوانه: علي وخالد وصالح وعبدالكريم وعبدالرزاق وأخواتهم، وهو والد كل من عادل وندى وسارة.

وأحسب أن الطبيعة المتزنة لشخصيته تفرض على هذا القلم أن يتوقف عند هذا الحد، إنه نموذج راق لرجال الأعمال والإدارة في بلادنا: وطنية ونزاهة وكفاءة وسمتاً وإخلاصاً.

(١٩)

عبد الرحمن بن عبد الله أبا الخيل

عكاظ: نشر في جزأين: الإثنين ١٠ محرم ١٤٢٥هـ ، الموافق (أول مارس ٢٠٠٤م)، العدد (١٣٧٠١)، وعدد يوم الإثنين اللاحق له.



أستأذن القارئ الكريم هذه المرة في الكتابة عن شخصية هي بمنزلة الأخ الأكبر والصديق الأقرب، توثقت معه ـ عبر عقود ـ عُرى متينة من القرابة والمودة والزمالة، ثقةً بأن العارف بسيرته، يضعه بجدارة، ضمن قائمة شخصيات معاصرة، لها تاريخ مضيء، وليس عليها أضواء.

تُقرأ سيرة الشيخ أبا الخيل من زوايا متعددة، فهو نسيج من خبرات تراكمت في مجال التعليم والإدارة والدبلوماسية والعمل الاجتماعي والقطاع الخاص، ثم تلتها تجربة ثريّة في مجلس الشورى، وقد أمضى في كل مجال منها جانباً من حياته العملية، مشهوداً له فيه بالإخلاص والوطنية والذكر الحسن، وإن كانت رحلته ـ الأطول بينها ـ مع وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، تظل الأكثر بروزاً وشخوصاً في سيرته، علقت في ذهن الناس، لمساسها بالمجتمع، وبحياة قطاع عريض من المحتاجين والعمال وأرباب العمل.

كان سرّ تميزه ونجاحه في هذه الوزارة بالذات، قربه من الناس دون ابتذال، ولين جانبه مع الصغير والكبير، وتآخيه مع الموظف والمراجع والخادم، يُعايش آلامهم، ويتفاعل مع همومهم، ويختلط بهم دون ترفع أو كِبْر أو استعلاء، وهي خصلة هبة من الله، لا يُلقَّاها إلا الكبير في خُلقه وتربيته وتكوينه، وطبيعي لشخص بمثل هذه الدماثة، وإجادة

فن التعامل مع الناس، وأحد خريجي مدرسة الأخلاق، أن يتأهّل لوزارة ترتكز معاملاتها على البسطاء، فلقد جعل الله البركة له في وقته ومداركه، يشمل كل من حوله، أولاداً وإخوة، أو معارف، أو جيراناً، بالرعاية والمتابعة، وبحميمية خاصة يظن كل واحد منهم أنه المقصود الحظيّ بها، وأن يُشعر زائره أو مراجعه بأنه شغله الوحيد، وقته تحت تصرفه وإرادته، لا نقصاً في أفراد أسرته أو مشاغله أو قاصديه، إنه، لمن عرفه عن قرب، لا يكلّ من توظيف جاهه في خدمة الآخر، حتى تعوّد مستقبلو شفاعاته من المسؤولين أن يحتفوا بها، فهم يُدركون أنه - في شفاعته لأحد - لا يسعى لمصلحة شخصية، وإنما يتوجه بها خدمة لغيره، مُستجيباً للإحراجات، والاستفادة من مكانته عندهم.

صفاته تلك، تُذكّر، كما سبق في منتدى علي أبو العلا بمكة المكرمة، بوجود قواسم مشتركة بينه وبين شخصيات مثل: حسن آل الشيخ ومحمد الحمد الشبيلي وآخرين عديدين غيرهم، ممن أكرمهم الباري - جلّ وعلا - بخصال مشهودة، تأتي من بينها خدمة المحتاجين، واستثمار الموقع الاجتماعي والوظيفي في خدمة الناس.

أما الجانب الآخر، الذي فاز فيه أثناء تولّيه وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، فهو ميلاد مصلحة الضمان الاجتماعي (١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م)، وتطوير نظام العمل والعمال وإصدار نظام التأمينات الاجتماعية (١٣٨٩هـ

ـ ١٩٦٩م)، وصار يُعدّ الأب (الروحي) لهذه المؤسسات، فضلاً عن نهوضه برعاية الشباب، التي نشأت في حضن الوزارة في عهده.

لقد أُنشئت الوزارة عام (١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م) في عهد الملك سعود، وتولاها لفترات قصيرة كل من الأمير فيصل بن تركي (الأول) بن عبدالعزيز، ثم الشيخ ناصر المنقور، وقد مكّنت الفترة الطويلة التي مكث فيها عبدالرحمن أبالخيل بعدهما في الوزارة (١٤ عاماً)، بالإضافة إلى دعم الملك فيصل للأنظمة التي قدّمها الوزير، من وضع اللبنات الجوهرية، لأول حماية حقيقية وشاملة لحقوق العمل وتأميناتهم الاجتماعية، وفي بناء صرح الضمان الاجتماعي المتكامل، مستعيناً في بداية الأمر بعدد من الوجوه المستنيرة في المجتمع لتنفيذ برامج الوزارة، قبل أن تبدأ بعثاتها الأولى بإعطاء الثمار.

ثم يضاف إلى سجله في المواطنة، وفي سنّ المثالية، وفي بذر القدوة الحسنة في محيط مجتمعه وأسرته، أمور قد تبدو بسيطة، لكنها في الواقع، حملت مضامين ومعاني اجتماعية وانسانية عميقة، تليق برجل تسنّم هرم العمل الاجتماعي، ليجعل من نفسه مثالاً، لا يعبأ كثيراً بالفروقات الاجتماعية الوهمية التي تحول دون الاندماج الحقيقي بين فئات المجتمع، وتجده يرسم نموذجاً بتبسيط أمور الزواج ومتطلباته ويبدأ بالأخذ بها في أسرته أولاً، بمشاركة شخصيات مثل الشيخ محمد الحركان ـ وزير

العدل آنذاك ـ والشيخ ناصر الحمد الراشد رئيس تعليم البنات وقتذاك، أملاً في أن يحتذي بها الآخرون في المجتمع وفي قطاعاتهم المهمة.

وتراه، قديماً وحاضراً، لا يهتم بالدرجة التي تتيسّر له في الرحلات، ولا ينتظر معاملة خاصة بين المسافرين، وتجده وقد أقام مزرعة في مسقط رأسه ـ عنيزة ـ كي يبقى على صلة دائمة بمدينته وعشيرته، ويتمكن من زيارتها والالتقاء بهم مرات في العام وأثناء الإجازات، والأهم من ذلك، أن يُعوّد أولاده وأحفاده على الوفاء لها ولهم، رغم توافر بدائل للإجازات قد تكون أكثر جاذبية وإغراء.

هذه بعض ملامح شخصيته، وخصاله الإنسانية، أما على صعيد التعليم فقد أدرك كغيره من رجال الجيل المخضرم مسيرة التعليم بكل صورها وتحوّلاتها، من الكتاتيب، إلى مدارس المحسنين الأهلية، إلى بواكير المدارس الحكومية (كالمعهد السعودي وتحضير البعثات ودار التوحيد) إلى الابتعاث أو الدراسة في الخارج.

الشيخ أبا الخيل هو أحد هؤلاء، كان والده ـ الذي يحمل أحد شوارع الخالدية بجدة اسمه ـ أحد وجهاء عنيزة والبصرة، يتردّد بينهما، كوّن مركزاً اجتماعياً وتجارياً في الثانية، فعاش الابن طفولته قريباً من والدته (من أسرة البسّام المعروفة في عنيزة، ومنها خاله الدكتور حمد العبدالله البسام، أحد أوائل من درس الطب في الهند وتخرّج عام

١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٢م).

حضر كُتَّاب عبدالعزيز الدامغ بعنيزة، ثم التحق بمدرسة أستاذ الجيل (ابن صالح) الأهلية، التي أصبحت مدرسة حكومية في عام (١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٦م)، ثم التحق ـ قريباً من والده ـ بمدرسة (النجاة) الشهيرة بالزبير، التي كانت، بقوة منهجها، بمثابة معهد متقدّم، ثم عاد إلى بلدته عنيزة، ليمارس مهنة التعليم، يتقاسم راتب وظيفة واحدة مع زميله الأستاذ عبدالرحمن الصالح العليّان.

حصل على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة (١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م)، زميلاً للشيخ أحمد زكي يماني والشيخ ناصر المنقور، وقد عمل في وزارة الخارجية، ثم عُيّن مديراً عاماً لوزارة المالية والاقتصاد الوطني (١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م)، ثم أصبح لفترة وجيزة عضواً منتدباً بشركة الأسمنت بجدة، واختير في عام (١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م) وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية حتى عام (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م)، وتعرّضت سابقاً لأبرز إنجازاته فيها، مما استحق تكريم وزراء العمل العرب قبل أيام عليها.

ثم عاد إلى وزارة الخارجية، سفيراً لدى مصر نحواً من أربع سنوات، رجع في إثرها لممارسة العمل الخاص، ومن ضمنه نشاطه لمدة ثلاث سنوات مديراً عاماً لمؤسسة المدينة الصحفية، وعند إعادة تنظيم مجلس الشورى الحالي عام ١٤١٤هـ تم اختياره عضواً في دورته الأولى (أربع

سنوات) ليعود بعدها لإدارة مكتبه الخاص بجدة، ويتفرغ للقراءة ورعاية أسرته الكبيرة.

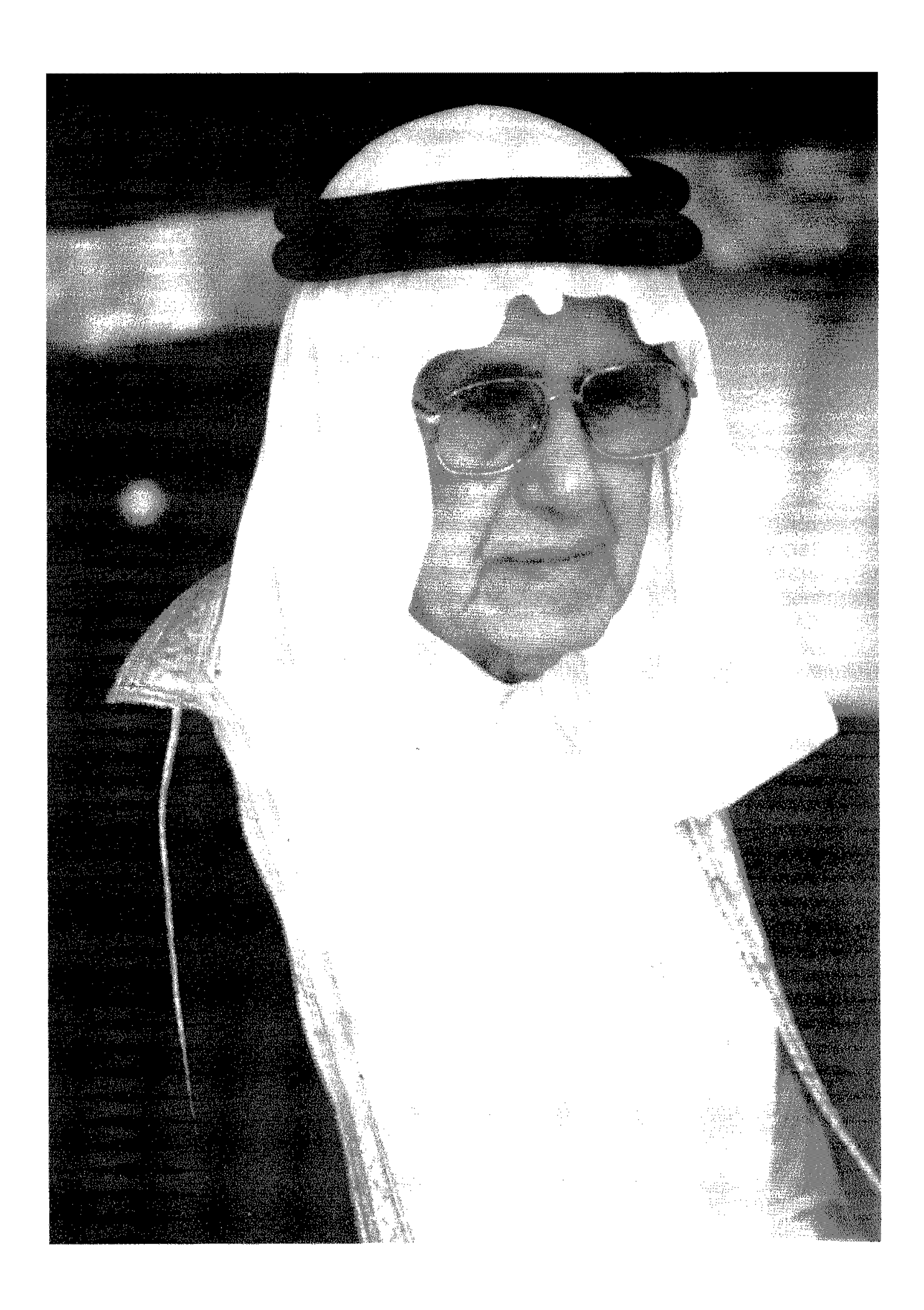
الشيخ عبدالرحمن المشهود له بالاستقامة، وبقربه من الخير ومن طاعة ربه، والحرص على واجباته وعلاقاته الإنسانية مع الآخرين، هو من مواليد عنيزة عام (١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٦م) له من الأبناء: أيمن وبسّام وم. أسامة و د. بهاء و د. فيصل وفواز ومهنا، ومن البنات: إيمان ونجود والهنوف، وهو مطالب بإلحاح أن يكتب مذكراته في رحلته المشهودة مع هذه المواقع المهمّة، وأن يكشف عما يقال من محاولات شعرية إخوانية لم يقدّر لها النشر، وأن يفرج عن ديوان مخطوط ظل طيّ الخصوصية والكتمان منذ أيام نشاطاته الأدبية في جامعة القاهرة.

إنها صفحة موجزة من سيرة أبي أيمن الذي يتخذ ـ منذ السبعينيات الهجرية ـ من جدة مقراً رئيساً لإقامته، وقد أسهم، ضمن إسهاماته الاجتماعية العديدة، في إنشاء أحد مشاريعها السياحية البارزة، وهو يتفاعل مع كل ما ينهض بمجتمعه، ويعايش، بإخلاص ووطنية، هموم أمته وبلاده، تغلب عليه سمات اللباقة والوفاء والدماثة الرفيعة، ويحتفظ بصراحته لموقعها المناسب، ويختار لها التعبير الملائم، وهو ذو فكر مستنير متجدد، جدّد الله له عمره بمزيد من الصحة والعطاء.

(٢٠)

إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد الحَسُّون

الشرق الأوسط: الأحد ١٦ محرم ١٤٢٥هـ، الموافق (٠٧ مارس ٢٠٠٤م)، العدد (٩٢٣١).



يقدر لإبراهيم الحسون الذي دلف إلى عالم التأليف، وهو ما يزال بكامل صحته وتوقد ذاكرته، حرصه ومتابعته لإصدار خواطره وذكرياته في ثلاثة مجلدات، بعد رحلة شاقة من الجمع والتحرير والتوثيق والطبع، وبعد معاناة مع الرقابة التي كانت تجتهد لحذف بعض الفقرات منها، حرصاً على سلامتها من الاعتراضات على بعض مضامينها.

والواقع أنه ما كان لهذه الذكريات، التي تميزت بالشمولية، من السياسة إلى التاريخ، ومن التراث إلى الأشخاص، أن تظهر للقراء على هذا النحو من جودة الطباعة، والحفاظ على القدر الأكبر من محتواها ومادتها الأصلية، ومن شمولية التوزيع والانتشار المرتقبين لها، لولا أن صاحبها هو الذي ظل وراءها، يجري ويعقب ويتابع ويتأكد بنفسه، كي تبلغ المقاصد، من وراء تدوينها.

الشيخ إبراهيم بن محمد الحسون - وقبل الدخول في استعراض كتابه الذي يقع بأجزائه الثلاثة في (١٣٣٠) صفحة، من تقديم الدكتور عبدالعزيز الخويطر - هو من مواليد عنيزة حوالي عام ١٣٣٥هـ (١٩١٧م)؛ بدأ يتلقى علومه الأولية في كتاتيب مدينته، ثم التحق بالمدرسة الرشدية بجدة، التي أسسها الأتراك في الحجاز والأحساء قبل انحسار حكمهم، وعاش فترة دخول الحجاز في الحكم السعودي ١٩٢٤م، ثم انتقل إلى

مدرسة الفلاح الأهلية التي أسسها الشيخ الراحل محمد علي زينل في جدة، وهو ما يزال مهاجراً في الهند، فنال الحسون الثانوية منها سنة ١٩٣٣م، ومع أنه التحق بمدرسة تحضير البعثات التي كانت تعد طلابها للدراسة في الخارج، إلا أنه درس عاماً واحداً، ولم يحظ بفرصة الابتعاث.

لكنه عمل لفترة قصيرة سكرتيراً لقائم مقام جدة (إبراهيم بن معمر)، وعمل في جمرك الخُبر سنة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م وصار مديراً لجمرك (أم رضمة) على الحدود مع العراق، فمشاركاً لجمارك الحدود، ثم أميناً للجمارك في (قرية)، متنقلاً في عدد من وظائف الجمارك حتى عام ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م إلى أن عين رئيساً لمالية عرعر وجمركها حتى عام ١٩٧٨م، حين تقاعد بعد خدمة تربو على أربعين عاماً، وأقام في جدة، على صلة بمدينة عرعر حيث تقيم ابنته.

احتوى كتابه بأجزائه الثلاثة نحو (٢٥٠٠) مفردة (عنوان) تضمنت كل ما لا يخطر على البال من موضوعات خاصة وعامة، تبدأ من ولادته وحتى نهاية علاقته بالوظيفة، وعلى معلومات لا غنى عنها لأي باحث في التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإداري للوطن، مما يتطلب استعراضه عدة حلقات.

على أن حديثه عن تجربته الثرية في مجال الجمارك في مواقع

مختلفة من السعودية، بالإضافة إلى سيرة حياته، حظيا بشكل ملحوظ بمفردات كثيرة من محتويات هذه المذكرات، وهو أمر متوقع من رجل عاش هذه التجربة الطويلة، ولابد أنه كان يرصد مع مرور الأيام، كل ما يمر عليه، وإلا لما كان في مقدوره أن يسجل كل هذا الحجم الهائل من التفاصيل وعلى هذا النحو من الدقة.

فهو يبدأ كتابه بالتعريف بنفسه وأسرته، مما يعد مدخلاً طبيعياً لذكرياته، ثم يقدم وصفاً دقيقاً للبيئة التي نشأ فيها (مدينة عنيزة) راسماً صورة ذهنية مقروءة كاملة التفاصيل عن أسواقها ومزارعها وحياة أهلها وأساليب معيشتهم وأزيائهم وعاداتهم، وأنواع مأكولاتهم ومشروباتهم وروابطهم الاجتماعية، ثم يعرج على وصف الحالة الثقافية، ويذكر بالمعلمين والكتاتيب القائمة في عنيزة في فترة طفولته في الأربعينيات الهجرية من القرن الماضي (العشرينيات الميلادية).

ثم يستعرض التاريخ السياسي لمنطقة القصيم، متنقلاً من موضوع إلى آخر بدون ربط منطقي أحياناً، لكن القارئ لا يشعر بالتنافر أو الضيق عند قراءتها، مما جعلها سلسلة مشوقة بتنوع موضوعاتها، تخضع لمنهجية التسلسل الزمني وهو أحد أسباب بساطتها وجاذبيتها.

تتوجه ذكرياته وخواطره لسرد تفاصيل انتقاله لأول مرة من القصيم إلى الحجاز، واصفاً وسائل السفر والمحطات التي مرت بها

حملته، على ظهور الإبل، إلى أن بلغ مقصده في العمرة والحج، مع رواية بعض الحوادث التاريخية.

ثم تعود به الذكريات إلى تفاصيل الظروف الحياتية في مجتمع الحجاز آنذاك (نظام البناء، سقيا المنازل، النقود، عادات الزواج، وبدء جلب السيارات) من منظور طفل نجدي بسيط نازح إلى مكة المكرمة يرى هذه الظواهر المدنية لأول مرة، ثم يكشف المؤلف مشاعره وهو يعود إلى مدينته عنيزة بعد أول غيبة عنها، متحدثاً هذه المرة عن أميرها وقاضيها ومشايخها، مع التطرق مرة أخرى إلى أسلوب الحياة فيها والسمات الشخصية لأهاليها.

وبعد أن يعود إلى الحجاز مرة أخرى في مطلع الخمسينيات الهجرية، ويتفتّح ذهنه أكثر فأكثر، تأتي ذكرياته على ما طرأ على المجتمع الحجازي من تطور في ظل المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة، مثل الراديو والجراموفون (جهاز تشغيل الاسطوانات) وتأسيس الشركات، مع استعراض شخصيات جدة وأعيانها، والمكتبات، والصحف المستوردة، وتقديم معلومات عن مدرسة تحضير البعثات التي التحق بها، مورداً تشخيصاً جديداً للحياة الاجتماعية في مكة المكرمة بكل تفاصيلها.

ومن بين القصص والروايات التي تطرق إليها الكتاب، بتفصيل

مقبول قصة الطبيب الروسي الذي كان يعمل في القنصلية الروسية بجدة ثم لجأ إلى المملكة وافتتح عيادة في مكة المكرمة واستوطن فيها حتى وفاته.

ويدخل الحسون إلى الجزء الثاني من كتابه مبتدئاً بسرد وقائع رحلته الأولى إلى المنطقة الشرقية من المملكة (الدمام والخبر والظهران ورأس تنورة)، وتفاصيل لقائه بالملك عبدالعزيز وولي عهده الأمير سعود، قبيل انطلاق رحلته، ماراً بمركز رماح ـ مفتاح الطريق آنذاك إلى الأحساء ـ واصفاً معاناة المسافرين عبر الدهناء، ومسترسلاً في ذكر أصدقائه مديري المالية والجمارك في الدمام والخبر عند تسلمه عمله هناك، كما يورد مرة أخرى تفاصيل وافية عن الحياة في مجتمع مدن المنطقة الشرقية إبان إقامته هناك.

ربما تكون ذكريات الحسون هذه أفضل، ولعلها أول، مرجع يأتي على وصف أوجه الحياة في الجزء الشمالي الشرقي (حفر الباطن، أم رضمه، لينة، قرية) وعن ظروف التنقل بين السعودية والكويت، وأساليب جباية الزكوات، مع تعداد أسماء أمراء تلك المراكز من أمثال: محمد الشهيل، وصالح العبدالواحد.

ثم يعود مرة أخرى إلى السياسة، شارحاً الظروف المحيطة بقيام الحرب العالمية الثانية، مسترجعاً ما سبقها من قصص تتصل بأفول

الدولة العثمانية واقتسام تركتها، وكذا قصة إنشاء الخط الحديدي الحجازي بين اسطنبول والمدينة المنورة، وظهور هتلر وهزيمته، وبدء الإذاعات، في تسلسل استغرق نحو (١٠٠) صفحة، يعود إليها مرة أخرى ليركز على الأوضاع السياسية في العراق والأردن وفلسطين ومعركتها عام ١٩٤٨م. ويستذكر الحسون عدداً من أصدقائه، ويسرد ذكريات رحلتيه إلى الكويت وزواجه الثاني، وأول رحلة جوية له، مضيفاً بعض الصور في ختام كل جزء من الأجزاء الثلاثة من ذكرياته الواسعة.

كان من بين ما تضمن المجلد الثالث من موضوعات، رحلته إلى القاهرة عام ١٩٥٠م وتصوير كل ما يواجه زائرها لأول مرة عادة، مع التعريج على شيء من تاريخها وأوضاعها، وهي على أبواب التحول من العهد الملكي إلى العهد الجمهوري، ثم يصف زيارته إلى لبنان، ويأتي على ذكر أصدقائه السعوديين المقيمين في مصر وبلاد الشام، والمهم أنه في كل ما يروي، وبالرغم مما يبدو ذا طبيعة خاصة أحياناً، فإنه مليء بالمعلومات التي تفيد الباحث المعني بموضوعاته، كما قد يحلّق في أجواء التاريخ عندما تحين له فرصة لذلك، فهو، كما زار مصر واسترجع تاريخها، سافر إلى لبنان تطرق إلى تركيبته الطائفية، وعندما سمع بنبأ وفاة الملك عبدالعزيز استعاد شيئاً من سيرته.. وهكذا.

تأتي ذكريات الحسون هذه على ذكر العشرات من الشخصيات

والأعلام السعوديين وقصصه معهم من أمثال ابن سليمان والقصيمي وعبدالمحسن المنقور والجفالي وعبدالعزيز العبدلي وسليمان بالغنيم وعبدالعزيز بن زيد وعبدالله السعد القبلان، كما تتطرق لوصف المدن والبلدان التي زارها داخلياً وخارجياً، وإلى بعض القضايا التي واجهها في عمله مما يدخل في طبيعة الجمارك (مثل التهريب).

فالكتاب في الواقع حديقة واسعة، يتجول فيها القارئ الذي يبتغي المتعة، والباحث الذي ينشد المعلومة، ولو قدِّر لمؤلفه أن وضع كشافاً مفهرساً عاماً لمحتوياته من الأماكن والأعلام لكان الحصول على الفائدة أكبر وأيسر، وإن كان يحمد للمؤلف أن فهرس المحتويات جاء مفصلاً تفصيلاً لا يقل عما تعوّده القارئ في إعداد الكشَّافات.

كما أنه، وإن بدت عاطفته تظهر أحياناً تجاه مدينته وأفراد أسرته، مما يمكن تفهمه، ولكنه في الحقيقة كتاب لا تنقصه الصراحة والموضوعية والشفافية، مما قد يعرّضه لشيء من الاحتجاج من آخرين.

إن كتاب خواطر وذكريات (٣ أجزاء) للشيخ إبراهيم بن محمد الحسون، هو بحق جسر تاريخي بين ماضي البلاد وحاضرها، وهو، مرايا لثقافة مناطق المملكة المتنوعة، حجازها ونجدها، شمالها وجنوبها وشرقها، موثق بالمعلومات والصور، لا يقل عما قدمه محمد علي مغربي وحسن عبدالحي قزاز وغيرهما من ذكريات وتصوير لمظاهر الحياة

الاجتماعية في بعض مناطق المملكة، امتزج فيها استعراض النشأة والطفولة والشباب والكهولة مع مظاهر الحياة في المدن والمجتمعات الصغيرة التي عاش فيها على مدار عقود تسعة من عمره.

وإذا كان من ملاحظة ثالثة على الكتاب فهي حاجته إلى تعزيز بعض الحوادث والمعلومات، بمزيد من التوثيق بالتواريخ وذكر الأعوام التي حدثت فيها، على أن هذه الملحوظة لا تنقص من قدره ولا تشكك في معلوماته، لأنه يتحدث عن وقائع عايشها المؤلف بنفسه، فكان رصده لها أميناً ودقيقاً، والمؤلف ـ الحسون ـ في معظم ذكرياته يُعد مصدراً أول لكثير من المعلومات وشاهداً عليها.

إن مصدر التقدير للشيخ الحسون ـ الذي أهدى مكتبته الخاصة الضخمة قبل ثلاثة أعوام، ونقلها تحت إشرافه، وجهز مكانها، في مكتبة مركز ابن صالح الثقافي في عنيزة، وفاءً منه لمسقط رأسه، وتكريماً منه لمركز أستاذ الجيل (ابن صالح) ـ أنه حرص على أن يسجل مذكراته قبل أن تندثر أو تتبخّر، كما يقدر له أنه، وقد غاب عن مدينته عدة عقود، لم يعد إليها بجسمه فقط، ولكن بالقلم والكتاب اللذين شقّا له طريق النجاح في حياته، ليثبت أنها ـ أي مسقط رأسه ـ كانت تعيش في وجدانه أبداً.

فمرحباً بالحسون مؤرخاً وكاتب مذكرات، وإن عمله في رصد

ذكرياته نموذج نتمنى أن يحتذيه كل مثقف مر بما مر به الشيخ الحسون من تجارب، وشهد ما شهد من تحولات اجتماعية وثقافية واقتصادية كبيرة[١].

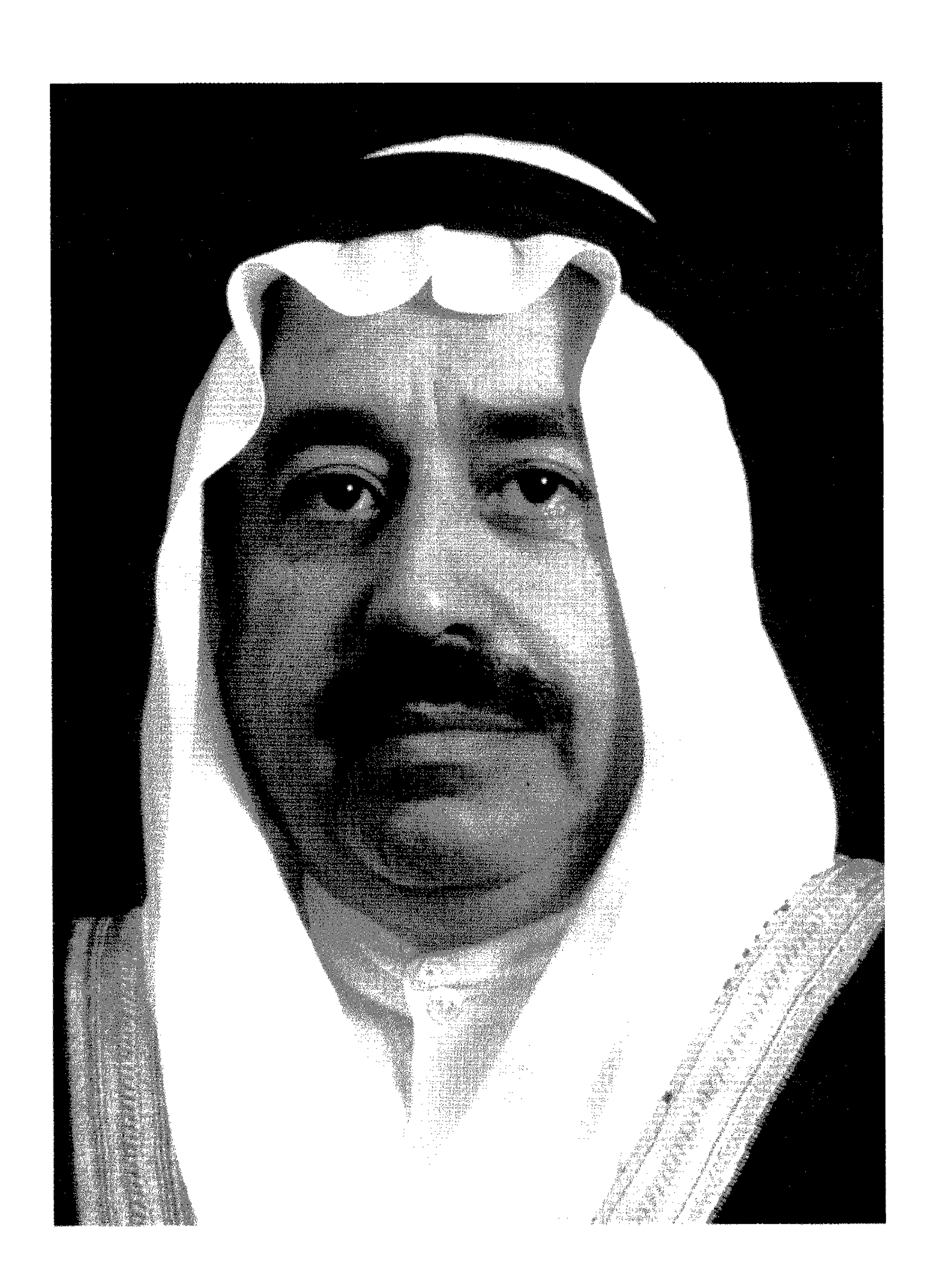
---

(١) توفي في مدينة عرعر يوم الثلاثاء ١٤٢٥/١١/٣٠هـ ، الموافق (٢٠٠٥/٠١/١١م)، وكتب عنه المؤلف مقالاً رثائياً نُشر في جريدة الجزيرة في اليوم التالي، العدد (١١٧٩٤).

(٢١)

د. رضا بن محمد سعيد عبيد

عكاظ: الإثنين ٢٤ محرم ١٤٢٥هـ ، الموافق (١٥ مارس ٢٠٠٤م)، العدد (١٣٧١٥).



أن يتحلّل الكاتب من ميوله، فهو أمر شبه مستحيل، لأن الكلمات مهما حاول، قد يظهر عليها بعض العاطفة، وهو أمر يقدّره القارئ، ولا يخلو من الحسنات، فالعاطفة تبرز المعاني وتساعد في اختيار التعبير، ولقد تأخرت هذه الزاوية في الكتابة عن شخصية د. رضا عبيد أملاً في أن تأتي كلماتها معتدلة منصفة، تتحرّى الموضوعية، وتحيد عن المشاعر الشخصية.

لقد عرفت د. رضا لأكثر من عشرين عاماً، بدأت أثناء رئاسته للمركز الوطني للعلوم والتقنية (مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية حالياً)، وتعزّزت أثناء الزمالة في وزارة التعليم العالي، وتوثّقت تحت قبّة مجلس الشورى، وبقي من الترابط الأخوي، بعد كل ما تقدّم ما هو أصدق وأنقى، فهو صنف من الرجال كلما زادت به المعرفة نما احترامه وارتفع قدره ومكانته.

والواقع، بعيداً عن العواطف، أن هذه الأسطر تقف - بإجلال - أمام شخصية تعليمية وطنية رائدة وعالية التأهيل، كان ينبغي أن يستفاد من خبراته وعلمه وأقدميّته إلى أقصى حد ممكن، وأجزم أن المركز الوطني للعلوم والتقنية، الذي تبنّى في عهده فكرة الاستفادة من الطاقة الشمسية، وكذا جامعة الملك عبدالعزيز، وبخاصة بعد تفاقم مشكلة

الاختناق، قد خسرتا في تركه كفاءة قيادية حيوية، ذات علاقات متميزة أفادت هاتين المؤسستين ورفعت من مكانتهما وإنجازاتهما في عهده (كمشروع المدينة الجامعية والمستشفى الجامعي بجدة)، وأعتقد مخلصاً أن مجتمعنا أبعد ما يكون عن الاستغناء عن أي كفاءة نادرة، فكيف إذا كانت بقدراته وانفتاحه ونوع دراسته ونشاطه، ناهيك عن تكريمه بوصفه رمزاً وطنياً للمتخصصين السعوديين النابهين المخلصين.

إن في المملكة علماء بارزين متميزين في شتى التخصصات العلمية والتطبيقية والإنسانية، لا يقلون عمن تتردد أسماؤهم يميناً ويساراً، وهم ثروة للوطن كله، كثروة التاريخ والأدب والمتاحف والفنون، ورموز وشواهد، كالنخل والغزال والخيل، ترتبط بهذه الأرض وثقافتها وتراثها، وهم محل افتخار الوطن واعتزاه.

د. رضا محمد سعيد عبيد، من مواليد المدينة المنورة عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م)؛ حصل على بكالوريوس العلوم من جامعة القاهرة عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م)، ثم التحق بجامعة الملك سعود معيداً، وابتعث لنيل الماجستير ثم الدكتوراه من بريطانيا عام ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م)، وكان أول سعودي يحصل على الدكتوراه في مجال تخصصه، وقد تدرّج في الجامعة حتى وصل إلى درجة الأستاذية، وصار أيضاً عميداً لكلية العلوم فيها. وفي عام ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م) عُيّن رئيساً للمركز الوطني للعلوم والتقنية عند

تأسيسه وهو المسمى حالياً ومنذ عام ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م (مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية)، وفي عام ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م) عُيّن مديراً لجامعة الملك عبدالعزيز، وكان إلى جانب ذلك عضواً في المجالس العليا لبعض الجامعات السعودية وجامعة الخليج، واستمر مديراً للجامعة عشر سنوات حتى اختير في عام ١٤١٤هـ (١٩٩٤م) عضواً في مجلس الشورى بدورته الأولى.

الدكتور رضا عضو في لجان اختيار جائزة الملك فيصل العالمية، وقد حاز على أوسمة رفيعة من الصين وفرنسا وألمانيا ومجلس التعاون، وهو ممن أنشأ مؤسسة اليمامة الصحفية، وأسهم في تطويرها، وهو رائد من أعلام هذه البلاد، ويُعدّ ـ بحق ـ أحد شهود تقدم صروحها العلمية، والتقدم المقرون بالإيمان والأخلاق، وتواضع الكبار الواثقين المليئين بالمجد، الذين ينجزون أعمالهم بصمت، بعيداً عن ضجة الدعاية، واللهاث وراء الأضواء.

(٢٢)

أحمد محمد حسن زيدان

عكاظ: نشر في جزأين: الإثنين ٢ صفر ١٤٢٥هـ ، الموافق (٢٢ مارس ٢٠٠٤م)، العدد (١٣٧٢٢)، وعدد يوم الإثنين اللاحق له.



عندما تذكر الأصالة والمعاصرة في نماذجها الإنسانية، فإننا اليوم أمام رمز حقيقي معبّر في العصرية، من الذوق في التعامل، والأناقة في المعيشة، واللطف في العشرة والحديث، والتنوّر في التفكير.

إنه في تاريخه وأصالته، يذكّر بشخصيات المبرقات والأتيال والكابلو الروّاد من أمثال إبراهيم سلسلة وعبدالله كاظم وعبدالحميد عقّاد وبهجت جلال، الذين بُنيت على أكتافهم وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية والبريدية القديمة.

ليس المقام مقام استعراض تاريخ البرق والهاتف، أقدم علامات الانفتاح والتطور في غربي البلاد، ولكن الشيخ أحمد زيدان، هو أحد الرموز الباقية، الشهود على تاريخنا (الاتصالي) العريق، ويكفي أن الدولة السعودية قد تولت عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) إدارة الكيبل البحري (الكابلو) الذي أقامه الإنجليز بين جدة وبورسودان، وأن اهتمام الملك عبدالعزيز بربط مدن المملكة بالتلغراف، قد نشر أكثر من (٥٠) مبرقة قبل عام ١٣٥٠هـ (١٩٣٠م)، وأن البريد الحجازي والنجدي ـ قبل اتحادهما ـ قد انضمّا إلى اتحاد البريد العالمي بجنيف عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٧م)، وأن أول مكالمة هاتفية بين مكة المكرمة والرياض جرت في صفر ١٣٥٢هـ (مايو ١٩٣٣م)، هذا التاريخ الجميل، الذي بدأ مع

إشارات (مورس) وعَبَر إلى الأجهزة الرقمية، ليس بيننا، أفضل من أحمد زيدان لرواية تطوّره وتدوينه، ويكفي أن نورد من مآثره غير المعروفة أنه، ومايزال، أول هواة التخاطب بالراديو (Radio Amateurs) القلائل في المملكة، ولا أعرف من أمثاله سوى الأمير طلال بن عبدالعزيز، الذي يخصص في منزله غرفة لممارسة هذه الهواية مزوّدة بالأجهزة الخاصة بها، (وكان الملك حسين والملكة إليزابيث ممن اشتهر بهذه الهواية).

الطريف في الأمر أن الشيخ زيدان أطلق حرفي (H.Z. من اسم والده) رمزاً لمحطته، ثم أصبح هذان الحرفان رمزاً للإشارات الصادرة من المملكة، وقد استمر يجدد الترخيص ويدفع رسمه ويشارك في المباريات الدولية لهواة اللاسلكي في العالم.

الثانية: أنه صار ممثل المملكة في اتحاد المواصلات الدولي في جنيف منذ عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٦م) وظل يمثلها بعد تقاعده عام ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م)، وصار عضواً في المجلس الإداري للاتحاد عن قارة آسيا، ورئيساً للمجلس نفسه، كما رأس مؤتمر الاتحاد في طهران وطوكيو، ومؤتمر اتحاد البريد العربي، ومؤتمر الاتحاد العربي للمواصلات السلكية واللاسلكية، وقد أطلق عليه في دوائر الاتحاد الدولي لقب (مهندس الاتصالات السعودية الحديثة)، بسبب مرافقته لإدخال الهاتف الحديث والكيبل المحوري، بعد أن كان الاتصال في بداياته يعتمد على الأسلاك

المعلّقة بين جدة والطائف مروراً بمكة المكرمة، كما انتقل الهاتف من الأسلوب اليدوي (الماقنيتو) إلى الأسلوب الآلي الحديث.

لقد قضى الشيخ أحمد زيدان في عضوية الاتحاد وحضور مؤتمراته الرئيسية والمتفرعة عنه أطول فترة قضاها أي مسؤول في تاريخ المملكة، وكان من ثمار علاقاته الوثيقة مع الاتحاد، أن حجز للمملكة حُزَماً «مغناطيسية» واسعة من الذبذبات، على الموجات القصيرة والمتوسطة وغيرها، التي أفادت الإذاعة، ووسائط الاتصالات المدنيّة، مما لاتزال المملكة تنعم به إلى يومنا هذا.

إنه الشيخ أحمد محمد حسن زيدان، وكيل وزارة المواصلات الأسبق للشؤون السلكية واللاسلكية والبريد، الذي ولد في أوائل الثلاثينيات الهجرية، ويحظى بالاحترام، وبالسمعة الكريمة أثناء عمله وبعد تقاعده، وهو الجدير، بكل تأكيد، بالتكريم، وسيرة حياته بالتوثيق، وما تسمية أمانة جدة قبل أعوام، لأحد شوارعها باسمه إلا أحد أوجه الوفاء له ولمثله من الفضلاء.

أما التعرف على سيرة حياته، فهو لا يقل طرافة وتشويقاً عن سيرته العملية، حيث يُبرهن الشيخ أحمد على أمانته، ويقدّر تاريخ ولادته بحدود عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) في مكة المكرمة، وقد مرّ بكل أطياف المدارس المتوافرة في صباه، بدءًا بكُتَّاب عبدالحي في الشبيكة، مروراً

بمدرسة دار الفائزين، ثم الفخرية ثم الفلاح ثم الخيّاط ثم الراقية، وكلها مدارس رسمية أو خيرية أهلية أنشئت في أواخر العهد العثماني والهاشمي، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية السعودية عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م)، ثم بمدرسة المعلا التحضيرية، وانتهى به المطاف في معهد اللاسلكي الذي كان أنشئ في رجب ١٣٤٩هـ (نوفمبر ١٩٣٠م)، إذ درس فيه بعد أشهر من افتتاحه، كما التحق في أثناء الحرب العالمية الثانية بدورة في العراق لدراسة الأرصاد، وبدورة أخرى في بريطانيا فيما بعد للاتصالات الحديثة.

الشيء نفسه حصل له مع الوظيفة، فلقد جرّب الوظائف الدنيا، والمتوسطة والمتقدمة، بدءًا بأول وظيفة له: مأمور لاسلكي في أول مبرقة بالرياض (١٣٥٠هـ - ١٩٣١م)، ثم مدير سيارة لاسلكي، ثم مأمور مخابرة لاسلكي، ثم مدير لاسلكي جدة، ثم أستاذ مدرسة لاسلكي، ثم مدير لاسلكي (وبريد) الأحساء فالخُبر، ثم مدير قسم الأنواء الجوية، ثم مدير لاسلكي مكة المكرمة، واستمر هكذا، يتنقّل في كل ما يخطر أو لا يخطر علي البال من وظائف اللاسلكي الأخرى، حتي صار مديراً عاماً للبرق والهاتف أيام كان الأمير سلطان بن عبدالعزيز وزيراً للمواصلات عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، ثم أصبح وكيلاً للوزارة عام ١٣٨٣هـ (في عهد وزيرها محمد عمر توفيق) وتقاعد عام ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م).

هكذا يكون التدرّج الطبيعي للمسؤول، الذي يولد وينمو مع مؤسسته حتى يترقى ويصبح فيها رئيساً (كما يحصل في أرامكو)، بعد أن يتمرّس بكل صنوف الوظائف ويعرف طبيعة عملها، إنه ـ بلا شك ـ أفضل أنواع الإدارة، متى ما حظي الجهاز بذلك.

لم يتخرج أحمد زيدان من جامعة أو بعثة خارجية، لكنه كان عصامياً، طوّر نفسه بنفسه، فهو فَقَد والديه وهو في الخامسة، فشاء الله أن يتحوّل اليُتم إلى عزيمة وإصرار، ظهر جليّاً في المدارس والأعمال التي مرّ بها، وبنوع الدراسة (اللاسلكي) التي اختارها، وباللغة الإنجليزية التي أتقنها ذاتياً، وبكونه أول هواة اللاسلكي (التخاطب بالراديو) من السعوديين، وباهتمامه بعلوم الحاسب وهو على أبواب التسعين.

عائلة الشيخ أحمد زيدان، هي الأخرى، أصبحت عائلة لاسلكي، فبيته كان بمثابة مدرسة لأبنائه الأربعة وبناته الخمس، فابنه الأكبر المهندس د. فيصل ـ عضو مجلس الشورى في دورته الأولى ـ حلّ بجدارة محل والده في وكالة الوزارة لشؤون الهاتف، وابناه المهندسان محمد وعبدالعزيز، يملكان أو يديران عدداً من الشركات المتخصصة بالإلكترونيات والاتصالات، أما ابنه الأصغر د. زياد فقد اختط لنفسه طريقاً آخر لكنه متمم، وهو التصميم المعماري، وكان من بين مشروعاته المخطط العام لجامعة أم القرى ومعهد العالم العربي في باريس.

صحيح أننا نفخر بأحمد زيدان، يكرّمه اتحاد المواصلات الدولي، بعد أن مثَّل المملكة فيه أكثر من (٣٠) عاماً، لكن علينا أن نكرّمه حيّاً في وطنه، رمزاً لرجال اللاسلكي، أقدم مهنة فنية معقدة في هذه البلاد، خدمت الأمن وكرّست الوحدة، أضفى الله عليه لباس العفو والعافية.

(٢٣)

د. محمد بن عبد الرحمن الشامخ

جريدة عكاظ: ١٥/٠٢/١٤٢٥هـ الموافق (٥ أبريل ٢٠٠٤م) ، العدد (١٣٧٣٦).



إذا كان صمت د. عبدالله الوهيبي، كما جاء في حلقة سابقة، يُحيّر عارفيه، فإن عزلة الدكتور الشامخ، هي الأخرى، تدعو للاهتمام والتساؤل والعتب، فهو قد آثر ـ بعد تقاعده ـ النزوح إلى مدينته ـ عنيزة ـ والعيش عيشة هادئة، بعيداً عن ضجيج العاصمة، وتباعد العلاقات الاجتماعية فيها.

العودة إلى مدينته، والبحث عن الهدوء، أمران لا مُشاحّة فيهما، بل ويُغبط عليهما، ولكن ما قد يؤخذ عليه من محبيه، أن يتواضع أكثر مما يلزم، بأن ينسى تاريخه البحثي والعلمي، ويحرم طلابه من معرفته وثقافاته، وأن يعتزل علمياً وفكرياً، مع أن القصيم يشكّل إحدى منارات التعليم والثقافة في بلادنا، وأحد مراكز العمل الاجتماعي النشط.

لقد كان د. الشامخ من أوائل الحاصلين من بريطانيا على الدكتوراه من معيدي جامعتنا الأولى (الملك سعود) المبتعثين، فبعد عودة د. عبدالعزيز الخويطر، ومن بعده د. رضا عبيد، جاءت دفعة الدكاترة: الضبيب والأنصاري والحازمي والشامخ والبدلي والشاذلي وعزت خطاب والشعفي وغيرهم في منتصف الثمانينيات الهجرية (الستينيات الميلادية)، وكانت أطروحته عن (النثر الأدبي في الحجاز: ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م)، وقد

استلّ من رسالته هذه ثلاثة كتب قيّمة: الأول عن الصحافة في الحجاز (١٣٩١هـ - ١٩٧١م)، والثاني عن التعليم في الحجاز أواخر العهد العثماني (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م) والثالث عن النثر الأدبي في المملكة (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م)، وقد أعيد طبعها.

لا يتسع المقام لتناول الشق الأدبي من عمله، ولا ما يتصل بتاريخ بدايات التعليم، لكن تحقيقه لبدايات الصحافة والطباعة في الحجاز كان الأدق والأوثق في مجالهما، إذ صحّح عدداً من الانطباعات والأخطاء التاريخية والموضوعية في المعلومات المتداولة في الدراسات والمقالات المنشورة، مما يتصل بتاريخ الصحافة والطباعة في الحجاز، في أواخر العهدين التركي، والهاشمي، ثم مطلع العهد السعودي، وقد حسمت نتائج دراسته تفاوت المعلومات السابقة، وصارت مرجعاً لمن خلفه يعتمد عليها، ولابد أن أبحاثه الأخرى في مجال النثر الأدبي وبدايات التعليم قد أتيا بالنتيجة نفسها من العمق والدقة والاستقصاء.

الدكتور الشامخ، هو من مواليد عنيزة عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٣م)، وقد حصل على الليسانس من جامعة القاهرة عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م)، وبعد نيله الدكتوراه عُيّن عضو هيئة التدريس في جامعة الملك سعود، متدرجاً فيها حتى وصل إلى درجة الأستاذية عام ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م)، وتقاعد مبكراً قبل سبعة عشر عاماً، وله من الأولاد خالد و (٥) بنات.

وللدكتور الشامخ كتب أخرى بعنوان: كاتب الحي، مجموعة مقالات صدرت عام ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م)، وإعداد البحث العلمي (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، وثالث بعنوان: البحث عن أدب يُصلح الأرض العربية ولا يُفسد فيها، وقد صدر عام ١٤١٨هـ (١٩٩٨م) ضمن سلسلة (كتاب جريدة الرياض) ثم أعيد طبعه، كما أن له قديماً عدداً من المقالات المنشورة.

يصدُق على د. الشامخ ما وصف به الشيخ عبدالعزيز السالم أحد أقرانه من منكري ذاتهم بأنهم «**يَحْيَون في سلامة نفسية، يسعدُون بالعيش في أضواء خافتة، ويتحدثون بكلمات هامسة، ويجلسون حيث ينتهي بهم المجلس، لا يعبؤون بالسلوكيات الخادعة، والمظاهر الصاخبة، والأضواء الصارخة، فهم لا يتطلعون إلى الشهرة، ولا يُبدون ما يتمتعون به من علم واسع وثقافة عميقة وفكر أصيل، ورسالتهم في الحياة أنهم (يمشون على الأرض هوناً)**»[1].

الدكتور الشامخ، شامخ بتواضعه ودقّة بحثه، محترم في مجتمعه وبين أقرانه، لكننا - تلامذته وأحباءه - نتمنى عليه أن يخفف من الاعتزال، فهو موهوب مطلوب مرغوب، ومن المبكر عليه أن يبتعد، وهو القادر - بجدارة وكفاءة - على العطاء والإبداع، وفقه الله ورعاه.

---

(١) من مقالة له بعنوان: الناسك الذي عاش في الظل (ويعني به الشيخ عبدالله الفالح)، جريدة الجزيرة، العدد (١٢٢٤١) في ٦/٣/١٤٢٧هـ (٤/٤/٢٠٠٦م).

(٢٤)

ناصر بن حمد المنقور

عكاظ: الإثنين ٢٢ صفر ١٤٢٥هـ، الموافق (١٢ أبريل ٢٠٠٤م)، العدد (١٣٧٤٣).







ناصر المنقور ومحمد أبالخيل في زيارة لمؤسسة الجزيرة الصحفية

إذا كان صحيحاً أن السجايا تولد مع الإنسان، فإن الشخصية فذّة، حباها الله، منذ الصغر، كتلة من الخصال، حبّبت المجتمع فيه، وأكسبته الوقار والاحترام، فهو ولد وتربّع على عرش من الدبلوماسية بوجهها الجميل، ورحابة صدر دون تكلّف، وكرم بلا مبالغة، وطول بال بلا إملال، وأخذ من العقل والرزانة والوفاء الشيء الكثير.

وهو تاريخ عريق في التربية والتعليم، وفي الثقافة، وفي الوزارة، ثم رست به السفينة في ميناء الدبلوماسية العريض، مدة تزيد على ثلاثة عقود، وكانت سجاياه الشخصية والاجتماعية تطغى على مناصبه، رغم ما حققه فيها من نجاحات، فمتى ما ذكر في مجتمع، برزت صورته في أذهان الحضور، بوصفه وجهاً سعودياً مرموقاً، بأدبه ولطفه ومجاملته وإنسانيته، وهو يعيد في الذاكرة جيل الوزراء والسفراء القدامى الكبار من أمثال: محمد عبدالله علي رضا، وإبراهيم السويّل، وعبدالعزيز بن زيد، وعمر السقاف، وعبدالرحمن العمران، ومحمد الشبيلي، وغيرهم ممن أتت هذه الزاوية على ذكرهم من قبل.

وهو من شريحة تعتزل الأضواء، قليلة الظهور الإعلامي حتى في أثناء عمله، لكنه ما أن ينتشر علم وجوده في مدينة في الداخل أو في الخارج، حتى يسارع إليه محبّوه، وهم كُثُر، لاقتناص فرصة الاجتماع به

وتكريمه، أو لرد مجاملة سابقة منه، فلا يكاد يقر في داره، أو يخلد إلى أسرته، أو يفرغ لأقاربه، وهو في حفاوته بالناس وحفاوتهم به شبيه بشقيقه الأكبر الشيخ عبدالمحسن المنقور (انظر ص ٣٥) مما يدلل على أن سجاياهما ذات منبع واحد.

لقد بنيا مجدهما في أفئدة الناس بحسن التعامل والمعروف، بعيداً عن الوظيفة ومتغيراتها، فكان ذلك هو الأبلغ والأبقى أثراً، وهما لم يغيرهما المنصب فلم يتغير معهما الناس، وتركا الوظيفة فلم يتخل عنهما المجتمع سواء كانا حاضرَين في البلاد أو غائبين.

إن مثل هذه الوجوه - الظاهرة - تستحق دراسة أنثروبولوجية اجتماعية، تستبين مكان الجاذبية وعناصر الوجاهة المستديمة، فهي ظاهرة تبرز في المجتمع الشرقي، وإن كانت لا تستند بالضرورة إلى رصيد المال أو انتماء القبيلة أو الجغرافيا.

ولد الشيخ ناصر المنقور في حوطة سدير بمنطقة نجد عام ١٣٤٨هـ (١٩٣٠م)، ودرس الابتدائية والثانوية في مكة المكرمة والطائف، وتخرج من آداب جامعة القاهرة (١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م) وصار معتمد التعليم في نجد، متدرّجاً في وظائف تعليمية حتى صار مديراً عاماً لوزارة المعارف، وكان أول مدير سعودي لجامعة الملك سعود (١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م). ثم عُين وزير دولة لشؤون رئاسة مجلس الوزراء ووزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية،

ومنذ عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) ولمدة ثلاثين عاماً ساح في عالم الدبلوماسية، سفيراً في اليابان (ومعها كوريا وتايوان) ثم السويد (ومعها النرويج والدنمارك) ثم أسبانيا، وأخيراً بقي في بريطانيا وإيرلندا (١٢) سنة صار خلالها عميداً للسلك الدبلوماسي العربي والأجنبي، ومنح في هذه الدول أرفع أوسمتها، وله من الأولاد أحمد وهاني ونورة.

هناك محطات قصيرة في حياته العملية جرّب فيها العمل الحر، رئيساً لمجلس إدارة كهرباء الوسطى، ثم مديراً عاماً لشركة أسمنت اليمامة، وافتتح مكتباً تجارياً خاصاً به، وعندما كان طالباً في القاهرة، تعاون مع الشيخ حمد الجاسر في إصدار مجلة «اليمامة»، وانضم لاحقاً إلى عضوية مؤسسة اليمامة الصحفية عند قيامها، وله مقالات ومشاركات ثقافية منشورة، وقد اختير عضواً في المجلس الأعلى لمعهد المخطوطات التابع للجامعة العربية، وعضواً في مجلس إدارة معهد الدراسات الدبلوماسية بالرياض[1].

وبعد.. إن هناك من السفراء من ينجح في دبلوماسيته عبر المهارة السياسية، وهناك من يبرع فيها عبر مدرسة الأخلاق، وأظن أن الشيخ ناصر هو أحد المنتمين إلى الفئتين معاً، إنه إرث من أصالة الدبلوماسية ومكارم الأخلاق.

---

(١) لمزيد من سيرته، يرجى العودة إلى ما نشرته جريدة الجزيرة، العدد (١٢٥٦٤) بتاريخ ٣/٢/١٤٢٨هـ (٢١/٢/٢٠٠٧م) بمناسبة افتتاح مركز صحي أقيم على نفقته وإخوانه في حوطة سدير

(٢٥)

د. عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان

عكاظ: نشر في ٣ حلقات، الاثنين ٣٠ صفر ١٤٢٥هـ، الموافق (١٩إبريل ٢٠٠٤م)، العدد (١٣٧٥٠)، وفي الأسبوعين اللاحقين.



ومن كفايات الندرة في مجتمعنا، البعيدة عن الأضواء، فقيه عصري مستنير، بلغ مرتبة علمية وبحثية رفيعة، وهو يتوارى في مجتمعه القريب في مكة المكرمة، فكيف بما حولها أو أبعد، من المدن والقرى.

منذ عرفته في مناسبة ثقافية في النادي الأدبي بمكة المكرمة قبل عشر سنوات، ثم شاركته قبل عامين في ندوة الجنادرية (عالمية الإسلام)، والرجل يزداد في العين منزلة بعلمه، وقدراً بتواضعه، ورفعة لخُلقه، واحتراماً لجهوده في البحث والاستقصاء، يضيف المرء بمعرفته أسهماً نوعية إلى أرصدته، ويتمنى لو عرفته منذ زمن.

ولعل قراءة في سيرته، تكشف بعض مكامن التميّز والاختلاف عنده، ففي البداية، تبرز نشأته في مكة المكرمة، أسرة ومولداً وتربية ودراسة، وهي ميزة كل من ترعرع في هذه المدينة المقدسة، ونهل من إرثها المعرفي وكنزها الروحي الثمين.

والاستدلال على «عظمة المكان» و «روعته» اللتين تتجلّيان في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ليس أمراً غريباً ولا جديداً، لكنه نادراً ما يُعار من الاهتمام في دراسات السير الذاتية ما يستحق، وقد وفّى الدكتور أبو سليمان انتماءه هذا، خاصاً المقدسات بكثير من دراساته واهتماماته البحثية.

إن من درس في مكة المكرمة والمدينة المنورة، بجوار الحرمين الشريفين، حيث تلتقي الثقافات، ويجتمع العلماء من أصقاع العالم الإسلامي، تتميز دراساته بالعمق والانفتاح، يُلحظ ذلك مع أهلهما، ومع من يُهاجر إليهما مجاوراً من أنحاء أخرى (مثل الشيخ محمد بن جبير والشيخ حمد الجاسر والدكتور عبدالعزيز الخويطر والشيخ عبدالله بن خميس والشيخ عبدالعزيز المسند والشيخ حسن آل الشيخ.. وغيرهم كثيرون).

ثم يأتي محيط الأسرة، إذ كانت أسرة علم وتربية وثقافة يوجد فيها مثل أبناء عمومته د. عبدالحميد الذي انتُدب مديراً للجامعة الإسلامية في ماليزيا، والأستاذ جميل أبو سليمان الذي تقلب في عدد من المناصب التعليمية والثقافية.

ثم يصل المرء إلى عامل ثالث في غاية الأهمية، وهو الابتعاث للخارج (إلى بريطانيا) لدراسة الفقه، والحصول على الدكتوراه من جامعة لندن ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) مع دبلوم إضافي في الدراسات الحقوقية والقانون الإنجليزي من لندن أيضاً.

إن بعض مؤسسات التعليم العالي تتمسك مؤخراً بالابتعاث الداخلي للدراسات العربية والإسلامية، وذلك لتوافر متطلباتها محلياً، ومع التسليم بصحة ذلك، إلا أن الابتعاث إلى الخارج يفتح للمبتعث آفاقاً لا تُحصى، فالمسألة ليست مسألة كتب ومعلمين، بقدر ما هو التثقيف وتنويع مصادر

المعرفة، والدليل على ذلك أن الدكتور أبو سليمان يتميز في هيئة كبار العلماء بإجادة لغة أجنبية، ولولا لغته لما تمكّن - كما سيأتي - من أن يقضي عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٧م) باحثاً ومحاضراً في الفقه الإسلامي في جامعة هارفرد وبوسطن، وعاماً لاحقاً آخر أستاذاً زائراً في جامعة ديوك الأمريكية، ولا أن يُمثل المملكة في مؤتمرات القانون الدولي.

أما السمة الرابعة لكفاءته، فهي التمازج بين الفقه الشرعي والقانون الدولي، مما يندر بين علمائنا اليوم، مع أن ظروف الانفتاح على العالم توجب أن يكون بيننا ملمّون بدراسات المقارنة.

د. عبدالوهاب أبو سليمان لا توفيه حلقة أو حلقتان، ولكن حَسْب هذه الزاوية أن تُلمح إلى أعلام بلا إعلام، يعيشون بيننا، تمنعهم عزة النفس من الظهور والإعلام لا يبحث عنهم:

١ - إن السائح في سيرته، والمتجوّل في معرض حياته، يتوقّف طويلاً أمام ثماني لوحات ناطقة، لافتة للنظر، تبدأ بصورة ذلك اليتيم الذي ولد عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) في مكة المكرمة، والتحق بمدرسة دار الأيتام، ذلك أن اليُتم كثيراً ما يؤدي إلى النبوغ متى ما حظي الصغير بالرعاية الحانية الراشدة، فلقد توفي والده وعبدالوهاب في الخامسة من العمر.

٢ ـ ثم إنه بعد تخرجه في كلية الشريعة، أولى ركائز التعليم العالي في المملكة، وتعيينه عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) معلّماً للفقه والتفسير في إحدى مدارس مكة المكرمة، لم يُصبه الغرور بشهادته الجامعية، التي كانت تعدّ آنذاك عملة صعبة تتلقفها أجهزة الدولة والقضاء، بل سعى إلى ملازمة الشيخ حسن مشّاط، الفقيه القاضي والمدرّس بالحرم الشريف، ملازمة دامت، في المنزل وفي الحرم، سبع سنوات، تلقّن فيها تطبيقات في العلوم الشرعية والعربية فوق ما درسه في كليته (والشيخ المشّاط، أحد كبار علماء الحرم، وهو خريج المدرسة الصولتية، وقد توفي عام ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، مخلّفاً أكثر من ١٥ مؤلفاً)، ثم اختير د. عبدالوهاب بعد ستة أعوام مدرساً في كلية الشريعة، وقد تزوج ورزق بأنس وأربع بنات.

٣ ـ اللوحة الثالثة المعّبرة، هي ابتعاثه لنيل الدكتوراه من بريطانيا عام ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م) في الفقه المقارن من جامعة لندن، مع دبلوم عالٍ في الحقوق، وقد عاد بعد خمسة أعوام ليصبح عميداً لكليته، ويبلغ الأستاذية، ويشارك في لجان تطوير المناهج وفي تقويم الشهادات وفي المجلس العلمي.

٤ ـ ثم ينتقل د. أبو سليمان إلى طور العالميّة في حياته العلمية، فلقد انتُدب أستاذاً باحثاً في الفقه الإسلامي بجامعتي هارفرد وبوسطن، وفي عام آخر إلى جامعة ديوك، وفي عام ثالث إلى الجامعة الإسلامية العالمية

بماليزيا، وفي عام رابع إلى جامعة الإمارات، كما شارك في عضوية لجان الخبرة في مجمع الفقه الإسلامي بمنظمة المؤتمر الإسلامي، وهيئة الزكاة بالكويت، واللجنة العلمية بالبنك الإسلامي للتنمية، ومشروع الفقه المالكي بدبي وغيرها.

٥ ـ أما اللوحة الخامسة، وهي الأرحب، فتمثل مجال الإنتاج العلمي للدكتور عبدالوهاب أبو سليمان، إذ سبح في عالم التحقيق والبحث والتأليف والمحاضرات، فألّف ستة كتب في الفقه الإسلامي وثلاثة كتب في الدراسات الأصولية، وستة كتب في منهجية البحث العلمي، وستة كتب في دراسات التاريخ والعقائد.

٦ ـ كما قدّم د. عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان بحوثاً عدة في قضايا الزكاة، وفي عقود المعاملات، والتعامل مع «النوازل»، وفي أمور فقهية حديثة متنوعة، وخص المشاعر المقدسة والحرم المكي الشريف ومناسك الحج بالكثير من أبحاثه ودراساته ومحاضراته، التي تميزت بالأصالة.

فالعلَامة الفارقة في تحصيله هي تركيزه على قضايا معاصرة في الفقه الإسلامي، مثل عقود التأمين ومواقيت الحج والبطاقات البنكية والوقف وفقه الضرورات، وهو في تميزه يتمم الجهود التي يبذلها علماء محدثون من أمثال د. صالح بن حميد ود. بكر أبوزيد ود. يعقوب الباحسين.

٧ ـ ومما يُقدّر له أيضاً، جهوده في مسألة تدوين الأحكام الفقهية على المذاهب الإسلامية الراجحة، والدعوة لتقنينها، وكان هذا الموضوع من اهتمامات شيخنا الراحل محمد بن جبير، فالدكتور عبدالوهاب ـ بمشاركة زميله د. محمد إبراهيم أحمد علي ـ وجّه قسطاً من أعماله لتحقيق مجلة الأحكام الفقهية (لأحمد قاري) التي ظهرت في بدايات عهد الملك عبدالعزيز في الحجاز، يضاف إلى ذلك كثرة تأمله في المذاهب الإسلامية الأخرى، وبخاصة الشافعية، لاستكشاف فوائد التيسير فيها على المسلمين.

٨ ـ لقد جاءت ذروة التقدير لبلوغه درجة عالية من التأهيل العلمي والمعرفي في مجال الشريعة والفقه المقارن والدراسات القانونية في اختياره عام ١٤١٣هـ (١٩٩٣م) عضواً في هيئة كبار العلماء، وهي ثقة تدلل على منزلة نزاهته، وتكريم يليق بصدقيته وتواضعه، نفع الله بعلمه وزاده رفعة ومقاماً.

(٢٦)

محمد سرور الصبان

ندوة جامعة أم القرى بمكة المكرمة عن مآثر الشيخ محمد سرور الصبان، الأحد ١٤٢٥/٣/٢٠هـ (٢٠٠٤/٥/٩م)، ثم نشر في اليوم التالي والذي بعده في جريدة عكاظ (العددين: ٣١٧٧٢ و ٣١٧٧٣).



رغم معاصرتي ـ خلال عملي الإعلامي ـ للسنوات الثماني الأخيرة من حياة الشيخ محمد سرور الصبان، إلا أنني لم ألتق به أو أجتمع، والواقع أن المتعمّق في تاريخ الإعلام السعودي المبكر في الحجاز، يجده حاضراً في عدد من المواقع المؤثرة في صياغة هذا التاريخ، وبخاصة فيما يتصل بتطور الصحافة والطباعة وبتأسيس الإذاعة السعودية، فضلاً عن إسهاماته المعروفة في الحركة الثقافية بشكل عام.

وفي هذه الندوة المخصصة ـ بجامعة أم القرى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م ـ للاحتفاء بالسجل الإداري والاجتماعي والثقافي للشيخ الصبان، تلقي هذه الورقة الضوء على جانب واحد مُغْفَل من جوانب سيرته الثقافية المتنوعة الملامح والسمات، وهو دوره المتصل بالإعلام، وإن كان جانباً يلتقي مع غيره من محاور الندوة في مصب واحد، فهو ـ بلا ريب ـ وجه ثقافي وأدبي وإعلامي واجتماعي، ذو أبعاد متعددة.

وإذ يذكر الوسط الثقافي والأدبي هذا السعودي الفذّ، وينصف جهوده الفكرية والاجتماعية والإدارية، وبخاصة عندما يرصد بداية النهضة الأدبية السعودية في الحجاز، وظهور كتابيه: أدب الحجاز (الشعري ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٥م)، والمعرض (النثري ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٦م)، وتأسيس مكتبته (المكتبة الحجازية) في مكة المكرمة، فإن

المؤرخين الإعلاميين لا يوفون الصبان حقه نظير تأثيره فيما يتصل ببدايات الصحافة والطباعة والإذاعة السعودية.

لعل العلامة الأوضح في التاريخ الصحفي للشيخ الصبان تتمثل في «ثلاثي» الشركة العربية للطبع والنشر وجريدة (صوت الحجاز) وجريدة (البلاد السعودية التي أصبحت فيما بعد تسمى «البلاد»)، وهو مثلث بدأ في عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) بتأسيس تلك الشركة التي تُعد أول تكوين إعلامي أهلي من نوعه، سبق إنشاء المؤسسات الصحفية بثلاثين عاماً.

هذا التكوين الإعلامي الذي لم يقدّر الكثيرون أهميته في حينه، كان شكلاً متقدماً للتكتلات الإعلامية الحديثة، التي برزت في أيامنا المعاصرة، بوصفها الأقدر - في الغالب - على إيجاد صناعة صحفية منافسة، ولو قدّر للشركة أن تستمر بعد عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) بالقوة التي بدأت بها، وبالفكرة التي أنشئت من أجلها، فربما أصبحت في يومنا هذا إمبراطورية إعلامية رائدة ومؤثرة في مسيرة الصحافة السعودية.

تبدأ القصة، مع محمد صالح نصيف، الذي كان يتولى تحرير صحيفة (بريد الحجاز) الهاشمية في جدة، ثم حصل في ذي القعدة عام ١٣٥٠هـ (أبريل سنة ١٩٣٢م) على امتياز إصدار جريدة (صوت

الحجاز)، لتكون بذلك أول جريدة أهلية تصدر في العهد السعودي.

ومع أن جريدة (أم القرى) قد أشارت في عددها رقم (٣٧٩) الصادر بتاريخ ١٠/١١/١٣٥٠هـ (١٧/٣/١٩٣٢م) إلى أن عبدالوهاب آشي كان شريكاً له في الامتياز، إلا أن ذلك لم يثبت فيما بعد، ولكن المؤكد أنه كان في مقدمة المثقفين الذين تعاقبوا على تولي مسؤولية التحرير، ومنهم محمد حسن فقي وحسن كتبي ومحمد سعيد العامودي، بل كان بعضهم ـ وبتشجيع من المؤرخ والصحفي الكويتي (السعودي الأصل) عبدالعزيز الرشيد ـ قد شكل «لفيف الشباب» الذين أبدوا للملك عبدالعزيز الرغبة مع نصيف في إصدار الجريدة، وذلك وفقاً لما جاء في العدد (٣٧٠) من جريدة (أم القرى).

ظلت الجريدة بعد صدور عددها الأول يوم ٢٧/١١/١٣٥٠هـ الموافق (٣/٤/١٩٣٢م) تطبع أسبوعياً في المطبعة السلفية، وهي ـ ذاتها ـ مطبعة (المنار) المصرية للشيخ محمد رشيد رضا، وكانت مطبعة قديمة تُدار باليد، اشتراها محمد صالح نصيف وعبدالفتاح قتلان، وأقيمت في منزل الشيخ نصيف في محلة (أجياد)، وقد كان صدور الجريدة حدثاً تاريخياً مهماً في مسيرة الثقافة السعودية، حيث صارت معرضاً لأقلام الشباب المتحمس ـ ومن بينهم الصبّان ـ ومسرحاً لأفكارهم ومبارزاتهم، ونشر شعرهم ونثرهم ونقدهم.

ويبدو أن الشيخ الصبان، الذي كان يُعد من أبرز أدباء تلك الفترة وأكثرهم حماسة، كان يبحث عن نافذة يعرض من خلالها أفكاره ومقالاته، حتى لقد ذكر عبدالله عمر خيّاط نقلاً عن محمد علي مغربي، أن الشيخ الصبان سبق أن اشترى من الشيخ نصيف امتياز (بريد الحجاز) التي أصدرها الشريف علي بن الحسين في جدة عام ١٣٤٣/١٣٤٤هـ، وهي معلومة لم أجد ما يؤكدها في مصدر آخر، وإن كنت أشكك بدقتها على أساس أن الجريدة كانت تابعة للشريف علي وانتهت بانتهاء حكمه خلال عام بعد صدور (٥٥) عدداً منها.

ربما كانت الظروف السياسية التي مر بها الشيخ الصبان في عامي ١٣٤٣هـ و ١٣٤٦هـ حائلاً دون إقدامه على طلب امتياز صحيفة باسمه، فاتجه إلى تأسيس شركة الطبع والنشر لشراء امتياز قائم (وهو امتياز صوت الحجاز)، التي كان قد مضى على صدورها أربع سنوات، ظهر خلالها (١٥٢) عدداً.

لم أجد في المراجع المتاحة التي أمكن الاطلاع عليها، أسماء الشركاء الذين تكوّنت هذه الشركة منهم، غير أن الأستاذ أمين عبدالله قرقوري ذكر لي أن منهم أخاه عبدالله سرور الصبان وعبدالحي قزاز وحسن الشربتلي، ويذكر محمد علي مغربي في أعلام الحجاز (ج ٣) أن الصبان اختار أحمد السباعي مديراً للشركة

ومطبعتها والمغربي مراقباً للحسابات، لكنهما ـ في الغالب ـ لم يكونا شريكين في الشركة، وبحكم أن مجلس الشورى ـ آنذاك ـ كان المخوّل بإقرار إنشاء الشركات، فقد نظر في ذلك العام، في نظام الشركة ووافق عليه.

كانت الشركة، بالإضافة إلى إصدار (صوت الحجاز) وطباعتها، تقوم بطبع الكتب المدرسية، كما تولّت طباعة مجلة (المنهل) بعد انتقالها من المدينة المنورة قبل أن تستقر في جدة، وكانت الشركة، قد جلبت لتنفيذ هذه الأعمال الطباعية مطبعة جديدة (سميت المطبعة العربية) واتخذت من (محلة الشامية) مقراً لها، وذلك وفقاً لما ذكره عبدالقدوس الأنصاري في (الكتاب الفضي للمنهل)، ولقد كان انتقال (صوت الحجاز) إلى ملكيتها الجديدة، وجلب مطبعة متطورة لها بمثابة الميلاد الثاني لها.

أما بالنسبة (لصوت الحجاز)، فقد عيّن الصبان أحمد قنديل رئيساً لتحريرها لفترة قصيرة، خلفه أحمد السباعي، الذي لم يستمر طويلاً، فعين فؤاد شاكر رئيساً للتحرير من عام ١٣٥٧هـ وحتى ١٣٦٠هـ، ويبدو أن صحيفة (صوت الحجاز) صارت في ظل رئيس تحريرها الأخير تصدر مرتين في الأسبوع، وذلك بدءًا من العدد (٣٤٢ عام ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٩م)، حتى اضطرتها ظروف الحرب العالمية الثانية

للتوقف أسوة بغيرها من الصحف السعودية الأخرى، التي صدر بلاغ قلم المطبوعات رقم (٦٣) وتاريخ ١٣٦٠/٩/٢٧هـ (١٩٤١م) بإيقافها، وكانت (صوت الحجاز) قد بلغت العدد رقم (٥٤٢) عند توقفها، بعد عشرة أعوام تميزت بالمحتوى الفكري المتميز والموضوعات الثقافية المتنوعة، وقد قام د. منصور الحازمي بتكشيف مادتها الأدبية في كتاب جاهز للصدور.

وبعد خمس سنوات من التوقف (١٣٦٥/٤/١هـ - ١٩٤٦/٣/٤م) عادت الجريدة باسم جديد هو (البلاد السعودية)، وبرئيس تحرير جديد هو عبدالله عريف، لكنها ارتبطت بسابقتها - صوت الحجاز - بأمرين: الشركة صاحبة الامتياز التي لم تتغير، والترقيم السابق الذي بني عليه الإصدار الجديد (٥٩٣)، مما يدلل على أن (البلاد السعودية) في سمتها الجديدة هي امتداد (لصوت الحجاز)، وقد سبقت (البلاد) الصحف السعودية الأخرى بمسألتين: الأولى: الصدور اليومي، فلقد تدرجت من الصدور ثلاث مرات في الأسبوع بدءًا من العدد الألف ١٣٧٠هـ (١٩٥١م) إلى الصدور بشكل يومي بدءاً من العدد (١٤١٢) عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م)، أما الثانية: فهي استخدام الصور الفوتوغرافية الذي تدرجت فيه أيضاً بين عامي ١٣٦٥هـ وحتى ١٣٧٠هـ، ويلحظ أن هاذين السبقين قد تحققا في عهد الملك عبدالعزيز.

استمرت الشركة العربية للطبع والنشر، برئاسة الشيخ محمد سرور الصبان تصدر جريدة (البلاد السعودية) من عام ١٣٦٥هـ وحتى ١٣٧٨/٧/١٦هـ (١٩٥٩/١/٢٥) حيث أصدرت (٢٩٦١) عدداً، عندما دخلت مرحلة رابعة من حياتها، هي اندماجها مع جريدة (عرفات) التي كان يملك امتيازها حسن عبدالحي قزاز، فأسفر الاندماج عن صحيفة (البلاد)، التي أصبح يرأس تحريرها كل من فؤاد شاكر وحسن قزاز، وقد دخل القزاز في ملكية الجريدة مناصفة مع الشركة العربية للطبع والنشر، علماً بأن والده عبدالحي قزاز كان ـ كما سلف ـ أحد مؤسسي الشركة الأولى.

ظلت الجريدة تصدر حتى عام ١٣٨٣هـ عندما أُنهي امتيازها بموجب نظام المؤسسات الصحفية، بعد أن صدر منها (١٥٥٦) عدداً، إذ كانت بعد الدمج قد صدرت بترقيم جديد، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل دخل بعض أعضاء الشركة العربية للطبع والنشر، وفي مقدمتهم محمد سرور الصبان وحسن قزاز في مؤسسة البلاد الصحفية الجديدة، التي واصلت إصدار الجريدة بدءًا من العدد (١٥٥٧) وحتى اليوم.

لقد كان الشيخ محمد سرور يكتب باسمه الصريح، أو تحت الأسماء المستعارة (أبو فراس ومحجوب و: م س الصبان)، مقالات

أدبية ومختارات شعرية وذكريات تاريخية وآراء اقتصادية، نشر كثيراً منها في مجلة (المنهل) ومجلة (الحج)، وفي (صوت الحجاز) وفي (البلاد)، لكن القليل منها كان يصب في حقل الإعلام، ويقول محمد علي مغربي في (أعلام الحجاز): إن انضمام الصبان إلى وزارة المالية مع بعض المثقفين من أمثال: محمد حسن فقي وحسن كتبي وأحمد قنديل وعبدالوهاب آشي، قد ساعد في تحسين لغة الكتابة في ديوان الوزارة وفي جهاز الدولة بشكل عام.

وبعد : إن نجاح محمد سرور الصبان وشركائه قبل سبعين عاماً في استمرار إصدار (صوت الحجاز) وتحويلها إلى جريدة (البلاد) ذات التاريخ العريق الذي تم استعراضه، والتي تحتضر اليوم في ظل ملكية (٣٠) مؤسساً، ليس بينهم من يُعد نفسه أباً روحياً للجريدة ـ كما كان يفعل محمد صالح نصيف أو محمد سرور الصبان وحسن عبدالحي قزاز ـ يضع علامة استفهام كبرى أمام نظام المؤسسات الصحفية الذي عجز أن ينقذ (البلاد) ومثيلتها (الندوة) من الانهيار.

من مآثر الشيخ الصبان، الذي تذكر له، والحديث عن الطباعة والنشر، سعيه إلى تأسيس شركة طباعية رائدة مماثلة، وهي شركة مصحف مكة المكرمة عام ١٣٦٩هـ (١٩٤٩م) مع محمد علي مغربي والخطاط محمد طاهر الكردي وإبراهيم النوري وغيرهم، الشركة

التي جلبت مطبعة أمريكية جديدة لطباعة المصحف الشريف لأول مرة في تاريخ مكة المكرمة، في خطوة متقدمة تمت في أواخر عهد الملك عبدالعزيز، وقد خصصت الجريدة الرسمية (أم القرى) عددها ذا الرقم (١٣١٢) الصادر بتاريخ ١٣٦٩/٨/٢هـ (١٩٥٠/٥/١٩م) لإعطاء معلومات تفصيلية عن هذه الشركة ومطبعتها وعن مصحف مكة المكرمة، مما يغني عن التكرار.

وإذا كان راصدو الحركة الثقافية السعودية، يتذكرون بعضاً مما تقدم من مآثره في مجال الطباعة والصحافة، فإن دوره في تأسيس الإذاعة ما يزال مجهولاً أو ربما غائباً، مع أن الواقع يقول: إن الشيخ الصبان ـ بوصفه مستشاراً بوزارة المالية ـ كان السند المالي الأكبر للإذاعة في بدايتها، وكان همزة الوصل بين إدارة الإذاعة وديوان وزارة المالية، والقريب إلى أسرة الإذاعة بثقافته ومرونته وتقديره للظروف، ومعايشته للهموم، وكان الضمير المستتر وراء نموها.

كان الملك عبدالعزيز قد وافق على تأسيس الإذاعة بناءً على فكرة من ولي عهده الأمير سعود، وقد أوكل جلالته أمر الإشراف عليها إلى نائبه في الحجاز الأمير فيصل، وتولى وزير المالية عبدالله السليمان أمر وضع المواصفات وإبرام عقد التركيب والصيانة والتأسيس، فافتتحت في جدة في ذي الحجة عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م).

كانت الإذاعة ترتبط إدارياً بالشيخ الصبان، الذي سعى في عامها الثالث إلى تنفيذ الجزء الثاني من مشروعها، المتمثل في إقامة مركز فني وآخر إداري لها في مكة المكرمة، مما مكن الإذاعة من الانتقال إلى العاصمة المقدسة مطلع سنة ١٣٧١هـ في حفل افتتاح (في مقرها الفني على جبل هندي) رعاه الأمير فيصل نائب الملك في الحجاز مساء يوم الثلاثاء ١٣٧١/١/١هـ (١٩٥١/١٠/٢١م)، وقد نشرت (البلاد) في حينه كلمة للشيخ الصبان بهذه المناسبة، كما نشرت جريدة (أم القرى، العدد ١٣٨١) مع غيرها من الصحف تفاصيل الحفل المذكور، الذي بدأ بكلمة افتتاحية من سموه، ثم بكلمة مدير عام الإذاعة المساعد إبراهيم فودة، وألقى فيه فؤاد شاكر وأحمد الغزاوي قصيدتين.

ثم استمر دور الشيخ الصبان وعلاقته بالإذاعة، لدرجة أنه صار مشرفاً على مديرية الحج والإذاعة التي تأسست عام ١٣٧٢هـ نتيجة دمج هاتين المديريتين التابعتين لوزارة المالية في مديرية واحدة، صدر بها أمر سام من ولي العهد الأمير سعود بن عبدالعزيز برقم (١٥٠) وتاريخ ١٣٧٢/١/٢هـ (١٩٥٢/١٠/٢٠م).

فلقد نصت الفقرة الثانية منه على أن تخضع المديرية لإشراف وزير المالية وتوجيهه، ونصت المادة الثالثة على أن ينتدب وزير المالية ـ

من قِبَله ـ نائباً عنه في الإشراف على إدارتها، فبعد نحو شهرين صدر ما يشير إلى تكليف الشيخ محمد سرور الصبان بهذه المهمة، ونشر في حينه في جريدة (أم القرى، العدد ١٤٤٤ بتاريخ ١٣٧٢/٤/٩هـ ـ ١٩٥٢/١٢/٢٦م)، وظل الأمر على هذه الحال مدة تزيد على عامين حين صدر مرسوم ملكي في عهد الملك سعود (رقم ١٠٠٠٧/١٦/٣/٧ وتاريخ ١٣٧٤/٦/١٧هـ الموافق ١٩٥٥/٢/١٠م)، يقضي بارتباط مديرية الإذاعة برئيس مجلس الوزراء، وهو ما أنهى ارتباطها بوزارة المالية، وبالتالي بالشيخ محمد سرور الصبان، بعد خمسة أعوام من الإسهام الفاعل في تأسيسها وتطويرها، وقد وُثقت تلك الفترة بكتيّب أصدرته الإذاعة عام ١٣٧١هـ، وبعدد خاص من مجلة (المنهل، صفر ١٣٧١هـ) يتضمن معلومات مهمة عنها، وكلمة عن نشأة الإذاعة للشيخ الصبان.

وأخيراً، إن دخول الشيخ الصبان إلى عالم الإعلام المطبوع، من خلال شراء امتياز صحيفة (صوت الحجاز) سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م)، مع تأسيس مطبعة خاصة لطباعتها وغيرها من المطبوعات والكتب، ثم مشاركته نيابة عن وزير المالية في إدارة الإذاعة، بل وتكليفه رسمياً سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) بالإشراف ـ أثناء عمله مستشاراً في وزارة المالية ـ على مديرية الحج والإذاعة، هي أمور لم تأت من فراغ.

كما لا ينبغي أن ينظر إلى اهتماماته بالصحافة والإذاعة، بمعزل عن انشغاله بقضايا الإدارة والفكر، فوسائل الإعلام تلك هي إحدى الأدوات الحاضنة للثقافة ونوافذ لإفراغ شحنات همّ التنوير الذي طالما سعى إلى تحقيقه منذ مطلع شبابه، لكن الغريب أن يبقى هذا الجانب وإبرازه، غائباً ـ حسب تقديري ـ من كل من رصد مسيرته، أو حلل شخصيته، أو قام بدراسة أدبه ورياداته الثقافية المتعددة، لدرجة أن عبدالله عريف، مؤلف كتاب رجل وعمل (الصادر عام ١٣٦٤هـ)، الذي خصصه لاستعراض مسيرة الصبان لم يتطرق البتة إلى تجربة الشركة العربية للطبع والنشر و (صوت الحجاز) من عام ١٣٥٤هـ إلى عام ١٣٦٠هـ، ولذا فإن من المرجو أن تسفر الندوة المقامة عنه في جامعة أم القرى، عن سِفْر جامع مستوفٍ عن الصبان ومآثره وأعماله، يضم فيما يضم المخطوط الذي كتبه الشيخ حسن كتبي.

لقد كان محمد سرور الصبان ـ كما كتب محمد علي مغربي في أعلام الحجاز، ود. ناصر الرشيد في مقالة بمجلة (الدارة)، وعبدالله عمر خياط في مقابلة بمجلة (الفيصل)، وإبراهيم عبده في كتابه سيرة من الحرمين، والدكتور أحمد زكي أبو شادي في حديثه الإذاعي عنه من إذاعة صوت أمريكا ونشرته (المنهل) في حينه، وطه عبدالباقي سرور، ومحمد عبدالمنعم خفاجي في السلسلة (٧) من أدباء الشرق، ود. زهير جميل كتبي، وهاني ماجد فيروزي، وغيرهم

كثيرون - يعيش منذ صغره هاجس التجديد والتنوير والعصرية والإصلاح في وطنه، وقد ولد مع تاريخ الصحوة الذهنية التي جاءت مع التخلص من حكم الأتراك، ووظّف ماله وجهده وعبقريته ومؤلفاته وكتاباته الجريئة كي يرى هذا الوطن، وقد خرج من عزلته، وتحلل من انغلاقه، واحتل مكان صدارة تتناسب وموقعه الروحي في العالم العربي والإسلامي.

(٢٧)

عبد الرحمن المنصور الزامل

الشرق الأوسط: الثلاثاء ٢٢ ربيع الأول ١٤٢٥هـ، الموافق (١١ مايو ٢٠٠٤م)، العدد (٩٢٩٦).



هذه هي المرة الثانية التي أتناول فيها قصة هذا الرجل، الذي هاجر ولم يرحل، وأكثر من التنقل والأسفار، لكنه لم يغب، وإذا صادف أن يكون كاتب هذه السطور على صلة قرابة به، فإن قصته في الواقع، تمثل حكاية المئات من السعوديين، الذين هاجروا تحت ظروف اقتصادية وأمنية معينة إلى الهند وبلاد الشام والعراق ومصر وبعض بلدان الخليج، ثم عادوا، وكانوا خلال هجرتهم في تواصل لا ينقطع مع مسقط رؤوسهم، في الحجاز والأحساء ونجد (وبخاصة في سدير والقصيم والزلفي) وغيرها من أنحاء السعودية، لكن أكثرهم عاد، بعد أن تحسنت الأحوال وتغيرت الظروف.

كانت الكتابة الأولى عنه بمناسبة تكريم أهالي مدينة عنيزة له في مركز ابن صالح الثقافي عشية السبت ١٤٢١/٨/١هـ (٢٠٠٠/١٠/٢٨م)[1]، وأحسب أن القارئ لن يملّ قراءة سيرة هؤلاء الرجال، فضلاً عن أن تأتي الكتابة تعبيراً عن مشاعرهم ومكنوناتهم عنهم، وأن يركز الوصف على الظاهرة وعلى الأشخاص النماذج لهذه الظاهرة.

والكتابة عن الشيخ الزامل، الذي يُعد اليوم عميد أسرته بفروعها، وكان يتخذ من المملكة والكويت مقراً مزدوجاً لإقامته، لابد أن تُقرأ

(١) نُشرت في اليوم التالي في جريدة الجزيرة.

من زوايا عدة، تشبه إلى حد كبير سيرة أمثاله من النجديين المقيمين في الكويت وجنوب العراق.

أولها: هجرته الأولى في نهاية الأربعينيات من القرن الهجري الفائت من مسقط رأسه (عنيزة) إلى البحرين، أولاً، بحثاً عن أفق أرحب في طلب الرزق، وحباً في المغامرة وركوب التحديات ومواجهة الصعوبات، شأنه في ذلك، بأسلوب مختلف، شأن عدد من تجار منطقته (العقيلات) الذين اشتهروا بتعاملاتهم مع البلدان المجاورة شمالاً وغرباً، في ظاهرة يؤرخ لها بقرنين من الزمان (١١٥٠ ـ ١٣٥٠هـ/ ١٧٥٠ ـ ١٩٥٠م) ونسجت حولها قصص واقعية وأساطير تصلح لمسلسلات تلفزيونية شيّقة.

لقد كان الشيخ الزامل من فئة من أقرانه، الذين فضلوا التوجه شرقاً عبر البحر إلى الهند والبحرين أو بلدان الخليج الأخرى، لدرجة أن كثيرين من أهل نجد استقروا هناك وأسسوا دوراً تجارية وأسراً ومضافات للزائرين السعوديين والعابرين، بقي بعضها حتى اليوم، لكنهم ظلوا محافظين على ثقافتهم ولغتهم ولهجاتهم، وعلى علاقاتهم بأوطانهم الأصلية.

أما الزاوية **الثانية**: فهي أن الشيخ الزامل، الذي تجاوز العقد التاسع من عمره، يعد أحد شهود العصر على مرحلة مهمة من تاريخ المنطقة، خاصة وأنه كان يحتل موقعاً اجتماعياً يسمح له بالرواية ويمنحه الصدقية،

ويجعل أحكامه تُؤخذ بالقبول والتسليم بما تختزنه ذاكرته من معلومات وذكريات، ومن حسن الحظ، أنه خص كاتب هذه السطور بحديث تلفزيوني شامل، عن سيرة حياته ومراحل تطورها، في توثيق قد يفيد الباحثين والمهتمين بدراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لمنطقة الخليج، كما أفاد شريط الحديث ليلة تكريمه قبل أعوام.

الشيخ الزامل - بحكم طفولته التي أمضاها في عنيزة وشبابه الذي قضى شطراً منه في البحرين، قبل أن ينتقل منها للاستقرار في الكويت، وكهولته التي عادت به جزئياً في هجرة العودة إلى الرياض وعنيزة - هو في الواقع، شاهد حال وإثبات، على التحولات الاقتصادية والاجتماعية المتسارعة التي شهدتها مجتمعات المملكة والكويت والبحرين في فترة التوحيد والاستقلال والاستقرار وتدفق النفط، وتحرك عجلة التنمية والتغيرات السكانية، التي لا تفيها الانطباعات الشخصية حقها من الوصف والتصوير.

لقد استعرت عنوان هذا المقال (بين هجرتين) من عنوان كتاب متسلسل الأجزاء، ألّفه عبدالرزاق الصانع وعبدالعزيز العلي - بدعم من الشيخ عبدالعزيز البابطين - عن إمارة الزبير، بجنوب العراق، التي استقبلت آلاف النجديين في القرنين الماضيين، ثم عادوا إلى وطنهم خلال

العقود الماضية، وبخاصة بعد أن تغيرت أحوال العراق نتيجة تعاقب الثورات والنكبات، في مقابل ما تشهده المملكة من أمان وازدهار.

الشيخ عبدالرحمن المنصور الزامل، مثل كثير من رجال الأعمال ووجهاء المجتمع من جيله، كان قد عاصر الكتاتيب، ثم قيام أول مدرسة حديثة أهلية، أنشأها صالح القرزعي وأخرى أسسها أستاذ الجيل صالح بن ناصر الصالح، وليرتقي بها سنة ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) عن أساليب الكتاتيب المعروفة في عنيزة آنذاك، يعاونه في ذلك شقيقه الراحل عبدالمحسن الذي لا يقل عنه انفتاحاً وسعة مدارك، وهما، وبالمناسبة، أخوا الشيخ عثمان الصالح المربي الفاضل المعروف.

قام الشقيقان بتطبيق بعض ما تعلماه في مدرسة (النجاة) الشهيرة في الزبير، وهي المدرسة التي أسسها الشيخ محمد أمين الشنقيطي عام ١٣٣٨هـ (١٩١٩م)، وكان إذ ذاك يتنقل بين عنيزة والزبير والكويت، وقد تركت هذه المدرسة أثراً تنويرياً مهماً في منطقة الخليج كافة.

كان الأستاذ صالح (وشقيقه عبدالمحسن) قد استقرا في عنيزة قرب أخوالهما، ليشكلا فيها توأمة عاطفية مع مدينتهما الأصلية (المجمعة، كبرى مدن إقليم سدير)، وكان من تأثيره أن أقام له تلاميذه ومحبوه بعد وفاته مركزاً ثقافياً باسمه، وجمعية خيرية تسعى لتحقيق الأهداف التي طالما نذر نفسه لإنجازها، وهي الجمعية الخيرية الصالحية ومركز

ابن صالح الثقافي بعنيزة.

وفي حدود عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) امتطى الشيخ الزامل الرواحل (الجمال) في رحلة مهلكة اجتازت نفود الدهناء إلى الأحساء، ومنها عبر شاحنة يركبها لأول مرة في حياته إلى (العقير) على ساحل الخليج، لتنقله سفينة شراعية ـ ولأول مرة في حياته أيضاً ـ إلى البحرين.

أما عن سبب اختيار البحرين وجهة لهجرته الأولى فلأن اثنين من وجهاء أسرته وهما عبدالله الحمد الزامل، وحمد السليمان الروق (الزامل)، كانا يقيمان شراكة تجارية معروفة، وقد شجعاه على الرحيل من عنيزة ليجرب حظه في التجارة بعد أن تبين أن حبل الود بينه وبين مدرسته يكاد يكون مقطوعاً.

مما يجدر ذكره أن عبدالله الحمد الزامل، هو والد الإخوة الاثني عشر: محمد ود. عبدالرحمن (عضو مجلس الشورى) وحمد وعبدالعزيز (وزير الصناعة السابق) وزامل وأحمد وسليمان وخالد وفهد وأديب ووليد وتوفيق، أصحاب مجموعة شركات الزامل التجارية والصناعية الشهيرة، وكان والدهم، الذي أسس نواة شركتهم، شخصية تجارية فذة لم يتطرق أحد بعد إلى توثيق سيرته، باستثناء ما ذكره ابنه عبدالعزيز في مقابلته المسلسلة في صحيفة عكاظ، ثم صدرت في كتاب سنة ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م).

في المنامة عملت شخصية هذا المقال فترة مع قريبيه (الزامل والروق)، ثم رغب في الاستقلال والاعتماد على النفس، فالتحق بإحدى أبرز دور التجارة البحرينية (شركة يوسف كانو) التي منحته مزيداً من الثقة واستأمنته على مستودعاتها مدة تقارب أربعة عشر عاماً، وهي مدة مكنته من معرفة دهاليز التجارة والصلات مع الهند، والتبادل مع بلدان الخليج الأخرى، وبخاصة دبي والشارقة اللتان قصدهما في سنة ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) في أول رحلة جوية له، رفقة رئيسه (معزّيه: يوسف كانو) ظل يتذكرها طيلة حياته.

كما يتذكر الشيخ الزامل ظروف نشوب الحرب العالمية الثانية، وآثارها العسكرية والاقتصادية على الخليج، منطقة النفوذ البريطاني (والعثماني سابقاً)، حيث كان من تعاملات (كانو) ما له علاقة بالتجهيزات والتموين العسكري.

ولأن الشيخ الزامل من مواليد سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٣م)، فإنه يعي كثيراً مما مر على نجد من حوادث، كان من أبرزها (وقعة السبلة ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م) التي وقعت وعمره (١٥) عاماً، وكانت تعد مفصلاً حاسماً في استقرار هذا الوطن ووحدته.

أما الزاوية **الثالثة**: فهي أن الشيخ الزامل، يشاركه رفيق دربه التجاري والاجتماعي: صالح العبد الرحمن العبدلي، قد اختارا الانتقال

إلى الكويت والاستقرار فيها، حيث كوّنا بيتاً تجارياً مشهوراً دام نصف قرن، يعد نموذجاً متميزاً في الثقة، والوفاء للوطن الأصل، حيث لا يكاد يمر عام واحد إلا ويقوم أحدهما ـ بالتناوب ـ بزيارة عنيزة ويقيم فيها إقامة لا تكفيها الأيام القليلة، كما يُنظر إليهما في الكويت بمثابة سفيرين للمجتمع السعودي، وذلك لتمسكهما بعاداتهما وتقاليدهما، وجمع السعوديين الزائرين في ضيافتهما وديوانيتهما، فإذا ما ارتحلا صيفاً أو في الأعياد إلى الوطن، فإنهما يجلبان معهما شيئاً من مظاهر المعيشة في الكويت، حتى عُدّا محسوبين على المجتمعين معاً بدرجة متساوية، والوفاء لوطنهما لا يكون بالزيارة أو قضاء الاجازة، وإنما بالمعايشة الحقة لكل أحوال المملكة، والتفاعل مع حلوها ومرها ومناسباتها الوطنية والاجتماعية، والإسهام البليغ بكل ما يلزم القيام به من واجبات.

ومن صور وفائهما، استثماراتهما الواسعة، وبخاصة في حقل الزراعة، حيث أسسا مزارع تعد من أفضل بساتين عنيزة وأجودها في الإنتاج (الغزيلية والمنصورية ودمشية).

وبعد: إنها الصورة ذات الأبعاد الثلاثة لأحد أبرز رموز الاقتصاد السعودي ـ الكويتي، الذي صاغته بيئة خرّجت العشرات من أمثاله، ممن ظلوا أوفياء لأوطانهم، نزيهين في تعاملاتهم، ومضرب مثل في نقاء

صلاتهم وشركاتهم، والبذل والعطاء داخل مجتمعاتهم، والإخلاص والولاء لبلدانهم، والحفاظ على قيمهم، إنه المهاجر الذي لم يرحل، فهو مسافر زاده الوفاء، أجزل الله له الأجر والثواب[1].

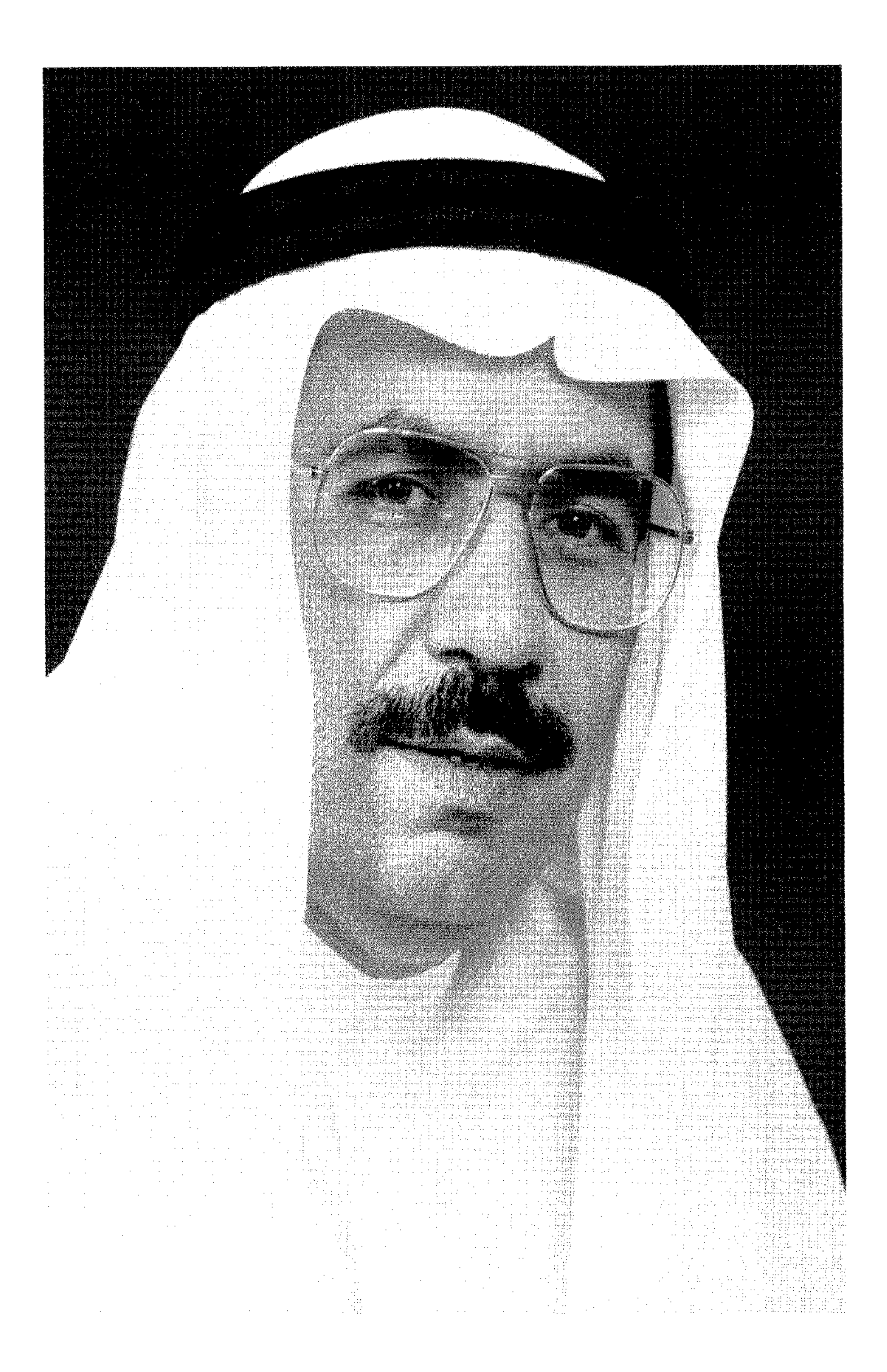
بقي أن يشار إلى أن للشيخ الزامل أخوين هما محمد وعبدالله، المعروفان بثقافتهما الشرعية الواسعة، وأنه قد خلّف من الأبناء: منصور وعبدالعزيز ومساعد وزامل، ومن البنات: مضاوي ولولوة وفوزية ونورة ومنيرة وفريدة ومنى وسعاد.

(١) توفي في الرياض فجر يوم ١٤٢٥/٩/٢٠هـ الموافق (٢٠٠٤/١١/٣م)، وكتب عنه المؤلف مقالاً رثائياً نشرته جريدة الاقتصادية بالعدد (٤٠٤٤) يوم السبت ١٤٢٥/٩/٢٣هـ الموافق (٢٠٠٤/١١/٦م).

(٢٨)

د. منصور بن إبراهيم التركي

عكاظ: الجمعة ٢ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ ، الموافق (٢١ مايو ٢٠٠٤م)، العدد (١٣٧٨٢).



«**الإدارة بالإرادة**»... تعبير للكاتب الموهوب إبراهيم بن عبدالرحمن التركي، عنواناً لكتابه عن سيرة أمين مدينة الرياض الأسبق عبدالله النعيم، وأود أن أضيف «النزاهة» ليكون العنوان أكمل في حق الاثنين د. التركي والنعيم، وأمثالهما ممن ودع الوظيفة بسجل نزيه ويد نظيفة وذكر حسن مشهود، جازماً - بإخلاص - بأنه لو كان في الدولة نماذج كهؤلاء على رأس الهرم الإداري لكل مصلحة، لما كان المجتمع بحاجة للحديث عن استراتيجية لمكافحة الفساد الإداري.

لقد مر على المجتمع، وبخاصة بعد الطفرة، فترات كادت تتقلب فيها المعايير، وتتبدل فيها المفاهيم، وتضيع الأمانة في مهب رياح المنفعة، ويصبح الشاذ هو القاعدة، ويتساوى أولئك بهؤلاء، حتى عُدّت نماذج مثل: د. أحمد علي وصالح الحصيّن ومحمود طيبة و د. رضا عبيد و د. سليمان السليم و د. ناصر السلوم عملات نادرة، يجدّد لها الاحترام، ويكرر بها ضرب الأمثال، تلتقي فيها مثاليات الوظيفة العامة وتزدان بالإنجازات، وتتحلى بأبرز صفتي الإدارة الناجحة: الإرادة والنزاهة.

ترك د. منصور التركي آخر مناصبه (مدير جامعة الملك سعود) منذ خمسة عشر عاماً، لكنه ما يزال حياً في ذاكرة الجامعة والوطن، بحيوية إدارته، ونزاهة سيرته، وبالإنجازات التي حققتها الجامعة في عهده،

لا ينقص من ذلك عزوفه عن الأضواء والظهور في المحافل العامة.

يوجد ـ في تقديري ـ مدرستان إداريتان: إحداهما تبدأ المشروعات.. بدراسات حذرة، وبأسلوب الخطوة خطوة، وهناك ـ في المقابل ـ مدرسة إرادة (البلدوزر) تجرف طريقها في التنفيذ، لا تعير انتباهاً للمعوقات والروتين، لكنها تعالج آثار ذلك في خطوة لاحقة، أي أنها تطبّق مبدأ: إبدأ ثم أصلح، وهي ـ في الظن ـ المدرسة التي كان ينتمي إليها د. التركي في إدارة الجامعة، التي ظل فيها عقداً من الزمن، ساعده في ذلك وفرة في كوادرها، قبل أن يصيبها التسرّب وشلل التقاعد المبكر، والتحجيم.

أسرة التركي من عنيزة، أقام فرع منها في المدينة المنورة، ومنه أبوه، وعمّه فضيلة الشيخ محمد بن علي التركي، الذي تولى القضاء في مطلع العهد السعودي حتى عام ١٣٤٨هـ (١٩٢٨م)، ثم التدريس في الحرم النبوي حتى وفاته عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، وقد ولد د. منصور في المدينة المنورة في مطلع الستينيات الهجرية (١٩٤٢م)، ودرس الاقتصاد في جامعة الملك سعود، ثم حصل على الدكتوراه من جامعة كلورادو (١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م)، وتدرّج في عضوية هيئة التدريس في كلية التجارة، ثم صار وكيلاً لوزارة المالية والاقتصاد الوطني مدة خمس سنوات حتى عام ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) حيث عاد إلى الجامعة مديراً لها.

حاز على أوسمة عدة، وعلى مجموعة من شهادات الدكتوراه الفخرية، وكانت له إسهامات مع صندوق النقد الدولي وصندوق التعاون والتنمية في إفريقيا، كما شارك في عضوية مجالس إدارات شركات سعودية أو رأس بعضها، ومنها: السعودية المصرية للتعمير، الفنادق، سابك، النقل البحري، وصناديق مثل: تمويل المقاولين، بنك التنمية في إفريقيا، الصندوق السعودي للتنمية.

له من الأبناء: ريّان ومعن ومحمد، ومن البنات: رنا ودانا ولمى، لكن أبا ريّان مقلّ في التأليف حيث لا يوجد له - حسب علمي - سوى كتاب منهجي في الاقتصاد وآخر أشرف على ترجمته.

د. منصور بن إبراهيم التركي، خبرة اقتصادية وإدارية وتعليمية رفيعة، له صفحة ناصعة من الإنجازات، يسعد أكثر ما يسعد في حياته الهادئة، بساعات يقضيها عدة مرات شهرياً في مسجد المصطفى عليه الصلاة والسلام، ثم بلحظات يستقبل فيها زواره في دارته بالرياض بعد مغرب كل يوم.

(٢٩)

هدى عبد المحسن الرشيد

الشرق الأوسط: الثلاثاء ٢٧ ربيع الآخر ١٤٢٥هـ، الموافق (١٥ يونيو ٢٠٠٤م)، العدد (٩٣٣١).



أخذت من الموقع الإلكتروني لجريدة الرياض ، العدد (١٣٨٩٨)

تعيش بلادها، المملكة العربية السعودية، أجواء الحوار الوطني الثالث حول المرأة، فكان من المناسب أن نعرض لنماذج لسيدات سعوديات، قدمن خدمات جميلة لوطنهن، بعيداً عن التظاهر والأضواء.

يركز هذا المقال على صوت نسائي عربي، يصافح أسماع المستمعين العرب من إذاعة لندن صباحاً ومساءً، منذ ثلاثة عقود، وكانت أول مذيعة سعودية، ظهرت على شاشة تلفزيون الرياض لتقديم نشرة الأخبار بالعربية، صيف عام ١٩٧٤م، لكن الحديث عنها لا يكتمل دون التذكير بوالدها الشيخ عبدالمحسن الصالح (الرشيد)، الذي اشتهر بتوليه بلدية الرياض عام ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥٠م، خلفاً لرئيسها أحمد خليفة النبهاني، وسلفاً لرئيسها محمد حسن أخضر، وذلك إبان عهد الملك عبدالعزيز، ثم التحق بوزارة المواصلات مكلفاً ولفترة طويلة، بملف إعادة تشغيل الخط الحديدي الحجازي (الذي كان يربط اسطنبول في تركيا بالمدينة المنورة عبر سوريا والأردن، أكمله الأتراك في حدود عام ١٩٠٨م، ثم خرّبه أتباع الثورة العربية بقيادة لورنس عام ١٩١٦م)، وقد استقر الشيخ عبدالمحسن في سوريا فترة طويلة، وتزوج منها، ورزق بأولاده (فهد ونايف)، وكان خلال عمله في وزارة المواصلات وبعده، قد توثّقت صلته بالأديب السعودي الراحل محمد عمر توفيق، (الذي

ظل وزيراً للمواصلات منذ عام ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م، ثم أضيفت إليه أعباء حقيبة وزير الحج والأوقاف مدة ثماني سنوات إلى جانب عمله في وزارة المواصلات، حتى تقاعد عام ١٩٨٦م، وقد توفي في الرياض سنة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م).

ولد الشيخ عبدالمحسن الصالح ـ كما كان يعرف بهذا الاسم ـ في عنيزة في حدود عام ١٩٢٠م، من أم عراقية، وتوفي في ديسمبر ١٩٨٩م، مخلفاً ـ من ست أمهات ـ سبعة أبناء هم: صالح وفيصل وسليمان ومحمد وعادل وفهد ونايف، وأربع بنات هنّ: هدى وليلى وهيام وروعة، وكان أخوه العميد رشيد الصالح الرشيد قد تولى شرطة أبها بمنطقة عسير عام (١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م)، وهما أخوال اللواء المتقاعد (رجل الأعمال المعروف) إبراهيم المالك وإخوانه، أما أسرتهما (الرشيد) فلعلها اكتسبت الاسم من علاقتها بعبدالله بن رشيد، الذي تولى ـ لفترتين ـ إمارة عنيزة بالقصيم إبان الدولة السعودية الأولى، وهو بالمناسبة ـ أي عبدالله الرشيد ـ من قبيلة سبيع، أي أنه ليس من أسرة آل رشيد الشمرية المعروفة في حائل.

ولدت هدى عبدالمحسن الرشيد في القاهرة من أم سعودية من آل غالب (أشراف الطائف)، وحصلت على الثانوية من بيروت، وعلى البكالوريوس من جامعة بكنجهام (١٩٩٢م)، ثم على الماجستير من

لندن عام (١٩٩٣م)؛ وعلى شهادة ماجستير أخرى في اللغويات (١٩٩٥م) من مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية التابعة لجامعة لندن، وهي تحضر ـ وقت كتابة هذا المقال ـ للدكتوراه في مجال الإعلام.

بدأت حياتها العملية في مطلع السبعينيات الميلادية إعلامية متعاونة مع إذاعة جدة، كما شاركت في تحرير جريدة عكاظ بين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٤م، ثم ارتحلت إلى بريطانيا لتعمل منذ ذلك الحين في القسم العربي من هيئة الإذاعة البريطانية (بي. بي. سي)، ولتواصل تحصيلها العلمي، وقد أسهمت بنشاطات إذاعية وصحافية أخرى، وكان لوجودها مع زملائها الإعلاميين العرب دور هادئ جيد لتصحيح بعض المفاهيم والمعلومات الخاطئة عن القضايا العربية، جرّبت حظها مع التجارة ولم توفق، وقد ألّفت عدة روايات منها: غداً يكون الخميس (١٩٧٥م)، والعبث (١٩٨٠م)، والطلاق (١٩٩٣م)، تولت دار روز اليوسف نشرها جميعاً.

وهي إعلامية عربية رائدة، شقت طريقها بعصامية وعزم وتصميم، وتكبدت المشاق لإكمال دراساتها العليا، وصمدت في ظروف الغربة، لتثبت كفاية الفتاة السعودية في منبر إعلامي محترم، محافظة على رصانتها ووقارها وسمعتها، بعيداً عن ابتذال الفضائيات، ومتمسكة بعزّة نفس متناهية، دون مظاهر أو أضواء أو استعراض.

تقاعدت في عام ١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م) عن العمل الرسمي في هيئة الإذاعة البريطانية (B.B.C.)، فكتبت عنها جريدة الرياض في صفحتها الأخيرة من العدد (١٣٨٩٨) بتاريخ ١٤٢٧/٦/١٧هـ (٢٠٠٦/٧/١٣م) خبراً عنوانه: أصبحت إحدى أهم العلامات بالإذاعة اللندنية: المذيعة هدى الرشيد تترك العمل الرسمي بعد (٣٢) عاماً من النجاح في الـ (B.B.C.)، وقد تضمن الخبر تفاصيل عن مشوارها الإعلامي، علماً بأنها ظلت متعاونة مع الإذاعة في المجال نفسه.

(٣٠)

أحمد بن ثنيان آل سعود

الشرق الأوسط: الخميس ٩ شعبان ١٤٢٥هـ، الموافق (٢٣ سبتمبر ٢٠٠٤م)، العدد (٩٤٣١).



من كتاب: المصوَّر البدوي، لإبراهيم الخالدي، ط ١ ، الكويت ، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

أسرة آل ثنيان، التي تنتسب إليها شخصية هذا الموضوع، هي فرع من آل سعود، تلتقي معهم في جدهم الأول: سعود بن محمد بن مقرن أبي الأسرة المالكة، ووالد الإمام محمد بن سعود مؤسس الدولة عام ١٧٤٤م، وجد كل من الأئمة والأمراء والملوك التسعة عشر، الذين توالى حكمهم منذ بداية الدولة وحتى اليوم، وحكم بعضهم أكثر من مرة.

كان ممن اشتهر من هذا الفرع الأمير عبدالله بن إبراهيم بن ثنيان ابن سعود بن محمد الحاكم التاسع في تسلسل حكام آل سعود، إذ حكم نجداً مدة عامين (١٨٤١/١٨٤٢م)، وذلك إبّان الدولة السعودية الثانية، ثم اشتهر منه حفيده: محمد بن عبدالله بن الأمير عبدالله بن ثنيان، والد الأميرة عفت (حرم الملك فيصل ووالدة أنجاله: محمد وسعود وعبدالرحمن وبندر وتركي الفيصل، وبناته: سارة ولطيفة ولولوة وهيفاء الفيصل)، كما عرف منه حفيده الثاني: أحمد الثنيان، موضوع هذا المقال، الذي يظن كثير من المؤرخين أنه والد الأميرة عفت، والحال أنه عمها المباشر، كما اشتهر منه حديثاً حفيدان: عبدالعزيز بن سليمان الثنيان وكيل وزارة الخارجية الأسبق الذي أصبح سفيراً في أسبانيا (وتوفي عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)، وسعود بن عبدالله الثنيان، رئيس الهيئة

الملكية للجبيل وينبع حالياً.

وعودة إلى شخصية هذا المقال، الذي لا تتوافر معلومات وافية عن سنة ميلاده وسيرته، فإنه أحمد بن عبدالله (بن عبدالله) بن إبراهيم ابن ثنيان بن سعود، كانت أسرته هاجرت إلى تركيا في حدود عام ١٨٤٣م، فولد ونشأ في أسطنبول، وتعلم هناك، وأتقن التركية والفرنسية والإنجليزية، إلى جانب العربية، ثم عاد إلى نجد بعد عشرة أعوام من استقرار الحكم للإمام (الملك) عبدالعزيز، الذي كان قد استعاد الرياض عام ١٣١٩هـ - ١٩٠٢م.

استعان الملك عبدالعزيز بابن عمه هذا مستشاراً سياسياً لديه في إدارة الشؤون الخارجية، مستفيداً من معارفه، فكلفه بمهمات سياسية، كان في مقدمتها الإشراف على انسحاب الترك من مقاطعة الأحساء (مايو ١٩١٣م)، وقد خلّف من الأولاد - حسب معلومات عبدالرحمن الرويشد - من الذكور: عبدالله وعبدالرحمن وعبدالعزيز، ومن الإناث: الجوهرة ومنيرة، وتوفي عام ١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م.

تذكر المصادر أن الإمام (الملك) عبدالعزيز آل سعود بعثه عام ١٣٤١هـ - ١٩٢٢م لمقابلة الشريف حسين في مكة المكرمة، كما أوفده، ممثلاً عنه، فيما يمكن أن تعدّ أقدم مفاوضات مباشرة بين إمارة نجد وبريطانيا، جرت في جزيرة دارين السعودية على الخليج العربي،

بعد انسحاب تركيا، وأسفرت عن معاهدة القطيف (ديسمبر ١٩١٥م) التي اعترفت بريطانيا بموجبها بالإمام عبدالعزيز، وكان قد شارك فيها من الجانب البريطاني السير بيرسي كوكس، المقيم السامي في العراق، مصطحباً معه فيلبي (في زيارته الأولى للجزيرة العربية).

وبعد أربع سنوات كلفه الملك عبدالعزيز بمرافقة ابنه الأمير (الملك) فيصل في أول رحلة سياسية تاريخية قام بها إلى أوروبا وعمره لم يتجاوز الرابعة عشرة، (١٩١٩م)، لتقديم التهنئة نيابة عن والده، إلى ملك بريطانيا (جورج الخامس)، ولحضور احتفالات الانتصار في الحرب العالمية الأولى، ولبحث بعض الأمور السياسية المتعلقة بالحدود والعلاقات بين حكام الجزيرة العربية.

هدف الملك عبدالعزيز من وراء اختيار ابنه فيصل للقيام بهذه المهمة، وهو مايزال صغيراً إلى تدريبه على أمور السياسة، قبل عشر سنوات من تكليفة بإدارة الدبلوماسية السعودية وتعيينه وزيراً للخارجية، وقد شملت رحلته الأولى تلك زيارة فرنسا وبلجيكا، واستغرقت حوالي ستة أشهر، بدأها الوفد برحلة إلى البحرين ومن ثَمَّ إلى الهند، ليستقل باخرة متجهة إلى ميناء بلايموث في بريطانيا.

وفي عام ١٩٢٢م، شارك الأمير ابن ثنيان، موفداً من السلطان عبدالعزيز، في مؤتمر المحمّرة بإيران، الذي عقد في مايو من ذلك العام بين

سلطنة نجد والعراق (تحت الاحتلال البريطاني) للنظر في قضايا الحدود والعشائر بين البلدين، لكن اعتراض السلطان عبدالعزيز على بعض بنود الاتفاقية أدى إلى عقد لقاء آخر - سعودي عراقي بريطاني - في العقير في ديسمبر من العام نفسه، في مفاوضات مباشرة بين السلطان عبدالعزيز وبيرسي كوكس بحضور بعض الشخصيات العراقية، أسفرت عن اتفاقية العقير (ديسمبر ١٩٢٢م).

كان أحمد الثنيان قد قام بمهمات سياسية أخرى في الكويت والعراق، لكنه اعتزل العمل السياسي بعد مؤتمر المحمّرة، وأقام في الأحساء حتى وفاته بعد فترة وجيزة (١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م كما سلف)، حيث حل مكانه الدكتور عبدالله الدملوجي، الطبيب العراقي الذي أصبح مستشاراً سياسياً في البلاط السلطاني، وقام بنشاط كبير إثر دخول الحجاز في الحكم السعودي (١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م)، وفي تأسيس مديرية الشؤون الخارجية (١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م)، وفي مرافقة الأمير فيصل بن عبدالعزيز في رحلته الثانية إلى أوروبا (١٩٢٦م)، قبل أن يعود الدملوجي إلى العراق ويصبح وزيراً لخارجيته، وهو أحد موضوعات هذا الكتاب.

وبالرغم من ندرة ما كتب عن أحمد الثنيان أقدم المستشارين السياسيين عند الملك عبدالعزيز، فإن أهميته تكمن في كونه من أوائل

أعضاء الأسرة الحاكمة، الذين حصلوا على التعليم الحديث، وعلى إجادة لغات أجنبية سهّلت له المهمات السياسية التي كُلف بها، وقد كتب ـ عنه بإيجاز ـ عدد من المؤرخين، من أمثال خير الدين الزركلي وأمين الريحاني وجيرالد دوغوري ود. عبدالله العثيمين وعبدالرحمن الرويشد، كما أورد الباحث العراقي المعروف نجدة فتحي صفوة نبذة مختصرة عن سيرته في المجلد الرابع من سلسلة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، (دار الساقي ١٩٩٩م لندن) مع الإشارات الكثيرة التي وردت بشأنه في تلك الوثائق.

كما تضمنت موسوعة التاريخ الدبلوماسي للملك عبدالعزيز، الذي أصدرته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م) نبذة موجزة عنه.

كانت استعانة الملك عبدالعزيز ـ كما أصبح لقبه بعد عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م ـ بأحمد الثنيان آل سعود، بداية لدخول عدد كبير من المستشارين السعوديين والعرب والأجانب في الديوان الملكي السعودي، للإسهام في تسيير مختلف الأعمال الإعلامية والسياسية والإدارية عند تأسيس المملكة العربية السعودية.

(٣١)

إبراهيم بن محمد المعمر

الشرق الأوسط: السبت ٦ ذو القعدة ١٤٢٥هـ، الموافق (١٨ ديسمبر ٢٠٠٤م)، العدد (٩٥١٧).



ورد ذكر إبراهيم المعمر (١٨٧٨ ـ ١٩٥٨م) كثيراً في وثائق عصره، لكن ترجمة وافية عن سيرته الشخصية لم تكتب بعد، فضلاً عن أن جوانب من محطات حياته ما تزال بحاجة إلى توضيح، والمرجو أن يتمكن الباحثون من تحقيق رحلته الطويلة في عالم التجارة والدبلوماسية والإدارة مدة تزيد على ستين عاماً.

لقد مضى على وفاته ما يقارب خمسين عاماً، لا يرد اسمه خلالها إلا ويُقرن بالاحترام، وهو في الواقع شخصية لافتة للأنظار، سواء فيما يتصل بثقافته العلمية في مقياس الفترة التي عاشها، أو فيما يتعلق بالمسؤوليات والمناصب الرفيعة التي تولاها.

المعروف، أن آل المعمر هي أسرة نجدية كريمة مشهورة، كانت لها منذ قرون، وما تزال، إمارة العيينة وسدوس المجاورتين للدرعية، العاصمة القديمة للدولة السعودية، ويحفظ التاريخ كثيراً من أخبار هذه الأسرة عند ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد قبل أكثر من قرنين ونصف.

وللعائلة تاريخ عريق، وتتمتع بروابط أسرية تنظم نشاطاتها الاجتماعية، وقد ألف أحد باحثي الأسرة (عبدالمحسن بن محمد بن عبدالعزيز المعمر)

في عام ١٤١٥هـ (١٩٩٥م) كتاباً ضافياً عن تاريخ آل معمر وإمارتهم السابقة في العيينة، في القرن الثامن عشر.

من المؤكد أن إبراهيم المعمر يعدّ في فترته من الشخصيات السعودية القليلة التي نالت حظاً من التعليم الحديث خارج منطقة نجد التي لم تتوافر سبل التعليم فيها إلا في الأربعينيات من القرن الماضي، فكان في ذلك يشابه حظ شخصيات مثل الأمير أحمد الثنيان وابن سليمان و (المترجم) محمد المانع وجميعهم من رجالات الديوان الملكي، وكذلك بعض التجار المرموقين في تلك الأيام، ممن درس في الهند أو مصر أو بلدان الخليج.

وبما أن حيز هذا المقال لا يسمح بالتوسع في سيرته، خاصة أن معلومات كثيرة ما تزال خافية، فسيقتصر الحديث على المحطات الأبرز فيها، لعلها تعطي إلمامة عنه توضح الغرض من إفراده بهذا المقال، وتحرك الباحثين لاستكشاف المزيد عنه والتعمق في ترجمة حياته، وجمع المتناثر مما كتب عنه، فهو ـ من حيث العمر ـ قد عاصر الملك عبدالعزيز مؤسس الدولة السعودية الحديثة، وعايش عهده في بدايته وحتى نهايته، ورافق ـ بالتالي ـ بدايات الدولة وظروف تأسيسها وقيام مؤسساتها الدستورية والإدارية، ولو قدر لنا أن نعثر على مذكراته وأرشيفه الشخصي ومقالاته كلها، فإنها ستكون من المصادر الأولية الجيدة المساندة للتاريخ الوطني، والتي ما تزال تظهر تباعاً منذ الاحتفال بالمئوية.

١ ـ فبالنسبة لنشأته، ترجح الكتابات القليلة المتوافرة عنه أنه من مواليد الكويت حيث كان والده يقيم ويمارس التجارة فيها، وأنه ربما ولد في حدود عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م)، وقد أمضى طفولته وتلقى علومه الأولية في الكويت، ثم سافر إلى بعض بلدان الخليج والهند، التي اكتسب فيها الإنجليزية والأردية والفارسية، إما بالدراسة أو بالممارسة، لكونه في تلك الفترة قد احترف مهنة والده (التجارة) التي لا توجد معلومات كافية عنها.

كما تردد على أوروبا وبعض الدول العربية والآسيوية والإفريقية، وهو أمر تميز به المعمر على كثير من أقرانه في زمنه، حيث أكدت بعض الكتابات كثرة أسفاره.

ثم استقر في مصر عدة سنوات، عاد بعدها إلى الرياض ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م)، حيث ترك التجارة وواصل الخدمة العامة على النحو الذي سيجري التفصيل فيه، وقد توفي مستشفياً في بيروت عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م) عن عمر يناهز الثمانين، مخلفاً من الأبناء: عبدالله وعبدالعزيز (اللذين احتلا في عهد الملك سعود بخاصة مناصب متقدمة في الديوان الملكي)، وعبدالرحمن وأحمد وسعود، ومن البنات: نورة وفاطمة وشعيّع ومنيرة.

وكان المعمر يُميّز عند عامة الناس في جيله بلقب (الجنيفي)، وهو لقب لا يعرف أساس إطلاقه، وإن كان من المحتمل أنه يُعزى لقرية

الجنيفي (المجاورة لبلدة العَمَار) من قرى سدير شمال الرياض أقام فيها والده، أو أن ينسب إلى سلاح سويسري كان يستورده من جنيف.

٢ ـ بينما يُذكر المعمر مقروناً دائماً بالمناصب السياسية والإدارية التي شغلها، فإنه قد يذكر بوصفه أديباً، فلقد كتب كثيراً من المقالات في الصحافة المصرية بالذات، وكان من أبرز ما يعرف من كتاباته في الصحف السعودية ثلاثة مقالات متسلسلة نشرها عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٧م) في الجريدة الرسمية «أم القرى» واصفاً فيها الرحلة الأولى للملك عبدالعزيز من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ظهر آخرها في العدد (١١٠ في ١٧ رجب ١٣٤٥هـ الموافق ٢١ يناير ١٩٢٧م).

سيلحظ من يقرأ في رسائل المعمر وكتاباته أنه كان ذا أسلوب حديث، لا تظهر فيه الجُمل الكلاسيكية المألوفة في مراسلات زمنه، مما يدل على عصرية ثقافته وانفتاح فكره حتى لكأنها كتبت في هذه الأيام.

٣ ـ أما بالنسبة لالتحاقه بالخدمة الحكومية (بدءًا بديوان الملك عبدالعزيز) فلا توجد مراجع موثوقة يعوّل عليها في إثبات بداياتها، لكن فيلبي الذي التقى به في زيارته الأولى للجزيرة العربية عام ١٩١٧م، ذكر أن المعمر التحق بالعمل السياسي منذ سنوات وأن له إلماماً بالمعارف الغربية، مما يرجح أنه ـ أي المعمر ـ قد بدأ في حدود

عام ١٩١٢ أو ١٩١٣م.

مرت حياته العامة السياسية والإدارية بعدة مراحل يجدر التفصيل فيها، لأنها توضح الأدوار التي قام بها، وتكمل الصورة الأشمل عن شخصيته وسيرته.

● المرحلة الأولى: **الدور الاستشاري** : وقد استمر على ما يبدو من حدود عام ١٩١٣م كما سبق وحتى ١٩٢٣م، حيث يفهم من الوثائق المتوافرة، السعودية والعربية والأجنبية، أن المعمر قد انضم إلى فريق المستشارين السياسيين الأوائل حول الملك عبدالعزيز من جيل الأمير أحمد الثنيان والدكتور عبدالله الدملوجي، وألمحت بعض تلك الوثائق إلى أنه كان سكرتيراً بالديوان الملكي مكلفاً بملف الاستخبارات السياسية الخارجية.

● المرحلة الثانية: **الدور الإعلامي** : وهو امتداد لدوره الاستشاري، حيث قام بعدة رحلات إلى أوربا وبعض البلاد العربية مبعوثاً عن الملك عبدالعزيز، وهو دور يشبه إلى حد كبير ما كان يقوم به في تلك الفترة أمين الريحاني في أمريكا الشمالية، إلا أنه لا تتوافر معلومات كافية عن المهام التي كُلّف بها والجهات التي اتصل بها، لكنه استقر في نهاية المطاف في مصر، ليكمل الدور الإعلامي الذي قامت به شخصيات عربية من أمثال الشيخ محمد رشيد رضا وأمين سعيد في

توضيح أهداف الحكم السعودي الجديد في الحجاز (١٩٢٥م)، ودحض الافتراءات والشبهات التي كانت تنشرها الدعايات المناهضة له، وقد كتب المعمر خلال إقامته تلك في مصر عدداً من المقالات السياسية التي لو تم الاطلاع عليها وتحليل مضامينها، لأمكن أن تضفي الكثير من المعلومات عن الصورة الذهنية القاصرة حتى الآن حول شخصيته وسيرته، إذ يذكر من اطلع على بعض تلك المقالات، أنه كان يغرف من خبرة واسعة بأحوال الجزيرة العربية ومعرفة بمجتمعها وأهلها.

وقد اطلعت على عدد من الرسائل التي حررها المعمر من مصر إلى الملك عبدالعزيز عام ١٩٢٥م، وإلى والده الإمام عبدالرحمن في أعقاب دخول منطقة الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والطائف وما جاورها) في الدولة السعودية الناشئة، فهو يهنئهما فيها باكتمال توحيد أجزاء البلاد، ويفهم منها أنه كان يزودهما بالجديد من الكتب والمطبوعات العربية.

كما يظهر من رسائله تلك، ومن مقالاته عامة، أنه كان يضيف لقب (النجدي) إلى اسمه إبراهيم بن محمد بن معمر، وأنه كان يقطن في الحلمية، ثم في الزيتون في ضواحي القاهرة، وقد دامت تلك المرحلة عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦م.

- **المرحلة الثالثة** : الدور السياسي : وهو الأهم في مسيرته، وقد بدأ

في عام ١٩٢٦م وحتى سبتمبر عام ١٩٣٣م، حيث اختاره الملك عبدالعزيز رئيساً للديوان الملكي خلفاً للشيخ الطيب الهزازي (جريدة «أم القرى»، العدد ٨٧ أغسطس ١٩٢٦م)، ويبدو أنه حينما رجع من مصر عاد إلى عمله سكرتيراً مقرباً من الملك عبدالعزيز قبل تعيينه رئيساً للديوان، وذلك بدليل ما نسبه إليه الصحافي الألماني (ولجانج فون) الذي زار المملكة عام ١٩٢٧م: لقد عرف المعمر خلال تلك الفترة بكثير من المواقف الإنسانية والاجتماعية النبيلة، ذلك أن منصباً بهذا المستوى يتيح لشاغله أن يُذكر بالخير في مجتمعه طالما بقي في خدمة الناس وتلبية احتياجاتهم، وكان ممن ذكره بذكر حسن في تلك الفترة العلامة حمد الجاسر الذي سجل معي في ذكرياته أن المعمر سهل له الالتحاق بالبعثة في مصر عام ١٩٣٩م.

ويذكر له في مطلع تلك الفترة مرافقة الأمير (الملك) فيصل في رحلته الثانية إلى أوروبا عام ١٩٢٦م، التي انضم إليها كل من د. عبدالله الدملوجي (مدير الخارجية السعودية قبل أن تصبح وزارة) وعبدالله الفضل (التاجر المعروف آنذاك) وعبدالله موصلي (قائد شرطة جدة).

كما يذكر له في هذه المرحلة ـ موفداً من قبل الملك عبدالعزيز ـ اجتماعه بوزير الخارجية العراقي (ناجي شوكت) في الكويت للتمهيد لعقد المؤتمر الذي التأم على الطراد البحري (لوبين) عام ١٩٣٠م بين الملك

عبدالعزيز والملك فيصل بن الحسين ملك العراق، بمشاركة المندوب السامي البريطاني، وأسفر عن توقيع اتفاقية صداقة وحسن جوار بين البلدين (أبريل ١٩٣١م).

كان المعمر خلال موقعه هذا قد حضر المعركة الحربية الشهيرة الفاصلة المسماة (السبلة) التي وقعت عام ١٣٤٧هـ (١٩٢٩م)، مع الإخوان في روضة قريبة من مدينة الزلفي السعودية (٢٥٠ كم شمال الرياض)، وذكر محمد المانع في كتابه: توحيد المملكة العربية السعودية (ترجمة د. عبدالله العثيمين) أن المعمر كان على رأس مفرزة الرشاشات والمدافع التي كان لها دور حاسم في المعركة، كما شارك في موقعة حربية جرت بعدها في الدبدبة (شمال شرق البلاد) تسمى (القرعة)، وتذكر بعض المراجع أن الملك عبدالعزيز قد اختار المعمر لمهمة إحضار فيصل الدويش شيخ مطير ومرافقته عندما أعاده الإنجليز ـ بعدما التجأ إلى العراق ـ على متن طائرة أنزلته في خباري وضحى حيث مخيم الملك عام ١٩٢٩م، وقد انتهت هذه المرحلة بتعيينه في سبتمبر ١٩٣٢م في ديوان ولي العهد الأمير (الملك سعود)، وذكر أحد المراجع أن خصومة وقعت بينه وبين أحد أركان الأسرة المالكة أدت إلى تغيير موقعه.

• **المرحلة الرابعة : العمل الدبلوماسي:** وتتمثل في تعيينه وزيراً مفوضاً للمملكة لدى العراق (يونيه ١٩٣٣م) بعد فترة وجيزة من افتتاح

المفوضية، وكان اصطفاؤه في هذا المنصب الدبلوماسي في واحدة من أهم العواصم العربية المؤثرة في مصالح السعوديين (بغداد) بيّن ثقة العاهل السعودي بكفاءته، والمعروف أن جاليات سعودية كبيرة كانت تقيم في العراق، وأن قبائل وعشائر عربية كانت تنتشر على المناطق الحدودية بين البلدين، فكان من مهامه الأساسية العناية بأمر الرعايا السعوديين، فضلاً عن إشرافه على تطبيق اتفاقيات الحدود الموقعة حديثاً بين الدولتين، وعلى تطبيق إجراءات الحج للراغبين فيه.

وقد أشرف المعمر خلال عمله في بغداد على تنظيم الزيارة الأولى التي قام بها ولي العهد الأمير (الملك) سعود عام ١٩٣٦م، ويذكر له - في تلك الفترة - تفكيره في عدم مناسبة تنكيس العلم السعودي على هامش الحداد العام على وفاة ملك العراق (فيصل الأول) عام ١٩٣٣م، وهو تقليد تبنته الحكومة السعودية بعد ذلك التاريخ احتراماً للفظ الشهادة التي يحملها العلم، وقد أدى احتجاج الإنجليز على ترويج المعمر لزعامة الملك عبدالعزيز في الجزيرة العربية وعلى صلاته القوية مع رؤساء العشائر، إلى نقله من بغداد بعد خمس سنوات من العمل الدبلوماسي.

● **المرحلة الخامسة : الدور الإداري** : يتمثل في تعيينه قائمقام مدينة جدة (١٩٣٧م)، وهو منصب معروف بقي معمولاً به في جدة منذ الحكم العثماني والهاشمي في الحجاز، ثم ألغي قبل عدة سنوات ليحل محله

منصب (محافظ) جدة، وكان من أبرز من شغله في نهاية العهد الهاشمي وبداية العهد السعودي عبدالله علي رضا، ثم خلفه بعد وفاته عبدالعزيز ابن معمر (أمير الطائف فيما بعد)، ثم خلفه محمد عيد الرواف، الذي نقل إلى بغداد، بمجرد تعيين إبراهيم المعمر، بمعنى أنهما تبادلا المواقع، وقد شغل المعمر هذا المنصب حتى وفاته (أي نحو عقدين من الزمن).

مرت فترة، خلال توليه هذا المنصب، كان المعمر كُلف، إلى جانب عمله هذا، يعمل وكيل وزارة الخارجية (بالنيابة عن فؤاد حمزة الذي تغيب لأسباب صحية في ٣ مارس ١٩٣٨م)، وقد ورد في الوثائق البريطانية والفرنسية عدة مخاطبات بتوقيعه، من بينها على سبيل المثال خطابه الموجه بتاريخ ١٧ أبريل ١٩٣٨م إلى السفير الفرنسي بجدة، يعبر فيه عن شكر وزير الخارجية السعودي (الأمير فيصل) بمناسبة وصول طائرة فرنسية مهداة إلى الملك عبدالعزيز.

وكان من بين المهام التي قام بها، ترتيب زيارة ملك أفغانستان ـ محمد ظاهر شاه المقيم حالياً في أفغانستان ـ إلى المملكة عام ١٩٤٩م، والتي تمت قبل وفاة الملك عبدالعزيز بنحو أربع سنوات، وقد خصص إبراهيم الحسون في كتابه «خواطر وذكريات» (٣ أجزاء ٢٠٠٣م) حيزاً كبيراً تطرق فيه إلى أسلوب المعمر وخصاله، نظراً لكون الحسّون عمل سكرتيراً خاصاً له في قائمقامية جدة.

وبعد.. فهذه ملامح من سيرة إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن معمر ابن إبراهيم بن سيف المعمر، أحد رجالات الدولة السعودية، التي شهدت مراحل التأسيس الإداري والسياسي المبكرة، لكنها ملامح لا تكتمل دون العثور على مذكراته، وتتبع جميع ما كتب عنه، فهو من الرواد الذين يتجدد تاريخهم، ومن الأوائل المعروفين برجاحة العقل والمروءة والوطنية، وقد وردت عنه إلمامات محدودة في كتابات حمد الجاسر ومحمد المانع وعبدالله فيلبي وأمين سعيد ومحمود بشير المدني ووليام فيسي، كما ورد ذكره كثيراً في الوثائق الأجنبية المحفوظة عن فترته[1].

---

(١) ظهر بعد نشر هذا المقال، مقال مفصل آخر حول الشيخ المعمّر بقلم عبدالكريم إبراهيم السمك (مجلة الدرعية، عدد ربيع الأول ١٤٢٦هـ أبريل ٢٠٠٥م).

(٣٢)

د. عبدالله سعيد الدملوجي

الحياة: الخميس ٢ ذو الحجة ١٤٢٥هـ، الموافق (١٣ يناير ٢٠٠٥م)، العدد (١٥٢٦٣).



لا تتوافر عنه تفاصيل وافية، والأرجح أن سيرته الكاملة لم تكتب بعد، وهو بالنسبة للسعوديين، اسم له دلالة تاريخية وموضوعية، لكونه أقدم المستشارين السياسيين العرب، الذين اصطفاهم الملك عبدالعزيز، وهو ـ أي الملك ـ لا يزال في طور حملته لتوحيد الكيان وبنائه، وقد أسند إليه ـ لفترة وجيزة ـ أمر تسيير شؤون الحجاز فور خروج الشريف علي ابن الحسين من جدة (١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٥م) وذلك قبل أيام من تعيين الأمير (الملك) فيصل نائباً للملك عبدالعزيز في الحجاز، ثم كلفه بإنشاء أول جهاز (مديرية) للشؤون الخارجية، حيث لم يكن مع الملك سوى عدد محدود من الكفايات القادرة على تنظيم صلاته الخارجية.

وعلى رغم الدور الكبير الذي قام به في السعودية، ثم في موطنه الأصلي (العراق)، إلا أن المتاح من المعلومات عنه لايزال نادراً ومتناثراً، وكان ممن كتب عنه ـ ولكن بإيجاز رغم قربه وصلته الإدارية وصداقته معه ـ الباحث المعروف، نجدة فتحي صفوة في لندن، ضمن كتابه المعَنون: خواطر وذكريات في التاريخ، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٨٣م، وكتابه: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، الجزء السادس، دار الساقي، لندن، ٢٠٠٤م، مع نشر صورة له، كما أورَدَت نبذة عنه موسوعة التاريخ الدبلوماسي للملك عبدالعزيز، إصدار مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في

الرياض، عام ١٩٩٩م، ويتلخص ما عثر عنه، في الفقرات الموجزة الآتية التي تساعد في تكوين فكرة عامة عنه:

١ ـ ذكر عنه فيلبي في كتابه: أيام عربية، الصادر بالإنكليزية عام ١٩٤٥م والمنشور بالعربية عن مكتبة العبيكان في الرياض ٢٠٠٢م:

«شخص متميز للغاية، فهو من أهالي الموصل، وطبيب يحمل درجة من القسطنطينية، ولديه معرفة ممتازة باللغتين الفرنسية والتركية؛ إضافة إلى اللغة العربية، والآن، وبحكم خبراته، فإنه يعمل مع ابن سعود سكرتيراً سياسياً، ولقد حضر إلى الجزيرة العربية عند بدء الحرب مع تركيا لكي ينضم إلى صهره الذي كان في تلك الأثناء رئيساً في مديرية الأحساء».

ثم كرر ذكره في الكتاب نفسه بما يفيد باستمرار صلتهما طيلة الفترة التي بقي فيها الدملوجي في المملكة العربية السعودية، ومنذ لقائهما الأول فيها عام ١٩١٥م، كما نشر له صورة في هذا الكتاب.

٢ ـ وقال عنه نجدة صفوة في كتابه الأول المشار إليه آنفاً: **«وفي بداية سنة ١٩٣٠م افتتحت الحكومة العراقية مؤسساتها الخاصة في بعض الأقطار المجاورة.. وعينت الدكتور عبدالله الدملوجي قنصلاً للعراق في القاهرة.. وقد أثار تعيينه مشكلة صغيرة، وهو عراقي من الموصل وصديق شخصي لنوري السعيد، درس الطب في اسطنبول قبل الحرب العالمية الأولى،**

ويبدو أنه كان يخدم في الجيش التركي في الأحساء حينما احتلها ابن سعود عام ١٩١٣م، فتعاون الدملوجي معه، وسرعان ما ارتقى منصباً كبيراً في بلاطه، وحضر إلى بغداد ممثلاً غير رسمي له في سنة ١٩٢١م، وفي سنة ١٩٢٨م مثّل الدملوجي بلاط نجد والحجاز (قبل تسمية المملكة العربية السعودية باسمها الحالي) في مؤتمر سكة حديد الحجاز الذي عقد في حيفا بفلسطين، وكان المؤتمر عقيماً، فلما انفض ذهب الدملوجي إلى العراق بدلاً من العودة إلى الحجاز، والآن ترشحه الحكومة العراقية أول قنصل لها في القاهرة».

ثم يواصل نجدة حديثه عن الدملوجي قائلاً، بعد أن أشار إلى أن ذلك التعيين ربما أزعج الملك عبدالعزيز: «مضت الحكومة العراقية في تعيينه، وما لبث أن تسلم عمله في القاهرة، وحينما زار نوري السعيد جدة في أبريل ١٩٣١م، صرح الملك عبدالعزيز أنه لم يعد يرغب في إثارة أي اعتراض على تعيين الدملوجي في أي منصب عراقي، وفي ١٢ شباط ١٩٣١م ألّف جميل المدفعي وزارته الثانية فأدخل عبداللّه الدملوجي فيها وزيراً للخارجية، وقد سافر بعد ذلك إلى الحجاز أكثر من مرة بصفته وزيراً لخارجية العراق بعد أن كان قد زار العراق بصفته ممثل مملكة نجد والحجاز».

وقد نقل لي نجدة فتحي صفوة رواية منقولة على لسان إبراهيم المعمّر؛ بأن سبب ترك الدملوجي المفاجئ لخدمة الملك عبدالعزيز أنه

استلم مبلغاً من المال من أحد وجهاء الحجاز كي يتلافى عقوبة من الملك، وأن الملك عرف بذلك مما أحرج الدملوجي.

٣ ـ لعل من أدق ما ظهر عنه حتى الآن ما كتبه نجدة فتحي صفوة أيضاً في كتابه الأحدث (الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، المجلد السادس، دار الساقي، يوليه ٢٠٠٤م) حيث جاء فيه (ص ١٧): **«الدكتور عبدالله سعيد الدملوجي، ولد في الموصل، وتخرج في الكلية الطبية في اسطنبول، والتحق بالجيش واشترك في حرب البلقان، ثم عاد إلى اسطنبول وشارك في الجمعيات السرية العربية، فلما جرت محاكمة عزيز علي المصري فرّ مع صديقه نوري السعيد في سنة ١٩١٤م إلى مصر ثم البصرة، حيث مارس الطب مدة قصيرة، وبعد نشوب الحرب العالمية الأولى قصد الإمام عبدالعزيز آل سعود أمير نجد طبيباً خاصاً ثم مستشاراً، وعهد إليه إدارة الشؤون السياسية والخارجية، فحضر مؤتمر العقير (١٩٢٢م)، ثم انتدب لمفاوضة الحكومة العراقية في المشاكل الحدودية، ثم مثّل الرياض في مؤتمر الكويت الثاني (١٩٢٤م) ووقع على اتفاقية (بحرة) مع العراق (١٩٢٥م) نيابة عن حكومة نجد».**

وبعد أن يعدّد المهام الأخرى التي كلف بها في ـ الحجاز ونجد، يقول: **«عُيّن قنصلاً عاماً للعراق في مصر، ثم أصبح وزيراً لخارجية العراق (١٩٣٠م)، وانتخب نائباً عن لواء الموصل في المجلس النيابي، ثم عُيّن مديراً**

للصحة فكبيراً للأمناء في البلاط الملكي العراقي فوزيراً للخارجية، فرئيساً للتشريفات الملكية (١٩٣٧م) ثم مديراً عاماً للشؤون الاجتماعية والصحة فوزيراً للخارجية للمرة الثالثة (١٩٤٢م)، وعُيّن سفيراً للعراق في إيران (١٩٥١م) ثم صار وزيراً للمعارف (١٩٥٢م).. وقد أصيب في سنواته الأخيرة بالسرطان، وتوفي في بغداد ودفن في الموصل».

٤ ـ وقال عنه الأمير مساعد بن عبدالرحمن آل سعود، وزير المالية والاقتصاد الوطني السعودي الأسبق، في مقابلة تلفزيونية توثيقية مطولة عام ١٩٧٧م تضمنها كتابي عنه الصادر في عام ١٤٢٥هـ (٢٠٠٥م):

«لقد نسيت أن أذكر رجلاً مهماً لكن مدته قصيرة، وهو الدملوجي، وهذا عراقي جاء بعد فتح الأحساء، وكان له نشاط مع الملك عبدالعزيز؛ شارك في مفاوضات تسليم جدة من الهاشميين، لكنه لم ينسجم مع بعض زملائه، فغادر الحجاز إلى العراق بعد نحو سنتين من انضمام الحجاز، لكنه بقي على صلة مع الملك عبدالعزيز».

٥ ـ ومما ورد في موسوعة التاريخ الدبلوماسي للملك عبدالعزيز التي سبقت الإشارة إليها مما يؤكد ما سلف ذكره: «**عراقي الأصل، موصلي المولد، أرسلته لجنة المنتدى الأدبي عام ١٩١٤م ومقرها الإستانة إلى الملك عبدالعزيز لدعوته إلى الانتماء للحركة القومية الجديدة وشد أزرها تمهيداً لإنشاء الدولة العربية.. لكن ظروف الحرب العالمية الأولى حالت دون رجوعه**

إلى موطنه، فاستقر في نجد وصار من كبار حاشية الملك».

«ومن أبرز أعماله أنه عمل طبيباً، ثم اتخذه الملك عبدالعزيز مع أحمد ابن ثنيان مستشاراً للشؤون الخارجية، ولم يشترك في الأعمال الخارجية بصفة فعلية إلا بعد أن تنحى ابن ثنيان عنها، فاشترك في مفاوضات العقير عام ١٩٢٢م، وقام بتوقيع الوثائق الخاصة ببروتوكول العقير، ثم وقع الاتفاق الخاص بتعيين الحدود بين نجد والكويت سنة ١٩٢٢م، واشترك مع آخرين في مؤتمر الكويت ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤م، وتولى أعمال مديرية الشؤون الخارجية سنة ١٩٢٦م، وقد رفعته معرفته باللغة الفرنسية إلى تحمل مسؤوليات سياسية تجاه زوار الملك من الأجانب، فعيّن ممثلاً خاصاً للملك في جدة، ثم أصبح نائباً لوزير الخارجية (الأمير فيصل أول وزير للخارجية)، ورافقه في رحلته الثانية إلى أوروبا عام ١٩٢٦م، واشترك في مفاوضات جدة التي جرت بين الإنكليز ومملكتي الحجاز ونجد (السعودية)».

وهكذا، فإن مجمل ما كتب عن الدملوجي لا يأتي على ذكر الكثير من سيرته حياته، المتصلة بشخصيته وتكوينه ودراسته الأولى، ونشأته، وعدد أفراد أسرته، لكن الأستاذ صفوة أفاد الباحث؛ بأن الدملوجي تزوج من سيدة عراقية الأصل كانت تقيم في الأحساء، وأن له ابناً واحداً (خالد) وله أربعة من الإخوة، وأن أصل العائلة عربي من اليمن، وأن اللقب نسبة إلى قلعة يمنية تُدعى «دملوة» خلافاً لما قد

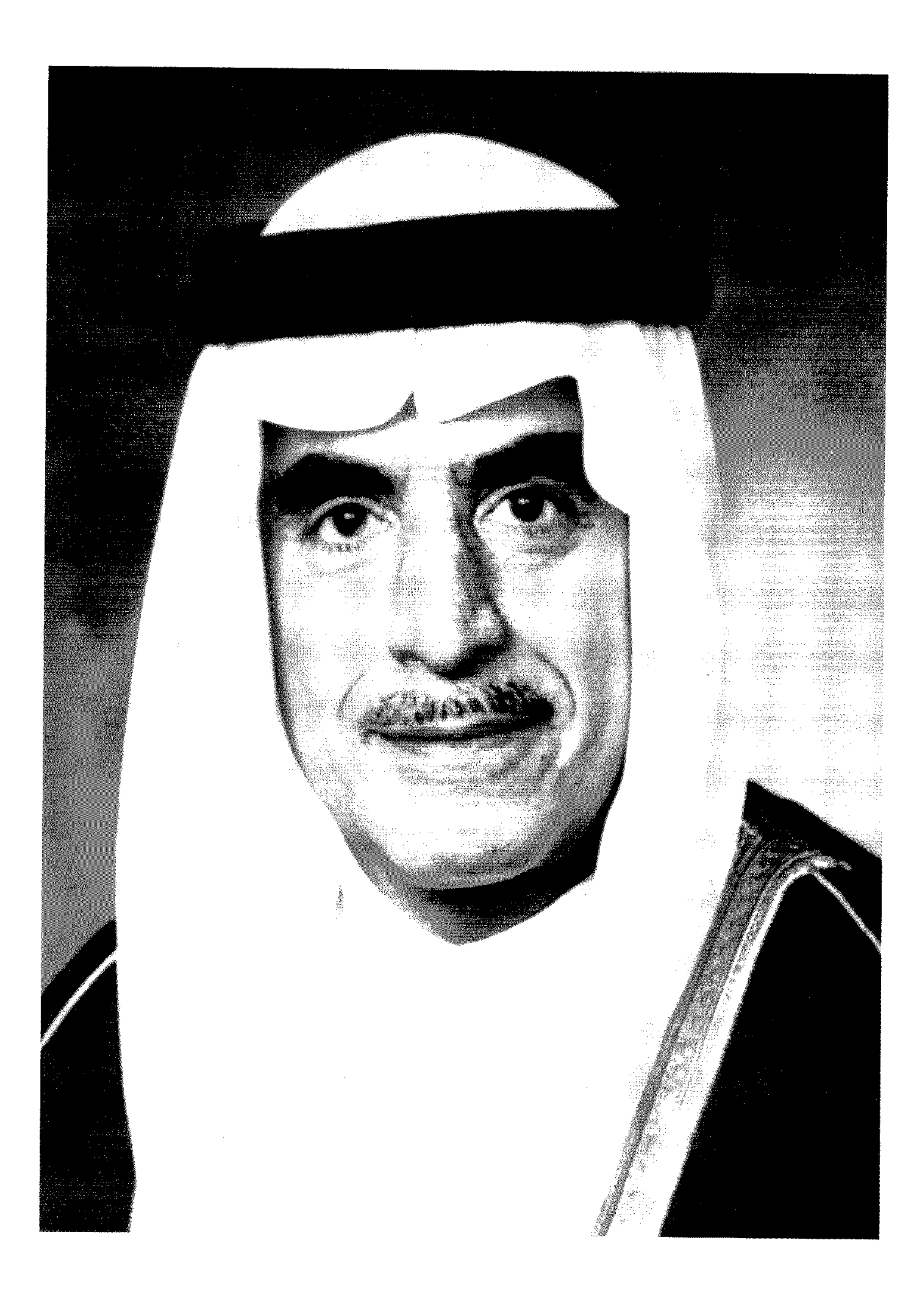
يظن من أنه نسبة إلى حُلي «الدملج» أو إلى حلوى «الدملوج» العراقية المعروفة.

ومع تناقض الروايات حول بداية صلته بالملك عبدالعزيز، وغموض بعض جوانب سيرته، فإنني أعتقد أن الأستاذ نجدة صفوة هو خير من يستوفي تلك النواقص عنه في بحث مستقل، وذلك بحكم معرفته الوثيقة به.

(٣٣)

عبد العزيز بن عبد الله السالم

نشر بشكل مختصر في العدد (٩٩) من الجزيرة الثقافية، الملحقة بجريدة الجزيرة، الصادرة يوم الإثنين ١٨ صفر ١٤٢٦هـ (٢٨ مارس ٢٠٠٥م)، ثم طُوِّر المقال وزيد عليه لغرض هذا الكتاب.



سَمِعته أكثر من مرة معتقداً أن كاتب هذه السطور هو أول من كشف الاسم الحقيقي لصاحب اللقب المستعار: مسلم بن عبدالله المسلم، وذلك ضمن كتابي عن سيرة السفير الراحل، طيب الذكر، محمد الحمد الشبيلي (الصادر عام ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م).

ومع علمي الأكيد، بأن الاسم الحقيقي قد انكشف في أكثر من موقع قبيل صدور كتابي، مما شجعني على إماطة اللثام كاملاً عنه في مؤلفي، فإنني لم أعمل قبل هذه المرة على إزالة هذا الاعتقاد من ذهنه، علّي أحظى بجزء من شرفه، أمَا وقد مضى من الزمن ما مضى، وأدرك أن الذي ارتكب مسؤولية إفشاء اسمه هو ناشر معجم الكتّاب والمؤلفين السعوديين (الصادر عام ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م) وليس الفقير إلى ربه، فقد آن الأوان لإظهار الحقيقة هذه.

لقد ظل الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله السالم، زاده الله توفيقاً وسداداً، يكتب سنوات طويلة كتابات فكرية معمّقة، تتناول قضايا الأمة، وتستشرف مستقبلها، وتعالج قضاياها العمومية، يغرف من دروس التراث، ويستشهد بروائع التاريخ العربي المجيد، بأسلوب أدبي رفيع، وقلم رصين لم ينزلق يوماً إلى مهاترة، ولم يدنّس شرف الكلمة بالإسفاف أو المراء والنفاق، ولم يخلط بين الكرسي والحبر، أو بين شؤون عمله ومقتضيات

الاهتمامات الثقافية والفكرية، بل زهد بالضجيج الذي تعج به سوق الأضواء والبراويز.

يذكر المجتمع الثقافي لأبي عصام أنه عندما بدأ يفاجئ ـ بلقبه المستعار ـ قراء جريدة الرياض بتلك المقالات المعمّقة التي ظل يكتبها مدة (١٤) عاماً قبل أن ينكشف اسمه الحقيقي، فإنه قد لفت الأنظار إلى كاتب سعودي متمكّن، متقن العبارة، منظّم الأفكار، وجعل قرّاءه يتوقفون عند مقالاته، ويتوقون لصدورها المنتظم، ويتشوّقون لمعرفة هويّة صاحبها؛ مع أن اللقب لم يكن ينبئ بأنه غير حقيقي.

وأكاد أجزم من خلال اطلاعي على عينة ما يصدر من كتابات الشيخ عبدالعزيز، رسمياً كان أم ثقافياً، أنه كاتب يعتني بما كان يكتبه، يخدمه صياغةً وعبارةً ولغةً، وربما سعى ـ بلباقة ـ إلى تصويب ما وقع فيه من يكاتبه من هفوات لغوية أو طباعية أو نحوهما، وهو ما بدا جليّاً من مواقفه معي في عدة إصدارات، بدءًا بكتابي عن الشيخ السفير محمد الحمد الشبيلي؛ وانتهاءً بمشروع هذا الكتاب.

وأذكر من لطيف تصويباته على هذا الكتاب تنبيهي في أحد لقاءاتنا إلى أن قارات الدنيا ست وليست سبعاً كما ذكرت في أحد المقالات، ولم أجد ـ مازحاً ـ ما أبرر به خطئي إلا أن استشهدت برأي لبعض الجغرافيين يَعدّ «أنتاركتيكا» القطبية قارة سابعة.

لكننا نضع جانباً كل ما يتصل بالكتابة وشؤونها إلى ما هو أهم وأبلغ، وهو قضية شخصية الكاتب وخُلقه، فهو عندما يكتب أو يعلّق أو يناقش لا يُلقي بما يلقيه عن فوقيّة أو ترفّع، ولا يوحي بأن قوله يصدر عن مثقف قارئ متابع وصاحب رأي ناضج وفكر مستنير وثقافة عميقة الأساس.

إذا كان التواضع حلية الإنسان في تعامله وعلاقاته، فإنه عندما يزدان به الكاتب يكون تاجاً على رأسه، وأدعى لإنزاله منزلة رفيعة بين قرائه وعارفيه، وإكسابه احترامهم وإعجابهم.

إنها إحدى سمات كاتبنا، صاحب القلم الفيّاض، والكلمة الواعية، والحضور المتفاعل، والرؤية العصرية، عبدالعزيز بن عبدالله السالم، ألبسه الله ثوب العافية، ووفقه لأن يتوّج حضوره الثقافي بتدوين تجربته الثرية في ميدان الإدارة، ويجمع ما كتبه في سِفْر يسعد الأجيال بقراءته والإفادة من فكره وأسلوبه وتواضعه الثقافي والخُلُقي.

لقد قادتني محاولة التعرّف على شخصية هذا الإنسان، وتركيبة نَفْسه، وأبعاد مثالياته، إلى تلك المقابلة التي اقتنصت فيها مجلة المعرفة (ذي الحجة ١٤٢١هـ) حديثاً فريداً ممتعاً معه، نفذت من خلاله إلى أعماق شخصيته، وسلطت عبر محاوره الضوء على تفكيره وفلسفاته ومنهجه في الحياة.

ثم جاءت الجزيرة الثقافية (١٤٢٦/٢/١٨هـ ـ ٢٠٠٥/٣/٢٨م) بعدد خاص عنه، تضمن تعليقات من عدد من محبيه تناولوا فيه أسلوبه في العمل، ومنهجه في الحياة، كما تطرقوا فيه إلى كتاباته ومعارفه وفكره.

كشف الشيخ السالم، على سبيل المثال، في تلك المقابلة، أن غلبة العزلة والبُعد عن الأضواء على طبيعة حياته، وميله للقراءة حتى أصبحت جزءًا من تكوينه، قد أدّيا إلى فشله في بناء علاقات اجتماعية واسعة، وبالتالي إلى النفور من الدعوات الواسعة والمشاركة في الندوات، كما كرر التأكيد على أن أوجه الفشل في حياته قد فاقت حالات النجاح، وأن الحياة سارت به في الاتجاه المعاكس، وأن تربيته قد أورثته الحساسية في التعامل مع المال، وأن النزعة الانطوائية قد حوّلت مجرى حياته، مخالفاً بذلك ما يعتقده البعض من أن النجاح في الحياة هو الوصول إلى الوجاهة الاجتماعية، مضيفاً أن خوفه من المال جعله يبتعد عن طرقات جمعه، وأن ارتباطه بالمجتمع الثقافي يَفْضُل في نظره أن يكون محسوباً على المجتمع الوظيفي.

إن من الواضح، لمن يتتبع مسيرة حياة الشيخ عبدالعزيز السالم، ومن تعليقاته وكتاباته، ومن وقوفه ـ كما وصفه د. الخويطر ذات مرّة ـ حارساً أميناً للغة العربية، ومن تصويباته الدقيقة لكل ما يمر عليه أو يسمعه أو يشاهده، أن القراءة والمتابعة والرصد تشكل حيزاً كبيراً من

اعتكافه الثقافي في صومعة داره، وهو ما يكشف أحد أسرار ميله للانطواء، إذ إن من الصعب أن يتصور المرء كيف يمكن لشخص في مثل مواقعه الوظيفية، التوفيق بين مشاغل العمل ونهم القراءة وإشباع الرغبة في الثقافة، خاصة إذا ما عرفنا طبيعة الأعمال المضنية التي تولاها.

لقد عرف عن الأستاذ السالم، أنه كان الحاضر في المشهد الثقافي، الرصين في طرحه، المتمكن في موضوعه، الغزير في تدفق فقراته واستشهاداته، الجميل في أسلوبه، منذ أن أسهم في موضوعات مجلة اليمامة في بواكير إصداراتها في السبعينيات الهجرية ـ الخمسينيات الميلادية ـ مروراً بتلك الموضوعات التراثية والاجتماعية المتنوعة التي نشرها في جريدة الرياض، في صفحة (حروف وأفكار)، وبكتابه: أزمة القيم، الذي صدر ضمن سلسلة كتاب الرياض، مؤثراً أن يرمز لاسمه باسم مستعار، إمعاناً في البُعد عن الأضواء، وحرصاً على أن يُقرأ الموضوع لذاته لا لمنصب كاتبه، وانتهاءً بالمقالات التي مايزال يتحف بها القراء بين حين وآخر، بقلم متعقل، رشيق العبارة، يزخر بالوطنية والصدق والإخلاص.

ومع ذلك، فإنه لا ينبغي أن تُعطي تلك التصريحات والاعترافات، انطباعاً بأن الرجل «يجفل» من الناس أو ينفر من الاختلاط بهم، فهو وثيق الصداقات، يُخصص موعداً أسبوعياً من وقته للقاء مفتوح يستقبل

من خلاله الأصحاب والأقارب والزملاء وذوي الحاجات، كما يواظب على حضور ندوات ذات طبيعة حميمة، مثل خميسية الشيخ حمد الجاسر في منزله: دارة العرب، مع المشاركة الفاعلة في مداولاتها.

وهو يفتح باب مكتبه على الدوام دون حاجب أو سكرتير، بأسلوب بالغ الدماثة في الاستقبال والضيافة والتوديع، يُخجل زائره ببساطته وملاطفته وتواضعه.

ولد أبو عصام في بلدة الدرعية عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) في أسرة عريقة معروفة، ودرس الابتدائية في دار التوحيد بالطائف، والثانوية في المعهد السعودي بمكة المكرمة، ثم بدأ عمله في وزارة المعارف مع استلام الأمير (الملك) فهد كرسي أول وزير فيها عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م)، ثم ابتعث إلى جامعة القاهرة وحصل على الشهادة الجامعية في كلية الآداب (قسم اللغة العربية وآدابها).

وبعودته التحق بوزارة الداخلية، حيث كان الأمير فهد قد انتقل إليها فصار مديراً لمكتبه بتاريخ ١٤/١٠/١٣٨٣هـ (٢٨/٣/١٩٦٤م)، وقد لفّته تروس آلة الوظيفة، حتى لم يستطع تحقيق حلم له بمواصلة دراساته العليا في بريطانيا، مما جعله لا يعبأ بالاحتفاظ بشهادة لم تمكّنه الظروف من الحصول على ما يعلو عليها، ولم تحقق له طموحاته العلمية.

وفي عام ١٣٩١هـ (١٩٧١م) عُين أميناً عاماً لمركز الأمن الوطني، وانتهى به المطاف أميناً عاماً لمجلس الوزراء يوم ١٤٠٥/٨/٦هـ (٢٩/٤/١٩٨٥)، وهو منصب ظل فيه حتى مطلع شهر ربيع الأول ١٤٢٦هـ (١١ أبريل ٢٠٠٥م) عندما نُقل إلى منصبه الحالي: مستشاراً بالديوان الملكي، وهو له من الأولاد عصام ومازن وأحمد وأختهم مي.

ويترقب المجتمع الثقافي وفاء أبي عصام بوعده أن يجمع ما كتبه من مقالات منشورة في إصدارات سابقة، في كتاب من ثلاثة أجزاء بعنوان: «**إليك أيها الإنسان أتحدث**»، يكون هذه المرة باسمه الصريح.

لقد وصفه د. غازي القصيبي في مجلة الجزيرة الثقافية بأنه: **الأديب الخجول المتواضع، عاشق الظل، الذي يقرأ بهدوء، ويكتب بهدوء، ويتكلم بهدوء، ويهمس بآرائه، ويهرب من الأضواء.**



(٣٤)

عبد الله بن إبراهيم الجفالي

جريدة الشرق الأوسط: الخميس ١٩/٠٣/١٤٢٦هـ، الموافق (٢٨/٠٤/٢٠٠٥م)، العدد (٩٦٤٨).



إبراهيم (جالساً) وعلي وأحمد (يمين) أبناء عبدالله الجفالي

شجعت الحفاوة التي قوبلت بها الحلقات الأُول المنشورة من هذه السلسلة على الاستمرار في الكتابة عن شخصيات أخرى، كان لها تاريخ مؤثر، سياسي أو ثقافي أو اجتماعي، وكانت همزة وصل وتواصل بين قطرين أو أكثر من أقطار الجزيرة العربية، وبخاصة ممن لم يُكتب عنهم كثيراً من قبل، فهؤلاء وإن ابتعدوا عن الأضواء، لم يعد تاريخهم مُلكاً لأنفسهم، بل أصبحوا رموزاً لأوطانهم، ومن حق المجتمعات أن تعرف عنهم، وتطلّع على سيَرهم الحافلة بالإنجازات الصامتة إعلامياً، الناطقة مجتمعياً وإنسانياً. فالكتابة عنهم، لا تدخل في باب التمجيد لأشخاصهم بقدر ما هي تذكير بنماذجهم، وإبراز لدور المواطن المتفاني في خدمة وطنه والولاء له.

إن تاريخ عبدالله بن إبراهيم الجفالي وأبنائه إبراهيم وعلي وأحمد، هو جزء متمم لتاريخ الحياة الاقتصادية والإدارية والاجتماعية للحجاز ونجد والأحساء في المملكة العربية السعودية في القرن المنصرم، فلقد وُلد هذا العصامي في حدود عام١٨٨٠م في عنيزة بمنطقة القصيم، ثم نزح إلى مكة المكرمة إبان الحكم العثماني، وعمره لم يصل حد العشرين (١٨٩٨م)، وبدأ يحتل مكانة اجتماعية مرموقة مختطّاً لنفسه مساراً يجمع بين نزاهة التجارة وخدمة الوطن وإنمائه وعمل الخير، مع

البُعد عن التباهي في المحافل العامة، تماماً كما هو خطّ أبنائه من بعده، على النحو الذي عشناه ورأيناه، وكان قبل استقراره في مكة المكرمة قد سافر إلى العراق، واكتسب شيئاً من المعارف فيها، ثم عاد إلى وطنه الأساسي (بمنطقة القصيم) ليقرر الرحيل إلى الحجاز، وذكر المؤرّخ محمد العلي العبيّد في كتاب: من أخبار الملك عبدالعزيز (١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م، تحقيق فايز الحربي) أن قائد الجيش السعودي (خالد بن لؤي) عند دخول مكة المكرمة (١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٤م) أقام في بيت عبدالله الجفالي، لصداقة قديمة بينهما، وكان العبيّد حاضراً.

بنى مؤسس بيت (آل الجفالي) مجداً يفوق عرض التجارة، حتى بلغت ثقة الملك عبدالعزيز به ـ عام ١٩٢٥م ـ أن اصطفاه ضمن قائمة الأعضاء الأوائل، من صفوة المجتمع ومتعلّميه آنذاك، لتشكيل أول مجلس للشورى في العهد السعودي وهم: (صالح شطا وأحمد سبحي وعبدالله الزواوي ومحمد يحيى عقيل وعبدالله إبراهيم الجفالي وعبد العزيز بن زيد وعبدالوهاب عطار) فكان الجفالي وابن زيد يمثلان مملكة نجد في هذا المجلس، قبل أن تتوحد المناطق تحت اسم المملكة العربية السعودية، كما كلفه الملك عبدالعزيز بمهام تفتيش إدارية في منطقة غامد وزهران (الباحة).

وإذا ذكر البيت التجاري لآل الجفالي، فإنه يقترن على وجه الخصوص،

بإسهامه في تعبيد ـ رصف ـ أول طريق تعبره السيارات بين مكة المكرمة وجدة، وتأسيس أول شركة كهرباء سعودية في الطائف (عام ١٩٤٧م)، ما لبثت خدماتها أن شملت بعد حين مكة المكرمة، لتلغي استخدام الفوانيس الغازية في بيوتها وشوارعها وأزقتها.

وقد توفي، رحمه الله، في إثر حادث أليم في أواخر شهر رمضان المبارك عام ١٣٥٤هـ (ديسمبر ١٩٣٥م)، وعمره لمّا يبلغ الستين، مخلفاً أسرة مكّونة من (٤) أبناء وابنة واحدة (نورة)، وقد غطت الجريدة السعودية الرسمية (أم القرى) خبر وفاته في حينه (العدد ٥٧٧ في ١٩٣٥/١٢/٢٥م)، إلا أنه ـ حسبما ذكر لي ابنه الشيخ علي ـ لا تُعرف له صورة فوتوغرافية محفوظة، وقد توفي أحد أبنائه الأربعة (سليمان) وهو شاب لم يصل العشرين من عمره.

ثم كوّن أبناؤه من بعده نواة الشركة العائلية المعروفة اليوم: (شركة إبراهيم الجفالي وإخوانه) في مكة المكرمة، حيث كانت هذه العاصمة المقدسة تتبعها الطائف، تتفوق بتجارتها المزدهرة على جدة، قبل أن تبدأ الأخيرة باحتلال المركز التجاري الأول في غرب البلاد، يساعدها على ذلك ميناؤها البحري القديم وبيوتها التجارية العريقة.

استمرت الشركة العائلية في تأسيس شركات أخرى للكهرباء في المدينة المنورة وجدة والاحساء، كما سعت إلى إنشاء أولى شركات الأسمنت في البلاد، وكان مما قامت به في مجال الصناعة والتعهدّات:

تأسيس شبكة الهاتف السعودي الآلي الحديث ومصنع تجميع شاحنات المرسيدس في جدة.

وقد توفي الشيخ إبراهيم يوم ١٤٠٣/١٠/٣هـ (١٩٨٣/٧/١٣م) في المستشفى العسكري بالرياض مخلفاً ابنة وحيدة (فوزية) تقيم في مكة المكرمة، وتكرّس حياتها لأعمال الخير، سيراً على خطى والدها في العمل الإنساني النبيل، وكان حسن عبدالحي قزاز قد ضمّن كتابه: أهل الحجاز بعبقهم التاريخي، ط: ١ (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م) ترجمة موجزة له، فذكر أنه ولد يوم ١٣٣٣/١٢/٢٨هـ (١٩١٥/١١/٥م).

ثم عاجل الأجل الأخ الأصغر الشيخ أحمد عام ١٩٩٤م في جدة بعد أن أنجب من الأبناء: وليد وخالد وطارق ومن البنات: مها، وخلّف سمعة اجتماعية وتجارية مرموقة، وأعمالاً إنسانية مستترة في مساعدة المحتاجين في الداخل والخارج، لا يكاد يُعرف منها إلا نماذج رمزية مثل مركز (العون) للمعاقين بجدة ومركز غسيل الكلى بمستشفى الملك سعود بعنيزة، وبعض الصدقات الجارية والأوقاف لرعاية الفقراء والحجاج ونحوهم.

ويعيد التاريخ نفسه، ليتم اختيار الأخ الأوسط (علي) عضواً في مجلس الشورى الحديث، في دورته الأولى (١٩٩٤م - ١٩٩٨م) فكان نعم العضو السمح، الحائز بامتياز على احترام زملائه، المتزن في آرائه وطرحه، المتابع للمداولات، المواظب على الحضور بالتردد الأسبوعي بين جدة والرياض.

ولد الشيخ علي الجفالي في مكة المكرمة عام ١٩١٦م، وتركز نشاطه في مباشرة مسؤوليات مجلس الإدارة والعضو المنتدب لشركة كهرباء جدة (المنطقة الغربية) وشركات الإسمنت بالإضافة إلى الشركة العائلية، وله من الأبناء: حاتم وأمين وسامي وأيمن ومن البنات: (منى).

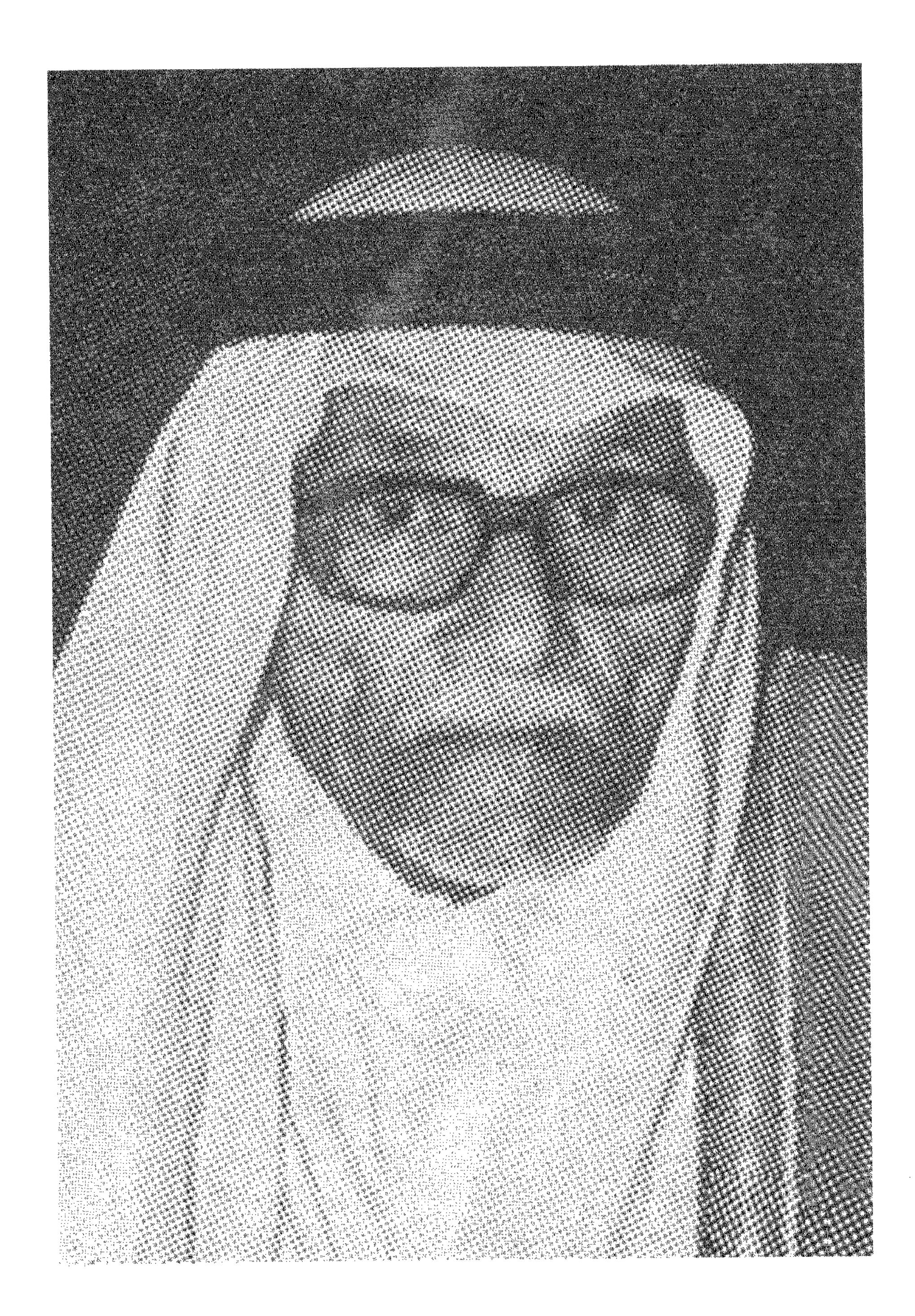
بقي أن يذكر، أن صلة آل الجفالي بمسقط رأس العائلة (عنيزة) لم تنقطع، بعواطفهم واهتماماتهم وصدقاتهم، وكذلك مع الأحساء التي بنى الأخوة الثلاثة صلة عمل معها بعد أن توثّقت رابطة نسبهم مع أسرة (بالغنيم) الأحسائية المعروفة التي ينحدر منها د. فهد وزير الزراعة السعودي الحالي.



(٣٥)

خليل ابراهيم الرّواف

مجلة (المجلة) بتاريخ ١٤٢٦/٩/٦هـ (٩ أكتوبر ٢٠٠٥م) ـ العدد (١٣٣٩).



مازلت، منذ أن كنت مديراً عاماً للتلفزيون السعودي في السبعينيات الميلادية، أعتقد أن ظاهرة تجارة (العقيلات) التي اشتهر بها النجديّون من أبناء شبه الجزيرة العربية، والتي يؤرخ لها البعض بقرنين من الزمان (١٧٥٠ ـ ١٩٥٠م) هي مادة ثقافية ثرية، يمكن أن يستلّ منها الكثير من الروايات والمسلسلات السينمائية والتلفزيونية الشيقة والجاذبة، المشبهة، لو خدمت مالياً وأتقنت نصوصاً، لما ينسجه الأميركيون من قصص رعاة البقر (الكاوبوي) والهنود الحمر.

وقد صدر خلال العقدين الماضيين مجموعة قليلة من الكتب التي توثق لهذه الظاهرة، وتسجل بعض أسماء رجالاتها وقصصها، كان من أبرزها كتب إبراهيم المسلم الثلاثة: العقيلات، ورحلتي مع العقيلات، والعقيلات: أسفارهم ورحلاتهم، وكتاب: نجديون وراء الحدود: الصادر عن دار الساقي ١٩٩١م.

إن هذا المقال، يتحدث عن عَلَم من رجالات الأمة العربية غير المعروفين، أدرك تجارة العقيلات هذه وأسهم فيها، ثم هاجر إلى أمريكا، وتزوج منها مرتين، وتجّول في ولاياتها، وقام فيها بأدوار تجارية وسياسية وإعلامية ودعوية، واستحق بجدارة أن يسمى أحد شهود القرن العشرين، الذي ما كان لاسمه أن يغيب عن هذه السلسلة، فإذا بجريدة الشرق

الأوسط تستحث الكاتب أن يدرج اسمه، ليجد ـ أي الكاتب ـ أن بغيته من أهم المصادر عنه هو كتاب من منشورات الشركة السعودية للأبحاث والنشر، وأعني بذلك مذكرات الرواف نفسه: صفحات مطوية من تاريخنا العربي الحديث (جدة ١٩٩٤م، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر).

فالمقال يصلح أن يكون أيضاً، عرضاً للكتاب نفسه، الذي يتكوّن من (٥٢٠) صفحة، وقدم له د. سهيل زكّار رئيس قسم التاريخ بجامعة دمشق، وابن أخي الرواف: د. عثمان ياسين الرواف، أستاذ العلوم السياسية بجامعة الملك سعود وعضو مجلس الشورى، اللذان أشرفا وغيرهما على مراجعته وتنقيحه.

يضم الكتاب بين دفتيه (١٧) فصلاً، في جزأين رئيسيين، خصص الأول منهما لحياة الرواف في جزيرة العرب وبلاد العراق والشام، ولتجارته المبكرة مع العقيلات، وخصص الثاني لأحداث هجرته إلى أمريكا، وأتبعهما ـ بإيجاز ـ بملحق عن حياته بعد العودة من هجرته، راوياً فيه قصة عثوره الممتعة بعد أن تجاوز الخامسة والتسعين على ابنه الوحيد نواف الذي غاب عنه مدة (٤٥) عاماً في أمريكا (١٩٤٧م إلى ١٩٩١م).

إن مذكرات الرواف هذه، التي بدأ في تدوينها منذ صغره، ثم أمضى

ثلاثة أعوام في تحريرها النهائي، هي في الحقيقة، وثيقة تاريخية مهمة، لأنها سجلت بعين الراصد المعايش، واقع الجزيرة العربية من منتصفها إلى شمالها، خلال فترة التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عاشها، والتي تصدت لها ذكريات القلة من المثقفين والمؤرخين والسياسيين.

لكن المرء يتوقف قليلاً أمام ادّعائه بأنه أول مهاجر سعودي إلى أمريكا، حيث يُذكر بأن عبدالله الخليفة، وهو عقيلاتي من بريدة أيضاً، كان سبقه بالهجرة منذ مطلع القرن العشرين، وقد روى ناصر بن سليمان العمري قصته في مجلة اليمامة (العدد ٢٠٦ تاريخ ١٣٧٩/٧/٢٠هـ).

ولد الرواف قبيل مطلع القرن الميلادي المنصرم (حدود عام ١٨٩٨م) في دمشق، في أسرة الرواف المعروفة في بريدة بمنطقة القصيم، وكان أساس الأسرة من مدينة العيينة لكنها نزحت متفرقة بين الرياض وعرقة المجاورة لها والقصيم، كما هاجر جزء من الأسرة إلى بغداد والزبير، واتجه أفراد منها إلى الهند، وكان أبوه (المتوفى عام ١٩٢٧م) قد تزوج من أسرة شامية من حي الميدان الشهير بالمقيمين النجديين، حيث كان يوجد فيه عدد من أسرة الكحيمي والحجيلان والنجيدي والطويان والشبل والقاضي والمحيسن والصالح والجميل والرواف.

ثم يتحدث الرواف ـ الذي يشير تقريباً لا تحديداً إلى سنة ولادته ـ إلى ظروف انقطاعه عن الدراسة في مدرسة التوفيق بدمشق التي تطبق منهجاً تعليمياً تركياً بسبب نفوره من أسلوب مدرسيها.

تنقسم حياة الرواف، بعد مرحلة الطفولة التي عاشها في دمشق قبل الحرب العالمية الأولى، **إلى ثلاث فترات**:

(١) فترة ريعان الشباب، والتي قضاها في تجارة العقيلات والتجوال في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق، وقد امتدت من حدود عام ١٩١٧م وحتى عام ١٩٣٥م واقترن في نهايتها بزوجته الأولى (الأمريكية) التي شجعته على الهجرة معها إلى أمريكا.

(٢) فترة هجرته إلى أمريكا، وقد امتدت نحواً من (١٥) عاماً (١٩٣٥ وحتى ١٩٤٩م) والتي تزوج فيها مرة ثانية، ورزق منها بابنه الوحيد (نواف).

(٣) فترة ما بعد العودة، والتي بقي فيها حتى وفاته عام ٢٠٠٢م وتزوج فيها زوجته الثالثة (مصرية) والدة ابنتيه: آسيا (الطبيبة) وأميمة (تخصص علوم).

وكان له أخوان هما: محمد عيد (أشير إليه في موقع آخر من هذا الكتاب) وهو يكبره بعامين، وياسين الذي يصغره بعامين، وقد توليا مناصب دبلوماسية رفيعة، وست أخوات من بينهن عائشة التي تصغره بأربعة أعوام، وهي تقيم حالياً في المملكة العربية السعودية.

تصف ذكريات الرواف ـ التي تفتقر مع الأسف إلى تحديد التواريخ مع أنه كان من السهل عليه أو على مراجعي الكتاب إضافتها، وعلى القارئ استنتاجها حيث يذكر العديد من الأحداث المعروفة تواريخها ـ تصف حال الصراع بين العثمانيين والبريطانيين في شبه جزيرة العرب، ومحاولة كل طرف منهما استمالة الأمراء المحليين، كما تروى طرفاً من علاقة والده إبراهيم المحمد الرواف بالقائد التركي (جمال باشا) في سوريا، وقيامه ـ أي والده ـ بتموين الجيش التركي باحتياجاته من الإبل والتجهيزات.

ثم تعرّج الذكريات على وصف دمشق ومنازل أهله وأخواله فيها، وعلى السعوديين المهاجرين إليها، وبعض الأسر التي استقرت في بلاد الشام ومصر، حيث طاب لها المقام بعد أن جاء أفرادها إليها متاجرين بالإبل (تجارة العقيلات الرئيسية)، كما يذكر قصة هروب والده من الشام، خشية اضطراره لخيانة صديقه نوري الشعلان، والمشاركة في اعتقاله من قبل الأتراك، حيث ينتهي المطاف بوالده لاجئاً في حائل عند ابن رشيد.

لقد خصص الرواف جزءاً من ذكرياته لوصف تجارة العقيلات هذه التي اشتهر بها النجديون، والتي تعتمد بالدرجة الأولى على شراء الإبل من عرب نجد وبادية العراق في مواسم ترخص فيها إبان فترات

الجفاف، ثم يبيعونها في بلاد الشام بعد أن تتحسن أحوال الماشية في فصول الربيع، وكان العديد من الأثرياء في القصيم (يبضّعونهم) الأموال بأسلوب (المضاربة) ليتمكن العقيلات من هذه المتاجرة، فإن ربحت تجارتهم تقاسموا الربح بينهم، لكن الخسارة، سواء كانت ناتجة عن البيع والشراء أو عن السرقات والغزوات، أو عن الفقد والضياع، لا تطالهم ولا تلحق بمسؤوليتهم، وذلك بحكم الثقة المطلقة المتبادلة.

كان البعض من تلك الرحلات يمتد شهوراً، وقد تستغرق سنوات إذا ما طابت الإقامة لبعضهم، ولذلك فإن الرواف يروي قصصاً لأشخاص لم يلتقوا بأولادهم إلا بعد أن تجاوزوا العشرين، وقد كانوا خلّفوهم وراءهم وهم في بطون أمهاتهم.

يتحدث الرواف بالتفصيل عن قصة أول رحلة له مع عمه محمد الحمد الرواف من الشام إلى بريدة مروراً بالعراق، واصفاً مشاعره لرؤية مسقط رأس أسرته، ومعرجاً على الكثير من الأحداث التي مرّت بنجد في تلك الآونة (العقد الثاني من القرن الماضي)، وهي الفترة التي سبقت انتهاء حكم آل الرشيد في حائل والأشراف في الحجاز، كما يسرد أسماء العشرات من القبائل ومن الشخصيات السياسية والاجتماعية التي عاشت تلك الفترة، ويقدم وصفاً لبعض المدن التي وطئتها قدماه في رحلاته التي لم تنقطع طيلة العقود التسعة الأولى من حياته، مع الاستشهاد بين

فينةً وأخرى ببعض الأشعار التي نظمت حولها .

ثم يستمر في سرد ذكرياته عن أول زيارة له - على الجمال بالطبع - للمدينة المنورة أيام كان الشريف علي بن الحسين أميراً عليها، وحيث كانت سكة حديد الحجاز تصلها بتركيا عبر دمشق، قبل أن تطالها أيدي التخريب، فيصف الحياة فيها، وينوه بازدهارها الاقتصادي ثمرةً لتشغيل هذا الخط الذي دام ما يقرب من ثماني سنوات، وقد غادرها الرواف مستخدما القطار عائداً إلى دمشق عن طريق الأردن قبل أن يحكمها الشريف عبدالله بن الحسين، وقد مر في طريقه بمدائن صالح (الحجر) وأقام في ضيافة صديق والده وتاجر الخيول سليمان الرميح الذي صادفه هناك.

يتجول الرواف في ذكرياته من إقليم إلى آخر ليروي التطورات السياسية التي تحل فيها، فهو مثلاً، وهو الشاهد المعاصر على أحداثها، يتحدث عن الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان، والانتداب البريطاني على العراق والأردن، والاحتلال البريطاني لمصر والسودان، كما يتحدث عن ظروف إعلان الشريف فيصل بن الحسين نفسه ملكاً على سوريا، وقيام دولة هاشمية في شرق الأردن، وهكذا يأتي على ذكر معركة (ميسلون) التي شارك فيها عدد من النجديين المقيمين إلى جانب إخوانهم السوريين في محاولة لصد الاحتلال الفرنسي عن بلادهم.

ثم يخصص الرواف الفصل الخامس من ذكرياته للحديث عن بداية الحكم السعودي في الحجاز (١٩٢٤م) والجهود التي بذلها الملك عبدالعزيز لتكوين نواة الحكومة الحديثة ومؤسساتها الدستورية والإدارية وأسماء بعض الشخصيات السياسية المبكرة التي تولت الأمور في تلك الفترة (عبدالله الدملوجي، يوسف ياسين، الطيب الهزازي، عبدالله السليمان الحمدان «ابن سليمان»، فؤاد حمزة، رشدي ملحس، وحافظ وهبة، وخالد القرقني وغيرهم) من المستشارين السعوديين والعرب الذين اعتمدت عليهم الدولة إبان فترة تأسيسها، ثم يحكي قصة تعيين أخيه ياسين (والد د. عثمان الرواف) قنصلاً عاماً في سوريا ولبنان إبان الاحتلال الفرنسي، وتفكير الملك عبدالعزيز في تعيين (شخصية المقال) الشيخ خليل الرواف كبيراً على العسكر النظامي، وذلك بحكم خبرته السابقة مع الحكومة التركية في تجييش الجند وتمويله وتوفير الأمن له، ثم مغادرته المفاجئة عائداً إلى دمشق هروباً من هذا التكليف المحتمل.

أما في الفصل الخامس من ذكرياته، فيكشف بعض دواخل نفسيته القلقة، حيث يكرر بأنه ليس بتاجر ولا بموظف، وإنما هو شخصية مغامرة، كُتب عليه الترحال، بحثاً عن موقع في الحياة، وأصيب بالاكتئاب والعزلة مرتين، لكن العرض الذي يواصله لسرد قصة حياته مستشهداً بالأحداث، والمواقع التي مر بها، يجدد على القارئ ما تختزنه ذاكرته من

معلومات عن تلك الحوادث والمواقع، فهو ينقل بأمانة واقع تلك البلدان، فضلا عن الجزيرة العربية، في تلك الحقبة الزمنية، سياسيا واجتماعياً واقتصادياً بما يجعل القارئ يستمتع ويستفيد ويؤكد معلوماته.

لكن ما أن يدخل الرواف في الفصل السادس حتى يبدأ في التركيز على مدينة معان (جنوب الأردن) التي عدت في العشرينيات محطة القوافل النجدية لجلب الخيول والجمال والأغنام، تنطلق بها إلى مصر وفلسطين، أو يأتي تجارها ـ بالعكس ـ لشرائها، لقد بدأت هذه المدينة تزدهر بسبب ظروف الثورة السورية ضد الفرنسيين، حيث دفعت تجار العقيلات إلى تحويل تجارتهم إليها، وكان خط حديد الحجاز ينتهي بها بعد تعطيل الجزء الحجازي منه إبان الحرب العالمية الأولى، وقد أصبح الرواف تدريجياً وكيلاً في معان للتجار النجديين، يهتم بشؤونهم ويدفع الرسوم نيابة عنهم، ويبيع ماشيتهم ويبتاع لهم بأثمانها ما يرغبون من بضاعة.

ويستمر الرواف، في رصد رحلاته المتكررة إلى الحجاز ونجد، لكنه سرعان ما يدركه الحنين إلى دمشق التي ما انفك في ذكرياته يتغنى بالطفولة التي قضاها فيها، يرتع في مروجها ورياضها ويشيد بأمجادها.

ومن خلال تخصيصه الفصل الثامن للحديث عن جهوده التي بذلها ـ مدة ثلاث سنوات في بغداد دون أن يحالفه الحظ ـ لمحاولة استعادة وقف العائلة الذي كان جده محمد العبدالله الرواف قد أوقفه أثناء

إقامته في العراق، فإنه يستعرض جانباً من التاريخ السياسي الحديث للعراق في ظل الحكم الهاشمي في العشرينيات، ثم يأتي على ذكر العديد من الشخصيات، من بينها الشيخ محمد العبدالله البسام، أبرز التجار النجديين، وإبراهيم المعمر الذي عين وزيراً سعودياً مفوضاً في بغداد (١٩٣٣م) وأخوه محمد عيد الرواف الذي خلف المعمر في السفارة السعودية في العراق.

يمضي الرواف في ذكرياته بدءاً من الفصل التاسع، وعلى مدى ثمانية فصول، للحديث عن هجرته إلى أمريكا، إثر زواجه الأول (سنة ١٩٣٣م وعمره ٣٥عاما) من السيدة فرانسيس، وهي كاتبة صحفية أمريكية تكبره بسبع سنوات، ولها بنت (كارولين) من زواج سابق، وقد تعرَّف عليها أثناء مكوثه في بغداد، وتجولا سوياً مستقلاً الطائرة لأول مرة في حياته في مصر وسوريا ولبنان وسويسرا واليونان وإيطاليا قبل مغادرتهما إلى نيويورك التي وصلاها بتاريخ ١٩٣٥/١٠/٣م، ليصبح من أشهر المهاجرين السعوديين إلى أمريكا.

وقد خصص الفصل العاشر للحديث عن انطباعاته المبهورة بمدينة نيويورك، ووصف حياتها المثيرة للانتباه، وقدم كثيراً من المعلومات الإحصائية عن وضع هذه المدينة في الثلاثينات، ثم أشار إلى بعض الأحداث التي جرت في أمريكا إبان تلك الفترة مما يتصل بالعالم العربي.

لم يلبث الزوجان بعد أن قضيا أسبوعين منذ وصولهما إلى الأراضي الأمريكية حتى شجعته زوجته على التجوال معاً في الولايات الشرقية، فزارا تسعاً منها في رحلة دامت ثلاثة أشهر، كتب في الفصل الحادي عشر وصفاً دقيقاً لأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، وخصص حيزاً كبيراً منه لتاريخ الهنود الحمر، ولرواية الظلم الذي حل بهم على يد الرجل الأبيض المهاجر، وعقد مقارنة بين أوضاعهم وبين حياة الفلسطينيين تحت الاحتلال.

غير أنه، وقد اتبع في تسلسل فصول ذكرياته تتابع الأحداث زمنياً، يختم هذا الفصل فجأة بالحوار الذي جرى بينه وبين قرينته في إحدى الليالي التي قضياها في نهاية الجولة في أريزونا، والذي أدى إلى انفصالهما بعد ما تبين له - حسبما قال - أنها كانت تتكئ في علاقتها الزوجية به على يسرة حالتها المادية، ولم تتردد في تحذيره من الفراق منها كي لا يتيه في لجة أمريكا بعد أن أصبح في عمقها، فقرر الانفصال ثأراً لكرامته، بعد أن استمر زواجهما ثلاث سنوات.

لكنه، لم يته كما توقعت زوجته، إذ قرر الاستقرار في لوس انجلوس، فحالفه الحظ منذ أول يوم وصوله إليها، حيث عمل في أعمال مؤقتة مختلفة، ليس أقلها مستشاراً للملابس العربية لدى أحد منتجي هوليود، وممثلاً في فيلم للممثل الأمريكي (جون وين).

صحيح أنه ذاق من الغربة ـ في كاليفورنيا على مدى عامين ـ حلوها ومرّها، عسرها ويسرها، وفوّت العديد من الفرص التي كان من أبسطها دراسته هندسة الطيران، لكنه يروي في الفصل الثاني عشر (لوس أنجلوس ولقاء في هوليود) العديد من المفاجآت والنوادر التي واجهته في الساحل الغربي الأمريكي، كما يدّون الفصل الذي بعده قصة عودته إلى نيويورك، ومن ثم انتقاله إلى فلوريدا ثم إلى أيوا للإشراف على مدرسة أقامتها الجالية الإسلامية، وينتهي من التطواف برواية تجربته معلقاً سياسياً في إذاعة صوت أمريكا في بداية الحرب العالمية الثانية.

ثم يستمر الرواف في سرد ما مّر به من أحداث، معرّجاً بين حين وآخر على حوادث العالم، إبان الحرب العالمية الثانية، ومشيراً إلى الزيارات التي قام بهاإلى نيويورك ولي العهد الأمير(الملك) سعود (١٩٤٧م) والزيارتين اللتين قام بها الأمير (الملك فيصل) إلى نيويورك وسان فرانسيسكو في الأربعينيات، يرافقه إخوته (الملك) خالد و (الملك) فهد والأمير نواف، ثم الزيارات الأخرى التي قام بها أمراء سعوديون آخرون كان من بينهم الأمير طلال الذي توثقت علاقة الرواف به فيما بعد عملاً ورفقة وصداقة، وقد شهد الرواف كل هذه الزيارات وكان له إسهامات في إنجاحها، كما تطرق إلى الجهود التجارية والتعليمية والإعلامية والدعوية التي قام بها في أمريكا في تلك الفترة.

كان من أبرز ما رواه في الفصول الأخيرة من الكتاب قصة التحاقه بالجندية في الجيش الأمريكي، وقصة اقترانه بزوجته الأمريكية الثانية (١٩٤٥م) التي أنجبت ابنه الوحيد نواف، وقصة طلاقهما بعد ثلاث سنوات، والظروف التي أدت إلى غيبة ابنه نواف وتغير اسمه من نواف إلى كليف، وهي الغيبة التي دامت (٤٥) عاماً كما سلف، وكيف عثر عليه (عام ١٩٩١م) عندما قام وابن أخيه د. عثمان الرواف برحلة اقتفى أثره فيها بمساعدة مكتب تحريات خاص، بعدما كاد يفقد الأمل في العثور عليه، خاصة أن الابن كان ممن جند للحرب في فيتنام وتزوج من هناك، ثم يروي قصة زواج طليقته (أم نواف) من الأديب والشاعر المصري أحمد زكي أبو شادي.

كان عام ١٩٤٩م هو ختام هجرته إلى أمريكا التي دامت (١٥) عاماً، عاد بعدها إلى موطنه الأصلي وقد بلغ (٥٠) عاماً من العمر أي بعد مضي نصف المدة التي عاشها، ولم تطل به العزوبية القلقة كثيراً، إذ اقترن في العام نفسه (١٩٤٩م) بسيدة مصرية رآها في أثناء زيارة له إلى القاهرة، وقد رزق منها بابنتين، ثم توفيت عام ١٩٥٤م.

إن ذكريات الرواف المطبوعة مخزون ثري بمعلومات ثرّة عن شخصيات معاصرة له مثل: الأمير تركي (الأول) بن عبدالعزيز، والشيخ محمد بهجت البيطار، وسليمان العنبر، والشاعر محمد العوني، وشاعر

الحويطات عودة بن تايه، والشيخ فوزان السابق، والتاجر حمد المديفر، والشيخ محمد المغيربي فتيح، والسيدة جيرترود بيل، والشاعر بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد)، وعبد الرحمن الطبيشي، وكانت مجلة (المجلة) قد أجرت معه (ومع ابنه المعثور عليه عام ١٩٩١م) حديثاً موسعاً ووضعت صورتهما على غلافها في حينه.

الكتاب ذو حجم كبير كما سلف، وقد كُتبت حروفه ببنط صغير، مما يضاعف من مساحة الذكريات، التي تدعو تفاصيلها للعجب من قدرة مؤلفها على الرصد وسبك المعلومات وإدخال كثير من الاستشهادات ذات العلاقة، فهو مرة - مع تكرار مقبول - يتناول في سرده سيرة إحدى الشخصيات، أو مدينة من المدن، وقد يورد أحياناً قصيدة يتصل موضوعها بما ذكر، مما يزيد في متعة القراءة ومضاعفة الفائدة منه، ويجعله من أنفس كتب الذكريات العربية، التي يعلو فيها الجانب الموضوعي على الجانب الشخصي.

ولا شك أن ذكرياته هذه تشكل أحد المصادر الموثوقة فيما يتصل بحالة الأقاليم التي ركزت عليها، كوضع بلاد الشام والجوف وحائل والقصيم ونحوها.

والآن، وبعد مضي أعوام على رحيل الرواف، عقب أن عاش قرناً وأربعة أعوام، فإن المأمول بإلحاح أن تقوم الشركة السعودية للأبحاث

والنشر، بإعادة طبع الكتاب بسبب نفاده، ففي سلاسته وموضوعاته وصوره التاريخية الفريدة، وفي بساطة عرضه للأحداث، متعة لا تماثلها إلا القلة من كتب الذكريات الأخرى المجانسة، على أن المرجو أيضاً أن يتم تدارك بعض الأخطاء اللغوية والمطبعية التي فاتت على مراجعي طبعته الأولى، وأن يضاف إلى الكتاب كشاف عام للأماكن والأعلام الواردة فيه مع التفريق بين الأزمنة الهجرية والميلادية فيه، حتى يستفيد الباحث والقارئ منه بشكل أفضل.

(٣٦)

عبد الله بن محمد الفضيل[1]

---

[1] نشر في مجلة (الشورى)، العدد (٦٣)، ذو القعدة ١٤٢٥هـ (يناير ٢٠٠٥م)، ومجلة (**المجلة**)، العدد (١٣٤٢) الصادر بتاريخ ٢٧ رمضان المبارك ١٤٢٦هـ (٣٠ أكتوبر ٢٠٠٥م).



هاجرت ـ عبر القرون الماضية ـ أسر كثيرة من وسط الجزيرة العربية (نجد) لتستقر في بلدان الخليج العربي وبلاد العراق والشام وفلسطين ومنها إلى مصر، وكان بعضها (العقيلات) يكتفي بالتجارة مع تلك البلدان والعودة منها، كما عَبَر بعضها من الحجاز أو من البحرين إلى الهند، واتجه بعضها للإقامة في إقليم الحجاز الخاضع لحكم الاشراف الهاشميين التابعين للأتراك العثمانين خلال فترة حكمهم، فاتخذت تلك الأسر من جوار الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة وما حولهما (الطائف وجدة وينبع وغيرها) مستقراً لهجرتها، دون أن تنقطع عن الاتصال بأصولها في نجد.

وليس من باب المصادفة أن تكون أغلب تلك العائلات قد جاءت من منطقة القصيم، ذلك أنها كانت من أكثر نواحي نجد اتصالاً بالخارج فيما مضى، وبخاصة مع الحجاز والعراق والبحرين وبلاد الشام وفلسطين ومصر والهند، وتوجد وثائق ومكاتبات قديمة ومواقع معروفة ماتزال مملوكة لهذه الأسر في بريدة وعنيزة وما جاورهما.

ولو اقتصر المقال على الصلات مع الحجاز في مطلع القرن المنصرم، وذلك قبيل توحيد الدولة السعودية المعاصرة، التي تكّونت سياسياً وتشكلت مؤسساتها الدستورية أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات

من القرن الماضي، فإنه يمكن الاستشهاد في هذا المقام، ومن خلال هذين الإطارين ـ الزمني والمكاني ـ بأُسر مثل آل الخريجي والبسام والجفالي والتركي والسليمان (الحمدان) والزغيبي والنانيه، فلقد استقر آباء هذه العائلات في مكة المكرمة والمدينة المنورة، أو تنقلوا بين الحجاز ونجد ثم انتهى بهم المطاف في الأراضي المقدسة، بهدف العبادة أو التجارة أو الالتحاق بالجيش العثماني، إلى غير ذلك من الأغراض.

يركز هذا المقال على أسرة الفضل التي هاجر بعض أفرادها من عنيزة إلى الهند شرقاً، ونزح البعض الآخر إلى الحجاز منذ زمن يسبق دخوله تحت الحكم السعودي (١٩٢٥م)، حتى صار كثير من رموز هذه العائلة يتردد على الهند وبلدان الخليج ويمارس التجارة فيها[1]، وكان كاتب هذا المقال قد أمضى بعض سنوات طفولته في عنيزة في منزل تعود ملكيته لأحد أفراد هذه الأسرة الغائبين.

برز من هذه الأسرة، فيما يتصل بعنوان المقال ـ وهو الجمع بين ممارسة التجارة وسمة الترحال والانشغال بالسياسة وعضوية مجلس الشورى ـ برز ثلاثة، كان الأكثر شهرة بينهم هو عبدالله بن محمد الفضل أول من عمل نائباً للأمير فيصل بوصفه رئيساً لمجلس الشورى القديم (أساس مجلس الشورى الحالي)، ورئيس مجلس الوكلاء (نواة

---

(١) ورد ذكر آل الفضل في الهند في كتاب: صحيح الأخبار لمحمد بن بليهد، القاهرة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م ج ٤ ص ١٤٤).

مجلس الوزراء الحالي)، أما الآخران فسيأتي ذكرهما لاحقاً.

وقبل التعريف بهذه الشخصية، قد يكون من المفيد التذكير بعمه صالح العبدالله الفضل الذي كان قد استقر في بومبي منذ أواخر القرن التاسع عشر، وكان على صلة عمل ومودة مع الملك عبدالعزيز، ويُذكر له ولأخيه إبراهيم أنهما استقبلا الأمير فيصل بن عبدالعزيز عند مروره بالهند (بومبي)، التي كانت تمثل المحطة شبه الوحيدة للبواخر المتجهة إلى أوربا، في رحلته الأولى التي رافقه فيها الأمير أحمد بن ثنيان (١٩١٩م)، وتوجد مكاتبات موثقة بينه وبين الملك عبدالعزيز، سواء فيما يتصل بهذا الشأن أو غيره، حيث كان الملك يكلفه ببعض المشتريات والمهمات الثقافية والإنسانية، جدير بالذكر أن صالح الفضل وعدد من تجار عنيزة المقيمين في الحجاز كانوا قد احتجزوا في مكة المكرمة عام ١٣٣٨هـ بأمر الشريف حسين، للضغط على مدينتهم لفك ارتباطها مع الإخوان[1].

لم تنقطع صلته بأسرته في عنيزة، حيث كان يزورها بين حين وآخر، وبالذات في شهر رمضان المبارك، يخص فقراءها بجزء من صدقاته، وكانت له أملاك في مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة بالإضافة إلى بومبي وكراتشي، وقد توفي في كراتشي ودفن فيها عام ١٩٢٣م.

وعودة إلى الشيخ عبدالله الفضل، موضوع عنوان هذا المقال، الذي

---

(١) وردت القصة في كتاب: من أخبار الملك عبدالعزيز في مذكرات محمد العلي العبيّد (الكويت ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، تحقيق فايز الحربي).

يعد أبرز من انشغل بالخدمة العامة منهم، فإنه لا توجد مع الأسف معلومات وافية عن سيرته، والأحرى أنه ربما يكون من مواليد عنيزة حوالي عام ١٨٨٠م، ثم رحل وعمره في حدود الخامسة عشرة ليلتحق بعمه صالح - السابق ذكره - ووالده في الهند، حيث تعلم الإنجليزية والأردية وعلوم المحاسبة والتجارة، وقد عاد إلى الرياض، واتصل مبكراً بالملك عبدالعزيز (١٩٠٦م) ثم استقر في مكة المكرمة لممارسة التجارة، وعاصر دخول الملك عبدالعزيز في مكة المكرمة (١٩٢٤م)، وأصبح - كما ذكر الزركلي - من المقرّبين إليه وأحد مستشاريه، وتولّى بشكل خاص تشجيع استخدام الحجاج لميناء عدن لتسهيل دخول حجاج الهند والجاوة إبان تعطيل ميناء جدة بسبب أحداث تلك الفترة.

وكانت الجريدة الرسمية السعودية (أم القرى) قد نشرت في عامي ١٩٢٥م و ١٩٢٦م خبر اختياره في مجلس الشورى الأهلي مندوباً عن التجار، وهو المجلس الذي مهّد لقيام مجلس الشورى القديم.

ثم أصبح مقرّباً من الأمير فيصل بن عبدالعزيز (نائب الملك في الحجاز ورئيس مجلس الشورى) فصار نائباً له في مجلس الشورى، ثم أصبح نائباً له في مجلس الوكلاء بعد تشكيله سنة ١٩٣٢م، جامعاً بين المهمتين، وكان له من الأولاد: أحمد وعبدالوهاب وأحمد (الثاني) وفيصل وفهد ونايلة، وهو يذكر بالخير ويحظى بالاحترام والتقدير، وقد توفي في القاهرة عام ١٩٦٩م عن عمر يقارب التسعين.

استمرت علاقته بمجلس الشورى السعودي القديم (المطور عن المجلس الأهلي) عام ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م)، أي بعد عامين من صدور نظامه وتشكيله، حيث اختير عضواً فيه، وفي الوقت نفسه نائباً لرئيس المجلس (الأمير فيصل بن عبد العزيز بصفته نائب الملك في الحجاز)، ينوب عن الرئيس في حال عدم حضوره، وقد ظل عضواً في المجلس، يحتل مهام النائب الأول من عام ١٩٢٨م وحتى عام ١٩٤٨م أي مدة عشرين عاماً، وكان المجلس يختار بالاقتراع السري نائباً ثانياً يحل محله في حال غيابه، وقد تراوح اختيار المجلس لمنصب النائب الثاني بين صالح شطا - وهو الأكثر - وعبدالله الشيبي والشريف شرف رضا وأحمد إبراهيم الغزاوي وصادق دحلان، الذين يعدون من أبرز رجالات مجلس الشورى القديم، يتصدرون قوائمه عاماً بعد عام.

إن من يقرأ في الأعداد القديمة للجريدة السعودية الأولى (أم القرى)، سيجدها ملآى بالأخبار عن الفضل، وعن المهام التي كلف بها، والنشاط التجاري والسياسي والاجتماعي الذي قام به، فهو، بالتضامن مع آخرين، يؤسس لأول شركة سيارات لنقل الحجاج من الموانئ (١٩٢٥م)، ويسعى في الوقت ذاته لتوفير السلع الاستهلاكية في مكة المكرمة أثناء حصار جدة وميناءها (١٩٢٥م)، لكن امتياز شركة النقل يلغى في العام الذي يليه لعدم الوفاء بالتزاماته.

ثم تورد له خبراً يفيد بأنه قطع الطريق بالسيارة، لأول مرة في تاريخ

استخدام السيارات، بين مدينتي رابغ وجدة (١٩٢٥م) بمشاركة مسؤولَين بريطاني وهندي، كما صدر أمر بتعيينه وكيلاً للوازم الخاصة بإدارات قصر الملك عبدالعزيز (١٩٢٦م)، ثم أمر لاحق (١٩٢٨م) بتعيينه رئيساً للجنة توزيع الصدقات والإعانات، وكلف في عام (١٩٣١م) ضمن هيئة للقيام بمهمة تفتيش إداري في المدينة المنورة ثم الأحساء، ثم تتوالى بعد ذلك أخباره بوصفه نائباً لرئيس مجلس الشورى (١٩٣١م).

كما يشير خبر (نشر عام ١٩٣٣م) إلى قيامه - مراراً - أثناء غياب الأمير (الملك) فيصل بأعباء رئاسة مجلس الوكلاء ووزارة الداخلية، وإلى أنه يفتتح في عام ١٩٣٤م تبرعات تأسيس أول جمعية خيرية للإسعاف نالت شهرة واسعة في حينها، لكونها أولى مؤسسات المجتمع المدني التي قامت في ظل العهد السعودي في الحجاز.

ثم صدر أمر ملكي (عام ١٩٣٧م) بتعيينه معاوناً للأمير فيصل بوصفه - أي الأمير - نائباً للملك في الحجاز، ثم نشرت جريدة أم القرى (عام ١٩٤٦م) خبر سفره إلى مصر للاستشفاء، وكان يومها ما يزال يشغل منصب النائب الأول لرئيس مجلس الشورى، وقد أحيل على المعاش في مارس ١٩٤٩م بسبب مرضه وبقي عضواً في مجلس الوكلاء، وصدر أمر بتعيين صالح شطا في محله نائباً لمجلس الشورى.

أما بالنسبة للشخصين الآخرين من آل الفضل اللذين دخلا مجلس

الشورى القديم، وكان لهما موقع في التجارة والترحال والسياسة فهما أبناء عمه، وأخواه في الوقت نفسه من الأم: محمد بن عبدالرحمن الفضل وأخوه إبراهيم.

أصبح محمد عضواً في مجلس الشورى في دورته التي شكلت عام ١٩٤٢م وظلت عضويته تتجدد عشر سنوات متتالية، وكان يكتب ذكرياته في مجلة (المنهل) السعودية، اطلعت على بعض منها لعامي ١٩٦٤ و١٩٦٩م، مقالات يستفاد منها أنه عمل مع والده في تجارة الأغذية، وأنه سبق أن هاجر إلى الهند بين عامي ١٩١٥ و ١٩٢٦م، وقد توفي عام ١٩٧٢م عن عمر ناهز التسعين عاماً، وكانت له أياد بيضاء في المساعدات الإنسانية ودعم المدارس الخيرية والأهلية في الحجاز.

أما أخوه إبراهيم، الذي ولد عام ١٣٢٠هـ ـ ١٩٠٣م فقد عين عام ١٩٣١م رئيساً لديوان الأمير فيصل نائب الملك في الحجاز، وفي الوقت نفسه عضواً في مجلس الوكلاء الذي سبقت الإشارة إليه، كما اختير مرتين (١٩٣٠ و ١٩٣٩م) عضواً في مجلس الشورى القديم، وقد توفي عام ١٩٤٠م وهو في طريق عودته من مهمة في اليمن، ونعته جريدة (أم القرى) في حينه.

وهناك من أسرة الفضل في القصيم شخصيات أخرى برزت في التجارة والدبلوماسية، وترددت على الهند وبلدان أخرى، لكن هذا المقال اقتصر

على أولئك الذين شاركوا في عضوية مجلس الشورى القديم.

واللافت للنظر، أن الهند كانت مقصد كثير من الأسر السعودية، وجاذبة للاستقرار فيها، لكونها ترتبط بصلات تجارية واسعة مع بلدان الخليج كافة، تماماً كما كانت جزر الملايو جاذبة للكثير من الأسر الحضرمية والعُمانية، وهو موضوع يستحق تحليل الباحثين ودراساتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

(٣٧)

إبراهيم بن عبدالله العنقري

نشرت في الأساس في جريدة (الجزيرة) بعنوان : القامة والقمة مجتمعتان، العدد (١٢١٦٣) بتاريخ ١٦/١٢/١٤٢٦هـ (١٦/١/٢٠٠٦م).





إبراهيم العنقري مع الأميرين مساعد بن عبدالرحمن
ونوّاف بن عبدالعزيز في جولة على المرافق الإعلامية

عرفته منذ نحو أربعة عقود، كان في حينها وكيلاً لوزارة الداخلية، وكنت مسؤولاً في تلفزيون الرياض، ثم عرفته عن قرب بعدما أصبح وزيراً للإعلام (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م)، وكنت في حينه على وشك إكمال مرحلة الدكتوراه، وأحتفظ له، بكل تقدير، بفضل الموافقة على إكمالها في وقت كانت الوزارة في بداية عهده بحاجة إلى ملء بعض الشواغر القيادية.

تعاملتُ معه عن قُرب طيلة عمله وزيراً لهذه الوزارة، في زمالة كان يظللها الاحترام والصدق والصلاحيات الواضحة، حتي غادرها إلى موقع وزاري آخر بعد خمس سنوات (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

كان الشيخ العنقري قد خلَف الشيخ جميل الحجيلان في وزارة الإعلام، فأكمل برامج ومشروعات نوعية وكمية كان قد بُدئ بها من قبل، ثم أضفى عليها ما كانت تحتاجه من الدعامات الإدارية والإسنادات القانونية، والمقوّمات التموينية (اللوجستية)، فشهدت الوزارة (الإعلام) في عهده فترة استقرار وتطور متدرج، وأسس لمرحلة جديدة من التوسع النوعي الأفقي والرأسي - وبخاصة في مجال الإذاعة والتلفزيون - كان في مقدمتها الإعداد للبثّ الملوّن، وإقامة المركز الرئيسي للتلفزيون وتوسيع شبكته، مع إضافة المزيد من المرسلات الإذاعية، وكان من

أبرز ما أدخله على المنظومة الإعلامية تأسيس وكالة الأنباء السعودية (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م).

لست هنا في موقف من يسرد قائمة ما له وما عليه في أثناء سنوات خمس، كنت فيها شاهداً على مرحلته، وشرُفت خلالها بالعمل معه وقريباً منه، كما أن المقام ليس بمقام تزكية أو مجاملات، فليس أيّ منا بحاجة إلى ذلك، وهو بالذات، ليس ممن يهتم بذاك، وقد عاش طيلة خدماته الجليلة التي أسداها لوطنه ما يزيد على نصف قرن أو يقرب منه، بعيداً عن الأضواء أو استغلالها، لكنني أظن أن الإعلام السعودي، قد شهد في عهده تقدماً رصيناً هادئاً جسّد شخصية وزيره، واستفاد من مكانته وعلاقاته، وسارت دفّة سفينته بقيادة ربّان حكيم متعقّل، يقدّر عواقب الأمور، وأبعاد كل خطوة يخطوها، ويثمّن خطورة الوسائل الإعلامية التي يمسك بزمامها، حافظاً لسانه أولاً ومنطق وزارته ثانياً عن الكلام الغلط وعن مزالق الترّهات وزلاّتها.

كان الشيخ العنقري قد أتى إلى وزارة الإعلام من خلفيّة وزارة الداخلية، وقد تزوّد بالخبرة الإدارية والقانونية والأمنية التي شكّلت له أرضية، كانت أفضل ما يحتاج إليها مسؤول في مثل حساسية موقعه، وظروف زمنه (التسعينيات الهجرية ـ السبعينيات الميلادية)، وبمثل عهد الملك فيصل، رحمه الله، وقد أسميت فترته من قبل بالإعلام ذي الأبعاد

الثلاثة: الإدارية والقانونية والأمنية، فضلاً عن الإبداعية.

إنني أعلم مرة أخرى، أن الحديث هو عن شخصية، قامة في احترام نفسه واحترام الناس له، وقمة في قيَمه وأخلاقياته ومُثله، وأن مثل هذه الشهادة لن تزيد فيه ولن تنقص منه، لكنها كلمات وخواطر اقتضتها مناسبة تفرّغه من مسؤولياته الإدارية، بعد أن خدم مليكه ووطنه ومجتمعه على أفضل ما تكون عليه الخدمة العامة، من نزاهة وإخلاص وموضوعية ووقار.

والمرجوّ أن يخصّ أبو مازن مكتبة الوطن بشيء من وقت فراغه، لتسجيل مرحلة مهمة من تاريخ كل موقع عمل فيه، وهو خير من يقدّر أهمية تسجيل المذكرات والذكريات والمعلومات في خدمة التوثيق الوطني بشكل عام.

الشيخ العنقري ولد عام ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م) في بلدة ثرمداء، بإقليم الوشم، شمال غرب الرياض، وتخرّج في جامعة القاهرة عام ١٩٥٣م، ثم درس الإنجليزية والعلاقات الإنسانية في جامعتي كولومبيا وميامي، ثم عمل في وزارة المعارف وفي وزارة الخارجية، ثم أصبح وكيلاً لوزارة الداخلية، فوزيراً للإعلام مدة خمس سنوات، ثم وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية لمدة ثماني سنوات، ثم وزيراً للشؤون البلدية والقروية لستّ سنوات، ثم أصبح مستشاراً خاصاً لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد

ابن عبدالعزيز، رحمه الله، منذ عام ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م)، ثم أُعفي بناءً على رغبته في أواخر عام ١٤٢٦هـ (مطلع عام ٢٠٠٦م)، وله من الأولاد مازن وعبير.

وفقه الله حيثما كان، وأسعده في دنياه وآخرته.

(٣٨)

عبد الرحمن بن حسن القصيبي

مجلة «المجلة» العدد (١٣٥٩) بتاريخ ٢٧ محرم ٤ صفر ١٤٢٧هـ (٢٦ فبراير ـ ٤ مارس ٢٠٠٦م).



اسم معرفة، وأسرة لامعة، ذاعت شهرتها في الأحساء والبحرين بخاصة، وفي أنحاء الخليج والجزيرة العربية بعامة.

هي في الأساس عائلة تجارية، ترجم لها (مايكل فيلد) موثق أبرز البيوتات المعروفة في بلدان الخليج، لكنها لعبت دوراً سياسياً فاعلاً في أحداث المنطقة في النصف الأول من القرن الماضي بالذات، وكانت وثيقة الصلة بالأسر الحاكمة، وقامت مع أسر أحسائية أخرى بدور أساسي في تسهيل عودة الأحساء إلى الحكم السعودي وتخليصه من الأتراك (١٣٣١هـ ـ ١٩١٣م)، وكان بعض أعيانها يمثلون مصالح السلطان (الملك) عبدالعزيز في الأحساء ثم البحرين.

إن أمر علاقات السلطان عبدالعزيز في تلك الحقبة، كان ـ بالمناسبة ـ أمراً عجيباً، ففي وقت لم يكن يوجد في نجد من يتقن القراءة والكتابة في العقود الأولى من القرن الماضي، ولم يكن يتوافر في الديوان السلطاني مثقفون يكفون لتسيير الاتصالات والمخاطبات الخارجية، كان له ممثلون في شتى أرجاء العالم العربي والإسلامي، ينتشرون من جاوة شرقاً إلى مراكش غرباً، مروراً بالهند والبحرين والكويت والعراق وبلاد الشام ومصر، بل وفي أوروبا وأمريكا الشمالية، من أمثال القصيبي في البحرين، والفضل في الهند، والنفيسي في الكويت، والذكير والشبل

والمنديل في العراق، وفوزان السابق في مصر، والرواف في سوريا والريحاني في لبنان، يراسلونه ويزوّدونه بما كان يُنشر، ويمدّونه بما يطلب من عتاد أو مؤن أو أرزاق، وتحتفظ بعض هذه الأسر بمئات المراسلات بينها وبينه وكأنه لا يتخاطب إلا معها.

لكن أسرة القصيبي، مع الأسف، وبقدر ما نالته من الشهرة والمكانة السياسية والتجارية، لم تسع بالقدر الكافي، كما فعلت أسر ميسورة كُثر، إلى توثيق تاريخ رجالاتها الأوائل وأمجادهم، مع أن تاريخها كان مشرّفاً وناصعاً، بل لقد روى لي د. غازي القصيبي أن والده (شخصية هذا المقال) كان قد أوصى بإتلاف كل أوراقه من بعده، وأنه كان يمانع في تدوين سيرته وذكرياته إبّان حياته، فضاعت بذلك على الباحثين ثروة لا تُقدّر بثمن، وبقي ذكره متناثراً في بطون كتب التاريخ ومجلدات المطبوعات الصحفية المعاصرة له، بانتظار من يتصدّى لجمعها وتوثيقها.

أورد عنه د. غازي في كتابه: الغزو الثقافي ومقالات أخرى (الصادر عام ١٩٩١م في بيروت) وفي كتابه: حياة في الإدارة (الصادر في بيروت أيضاً عام ١٩٩٨م) فقرات تصف هيبته بعد أن وعاه في كهولته، وتدلل على الصفات الحازمة التي كانت تميز شخصيته، وكان مما نقله عنه، عندما ألح عليه بتدوين ذكرياته:

«هل تريدني أن أكتب ما يعرفه الناس جميعاً؟ فهذا لا قيمة له، ولا يستحق أن يُكتب أو يُقرأ، هل تريدني أن أذيع أسراراً هي عندي بمثابة الأمانات؟ وهو ما لا أستطيعه، هل تريدني أن أكذب؟».

إن الدعوة إلى تدوين تاريخ هذه الأسر، متى ما تمّ بموضوعية، فيه خدمة للمعرفة، واستكمال لجهد التوثيق الوطني، ومساعدة للباحثين عن الحقيقة في التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي لهذه المنطقة، ولنا أن نتصور كيف صار الباحثون يعتمدون اليوم على مرجع أجنبي، مثل كتاب: التجار The Merchants لمايكل فيلد Michael Field، الصادر في ولاية نيويورك عام ١٩٨٥م، والمترجم إلى العربية عام ١٩٨٦م، وهو ما ساعد باحثاً سعودياً (محمد بن عبدالرزاق القشعمي) على كتابة مقال موسّع من جزأين عن أسرة القصيبي (نشرته المجلة العربية في عدديها رجب وشعبان ١٤٢٣هـ - سبتمبر وأكتوبر ٢٠٠٢م)، كما نشرت مجلة (الرجل) تحقيقاً مصوّراً عن أسرة القصيبي المعروفة حالياً (بفرعيها) ظهر في عدد سبتمبر ١٩٩٣م.

وتشير الكتابات القليلة المتوافرة عن منشأ أسرة القصيبي، ومنها ما جاء في كتاب مايكل فيلد، بأنها ظهرت من بلدة القصب المعروفة في منطقة نجد (قرب شقراء)، وكانت حينذاك تُعرف باسم أسرة الحسين، ثم نزحت - وهنا بدأت تكتسب اسمها الجديد - إلى حريملاء القريبة

من الرياض قبل أن تستقر في الأحساء، وأنها كانت على صلة تجارة واستقرار وثقافة مع الهند، حيث أقام بعض أفرادها بين بومبي والبحرين والأحساء، واكتسبوا من خلال إقامتهم في الهند بالذات بعض اللغات والعلوم الحديثة، وربما وُجدت أسر أخرى تحمل اسم بلد المنشأ (القصبي أو القصيبي) واستقرت في بلدات نجد وعسير وغيرهما.

ومن المعروف أن معظم آل القصيبي ينحدرون من جدهم القريب عبدالله الذي خلّف ثلاثة من الأبناء هم: حسن (المتوفي في حدود عام ١٨٩٠م)، ومحمد (المتوفي عام ١٩٢٠م)، وإبراهيم (المتوفي عام ١٩٣٠م)، وقد نزحوا جميعاً إلى الأحساء.

وقد خلّف حسن ثلاثة من الأبناء أيضاً وهم: عبدالله وعبدالعزيز (جد خالد القصيبي وزير الاقتصاد والتخطيط السعودي) وعبدالرحمن (شخصية هذا الموضوع ووالد د. غازي وزير العمل السعودي).

وقد عمل بعض رجال هذه الأسرة مبكراً مع «عمالة» جمع الزكاة، أو مع قوافل الجمال التي تنقل التجار والمؤن بين نجد والأحساء أو بين الأحساء وميناء العقير، وذلك قبل أن يقرروا الرحيل إلى البحرين والهند فيما بعد، ويمارسوا تجارة اللؤلؤ والمؤن ونحوها.

ويبدو أن محمد بن عبدالله القصيبي ـ السابق ذكره ـ كان الأقدم

في النزوح إلى البحرين (١٨٨٨م)، فالتحق بداية مع التاجر السعودي المقيم هناك آنذاك: عبدالرحمن بن عيدان، أما أخوه حسن فقد توفي مبكراً في أثناء موسم الحج، فتزوّج أخوه إبراهيم أرملته وأنجب منها حسن وسعد أخوين لأبنائه.

وفي حدود عام ١٨٩٨م، نزح أبناء حسن وهم: عبدالعزيز وعبدالله وعبدالرحمن (موضوع المقال) إلى البحرين للحاق بعمهم محمد، الذي قام بإيفادهم واحداً تلو الآخر إلى الهند، بغرض تعلّم اللغة الإنجليزية والتعرّف على تجّار اللؤلؤ، وشراء بضائع من المواد الغذائية، والمتاجرة فيها، وبهذا تكون صلات الأسرة مع البحرين والهند قد بدأت في العقد الأخير من القرن التاسع عشر.

أما بالنسبة للأخ الثالث إبراهيم، فقد بقي في الأحساء يمارس التجارة ويهتم بمزارع الأسرة، وكان أول من اتصل عام (١٩٠٦م) بالسلطان (الملك) عبدالعزيز بعد صعود نجمه حاكماً لنجد، وكوّن معه، ومع آخرين من أهل الأحساء، علاقة صداقة، مهدت الطريق فيما بعد للسلطان للاستيلاء على المنطقة (١٩١٣م) وضمها إلى دولته.

وفي السنوات اللاحقة، التي توثقت فيها صلة بيت آل القصيبي بالملك عبدالعزيز، اشتهر من هذه الأسرة خمسة وهم: عبدالعزيز وعبدالله وعبدالرحمن (موضوع هذا المقال) أبناء حسن، ومحمد وسعد أبناء

إبراهيم، أما بالنسبة لعلاقتهم بالملك وتمثيلهم له، فإنها تتراوح بين الشأن السياسي المتمثل بالاتصال بالسلطات البريطانية الحاكمة؛ وبين تأمين المستلزمات، أو إقراضه المال، أو استقبال الضيوف القادمين عبر موانئ القطيف والجبيل والعقير وتأمين سفرهم لمقابلة الملك في الرياض؛ وذلك فضلاً عن توفير التجهيزات الغذائية اللازمة لبعض الحملات العسكرية واللقاءات السياسية، كما قامت الأسرة باستقبال الملك أثناء زيارته للبحرين، وتتعدد الوثائق التي تدوّن كل هذه العلاقات.

ومن صور الدور السياسي التي أشارت إليها الوثائق، حضور عبدالعزيز ابن حسن القصيبي لقاء السلطان عبدالعزيز مع ملك العراق (فيصل) يوم ٢٣ رمضان المبارك عام ١٣٤٨هـ (١٩٣٠/٢/٢١م) في مياه الخليج على الباخرة (الطراد لوبين)، كما تشير الوثائق إلى مرافقة أخيه عبدالله للأمير (الملك) فيصل بن عبدالعزيز في رحلته الأولى إلى أوروبا (١٩١٩م).

لكن يبدو أن أخاه عبدالرحمن بن حسن القصيبي كان فيما بعد الأكثر بين إخوته ذكراً في الوثائق اللاحقة، وأصبح الأقرب تواصلاً مع الملك عبدالعزيز، وهو - كما هو معروف - والد د. غازي وإخوته السبعة الأكبر منه سناً، وكان قد عاش مئة عام وتوفي سنة ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م)، بعد أن كان اتخذ من البحرين مقراً نهائياً لإقامته في العقود الثلاثة الأخيرة من حياته.

تدل الكتابات على أنه كان يتميز بشخصية جذابة، ويحافظ على أناقته، ويحيط بثقافة واسعة ويلم بالأردية والفرنسية والإنجليزية، وكانت له علاقات تجارية مع باريس.

وكانت الجريدة الرسمية السعودية (أم القرى) قد نشرت عنه في العدد (١٣٣) لعام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) أخباراً تزامنت مع إقامته في مكة المكرمة، فقد اختاره الملك عبدالعزيز ضمن لجنة التفتيش والإصلاح، التي ضمت عدداً من الأعيان وأعضاء مجلس الشورى القديم لرعاية مصالح الناس وتأمين راحة الحجاج.

وذكر العدد (١٣٥٨، لعام ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م) صدور مرسوم ملكي بمنحه لقب وزير مفوض في وزارة الخارجية تقديراً لإخلاصه، كما منح لقب وزير دولة في عهد الملك سعود (١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م).

ومن المعروف أن عبدالرحمن القصيبي، كان قد تزوّج في أثناء إقامته في الحجاز من بيت آل الكاتب وأنجب منها ابنه د. غازي وبعض إخوته وأخواته، وقد ذُكر عنه أنه كان اقترن بعشر زوجات في سائر البلدان التي استقر فيها.

كانت الجريدة قد أشارت في العدد (٢٧٩ لعام ١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م) إلى اعتزام عبدالرحمن القصيبي - تاجر اللؤلؤ في البحرين والهند ونزيل

مكة اليوم كما وصفته ـ تأسيس مكتبة عمومية في مكة المكرمة وجعلها وقفاً للمطالعة والدراسة.

إن خبر تأسيس هذا الوقف يعيد إلى الذهن اهتمامه واهتمام أسرته كافة بأمر نشر الكتب وإعانة المدارس الخيرية، إذ يذكر المجتمع الأحسائي والبحريني أوجه الإنفاق التي كانت تخصص لهذه الأهداف، كما ذكر د. علي جواد الطاهر في كتابه (معجم المطبوعات العربية) وغيره من المؤلفين، نماذج من الكتب الدينية التي طبعت على نفقة عبدالرحمن القصيبي وإخوانه.

وبينما تُجمع آراء كل من عاش تلك الحقبة من تاريخ الخليج، على أن هذه الأسرة تُعدّ في مقدمة الأسر الخليجية ثراءً وبخاصة بين بيوتات البحرين حيث تتنافس مع عائلة كانو، إلا أنها تعرضت في الثلاثينيات الميلادية لهزة مالية أعقبت انهيار تجارة اللؤلؤ، مما تسبب في تفكك لُحمة هذا البيت التجاري وتقاسم الثروة بين أفراد الأسرة، واختيار كل شريك طريقه الجديدة في التخصص التجاري.

لكن ما نُشر حتى الآن لا يكفي لاستخلاص سيرة كاملة لرجالات هذه الأسرة، والأمر مايزال بانتظار جهد أصيل يغوص في الوثائق، و «ينبش» في الصحف والمجلات، ويفتش في الأوراق والمراسلات القديمة، بما فيها المخاطبات التجارية والشخصية، كما ينتظر تعاوناً أكبر من

أبناء هذه الأسرة ومثقفيها.

لقد عُرفت في القرن الماضي أسرٌ تجارية كثيرة في الحجاز ونجد والأحساء وغيرها، فبرز من كل أسرة رجال على درجة متقاربة في الشأن والأهمية، حتى إن بعضها اتخذ توقيعاً موحداً لاثنين أو أكثر من الإخوة أو أبناء العمومة الشركاء، وأصبح المتعامل معهم يكتفي بالعلاقة مع أحدهم بما يغني عن التفاهم مع الآخر، وكان المجتمع يطلق صيغة الجمع على الأسماء القابلة لصيغة الجمع من هذه الأسر، فيقال «القصابا والخراجا والقواضا والشبالا».. وهكذا.

اشتهر من شخصيات أسرة القصيبي في تلك الفترة التي يعنيها المقال (النصف الأول من القرن الماضي) أسماء عديدة ورد ذكرها مفردة أو بشكل جماعي في معظم الكتب والوثائق والتقارير والمقالات التي تناولت شؤون المملكة والخليج العربي في القرن الماضي، منها على سبيل المثال: كتابات روبرت أرنست تشيزمان وفيلبي ونجدة فتحي صفوة وحمد الجاسر وحافظ وهبة والمؤرخ والصحفي الكويتي عبدالعزيز الرشيد (في مجلة الكويت التي انتقل صدورها إلى البحرين عام ١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م) وعبدالله شباط ود. عبدالله السبيعي ومحمد السماعيل وخالد البسام، فضلاً عن الوثائق الأجنبية بعامة والبريطانية بخاصة.



(٣٩)

صالح بن عبد الرحمن الحصين

الشرق الأوسط: العدد (٩٩٨٨) بتاريخ ١٤٢٧/٣/٥هـ (٢٠٠٦/٤/٣م).



يتناقل المجتمع السعودي منذ السبعينيات قصصاً ونوادر غاية في الظُرف عن تواضعه المتناهي إبان صلته السابقة بالوظيفة العامة، لدرجة لا أعتقد أن أحداً قد بلغها في بساطة العلاقة مع المواقع الرسمية المتتالية، وفي رقة التعامل مع الآخرين و «الحبابة» مع الناس.

من ذلك مثلاً: ما قيل من أنه قد أتى إلى الديوان الملكي بسيارة أجرة بينما كان في حينه يحتل مرتبة وزير، وقد أوقفه الحرس، لكن عبور الدكتور رشاد فرعون سهّل الموقف، وقصته مع والدته عندما أخبرها بأنه أصبح مستشاراً في الدولة فقالت له: خلف الله على حكومة تختارك مستشاراً فيها، أو رواية مراسل إمارة القصيم عندما قصده في مزرعته لإيصال دعوة لاجتماع عاجل في الرياض، فوجده وهو في ملابس المنزل، يُعيد ـ فوق السلّم ـ دهان جدران بيت المزرعة، وكان المراسل ظنّ أنه أحد عمّالها، ففوجئ بأنه «المطلوب» بعينه.

ذلكم هو العالم الورع، والقانوني الموهوب، الشيخ صالح الحصيّن، الذي ولد في شقراء عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) من أسرته المعروفة في إقليم الوشم، وأتم كلية الشريعة في مكة المكرمة عام ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م)، ثم نال الماجستير من مصر في الدراسات القانونية عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م).

عمل مستشاراً في وزارة المالية والاقتصاد الوطني في عهد وزيرها الأمير مساعد بن عبدالرحمن، وأصبح في عام ١٣٩١هـ (١٩٧١م) رئيساً لهيئة التأديب ووزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء، وكُلّف برئاسة شعبة الخبراء في المجلس.

ثم استراح من الوظيفة العامة فترة تقارب العقدين، تفرغ خلالها «للجوار» قرب الحرم النبوي الشريف، وللاحتساب في الدعوة، وكان يتسلى ـ كما سلف ـ بممارسة هواية الزراعة في القصيم ثم في المدينة المنورة بعد أن استقر فيها.

وكان قد أسهم ـ بخبراته القانونية ـ في تأسيس صندوق التنمية العقارية، وهو المصرف غير الربحي الذي أنشأته الحكومة منذ منتصف السبعينيات الميلادية، لتقديم قروض يُعفى المواطن من نسبة (٣٠٪) منها إذا ما أوفاها بانتظام، وتولّى الشيخ الحصيّن لفترة من الزمن رئاسة مجلس إدارته.

لكنه أُعيد إلى الخدمة العامة، في أشرف موقع يمكن أن يجمع فيه المرء بين سدانة البيت الحرام وخدمة الإسلام والمسلمين، ويظل حيث أمنيته بجوار الحرمين الشريفين، عندما كُلّف عام ١٤٢٢هـ (٢٠٠٢م) برئاسة شؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي.

في خلال هذه المسيرة، وقت الانشغال وحين التفرغ، كان الشيخ الحصيّن الباحث الجاد الذي لا تنقطع قراءاته واستنباطاته الفقهية، (وبخاصة في مجال الاقتصاد ونظرياته الإسلامية)، والداعية الذي لا تتوقف جهوده، والقانوني الذي لا ينفك من طلبات المشورة تنهال عليه من كل جانب، فترك بصمات واضحة في العديد من الأنظمة الدستورية المهمة التي صدرت في البلاد خلال العقود الماضية، كما تولى رئاسة العديد من المجالس العلمية والدعوية، وهو عضو فاعل في مؤسسة الملك عبدالله لوالديه للإسكان التنموي.

وعندما بدأت مسيرة الحوار الفكري في المملكة العربية السعودية عام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م)، كان اصطفاء الشيخ الحصيّن رئيساً للجنة العليا لمركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني خير اختيار أضفى على المتحاورين مناخاً من الطمأنينة والموضوعية والاعتدال، ثم نال تكريماً رمزياً معبراً من جائزة الملك فيصل العالمية لنيل الجائزة مناصفة مع الداعية الكويتي الشيخ يوسف الحجي في خدمة الإسلام (١٤٢٧هـ).

الشيخ الحصيّن يلم بالإنجليزية والفرنسية، وعُرف بغزارة علمه وبثقافاته الحديثة، وبالفكر المستنير، وبالاجتهاد الرشيد، وبالزهد عن مغريات الدنيا، وبالتفاني في أعمال البر والتطوع لها.

يقول فيه عارفوه عن قرب، والمشاركون في ندوات الحوار الفكري المتعاقبة: **إن من طبعه الجنوح إلى الصمت، مغلّباً أن يحتفظ بآرائه ليبديها عند الطلب، وإن من عادته تلطيف مداخلاته بالطُرَف والأمثال، ومراعاة توجّه الأغلبية في الاجتماعات الإدارية التي يحضرها.**

وهو رجل دقيق المواعيد، يحرص على حضور الاجتماعات مهما كان مقر عقدها، وكثيراً ما يسافر للمشاركة فيها ويعود في اليوم نفسه، وهو في أسفاره يبتعد عن المظاهر، ويتنقل بالدرجة السياحية، ولا يكلف أحداً بمرافقته أو خدمته أو استقباله.

الشيخ الحصين شخصية ذات نسيج مختلف، يرى أن العمل الخيري والاجتماعي والإنساني أكثر إمتاعاً له من الوظيفة الرسمية، ومن المؤكد أنه لولا التزامه بإطاعة رغبة ولي الأمر لما قَبِلَ الوظائف الحكومية، وهو ينتظر اليوم الذي يُعفى منها، إنه، وأمثاله قلّة، مدرسة في نكران الذات، في زمن يعج بالكبرياء وتضخيم الإنجازات الشخصية.

أعرف من إخوة الشيخ صالح أخاه سعداً الذي يماثله كثيراً، فهو يشدو طرفاً من الثقافة والمعارف الشرعية والعامة، وينذر النفس للدعوة إلى الله، والانشغال بأعمال الخير والتطوع لخدمة الناس، كما أعرف شقيقهما المهندس عبدالله (وزير الماء والكهرباء السعودي)، الذي لا يقل عنهما فيما ذُكر من الشمائل والخصال الكريمة.

وللشيخ الحصين أربع بنات، وابن واحد، هو الدكتور عبدالله الأستاذ في كلية الهندسة بجامعة الملك سعود.

إنه جنس من الرجال خُلقوا من طين الحب والتسامح، وجبلوا على المروءة والخير، وتدثروا بعباءات التقشف، وطبعوا على الزهد والبساطة والإيثار، وهو في هذه البلاد رمز من رموز البر، وأئمة الوسطية والتعقل والاعتدال، وناشري لغة السماحة والحوار، وأحد ربابين العصمة من الغرق.

يتعب المرء في العثور على صيغة يصف بها هؤلاء الأعلام الراغبين عن وهج الأضواء، فالموضوعية تتوه أمام تواضعهم، والإنصاف يذوب عند نكرانهم لذاتهم، وجُمَل الإطراء تجرح جدران سمتهم، وتصطدم بأقواس خجلهم.

(٤٠)

حسن المشاري الحسين

لم يسبق نشره.



هو صاحب المقولة الشهيرة: «**إن أصدقاء المنصب ذهبوا مع الوظيفة، أما أصدقائي الحقيقيون فلا أزال معهم ولا يزالون معي**».

والواقع أن هذه حال بعض من كانت مناصبهم تجتذب أصحاب المصلحة، فهم يُخطب وُدَّهم، وتُدارى مشاعرهم، وتُؤيّد آراؤهم ومواقفهم، فإذا ما انتهت علاقتهم بالمنصب ينفضّ السامر ويتناقص الاهتمام أو ينفد، إلا ممن حازوا بقية من مروءة ووفاء.

الاستثناء من هذه الظاهرة ـ شبه القاعدة ـ مسؤول بنى مع المجتمع علاقة لا تكون الوظيفة محورها، موطّناً نفسه على الفرضيّة الحتمية بزوال المنصب يوماً ما، والواقع أن شخصية هذا المقال، هو من أولئك الذين كوّنوا لأنفسهم قاعدة اجتماعية عريضة من الاحترام، فحافظ على علاقة متوازنة مع محيطه، وتفاعل مع من حوله بعقلية راجحة ونظر بعيد .

إنك إذا ما أردت أن تصوّر شخصية الشيخ المشاري لغير عارفيه، فإنه يمكن اختصارها في ثلاث جُمَلٍ: وفاء مع نُبل، وثقافة نخبوية مستنيرة، وتهذيب يبعده عن الغرور.

فهو في وفائه يغمر أسرته ومحبيه وأصدقاءه بمبادراته الإنسانية والاجتماعية المتواصلة، ويحفظ الجميل لصانعيه، مهما طالت المسافة والسنين.

وهو في ثقافته يغرف من قراءة واسعة واطلاع متصل، وهو محاور يحترم رأي الطرف الآخر ويتمعن في وجهة نظره.

وهو في تهذيبه يصدر عن أدب جمّ، وبُعد عن المظاهر، وترفّع عن الابتذال، وانتقاء للتعبير والكلمات، لكن المهم في هذه الخصلة أنه يلتقي مع كثيرين ممن ورد ذكرهم من شخصيات هذا الكتاب في العزوف عن الأضواء، إذ حافظ على نمط هادئ من المعيشة إبان الوظيفة الوزارية وبعدها.

إن مسألة تجنب الحياة المشعّة بالأضواء، تتصل إلى حد كبير بتكوين الإنسان، ودرجة ثقته بنفسه، ومبلغ كرامته واعتزازه وتواضعه واحترامه لذاته، ولذلك فلا غرابة ألا تجد ترجمة مدوّنة للشيخ المشاري، وألا يعثر الباحث عن سيرته سوى مقابلة صحفية واحدة، أجرتها معه جريدة الجزيرة في العدد (٣٧١٣) الصادر بتاريخ ١٤٠٣/٢/٤هـ (١٩٨٢/١١/١٩م).

الشيخ حسن المشاري، ينتمي إلى أسرة أحسائية، نزحت من الدرعية ضمن الأُسر التي غادرتها بعد أن دمرها الغزو التركي على نجد عام ١٢٣٣هـ (١٨١٨م)، وهي تلتقي نسباً مع آل سعود ـ وفق الأستاذ عبدالرحمن الرويشد ـ في جدهم جميعاً إبراهيم بن موسى بن مانع المريدي (مؤسس الدرعية في حدود عام ٨٥٠هـ ـ ١٤٤٦م)، وقد أورد ذلك

الشيخ حمد الجاسر في كتابه: جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد، والشيخ حمد الحقيل في كتاب: كنز الأنساب ومجمع الآداب.

وُلد الشيخ المشاري في مدينة الهفوف بالأحساء عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م)، ودرس في المدرسة الأميرية حتى نال الابتدائية عام ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م)، لكنه انتقل بعد ذلك لمواصلة دراسته المتوسطة والثانوية في مدرسة تحضير البعثات في مكة المكرمة حيث حصل على التوجيهية (الثانوية) عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م)، وكان من زملائه في تلك المرحلة الدكتور عبدالعزيز الخويطر وإبراهيم العنقري وعبدالوهاب عبدالواسع وأحمد زكي يماني وناصر المنقور، ثم واصل دراسته الجامعية في كلية التجارة (قسم المحاسبة) بجامعة القاهرة، ليحصل على البكالوريوس عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م)، وما دمنا في الحديث عن الزملاء والأصدقاء، نجد أن الدائرة تتسع، حيث تعرّف على الكثيرين في أثناء دراسته في مصر ولندن وكاليفورنيا، وكان البعض منهم مرّ في ظروف مشابهة، وعمل في القطاع الخاص أو في الدولة مما يصعب معه الحصر والذكر.

عاد حسن المشاري إلى وطنه، وعمل سنة عملاً تطبيقياً في شركة أرامكو، يجرب فيه علي الواقع ما تعلمه في قاعة المحاضرات، ويتزود فيه من الخبرة ما يساعده على الدخول في عالم الدراسة العليا، وهو الأسلوب الأمثل الذي يأخذ به كثير من الدارسين في العقود المتأخرة.

لم تشغله وظيفته في أرامكو من التفكير في الغربة مرة أخرى لتحقيق طموحاته العلمية، حيث اتجه نحو بريطانيا هذه المرة ليقوّي معرفته باللغة الإنجليزية التي تعلم مبادءها البسيطة في المرحلتين الثانوية والجامعية، واكتسب بعضاً من مصطلحاتها التقنية في شركة الزيت، فقد رغب في تعلّمها على أصولها في أحضان أمها، لكن حرب السويس تثور وتتسبب في توجيهه وزملائه وجهات مختلفة من بينها أمريكا التي كانت من نصيبه.

وفي عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) حصل على الماجستير في الإدارة الصناعية من جامعة جنوب كاليفورنيا، ثم عمل لفترة وجيزة مديراً عاماً لشركة إسمنت اليمامة.

عند منتصف عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) دخل الشيخ المشاري السلك الحكومي وكيلاً لوزارة المالية والاقتصاد الوطني، وفي الوقت نفسه بدأ يُلقى محاضرات في قسم الاقتصاد بجامعة الملك سعود، ثم عُين وزيراً للزراعة والمياه بتاريخ ١٣٨٤/٢/٢١هـ (١٩٦٤م). وهي الوزارة التي ظل فيها طيلة حكم الملك فيصل (أحد عشر عاماً).

الفترة الطويلة نسبياً التي بقيها في وزارة الزراعة، فضلاً عن كونه خرج من بيئة زراعية لها تاريخها، مكنته من تحقيق إنجازات ملحوظة في مجال التنمية الزراعية، وبخاصة في مجال عون المزارعين وتحلية

المياه، وتوزيع الأراضي البور وبناء السدود، خاصاً بالذكر تطوير مياه عيون الأحساء، ثم تنفيذ مشروع مياه الري والصرف في الأحساء، وكان لولعه بالزراعة دور كبير في حبه لعمله ونجاحه فيه، وأذكر أنه أقام مزرعة في الخرج، تُعد نموذجاً للمنتجات الواعدة في بيئتها.

لم تكن المشروعات الزراعية الأهلية العملاقة قد بدأت في عهده، لكنه تبنّى مشروعاً كبيراً لاستصلاح مساحات زراعية واسعة من أراضي «حرض» مع حفر آبار لاستخراج المياه الجوفية العميقة، وتمديد شبكاتها، وهو مشروع تحوّل فيما بعد إلى ما يمكن أن يُعد «نواة» الشركة الوطنية للتنمية الزراعية «نادك»، وكان المواطن في تلك الفترة يلمس حضوراً واسعاً لوزارة الزراعة في العديد من نواحي الحياة المتصلة بالمياه والأبحاث الزراعية والغابات والمراعي وخلافها.

أما على الصعيد الاجتماعي، فإن للشيخ المشاري الكثير من الأعمال والمبادرات التي تُذكر له، ومنها دوره البارز في تأسيس نادي الفروسية وتطويره ورعايته، وفي تأسيس مدارس الرياض الأهلية المعروفة، وفي إنشاء الشركة السعودية للفنادق والمناطق السياحية، وأخيراً مشاركته في إقامة البنك السعودي الفرنسي، وقد أصبح بالنسبة للمشروعين الأخيرين أول رئيس لمجلس إدارتهما.

الشيخ حسن المشاري، رزق بثلاث بنات هنّ: منى وليلى ونورة، وهو أخو الدكتور عبدالرحمن المشاري طبيب أمراض النساء والولادة وصاحب المستشفى المعروف باسمه في الرياض.

لقد عرفته منذ أن كان وكيلاً لوزارة المالية، ثم توثقت الصلة معه في أثناء عمله في وزارة الزراعة والمياه، وهو كما هو منذ بدأت المعرفة، لم يتبدل، وله أسلوب لم يتغير، وصاحب دماثة وألطاف لم يتحول، وله من الطُّرف والنوادر والتعليقات ما يجعل حديثه لا يُمَلّ.

(٤١)

د. مطلب بن عبد الله النفيسة

لم يسبق نشره.



يلتقي مع نظيره الدكتور عبدالعزيز الخويطر في سمات عديدة، لعل من أطرفها أن المرء يلتقيه، وفي رأسه هموم الوظيفة وخفايا السياسة، ومع ذلك، فإنه يتقن صرف الحديث إلى موضوع جانبي لا يمت إلى ما في بال ملتقيه من توقعات.

وتحضر مجلسه أو تلتقي معه في دعوة، وربما جلست إلى جواره في حديث خاص، فترى حديثه يتجه إلى نوادر وقصص أو موضوعات لا يتوقع أن تكون محل اهتمام شخصية بحجم مسؤولياته، وهي، بلا شك، مهارة فائقة في الحفاظ على أسرار الوظيفة، وعدم البوح بها في محفل خاص، أو الخوض بها في جوّ عام.

بل ربما سُئل عن موضوع معين، فيُظهر بأن لا علم لديه أصلاً بشيء مما سُئل عنه، بينما الواقع أنه قد يعرف أدق التفاصيل فيه، وقد تراه في ذروة الانشغال في أزمة ما يعيش أحداثها، فتجده بارد الأعصاب، لا تبدو عليه مظاهر الانزعاج أو القلق أو التوَهان، وفوق هذا فهو من صنف لا يدَّعي الإنجازات لنفسه، بل غالباً ما يقلل مما عمل، وينسب ما تحقق لمن هو أعلى منه، وللجهود المشتركة مع زملائه، كل ذلك دون تملّق أو رياء.

شخصية بهذه السمات، وأمثالها، يظهر بين حين وآخر في دواوين الدولة،

يكون نادر الحديث إلى وسائل الإعلام، ولا يرضى بكشف مذكراته إن وجدت أو بالإفصاح عن ذكرياته، هذه الفئة من المسؤولين هم ـ في الواقع ـ مستودع أسرار الدولة، وخازنو معلوماتها، وهم العنصر الصنديد ذو الوزن الثقيل، الذي يحظى دوماً بالثقة وطول الاعتماد عليهم.

كم من الوقت ـ في أثناء كتابة هذه المقالات وقبلها ـ صرفته في التأمّل في سمات هذا الصنف من المسؤولين مع نقيضه، فاقتنعت أن كثيراً ممن اتصف بهذه المهارات، من مغالبة النفس على التواضع وعلى الصبر وكتمان المعلومات ونكران الذات، هو الأندر، وهو الأدْوم، وهو الأثقل وزناً والأكثر احتراماً وتقديراً في نظر المجتمع والمسؤولين، وهو تعميم لا يقصد به شخصٌ بعينه بقد ما هو استنتاج مقارب لواقع معظم من تطرَّقتْ إليهم هذه المقالات من الشخصيات العامة.

ولد الدكتور مطلب النفيسة في بلدة رياض الخَبْراء بالقصيم عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م)، ودرس بعض الابتدائية فيها، ثم التحق بمعهد الرياض العلمي (أحد المعاهد التابعة حالياً لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) وهو معهد يهيئ ـ في الغالب ـ لتخريج القضاة والمتخصصين باللغة الفصحى، وقد تابع في الوقت نفسه منهج المرحلة الثانوية وفق نظام وزارة المعارف من خلال مدرسة اليمامة الثانوية بالرياض حيث نال شهادتها عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م)، ثم ابتعث إلى مصر ليحصل من

جامعة القاهرة على البكالوريوس في الحقوق.

بدأت علاقته بالوظيفة الحكومية عام ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م) بالعمل مستشاراً قانونياً في مجلس الوزراء، ثم بتعيينه نائباً لمدير عام معهد الإدارة العامة المنشأ حديثاً في مطلع الثمانينيات الهجرية (الستينيات الميلادية)، كما بدأ في تلك الفترة بممارسة مهنة المحاماة عبر مكتب خاص.

ثم ابتعث للحصول على الماجستير والدكتوراه في القانون من جامعة «هارفرد» الأمريكية، وفي عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) عُيّن رئيساً لشعبة الخبراء في مجلس الوزراء.

وشعبة الخُبراء هي التي - ارتبط اسم الدكتور مطلب بها وبالعكس - أصبحت تسمى هيئة الخبراء منذ عام ١٤١٤هـ (١٩٩٤م)، هي الذراع القانوني لمجلس الوزراء، وهي كيان يتبع إدارياً لرئيس مجلس الوزراء، أدت وتؤدي وظيفة أساسية في تهيئة الأنظمة (القوانين) واللوائح التي تصدر من المجلس بحيث تأخذ الصيغة القانونية الدقيقة، وتتسق مع غيرها من الأنظمة ذات الصلة بها، وتشهد اجتماعاتها عادة جلسات للتنسيق بين الجهات الحكومية التي تتقاطع أو تتشابك مسؤولياتها التنفيذية عند تطبيق هذه الأنظمة.

وما من شك في أن هذه الهيئة التي تضم في تكوينها نخبة من المستشارين الشرعيين والقانونيين، قد أصبحت تتكامل في مسؤوليتها

مع ما ينتجه مجلس الشورى من أنظمة، سواء قامت بدراسة الأنظمة قبل عرضها علي المجلس أو العكس.

عُيّن الدكتور النفيسة منذ عام ١٤١٦هـ (١٩٩٥م) وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء، لكنه ظل لصيقاً بالعمل ذي الصبغة القانونية، في وقت تخلو الدولة من وزارة تُعنى بهذه الوظيفة، فهو مثلاً يمسك بشكل أساسي بملفات تتعلق بقضايا الحدود مع الدول المجاورة، ويُعدّ أحد الخبراء السعوديين المعتمدين في هذا المجال.

وهو عضو في المجلس الاقتصادي الأعلى، وعضو وأمين عام للمجلس الأعلى للبترول والمعادن، وعضو في العديد من المجالس التنظيمية والإشرافية، ومن بينها على سبيل المثال: مجلس الخدمة المدنية ومجلس الخدمة العسكرية ونحوهما، كما شارك في دراسة الأنظمة الأساسية الأربعة (النظام الأساسي للحكم، ونظام مجلس الوزراء، ونظام مجلس الشورى، ونظام المناطق) وكذلك الأنظمة القضائية والتجارية والمالية، حيث يُعد الدكتور النفيسة أحد أركان مراجعة مشروعات الأنظمة والقوانين المهمة في الدولة.

ومع مشاغله العديدة، وارتباطه بعشرات المجالس واللجان الحكومية، يحرص الدكتور النفيسة على أن يبقى قريباً من البيئة الأكاديمية، فقد مارس التدريس في معهد الإدارة العامة، وفي قسم القانون بجامعة الملك سعود، وله العديد من المؤلفات ذات الصفة التوثيقية والمنهجية (التعليمية).

لقد عرف عنه، وهو بهذه الشخصية التي عرض المقال لبعض أوجهها، مثابرته على إنجاز الأعمال الموكلة إليه، وهو يحضر إلى عمله مبكراً، ولا يخرج إلا بعد أن ينهي ما بين يديه من أعمال، ما لم يحتم عليه موجب ملزم مغادرة مكتبه.

كان من التقاليد التي حرص الدكتور النفيسة على تطبيقها في هيئة الخبراء، مما يُعد تنفيذاً لمتطلبات نظامها، لقاءٌ يومي صباحي يحضره كل يوم جميع المستشارين في الهيئة لمناقشة الموضوعات المدرجة على جدول أعماله، لقاء يتيح الفرصة للمستشارين الجدد بخاصة لسماع وجهات نظرهم حيال ما هو مطروح، بقصد تشجيعهم وتدريبهم، وكان يحرص على أن يحصل كل مستشاري الهيئة على أفضل فرص التدريب والتأهيل الأكاديمي، بما في ذلك الحصول على الماجستير والدكتوراه من الجامعات الكندية والأمريكية والأوروبية في الدراسات القانونية.

للدكتور النفيسة (٣) أبناء هم: خالد وفهد وعبدالله و (٢) من البنات هنّ: ندى ولمى.

(٤٢)

أحمد عبد الوهاب نائب الحرم

لم يسبق نشره.



كثير ممن تطرقت إليهم هذه الحلقات كانوا تحت الأضواء الكثيفة، لكنهم لم يكونوا يسعون إليها، فلقد تعرّضوا لها بحكم وظائفهم أو نتيجة اهتماماتهم، فلما تخلّوا عن مواقعهم لم يفقدوا توازنهم، ولم يسعوا لتصيّد فرص الظهور مرة أخرى.

شخصية هذه الحلقة، شغل رئاسة المراسم الملكية السعودية لمدة واحد وعشرين عاماً، وكان مثلاً بارزاً على هؤلاء، فلقد لازم الملك فيصل ثم الملك خالد ثم سنوات من عهد الملك فهد، وبحكم طبيعة عمله، كان نجماً بكل ما تعنيه الكلمة من بريق ووهج، لكنه، وللحقيقة، لم يتعمّد صناعتها لنفسه، كما لم يستثمرها للبروز، ولا يُعرف حتى تاريخه أنّ أحداً قد نجح في اختراق عزوفه هذا ففاز منه بحديث إعلامي، بل لقد كدت أجرح شيئاً من ودّ متبادل بمجرد أن أحس أن حديثاً هاتفياً معه كان سيؤدي إلى النشر، لولا أنني غلّفت الحديث معه بالتركيز على والده، وكان لسان الحال يقول:

ما أروع أن يكون المرء مصدراً للأضواء في يوم من الأيام، ويكون في الوقت نفسه الأزهد فيها، وكم تمنّيت أن يتعلم أولئك من هؤلاء لنخرج بخلطة واقعية النظرة، معتدلة التصرفات، «لا تخرق الأرض، ولا تبلغ الجبال طولاً».

كان السيد أحمد عبدالوهاب أحد جيل الشباب الذين جيئ بهم في الثمانينيات الهجرية (الستينيات الميلادية) حتى عرفت بهم وزارة ولي العهد الأمير فيصل في عهد أخيه الملك سعود (١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م)، فعُيّن هو رئيساً للتشريفات الملكية.

وكان ـ بثقافته وجرأته وأناقته ـ «مفصّلاً» لهذا العمل الذي ظل يطلق عليه اسم «التشريفات»، منذ أن قرأنا لقب «تشريفاتي» الملك عبدالعزيز يطلق على فؤاد شاكر في منتصف الستينيات الهجرية (الأربعينيات الميلادية) أو ربما أقدم من ذلك، ثم غُيّر اسم هذا الجهاز المساند للديوان الملكي إلى اسم المراسم (المقابل للمصطلح الإنجليزي Protocol)، الذي اختاره السيد أحمد عبدالوهاب بعد أن ألح الأمير عبدالله بن عبدالرحمن، عم الملك فيصل وإخوانه، في عام (١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م) على ضرورة تغيير اسم التشريفات.

إن التعرف على شخصية هذا المقال وعلى شيء من سيرته، يتطلب التمهيد بمعلومات عن حياة والده السيد عبدالوهاب نائب الحرم، الذي كان ولد في مكة المكرمة (١٢٨٣هـ ـ ١٨٦٥م) من أسرة حجازية كان لها شرف الإسهام في خدمة البيت الحرام، تتقاسمه مع سدنة البيت من آل الشيبي، ومع القائمين على سقاية الحاج (الزمازمة)، وكان قد نزح إلى تركيا ـ قبلة بعض الهجرات الحجازية في زمن الأشراف والعثمانيين،

أما لقب العائلة (نائب الحرم) فكان لقباً تركيّاً أطلقه العثمانيون للدلالة على هذه الخدمة الشريفة.

وفي أسطنبول أقامت الأسرة نحو ثلاثين عاماً، اكتسب فيها الأب عضوية مجلس المبعوثان (البرلمان التركي) نائباً عن منطقة عسير، وكانت الأسرة تقيم في حارة تقطنها أغلبية العائلات النازحة عن الجزيرة العربية، بما فيها أسرة الأمير محمد الثنيان آل سعود (والد الأميرة عفت حرم الملك فيصل)، ومن هنا بدأت الصلة بين الأسرتين.

القصة تطول، لكن الملك عبدالعزيز، بعد دخول الحجاز في حكمه، رحّب بكل المهاجرين من الحجاز ونجد والأحساء وغيرها، واستفاد من ثقافتهم وتعليمهم، وجعلهم في مراكز سياسية وقيادية في الدولة السعودية الفتيّة، وهذا ما حصل بالنسبة لعبدالوهاب نائب الحرم الذي كلفه الملك عبدالعزيز بتنظيم مالية عسير التي كان يتولاها آنذاك عبدالوهاب أبوملحة، وربما كان لمعرفته بتاريخ عسير في مجلس المبعوثان علاقة بهذا الاختيار والتكليف، لكن إقامته في عسير دامت أكثر مما توقع، فتزوج سرّاً من فتاة من الجنوب أنجبت (فيصل) أخاً لأحمد لم يقدّر له العيش طويلاً، ليبقى السيد أحمد وحيد والده ووالدته.

وبعد عودته من عسير إلى مكة المكرمة، يصبح رئيساً للمجلس البلدي بمكة المكرمة، وقد وثقته الجريدة الرسمية أم القرى في عددها

(٨٢ لعام ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٦م)، ويبدو أنه، بموقعه هذا كان يشرف على بلدية العاصمة المقدسة قبل تعيين عباس قطّان (عام ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٨م)، ثم عُيّن مديراً للأوقاف بعد أن فُصلت من وزارة المالية، لتكون مديرية مستقلة تشتمل على أوقاف الحرمين، وتستفيد من تاريخ العائلة في خدمة البيت العتيق (محرم ١٣٥٥هـ ـ مارس ١٩٣٦م).

وكان مما سجلته الجريدة الرسمية (أم القرى) أيضاً ـ والحديث دائماً عن الوالد عبدالوهاب ـ أنه كان عُيِّن عضواً في مجلس الشورى بمكة المكرمة ولمدة ثماني سنوات بدءًا من عام ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٧م)، وأنه كان قد اختير عضواً في لجنة الصدقات العُليا (العدد ٦٣٥ في ١٣٥٥/١١/٢٤هـ ـ ١٩٣٧/٢/٥م) وهي لجنة استمر فيها بشكل غير متفرغ حتى وفاته المفاجئة، كما يفهم من أعداد أخرى أنه كان أحد المرافقين المقربين للأمير فيصل نائب الملك في الحجاز.

لقد توفي، وهو يؤدي مناسك الحج (أثناء سعي الإفاضة يوم عيد الأضحى المبارك) عن عمر يقارب الثامنة والسبعين، ووثقت جريدة أم القرى نعيه (بالعدد ٩٣٩ في ١٣٦١/١٢/١٧هـ ـ ١٩٤٢/١٢/٢٥م)، ولم يكن له سوى أخت واحدة تزوجها الشيخ عبدالله الشيبي (نائب رئيس مجلس الشورى لاحقاً، وسادن الكعبة المشرفة).

وعودة إلى شخصية هذا المقال، ابنه السيد أحمد عبدالوهاب، يُذكر

أنه ولد بمكة المكرمة في عام ١٣٥١هـ (١٩٣٠م)، وكانت والدته إحدى بنات عمومة والده، وعاش طفولته في حارة «الفَلَق» المعروفة بمكة المكرمة، ثم درس الابتدائية والثانوية في مدرسة السَّعْديّة بالقاهرة، والتحق بجامعة القاهرة، لكنه لم يكمل دراسته فيها بسبب مرض والدته، واضطراره للعودة، فمارس التجارة فترة من الوقت، مشاركاً لكمال أدهم في شركة عرين، واكتسب عضوية الغرفة التجارية بجدة.

التحق بالعمل الحكومي في ديوان الأمير فيصل ـ نائب الملك في الحجاز ـ أيام كان الشيخ إبراهيم السليمان العقيل رئيساً له، وقد رافق بعض الرحلات المبكرة التي قام بها الفيصل بوصفه وزيراً للخارجية في عهد والده، ومنها لقاؤه بالرئيس الأمريكي آيزنهاور (في واشنطن ١٣٧٢/٦/١٦هـ ـ ١٩٥٣/٣/٢م)، ثم عيّن مديراً للتشريفات في ديوان ولي العهد (الأمير فيصل)، وعندما تولّى الملك فيصل مقاليد الحكم في ١٣٨٤/٦/٢٧هـ ـ ١٩٦٤/١١/١م) عُيّن رئيساً للتشريفات الملكية خلفاً لعبدالمنعم عقيل.

ظل أحمد عبدالوهاب في عمله هذا، فرقّي إلى المرتبة الممتازة في عهد الملك فيصل، وإلى مرتبة وزير في عهد الملك خالد، حتى أعفي بعد نحو ثلاثة أعوام ونيّف من عهد الملك فهد (١٤٠٥/١٢/٢٠هـ ـ ١٩٨٥م)، وله من الذريّة بنتان: نورة وسارة.

عرفت السيد أحمد عبدالوهاب عن قُرب عندما رافقت ـ لأول مرة ـ في حياتي الإعلامية ـ رحلة الملك فيصل إلى مؤتمري القمة العربية الثاني وعدم الانحياز المعقودين تباعاً في مصر عام ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م)، وفي ظني أن المراسم الملكية قد انتقلت تحت رئاسته إلى طور متقدم من الألق والهيبة والأناقة، وأدخل عليها ـ دون انتقاص لوضعها السابق أو اللاحق ـ الأصول الحديثة لصنعة المراسم، بما جعلها تجمع بين العبق الشرقي وملامح الأساليب العالمية المتبعة، وأحسب أنه وزملاءه قد استفادوا من المؤلّفات الصادرة عن تلك المدارس والمفاهيم.

يعلق في الذهن ـ من بين ما بقي فيه ـ إدخال فكرة الأوسمة (الوشاح) وتطوير نظام العَلَم، ووضع قواعد مكتوبة لحفلات الاستقبال والتوديع وكل المناسبات الأخرى، وكتابة مدوّنة ـ مطويّة ـ تُقْتَفَى عند زيارة الزعماء والضيوف.

وعودة إلى ما قيل في مطلع المقال، لقد كانت المراسم والتشريفات في عهده انعكاساً لشخصيته التي أضفى منها عليهما كل ما كان يملك من وهج وبريق وثقافة متنوّعة وصلات خارجية واسعة.

(٤٣)

د. سُليمان بن عبد العزيز السّليم

لم يسبق نشره.



عرفته في مطلع التسعينيات الهجرية (السبعينيات الميلادية) من القرن الماضي، كان قد عاد إلى الوطن، حاملاً درجة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة جونز هوبكنز الأمريكية، وكان للتوّ قد انتقل من وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ـ التي ابتعثته ـ إلى جامعة الملك سعود، لينضم إلى زملائه في قسم العلوم السياسية، في كلية التجارة، قبل أن يتحول اسمها إلى كلية العلوم الإدارية، وكان من بينهم آنذاك د. غازي القصيبي، ود. محسون جلال، ود. أسامة عبدالرحمن، ود. منصور التركي، الذين كانوا في طليعة أعضاء هيئة التدريس السعوديين في تخصصاتهم، وكانوا يقودون مع زملائهم في كلية الآداب ـ بخاصة ـ الحراك الثقافي النشط في حينه.

وكان كاتب هذه السطور للتوّ أيضاً عائداً بعد أن أكمل دراساته العليا واستأنف عمله في مجال الإعلام مديراً عاماً للتلفزيون، وقد قامت بين الطرفين ألفة خاصة، تمثلت في الاستعانة بطبقة المثقفين هؤلاء في تقديم بعض برامج التلفزيون وفي المشاركة في ندواته السياسية، كما نتبادل الصحف الأجنبية التي كان يحظى بها منسوبو الإعلام، وقد شاركتُ في حينه بمحاضرة، تحدثت عن عالم الأقمار الصناعية، بحضور طلاب كلية التجارة آنذاك، وهي المحاضرة التي تحدث عنها

د. القصيبي في كتابه: صوت من الخليج.

كان لإسهام د. سليمان السليم بوجه خاص، وعدد من أساتذة الجامعات في تلك الفترة، ومنهم د. عبدالرحمن الأنصاري ود. غازي القصيبي بالإضافة إلى الأستاذ عبدالرحمن السدحان، في تقديم البرامج الحوارية والثقافية والسياسية في التلفزيون، دور فاعل في الرفع نوعياً من مستوى برامجه عامة، وفي تشجيع غيرهم من المثقفين وحفزهم على التواصل معه، وتلبية احتياجاته، وشهدت تلك الفترة تسابقاً في التعاون مع الإعلام، على مختلف الأصعدة، وكان من بين ما قدمه الدكتور السليم في التلفزيون برنامجان: نحن والعالم وأضواء على الأنباء، وهما كما يبدوان من اسميهما، مواكبة للأحداث السياسية الجارية، يستضيف فيهما من الكتاب وأساتذة الجامعات من يتابع التطورات ويعلق عليها ويشرح أبعادها بجرأة معقولة في معيار تلك الأيام.

وكان د. سليمان أثار في مطلع التسعينيات أيضاً مناقشة لأوضاع صحافتنا، كانت مجلة اليمامة مسرحها، وشارك فيها الأمير سطام ابن عبدالعزيز وكاتب هذه السطور وغيرهما، وكان عنوانها: كي تكون لنا صحافة تُقرأ، وقد حملت مداخلته الصريحة في ذلك الحوار تعبير «برقطة» الصحافة المشتق من مصطلح «البيروقراطية»، للدلالة على أن الصحافة كانت تتعامل مع الخبر بأسلوب الروتين الحكومي

مطالباً بالانعتاق منه والتحرر من قيوده.

وقد استعانت به في تلك الفترة، وخلال عمله الأكاديمي، كل من وزارة الإعلام ووزارة المالية والاقتصاد الوطني للعمل فيهما مستشاراً غير متفرغ.

ومع أنه ظل وفياً للعمل الإعلامي، ومقدّراً لطبيعته وظروفه، ومتابعاً من الدرجة الأولى لما تبثه وسائل الإعلام الأجنبية، الأمريكية والأوروبية بشكل خاص، إلا أن تعيينه وكيلاً لوزارة التجارة في عام ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م)، وفي العام اللاحق له وزيراً للتجارة قد بدأ يغرقه في بحر البيروقراطية، لكنه من حسن حظه رزق بوكلاء أعانوه على التخفيف من مظاهرها في وزارته، ذات المساس المباشر بمصالح المستهلكين والتجار على حد سواء، محافظاً على علاقة طيبة مع الطرفين.

إن من يعرف الدكتور السليم عن قرب لا يملك إلا أن يحترم فيه شخصية مثقفة واعية، صبورة، هادئة، ذات تفكير عقلاني، وذا طبيعة هادئة لا تأبه بالأضواء، ولا تتزلّف الثناء أو تنخدع به، بل إن المديح أصلاً لا يجد صدى في نفسه، ولذلك فإن من يحادثه يكبح جماح الإطراء في نفسه، وهو يعلم أنه أمام إنسان لا يعير مثل هذه المسائل شأناً.

وإن من يعرف شخصيته تلك، يدرك أنه يقف أمام إنسان قوي في الحُجّة، واضح في الرأي، مع أنه ـ في الوقت ذاته ـ يُؤثر التسامح، ويتجنب الصدام، وأحسب أنه يحمل قلباً لا يقوى أصلاً على المناكفات، دون التنازل عما يعتقده يصبّ في الصالح العام، وبالتالي فلا عجب ـ ولأسبابه الصحية ـ أن يبادر إلى طلب الاستقالة بُعيد تعيينه وزيراً للمالية والاقتصاد الوطني (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م) التي لم يكد يدخل إلى مقدمة ردهاتها ولفترة قصيرة، حتى بادر بتفكيك هرمها، وإلى التخفيف من الأعباء التي تثقل كاهلها (كالإحصاء، والتجارة الخارجية، ومفاوضات منظمة التجارة العالمية، ومعهد الإدارة العامة، والاقتصاد الوطني)، بنقلها إلى جهات حكومية أخرى أقرب إليها.

لقد آثر الهدوء على الصخب، واختار الظل على الأضواء، فأنشأ لنفسه مناخاً خالياً من المنغّصات، يتابع فيه قراءاته، ويمارس رياضته اليومية، ويلتقي فيه بمحبيه وزائريه، ويرعى فيه شؤون أسرته، ويقوم بواجباته الاجتماعية، لكنه استبقى من الأعمال ما يتناسب والعيشة الوادعة التي اختارها أسلوباً ونمطاً لحياته، فهو ـ مثلاً ـ عضو في الهيئة الاستشارية لمجلس التعاون الخليجي منذ عام ١٤١٩هـ (١٩٩٨م)، ورئيس لمجلس إدارة مجموعة سامبا المالية منذ عام ٢٠٠٣م، وهو عضو في مجلس إدارة شركة الزامل للاستثمارات الصناعية منذ ذلك العام أيضاً.

هكذا سجل د. السليم اسمه بعزوفه عن المناصب والأضواء ضمن قائمة من الوزراء الذين ترجلوا عن الوظيفة في عز السنام، وحافظ على سمعته النزيهة ويده النظيفة، وبقي مرفوع الرأس، محترم الملفّ، ناصع التاريخ.

عاش د. السليم بعض طفولته في جنوب العراق، حيث كان والده يمارس التجارة في البصرة، وقد درس أبو باسل الابتدائية في مدرسة «النجاة» الشهيرة التي تكرر ذكرها في هذه المقالات، وله من الأبناء ثلاثة، ومن البنات مثلهم.

كشاف عام

(أ)

(ب)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

(هـ)


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



لقد ذهب أفذاذ ممن يجب أن تتزين المجتمعات بعطائهم ، وتتمثل بأدائهم ، لم ينشر لهم ذكر ، ولم يحتف لهم بأثر ، لقد توارت نبضاتهم زهداً منهم في الضجيج الذي تعج به السوق ، وخفتت ومضاتهم في الأضواء التي تطلقها محطات صناعة الإعلام ، بهذا السبب ماتت بذور ، وذبلت زهور ، وجهلت مواهب .

من مقال رثاء د . راشد المبارك في إحدى شخصيات هذا الكتاب : د . عبد الله الوهيبي (صحيفة الرياض ، ٢٨/ ١١/ ١٤٢٥هـ - ٩/ ١/ ٢٠٠٥م ، العدد ١٣٣٤٨)

ردمك : ٧ - ٥٤٥ - ٥٦ - ٩٩٦٠

مطبعة سفير تليفون ٤٩٨٠٢٨٠ - ٤٩٨٠٣٣٦ الرياض



عبدالرحمن بن صالح الشبيلي

أعلام بلا إعلام

الجزء الثاني



الطبعة الأولى
ربيع الثاني ١٤٣٨هـ - يناير ٢٠١٧م
الرياض



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

عبد الرحمن بن صالح الشبيلي

أعلام بلا إعلام

الجزء الثاني

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م
الرياض

ⓒ عبدالرحمن بن صالح الشبيلي؛ ١٤٣٨ هـ.
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الشبيلي، عبدالرحمن بن صالح
أعلام بلا إعلام - الجزء الثاني./ عبدالرحمن بن صالح الشبيلي.- الرياض، ١٤٣٨هـ.
٥١٢ ص ١٧× ٢٤ سم
ردمك: ١ - ٢٩١٦ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- الإعلام - السعودية ٢ - السعودية - تراجم
أ. العنوان
ديوي ٣٠١,١٦ ١٤٣٨/١٠٧٠

رقم الإيداع: ١٤٣٨/١٠٧٠
ردمك: ١ - ٢٩١٦ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى

ربيع الثاني ١٤٣٨هـ - يناير ٢٠١٧م
الرياض



لمن ظلّت على الدوام بعيداً عن دائرة الضوء ،

تنافسها الأوراق والأحبار ،

تحمّلت سأم التصويب والخربشات ،

وطنين الآلة وعُزلة الانشغال ،

وصابرت كدر الأيّام ، مثلما ذاقت صفوها ،

وثبتت بصبر مع الملمّات ، واحتسبت مرض العزيز وفقده ،

ووقفت حياتها لأحفادها دون نفسها ،

الزوج الرؤوم زكية عبدالله أباالخيل ،

والدة المرحوم «طلال» وشقيقتيه رشا وشادن وأولادهم ،

في ذكرانا الخمسين...

المحتويات

الموضـــوع	صفحة

ثانياً : محاضـرات ١٣٩

ثالثاً : تكـــريم ٢٦٧



مُقَـــدّمة

الجزء الثاني

ما كان اختياري لأستاذي الدكتور عبدالعزيز الخويطر، لتقديم الجزء الأول من هذا الكتاب (الصادر عام ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م) إلا لكونه «إمام» العازفين عن الأضواء، العاملين بصمت وإيثار، وقد حق لهذا الجزء إذ يصدر بعد أن وافاه الأجل في ١٤٣٥/٧/٢٦هـ ٢٠١٤/٥/٢٥م أن يكون اسمه من بين أعلام الكتاب وأن يتضمّن حيّزاً عنه يُمثّل الحد الأدنى من حقّه ومقداره.

وبينما ضم الجزء الأول من هذا الكتاب سِيَر (٤٣) عَلَماً، اشتمل هذا الجزء على (٥٠) عنواناً لتراجم نحو (٦٠) شخصية، ودخل عليه تغيير في تنظيم إخراجه، فقسّمت الأسماء فيه إلى خمسة حقول، بحسب مناسبة موضوعها، فهي إما مقالات، أو محاضرات، أو كتبت في مناسبات تكريم، أو في تقديم ندوات، أو في رثاء وتأبين، وتحدث بعض المقالات عن شخصيّتين أو أكثر، وقد نوّهت الهوامش عن مناسبة كل موضوع وتاريخ نشره.

وكنت عن بعض أعلام الكتاب، نشرت أكثر من مقال أو محاضرة، فاخترت عند إعداده، أوفاها وأحدثها.

وغنيٌّ عن القول، إن الفكرة من عنوان هذا الكتاب بجزأيه، اختيارُها لشخصيّات أسهمت في بناء هذا الوطن وخدمته أو كان لها صلة به وكانت على قدر مشهود من العطاء وميلٍ واضح لنكران الذات والابتعاد عن وهج الأضواء مع قربها منها، ولقد كان القبول الذي حظي به الجزء الأول خير حافز على المُضيّ في إصدار هذا الجزء (الثاني) منه، الذي آمل منه أيضاً أن يُشجّع قبوله على الاستمرار فيما بعده، إن مدّ الله في العمر.

شاكراً كل من تفضّل عليه بالقبول والتشجيع وإبداء الملحوظات، ومقدّراً بخاصة، جهود الأستاذ محمد حسن الشقيري في مطبعة سفير، في تعديلات مادة الكتاب وإخراجها وتنسيقها، وجهود الأستاذ محمد خليفة في الشركة السعودية للأبحاث والنشر في المساعدة في التكشيف، وفي استخراج المعلومات الببيلوغرافية، والحمد لله أولاً وأخيراً.

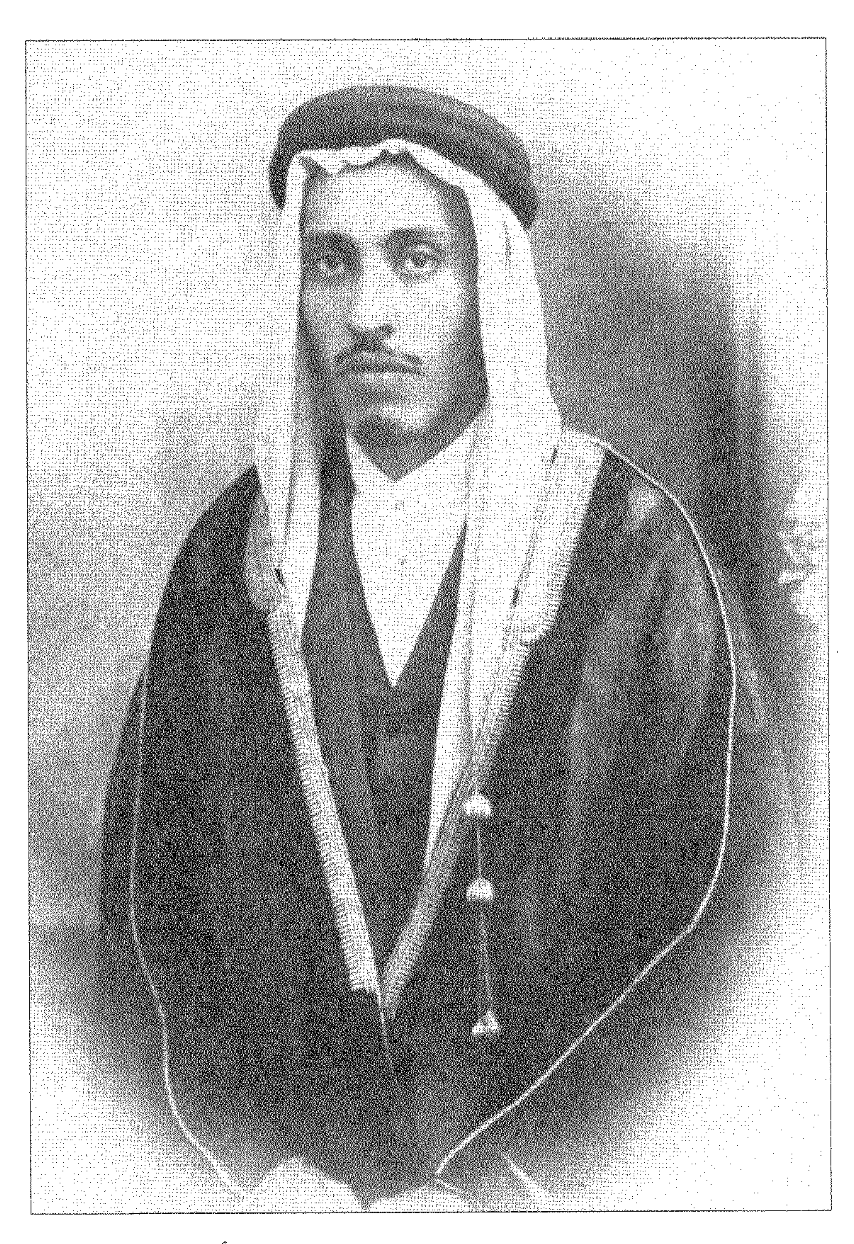
ع. ش.

الرياض: ٠١/ ٠٢/ ١٤٣٨هـ

٠١/ ١١/ ٢٠١٦م

أولاً :

مقـــالات..



محمد سعيد عبدالمقصود خوجة (الأب)

(١)

عبد المقصود خوجة (*)

على خطى والده (الغربال)

(*) الجزيرة، العدد (٩٩٣٠) في ٢٨/٩/١٤٢٠هـ (٦/١٢/١٩٩٩م).



عبدالمقصود خوجة (الابن)

كان تكريم الشيخ عثمان الصالح لصديقه وزميله في عالم الصالونات الثقافية، له أكثر من دلالة ومعنى وتعبير، وأقل ما يمكن أن يقال عنه إنه أي الشيخ عثمان وهو الكبير في سنه وقدره كان ينوب عن العشرات، الذين كرّمهم الأستاذ عبدالمقصود في رد الجميل للجميل، وعبّر هذا الإنسان المفضال، في رعاية الثقافة واحتضانها بجهده وماله ومتابعته وإشرافه.

والذي يتعرف على عبدالمقصود خوجة، يجد أنه لم يتسنّم سدة الإثنينية إلا بجدارة فكرية متأصلة، وإرث ثقافي وارف، وإصرار دؤوب عن اقتناع ورغبة واستعداد ومثابرة على مواصلة هذا المنهاج الذي دام ما يقرب من عشرين عاماً (منذ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

فالأستاذ عبدالمقصود في مواقفه الخيرية والثقافية يذكّر إلى حد كبير بشخصية والده، الذي يُجمع مؤرخو الحركة الثقافية في المملكة على أن كتاب «وحي الصحراء» الذي قام على جمعه واختيار مادته والده محمد سعيد عبدالمقصود عام ١٣٥٥هـ وساعده في ذلك (الشاب آنذاك) عبدالله بلخير وقامت تهامة بإعادة طباعته سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) يُعدّ وما يزال، من أبرز طلائع الأدب السعودي ومعالمه، فهو عمل يتجدّد مع كل يوم تعيد

قراءته فيه، وقد خصص له الدكتور علي جواد الطاهر ست صفحات من كتابه: معجم المطبوعات العربية في المملكة (٤ أجزاء) نقتطف منها الآتي:

«عُين عام ١٣٤٥هـ مديراً لجريدة أم القرى ومطبعتها، أسهم في إثراء الحركة الأدبية، ونشر إنتاج الأدباء، أول من فكر في طباعة المصحف الشريف في مكة المكرمة، قام بطباعة كتاب (تاريخ مكة) للأزرقي في ثلاثة أجزاء من تحقيق رشدي ملحس، توفي في ربيع الثاني ١٣٦٠هـ (١٩٤٠م)».

ونقل د. الطاهر من مجلة المنهل « العدد الخاص» ما كتبتْه عن الشيخ محمد سعيد عبدالمقصود:

«كان يوقّع مقالاته باسم (الغربال) ثم انفصلت الجريدة (أم القرى) عن المطبعة فاستمر هو مديراً للمطبعة.. شرع في إقامة عمارة ضخمة مثالية لها في جرول تطويرًا لها مادياً وأدبياً، ولم يكمل المشروع لأنه كان سابقاً لأوانه.. له مجموعة محاضرات ومقالات».

ثم نقل د. الطاهر ما ذكره د. منصور الحازمي في كتابه معجم المصادر الصحفية (الذي قام من خلاله بتكشيف جريدة أم القرى) عن محمد سعيد عبدالمقصود خوجة:

«من رؤساء تحرير أم القرى من سنة ١٣٥٠هـ إلى سنة ١٣٥٥هـ، ازدهرت في أيامه بالمقالات والبحوث التي تتناول الأدب والتاريخ، وتنتقد العيوب الاجتماعية، وللأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود بحثان: الأول

تحت عنوان: (الأدب العربي في القرن الرابع الهجري)، في ثلاث حلقات، والثاني بعنوان: (الأدب الحجازي والتاريخ) في ثماني حلقات، ثم أصبح البحث الثاني مقدمة لكتاب (وحي الصحراء) وبحثه يعتبر أول محاولة لتتبع الأدب المعاصر في الحجاز».

وقد ألف د. محمد بن سعد بن حسين كتاباً في عام ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م) بعنوان: «محمد سعيد عبدالمقصود، حياته وآثاره».

وإن مما يسجل لعبدالمقصود خوجة الابن في جهوده الثقافية المتصلة، حرصه على إيصال الحفاوة إلى رموز الثقافة في مختلف مناطق المملكة، لا يفرق في ذلك بين مشهور ومغمور، أو بين موسر أو محروم، فضلاً عن تخصيص جزء من عمله لخدمة الثقافة الإسلامية والعربية ومفكريها رجالاً ونساءً، ونشر نتاج الإثنينية في نحو ثلاثين مجلداً حتى الآن.

والعمل الموسوعي العملاق، المترجم من الإنجليزية، عن الحضارة العربية والإسلامية في الأندلس، والذي أشرفت على تحريره سلمى الخضراء الجيوسي، ونشره في أصله الإنجليزي، مركز دراسات الوحدة العربية من تأليف نخبة من الأساتذة العرب والأجانب، ثم تولى عبدالمقصود خوجة تمويل ترجمته إلى العربية وطبعه وهو في جزأين مكون من (١٥٥٠) صفحة، يعدّ مفخرة ومثالاً جيداً لما يمكن أن يقوم به رأس المال المثقف، ورجل الأعمال المتحضّر، في بلد يرفع راية الإسلام وشجرة العروبة، ويحتضن العلوم والثقافة الإسلامية.

ومما يُحمد للأستاذ خوجة، ضمن أعماله الكثيرة، وفاؤه مع رئيسه وأستاذه وزميل والده (الشيخ عبدالله بلخير) عندما شجع من يستنبط منه ذكرياته، حتى نجح في نشر كتاب عنه بعنوان: عبدالله بلخير يتذكر الذي اعتنى بتحريره د. خالد باطرفي ١٤١٩هـ (٧٢٥ صفحة)، ويبقى أن يسعى أصدقاء الأستاذ خوجة نفسه لاستخراج مذكراته الشخصية منه أثناء عمله في المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر قبل خمسين عاماً.

وبعد: لقد قيل ما قيل عن الأسباب الكامنة وراء إثنينية عبدالمقصود خوجة في جدة، وعن أهدافه من وراء إقامة هذه الندوة الثقافية، وليكن ما قيل صحيحاً، أليس من المفيد أن يقوم على هذا النشاط أناس لديهم قدرة مالية واجتماعية وفكرية؟

ألم يكن في مقدور رجل الأعمال أن يحصل على الوجاهة من خلال عمل خارجي ويحرم الداخل من ثمرته؟ أليس الأَوْلَى في طالبي الوجاهة أن يركزوا على الوجهاء فقط، وعلى دروب لا تتصل بالفكر والثقافة والكتاب؟

في زمن لم يعد الانشغال بالثقافة والنشر مصدر رزق كافياً، ومأكل عيش كريماً، فإنه يحمد كل ما يبذل فيه، ويخصص ويوقف جهوده وماله ورعايته للأدباء والمفكرين.

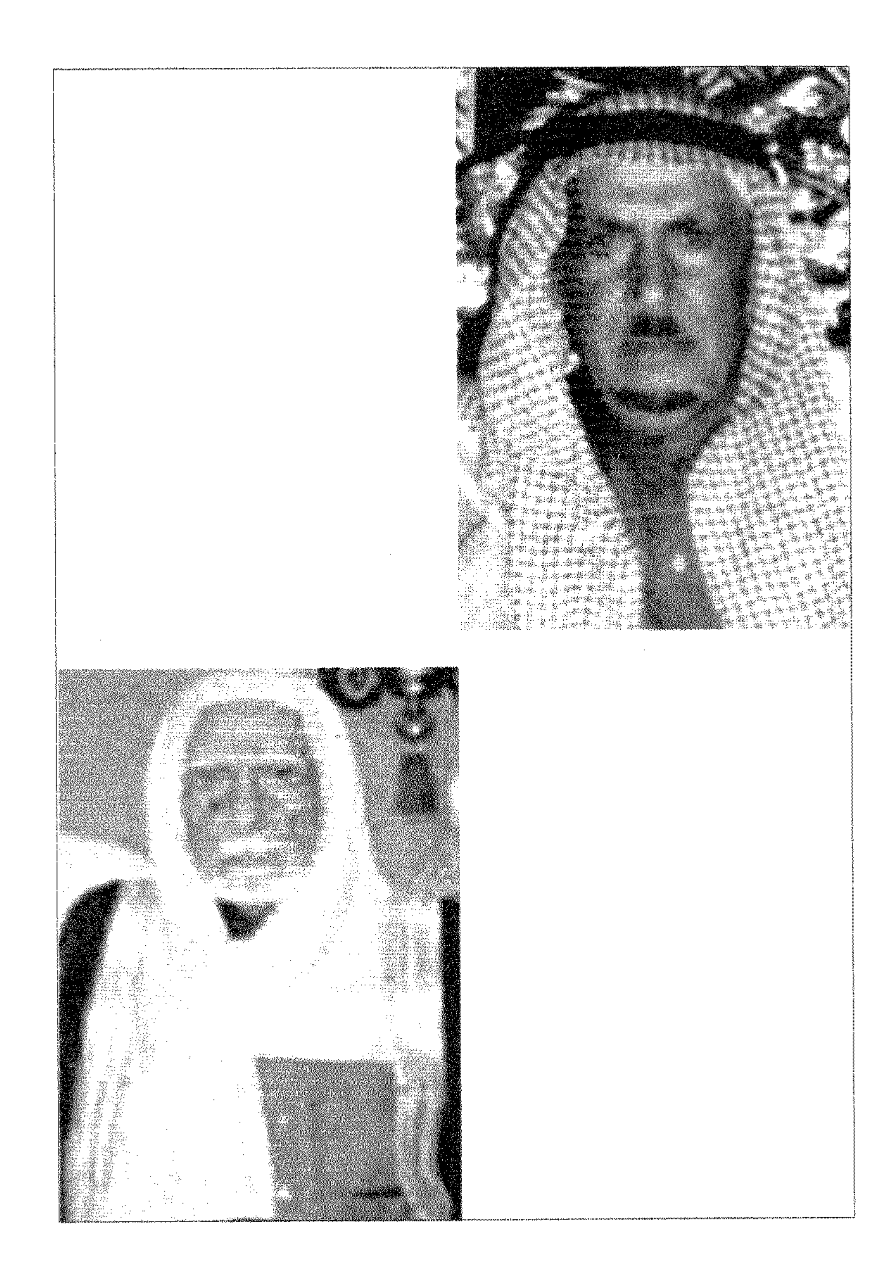
بصراحة، نحن أحياناً لا نرحم، ونتمنى أن نحجب رحمة الله أن تقع.

(٢)

عبد العزيز الحقباني (*)

حديث القيصريّات

(*) جريدة الاقتصادية، العدد ٥٨٣٩ بتاريخ ١٧/١٠/١٤٣٠هـ (٦/١٠/٢٠٠٩م).



فيما كان الشائع أن بلدية الرياض قد تأسست في الستينيات الهجرية (الأربعينيات الميلادية) من القرن الماضي، عثر باحثون على ما يفيد بأنها كانت قد أسست في تاريخ قد يعود إلى الخمسينيات (الثلاثينيات الميلادية)، لكن ما يعنيني في هذا المقام أن هذه البلدية كانت قد أُسست في أواخر السبعينيات قيصرية حديثة عرفت باسمها، أقيمت على الطراز الحديث فوق صخرة الصفاة، لملمت شتات بعض البسطات العشوائية، وضمّت رموز التجارة الذين انتقلوا إلى هذا (المول) الجديد من قيصريات طينية مجاورة قديمة، وهم الرموز الذين شكلوا فيما بعد أقطاب التجارة وبيوتاتها العريقة في العاصمة، من أمثال: المقيرن والحقباني والراجحي والسبيعي والغنيم وابن سليم والراشد (الحميد) والجميح والعجلان والقبلان والملوحي والشويرخ والقاضي والتخيفي والمشيقح والفريح وغيرهم.

وقد أزيلت تلك القيصرية ضمن برنامج تحديث منطقة الديرة وقصر الحكم الذي رافق الاحتفال بمئوية التأسيس (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، وكنت أدركت بعض تلك القيصريات التجارية في أواخر السبعينيات (الخمسينيات الميلادية) وبخاصة قيصرية البلدية هذه، واتخذت في أثناء دراستي الجامعية من إحدى شقق تلك القيصرية فوق محال

الحقباني، سكناً منفرداً لي، وكنت أحظى برفقة بعض الزملاء، وبمراجعة الدروس، زرافات ووحداناً، معهم في الجامع الكبير قبل أن يطلق عليه اسمه الحالي (الإمام تركي بن عبدالله مؤسس الدولة السعودية الثانية)، ونطرب لسماع الصوت الرخيم لمؤذنه الراحل عبدالعزيز الماجد.

من هنا، وفي تلك الفترة ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، بدأت معرفتي بهذا الرمز الكبير من أعلام تجارة الرياض، لا أملك عند الصعود أو النزول من غرفتي (الاستوديو) إلا أن أعرّج للسلام على الشيخ الحقباني فيخصّني على صغر سني بالتقدير والملاطفة، وأسمع منه كلمات التشجيع والإطراء، مما ظل هو وأنا نتذكره لاحقاً من الأعوام.

ثم شاء الله، أن تتعزز المعرفة به عبر حلقة من حلقات القرب الأسرية، وظلت صورة هذا الإنسان الجليل راسخة في الذهن ومرجعاً للأحاديث والذكريات منذ أيام الدراسة، لدرجة أنني لم أكد أحوز على وسائل تصوير تلفزيونية خاصة حتى أفرغت شيئاً من محبتي له في تسجيل حديث أعتز باقتنائه موثّقاً فيه بعضاً من سيرته، ومدوّناً فيه كفاح بيته التجاري، وذلك في صبيحة يوم الخميس ١٤٢١/١/٢٢هـ (٢٠٠٠/٤/٢٧م).

يقول الشيخ الحقباني بصوته الجهوري الذي أنهكته السنون، وبأدبه الجمّ الذي لم ينل منه الإعياء والأعباء، وخلقه الرفيع الذي لم يُنقص منه تآكل الذاكرة: إن أسرته تتحدر من قبيلة تغلبيّة كانت تنتشر في الجنوب،

ثم نزحت إلى الرياض لتقيم لها مزارع في ضواحي (القِرِي) جنوبي محلة الشميسي، وقد يكون جدها الرابع هو الذي كان اختار هذا الموقع في فترة تغلّب الأتراك على نجد (منتصف القرن الثالث عشر الهجري).

كان كثير من أهل نجد وباديتها، وأهل معظم المناطق الأخرى، لا يعرفون تاريخ ميلادهم، والأوفر حظاً منهم من يقرن سنة ولادته بحوادث التاريخ والكوارث الطبيعية، ومن هؤلاء شخصية هذا المقال، الذي يربط مولده بأعقاب معركة البكيرية (١٣٢٢هـ) التي شهدت مقتل عمه، فتزوج والده أرملة أخيه وأنجبته بعد عام أو عامين من تلك الوقعة، وهو ما يقرب من تاريخ ولادة الملك فيصل حسب التقدير، وقد توفي والده في حدود عام ١٣٣٨هـ مخلفاً عبدالعزيز (الأكبر) وأخويه سلمان ومحمد ثم تحولت الأسرة من الفلاحة إلى ممارسة التجارة لتنتقل إلى وسط الرياض وتقطن حيث يقيم معظم وجهاء العاصمة في شارع العطايف في منتصف الخمسينيات الهجرية، وتبدأ ببيع الأقمشة، تبتاعها من مكة المكرمة أو من بلدان الخليج، ثم ما لبثت بعد دخول الكهرباء أن اتجهت إلى تجارة الأدوات الكهربائية (المراوح والثلاجات)، ثم ما لبثت علاقاتهم التجارية في منتصف السبعينيات الهجرية (الخمسينيات الميلادية)، أن امتدت إلى تشيكوسلوفاكيا لاستيراد سيارات (سكودا) التشيكية المعروفة، مثلما كان ابن خميّس يفعل في الرياض حينما كان يستورد سيارات موسكوفيتش من روسيا.

ثم تتعثر ذاكرة الشيخ عبدالعزيز الحقباني، الذي كان يدلف إلى المائة من عمره، لتستذكر معرفته بالإمام عبدالرحمن، والد الملك عبدالعزيز (المتوفى عام ١٣٤٦هـ) وشخصيات من أمثال الأمراء سعود ابن عبدالعزيز الملقب بسعود الكبير، ومحمد بن عبدالرحمن وأخويه عبدالله بن عبدالرحمن ومساعد بن عبدالرحمن وفيصل بن سعد بن عبدالرحمن، كما يتذكر شخصية الأمير فهد بن عبدالعزيز (الأول) الذي سمي الملك فهد عليه بعد وفاته وكان أخواله (الدخيل) في بريدة.

لكنه يستحضر أسماء أقدم تجار الرياض من أمثال جده علي وابن حماد والشقري، الذين كانوا يحتكرون التجارة مطلع القرن الماضي، قبل دخول الملك عبدالعزيز، ويستذكر ـ دون تحديد ـ تواريخ استيراد السيارات إلى الرياض، وكيف كان الراديو يُستورد خفية في بادئ الأمر.

وقد سكن الإخوة (الحقباني) لست سنوات في مكة المكرمة لمزاولة التجارة، وربما تكون فكرة تعاملهم في تجارة الأقمشة قد بدأت نتيجة ذلك، حيث يتذكر الشيخ الحقباني أنه سافر للحج مرتين على الركايب (الجِمَال) عامي ١٣٤٤هـ و١٣٤٦هـ، أي بُعيد دخول إقليم الحجاز في الحكم السعودي، وأنه في إثر تأخر وصول تحويل بعض المال في رحلته الأولى، استلف مبلغاً من سراج بوقري، تاجر الأقمشة في مكة المكرمة، في بداية تعامل تجاري معه استمر سنوات، وقد سافر إلى جدة، التي كانت آنذاك أقل شأناً في التجارة فتعرّف على الشيخ سالم بن محفوظ،

وصارت معه هو الآخر علاقة تجارية امتدت عقوداً، ويستطرد الحقباني في سرد ذكرياته فيورد أسماء جيله من التجار (ابن حسينان، والمقيرن، والتخيفي، وابن بطي) وأسماء أقرانه من حيث العمر (عبدالرحمن بن عثمان، وعبدالعزيز بن دخيل، وسليمان الشعيبي، وآل جبر) وقصة إنشاء أول غرفة تجارية في الرياض، متذكراً أسماء بعض أعضائها الأوائل عبدالعزيز المقيرن، عبد المحسن بن سويلم، عبدالله أبونّيان، صالح الحميدان وغيرهم، وكيف انتشرت أعمال الصيرفة في الرياض التي بدأت مع المقيرن والتخيفي ثم سيطر عليها الراجحي، وأشكال العملات المستخدمة في نجد، وأن الصلات التجارية في الرياض كانت تتم مع الكويت والبحرين، ثم مع مدن الحجاز بعد توحيد البلاد، وكذلك صلات البريد، ومع أن ولادته كانت على الأرجح عام ١٣٢٣هـ أو ١٣٢٤هـ، فإنه يستطيع أن يتذكر حادثة ضم منطقة الأحساء ووقعة جراب ١٣٣٣هـ ووقعة كنزان بعدها مباشرة والتي ذبح فيها بعض أعمامه من جهة والدته، وهو لا ينسى بالتالي كل الحوادث التي جرت بعد ذلك.

لم يكن غريباً أن تبقى ذكرياته القديمة محفورة في ذهنه رغم تقدمه في السن، فمن المعروف أن الذاكرة تحتفظ بالأقدم بشكل أوضح، ولذا فإن صورة الرياض بأسوارها وبواباتها (الدراويز) السبع كانت دائماً حاضرة في مخيلته، مسترجعاً بشكل خاص دروازة المريقب ودروازة المذبح، اللتين كانت أسرته تستخدمهما للخروج إلى مزارعها باتجاه

الشميسي كما سبق، متذكراً أنهما كانتا كبقية البوابات تقفلان بعد صلاة العشاء، حيث لا يخرج عبرها أحد أو يدخل إلا بإذن.

وكنت سألته عن الصحف، والشخصيات التي كانت تحرص على استيرادها، فذكر على سبيل المثال، باستثناء الأمراء وأعضاء الحكومة، أسماء ابن خضير والرويشد من بين أولئك الذين كانوا يتداولون قراءتها ويتناقلون أخبارها.

إن الشيخ عبدالعزيز الحقباني الذي تزوج سبع مرات وأنجب سبعة من الأبناء وستّاً من البنات، يمثل صورة نموذجية لجيل لم نعد نراه من رواد التجارة الأقدمين في العاصمة (الرياض)، شخصية تستوقف عارفيه في جملة من الأمور، لعل في مقدمتها العصامية والنزاهة واللباقة، لكنه إضافة إلى ذلك يلفت الأنظار بنظامه الغذائي الذي حافظ عليه، وقيامه بأموره بنفسه، منذ صغره، فهو لا يتعشّى مطلقاً، ولعل ذلك ما يفسر سر تماسك قوامه وبنية جسمه، وهو يعتقد باقتناع بصحة المقولة التي يتمثل بها: (ما أهلك البرية ولا السباع في البرية كإدخال الطعام على الطعام)[1].

---

(١) توفي في الرياض يوم ١١/١٠/١٤٣٠هـ (٣٠/٠٩/٢٠٠٩م).

(٣)

محمد أبا الخيل (*)

كل الطرق تؤدي إلى وزارة المالية

(*) لم يسبق نشره.



ظلّت نواة هذه الصفحات حبيسة أضابير مكتبتي لأكثر من عشرة أعوام، بعد أن كانت مرشّحةً للظهور ضمن الجزء الأول من كتابي هذا «أعلام بلا إعلام» الصادر عام ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م) وما كانت لتتعرّض للحجب لولا أن النشر لم يكن ليحتلّ في خاطره موقع الارتياح.

ثم مرّت السنون العشر، وكان الحوار فيها بيننا لا ينقطع في اتجاه البحث عن صيغة مناسبة لاستخراج مكنون ذكرياته ومذكّراته، وكان التردّد سيّد الموقف، عُرض عليه خلال تلك السنين نماذج عدة من السِّيَر الذاتية والغيريّة، وعيناتٌ من تدوين المذكّرات، علّها تطابق ما في ذهنه، نماذج وعينات ارتفع فيها أصحابها عن الحديث المباشر عن الذات أو البوح بالخصوصيّات، وعن سرد قصص وأمور قد لا تضيف للقارئ نفعاً ولا للمعرفة قيمة، فكان الإحجام يُسيطر مرة أخرى على كل محاولة، إلى أن استقرّ الرأي قبل أشهر على أن يشرع في الأقل في تدوين رؤاه وأفكاره، فكان أن اتجه قلمه للحديث في موضوعين لا ثالث لهما: الفكر الاقتصادي والإصلاح الإداري، فهما في اقتناعه قد تفيدان الأجيال، والقارئ في تقديره لا يعنيه من المسؤول تفاصيل ممعنة في الشخصنة والذاتيّة.

وهكذا انتهت هذه الإشكالية، لنستخلص منها أن هذين الموضوعين كانا

يجسّدان في الحقيقة محور نبضه وعصب هواجسه وجزيئات تكوينه.

الأمر الثاني أن الرجل هو من نموذج لا يحب أن يتحدّث عن نفسه، ولا يرغب من معارفه أن يتحدثوا عنه، فضلاً عن أن يسمع من أحد أي إطراء أو تبجيل، وهو ما قد يُفسّر خلوّ الصحافة ـ عبر عمره الإداري ـ من أي مادة تصبّ في هذا السياق.

بدت مسودّات الفصول المبكّرة من المذكّرات المنتظرة؛ صفحاتٍ معبّرةً عن شخصيّته؛ خِلْواً من ضمير المتكلّم، ومن نسبة الإنجازات إلى «الأنا» ولتصبح بحدّ ذاتها نموذجاً جديداً في الكتابة، المتّسمة بنكران الذات والبُعد عن مركزية الفرديّة والاستعراضيّة والنزعة الغروريّة، والتركيز في المقابل على التخصص والموضوع، كما ظهرت تحمل شحنات من الفكر الاقتصادي المتخصص، الممتزج مع ذهنية متلازمة من تطوير الإدارة، وكأنك تقرأ لأحد كبار المؤلّفين فيه، أما عندما يتحدّث وهو ممن يعتقد أنه يعبّر عبر الكتابة بأفضل مما يتحدث فإنه لا يحب الإطناب، ولا الفذلكة في التعبير، لكنه يختار عباراته بكل عناية، ويُفكّر بأكثر مما يُقدم على الجواب، ويبني آراءه على فكر منطقي مُسبّب، ثم يقدّم لك الجواب غير متعجّل ولكن بفكر متسلسل، مشبع الشرح دون إسهاب، مستفيداً بالطبع من حصيلة متراكمة من التجارب والخبرات، التي أحسب أنه لو حاضر بها في علم الإدارة والاقتصاد لظننت أنك تقف أمام أحد أساتذة الإدارة العامة والاقتصاد وأكاديمييهما.

ومع ما في هذه المقدمة من إطالة، فإنها قد تُنبئ عن قدرٍ من سمات

الرجل وصفاته، وعن بعض من مفاتيح شخصيّته، ولقد كان من الطبيعي أن يواجه جهات عدة بعض الإحراج في إقناعه بقبول التكريم، من رجل ظل دوماً في ظلال الصمت، بمنأى عن بهرجة التمجيد وبمعزلٍ عن أضوائه.

كانت فكرة كتابي هذا: «أعلام بلا إعلام» تَتّكئ على ركيزة أساسيّة من اختيار رموز من المجتمع، أسهموا في بنائه ونهضته في وجهٍ من وجوه التنمية الإدارية والسياسية، وكانوا في الوقت نفسه عازفين عن الاستعراض والآضواء، وهي معايير تنطبق تمام الانطباق على السيرة التي بين أيدينا، سيرة شخصية احتلّت ـ منذ منتصف عهد الملك سعود مروراً بعهدي الملك فيصل والملك خالد وانتهاءً بالنصف الأول من عهد الملك فهد ـ مكانة إدارية نافذة ومؤثّرة، وكانت تجتمع في يدها معظم خيوط القرارات المالية والإدارية لكل الأجهزة الحكومية والشركات ذات الارتباط بالحكومة، فحيثما تولّي وجهك في أي اتّجاه تنفيذي أو تخطيطي أو رقابي أو تنموي، فإن كل الطرق تؤدّي إلى مكتبه أو تمرّ عبر الأجهزة التابعة له، ومن هنا كان الوزراء والمسؤولون التنفيذيون على اختلاف مستوياتهم يخطبون ودّ الوزارة ويراعون رضاها، ويسعدون بصدور شهادة حسن إدارة للمال العام من تلك الوزارة الممسكة بزمام الحسابات وصمّاماتها.

لقد أمضى صاحب هذه السيرة أول حياته الإدارية قريباً من الأمير مساعد بن عبدالرحمن وزير المالية والاقتصاد الوطني، ويشترك معه في العديد من سمات الشخصية، ثم أمضى النصف الثاني من عمره الإداري

ليكون أحد صنّاع القرار، قريباً من الملكين اللذين عاصرهما عن قرب (خالد ثم فهد) وكان يتكامل في تصرفاته مع أركان الإدارة العليا في الحكومة وفي الديوان الملكي المعروفين في تلك السنوات، من أمثال سعود الفيصل ومحمد النويصر وإبراهيم العنقري وغيرهم، ممن يلوذ بالصمت والقفل على الأسرار.

كان من الطبيعي لبعض من يتسنّم منصباً إداريّاً تنفيذيّاً أن تحكم رؤيتُه مواقفَه، وأن تُسيِّر توجّهاتُه خطواتِه وتصرّفاتِه، لكن المنصفين يؤكّدون أن شخصية هذا المقال كان موضوعيّ النظرة إلى حدّ بعيد، وأنه وطني التوجُّه، وعلى درجة عالية من التجرّد والاعتدال، وأنه متى ما تلقّى إجابة مقنعة على تساؤلاته، فإن الاعتماد المالي للمشروع المرتقب يأخذ طريقه بيسر وسهولة في الميزانية القادمة للجهة الحكومية المعنيّة.

كثيرون كانوا يَرَوْن في شخصيّته صورة مقاربة للأمير مساعد، الذي كان اصطفاه وكيلاً للوزارة فنائباً له، ثم اختاره الملك فيصل وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء، قبل أن يحلّ محل الأمير مساعد في المنصب بعد نحو ثلاثة أعوام، وكانوا يجدون في أسلوبه كثيراً من المنطق بأن وجود كفاية إدارية بمثل هذا الضبط والحزم هو الضرورة بعينها في هذا المنصب كثير المساس بمصالح الناس وهموم التنمية، الذي لا يمكن أن يرضى عنه كل المسؤولين، وقد يختلفون معه في بعض الأمور كل الاختلاف.

انتقل محمد أباالخيل عام ١٣٨١هـ (١٩٦١م) من عمله الأقدم في وزارة

المواصلات مع وزيرها الأسبق الأمير سلطان بن عبدالعزيز ومن قبله عبدالله السعد القبلان، ليصبح أول مدير عام لمعهد الإدارة العامة، أحد ثمار برنامج الإصلاح الإداري، الذي استعانت الدولة لتحقيقه بمؤسسة فورد (*The Ford Foundation*) وكان المعهد يرتبط من خلال مجلس إدارته بوزير المالية والاقتصاد الوطني (الأمير مساعد) كما كان أول مؤسسة عامة (*Public Corporation*) تُستحدث في البلاد في ضوء التوجّهات الجديدة للإصلاح الإداري.

في المعهد، وجد الأفق الرحب لتفجير فكره الإداري ولممارسة طاقاته في التطوير، واكتشف فيه مناخاً لإبراز مواهبه، ومن خلال إطلالته عَلى أداء الوزارات تفتّحت عيناه على ضعف الجهاز الحكومي، وتفتّق ذهنه على سبل تنظيمه، ولعل ذلك هو ما لفت نظر الأمير مساعد فيما بعد، ليختاره وكيلاً للوزارة مع بقائه نائباً له في مجلس إدارة المعهد الذي عيّن فهد الدغيثر ثم د. محمد الطويل لخلافته في إدارته، وكان من الطبيعي أن يظل المعهد أثيراً لدى مديره الأول ومحظيّاً عنده، يفوز منه بوافر الدعم والوقت والاحتضان منذ أصبح مُنشؤُه الأول وزير دولة للمالية والاقتصاد الوطني، ثم وزيراً لها (١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م) كما استمر برنامج الإصلاح الإداري أحد أبرز شواغله واهتماماته، وقد استُحدث إلى جانب المعهد وبرنامج الإصلاح الإداري مركز مساند للمعلومات الاقتصادية، لا يقل في أهميته عن مكتبة المعهد المعنية بحفظ الوثائق والمعلومات الإدارية في الدولة.

وكان من أبرز برامج الوزارة التي تبنّتها الحكومة، فكرة صناديق التمويل الحكومي وصناديق التنمية التي بدأت في عهد الأمير مساعد، واستُكملت بشكل موسّع مع ازدياد موارد الدولة، وكان من بينها صندوق التنمية العقارية وصندوق التنمية السعودي (الموجّه نشاطه للخارج) وصندوق التنمية الصناعية، الذي أسهم بشكل واضح في دعم مشروعات الكهرباء بنحو خاص.

ومن الأمور التي تذكر له، في أثناء عمله في هذه الوزارة الأم، تعاونه مع محافظ مؤسسة النقد في حينه (عبدالعزيز القريشي) لتطبيق برنامج توطين (توظيف السعوديين) في البنوك المحلية عن طريق توسيع قاعدة ملكية رأس المال الوطني، حيث نجحا في إعادة تأهيل النظام المصرفي السعودي ورفع كفايته، وحفظا له المكانة المتميّزة التي رأيناها فيما بعد، والإبقاء على التمايش الإيجابي بين الإدارة الأجنبية وخبراتها من جهة، والأغلبية الوطنية في مجالس الإدارة من جهة أخرى.

وفي فترته أيضاً، عرفت لجانُ التعاون الاقتصادي المشتركة مع الدول أزهى فتراتها، وبخاصة تلك التي عقدت مع ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية، حيث برزت نتائج أعمالها وانتظمت مواعيد اجتماعاتها، وظهرت تأثيرات تكوينها.

أمور كثيرة يصعب حصرها، يمكن أن تُقال عن تلك الفترة، وبخاصة المجالس الاستشارية ومجالس الإدارة التي تولّاها، وعلاقته بكل من مؤسسة

النقد وهيئة سوق المال، والصلة المتينة مع صندوق النقد الدولي، أو تلك الأعمال واللجان والندوات والمؤتمرات التي شارك فيها بصفته الرسمية كأي وزير أو مسؤول، لكن الأَولَى منها بالإشادة قدرته مدعوماً بثقة وليّ الأمر، على تجاوز فترتين متناقضتين؛ فترة السبعينات والثمانينات الميلادية التي زادت فيها مداخيل الدولة عن قدرات الجهاز الحكومي عن استيعابها مع أن البُنية الأساسية للبلاد كانت ضعيفة وبحاجة إليها، وفترة التسعينات التي أعقبت أزمة الخليج وضمرت فيها الموارد، فكان أن تحمّل أعباءها ومضايقاتها، وتكيّف مع ظروفها.

لكن السؤال المهم في سياق هذا الحديث، هو أنه، وقد استمرّ وزيراً في الفترة بين عامي ١٣٩٥ و١٤١٤هـ (١٩٧٥ و١٩٩٤م)، لم يستغل نفوذه وسلطته للظهور الإعلامي، بل إنه لم يكن يُعِير هذا الجانب أي اهتمام، فكان يتعامل مع وسائل الإعلام بالحد الأدنى الذي يخدم عمله، ودون مبالغة، فهو إلى النقصان في هذا الجانب أقرب من الزيادة.

لم يكن يقف موقفاً معادياً لوسائل الإعلام ورجالها، بل كان في غاية التوادّ معهم، لكنهم عرفوا طبيعته، وأنه لم يكن يستهويه الظهور الإعلامي غير الضروري، أو أن يُلاك اسمه في الآلة الإعلامية فعملوا على مجاراته ومداراته، وأحسب أن هذا الطبع كان مقياس كل من تولّى مسؤولية ذات حساسية ماليّة أو سياسية أو أمنيّة، وقد استمر أسلوبه هذا بعد الوظيفة بعيداً عن الإعلام والأضواء، نادر المقابلات والأخبار المنشورة، وظل

يحترم وسائل الإعلام التي قد يرضيها بين حين وآخر بمقال متخصّص، دون أن ينتظر منها أن تخصّه بموقع متميّز في الصحيفة، وهو هكذا عندما أصدر بعد ترك الوظيفة توثيقاً لمسيرته الوظيفية، فجمعها وصنّفها كما ظهرت في الصحف، دون أن يضيف إليها شيئاً من المُحسّنات أو يتدخّل في تحريرها، أو حين أصدر منذ أعوام مجلة اقتصادية متخصصة، فإنه لم يستثمرها للبروز، أو لتلميع شخصيّته، أو للتذكير بمآثره الوظيفية، أو لاستعراض آرائه واقتناعاته ووجهات نظره، بل جعلها ميداناً رحباً لأرباب المهنة، يعرضون فيه دراساتهم وأبحاثهم كما تمليها عليهم الموضوعية العلمية، ويستطيع القارئ من خلال هذه النظرة أن يكوّن صورة متكاملة لبقية زوايا شخصيّته وأبعادها، فهو الإنسان الجاد الرزين عفّ اللسان، واسع الأفق وعميقه، المنظّم في برامجه، الدقيق في مواعيده، يزن كلماته بكل حذّر، لا وقت لديه فيما يراه مضيعةً أو هدراً للزمن، أو الابتذال في المزاح أوالإسفاف في القول، فشخصيّته بهذا التكوين وهو الذي أشغلت الوزارة كل دقيقة من وقته، لم يعد يستسيغ الفراغ، أو تمضيته في تسلية أو مناقشة غير مجدية، ومن الطبيعي أن يُعوّد من حوله على نهجه ومدرسته، والحذو حذوه.

ومع ذلك التكوين، يمكن أن يقال إن من سمات شخصيّته أنه اجتماعيّ بطبعه، يميل بقوّة إلى المحافظة الاجتماعية، وإلى تجنب الانتقاد العلني إذا كان له موقف واضح من أمر من الأمور، حريص على أداء الموجبات

الاجتماعيّة والخيريّة، والوصل لأقاربه، متّخذاً من مزرعته في القصيم حلقة وصل مع عشيرته، وهو في كل ذلك يلتزم بالمواعيد، ويلبّي الدعوات، ويستجيب للمناسبات، ويشارك بكل التزام في الأفراح والأتراح، ويرد على الاتصالات بنفسه غير مستسيغ لدور الوسطاء في المكالمات الصادرة منه أو الواردة إليه، ثم إنه وفيٌّ لأصدقائه ومعارفه منذ أيام الطفولة والدراسة، وهو يعرف الناس ويُنزلهم منازلهم، ويبادلهم المشاعر والهدايا والتحيّات، ويحرص على بقاء باب منزله مفتوحاً لأسرته وللزوار من كل شرائح المجتمع في مواعيد واضحة مرتين في الأسبوع، وفي الأعياد وشهر رمضان المبارك، موظّفاً مثل هذه اللقاءات للمفيد من المناقشات، والهادف من القول والمطارحات الفكرية.

محمد أباالخيل من مواليد سنة ١٩٣٢م، تخرّج في جامعة القاهرة سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) ثم بدأ مسيرته الوظيفية في وزارة المواصلات في عهد وزيرها الأمير سلطان بن عبدالعزيز، ثم انتقل إلى وزارة المالية والاقتصاد الوطني ليصبح كما سلف أول مدير عام لمعهد الإدارة العامة عام ١٣٨٢هـ (١٩٦١م) ثم وكيلاً للوزارة سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) ثم نائباً للوزير عام ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) ثم وزير دولة للشؤون المالية والاقتصاد الوطني عضواً في مجلس الوزراء سنة ١٣٩٢هـ (١٩٧٣م) ثم صار وزيراً للمالية والاقتصاد الوطني في التشكيل الحكومي الذي أعقب تولّي الملك خالد الحكم سنة ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) وله من الأبناء علي وخالد، ومن البنات ريم ورند.

وبعد؛ في العقود التي أمضاها في الخدمة العامة، وفي إدارة دفّة الاقتصاد السعودي، حاضناً لمشروع الإصلاح الإداري، تكوّن لدى شخصيّة هذا المقال حصيلة عميقة لا يستهان بها من الخبرة المتراكمة في لغة الميزانيّات العامة للدولة بإيراداتها ومصروفاتها، والتخطيط والإحصاء، والتعامل مع الأرقام بأصفارها وملياراتها، وصارت له في كل ذلك مدرسة ونهج آن الأوان للمطالبة بتحليلهما ونقدهما والإفادة من معطياتهما، ولعلها تكون البداية لتعميم التقييم على كل الشخصيات التي وضعت بصمتها على الأعمال التي تقلّدتها، وأثّرت مناصبها في الإدارة الحكومية منذ بداية تنظيمها قبل تسعة عقود، وما كانت شخصيات معاصرة مثل الأمير مساعد بن عبدالرحمن ومحمد أباالخيل ومن قبلهما وزراء مثل ابن سليمان ومحمد سرور الصبان إلا من هؤلاء، وتزداد التجارب قيمةً لو قام الباحثون بتدوينها وتسجيل ملامحها بسلبيّاتها وإيجابيّاتها، ووضعها في متناول كليات الاقتصاد والعلوم الإدارية، حيث لا يُذكر أن كتاباً واحداً قد صدر في تحليل أداء الجهاز الإداري للحكومة والاستشهاد من خلاله بتجارب الوزراء والمديرين البارزين، سعياً لتحقيق الإثراء الفكري والمعرفي في التطوير والتحديث والنقد.

(٤)

رُشْدِي مِلْحِس(*)

من نابلس إلى الريـاض

(*) الشرق الأوسط، العدد ١١٨٧٠ بتاريخ ١٤٣٢/٦/٢٥هـ (٢٠١١/٥/٢٩م).


أعلام بلا إعلام

يُذكر، بإعجاب، للمملكة العربية السعودية، منذ مطلع قيامها قبل أكثر من قرن، أن مؤسسها، قد عالج إخراجها من عزلتها الفكرية والاجتماعية والجغرافية، باصطفاء نخبةٍ من المستشارين العرب في مختلف التخصصات، ليكونوا سنداً لتحديث الدولة، ورفد الضعف التعليمي في الكوادر الوطنية الذين قام عليهم تأسيس الكيان.

وإذا ما استعرضنا قائمة هؤلاء المستشارين، فلا بد أن نشير بكثير من الاهتمام للصحفي والباحث والسياسي الفلسطيني رشدي صالح مَلحَس الذي انضم شاباً إلى مجموعة المستشارين (سنة ١٩٢٦م) قادماً من نابلس، وعمره لم يتجاوز الثلاثين عاماً، وكان الملك عبدالعزيز قد فرغ للتوّ من توحيد البلاد، ويستعد لدمجها في مملكة واحدة (١٩٣٢م)، وكان ملحس قد سجل في شبابه المبكر نشاطاً سياسياً تمثل في الانضمام إلى الحركات السريّة لمقاومة الاحتلال الفرنسي وللاحتجاج على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وحقق خبرة صحفية تمثلت في إصدار جريدة (الاستقلال العربي الدمشقية ١٩١٨م) وذلك منذ تخرّجه في تخصص القانون والصحافة في اسطنبول (١٩١٤م).

بين أيدينا كتاب صدر هذا العام، واستعار المقال عنوانه، كانت

الشرق الأوسط نشرت عرضاً موسعاً عنه في عددها (١١٧٣٥) بتاريخ (٢٠١١/١/١٤م)، وهو كتاب يُعدّ في الواقع من أوفى ما نُشر عن سيرة هذه الشخصية الإعلامية والبحثية والسياسية قليلة الأضواء، وما تركه من أثر في أثناء إقامته الطويلة في السعودية حتى وفاته في جدة (١٩٥٩م)، وقد أتاح هذا الإصدار الشامل فرصة لي لإلقاء الضوء على دوره المؤثّر في تلك الفترة من مخاض تكوين الدولة السعودية الحديثة، مثنياً على جهد مؤلفه (قاسم بن خلف الرويس) في اختيار موضوعه وفي توظيف مراجعه وهوامشه وتعليقاته في (٥٠٠ صفحة).

ولعل من الممكن القول إن رشدي ملحس يأتي بين السياسيين في المرتبة الثانية بعد فيلبي من حيث غزارة البحث العلمي في أثناء إقامتهما في الجزيرة العربية، مع الظن بأن انصرافه نحو الدراسات الجغرافية والتاريخية لم يظهر إلاّ بعد وصوله إلى الديار المقدسة، فنجده يقرن بين عمله الصحفي والسياسي مع اهتمام موسوعي بحثي وتأليفي بارز، وبتحقيق بعض كتب التراث، واهتمام بالمخطوطات والإفادة من مكتبات مكة المكرمة والمدينة المنورة، مما جعله على تواصل مع العلماء والبحاثة والأدباء السعوديين، من أمثال محمد بن بليهد (صاحب كتاب صحيح الأخبار) وحمد الجاسر وعبدالقدوس الأنصاري ومحمد سعيد عبدالمقصود وغيرهم، وقد أحسن الرويس صنعاً في تخصيص جزء كبير من كتابه لتراث ملحس، والتعريف بكتبه، ونشر كل مقالاته ذات

الطابع البحثي التي ظهرت في مطبوعات عصره، وبخاصة في الجريدة الرسمية (أم القرى) التي تولّى رئاسة تحريرها بعد يوسف ياسين، وفي مجلة المنهل، التي أصدرها عبدالقدوس الأنصاري، وبلغت نحو مئة بحث في مواضيع مختلفة، حيث أراح المؤلف بتضمينها في ملحق كتابه الباحثين من عناء التنقيب في تلك الإصدارات القديمة نسبياً.

تتبع المؤلف الرويس زمنياً سيرة رشدي ملحس بدءاً بمرحلة حياته الدراسية والسياسية في اسطنبول، وبداية تعلّقه بالصحافة من خلال مجلة (المنتدى العربي) التي أسسها أحمد عزت الأعظمي في الإستانة، وهي مرحلة استغرقت أربع سنوات من شبابه المبكّر، ثم بمرحلة انتقاله إلى الشام لينخرط في العمل السياسي مع انطلاقة الثورة العربية وانتهاء الحكم العثماني (١٩١٦م)، وليبدأ في ممارسة العمل الصحفي من خلال إصدار جريدة (الاستقلال العربي) بمشاركة معروف الأرناؤوط (١٩١٨م)، وهو ما أدّى إلى الحكم عليه بالإعدام، ومن ثم الهروب إلى فلسطين، والنزوح إلى الحجاز بتشجيع من صديقيه محب الدين الخطيب ويوسف ياسين وثيقي الصلة بالملك عبدالعزيز.

وفي أثناء إقامته في السعودية مدة ثلاثين عاماً تقريباً، بدأ نشاطه بفترة قصيرة تولّى فيها الإشراف على تحرير الجريدة الرسمية «أم القرى»، خلفاً ليوسف ياسين (١٩٢٨م) ولمدة أربع أعوام، نشر خلالها جزءًا من أبحاثه العلمية، في فترة لم يكن في البلاد سوى تلك الصحيفة،

المخصصة أصلاً للإعلام السياسي.

وكما جذبه يوسف ياسين أحد المستشارين السياسيين، إلى تحرير (أم القرى) فإنه يقرّبه للعمل معه في الشعبة السياسية، التي تضم في عضويتها كل المستشارين، من محليّين وعرب وأجانب (تأسست قبل عام ١٩٣٠م تزامناً مع إنشاء وزارة الخارجية وعلى رأسها الأمير فيصل في مكة المكرمة)، فصار ملحس مساعداً لرئيس الشعبة السياسية (يوسف ياسين) ثم رئيساً لها، وفي الوقت نفسه، انضم إلى قائمة المستشارين السياسيين.

وتستمد تلك الشعبة أهميتها في كونها الذراع السياسي للملك عبدالعزيز، حيث يلتقي يومياً مع مستشاريه، ويتبادل معهم وجهات نظرهم في الأوضاع الدولية، ويقومون بتحرير ما يتم التوصل إليه، ويحفظ فيها أرشيف متكامل للمعاهدات والاتفاقيات والمخاطبات السياسية.

كما يلحق بها وحدة للرصد الإعلامي، تتتبع ما تذيعه الإذاعات وتبثه وكالات الأنباء العالمية، وقد برزت أهمية هذه الشعبة مع حقيقة اهتمام الملك بعملها ومع وجود هذه النخبة المميّزة من المستشارين، من أمثال: الأمير عبدالله بن عبدالرحمن والأمير أحمد الثنيان وخالد السديري وإبراهيم المعمر وحمزة غوث والدكتور عبدالله الدملوجي ورشيد عالي الكيلاني وفؤاد حمزه وخالد القرقني وخالد الحكيم وحافظ وهبة، وذلك بالإضافة إلى يوسف ياسين ورشدي ملحس.

أما الشق الثالث والأوسع من هذه السيرة فقد ركزت على ثقافته وأبحاثه، وهو الذي وُصف بأنه دائرة معارف متحركة: أديب وجغرافي محقق، وبأنه عالم مؤرخ، وكاتب صحفي، وباحث متتبع، وأنه شغُف بتاريخ الجزيرة العربية قديمها وحديثها وبجغرافيتها.

وكان من أهم المخطوطات التي حققها: كتاب «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» للأزرقي، وكتاب «جزيرة العرب» للأصمعي.

أما كتبه التي قام بتأليفها فهي ستة، ومنها: سيرة الأمير محمد بن عبدالكريم الخطابي وأخبار مكة للأزرقي ومعجم منازل الوحي، كما قام بإجراء بحوث عدة منها بحث عن المعادن، وآخر عن مسافات الطرق وعن تقويم الأوقات لعرض المملكة العربية السعودية. وذكر الكتاب أن رشدي ملحس كان أول من وضع تقويم أم القرى، الذي يعتمد عليه حالياً إلى درجة كبيرة في تحديد أوقات الصلاة وأهلّة الصيام والحج.

ويبدو أن لملحس مخطوطات لم تطبع بعد، وأنه كان سعى لجمع ما يظن أنه من الشعر العامي للملك عبدالعزيز.

ويستشف من معلومات الكتاب أن رشدي ملحس لم يتزوج، وأن أبناء أخيه عبدالفتاح هم الذين ورثوا مقتنيات مكتبته من كتب وأوراق ومخطوطات، وكرّمت دارة الملك عبدالعزيز (في أكتوبر ٢٠٠٣م) أسرة رشدي ملحس ممثلةً بعبدالفتاح لإهدائهم بعض المراسلات والمؤلفات

والصور للدارة.

وهكذا نرى من عرض سيرته أن اتجاهه نحو البحوث الجغرافية والتاريخية قد نافس مهامه الرسمية في رئاسة الشعبة السياسية والمشاركة في عمل المستشارين حتى قال عنه فيلبي: «**لو أن الظروف كانت طبيعية لفضّل رشدي ملحس أن يكرّس كل حياته للأدب والدراسة**».

وأخيراً جاء الكتاب في رصده لسيرة رشدي ملحس، بتسجيله للريادات التي حاز عليها، إذ عدّه من رواد تحقيق التراث في المملكة العربية السعودية، وأنه أول من حاول وضع منهج لفهرسة المخطوطات العربية، وأنه لفت الأنظار إلى موضوعات علمية لم تكن محل اهتمام الباحثين القدامى (كالمعادن والمناجم).

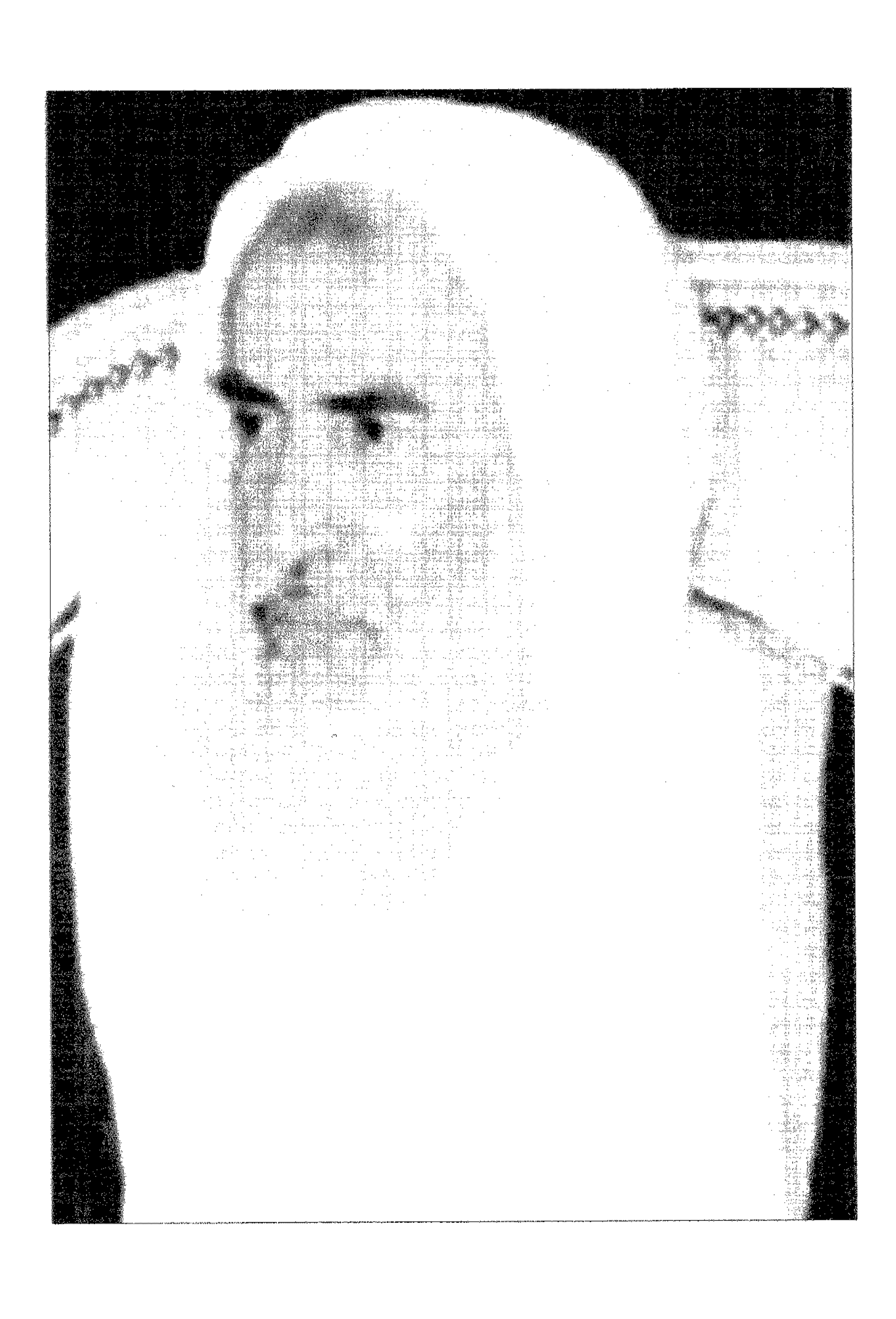
كما تسجل له ريادته في وضع معجم شامل للأماكن الجغرافية في الحجاز ونجد، ولمسافات الطرق بينها، وفي تحقيق منازل المعلّقات في الشعر العربي، وفي أمور بحثية أخرى لا يسمح المقام بالإطالة فيها.

(٥)

محمد الصالح العثيمين (*)

أستاذي وشيخي

(*) جريدة الجزيرة، العدد: (١٠٣٠٢) في ١٦/ ٩/١٤٢١هـ (١٢/١٢/٢٠٠٠م)



في ليلة من ليالي شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦هـ، رأى والدي، في المنام وكان من الملازمين لفضيلة الشيخ عبدالرحمن السعدي، أن القمر يتجه للمغيب، وأن نجماً صغيراً بدأ في الظهور بعده، وقد عُبرّت الرؤيا يومها بأنها علامة وفاة الشيخ وحلول تلميذه الشاب محمد العثيمين مكانه في إمامة المسجد الجامع وخطب الجمع والعيدين في عنيزة، والجلوس للتدريس في مكتبتها الوطنية، وقد شاء الله أن يتوفى الشيخ السعدي في الشهر نفسه (الخميس ١٣٧٦/٦/٢٣هـ) وأن يكون والدي ضمن من رثوه بقصيدة فصحى معروفة يقول في مطلعها:

الحمد لله حمداً أستعين به
ربي على طاعتي من فرط أحزاني

كنت دون الثالثة عشرة، يصحبني والدي لدروس الشيخ السعدي بين صلاتي الظهر والعصر في المكتبة التي أسسها الشيخ ملحقة بالجامع سنة ١٣٥٨هـ، وهو المسجد الذي أنشئ سنة ١٢٤٢هـ، وقيل قبل ذلك، ثم جُدد بناؤه عدة مرات، وما يزال يحتفظ بمئذنته الأثرية الشهيرة (التي أضيفت في تجديد عام ١٣٠٨هـ) إلى جانب البناء الحديث الذي سعى به الشيخ العثيمين لدى الملك خالد عند زيارته سنة ١٤٠١هـ، ونُفِّذ في عهد خادم

الحرمين الشريفين، الملك فهد (سنة ١٤٠٦هـ).

كان الشيخ محمد العثيمين في أواسط العشرين من عمره، يتناوب مع نخبة من تلامذة شيخهم في حال غيابه أو مرضه، على الإمامة والخطبة، لكنه كان يفوقهم في سعة علومه الشرعية وفي قدراته الذهنية وبلاغته الكلامية وطلاقته التعبيرية.

بدأت معرفتي بالشيخ الجديد منذ تلك الفترة، وكنت التحقت عام ١٣٧٣هـ بمعهد عنيزة العلمي الجديد (المتخصص بالعلوم الشرعية والعربية والاجتماعية)، فكنت أحد طلبة الشيخ في مادة الفقه لمدة ثلاث سنوات، وكان يدرّس فيها (على ما أظن) الكتاب المعروف: الروض المربع في شرح زاد المستقنع في اختصار المقنع، للشيخ شرف الدين الحجّاوي المتوفى سنة ٩٦٨هـ.

وتوثّقت المعرفة ببعض أواصر أُسريّة، فكنت قريب صلة به حتى فترة انتهاء المرحلة الثانوية سنة ١٣٧٩هـ والانتقال إلى الرياض، وبقيت العلاقة وثيقة حميمة، وكان يمحض النصيحة في بعض الأمور التي لها مساس بالعقيدة أثناء عملي في الإذاعة ثم التلفزيون.

والمؤكد أن فضيلته يحوز على مجاميع من الخصال العلمية والخلقية الرفيعة، وفي مقدمتها:

أنه حَبْرٌ متبحّر في العلوم الشرعية، الفقهية على وجه الخصوص.

وأنه عالم تقي ورع وزاهد، لا يجامل في الحق، ولا يسعى إلى منفعة خاصة

وهو عفّ البصر واللسان واليد، وقد بقي في بيته الطيني حتى وقت قريب، والكل يعرف عدم قبول عرض الدولة بشراء بيت حديث له، واقتراحه توجيه المبلغ نحو تحديث بناء الجامع وتوسعته، وقد فضّل حياة البساطة والتقشّف وقاوم الإغراءات والضغوط بالانتقال إلى الرياض.

وأنه يستمع للرأي الآخر، وينصت إلى حجته، ولا يتردد في العودة عن رأيه أو التراجع عن فتواه، متى ما تبين له وجه ذلك في القضية.

والشيخ مدرسة جامعة متحركة، يُذكّر أسلوب حياته ومشيُه بين المنازل والجامع بعلماء السلف الصالح، الذين يقضون يومهم في النفع العام بعلمهم وفتاويهم، حيث يكون سيره على الأقدام يومياً للصلوات الخمس فرصة لكل من يريد مشورة في رأي أو استفساراً شرعياً أو فائدة علمية، أو فتوى في مشكلة، وإن كان الشيخ يتحاشى القضاء بين المتخاصمين، وذلك لما يتطلبه الفصل بينهم من شروط في ظرف المكان والزمان والأسلوب.

والشيخ من فئة ترى أن الواجب يقضي عليها المبادرة إلى إبداء النصح خفية أو جهراً حسب مقتضى الحال، دون انتظار أن يطلب، بينما نجد أن هناك فئة أخرى تفضّل أن تحتفظ بالرأي نحو تصرفات الغير حتى يأتي من يستفتي فيه أو يطلبه، فهو قد يقطع خطبة الجمعة ليبدي ملاحظة على تصرف مخالف للسنة، وقد يعلّق بعد الصلاة للتنبيه من محذور معيّن، رجاء أن تعم الفائدة على الجميع.

وفي الوقت نفسه، يلتزم الشيخ بالمبدأ الشرعي الذي ينادي بعدم شق

عصا الطاعة على الإمام، وله مواقف مشهودة في هذا الالتزام، ولعله بالإضافة إلى ذلك يرى أن ما يصدره ولي الأمر من تعليمات يدخل في حكم المصالح المرسلة التي لها صفة الوجوب والإلزام.

فمما يروى عنه أنه لم يوافق شرطيَّ المرور على إعفاء سائقه من مخالفة قطع إشارة خاصة عندما علم أن الإعفاء حصل لما عُرف أنه سائق الشيخ.

والمعروف عن الشيخ أنه ينتهز فرصة تلك الزيارات التي يخصّها به ولاة الأمر عند مجيئهم إلى المنطقة لمناقشة ما يراه في مصلحة البلاد والعباد معهم، ونقل ما يشعر به المواطن حول أداء المصالح الحكومية.

ومن المتواتر أيضاً عن الشيخ أنه حصل على درجاته العلمية بدءاً من الليسانس وحتى الأستاذية وفق الأساليب المرعية دون تجاوز أو محاباة أو تقليص في المدة أو شفاعة، وكذلك الشأن بالنسبة للترقيات الإدارية، كما أن جميع مطبوعاته ومؤلفاته ورسائله مجانية، وينوّه فيها بالدعاء لكل من يقوم بإعادة طبعها دون حاجة لإذن (بمعنى أن حقوق الطبع ليست عنده محفوظة للمؤلف).

وتعامل الشيخ بمرونة مع تقنيات الاتصال الحديثة، ووظّفها في خدمة هدف الدعوة والتوجيه والإرشاد، وكان يقوم بنفسه بتشغيل مكبّر الصوت في المسجد وفي نادي المعهد، واتخذ مؤخراً لفتاويه ونتاجه العلمي موقعاً خاصاً على الإنترنت.

والشيخ العثيمين يتودّد للشاب بمثل تعامله مع الكبير، ينظر في مشكلاته ويتبسط في الحديث معه ومناقشته في شؤونه، وهو يحيط نفسه بصغار طلبة العلم سناً، ويحرص على رعايتهم، ويرى فيهم أمل الأمة ومستقبلها، وقد تجلى أثر ذلك في (طوابير) الزائرين له في المستشفى قبل سفره إلى مكة المكرمة في هذا الشهر الكريم، ونعرف أنه كان قد خطط في إحدى السنوات للقيام برحلة إرشادية للطلاب في أمريكا لولا ظرف طارئ حال دون ذلك.

فأكرم الله الشيخ العثيمين بالبر بوالديه وبأسرته وأقاربه، يواصلهم ويتفقد أحوالهم، ويهاتف البعيد منهم مرة في الأسبوع في الأقل (صباح الجمعة غالباً).

والمعروف أن أسرة العثيمين من الوهبة من تميم، محدودة العدد، انتقل معظمها من شقراء إلى عنيزة، وكان والد الشيخ وعمّاه يزاولون تجارة التجزئة.

وقد ولد الشيخ في عنيزة في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٤٧هـ، وقرأ القرآن الكريم على جده لأمه الشيخ عبدالرحمن السليمان الدامغ، وعلى (المطوّع) علي الشحيتان، ثم درس فترة قصيرة على المشايخ: محمد المطوع وعبدالرحمن العودان ثم على الشيخ عبدالرحمن السعدي فترة أطول، وفي سنة ١٣٧٢هـ، التحق بمعهد الرياض العلمي، ثم انتسب إلى كلية الشريعة، وتتلمذ على سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، وله عشرات من المؤلفات في الفقه والتوحيد والتفسير والنحو، ومجموعة كبيرة من الفتاوى،

وآراء خاصة متميزة في قضايا الأحوال الشخصية (الزواج والطلاق بخاصة).

الشيخ محمد عضو في هيئة كبار العلماء، وقد حافظ على التزامه بالتدريس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم إلى جانب قيامه بالتدريس في المسجد الجامع بعنيزة والإمامة فيه كما سلف.

اقترن بزوجة واحدة من أسرة التركي المعروفة في عنيزة وله خمسة أبناء وثلاث بنات، أجزل الله له الأجر والثواب وأبلغه الله خير الدنيا والآخرة، وأحسن إليه نظير ما قدمه لأمته[١].

(١) توفي في جدة يوم الأربعاء ١٥/١٠/١٤٢١هـ (١١/١/٢٠٠١م).

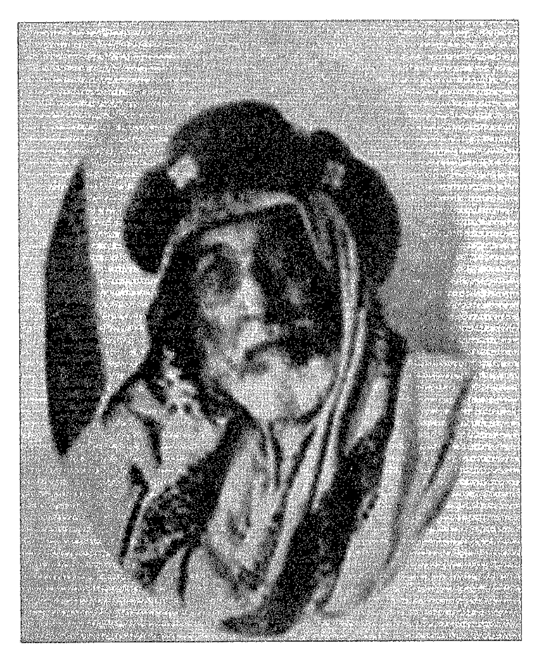
(٦)

مُقبلان من آل الذكير (*)

مُقبل بن عبد الرحمن الذكير
مُقبل بن عبد العزيز الذكير

بين التجارة والتاريخ

(*) الشرق الأوسط: العدد ١٢٠٤٥ في ٢٣/١٢/١٤٣٢هـ (٢٠/١١/٢٠١١م).



مقبل بن عبدالرحمن الذكير



مقبل بن عبدالعزيز الذكير

وأعني بهما مُقبل عبدالرحمن الذُكير وابن عمّه مُقبل عبدالعزيز الذكير، وهما ينحدران من أسرة معروفة في عنيزة بالقصيم (شمال وسط إقليم نجد في المملكة العربية السعودية).

يتردد ذكرهما في كتب تراث منطقة الخليج، وفي نقولات التاريخ المعاصر، لكنهما لم ينالا ما يستحقانه من العناية بسيرتهما، مع أن الثاني، يُعدّ من مؤرخي القرن الماضي، فيما يتصل بأحوال الجزيرة العربية، وقد دوّن الحوادث بطريقة الرصد التقليدي المطوّر، في مخطوط لم يستكمل مقوّمات النشر والتحقيق بعدُ.

لا يندرج هذا المقال في زاوية كتابة التاريخ، بقدر ما يأتي إعلامياً ضمن اهتمامي بالتراجم لمن لم يحضوا بتعريف الإعلام بهم، وكانت سيَرهم بعيدة عن دوائر الأضواء في عصرنا، وأحسب أن هاتين الشخصيّتين ممن تصدق عليهما هذه المقولة، ولعلّ في تقديم سيرتهما معاً في هذه المقالة، ما يساعد في إلقاء مزيد من الضوء عليهما، وفي إيضاح الفرق بينهما، وإزالة لبسٍ بين اسميهما طالما وقع فيه المؤلفون.

قد يكون من المناسب قبل الدخول في الموضوع الإشارة إلى أن أسرة الذكير، التي نزحت قديماً من الزلفي إلى عنيزة، هي أسرة كريمة

متوسطة العدد، صار لها نشاط تجاري وثقافي واسعان وبخاصة في بلدان الخليج، حيث استقر فرع (المُقبلين) في البحرين، بينما استقر فرع آخر في البصرة وبغداد، ومنهم الإخوة الثلاثة محمد وعبدالرحمن وأحمد الصالح الذكير، والأَخَوَان سليمان وحمد المحمد الذكير وغيرهم، وظلّت رموز الأسرة كلها على تواصل وثيق مع مدينتهم ومع بقية أهلهم المستقرين في عنيزة، ثم عادوا اليوم جميعاً إلى موطنهم الأصلي، وانتشروا في الرياض وعنيزة وجدة والمنطقة الشرقية.

ولعل أبرز محور للتفريق بين الاسمين هو أن مقبل بن عبدالرحمن هو خال الثاني، وأنه انصرف لتجارة اللؤلؤ بخاصة، وصار وكيلاً لماركة كارتييه الفرنسية الشهيرة، وقد نشرت له مؤخّراً صحيفة الوسط البحرينية صورة التقطت قبل مئة عام (١٩١١م) تجمعه مع تاجر اللؤلؤ مصمّم المجوهرات الفرنسي جاك كارتييه.

لم يكن له اهتمام بالتاريخ أو التوثيق، غير أن الدكتور أحمد الضبيب ذكر في مقال له في العدد الأول من مجلة الدارة، أنه قام بطبع العديد من الكتب الشرعية في مصر وتوزيعها في بلدان الخليج على نفقته، وقد تكرر ذكر ذلك في مصادر أخرى.

أفاض عنه خالد البسام المقيم في البحرين (والمتوفى في ١٠/١١/٢٠١٥م)، والمهتم بتوثيق أمور منها صلات النجديين الثقافية ونشاطهم التجاري في الخليج، وأصدر في هذا الشأن كتباً عدّة، منها كتاباه: خليج

الحكايات ورجال في جزائر اللؤلؤ، حيث ذكر هو وغيره أن مقبل الذكير كان يسمّى (فخر التجّار)، وأنه أسهم في مناهضة جهود التنصير، التي كانت تقوم بها البعثات (الإرساليّات) المسيحية الإنجليزية في البحرين مطلع القرن الماضي، فأسس النادي الأدبي الإسلامي في المنامة بالتعاون مع يوسف كانو، واستأجر مقراً له في ميدان مقابل للإرسالية الإنجليزية، انبثق عنه مدرسة إسلامية، شارك في إدارتها الشيخ محمد ابن عبدالعزيز المانع الذي تولّى مديرية المعارف العامة في السعودية، وكان من أبرز ما ذُكر عنه في مجال الثقافة، مبادرته لإنشاء أول مكتبة عامة بنجد في مسقط رأسه (عنيزة)، جلب لها الكتب في الثلث الأول من القرن الميلادي الماضي، غير أن اعتراضاً على محتوى بعضها، أدّى إلى نقلها إلى الرياض.

كما ذُكر أنه كان بتكليف من الشيخ إبراهيم آل خليفة منذ عام ١٨٩٠م يجلب المجلات المصرية (كالمقتطف والمنار والمقطّم والهلال)، لتوزيعها في البحرين والاستفادة منها فيما بعد في النادي الإسلامي.

وقد أوردت مدوّنة بشّار الحادي المهتمّة بنشر تراث الخليج، أن مُقبل الذكير كان أول أو ثاني من امتلك سيارة في البحرين والخليج منذ عام ١٩١٠م، و نشرت المدوّنة مجموعة من الرسائل المتبادلة بين الذكير و ثلة من تجار البحرين وأعيان الخليج، من أمثال الشيخين المانع والمحمود في قطر، والشيخ أبي بكر الملّا في الأحساء، والمؤرخ محمود شكري الألوسي

في العراق، والشيخ محمد رشيد رضا في مصر.

وكان الباحث صالح بن محمد الذكير (المتوفّى عام ٢٠٠١م)، والذي اتّخذ من مدينة الخبر مقرّاً لإقامته، وكتب في جريدة «اليوم» حلقات توثيقية، مع اهتمام خاص بالتوثيق الضوئي (السينمائي والفوتوغرافي)، كان نشر بحثاً من جزأين في المجلة العربية في سنة وفاته (فبراير ومارس ٢٠٠١م) فصّل فيهما سيرة مقبل العبدالرحمن، موضّحاً المراجع التي استند عليها في المقالين، وهما بعنوان: مقبل الذكير؛ الداعية وتاجر اللؤلؤ.

تعرّضت تجارته للخسارة في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وربما كان لنشاطه في مناهضة التنصير علاقة بهذا، فانتقل مُسنّاً إلى عنيزة حتى وفاته سنة (١٩٢٣م) عن ثمانين عاماً، ويوجد في البحرين مسجد معروف باسمه (مجبل كما ينطق باللهجة الخليجية)، وقد اشتهر بالبذل والسخاء، و بأنه كان يساعد ماليّاً ثوار ليبيا ضد الاحتلال الإيطالي، وقد ورد ذكره في وثائق عدّة ضمن أخبار متفرّقة، كتلك التي تذكره مع مجموعة من التجّار تقدمت إلى السلطات البحرينية لإنشاء أول بنك في البحرين.

أما الثاني، فإنه مُقبل العبدالعزيز الذكير (المتوفّى عام ١٩٤١م عن ثلاثة وستين عاماً)، وهو الأشهر من خاله في ميدان التاريخ، وتذكر بعض المصادر أن والده ربما كان ممن شارك في معركة المليدا بالقصيم (١٨٩١م).

له مخطوط نشر بشكل محدود، ولم يحقق بأكمله بعد، وهو بعنوان: مطالع السعود في تاريخ نجد وآل سعود، قال الشيخ عبدالله عبدالرحمن البسام الذي وضع هذا المخطوط ضمن موسوعته (خزانة التواريخ النجدية، الجزء السابع ١٩٩٩م) إن مسوّدة المخطوط كانت محفوظة في مكتبة الحرم المكي الشريف، وإن مؤلفها قد قام قديماً بتبييضها في نسختين، اختفت الأولى في المملكة، أما الثانية فقد حملها محمد الحمد القاضي إلى العراق بهدف طبعها لكنها صودرت على الحدود، وقد أثنى البسام على أسلوبه وعلى موضوعيّته في تحليل الأحداث، كما نقل البسام عن الشيخ محمد العبودي أن للذكير مخطوطة لمعجم عن بلدان نجد موجودة في جامعة بغداد، وكان الشيخ البسّام المتوفّى عام ٢٠٠٣م، قد ترجم للذكير مفصّلاً في موسوعته: علماء نجد خلال ثمانية قرون.

قال عنه خير الدين الزركلي في موسوعة (الأعلام): «**إنه سافر من عنيزة إلى الكويت سنة ١٩١٤م ودرس فيها، وإنه عمل في التجارة في البحرين إلى جوار خاله مُقبل العبدالرحمن، وصار يتنقّل بين العراق والهند والبحرين، وإنه في أواخر العشرينات، اختير مديراً لمالية الأحساء خلفاً لمحمد أفندي، وسلفاً لمحمد الطويل، وإن تاريخ نجد الذي كتبه مخطوط من ثلاثة أجزاء محفوظة في مكتبة جامعة بغداد**».

وقد أوردت مراجع عدة أشكال التجارة التي كان يمارسها، ومن بينها على سبيل المثال، المشاركة في تأسيس شركة بحرينية للسيارات

والمركبات البحرية ١٩٢٣م، على أن بعض النقولات تخلط أحياناً بينه وبين خاله مقبل، الأوسع منه من حيث النشاط التجاري.

وذكر العلّامة حمد الجاسر في كتاباته التي نشرها في مجلته (العرب) وفي جريدة (الرياض)، أن الذكير لا يكتفي في تاريخه بالنقل ممن سبقه، ولكنه قد ينقد معلوماتهم، وبخاصة ابن بشر وابن غنّام، وأن كتابه من أوفى الكتب في مجالها، إلا أنه لا يخلو من الأخطاء المطبعية بالذات رغم جودة خطه، وقد عدّه الشيخ الجاسر ضمن مؤرخي نجد في القرن الماضي، وكتب نبذة عن سيرته (انظر كتاب مؤرخو نجد من أهلها ٢٠١٤م).

ونشر الدكتور محمد الشويعر بحثاً مستفيضاً من جزأين عن سيرته (مجلة الدارة ١٩٧٨م)، بدأه بالحديث عن مكانة الذكير بين تجار البحرين، وعن الملاءة المالية والأمانة التي اشتهر بها الاسم التجاري حتى صار يضرب بها المثل، ثم اتجه للحديث عن تاريخ مقبل العبدالعزيز، محلّلاً ما كتبته المراجع المحلية عنه، ومسبّباً تعدد التسميات المبدئية التي اختارها مُقبل لتاريخه، حيث كان تاريخ الذكير هذا كما يعرّف أحياناً، قد ورد، قبل اعتماد عنوانه الأخير، تحت عناوين مؤقتة مختلفة منها: العقود الدريّة في تاريخ البلاد النجدية (السوابق)، و العقد الممتاز لأخبار نجد وتهامة والحجاز، ثم امتدح د. الشويعر أسلوب الكتاب وتنوّع مصادره، وسعة أفق المؤلف ومعارفه، وأن حوادث الكتاب المكوّن من نحو ستمئة صفحة في ثلاثة أجزاء، تنتهي عند الثلاثينات من القرن الميلادي الماضي.

إلا أنني لم أجد فيما كتب عنه، ما يؤكّد معلومة تفترض أن نسخة بغداد هي المنقّحة التي صودرت، وأنها تختلف أو تتفق مع تلك التي أدرجها الشيخ البسّام ضمن موسوعته: خزانة التواريخ النجدية، المكوّنة من قرابة ثلاثين تاريخاً طبعها في نحو عشرة مجلّدات، محفوظة لدى دارة الملك عبدالعزيز بالرياض.

لقد عاصر المُقبلان التحوّلات السياسيّة في الخليج والجزيرة العربية مطلع القرن الماضي وحتى نهاية ثلثه الأول، وبالعودة إلى خزانة الوثائق الوطنية الرسمية في دارة الملك عبدالعزيز، ظهرت وثائق عدة تشير إلى دور سياسي كان يقوم به مقبل العبدالرحمن في حدود عام ١٩١٤م، فكان معتمداً مبكراً للملك عبدالعزيز في البحرين، وهمزة وصل مع الأتراك بعد ضمّ الأحساء إلى الحكم السعودي، وقد تزوّج الملك من ابنة أخيه (لولوة اليحي العبدالرحمن الذكير) في عنيزة، هذا بالإضافة إلى ما ورد ذكره في الوثائق البريطانية بهذا الخصوص.

أما بالنسبة لمُقبل العبدالعزيز، فتوجد وثائق متنوّعة في الدارة، تدل على مراسلات مستمرّة بعضها مع الملك نفسه، والآخر مع محمد بن شلهوب (الشهير بشلهوب) مسؤول التموين والخزينة، الحائز على ثقة الملك (توفي عام ١٩٦٩م)، تدور حول أمور تموينية وماليّة، إبّان قيام الذكير بإدارة مالية الأحساء في عامي ١٩٢٩ و١٩٣٠م.

في حين تشير المعلومات التاريخية إلى أن سليمان وحمد الذكير في

البصرة، السابق ذكرهما، كانا أيضاً على صلة بالملك عبدالعزيز، من خلال تلبية أوامره بتزويد البلاد باحتياجات تموينية، في مرحلة تأسيس المملكة العربية السعوديّة.

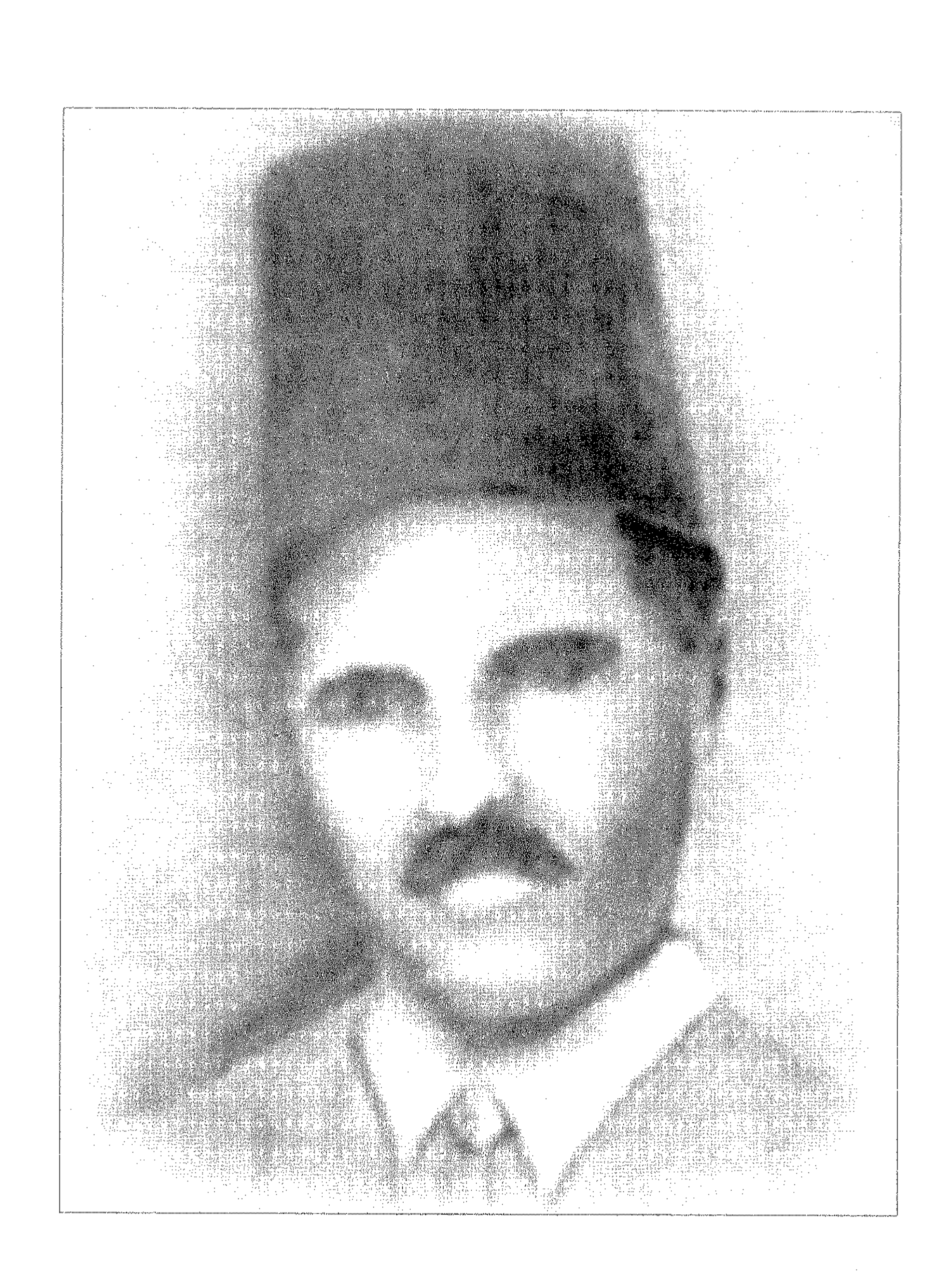
وأخيراً، إن كاتب هذا المقال مدين بالفضل لكل من أسهم في استكمال معلوماته، ومنهم د. ناصر الجهيمي الأمين العام المساعد للدارة، وصالح ابن أحمد الذكير، الذي أمدّ الباحث قبل عام بمخطوط تاريخ الذكير، وبالمعلومات الأسرية.

(٧)

هاشم الرفاعي (*)

من أقدم كَتَبة الملك عبدالعزيز وزملائه في كُتَّاب الكويت

(*) الشرق الأوسط، العدد (١٢٣٥٣) الأحد ٧ ذو القعدة ١٤٣٣هـ (٢٣ سبتمبر ٢٠١٢م)، ثم طُوِّر مقدمةً لكتابه: من ذكرياتي الصادر عن دار جداول (٢٠١٤م).



يأتي نشر هذا المقال بمناسبة قرب الاحتفاء بالذكرى الثمانين الميلادية (الثانية والثمانين بالتقويم الهجري) لإعلان توحيد المملكة العربية السعودية، ليستعيد المقال اسم أديب كويتي من أصل عراقي كان من زملاء الأمير عبدالعزيز آل سعود في أحد كتاتيب الكويت، ثم أصبح واحداً من أقدم الكتبة في الديوان السلطاني، وذلك قبل أن يصبح عبدالعزيز آل سعود عام ١٩٢٤م ملك الحجاز ونجد بسنوات قليلة.

وكان اسمُ هاشم الرفاعي قد طرق مسمعي لأول مرّة، عندما نشر المؤرخ عبدالرحمن الرويشد مقالاً عن سيرته في جريدة الشرق الأوسط (العدد ٩٤٣١ في ٢٣ سبتمبر عام ٢٠٠٤م)، مُشيراً فيه إلى كتاب قديم نافد الطبعة للرفاعي بعنوان: من ذكرياتي، ظهر في بغداد عام ١٩٣٩م، وقد لفت الأستاذ الرويشد نظري إلى ما تضمّنه الكتاب تحت عنوان: (القضاء النجدي العادل) حول قصّة حدثت عام ١٩٢٢م، وكلّف السلطان عبدالعزيز كاتبه هاشم الرفاعي إبّان عمله في الديوان السلطاني بالتوسّط للصلح بين طرفيها.

وكان الباحث الكويتي يعقوب يوسف الإبراهيم نشر في جريدة القبس الكويتية مقالاً مستفيضاً من جزأين (العدد ١٠٩٥٤ بتاريخ الأربعاء ١٠

ديسمبر ٢٠٠٣م والعدد اللاحق له في اليوم التالي)، فيه من التفصيل عن سيرة الرفاعي ما يُلبّي الحاجة الأساسية للباحث، ويمدّه بمنافذ مفيدة للتقصّي والاستزادة، حتى جعل كتابه المغمور ينبعث من جديد ويشتهر ويستهوي الكتّاب والمؤلّفين.

كان الرفاعي المولود في الكويت عام ١٨٨٥م لبّى دعوةً من السلطان عبدالعزيز لمقابلته في القطيف والالتحاق به كاتباً في ديوانه، حيث بدأت المعرفة بينهما في الأساس من الكويت بين والديهما؛ الإمام عبدالرحمن (والد الملك عبدالعزيز) وأحمد الرفاعي، وكان هاشم يتذكّر زيارته رفقة والده أحمد لديوانية الإمام عبدالرحمن في الكويت، وقد درس الشاب هاشم مع الأمير اليافع عبدالعزيز في كتّاب واحد، ثم واصل دراسته في بغداد، وعاد إلى الكويت ليسعى لتطوير نفسه، وظهر عنده نبوغ ثقافي وسياسي مبكّر، وبعد نحو عقدين، استقطبه عبدالله حمد النفيسي وكيل السلطان في الكويت للعمل ضمن منظومة موظفي ديوان عبدالعزيز في أواخر عام ١٩٢١م، وذلك بدليل عدد من القرائن في كتابه التوثيقي الممتع، وما يزال العديد من أسرته (الرفاعية) يعيشون في الكويت، وهم في الأصل من السادة الحسينية (الأشراف) المقيمين في العراق، ومن هنا جاء له شعبيّاً لقب (السيّد)، أما والدته فإنها من أسرة العبدالرزّاق الكويتية المعروفة، ذات الأصول النجدية (من بلدة العطّار من سدير).

كان هاشم الرفاعي من المتعلّمين القلائل الذين التحقوا بديوان

السلطان عبدالعزيز في تلك الفترة، وذكر يعقوب الإبراهيم أن السلطان عبدالعزيز كلّف د. الدملوجي بالبحث معه في مسألة راتبه فاتفقا على ألفين وخمسمئة روبية شهريّاً، فما كان من عبدالعزيز إلا أن ضاعف المبلغ، وكلّفه بمسائل في داخل البلاد وفي منطقة الخليج، تتطلّب فهماً خاصاً بالأمور المالية والسياسية والقانونية، ومن بينها إشراكه في عضويّة وفد مؤتمر العقير (١٩٢٢م) ومهمات أخرى تتعلق بامتياز النفط، وبالإشراف أخيراً على ماليّة الأحساء وجمارك القطيف، إلا أن الكتب التي تحدّثت عن تلك الحقبة لم تورد إلا القليل عن سيرته، باستثناء ما كتبه أمين الريحاني وراشد الزيّاني كما سيرد، وذلك على ما يبدو عائد إلى أن إقامته في سلطنة نجد والأحساء لم تدم طويلاً، ولولا هذه الذكريات المطبوعة التي خلّفها الرفاعي في كتابه السابق ذكره لربما بقيت سيرته مطويّة بأقل قدر من المعلومات عنه، وهو ما يثبت أهميّة تدوين مثل هذه الذكريات.

ذكر مقال الأستاذ الإبراهيم أن الأديب اللبناني المعروف أمين الريحاني، الذي أشار مرّات إلى الرفاعي في كتابه (ملوك العرب)، قد التقى في البصرة (عام ١٩٢٢م) بالرفاعي موجّهاً للريحاني أول دعوة من السلطان عبدالعزيز لزيارته، وقد وصف الريحاني الرفاعي بأنه «أديب الأدباء»، وكان الرفاعي، على ما يبدو، في زيارة لعبداللطيف باشا المنديل (ممثل عبدالعزيز آل سعود) في البصرة، في أمر يتعلق بالتشاور

في اتفاقية للزيت مع الإنجليز.

كما يستفاد من كتاب صدر عن سيرة الشيخ حمزة غوث ومن مصادر أخرى عدة، أن السلطان عبدالعزيز قد أوفد السيد حمزة عام ١٩٢٣م رئيساً للوفد النجدي لاجتماعات المؤتمر العربي بالكويت الذي دعى إليه الكولونيل نوكس المندوب السامي البريطاني في الخليج حكومات كل من الحجاز ونجد وشرق الأردن والعراق، لإرسال ممثلين عنها لحضور الاجتماع المذكور، وكان الوفد يضم في عضويّته كلاً من د. عبدالله الدملوجي والشيخ حافظ وهبة والشيخ عبدالعزيز القصيبي، وتولى أعمال السكرتارية فيه السيد هاشم الرفاعي.

وأشار الأستاذ الرويشد في مقاله آنف الذكر إلى كتاب: البحرين بين عهدين، لراشد الزيّاني الذي أورد نبذاً عن مهمات قام بها الرفاعي مع السلطة البريطانية في البحرين بتكليف من السلطان عبدالعزيز.

بقي الرفاعي في خدمة سلطان نجد والأحساء بين ١٩٢١م وحتى منتصف عام ١٩٢٥م تقريباً، ثم عاد إلى الكويت وأمضى بقية سنيّ حياته هناك، لكنه لا يوضح أسباب تركه العمل.

وتكمن أهميّة كتابه المطبوع قديماً في مطبعة الرشيد ببغداد ثم قامت دار جداول للنشر والترجمة والتوزيع في بيروت بإعادة نشره هذا العام، في أنه لم يُكتب في أثناء وجود مؤلفه (الرفاعي) في الرياض، أو في

ظلّ تبعيّة إدارية لوظيفته، أو تحت ظرف يلزمه أدبيّاً بالمحاباة، فجاءت روايته للأحداث والقصص على درجة مقبولة من الموضوعية المستقلة، فهو كما يقول: ألّفه بعد عودته الى الكويت عقب انتهاء ارتباطه الوظيفي بديوان الملك عبدالعزيز، وهو يسرد في مقالات قصصاً ومواقف عاشها بنفسه، إما في العراق أو في الكويت أو في سلطنة نجد والأحساء.

والمعلومات القليلة التي بين أيدينا عن الرفاعي، توضح أنه كانت لديه اهتمامات صحفية بلغت «درجة العشق والهيام»، تمثلت بداياتها في تقرير نشره في جريدة الأوقات البصرية (*Basra Times*) عام ١٩٢١م عن افتتاح المدرسة الأحمدية في الكويت، وفي إصدار جريدة (البصرة) عام ١٩٣٤م، وفي محاولته الحصول على ترخيص لإصدار جريدة (الصراحة) في البصرة، وكانت ذكرياته التي تضمّنها كتابه قد نُشرت في البداية مُجزّأةً في صحيفة (الثغر) البصرية، وقد ذُكر أنه كان يفكر بعد لقائه بالسلطان عبدالعزيز بإنشاء مطبعة وإصدار جريدة في الرياض تلبّيان اهتمامات السلطان بالإعلام.

جدير بالذكر أخيراً، أن يعقوب الإبراهيم قد قال عن هاشم الرفاعي بأنه أول صحفي كويتي، ولعله بذلك يقصد أن جريدة «الكويت» لمؤرخ الكويت عبدالعزيز الرشيد لم تبدأ إلا عام ١٩٢٨م، وأن الرفاعي كان وحيد والديه، و لم يكن له من عَقِب من أبناءٍ أو بنات، ثم قال إنه توفي فقيراً في العراق عام ١٩٥٠م عن عمر ناهز السبعين عاماً، ودفن في

مقبرة الحسن البصري في مدينة الزبير.

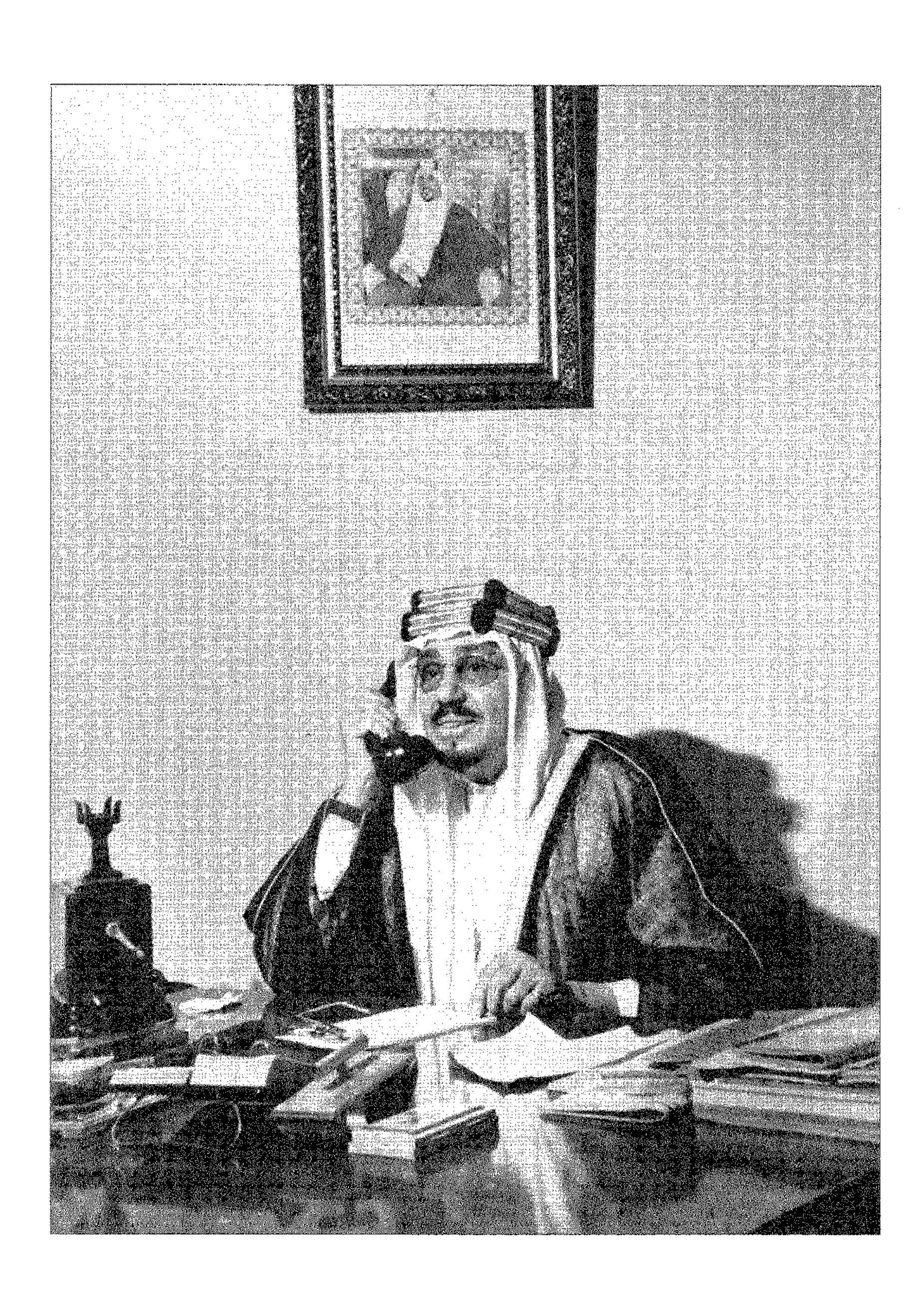
وبعد؛ لقد كانت سيرة الأديب والصحفي هاشم الرفاعي ورقة من التاريخ لم تنل حقها من الذكر، ذات عناوين كثيرة من العمل الثقافي والاجتماعي والخيري، شاكراً لمن دلّني عليه، ولمن أثرى معلوماتي عنه، ولمن كتب عنه، وأبرز القيَم الإنسانية التي تحلّى بها.

(٨)

حمزة غوث(*)

السفير الأنسب لدى إيران

(*) مقدمة لكتاب عن سيرته من تأليف ابنه خالد غوث، صدر عام ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.



ترتهن العاطفة أذهان كثير من الأبناء والبنات لتدوين سيرة آبائهم أو أمهاتهم، فيُقدمون على ذلك دون تقدير لمدى أهمية كتابة تلك السيرة عند القرّاء، ولمدى قبول القرّاء لها بعد صدورها، ولمدى رسوخ تلك السيرة واستقرارها حيّة في ذهن القارئ بعد اطلاعه عليها، بل إن هناك من الأولاد من يتعجّل إصدار مثل تلك السير، بينما نجد هناك من يفعل العكس، فهو يتريّث كي يتأكّد من توافر المادة والمعلومات الكافية لتأليف سيرة وافية تتناسب ومكانة شخصيّتها، وهذا ما حصل مع الكتاب الذي بين أيدينا.

السيّد حمزة غوث، الذي عاش العهود السياسية الثلاثة (العثماني والهاشمي والسعودي) للمدينة المنورة، كان، وبكل ما يُحسب له أو ربما عليه، شخصية تستحق أن تُكتب سيرتها بعناية، ليس لأنها علامة ذهنية مؤثرة بين من هم في جيله وزمنه وبيئته فحسب، ولكن لأن تاريخه هو فصل من التاريخ المعاصر للمدينة المنورة، ولحياتها السياسية، بل وللمنطقة كلها، حيث يندر أن نجد أعداداً مثله ممن تمتد سيرتهم كل هذا الامتداد ما بين المدينة المنورة واسطنبول وحائل والرياض وغيرها، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى شهود عيان مشاركين فاعلين في

صناعة الأحداث في تلك العهود.

لم أكن أعرف الكثير عن سيرته، حتى خالطت ابنه خالد، زملاء في العمل الإعلامي فترة من الزمن، وبقينا نتبادل المودة، ونتشارك حب مدينة المصطفى ﷺ، ونتجاذب الحديث والهموم عن أوضاع الأمة والوطن، ونتقارب في الرؤى والأمزجة والأفكار، وكنت في تلك الأثناء أستزيده التحدّث عن أبيه، وبخاصة عن تاريخ والده الصحفي في أواخر العهد العثماني في المدينة المنورة، ثم أصبحت أقترب من سيرة الشيخ حمزة كلما تعمّقت في سيرة المؤسس الراحل، الملك عبدالعزيز، الذي اصطفاه مستشاراً وعضواً في مجلس الشورى، ثم اختاره سفيراً، وأشركه قبل ذلك في أمور سياسية وإدارية مهمة في مرحلة التأسيس، ولم أكن أعرف عن نية خالد في إصدار هذه السيرة إلا متأخراً.

لقد بقي كثير من القراء شغوفاً بقراءة المزيد عن الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة، وعن تطوّر أوضاعها السياسية، وهي التي هُضمت حقوقها في العهدين العثماني و الهاشمي، بحيث لم تكن حتى عام ١٩٢٥م تزيد في نموّها عن حجم قرية من قرى الشام أو تركيا، وكأنها لم تكن يوماً عاصمة الإسلام ومهبط نصف الوحي، ومثوى الجسد الطاهر، ومن هنا، يُقدّر للمؤلف حرصه على استهلال سيرة والده بوصف البيئة (طيبة الطاهرة) التي نشأ فيها، والاسترسال في رواية المزيد من تاريخها وثقافتها وتركيبتها السكانية والاجتماعية.

كما يُحمد للمؤلّف جنوحه للشفافية في كتابة سيرة والده، مانحاً الفرصة لكل ما قيل عنه سلباً أو إيجاباً ألا يتعرّض للإقصاء أو الشطب، فجاء الكتاب منسجماً مع التوجّهات الموضوعية الحديثة في كتابة أنواع من السّير كانت فيما مضى وعند البعض تنجرف مع العواطف، ومع تنزيه من تُكتب سيرتهم، وكأنهم من كواكب معصومة، أو من غير جنس البشر.

ولعل من حسن حظ هذه السيرة، أن مؤلفها قد رافق والده معاصراً لعدد من الأحداث التي وردت فيها، وأنه ممن عُرف بالحكمة والتريّث وتحجيم العاطفة عند الكتابة والرواية، فجاءت السيرة متوازنة إلى حدّ معقول، مستفيدة من عامل التأخير، وأحسب أن نشرها الآن سيساعد في الحصول على مزيد من المعلومات عن شخصية السيرة، وبخاصة من الدول التي عمل فيها ممثلاً للمملكة العربية السعودية (العراق وإيران)، والبلدان التي زارها أو أقام فيها.

واليوم، وبصدور هذه السيرة، تنجلي معلومات إضافية في سيرة الملك المؤسس، ونستحضر مزيداً من المعلومات عن سيرة بعض الشخصيّات التي عرفها السيد حمزة، ويغنم التاريخ الزاهر للمدينة المنوّرة صفحةً جديدة فيه عن واحد من أبرز شخصياتها، ظل القارئ ينتظرها، ويترقب مستواها، ويتلهّف للاطلاع عليها.

والجميل في الأمر أن صدور هذه السيرة يتزامن مع ما تشهده

المدينة المنورة في العقود الأخيرة، من نهضة فكرية وثقافية، استعادت مدينة المصطفى عليه الصلاة والسلام بها، ما كانت تشهده في عصور مضت، عندما كانت تضيء الكون بالمعارف والعلوم.

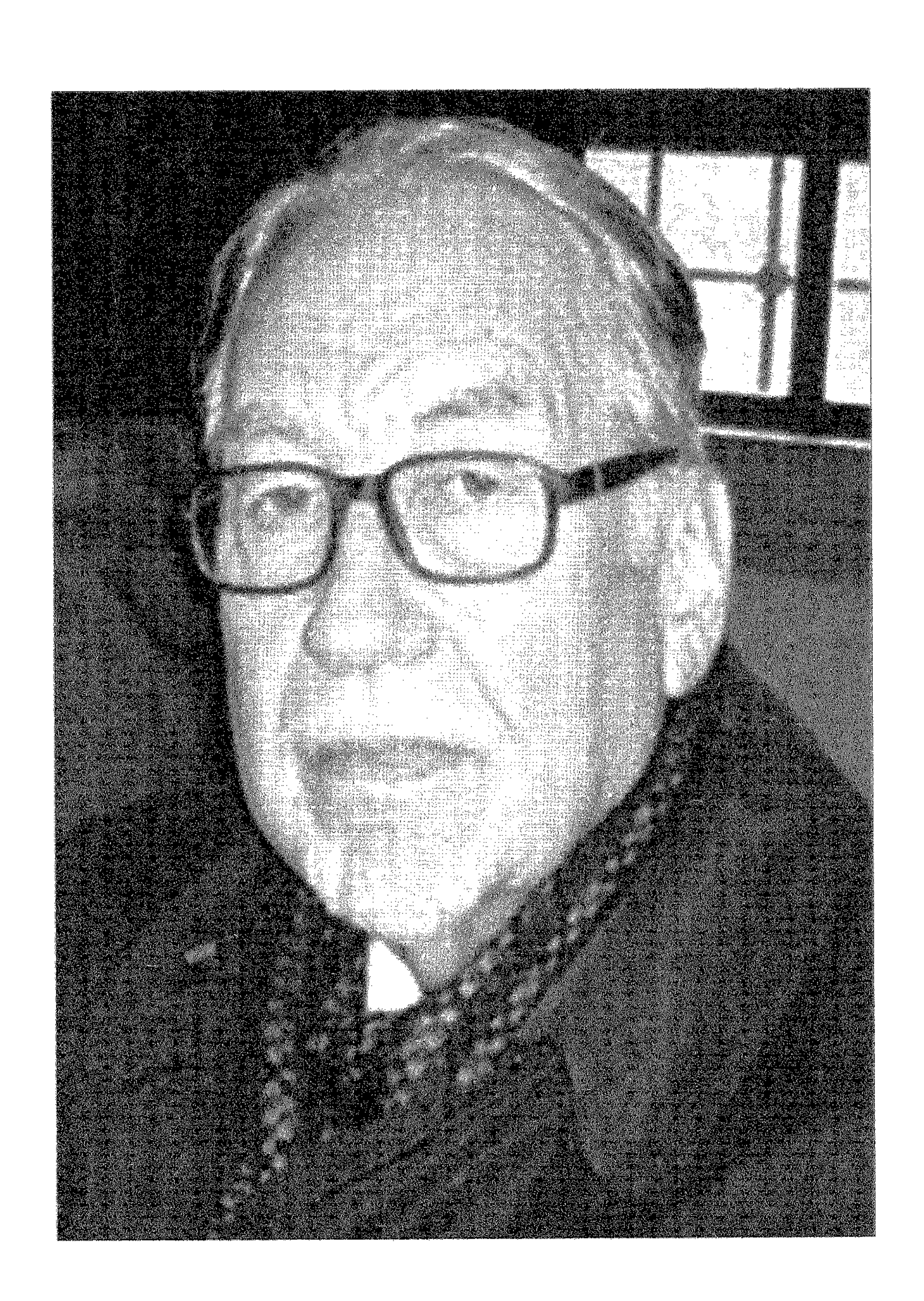
يروى، أن العلاقة توتّرت سياسيّاً بين طهران والرياض في أعقاب حادثة تنجيس الحرم الشريف، التي أوردها المؤرخون في حوادث عام ١٣٦١هـ/١٩٤٢م، ثم رغب شاه إيران بعد الحرب العالمية الثانية عودة العلاقات، فلما رشّح مجلس المستشارين بعض الأسماء لتولّي السفارة، ردّ الملك عبدالعزيز بما معناه: لقد وقع اختياري على السيّد حمزة غوث؛ فهو من المدينة المنورة، واسمه حمزة، وينتمي لآل البيت، وهي من الأمور التي يرتاح لها الإيرانيّون، وكان الشيخ حمزة حينذاك أحد المستشارين السياسيين في الديوان الملكي (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م).

(٩)

د. مراد هوفمان(*)

ربح محمداً ولم يخسر المسيح

(*) الشرق الأوسط، العدد ١٢٦٦٠ في ١٩/٩/١٤٣٤هـ (٢٧/٧/٢٠١٣م).



أوجه شبه عدّة تجمع المستشرق الألماني المسلم د. مراد هوفمان مع المستشرق النمساوي المسلم محمد أسد، فهما تجايلا والتقيا مع فارق ثلاثين عاماً في العمر، وخرجا من بيئتين متقاربتين جغرافيّاً (هوفمان من ألمانيا وأسد من النمسا) وكلاهما ألّف كتاباً باسم «الطريق إلى مكة» وإن كان كتاب أسد هو الأسبق والأشهر، وهما مستشرقان اعتنقا الإسلام بعد رحلة تأمّل حياتيّة، وتعمّقا فيه بالمثابرة والاطّلاع والبحث، ثم خدماه فكراً وتأليفاً في كتب متقاربة العناوين، والاثنان مارسا الدبلوماسية، وقد غيّرا اسميهما واختارا أسماء إسلامية وأن كليهما اقترن بزوجة مسلمة، وكان من الواضح أن هوفمان تأثّر بمنهج أسد وكتب عنه وكان مرجعاً في سيرته، وعندما نعود إلى حياة الشخصيّتين نلحظ أن محمد أسد قد التحق في مطلع حياته بوظيفة بسيطة (عامل هاتف) وأن مراد هوفمان عشق الفن والرقص في شبابه، وهكذا...

لكنهما افترقا على بعض أوجه اختلاف، فمحمد أسد المولود في أسرة يهودية كان عصاميّ النشأة، صحافيّاً ورحّالة في مقتبل عمره، اعتمر الإيمان قلبه من خلال الترحال والتأمّل في الفطرة، ولم يكمل دراسته العليا، بينما كان د. هوفمان المولود في أسرة كاثولوكية أرستقراطيّاً، تقلّد مناصب

دبلوماسيّة عدة، ومرّ بالدراسات الأكاديمية من أوسع أبوابها، ومع ذلك بقي محمد أسد القدوة الأكثر تأثيراً في فكر هوفمان، وكان هوفمان هو من سمّاه «هديّة أوروبا للإسلام» فنسجتُ على منوال ذلك لقباً معكوساً «هدية الإسلام لأوروبا» وضعته عنواناً لكتاب ألّفته عن محمد أسد عام ٢٠١١م.

التقيت د. هوفمان في مكة المكرمة والرياض، ومرّة ثالثة في الرياض عام ٢٠١١م على هامش ندوة عقدها مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية عن محمد أسد، فكانت سيرة أسد محور كثير من الأحاديث المشتركة الجانبية، وهو يفاخر بإجلاله وتقديره له، وكان يفهم العربية ولا يتقن الحديث بها، وقد جمعه مع الشيخ صالح الحصيّن بحضوري على هامش الندوة نقاش شيّق عن مقاصد الإسلام من تحريم الربا، وهو موضوع يتبنّاه الشيخ الحصيّن بقوّة.

ولد هوفمان في ألمانيا عام ١٩٣١م، وحصل على الدكتوراه في القانون من جامعة هارفرد، ثم عمل رئيساً لقسم حلف شمال الأطلسي بوزارة الخارجيّة الألمانية، ثم سفيراً لبلاده في الجزائر (١٩٨٧م) فالمغرب (١٩٩٠م) ولعلها الفترة التي التقى فيها بمحمد أسد حيث عاش الأخير فترة من حياته.

ثم اعتزل العمل السياسي بعد ذلك، متفرّغاً للندوات التي تعقد حول الإسلام في الشرق والغرب، ومتّجهاً نحو التأليف في الفكر الإسلامي، حيث أصدر خلال عشرة أعوام بين عامي ١٩٩٣ و٢٠٠٢ م كتبه الأشهر: يوميّات ألماني مسلم، والطريق إلى مكة، والإسلام كبديل، والإسلام في الألفيّة

الثالثة، ديانة في صعود، وخواء الذات، والأدمغة المستعمرة.

اهتدى هوفمان إلى الإسلام من خلال وضع أسئلة فلسفية عن الخَلْق والوجود، أدرك عند الإجابة عليها أنه مسلم، وهو أمر يذكّر بما توصّل إليه محمد أسد عندما تحدث إلى أحد الحاخامات في القدس عن أفكار مماثلة ليكتشف أنه لا يقول بها إلا من اختلج الإيمان صدره.

وكما حدث مع غارودي الذي اهتدى للإسلام في أثناء إقامته في الجزائر إبّان فترة مناهضة الاستعمارالفرنسي، فإن هوفمان قد بدأ رحلة الشكّ خلال إقامته قنصلاً لبلاده فيها، حيث شكّلت معاناة الشعب الجزائري وقسوة المستعمر وما وجده من عمق إيمان الجزائريين رغم الاحتلال، جذوة التأمل في قلبه وبداية رحلة اليقين في خياله التي قادته إلى الإيمان.

وتزخر كتبه المتقدمة بالروايات التي اكتشف من خلالها في تركيا مثلاً وجود صلات بين الإسلام وبين المبادئ الأخلاقية والإنسانية، وأن تلك المعاني تمتدّ إلى مجالات التجارة حيث يُثني التاجر المسلم على بضاعة جاره، كما يصرّح في كتاباته بنقده لضمور التجربة الإنسانية في الغرب عند تعامله الأسري مع المسنّين، إلى غير ذلك من الصور التي تحفز مَن في قلبه بذرة من الإيمان إلى أن يفكّر فيها.

وبعد؛ ورد في كتابه «الطريق إلى مكة» الصادر عام ١٩٩٦م:

«**اللهم اجعل الحق يقرّ في نفسي**» وهو دعاء شخصي اختاره مراد

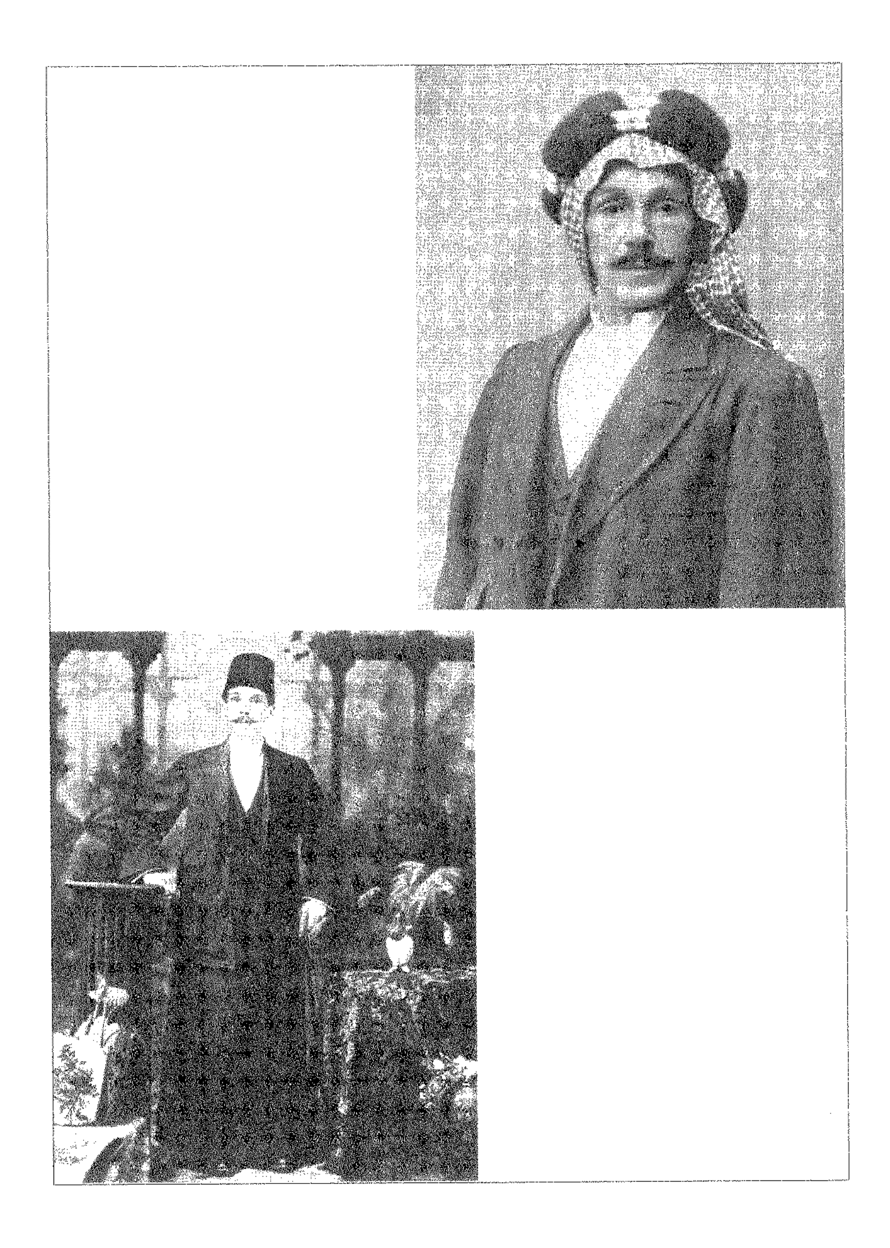
هوفمان في شعيرة الطواف لأول حج له عام ١٩٩٢م، وكان سبق أن أدّى العمرة بُعيد إسلامه، وما أروع أن يتعرّف المرء على مَن يعتنق الإسلام عن اقتناع (من أمثال الفرنسي د. روجيه غارودي المتوفى عام ٢٠١٢م، والأمريكي د. جيفري لانغ) وهي نماذج مشرقة للإسلام في الممارسات والإنتاج الفكري، وأمثلة يتعلّم منها المسلمون بأنفسهم مكامن عظمة الدين ومقاصده الحياتيّة ومعانيه الروحيّة والإيمانيّة، في زمن صار المسلم يقف وجهاً لوجه في مواجهة دمويّة مع أخيه المسلم في عقر بلاد الإسلام.

إنها دعوة لقراءة كتبهم لعلنا نتوصل إلى مثل ما توصل إليه الغرباء عنه.

(١٠)

عبد اللطيف المنديل الباشا (*)

(*) الشرق الأوسط، العدد ١٣٠٨١ في ٢٧/١١/١٤٣٥هـ (٢١/٩/٢٠١٤م).



من يعود إلى الكتب والكتابات الصحافية التي تناولت قبل ١٠٠ عام الحياة الاجتماعية والسياسية في ولاية البصرة بخاصة، وسواءً كانت مكتوبةً بأقلام من العراق أو من دول أخرى عربية أو أجنبية، سيلحظ أنها مليئة بذكر هذه الشخصية البارزة التي تعود أسرتها إلى جذور سعودية (بدرانية دوسرية من بلدة جلاجل في سدير شمال الرياض) إلا أن القليل من المصادر السعودية المحلية يشير إليه ويخصه بالذكر، على الرغم من أصوله تلك، ومن صلته الوثيقة بالملك المؤسس (عبدالعزيز) بوصفه أبرز معتمديه في ولاية البصرة، وأهم ممثليه مع الأتراك والإنجليز إبّان فترة توحيد المملكة العربية السعودية (١٩٠٢ ـ ١٩٣٢م)، ومع أن سيرته لم تدوّن مجتمعةً في مؤلّف واحد، إلا أن المصادر المتوافرة لم تبخس بالذكر دوره السياسي في ولاية البصرة، والاتصالات التي كان يُجريها مع الأتراك ثم الإنجليز وكيلاً للسلطان عبدالعزيز، مما لا يتسع المقام لبسطه وتفصيله.

وكان ممن اهتم بسيرته وجمع تلك الكتابات في مخطوط بحجم كتاب، الباحث الكويتي المعروف يعقوب يوسف الإبراهيم الكاتب في جريدتي القبس والشرق الأوسط، وهو يُعدّ أفضل مرجع لمن يرغب من الباحثين الاستزادة عنه، وقد كانت قرابته بالمنديل من جهة والدته جعلته يُحجم عن التوسّع في

نشر ما عنده، كما أوجز الباحث العراقي المعروف، نجدت فتحي صفوة، بعض ما أوردته الوثائق البريطانية عنه، وبعض ما هو معروف عنه عراقيّاً في بحث نشره في جريدة «الشرق الأوسط» (العدد ٦٥٧٩ لعام ١٩٩٦م)، وذلك في الذكرى الـ ٥٦ لوفاته، كما كتب عنه الريحاني، وفيلبي، والزركلي، وغيرهم، ومن السعوديين، كتب عنه العلامة حمد الجاسر، ومحمد القشعمي الذي نشر في المجلة العربية (٢٠٠٣م) مقالاً موسّعاً من حلقتين أحاط فيهما بسيرته وبالمراجع المتوافرة عنه.

وتُجمع المصادر على أن والده كان قد نزح من سدير إلى الزبير (١٨٣٧م)؛ حيث مارس التجارة بين البصرة وبغداد والهند، وبنى للنازحين من عشيرته دار ضيافة، وأقام لأسرته مكانة اجتماعيةً مرموقة في جنوب العراق، وقد اكتسب واحد من أبنائه الستة وهو يوسف لقب الباشوية إبان العهد العثماني في العراق، ثم حاز ابنه الثاني عبداللطيف (شخصية المقال) اللقب في أعقاب نجاحه في ترتيب المحادثات بين ابن سعود والأتراك بعد انضمام الأحساء إلى الحكم السعودي (١٩١٣م).

وإذ من الصعب الإحاطة في هذا الحيّز المحدود بتفاصيل سيرته من جانبيها السياسي والإداري، العراقي والسعودي، فستوجز النقولات التالية أبرز محطاتها:

قال عنه نجدة فتحي صفوة في مقاله المذكور آنفاً:

في ٢ ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩٤٠م، توفي في البصرة عبداللطيف باشا المنديل، أحد كبار وجهائها وملّاكها، وكان وكيلاً لعبدالعزيز آل سعود

فيها، ومن الرجال الذين تمتّعوا بثقته مع بقائه على ولائه للعراق، وقد قضى حياته في خدمة القُطرين بإخلاص.

ولد عبداللطيف بن إبراهيم بن منديل في الزبير (مع اختلاف في تاريخ ولادته)، وكان أبوه قد نزح إليها من نجد، وحصلت العائلة على مكانة رفيعة في البصرة، وحققت ثروة كبيرة، وأصبح أبناء المنديل من أعيانها، وقد درس على أساتذة خصوصيّين، ثم عمل في تجارة والده وزراعته، وأصبح وكيلاً لعبدالعزيز (سلطان نجد عندئذ) بعد وفاة شقيقه عبدالوهاب الذي كان يقوم بها منذ عهد الإمام عبدالرحمن (والد عبدالعزيز)، وكانت علاقة المنديل تلك امتداداً لعلاقات عائلية قديمة منذ كان جده الأكبر (سويّد)، أميراً لجلاجل أيام حكم الإمام فيصل بن تركي (جد عبدالعزيز) في الدولة السعودية الثانية.

ويُروى أنه حينما كان وكيلاً للملك عبدالعزيز كتب إليه الملك أثناء دخوله الأحساء (١٩١٣م)، قائلاً: «إذا سألك الترك فقل لهم إني عثماني»، وقد أشار عليه بذلك خشية أن يناله ضرر، ولكن المنديل لم يعمل بإشارة موكّله، فلم ينكر للترك أنه نجدي، ولم يُخفِ كونه وكيلاً للملك عبدالعزيز، وقال للأتراك: «**لقد جهلتم قدر هذا الرجل، وها هو يعرّفكم بنفسه**»، وحضر المنديل مؤتمر «الصبيحة» جنوب الكويت، الذي أسفر عن تحييد الأتراك واعترافهم بسيادة عبدالعزيز في الأحساء، ولما بدأ عبدالعزيز بوضع أسس الدولة الحديثة وقواعدها استقر المنديل في ميناء العقير لتطويره ولتنظيم

شؤون الجمارك، ومن مظاهر صحبته لآل سعود أطلق في سنة ١٩٣٤م اسم السعودية على أحد الأحياء التي تقع على ضفاف شط العرب في البصرة، ودأب المنديل على تشجيع المشروعات الثقافية والخيرية ودعمها بالمال، فمنحته الدولة العثمانية رتبة الباشوية في سنة ١٩١٣م، وكان له دور كبير في العراق وفي ولاية البصرة بصورة خاصة؛ إذ صار إبّان الحكم العثماني عضواً في مجلس ولاية البصرة وملحقاتها، ثم عضواً في مجلس الإشراف خلال فترة الاحتلال البريطاني (١٩١٤ ـ ١٩١٩م).

ومن الأعمال التي تذكر له: تزويده البصرة بالكهرباء وبمياه الشرب النقيّة (في أول مشروع لإسالة المياه في العراق)، وإصلاح وسائل الزراعة وتنشيط التجارة فيها وإعمار المدينة.

عُيّن المنديل وزيراً للتجارة في أول وزارة عراقية برئاسة السيد عبدالرحمن النقيب في سنة ١٩٢٠م لكنه استقال من أجل العناية بأموره الخاصة (مارس ١٩٢٢م)، ثم عيّن وزيراً للأوقاف في وزارة عبد المحسن السعدون الثانية (نوفمبر ١٩٢٢م)، وانتخب لعضوية المجلس التأسيسي في سنة ١٩٢٤م عن البصرة، ثم أصبح عضواً في مجلس الأعيان في سنة ١٩٢٩م، واستقال في سنة ١٩٣٤م ليتفرغ لشؤونه الخاصة أيضاً، وداهمه المرض في منتصف الثلاثينات وساءت أحواله الصحية وأصيب بالشلل، فتوفي ودفن في مقبرة الحسن البصري في مسقط رأسه «الزبير».

وعلى ذكر المناصب الإدارية التي تولّاها، يشير يعقوب الإبراهيم إلى أن

ملك العراق فيصل الأول كان له موقف من المنديل بحكم تعاطفه مع الملك عبدالعزيز وولائه المزدوج العلني له، وقد اضطر المنديل بسبب ذلك الموقف إلى عدم الاستمرار في آخر منصب وزاري تقلّده، مما نتج عن ذلك في حينه سقوط الوزارة بأكملها، وهي حادثة ربما لم تشر المصادر المكتوبة إليها بما تستحق من الذكر.

وقال عنه أمين الريحاني في كتابه «ملوك العرب» ج ٢:

«وهو حر الكلمة، سديد الرأي، مخلص الودّ لآل سعود، وخصوصاً للسلطان عبدالعزيز، ومخلص العمل لوطنه الثاني العراق»، ووصفه في صفحة أخرى بأنه: **«صديق السلطان الحميم ووكيله في العراق، وهو نجدي الأصل عراقي الإقامة ولا يزال للبداوة أثر في حديثه وفي سلوكه الحر»**.

ووصفته الخاتون مس بيل (*Miss Bell*) في إحدى رسائلها قائلة:

«له الملامح الدقيقة البديعة التي يتسم بها العرب من قلب الجزيرة العربية، ولعله أقوى شخصية في البلد (البصرة) بعد ذهاب السيد طالب النقيب، وهو تاجر كبير»،

والمعروف أن جيرترود بيل (المتوفاة سنة ١٩٢٦م) كانت باحثة وعالمة آثار بريطانية ومستشارة المندوب السامي بيرسي كوكس في العشرينات.

وكتب يعقوب الإبراهيم في جريدة «الشرق الأوسط» (العدد: ٩٥٨٧ عام

٢٠٠٥م) مقالاً وصف فيه القصر الشهير «بيت الباشا» على شط العرب في البصرة، وهو القصر الذي بناه عبداللطيف المنديل سنة ١٩٢٥م وتوفي فيه، ذاكراً أنه تحفة معمارية نفيسة، وواصفاً أدق التفاصيل التي جعلته يقف عبر العقود شاهداً على طابع التراث العمراني لمنازل البصرة آنذاك؛ حيث يمتزج فيها الفن الهندي، والفارسي، والتركي (متمثّلاً بالشناشل الخارجية، والطارمات)، والأوروبي من الداخل (بالكاشان، والبورسلان، والزجاج المعشّق).

وكان المنديل يرعى شاعر العراق الرصافي الذي مدحه بقصائد قال في إحداها:

أبا ماجد إني عهدتك مبصراً
خفايا أمور أعجزت كل مبصر
إذا خفيت يوماً عليك حقيقةٌ
نظرت إليها من ذكاءٍ بمجهر
وإن ليلةُ الخطب ادلهمّت كشفتها
بأوضاح صبحٍ من فعالك مسفر

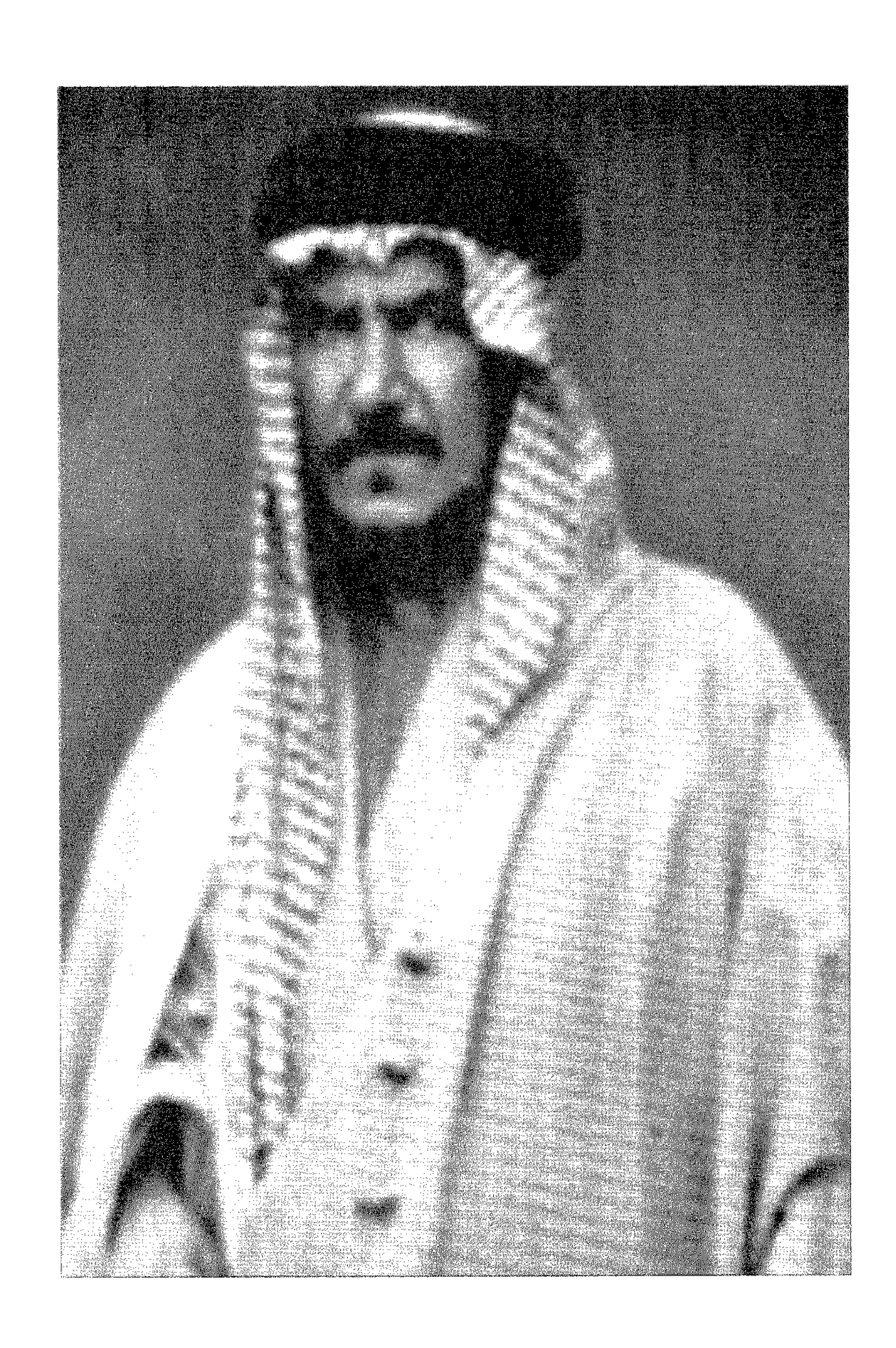
وبعد.. لئن أطلقت العاصمة السعودية الرياض اسمه على أحد شوارعها عرفاناً بوفائه للملك المؤسس وبمكانته لديه، فإن تاريخه لا يزال بحاجة عراقيّاً وسعوديّاً إلى كتاب، وهو أمر لن يتأخر أكثر بإذن الله بجهود المهتمين بتاريخه ممن ذكرت.

(١١)

محمد بن شلهوب (شلهوب)(*)

الرفقة الأقدم والأطول مع الملك

(*) الشرق الأوسط، العدد ١٣٠٨٢ في ٢٨/١١/١٤٣٥هـ (٢٢/٩/٢٠١٤م).



مع أنه عاش أطول فترات الرفقة مع الملك المؤسس وأكثرها تنوّعاً، فإنه كان الأقل ذكراً في الكتابات التي تناولت التاريخ السياسي والاجتماعي لحقبة التأسيس، وهناك رغبة ملحّة عند جهات التوثيق وعند حفيديه منصور ود. عبدالملك لتوثيق سيرته حيث يحتفظان بوثائق مهمة عن جدهما، غير أن هذه الرغبة الرسمية والأهلية تصطدم بواقع محدودية المعلومات عنه وبسريّة بعضها، وبطموح الجميع بأن تأتي الكتابة عنه على مستوى يليق بمكانته وبقربه من رئيسه.

أما تفسير ما سبق «الرفقة الأطول» فلأنه ولد قبل ولادة الملك عبد العزيز بأعوام قليلة، ورافقه وفيّا له منذ فتح الرياض، وكان يثق به للاستدانة من الأثرياء أموالاً تعين على تكاليف الحملات العسكرية، ويكلّفه بأنواع مختلفة من مهمّات التموين والأعطيات والضيافات، ثم عاش بعد وفاة الملك عدّة أعوام، حتى تجاوز عمره ١٠٠ عام وتوفي مستشفياً في لبنان سنة ١٩٥٩م.

وتجدر الإشارة إلى أن أسرة من الزمازمة في مكة المكرمة وأن أُسراً عدّة تحمل هذا الاسم في شمال السعودية، كما توجد مدرسة عريقة في الكوت بالأحساء تسمى المدرسة الشلهوبية نسبة إلى أقدم مدرّسيها أحمد بن

محمد بن شلهوب، وهذه الأسماء جميعها لا صلة لها بالضرورة بشخصيّة المقال وأسرته.

ولعل أفضل من تناول، وباستفاضة حتى الآن، سيرة محمد بن صالح بن شلهوب (المشهور بلقب شلهوب) هو الباحث السعودي عبدالرحمن الرويشد الذي يعنى بتاريخ الأسرة المالكة آل سعود، يرصد بجهود ذاتية أسماء ملوكها وأمرائها وأميراتها ومراتبهم، جامعاً من جهة بين معلوماته الشخصية والمعلومات التاريخية التي كان يرويها ابن عمه سعد بن عبدالعزيز بن رويشد، وبين الأخذ من الروايات الشفوية المتداولة شعبيًا مع الاستفادة من كتب المؤرخين المحليّين والأجانب، وهو يُكمل بكتاباته ورواياته ما تُغفله الكتب الأكاديمية، وبالتالي فإن من يكتب من الباحثين عن شلهوب وأمثاله من الروّاد لا بدّ أن يمرّ على ما يكتبه الرويشد، وكان نشر في عام ٢٠٠٩م في صحيفة «الجزيرة» السعودية مقالاً مطوّلاً عنه من جزأين.

يقترن استحضار سيرة هذه الشخصيّة بالتساؤل أحياناً كعادة أهل الجزيرة العربية عن بداية شهرة أسرة الشلهوب وصلتها بالملك المؤسس، فهناك من يربط ذلك بفتح الأحساء، وهناك من ناحية أخرى روايات متواترة ومنها رواية الرويشد، تشير إلى عراقة أسرة الشلهوب في نجد، وتستشهد بوثائق تؤكّد على أنها كانت تسكن في حي منفوحة ثم في حي دخنة المعروفين بالرياض، وتنتشر بين الرياض والدرعية والمجمعة وجدة، وكان مما ذكره الرويشد: «**أن البعض من هذه الأسرة ومن بينهم صالح**

(والد شلهوب) معدود في كبار رجال فيصل بن تركي آل سعود (جد الملك عبدالعزيز) إبان الدولة السعودية الثانية، فقد ذكر المؤرخان إبراهيم بن عيسى في كتابه (عقد الدُّرر) وإبراهيم بن عبيد في كتابه (تذكرة أولي النهى والعرفان) أنه في عام ١٢٧٨هـ (١٨٦٢م) أصدر الإمام فيصل أمراً إلى صالح بن شلهوب ـ وكان أحد قواده ـ بالذهاب في سرية إلى عنيزة، لكي ينضم إلى قوة كان قد سيّرها من قبل، كما ذُكر أن الإمام فيصل كان قد عيّن صالح هذا أميراً على بريدة قبل تعيين أحمد السديري، كما ذكرت المصادر أنه، أي صالح، كان ضمن من حضر وقعة «أم العصافير» بين الإمام عبدالله بن فيصل آل سعود وابن رشيد عام ١٨٨٤م.. اهـ».

شيء آخر ينشغل به بعض المؤرخين المحليّين عند ذكر جيل الروّاد المؤسسين القدامى ومن أبرزهم شخصية هذا المقال، هو عن حقيقة مرافقة شلهوب للعاهل المؤسس ضمن الستين من رجالاته عند دخولهم الرياض (١٩٠٢م) وهو ما ذكره محمد المانع مؤلف كتاب توحيد المملكة العربية السعودية (صدر بالإنجليزية عام ١٩٨٢م) بينما شكّك الرويشد في ذلك وهو أي التشكيك ما أُخذ به عند الاحتفال بالذكرى المئوية قبل ١٥ عاماً، حيث يُنقل عن شلهوب نفسه أنه التحق بالسلطان عبدالعزيز وجنده مع عودة الكثيرين منهم إلى الرياض، وكان مَقْدَمه من حائل، ومهما يكن من أمر فإن أهميّة شلهوب لا تبدأ ولا تنتهي في هذه الناحية، سواء كان من بينهم أو من خلافهم.

وأشار الرويشد في مقاله إلى تمتّع شلهوب بالروح المرحة، مورداً عدداً من الطرف المحكيّة عنه، وأنه عُرف بقلّة الحديث عن دوره السياسي إلا نادراً، كما أشار إلى المخاطبات والمراسلات والوثائق التي جرت بين الملك عبدالعزيز وشلهوب ونشرت عام ١٩٩٠م في كتاب للدكتور عبدالرحمن السبيت وزملائه، حيث كان شلهوب يتردّد بين الرياض والقصيم والكويت مكلّفا بالتجهيزات العسكرية وبشراء المواد التموينية وبالاتصال بشخصيات كبيرة، واستشهد الرويشد بما أورده إبراهيم النشمي في مذكراته المنشورة في كتاب: «رجال وذكريات مع عبدالعزيز» أن النشمي كان أحد تجار السلاح في المدينة المنورة والخليج والكويت وذلك قبل دخول الحجاز في الحكم السعودي، وكان يتعامل مع شلهوب بأمر من الملك عبدالعزيز للحصول على الأسلحة والذخائر، كما يصف الرويشد الدور الكبير الذي قام به شلهوب للمساعدة في ضمّ إقليمي الأحساء والقصيم إلى حكم السلطان عبدالعزيز.

كان عبدالله السليمان الحمدان المعروف شعبيّا باسم (الوزير ابن سليمان) هو المشهور بتولّيه حقيبة وزارة المالية منذ توحيد البلاد عام ١٩٣٢م وكان الأكثر تنظيماً واختصاصاً بقضايا التموين والخزانة على مستوى الدولة الحديثة وفي التعامل مع الوفود الرسمية في عهد الملك عبدالعزيز، وكانت معظم إقامته وعمله في مركز الحكومة في الحجاز، لكن شلهوب كان الأقدم والأطول زمناً والأقرب للقصر بالرياض، والأكثر تخصّصاً بشؤون القبائل والزوّار وتجهيز الغزوات.

تتلخّص سيرة شلهوب في أنه في مطلع حياته زاول التجارة بين بلدان نجد والكويت والبحرين، ثم التحق بالسلطان عبدالعزيز بُعيد دخوله الرياض سنة ١٩٠٢م فعيّنه خازناً للمال، وكان يُطلق عليه أحياناً رئيس الأموال في نجد، قال عنه الريحاني: «**كان بمثابة وزير التموين، فيه إخلاص لا ريب فيه، مهماته متعددة، تشمل الكبيرة والصغيرة، من المدفع إلى عود الكبريت، فهو يتولى أمر التوزيع العام الشامل، يوزّع الحطب والسمن والسلاح والمال، طريقته في الإدارة أوّلية بدوية وحساباته قرويّة، كان يقول: اللي يجي نقيّده، واللي يروح نقيّده، والنتيجة لا شيء، وليس في طريقته محاباة أو تفضيل، وإنه طوّف بي ذات يوم مخازنه، فدهشت لما في ذمته من الأموال، وفي ذاكرته من الأشياء؛ فهذا مخزن السلاح والذخيرة، وهذا بيت التموين، وهذه الخوابي صنع الهند للسمن، وهذا التمّن (الرز) بمئات الأكياس مرصوصة بعضها فوق بعض، ثم أدخلني غرفة ذكّرتني بمخازن الرهون بلندن وبنيويورك، كل ما فيها مهمل مجهول ومكدّس بعضه فوق بعض، سألت شلهوب عنها فقال: غنمناها في إحدى المواقع، ولا أدري ما فيها**».

وبالعودة إلى الكتابات الموجزة التي ذكرته ـ على قلّتها ـ يُلحظ أن الرواة والمؤرّخين القدامى ومنهم غير العرب أشاروا إليه في كتبهم، ففيلبي على سبيل المثال وصف دار شلهوب ومجلسه والضيوف الذين يرتادونه، كما روى المؤرخ سعد بن عبدالعزيز بن رويشد كثيراً من المعلومات عنه.

ويجد الباحث إلماحات عنه في الروايات الشفوية التي دوّنتها جهات التوثيق المحلية، أما مراكز المعلومات الوطنية ففيها من الوثائق ما يصبّ أكثرها في مجال اختصاص شلهوب، وهو الجانب المالي والتمويني (اللوجستي) ضمن منظومة المسؤولين المحيطين عن قرب بالملك عبدالعزيز من أمثال عبدالرحمن الطبيشي وإبراهيم بن جميعة وعبدالله بن نفيسة (عمعوم) وكانت مسؤوليّات شلهوب ـ كما ذُكر ـ أقرب إلى التعامل مع القبائل وأمراء الأقاليم والأهالي، يدير الأمور بأمانة وإخلاص ووفاء وبالطريقة التقليدية التي تناسب تلك الحقبة والجماعات.

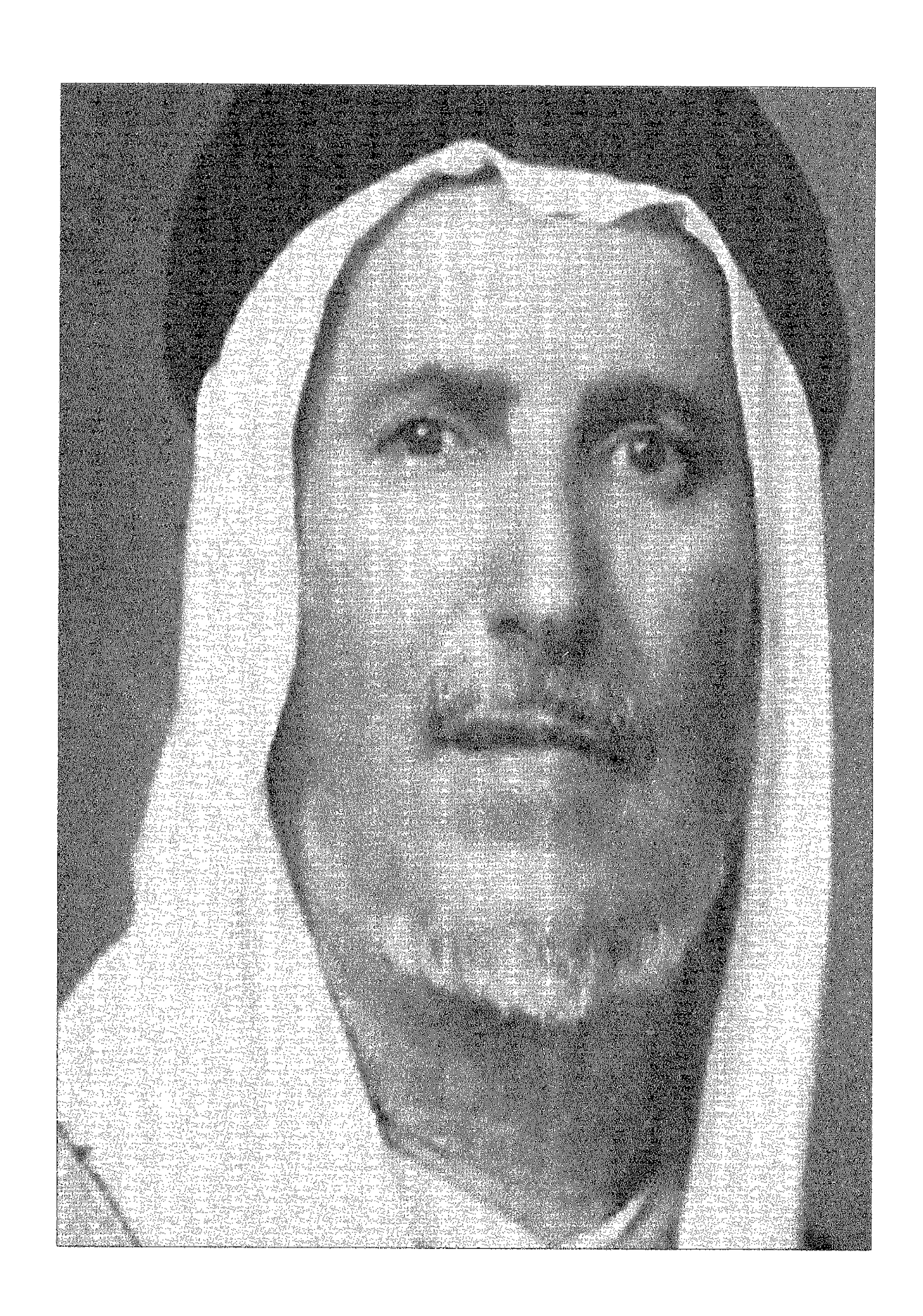
كان بعض من يبحث في سيرة شلهوب يظن أنني سبق أن استضفته في أحد البرامج التلفزيونية وهو ما لم يحدث مع الأسف، لكن حفيده د. عبدالملك الشلهوب ذكر أن اللقاء الإعلامي الوحيد الذي أُجري مع جده كان عبارة عن مقابلة صحافية أجرتها صحيفة «اليمامة» تحدث فيها عن عادات العيد في نجد، وأن صحيفة لبنانية رغبت في أثناء تواجد الجد في بيروت إجراء لقاء معه لكنه اعتذر، كما أفاد بأنه يعمل على استكمال مؤلف يحكي سيرة جده، والمرجو أن يُعجّل الحفيدان منصور وعبدالملك بذلك فما سيصدر عنهما سيثري تاريخ الحياة الاجتماعية في نجد بخاصة، وسيكون رافداً للباحثين في دراسات الجزيرة العربية في تلك الحقبة بعامة.

(١٢)

محمد طاهر الدباغ (*)

أبرز شخصية تعليمية في حقبة التأسيس

(*) الشرق الأوسط، العدد ١٣٣٠٩ في ١٤٣٦/٧/١٩هـ (٢٠١٥/٥/٧م).



يُذكر اسمُه في المجتمع السعودي مقترناً ذهنيّاً بمسألتين:

الأولى: كيف حوّل الملك المؤسس عبدالعزيز انتماء الدبّاغ من جانب المعارضة التي خرجت على النظام الجديد بعد ضمّ مملكة الحجاز إلى الحكم السعودي في منتصف العشرينيّات من القرن الماضي، بنقله كما سيأتي، من معارض سياسي مهاجر إلى تربوي مشارك فاعل في صناعة القرار في حقبة التأسيس تلك.

الثانية: أنه كما سيأتي أيضاً كان من أفضل من تولّى حقيبة التعليم في العهد السعودي قبل إنشاء وزارة المعارف ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م) وذلك بما له من خلفية تربويّة سابقة مارسها في مكة المكرمة وفي جزر إندونيسيا وحضرموت.

ولقد نالت سيرته قدراً جيّداً من الإنصاف من جانب المؤلفين، وورد ذكره كثيراً في معظم المصادر التي وثّقت روّاد التعليم في المملكة العربية السعودية، وإن كان تاريخه يستحق ما هو أكثر، فمما أنصفه مقال ضاف نشره تربوي مرموق معاصر له (محسن باروم المتوفّى سنة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م) بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيس المملكة العربية السعودية (مجلة الدارة، العددان ٣ و ٤ عام ١٤١٩هـ - ٢٠٠٠م)، كما ألّف عنه

د. محمد الجوادي عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة كتاباً من مئة صفحة، صدر سنة ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م) معتمداً على معلومات أُسريّة عنه لكنه لم يستفد مما كتبه سابقه الباروم عنه، كما تحدث عنه العلامة حمد الجاسر في سوانح ذكرياته، وعبدالله عبدالجبار في كتابه المعروف: التيّارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية، وعبدالله عبدالمجيد بغدادي في كتابه: الانطلاقة التعليمية في المملكة العربية السعودية، وعمر عبدالجبار في كتابه: سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة، وصالح جمال حريري في كتاب: من وحي البعثات السعودية، هذا بالإضافة إلى مقالات نشرها حسين بافقيه وغيره.

تقول الروايات المتواترة إن الدباغ (المولود عام ١٣٠٨هـ - ١٨٩٠م) من أسرة حجازية الأصول عاد أجدادها من المغرب، وقد درس في مدرسة الفلاح الشهيرة في مكة المكرمة عند افتتاحها سنة ١٣٣٠هـ، ثم انخرط في النشاط السياسي وانضم إلى الحزب الوطني الحجازي أميناً عاماً له، وعيّنه ملك الحجاز الشريف حسين بن علي مديراً لمالية جدة، وعندما دخل الحجاز في الحكم السعودي سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) آثر وبعض زملائه الهجرة إلى الخارج، فتنقّل بين عدد من البلدان منها مصر واليمن والهند والعراق وجزر جاوة، وقد شارك بالكتابة في الصحف العربية التي كانت تصدر فيها، وتولّى إدارة إحدى المدارس العربية هناك، وانتهى به المطاف في عدن وحضرموت حيث انضم مع ابن أخيه حسين عبدالله الدباغ الذي

تذكر المصادر أنه نزح إلى حضرموت في الفترة نفسها وأسس مدرسة في المكلّا، ثم ألقت القوات البريطانية القبض عليه وأعادته إلى السعودية (جازان) وتوفي فيها سنة ١٣٦٢هـ (١٩٤٢م)، أما بالنسبة لطاهر فكان قد استفاد من عفو الملك عبدالعزيز عن رموز المعارضة في شعبان من عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) وعاد إلى المملكة، وعند استقبال الملك له ذكّره بما كان يقوله الدباغ عن أهل نجد وأنهم محدودو التعليم ثم طلب منه أن يتولّى مديرية المعارف العامة.

وقد تولّى مديرية المعارف العامة في مرحلة التأسيس وحتى تحويلها إلى وزارة عدد من الشخصيات، وهم على التوالي: صالح بكري شطا (١٣٤٤ ـ ١٣٤٥هـ)، ومحمد كامل القصاب (١٣٤٥ ـ ١٣٤٦هـ)، ومحمد ماجد كردي (١٣٤٦ ـ ١٣٤٧هـ)، وحافظ وهبة (١٣٤٧ ـ ١٣٤٩هـ)، ومحمد أمين فودة (١٣٤٩ ـ ١٣٥٢هـ)، وإبراهيم الشورى (١٣٥٢ـ ١٣٥٤هـ)، ومحمد طاهر الدباغ (١٣٥٥ ـ ١٣٦٤هـ)، وأخيرًا محمد بن عبدالعزيز المانع (١٣٦٤هـ ـ ١٣٧٣هـ).

بقي الدباغ مديراً للمعارف العامة نحو عشرة أعوام، عُيّن بعدها عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) عضواً في مجلس الشورى قرابة ثمانية أعوام، ثم تنقّل للعلاج بين جدة و لندن والقاهرة، وتوفي في القاهرة ودفن فيها يوم الثلاثاء ١٨/٧/١٣٧٨ هـ (٢٧/١/١٩٥٩م) مخلّفاً ستة أبناء وخمساً من البنات كلهم أشقاء.

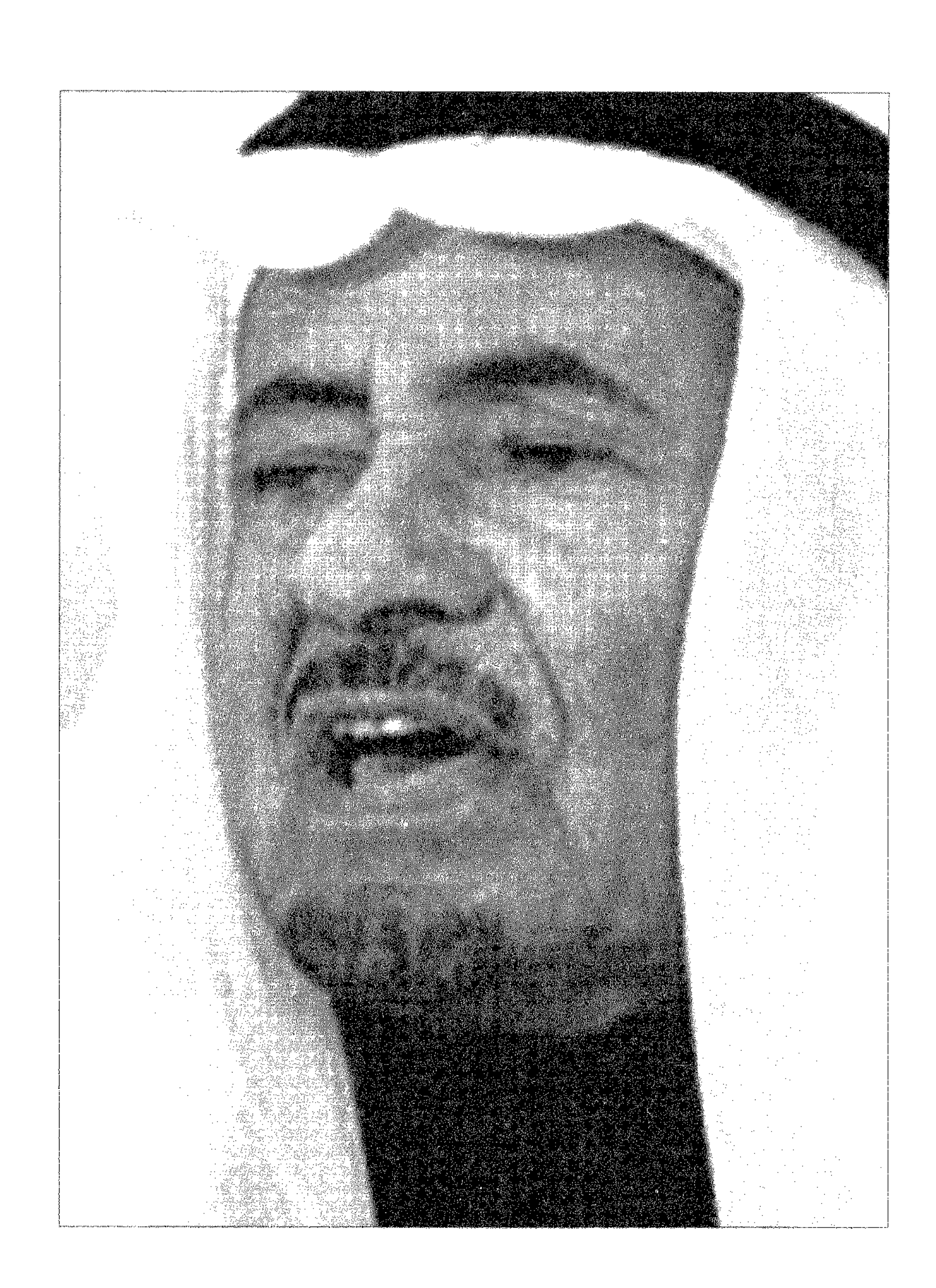
وعلاوةً على نشر التعليم أُفقيّاً في سائر مناطق البلاد، يُسجل له تطوير التعليم نوعيّاً بفتح باب الابتعاث إلى الخارج وبإحداث مدرستي تحضير البعثات ودار التوحيد، وبتغيير المناهج وبإعادة توزيع سنوات الدراسة بين مراحل التعليم، وكان ينظم الشعر، إلا أنه لم يُذكر له إنتاج تأليفي.

(١٣)

عبد الرحمن الرويشد (*)

ظاهرة توثيق فريدة

(*) الشرق الأوسط، العدد ١٣٦٢٧ في ١٤٣٧/٦/١١هـ (٢٠١٦/٣/٢٠م).



مؤرِّخ خاص في اهتماماته، ساعده المحيط الذي عاش فيه في أن يَتّخِذ من التاريخ تخصّصاً، ومن الروايات الشعبية المتداولة مادة للرصد، ومن قربه عندما كان صغيراً لبيوت الأسرة السعودية المالكة القديمة في الصفاة والمربّع، ومن معرفته بسلالاتها وألقابها، مجالاً للتدوين.

قرأ للمؤرّخين ابن بشر وابن غنام وابن لعبون وابن سلّوم وابن خنين وابن عيسى والفاخري، وتفحّص كتب بوركهارت والريحاني وفيلبي وغيرهم من الرحالة والمستشرقين الذين مَرُّوا بالسعودية وألفوا عنها، وقرأ كتب حافظ وهبة وفؤاد حمزة ورشدي ملحس، محققاً الانفراد النوعي في كتابة التاريخ الوطني والشعبي مع قلّة من المؤرّخين المعاصرين، فسار على نهج فريد ومنوال متخصّص في العقود القليلة الماضية.

عاش الرويشد المولود في الدرعية عام ١٩٢٨م في حارات الرياض وعرف أزقّتها وأسواقها وبساتينها، وعاصر التحوّلات التي شهدتها عبر ثمانين عاماً، وأدرك العهود السياسية التي مرّت بها وجالس رجالاتها وتعرّف على أُسرها وبيوتاتها وأعيانها، وحضر حلقات

الدروس مع مشايخها، ودلف إلى صالونات المثقفين من الأمراء ومجالسهم (سعود الكبير وعبدالله بن عبدالرحمن ومساعد بن عبدالرحمن وغيرهم) حيث كان يستمع ويشترك في المناقشات والردود ويدوّن، وكان له من دراسة الشريعة واللغة العربية ونظم القوافي ما مكّنه من التعامل مع أدبيّات التراث وأدواته، ومن مواكبة الأحداث الوطنية.

واطّلع الرويشد على ما تضمّنه الأرشيف العثماني والبريطاني والجمعية الجغرافية الملكية البريطانية بعد أن نُقلت إلى العربية مما يتصل بتاريخ الدولة السعودية في عهودها الثلاثة، وكانت له جهود في توضيح بعض المعلومات المغلوطة في تاريخ السعودية وفي سيرة مؤسسيها، وفي تحكيم بعض المؤلفات والردّ على ما تزخر به بعض كتب المؤرّخين من أخطاء في النقولات، فَنَقَدَ ـ مثلاً ـ بعض ما أورده آرمسترونغ وليسي وبنوا ميشان وڤاسيلييف من روايات، كما قام مع محمد بن عبدالله الحميّد عام ١٩٩٨م ـ وبتكليف من دارة الملك عبدالعزيز ـ بمراجعة الكتاب القديم المثير للجدل «إمتاع السامر بتكملة متعة الناظر» وتوضيح ما عليه من شبهات إكمالاً لملحوظات نشرها أبو عبدالرحمن ابن عقيل.

واستفاد الرويشد كثيراً من قرابته ومجالسته لابن عمه سعد ابن عبدالعزيز الرويشد (ت ٢٠١٤م) أحد كتبة الديوان الملكي الملمّ

بالتاريخ المعاصر لتوحيد السعودية، وكان سعد قد أصدر عام ١٩٥٥م ديواناً عنوانه: «العقد الثمين في قصائد شاعر الملك عبدالعزيز محمد بن عبدالله ابن عثيمين».

واقترب الرويشد أيضاً من الأديب الموسوعي عبدالله بن خميس (ت ٢٠١١م) الضليع بجغرافيا إقليم اليمامة (منطقة الرياض) وتاريخه ليستقي منه المعلومات البلدانية والاجتماعية والتراثية الخاصة بالمنطقة.

ومما انفرد به شخصية المقال عن غيره من المنشغلين بالتاريخ المحلي أنه بنى على أول محاولة وضع نواتها محمد أمين التميمي عام ١٩٤٥م لتصميم مشجّرة الأسرة المالكة، وكان التميمي (المولود في يافا بفلسطين عام ١٩٠٧م) قدم إلى الرياض في عهد الملك عبدالعزيز ليعمل في البداية في وزارة الخارجية، وألّف كتاب «لماذا أحببت ابن سعود ١٩٤٦م الذي أعادت الدارة طباعته عام ١٩٩٩م»، وبعودة التميمي ثانية إلى السعودية عمل مستشاراً في وزارة المعارف، حيث واصل تطوير المشجّرة وإجراء التنقيحات عليها عام ١٩٦٦م.

وبعد تقاعده تولّى الرويشد برغبة من الملك فهد وضع قاعدة معلومات لها على أسس منهجية حديثة فأضاف فهارس أبجدية بأسماء سلالاتها وفروعها وجداولها مع إعادة رسم الشجرة كاملة، مستخدماً الحاسب الآلي لرصد فئاتها ومواليدها ووفيّاتها وأعمارها

وتعدادها (الذي بلغ قرابة ستة آلآف لكل من يحمل اسم آل سعود فيها منذ قيام الدولة قبل نحو ثلاثة قرون) وصار عمله وفهارسه رافداً ومرجعاً لأعضاء الأسرة نفسها وللجهات الرسمية والخاصة المعنية بالتوثيق، وقد طُبعت الشجرة والفهارس طبعات عدة كان آخرها العام الماضي (٢٠١٥م).

نشر الرويشد مقالات تاريخية معمّقة عن شخصيات أسهمت في تأسيس الدولة لم يسبق لسِيَرها أن وُثقت مثل: محمد بن شلهوب «الشهير بشلهوب» (ت ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م)، وعبدالرحمن الطبيشي (ت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٧م)، وهاشم الرفاعي (ت ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م) أحد كتبة الديوان الملكي الذي كان زميلاً للملك عبدالعزيز في كتاتيب الكويت، كما عُني بتوثيق أسماء الرجال الستين الذي دخلوا الرياض عام ١٩٠٢م مع الملك عبدالعزيز وكتب تراجم لهم.

ألّف في موضوعات نادرة لم تصلها يد التوثيق من قبل، فأصدر كتاباً في عام ١٩٩٢م عن تاريخ حصن «المصمك» في الرياض الذي يعود بناؤه إلى نهاية القرن التاسع عشر وانطلقت منه شعلة توحيد المملكة، وألّف عام ٢٠٠٧م كتاباً عن تطوّر العلَم السعودي وشكله عبر العهود الثلاثة للدولة، مفنّداً مزاعم انفراد شخص أو أشخاص بتصميمه في عهد الملك عبدالعزيز، وتضمّن الكتاب وصفاً لشعار الدولة «السيفين والنخلة» والأوسمة والنياشين والشارات والميداليات.

ومن مؤلّفاته؛ كتابه في سيرة الإمام عبدالرحمن الفيصل والد الملك عبدالعزيز (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م)، وكتابه في سيرة وزير المالية في عهد الملك عبدالعزيز (عبدالله السليمان الحمدان ط ١: ٢٠٠١م، وط ٢: ٢٠١٠م) وكتابه في سيرة الأمير محمد بن عبدالعزيز ط ١: ٢٠٠٢م وكتابه «الجداول الأسرية للعائلة السعودية المالكة» ط ١: ١٩٩٨م، ثم ط ٢: ٢٠١٢م، وكتابه المتمّم «الفهرس الأبجدي للعائلة المالكة ط ١: ٢٠١٤م».

وقد أسس ـ إلى جانب اهتماماته بالتأليف في ميداني التاريخ والسير والتراجم ـ دار الشبل للنشر ومطبعتها، وأصدر مجلة «الشبل» للطفل (١٩٨١م)، كما عمل مستشاراً غير متفرّغ لدارة الملك عبدالعزيز، وكان ممن فكّر وأسهم بفاعلية في التحضير للاحتفال العلمي بالذكرى المئوية لاستعادة الرياض (١٩٩٩م) التي آذنت ببدء تأسيس المملكة العربية السعودية.

وكان ممن يركن المسؤولون إلى تقويمهم ما ينشر من كتب تاريخية، وممن يستأنس الباحثون والدارسون بمعلوماتهم وينقلون عنهم، حيث لا تكاد تخلو الكتب التاريخية الصادرة في العقود القليلة الماضية من الاستشهاد بمعلومات يكون الرويشد مصدرها، وقد أسس على مدار هذه العقود أرشيفاً للصور ومخزناً من المعلومات ومكتبة لا تقدّر أهميّتها بثمن، بالإضافة إلى مكتب بصدر مفتوح

صار مرجعاً لاستقبال الباحثين.

وهكذا كان الرويشد ـ في غياب المؤرّخين قريبي الصِّلة بالأسرة المالكة، وذوي المعرفة بأسماء أفرادها وقصصهم وخلفيّات الألقاب المميّزة لفروعها، وبالثقافة الشعبية، وفي ندرة الملمّين بتاريخ العهود الثلاثة للدولة مجتمعةً ـ ظاهرة توثيقية نادرة، يسدّ الفراغ في هذه الأمور، وينفرد بتغطيتها، حتى صار ـ كما ذكرت ـ مرجعاً فيها لمن يحتاجها من الدارسين.

توفي الرويشد في الرياض، يوم الإثنين ٢٧ ربيع الأول ١٤٣٨هـ (٢٦ ديسمبر ٢٠١٦م) عليه رحمة الله.

(١٤)

محمد الحمد الشبيلي (أبو سليمان)(*)

دبلوماسية الأخلاق

(*) المجلة العربية: العدد ٤٧٤، رجب ١٤٣٧هـ (أبريل ٢٠١٦م).



وبالرغم من مرور سنوات على رحيله، فما زال اسمه حديث الذكريات، وضيفاً يتصدّر المجالس بعفويّة، والسؤال عن كتاب سيرته لا يتوقف، ورسمه يلمع عند الناس كلما خطر في بالهم، يتعدّى حدود عشيرته ومسقط رأسه (عنيزة) وديوان الوزارة التي ينتمي إليها، إلى أفق أرحب على مستوى المملكة العربية السعودية والدول الخمس التي عمل فيها سفيراً (العراق وباكستان والهند وأفغانستان وماليزيا).

إنها ثمرة «دبلوماسية الأخلاق» المدرسة التي مارسها، وتُذكر حيثما يُذكر، فهو لم يتخرج من أكاديمية العلوم السياسية مثل معظم الساسة والسفراء والدبلوماسيين في العالم، ولم يحصل على الشهادات العليا من الجامعات المرموقة، ولم يُعهد في تنشئته كعادة العرب إلى حكيم في السياسة كما كانت تفعل الأسر الأرستقراطية والأميرية عبر التاريخ.

فمن أين جاء «أبو سليمان» كما كان يعرف مجتمعيّا، «كنية» تكفي للدلالة على اسمه وعنوانه، منذ أن تسيّد مكانه بين السفراء السعوديين في الخارج، بعيداً عن الألقاب التبجيلية الأخرى؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال البسيط، لابد من القول إن تعبير «دبلوماسية الأخلاق» ليس من ابتكار كاتب هذه السطور، بل كان من قول د. عبدالوهاب أبو سليمان أستاذ الشريعة في جامعة أم القرى، وعضو هيئة كبار العلماء، الذي وقف هو و د. عبدالستار سيرت وزير العدل في أفغانستان (إبان حكم ظاهر شاه) على منبر النادي الأدبي بمكة المكرمة وهما يحلّلان مفاتيح شخصيّته إثر صدور الكتاب، ويذكران مناقبه الدبلوماسية والأخلاقية، التي جعلته بفضل الله يحتل كل هذه المكانة الأثيرة التلقائية في مجتمعه، وفي المجتمعات الخمسة التي عمل فيها.

ومنذ أن تشرفت بالعناية بتدوين ملامح من سيرته بعد وفاته، بدأتُ محاولة العثور على إجابة لهذا التساؤل: من أين جاء أبو سليمان؟ تساؤل كثيراً ما قاد إلى تساؤلات أخرى؛ من أين اكتسب مؤهلاته ؟ ومن أي مدرسة من مدارس الأخلاق تخرّج؟ وهي تساؤلات كثيراً ما تلقّاها أقاربه، ولا يكفي أن يكون الردّ عليها بعدم المعرفة، فكثير من السائلين يريد جواباً عليها، حاضراً وشافياً وكافياً.

في تصوّري الذي لا يعدو كونه اجتهاداً شخصيّاً، أن الجواب على هذا السؤال يكمن في ثلاثة عوامل؛ الأول أن جده لوالدته (سليمان الناصر الشبيلي) قد عُرف في زمنه (بداية القرن الماضي) بخصال قريبة مما عرف عند حفيده وعند عدد آخر من أحفاده، فقد توارثوا

صفات متقاربة من مكارم الأخلاق، وكان جده هذا بالمناسبة على صلة مع الإمام عبدالرحمن الفيصل، ومع نجله الملك عبدالعزيز، ومع الشيخ مبارك الصباح، وتوجد وثائق تنبئ عن تلك الخصال في سيرته ومكاتباته.

العامل الثاني: أن أبا سليمان كان قد أمضى في بداية عمله ما يقرب من خمسة عشر عاماً فيما يمكن تسميته «أجواء ديوان الملك عبدالعزيز» بما فيها من ممارسات «المراجل» والكرم والضيافات والأعطيات، فلا غرابة أن يتطبّع شخص لديه الاستعداد الوراثي ورضع الكرم من جذوره الأسرية بطباع يراها قريبة إلى ميوله.

والعامل الثالث: أنه عاش في جميع السفارات التي تولاها أعزباً وحيداً، دونما أسرة أو أطفال أو أحفاد كان يمكن لو عاشوا حوله وملأوا عليه حياته أن يمتصّوا بعضاً من عواطفه ويشاركوا غيرهم فائض مشاعره وحبه للآخرين، جدير بالذكر أن ابنه الوحيد قد توفي بعده بخمسة عشر عاماً (١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٥م) ولم يخلّف ذرية، وبالتالي فإن نسلهما قد انقطع إلا من هذا الرصيد الكبير من الذكر الحسن.

عُرف أبو سليمان نادراً في خصاله، وَذَا علاقات وصداقات واسعة كان لها تأثير كبير في سفاراته، وَذَا شخصية غاية في النبل والإيثار والتواضع ولين الجانب، بالغ الإكرام من غير ما يُسر، وعطوفاً للغريب والقريب والطفل والكبير، آسراً في حديثه لبقاً في رواياته، يوظّف هذه

الخصال دونما تصنّع أو تكلّف في دبلوماسيته مع الزعماء والقيادات، ويستثمرها تلقائيّاً في علاقاته مع المناوئين تماماً كما كان يطبّقها مع الأصدقاء، يحتوي أصحاب المواقف المتشدّدة، من دونما تلقّي توجيه بذلك.

كان أغلب من تحدثوا عنه، يميلون إلى ذكر مناقبه في البذل والكرم مع من يعرف ومن لا يعرف، ويكثرون من رواية المواقف والحالات التي عاشوها معه أو سمعوها عنه في ولائمه وضيافاته، وفي تغطية نفقات الفنادق والمواصلات لكل سعودي يقدم، يطلب من الفنادق إبلاغه عن القادمين، يخرج لاستقبالهم ولتوديعهم، ممارسات لا يصدّقها إلا من حدثت له، لكنه في الواقع كان يقوم بما هو أبلغ من ذلك، فخصلة الكرم لم تكن سوى واحدة من خصاله، كفتحه باب التواصل مع سفراء لا يوجد اعتراف سعودي سياسي بدولهم، وعدم غلقه باب الاتصال مع سفراء انقطعت العلاقات الدبلوماسية مع دولهم، واستضافة زعامات سياسية للحج على نفقته حتى لا يكلف ضيافات الحكومة أعباء ذلك، وسعيه للحصول على عضوية لإحدى الدول العربية في منظمة دولية، ومساعدته مئات النجديين المقيمين في العراق على استعادة جنسيتهم الأصلية، إلى أن صدر تنظيم من الحكومة السعودية بذلك في عهد الملك فيصل، وقد قام بتلك الجهود دون ذكر أو إعلان أو أضواء، حيث لم تذكر له مقابلة صحفية أو تلفزيونية أو إذاعية واحدة.

وبعد صدور كتاب سيرته عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م تسابقت الصالونات الثقافية للاحتفاء بالرجل وبسيرته، ولا زلت أذكر الدمعات التي انحدرت على عيني الملك عبدالله وهو يتسلم نسخة من الكتاب عند صدوره، ثم يسرد بعضاً من ذكرياته معه، ويحتفي بتخصيص مجلسه ذلك اليوم لاستذكار عاطر سيرته، ويخصّ مؤلّفه برسالة معبرة، تليق بمكانة المُرسل وبشخصية الكتاب (أبو سليمان).

أما الملك سلمان، فلقد كانت مشاعره نحوه لا تتوقف، وبخاصة عندما كان أبوسليمان يتلقى العناية في مستشفيات الرياض، فكانت كلمته ترن في الأذهان عندما قال ما معناه: «**إذا أردتموه ينهض من سريره أخبروه بوجود ضيوف في انتظاره**» في تعبير عن ناموس أمضى عليه عمره.

ولد أبو سليمان في عنيزة في حدود عام ١٣٣٠ هـ/١٩١٠م ودرس في كتاتيبها، ثم رحل إلى البصرة ليدرس في مدرسة الرجاء العالي، ثم عاد إلى المملكة فالتحق بالديوان الملكي في حدود عام ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م معاصراً لعدد من المسؤولين العاملين فيه أمثال إبراهيم بن معمر وعبدالله بن عثمان ومحمد بن دغيثر وقريبيه عبدالعزيز الناصر الشبيلي ومحمد عبدالرحمن الشبيلي وعلي النفيسي وعبدالله عبدالعزيز التويجري وعبدالله بن عبدالمحسن وعبدالله السليمان وشلهوب وغيرهم، تلك الفترة الذهبية التي ظهر فيها كثير من المستشارين السياسيين

السعوديين والعرب، ممن سبق أن تناولت أسماءهم وسيرهم في عدد من المقالات والمحاضرات، وبرز فيها دور الشعبة السياسية، وكان أبو سليمان يراقب حركة الأمور الإدارية والسياسية تتم بتناغم عجيب بتصريف الملك المؤسس عبدالعزيز، ويدور هو أي أبو سليمان في فلكها مستفيداً من الخبرة الفريدة المتاحة له ولغيره.

في مطلع الستينيات الهجرية (الأربعينيات الميلادية) انتقل من الديوان الملكي ليبدأ أبو سليمان مسيرة حياته الدبلوماسية بالقنصلية السعودية بالبصرة، نائباً لفخري شيخ الأرض ثم استقل بها، وفي منتصف السبعينيات الهجرية عيّن سفيراً في باكستان ثم في الهند فالعراق، وأفغانستان، وانتهاءً بماليزيا التي أقام فيها سفيراً مدة تربو على خمسة عشر عاماً حتى أعياه المرض وانتقل إلى الرياض وتوفي فيها بعد فترة استشفاء فيها وفي ألمانيا دامت نحو عامين، ومن المعروف أنه كان قد عُيّن في بداية الثمانينات الهجرية وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية، لكنه أبدى رغبة في الاعتذار عن قبول التعيين تعفّفاً عن المنصب.

عندما اتصل بي رئيس تحرير هذه المجلة، يستكتب بإلحاح مقالاً عن موجز سيرته كما تضمّنها الكتاب، كنت أثق بأن حيّز المقال المطلوب لن يوجز سيرته، بل لن يستوعب الروايات التي وردت بعد صدورها، وسينظر عارفوه إلى المقال نظرة تقليل من مستواه مقارنة بمكانته

الرفيعة في الأذهان، إلا أنه ما كان بالوسع الاعتذار مع التأكيد على مسألتين؛

الأولى: أن المدرسة النموذجية الفريدة لهذه الشخصية وغيره من الشخصيّات النادرة التي سبقته أو أتت من بعده، جديرة بأن تُضمّن في صلب المناهج في أقسام العلوم السياسية والدراسات الدبلوماسية، وهو ما يطالب به من كتب عنه بعد رحيله.

الثانية: أن سمعة المآثر الاجتماعية الفاضلة التي خلّفها أبو سليمان في مجتمعه، قد ألقت مسؤولية كبيرة على ذويه، وعلى نظرائه من الدبلوماسيين السعوديين، على أمل أن يحتذوا ما يستطيعون من ملامح سيرته ومن خصال من يشابهه من جيله أو جاء من قبله أو بعده، وقد درج الكثيرون على التشبيه والمقارنة بينهم والتذكير بمواقفهم مع المواطنين في الخارج، وإن كانت بعض الطباع يصعب تقليدها أو التطبّع بها، أو نيلها إلا أن يشاء الله، فأبو سليمان «موسوعة من الأخلاق» دام عليها منذ أن ترعرع في حضن أبويه وفي محيط أسرته، ثم داوم عليها دونما تكلّف كما سبق طيلة عمره الإداري والدبلوماسي الذي استمر ستين عاماً (توفي عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م) مما يدل دلالة واضحة على أنها كانت جزءاً من جيناته، التي وهبها الله له وخُلق معها.

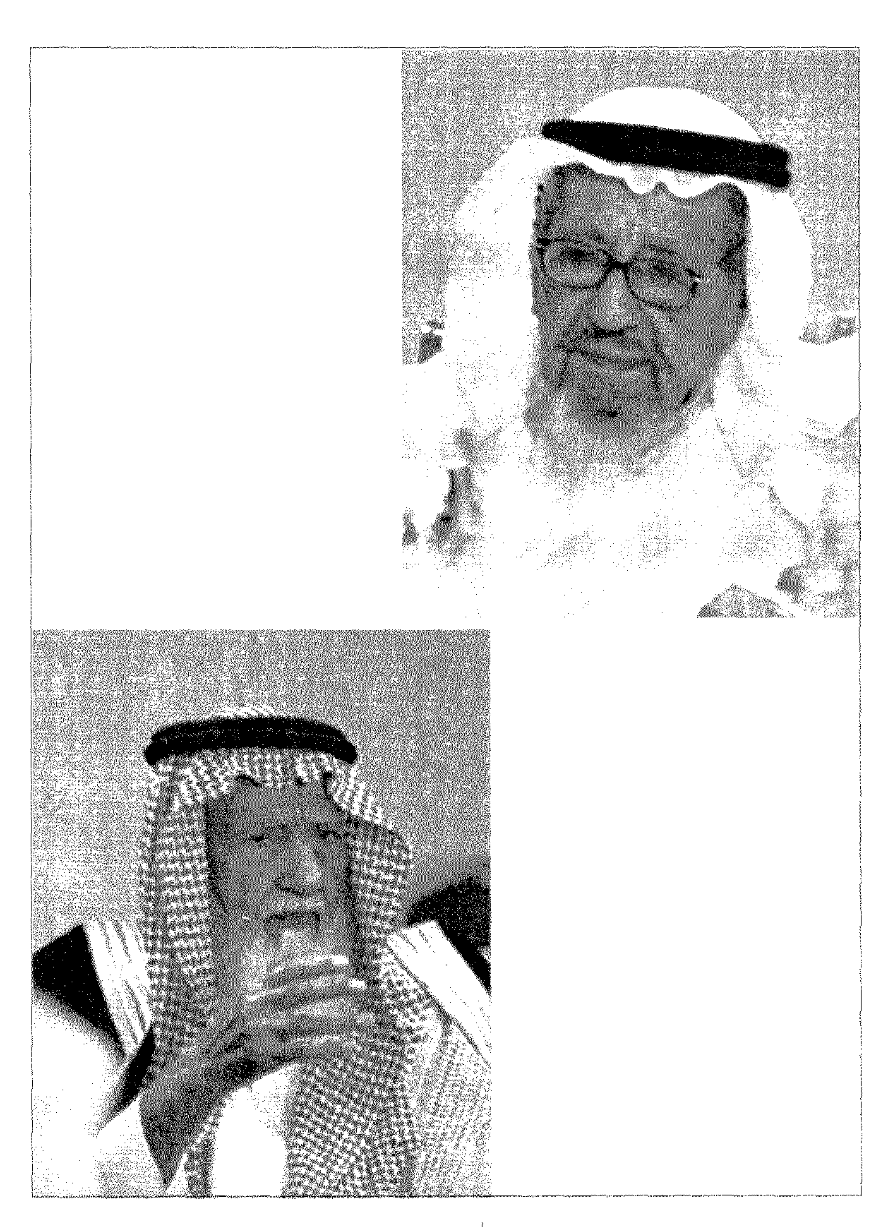
وفي هذا العام الذي ينشر فيه هذا المقال، يكون قد مرّ على وفاته ما يقرب من ثلاثة عقود، وعلى صدور الكتاب نحو ربع قرن، وما زالت

المطالبات ترد من محبّيه بتوفير الكتاب في نقاط البيع، وبتحديث معلوماته، وبإعادة طبعه طبعة ورقيّة شعبية، تكون في متناول الجميع، والأهم من كل ذلك أن جذوة محبته بين الناس ما زالت شعلةً ينمو بريقها ووهجها في المجتمع، يذكّر بالمآثر التي صنعها، لتؤكّد بأن العُرف والمعروف لا يمكن أن يذهبا بين الله والنّاس.

(١٥)

السبيعي إخوان:
محمد وعبدالله إبراهيم السبيعي (*)
رحلة الاعتدال من ضيق الحال إلى المال

(*) الشرق الأوسط: العدد ١٣٧٠٥، في ١٠/ ٩/ ١٤٣٧هـ (٦/ ٦/ ٢٠١٦م).



محمد وعبدالله إبراهيم السبيعي

ثنائي شقيق كتوأمين، يشبه أحدهما الآخر في كل شيء؛ في أسلوب الحياة، وفي الفكر التجاري، وفي استقبال الناس، وفي المشاركات الاجتماعية، أحدهما يقيم في الرياض والثاني يستقر في جدة، تزور أحدهما فتظن نفسك في بيت الثاني، فهما يتكاملان في المنازل وفي التزاوج بين الأبناء والبنات، يطابق وضعهما شكل البيوتات التجارية العريقة التي تنعقد بين أخوين أو شريكين فيكمل أحدهم الآخر، كان أمثال هؤلاء الشركاء فيما مضى، يتقاسمون المنازل ويتناوبون الإجازات، وتدوم تجارتهم المشتركة لتنتقل إلى الأحفاد، وقد يفضّونها عن تراضٍ بينهم في سنّ متأخرة خشية نشوء خصومة لاحقة بين الأولاد.

بدأ الأخوَان «السبيعي» حياة عصامية، ومرّا بتجارتي التجزئة والجملة، وقادهما الحظ فيما بعدُ إلى الصّيرفة التقليدية حتى صار مصرفهما في الستينيات الميلادية علامةً بارزة في شارع «قابل» بجدة وفي قيصرية البلدية بالرياض، وعندما اتجهت مؤسسة النقد العربي السعودي (البنك المركزي) إلى لمّ شتات المصارف الفردية قبل أعوام في بنك عصريّ موحّد بادرا إلى مباركة الفكرة بالتضامن مع نظرائهما الصيارفة وأسسوا «بنك البلاد» بأسلوب التورّق والصيرفة الإسلامية،

برأس مال اشتركوا فيه بحسب نسب أصول كل شريك، ويُعدّ بنكا «البلاد والإنماء» أحدث البنوك السعودية (٢٠٠٤ و٢٠٠٨م على التوالي).

ومن أطرف ما يُقال عن الشراكة التجارية للأخوين (السبيعي) إنهما مع بُعد المسافة بين إقامتيهما في الرياض وجدة، يوقّعان توقيعاً واحداً مشتركاً يحمل اسميهما معاً، يبلغ من التعقيد ما قد يعجز أمهر المزوّرين عن تقليده،

صدر عن حياة أكبرهما (محمد) كتابان؛ أحدهما عن سيرته عام ٢٠٠٧م وتُرجم إلى الإنجليزية لاحقاً، وأما الكتاب الثاني فقد ضمّ الأشعار النبطية التي قالها في مناسبات أسرية واجتماعية مختلفة، وهو بالمناسبة ممن يهوى الشعر العامي ويجيد التغنّي به، والواقع أن كتاب السيرة الذي ألّفته ابنته «هدى» يُعبّر كل التعبير عن عمّها (عبدالله الذي يصغره بسنوات قليلة) وذلك بحكم التشابه الكلّي بينهما.

تحوّل كتاب سيرته عام ٢٠١٣م إلى سيناريو، ومنه إلى نصّ وصورة، في فيلم توثيقي مؤثّر عن رحلة الأخوين المتوازنة من الفقر إلى الغنى، دون بذخ ولا بطر، انتقل الأخَوان خلالها من مسقط رأسيهما (عنيزة) إلى مكة المكرمة، حيث كانت فرص التعليم والمعيشة أفضل، تنقّلا فيها عبر ثمانين عاماً بين وظيفة متدنّية الأجر إلى عمل البناء بالطوب، ثم عادا للسوق فشكّلا بالتدرّج تجارة تقوم على التجزئة وعلى الصرافة والتحويلات، وتطوّرت مع مجموعة مماثلة من الصيارفة الروّاد كما

سلف، لتصبح عملاً بنكيّاً متقدّماً، لكنهما وقد كانت العفّة والتديّن ركيزة أساسيّة في تربيتهما، لم يُغفلا الجانب الخيري الموازي لتجارتهما فأسّسا مؤسسة خيرية رائدة تقوم فكرتها على تعويد الأسر على الإنتاج والعمل على مستوى الوطن، ولم ينسوا مسقط الرأس (عُنيزة) من عمل استثماري منتج قِوامه عدد من المشروعات الزراعية والسياحية والتنمويّة النافعة.

ثم إن من طريف ما يُعرف عن الشيخ محمد وهو الذي يحفظ القرآن الكريم منذ صغره عن ظهر قلب أنه يجيد التلاوة في إمامة الصلاة الجهرية، وذلك بالرغم من عدم فصاحة النطق عنده في الحديث اليومي الدارج.

رحلة محمد وأخيه عبدالله ابني إبراهيم السبيعي، اللّذين ولدا في عنيزة بمنطقة القصيم، ثم ارتحلا يضربان في الأرض ابتغاءً لفضل الله، فاتجها غرباً نحو مكة المكرمة طلباً للعلم والتجارة، ثم افترقا مكاناً لا قلباً، ليُكرمهما الله على قدر نواياهما الطيبة، لم تغيّرهما المادة، ولم تبدُ على أسرتيهما مظاهر التبذير والإسراف والترف والتنكّر لنعمة الله، بل ظلّتا محافظتين متواضعتين موثوقتين في السوق والمجتمع، يغلب على تصرّفهما الاستقامة والسمت والمصداقية والقيام بواجبات الضيافة وقضاء لوازم الناس والمعوزين، والتواصل الأسري، وأداء الالتزامات الاجتماعية، والإسهام سرّاً وعلانيةً في المبادرات والمشروعات النافعة

من خلال مؤسستهما الخيريّة الوقفيّة وعبر الجهود الفرديّة، ووفاؤهما المستمر لمسقط الرأس، وذلك فضلاً عن التزامهما الظاهر والباطن بالشعائر الوسطية الدينية المنضبطة، يصدُق عليهما قولُ الحق سبحانه في سورة النور: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (سورة النور: ٣٧).

(١٦)

عبد العزيز بن عبد العزيز بن ماضي (*)

أميـــر الخُبـــر

(*) الشرق الأوسط، العدد ١٣٨١٦ في ٢٣/ ١٢/ ١٤٣٧هـ (٢٥/٩/٢٠١٦م).



تُؤخذ حياته وسيرته نموذجاً لعدد من رجالات أسرته، ممن لحق بهم أو عاصرهم، إذا ذُكرت أسماؤُهم يطرب المجلس لذكرهم مثلما يعبق التاريخ بشخصيّاتهم، لم تعُد أعلامهم تنتمي حصراً إلى مُدنهم وأقاليمهم، بل صاروا رموزاً للوطن، شهدت لهم بقاع كثيرة فيه من جازان وعسير جنوباً إلى ضبا شمالاً والقطيف والخُبر شرقاً، ومايزال في أسرتهم رجال ونساء أمجاد وأكفياء متفوّقون في مختلف التخصصات العلمية والهندسية، سيماهم تظهر في سلوكهم وأعمالهم؛ وتتجلّى بالوطنية والإخلاص والنزاهة وصلة الرحم.

وفي التاريخ المعاصر للسعودية وشبه الجزيرة العربية، ذكر يتردد لأمثلة من هذه الأسرة؛ كجدهم الأول محمد بن ماضي (المعروف براعي المنقيّة) المعاصر للشاعرين الشعبّيين المشهورين رميزان التميمي وحميدان الشويعر (نهاية القرن السابع عشر حتّى منتصف القرن الثامن عشر) في عهد الدولة السعودية الأولى ، ثم مشاري بن ماضي والشاعر تركي بن ماضي (الجد) المتزامنين مع عهد الإمام تركي بن عبدالله مؤسس الدولة السعودية الثانية.

وفي العهد الحديث، عبدالعزيز بن جاسر بن ماضي وأبناؤه محمد وعبدالعزيز (شخصية هذا المقال) وتركي بن محمد وأخواه عبدالله وحمد الماضي، وابنه محمد بن حمد الماضي (أبو حمد عميد أسرة الماضي الآن) الذي عمل في ديوان الملك عبدالعزيز.

ومن يقرأ في المذكرات المطبوعة لأحد رجالات هذه الأسرة وهو (تركي ابن ماضي) يدرك أهميّة المسؤوليّات التي قام بها ضمن الوفود المرسلة إلى اليمن بين عامي ١٩٢٤ ـ ١٩٣٣م إبّان النزاع القديم مع السعودية، الذي هدأ باتفاقية الطائف المعروفة (١٩٣٤م) ثم لحقتها جولات لتسوية القضايا الحدودية، وكان تركي بن ماضي يكتب تلك المذكرات تباعاً ويحفظها مخطوطةً، ثم اكتشفها ابنه د. فهد الماضي ضمن مقتنيات والده وعمل على نشرها بتشجيع من الأمير (الملك) سلمان أمير منطقة الرياض آنذاك ورئيس دارة الملك عبدالعزيز، وصدرت عام ١٩٩٧م وقد عُيِّن عام ١٩٣٣م أميراً (حاكماً إداريّاً) على بلاد غامد وزهران (منطقة الباحة) ثم على منطقة نجران (١٩٣٧م) فمنطقة عسير (١٩٥١م) وتوفّي مستشفياً في لبنان عام ١٩٦٥م ودفن في مكة المكرمة.

أما شخصيّة المقال (الذي سمّي باسم أبيه المتوفّى قُبَيل الولادة كعادة بعض الأُسر) فمخضرم، تزامنت ولادته مع دخول إقليمي

الأحساء والقطيف في حكم السلطان عبدالعزيز (١٩١٢م) وعاش تأسيس المملكة العربية السعودية وذروة التحوّل الكبير فيها؛ من العَوَز إلى اكتشاف النفط، ومن الخوف إلى الأمن والاستقرار، ومن الجهل إلى المعارف، ومن الافتراق إلى التجمُّع والوحدة، ومن بيوت الشَّعر والطين إلى ناطحات السحاب، ومن بريد الجَمّالة إلى البريد الإلكتروني، وأدرك بوعيه الكامل عهود خمسة ملوك، وتنقّل في المسؤوليّات في مناطق عدة كان في آخرها أميراً لمدينة الخُبر على ساحل الخليج العربي حتى عام ١٩٥٥م.

أجريتُ معه (يناير ١٩٧٧م) لقاءً تلفزيونيّاً توثيقيّاً مطوّلاً ما يزال محفوظاً، لكنه مُتاح عبر قناة اليوتيوب، تناول فيه منبع أسرته وسيَر رموزها، ونشأة مدينتهم روضة سدير» الداخلة « والبلدات المحيطة بها، والأسر التي استوطنتها أو خرجت منها، والنزاعات التي كانت تحدث بينها قبل توحيد أقاليم نجد، وتحدث فيه عن جغرافية إقليم سدير وعلاقته بالوادي المعروف (وادي سدير حالياً، الفقي قديماً)، وسبب تسمية الإقليم وأبعاده ومدنه وقراه وروضاته وواحاته، والأساطير المنسوجة عنه والأشعار العاميّة الموروثة حوله، وروى بعضاً من نظمه، كما عرّج على سيرة أخيه الأكبر(محمد بن عبدالعزيز بن ماضي) الذي رافق الملك عبدالعزيز عن قُرب، وشارك في بعض غزواته منذ

دخول الأحساء والقطيف في حكمه (١٩١٢م).

وأورد شيئاً من ذكرياته الشخصيّة مع الملك فيصل حيث جالسه سنوات عدة، والمسامرات التي كانت تتم مع بعض الشعراء من حوله (كعبد الله بن لويحان والأميرين فهد بن سعد بن عبد الرحمن وعبد الله الفيصل) وتطرّق إلى بعض المسؤوليّات التي كُلّف بها والمغازي التي شهدها شخصيّاً، كتلك التي وقعت في منطقة عسير بقيادة عبد العزيز ابن مساعد بن جلوي، وعدَّد أسماء المؤرّخين والشعراء المتأخّرين والمعاصرين في إقليم سدير (ومنهم أحمد المنقور والفاخري وابن بشر وابن جعيثن وابن لعبون وابن صالح وابن هويدي وسليمان بن مشاري بن علي والمعجل) وتحدّث عن عادات أهل سدير وتقاليدهم، وغيرها من الذكريات التي لا يتّسع المقام لذكرها.

استقر في العقود الخمسة الأخيرة من حياته منذ عام ١٩٤٨م في مدينة الخُبر التي أحبّها وتوفّي فيها منذ ما ينيف على عقدين، وعقد علاقات وثيقة مع جيله من الأعيان والمثقفين ورجال الأعمال في المنطقة الشرقية من السعودية (الدمام والقطيف والظهران والخُبر وما جاورها) ومع الشباب من طلاب جامعة الملك فهد للبترول والمعادن في الظهران وفرع جامعة الملك فيصل بالمنطقة الشرقية، قبل تحويله إلى جامعة مستقلة (جامعة الدمام) وغيرهما.

فلقد عُرف مجتمع تلك المنطقة على مرّ العقود بنسبة عالية من التآلف والتوادُّ والتآخي والتواصل الاجتماعي، وكان منزله مقصدَهم ومُنتداهم، يتذكرون طُرفَه ومسامراته وحكاياته الإخوانية معهم، ورواياته من التراث، وقد اختاره أمير المنطقة الشرقية محمد بن فهد ابن عبدالعزيز مستشاراً له.

وكان طيلة حياته معروفاً بتواصل وشائج الرحم مع أقاربه في المناطق الأخرى، وبخاصة في المناسبات والأعياد.

«ابن ماضي» - أو أمير الخبر كما يُميّز - نموذج من هذه الأسرة وغيرها، الذين أسهموا جميعاً، كل بقدر ما يمتلك، مع المؤسسين العظماء (الملك عبدالعزيز ورجاله وقادته من كل أرجاء وطنهم) وصنعوا أسطورة الوحدة التي تسمّى اليوم المملكة العربية السعودية، ويحتفل أولادهم وأحفادهم بالحمد وبالفخر في هذه الأيام، بذكرى يومها الوطني الرابع والثمانين الميلادي (السادس والثمانين الهجري).

ومنذ أن صارت المملكة تحتفل رسميّاً بيومها الوطني قبل بضع سنوات، والمجتمع يُبدي من المشاعر في هذه المناسبة ما كان يتطلّع لإظهاره عبر عقود مضت، من استذكار قصص البطولات التي قام بها جيل التأسيس من كل أنحاء الوطن، الجيل الذي ضحّى بغالي

أبنائه ودمه، وبذل نفيس ماله، ووقف بالقول والعمل، لمؤازرة مشروع الملك المؤسس في لمّ شتات الجزيرة، ولصنع وحدة نموذجية تنعم بها االأجيال، وقد بقيت تدين له بالفضل بعد الله لما تحقّق على يديه، من وحدة وأمن ورخاء.

وما القراءة في سيَر الأجيال المتعاقبة، إلّا محاولة لإحياء مناسبة توحيد المملكة العربية السعودية في أذهان النشء، ولإبقائها متوهّجةً في سجل خلودها.

ثانياً :

محاضرات..

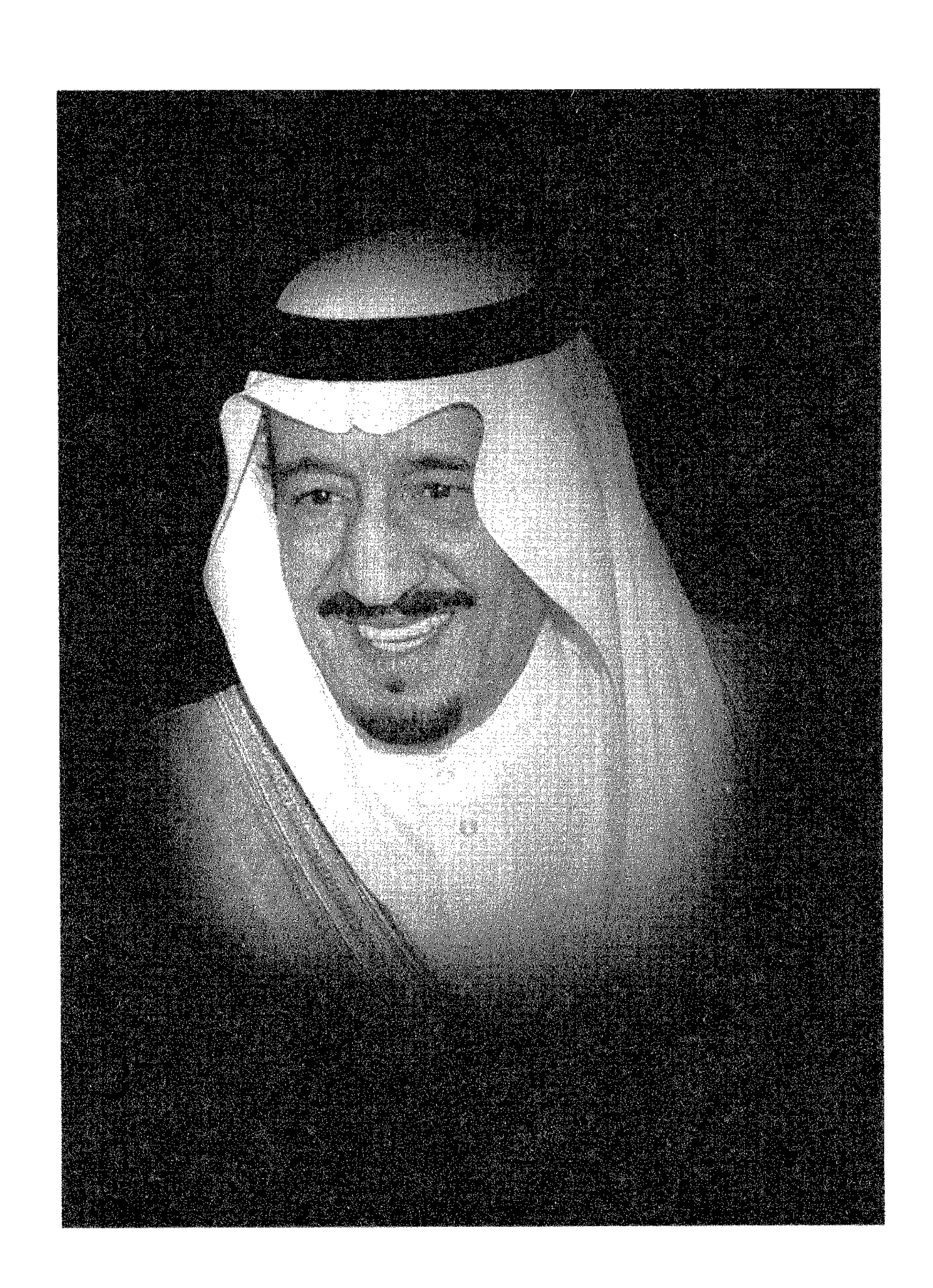


(١٧)

سلمان بن عبد العزيز(*)

مُدركات المعرفة في تكوينه الذهني

(*) محاضرة في جامعة بيشة، الثلاثاء ١٤٣٧/٤/١٦ هـ (٢٠١٦/١/٢٦م)، ونشرت في جريدة الشرق الأوسط، العدد ١٣٥٧٢ في ١٤٣٧/٤/١٥هـ (٢٠١٦/١/٢٥م)، والمحاضرة مطبوعة.



تسعى هذه المحاضرة لاكتشاف السمات الفكرية في شخصية الملك سلمان وتكوينه المعرفي باعتبارها مؤهلات نوعية مضافة في المقدّرات القيادية المميزة التي ينفرد بها القليل من الزعامات، ولعل في اختيار العنوان ما يبرز هذا المقصد، فالمُدركات ـ ومفردها مُدركة ـ تعني الدلالات والمؤشرات، وكثيراً ما تُستخدم في الجوانب الذهنية والتربوية والمعرفية ونحوها، وهي بالإنجليزية: (*The Perception*).

وفي مدخل الحديث، لابدّ من الإشارة إلى تلك القدرات الذهنية التي ورثها عن والديه، فما من شخصيّة سعودية معاصرة يستعيد مجتمعنا قسماته الفكرية وأسطورة دهائه ومناوراته وشيَمه، وما حالف خطواته من حظّ وتوفيق، مثل شخصيّة الملك المؤسس (المولود عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) الذي خرج من الكويت وهو في السادسة والعشرين ليكافح من أجل توحيد هذه البلاد ثلاثة وخمسين عاماً أخرى، قضى نصفها في كرّ وفرّ، والنصف الثاني في بناء وتنظيم، حتى إذا ما لمّ شتات هذا الكيان الكبير أودعه وهو في الثمانين من الأعوام الهجرية (السابعة والسبعين الميلادية) من العمر إلى أبنائه وأحفاده من بعده.

وقد اكتسب كثير من أبنائه الستة والثلاثين معرفة عميقة بالأحداث

التي مرّت بالدولة منذ قيامها قبل ثلاثة قرون، وإلماماً شاملاً بالمراحل الثلاث التي اجتازتها، وأصبحوا أكثر ما يكونون إحاطةً بجغرافيا الجزيرة وبحاضرتها وباديتها وبموروثها الأدبي وبتقاليدها، وبما يكون عليه الخيّالة حذقاً بمهارة القنص والفروسية وفنون العرضات وإبداعاتها، وبالقدرات التي تُكتسب بالإرث والهواية والممارسة، ولقد تناول كثير من الباحثين المحليين والعرب والغرباء ومنهم فيلبي والريحاني والزركلي ومحمد أسد وديكسون وآرمسترونغ وفان دير مولن بعضاً من ملامح شخصية الملك المؤسس وعلاقة أبنائه به، وتمكّنهم من الاطلاع على ما يجري من شؤون الدولة، وعلى ما يرد إلى الديوان الملكي من صحف خارجية، وقد ظل الأبناء يستعيدون في مجالسهم وذكرياتهم معاملة والدهم لهم، فخورين بأسلوبه الأبوي التربوي توجيهاً وممارسةً، ويُقرّرون بالإجماع أن المدرسة الأولى التي تخرّجوا فيها كانت مدرسته حيث لم تشغله أمور الدولة عن الاهتمام بتنشئة أبنائه وبناته والأسرة كافة، وروى بعض الأبناء شيئاً من ذكرياتهم معه، مقتصرين على روايتها شفهيّاً دون تسجيلها مصوّرةً أو تدوينها مطبوعةً باستثناء ما رواه الأمير طلال والملك سلمان في ذكرياتهما الموجزة، والأمل كبير في أن يهتم الملك سلمان في تسجيل ما تختزنه ذاكرة أبناء المؤسس وأحفاده والأسرة كافة من معلومات عن تلك الحقبة التاريخية المهمة التي عاشوها مع الملك المؤسس، خاصة وأن الملك سلمان يحمل المسؤولية التوثيقية الأولى في البلاد.

وهكذا كان الملك عبدالعزيز والبيئة التي نشأ فيها أبناؤه من أقوى المؤثّرات في تكوينهم، وفي صقل شخصيّاتهم وطباعهم، وفي المَعين الذي نهلوا منه ثقافاتهم ومعارفهم، وقُدِّر لابنه الخامس والعشرين سلمان (المولود يوم ٥ شوال ١٣٥٤هـ/ ٣١ ديسمبر ١٩٣٥م) وكغيره من إخوته، أن يُقارب في أسلوب حياته وفي عاداته لمدرسة والده، ويقترب من تاريخه المعيش والمرويّ والمدوّن، ويكتسب مهارة القيادة وهيبتها وإرث الاستحقاق للحكم من خلال فرص تراكميّة متنوّعة أُتيحت له عبر السنين، فكان يشترك معه بالاستعداد الفطري والشّبَه في الملامح والعادات والتقاليد واللهجة والصوت، وهو أمر طبيعي بحكم الوراثة والبيئة التي نشأ فيها والتربية المتجانسة التي تلقّاها قريباً من والده، مما نتج عنه تقاربٌ في التكوين وتشابهٌ في نمط المعيشة وأسلوب الحياة، ولا يمكن لمن يرصد سيرة الملك سلمان وأشقائه وشقيقاته أن ينسى ما كانت والدتهم حصة بنت أحمد بن محمد السديري، المعروفة بريادة العمل الخيري والإنساني، تضفي عليهم من الرعاية والتربية والتنشئة الفاضلة، مما فصّلت فيه د. دلال بنت مخلد الحربي في كتابها المعروف «نساءٌ شهيرات من نجد» الصادر عام ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

ومن أسس التكوين المعرفي والفكري عند الملك سلمان، يأتي آلاستعداد الفطري للمعرفة، والقدرات الذهنية، والذكاء، والتحصيل العلمي الذي تلقّاه وإخوته في مدرسة الأمراء بإدارة الشيخ عبدالله خيّاط ومعه الأساتذة أحمد علي أسدالله الكاظمي ومحمد صالح الخزامي ومحمد علي حمام وغيرهم، وقد

أمضى شبابه على اتصال مع العديد من مشايخ الرياض القريبين من قصر الملك عبدالعزيز، فكان لذلك التعليم عميق التأثير في تكوينه العام، حيث كرّس في وجدان الأمير في صغره التعلّق بالمفاهيم الدينية وبتراث الدعوة في البيئة التي نشأ فيها، وهو ما سار عليه في كبره من حيث الاهتمام بتنشئة أولاده فيما بعد.

ثم تأتي تلك الفترة الطويلة التي تولّى فيها إمارة منطقة الرياض، فهو عندما توفي والده عام ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م كان يشارف على العشرين، وقد سبقه عدد من إخوته الأكبر منه سنّاً إلى تولّي بعض المسؤوليات الإدارية ومنها إمارة الرياض، فاختاره الأمير نايف في مطلع عهد الملك سعود (١٣٧٣هـ/١٩٥٣م) لينوب عنه عند غيابه عن إمارة منطقة الرياض، وفي العام التالي، تولّى رسميًّا مسؤوليتها من بعده في فترتين بينهما عامان؛ دامت الأولى خمسة أعوام، وأتمّ في الثانية عقوداً خمسة، عاصر خلالها إخوانه الملوك الخمسة الذين سبقوه في الحكم.

المعروف أن الحاكم الإداري لمنطقة الرياض، يمارس عمله اليومي في قصر الحكم وسط العاصمة (على ساحة الصفاة أو القصبة كما يُطلق عليها في التراثُ العربي) وكان الملك المؤسس وأجداده الأقربون يسكنون في تلك المنطقة التاريخية المحاطة بسور، يديرون منها شؤون البلاد، وقد خرجت مساكنها عن دائرة السور في أواخر عهده، أما مزارعها فقد أُنشئت داخل السور وخارجه منذ قديم الزمان، وكانت الرياض قد اتخذها جده الإمام تركي عاصمةً للدولة السعودية الثانية في أواسط القرن الثالث عشر

الهجري (أواخر القرن الثامن عشر الميلادي) بدلاً من العاصمة التاريخية «الدرعية» التي دمّرها الأتراك سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م واستمر القصر حتى الآن يعرف بقصر الحكم، تُقام فيه المناسبات الوطنية الكبرى من بيعة أو معايدة أو عزاء أو نحوها، وشهد هذا القصر الاستقبالات والحكايات التاريخية التي ترويها سيرة الملك المؤسس، وإلى جوار قصر الحكم هذا يوجد الحصن التاريخي (قصر المصمك الذي كان يستخدم سكناً للحاكم، يعود بناؤه إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي) وتكمن شهرته في أن شعلة استعادة الرياض انطلقت منه عام ١٣١٩هـ/١٩٠٢م ويُوظّف الآن مَعْلماً تراثيّاً وسياحيّاً يحكي قصة فتح الرياض وقيام الدولة في حقبتها الثالثة المعاصرة، كما سُمي المسجد الرئيس الكبير المرتبط بالقصر باسم مؤسس الرياض الإمام تركي (حفيد الإمام محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية) وقد جُدّدت هذه المنطقة التاريخية عام ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م بمناسبة الذكرى المئويّة الأولى لتأسيس المملكة.

عاش سلمان طيلة فترة إمارته للرياض قصة «وله» قلّ أن يتكرر مثلها في مدن عالمية شبيهة، يُكرّس من خلال شخصيّته وأسلوب إدارته ومثابرته على اللقاءات والمواعيد والزيارات والضيافات وعبر معرفة الأُسر والقبائل وفروع البادية وملازمة الزعماء كثيراً من السمات التي كان يتبعها والده وإخوته في ممارسة الحكم، حتى أصبحت تطبيقاته تُذكّر بما كان يتمّ في ساحة قصر الحكم من بطولات، وكأن الزائر لهذه المنطقة التاريخية اليوم

يشاهد فيلماً تسجيليّاً يروي قصص عقود مضت، يوم أن كانت الصفاة تعجّ بركائب الوافدين وبالتبادلات التجارية بين الأهالي، وقد وثّقت هيئة تطوير الرياض بصماته على العاصمة في كتاب صدر في العام الماضي ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م بعنوان: «**سلمان والرياض: عبق التاريخ**».

في عام ١٤٣٢هـ/٢٠١١م غادر سلمان منصبه الذي أحبّه، ليبدأ بعد أخيه سلطان التدرّج صعوداً نحو المناصب الأكثر سياديّة، فأصبح نائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للدفاع، وقد ترك كما سلف وراءه روايةً لا تمّحي فصولها مع حبيبته (الرياض) التي جاب عدداً من العواصم ليعرض فيها تجربتها التنموية وليبحث عن مزيد من الأفكار لتطويرها، مُخلّفاً لتخصص الإدارة المحلية والتطوير الحضري صفحات من الدروس في صناعة التنمية، واستطاع بمهارة أن يمزج الألوان في لوحة مبتكرة تشدّ الانتباه اسمها الرياض القديمة والجديدة بين عراقة المحافظة وحداثة المعاصرة، ولتستمر العاصمة وما حولها من محافظات من بعده في استكمال آمال بعيدةِ المدى في التنمية كان يحلم بها في نومه ويرسم معالمها في يقظته، وهو مسلسل يمكن لحلقاته أن تستولي على هذه المحاضرة وتصرف عن إكمال الحديث، لكنني أحيلكم إلى كلمة موسّعة ألقيتها بمناسبة فوزه بجائزة منتدى الإدارة المحلية عام ١٤٣٢هـ/٢٠١١م ونُشرت في حينه.

أما المقوّم الرابع من مُدرَكات المعرفة عنده، فهو اهتمامه بالشأن السياسي في بُعديه الداخلي؛ المتمثّل في «مأسسة» السلطات الدستورية

وصون نظام الحكم والحفاظ عليه، والبُعد الخارجي؛ المتمثل في العلاقات الدبلوماسية الدولية، وفي مشاركته وقربه من صناعة القرار السياسي طيلة العهود المتوالية التي مرّت بالبلاد، وبخاصة في فترة حكم الملك فهد، فلقد كان أحد الروافد الاستشارية الثرية التي كانت تغني اتخاذ القرار، مستفيداً مما كان يمتلكه من الصلات مع النخب السياسية العربية والأجنبية، ومن المعلومات التي كان يختزنها وكانت تمكّنه من بلورة المواقف وتنفيذها، وربما كان في هذا الشأن يصطفي بعض الكفايات الوطنية المؤهلة التي تصوغ الأفكار وتطوّرها بعد أن تتلقى منه التوجيهات، ويمكن القول إن الخبرة السياسية قد تراكمت لديه مع السنوات وساعدت في تكامل معارفه وفكره، ومهّدت لانتقال الحكم إليه في الوقت المناسب.

لقد رُصدت بين شخصيّات الملوك السابقين لهذه البلاد سماتٌ متقاربةٌ مشتركةٌ، تتمثّل في التناغم المتوازن بين الثابت والمتغيّر في الشأن الاجتماعي، والفهم التنويري للتديّن، والتدرّج في الإصلاح والانفتاح، وترسيخ التقاليد المفيدة، وهي جميعاً سمات محافظة قامت عليها هذه البلاد منذ توحيدها.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن شخصيّة هذه المحاضرة وبقدر ما كرّس عبر العقود في إمارة الرياض تقاليد والده وقيَم الأسرة المالكة، ومخزون التراث والأصالة في بيئة الجزيرة العربية، فإنه أسس لأنماط متجدّدة من القواعد و «البروتوكولات» الاجتماعية المستندة إلى خبراته الثقافية المتراكمة في معارفه التي انفرد بها.

ثم نأتي إلى المكوّن الخامس في فكره، وهو ارتباطه بالعديد من المؤسسات العلميّة والثقافيّة، ومن أهمها علاقته الوثيقة بمكتبة الملك فهد الوطنية، بدءاً من المبادرة إلى اقتراح تأسيسها بمناسبة تولّي الملك فهد مقاليد الحكم في البلاد (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) حيث أعلن أهالي الرياض عن قيامها في العام التالي، كانت المكتبة الوطنية مشروعاً متواضعاً أقامت وزارة المعارف نواته في شارع الملك فيصل بالرياض لإصدار شهادات الإيداع والتسجيل الرقمي للإصدارات السعودية، ثم انتشله سلمان ومن ورائه أهالي العاصمة لتكون المكتبة الوطنية دُرّة المعرفة والتوثيق في جبين الوطن، على النحو الذي يعرفه المجتمع العلمي والثقافي، وقد اكتسى مقرها الأنيق وسط العاصمة هذا العام على طريقي الملك فهد والعُليّا العام وبعد نحو عقدين على إنشائه تصميماً جديداً لافتاً بطاقة استيعابية مضاعفة، تمّ كلُّ هذا العمل الجليل بأقل قدر من الأضواء، وبأكبر قدر من التواضع والصمت، وبأعلى مقدار من الكفاية الإدارية والمكتبية.

أما المرتكز السادس في مُدرَكاته المعرفية عميقة التأثير في تكوين ذهنيّته الفكرية، فإنها رئاسته تحديداً لمجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز، وهي المركز التوثيقي والبحثي الأول لحفظ تاريخ الجزيرة العربية والمملكة العربية السعودية وسيرة مؤسسها وحكّامها، فلقد يسّر له الاقتراب المباشر مع الدارة أن يمارس هوايته في ألاّ يترك كتاباً مهماً تطرّق كليّاً أو جزئيّاً إلى سيرة الملك المؤسس والدولة السعودية إلا وأحاط بقراءته أو طلب من باحث تلخيصه أو علّق على ما فيه، حتى صار التاريخ يجرى في عروقه، وأصبح يحفظ تراث البلاد حفظاً علميّاً يتتبُع من خلاله ما كتب عنه، ويُفنّد أيّ

التباسات تحيط بسيرة رجالاتها، ويُوجّه بإجراء البحوث حول أي غموض يحتاج إلى استقصاء، وأتاح له ولعه بالقراءة السريعة فرصة الإحاطة بما يرغب الاطلاع عليه سواءً من الكتب أو من المقالات، حتى لقد رُوي أنه قرأ في أثناء ملازمته لأخيه الأمير سلطان في مرضه ما يربو على ثمانين كتاباً، وكان الكتاب لا يفارقه في أثناء رحلاته البرية والجوية.

بدأت علاقة سلمان بن عبدالعزيز بالدارة منذ قيامها عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م وذلك من خلال اهتمامه الشخصي بالتاريخ والتوثيق، وكانت الدارة بدأت مرتبطة بوزير المعارف، ثم بوزير التعليم العالي، ثم صار سلمان بن عبدالعزيز رئيسًا لمجلس إدارتها منذ عام ١٤١٧هـ/١٩٩٧م وقد ازداد تواصله مع الدارة منذ أن بدأت تشارك في التحضير للاحتفال بذكرى المئويّة التي كان يشرف على أدق تفصيلات الاستعداد لها، حيث صار التواصل اليومي بينه وبين الدارة لا ينقطع، وقد اضطر بعد تنامي مسؤولياته السيادية عندما أصبح بعد عام ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م وليّاً للعهد لتفويض معظم مهامه ورئاساته في اللجان والمؤسسات الرسمية والأهلية والخيريّة الإضافية، لكنه استثنى الدارة ومركز العلامة حمد الجاسر الثقافي، كما سيرد، وكان مما سُجل له من حيث اقترابه من الدارة أنه حضر في عام ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م جلسة لمجلس الشورى كانت مخصصة لمناقشة تقرير الدارة عن العام السابق.

توافرت له مع الدارة سبل القراءة المنظّمة والاطّلاعِ على ما يجّد من إصدارات تقع في دائرة اهتمامه، والتواصل المستمر مع المؤرّخين والباحثين

من أمثال حمد الجاسر وعبدالله بن خميس ود.عبدالله العثيمين ومحمد أحمد العقيلي وعبدالرحمن الرويشد، والرجوع إليهم، والإحالة عليهم للاسترشاد برأيهم العلمي مُكوّناً معهم دوائر فكرية وثيقة وراقية.

وفي السنوات القليلة الماضية، صارت الدارة تشرف بتوجيهاته على مركزي بحوث مكة المكرمة والمدينة المنورة، لتضفي على المركزين إضافة نوعية وعمقاً تنسيقيّاً مكّنهما من الوصول إلى أذرعة البحث الوطنية ومصادر المعلومات المتوافرة في الدارة، وجعلهما في اتّساق مع ما تقوم بها من جهود، مع إبقاء سمة الاستقلالية الإدارية لهما.

أما الركن السابع في تكوينه الذهني، فإنه التواصل غير المسبوق بين هذا الحاكم الإداري رجل الدولة في مثل مقامه من ناحية وبين المثقفين من ناحية ثانية، والمتابعة الدؤوبة لما يكتب في الصحافة المحلية والعربية، لدرجة قد يستغرب المراقب معها كيف يتّسع وقته لقراءاته الفكرية مع وجود مشاغل الدنيا الرسمية والأُسرية على عاتقه، فذكر العديد من الكتّاب والإعلاميين السعوديين والعرب على مدى خمسين عاماً وبكثير من الانبهار، تواصله معهم عند نشر مقالاتهم والتعامل الراقي في نقد ما كتبوه سلباً أو إيجاباً والتعليق عليه، وتحدث الأدباء والإعلاميون عن ذكرياتهم معه، وصفوه بأنه «الأمير القارئ والمثقّف» و «صديق الصحافة والإعلاميين» و «المؤرخ» و «صديق الكتاب» ويؤكّد المطّلع من واقع تجارب متعددة صدق هذه الألقاب، حيث إن للعشرات منهم مواقف فيها تعليق على مقال أو نظرة

في كتاب أو تصحيح معلومة في علاقة مبنيّة على المثاقفة، تبدأ باتصال ثم بمعرفة ثم بصداقة، وقد تتواصل إلى زيارة في مشفى أو مواساة في منزل، وكنت وكثيرون غيري شهوداً على ما كان يضمره من احترام متساوٍ للمثقفين والأدباء ورجال الصحافة والإعلام، ومن مشاركة لأقلامهم ومقالاتهم في ردوده وتعليقاته، وفي الإدلاء بتوثيق المعلومات والأحداث، يأتي شاهداً على حقيقة حرصه على الدقة والموضوعية أنه لم يسع في يوم من الأيام إلى تزييف المعلومات المتعلقة بسيرته وحياته.

يمتلك سلمان بن عبدالعزيز على صعيد العلاقات الداخلية والخارجية بالإضافة إلى ما تقدّم رصيداً من الصداقات الوثيقة مع الزعماء والمفكّرين والأعيان، مع حضور ذهنيّ متوقّد لاستعادة الذكريات التي يختزنها مع عشرات الشخصيّات، وهو ما يعرفه العديد من الحضور، مما لا يحتاج إلى تفصيل.

ولا بدّ من أن تُعدّ مكتبته المنزليّة الخاصة في مقدّمة مُدرَكات المعرفة في تكوينه الفكري، وكانت مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية نشرت في عددها الصادر بمناسبة الذكرى المئوية (عدد شوال ١٤١٩هـ - يناير ١٩٩٩م) تحقيقاً مصوّراً غطّى تاريخ المكتبة وحجمها ومكوّناتها من الكتب والدوريّات والوثائق والمخطوطات وأوعية المعلومات، كما تحدث التحقيق عن الطبعات الفريدة من الكتب النادرة التي تضمُّها المكتبة، وعن أسلوب فهرسة عناوينها بالبطاقات على نظام «ديوي» العالمي المعروف ثم تخزينها على الحاسوب، وقد فاقت ثلاثين ألف عنوان متعددة الأجزاء والمجلّدات، وللمكتبة أمناء

يتولّون متابعة حركة النشر الداخلية والخارجية، وإعداد الملخّصات والتقارير المطلوبة، وهم يرافقون الملك سلمان في تنقلاته، يمدّونه وأنجاله بما يطلبونه على مدار اليوم من مواد المكتبة أو من خارجها، في حين يحرص على الدوام على تزويد الدارة بما يقتنيه أو يُهدى أو يصل إليه من وثائق نادرة وكتب قديمة أوجديدة تقع في دائرة اختصاص الدارة، في مبادرة منه لدعم أهداف الدارة من ناحية وليكون قدوة للمواطنين لإيداع ما لديهم من وثائق ومخطوطات ومصادر تاريخية، وقد تطرق التحقيق المنشور في مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية إلى برنامج دعم الكتب التي تطبع على نفقته وإلى ذكر نماذج منها، والمعروف أن الملك سلمان يتمتع بسرعة القراءة والاستيعاب، ويخصص من وقته اليومي ساعات يومية محدّدة للقراءة، ولارتياد مكتبته التي تعدّ في نظر المكتبيين من أكبر المكتبات من نوعها لزعيم في العالم، وتتجه النية في الوقت الحاضر إلى تحويلها لتكون مكتبة عامة وأن توضع محتوياتها في متناول الباحثين والقرّاء، وكنت أبديتُ في مناسبة سابقة أمنيةً بأن تكون نواةً لمشروع يتبنّاه الملك سلمان لاندماج المكتبات الأهلية الخاصة في كل منطقة من المناطق الثلاث عشرة في مكتبة موحّدة.

جدير بالذكر أن الباحث د. فايز بن موسى البدراني وزميلته د. مريم خلف العتيبي قدَّما بعنوان: «سلمان الملك المؤرخ» محاضرة في نادي المدينة المنورة الأدبي (شعبان ١٤٣٦هـ يونية ٢٠١٥م) تحدثا فيها عن المناقب المعرفية في شخصه، وعن شغفه بالقراءة، كما تحدثا فيها عن مكتبته الخاصة ومحتوياتها، كما أصدر مركز حمد الجاسر الثقافي عدداً خاصاً من نشرته

الدورية «جسور، العدد: (١٨)، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م» ركّز المشاركون فيه على الركائز الثقافية في شخصيّته كما عايشوها وعرفوها عن قرب.

وتتمثّل الركيزة التاسعة في تكوينه الذهني، في رئاسته الفخرية للعديد من المراكز العلمية والثقافية والكراسي البحثية والجمعيات العلمية والمؤسسات التعليمية والجوائز التي ارتبطت باسمه، وهي كما يبدو من أسمائها في المجمل تعكس شخصيّته واهتماماته الثقافية، يأتي من بينها مركز العلاّمة الشيخ حمد الجاسر الثقافي الذي لم ينقطع الملك سلمان منذ تأسيس المركز عن أن يوليه رعايته والاهتمام بحضور مناسباته وبرئاسة اجتماعات مجلس أمنائه، متذكّراً على الدوام خلال الاجتماعات ما كان يشعر به من تقدير لعلمه وآرائه، ومن اتصالات متكررة معه على بساط البحث والتنقيب التاريخي والجغرافي والأدبي، وبلغ من احترامه للشيخ الجاسر أن احتفظ الملك لنفسه حتى تاريخه بالرئاسة الفخرية لمركزه الثقافي بالرغم من مشاغله، كما سلف.

وتضم قائمة المراكز والجمعيّات وكراسي البحوث كلاً من: مركزي أبحاث مكة المكرمة والمدينة المنورة، والجمعية السعودية التاريخية، وجائزته للدراسات التاريخية والحضارية للجزيرة العربية، ومؤسسة الرياض الخيرية للعلوم، وواحة سلمان بن عبدالعزيز للعلوم، وجائزة أبحاث الإعاقة، وكرسي الدراسات التاريخية والحضارية للجزيرة العربية، وكرسي دراسات تاريخ مكة المكرمة، وكرسي تاريخ المدينة المنورة، وقد تناول د. عبدالله العسكر في محاضرة ألقاها في نادي الأحساء الأدبي (جمادى الأولى ١٤٣٦هـ - مارس ٢٠١٥م) تفصيل ارتباط تلك المراكز الثقافية والجمعيات العلمية بشخص سلمان بن عبدالعزيز

عندما كان أميراً لمنطقة الرياض وتفاعله معها بأكثر مما تكون العلاقة شرفية.

ويتصل العنصر الأخير في سلسلة هذه المُدركات المعرفية، بالمشاركات والحوارات التي يحرص عليها في أثناء لقاءاته بالعلماء والمثقفين وأساتذة الجامعات وطلاّبها، وكان من أبرز أمثلتها محاضرته في جامعة أم القرى (١٤٢٩ هـ/٢٠٠٨م) ومحاضرته في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (١٤٣٢هـ/٢٠١١م) ومحاضرته في العام التالي في جامعة الملك سعود، وما سبق المحاضرتين أو تلاهما من حوارات مما يعقده بشكل شبه أسبوعي يعبّر فيه عن مواقف فكرية ثابتة في ذهنه، كتلك التي يستعيدها بين الحين والآخر عن مصطلح الوهابية، وعن العوامل التي أسهمت في سقوط الدولة السعودية الأولى والثانية، وعن حثه على النقد البنّاء، وتشجيعه للكاتب أن يتبنّى قضايا مدينته كما يتبنّى قضايا وطنه الكبير، وأن المطلوب ممن يكتب أن يتقصّى الحقائق، وأن تاريخ المؤسس هو تاريخ للوطن كله.. وهكذا.

وإن هذه القراءة لا تكتمل دون التأمّل في الأبعاد الإنسانية في شخصيّته، وهي سمات يتناول الكتّاب تحليلها بين الحين والآخر، كاستعراض الشيخ زين العابدين الركابي طرفاً منها في كتابه: «**سلمان بن عبدالعزيز: الجانب الآخر**» ١٤٣٠هـ/٢٠٠٨م واجتهاد د. عبداللطيف الحميد في توثيق سيرته في كتاب صدر عام ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م بعنوان: «**سلمان بن عبدالعزيز: سيرة توثيقية**» وأكتفي هنا باستدعاء ثلاث علامات منها؛ «الكاريزما» الرزينة، والدعابات المرحة، ولمحات الوفاء، تلك الثلاثية التي يعتمرها في قلوب

المواطنين والضيوف منذ أن تبوّأ الوظيفة العامة في منتصف القرن الماضي، مما يُغبط عليها من المناقب الواضحة فيه، وحين يستذكر في لقاءاته شراكة الآباء والأجداد في الأسرة والقبيلة والبادية من أدنى البلاد إلى أقصاها في بناء الدولة، جنباً إلى جنب مع من استخلصهم والده من المستشارين العرب، في جهودهم المقدّرة للإسهام في صنع الوحدة وتأسيس الكيان.

ثم ماذا، في ضوء هذه الإضاءات العشر، أن يقال عن عامه الأول في الحكم متّكئاً على استحقاقات رجل الدولة، وعلى قدراته المعرفية الخاصة التي اكتسبها خلال خمسين عاماً ونيّف أميراً لمنطقة العاصمة، ثم وزيراً للدفاع فوليّاً للعهد ونائباً لرئيس مجلس الوزراء، وقد صارت الثقافة والاطلاع جزءاً من مؤهلاته ومكوّنات سيرته، واتّشح اسمه بالتلازم الوثيق مع مجتمع الفكر والمعرفة ومحيط الإدارة، والمشاركة الدائمة في المناسبات والندوات والمؤتمرات العلمية، والتواصل المباشر مع العلماء والأدباء والمثقفين، إلّا أن تكتسي شخصيّته بملامح غير معتادة من التميّز والتفرّد بين القيادات السياسية السائدة.

تأتي تلك المرتكزات المعرفية العشر في مسيرته، والحس الثقافي في تكوينه الفكري، ضمن صحائف كثيرة يمكن أن تُسجّل في سيرة لم تُكتب بعد، وهي المؤثرات التي صاغت خلفيّة فكره، وأسهمت في تكوين مفاتيح شخصيّته، وتمثّلت كما رأينا، في استعداده الفطري والذهني، وفي المنهج الفكري والسياسي لوالده ولأخوته الذين لازمهم في فترة حكمهم، واطّلع عن قرب على قراراتهم،

وارتوى من أساليبهم في معالجة الأمور الداخلية والخارجية.

إن من يطّلع عن كثب على سيرته أميراً، لن يُفاجَأ بما شهده المجتمع في اثني عشر شهراً أمضاها في سُدّة الحكم، من قرارات تُعزّز الحزم والشفافية والنزاهة والإصلاح، وتجسّد خصائصه وخبراته التراكمية من وعيٍ بمحيطه، وفهمٍ لمجتمعه، واستيعابٍ لواقعه العربي، فلقد تفتّقت قريحته ملكاً، عن إصرار على تجديد كيان الدولة بدماء شابّة، وعلى تحديث بيئة القضاء والتعليم والأمن ومفاصل الإدارة والخدمات بروح وثّابة وبطاقات غير متثائبة، وعلى الإقدام في اتخاذ قرارات جريئة تحافظ على هيبة الدولة وأمن الوطن، وعلى توجّه نحو تغيير المعادلة التقليدية وموازين القوة في المنطقة، وهو ما يبشّر بالتفاؤل بإذن الله، بأن المجتمع الجديد قد صار بالفعل أمام عهد مضيء للتحوّل الوطني، نحو تنمية طموحة مبنيّة على قواعد اقتصادية متينة متنوّعة، وعلى بنيان متكامل وثيق يرتقي في جانبه المعرفي بالمكانة العلمية والفكرية للمؤسسات التعليمية وتنشيط برامجها الحوارية والثقافية والمنبرية، والعمل على تحقيق مشروع معرفي راقٍ يرتكز على مبادئ الماضي وتباشير المستقبل.

وكما كانت سيرته أميراً سلسلة قطاف من الكفايات الفكرية المتنوّعة، فإن الحديث عن قدراته ملكاً هو مشروع كتاب مفتوح، جدير بحديث مستقل.

(18)

نورة بنت عبد الرحمن الفيصل(*)

توظيف التاريخ الشفوي
لتدوين تراجم النساء

(*) محاضرة في جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن الفيصل آل سعود (رجب ١٤٣٤هـ - مايو ٢٠١٣م)، ونُشرت في الشرق الأوسط، العدد ١٢٥٩١ في ١٤٣٤/٧/٩ (٢٠١٣/٥/١٩م).



بسم الله الرحيم

إلى حضرة جناب الأجل الأمجد الأفخم حميد الشيم الأكرم [illegible] الأخ العزيز عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل [illegible] المكرم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته [illegible]

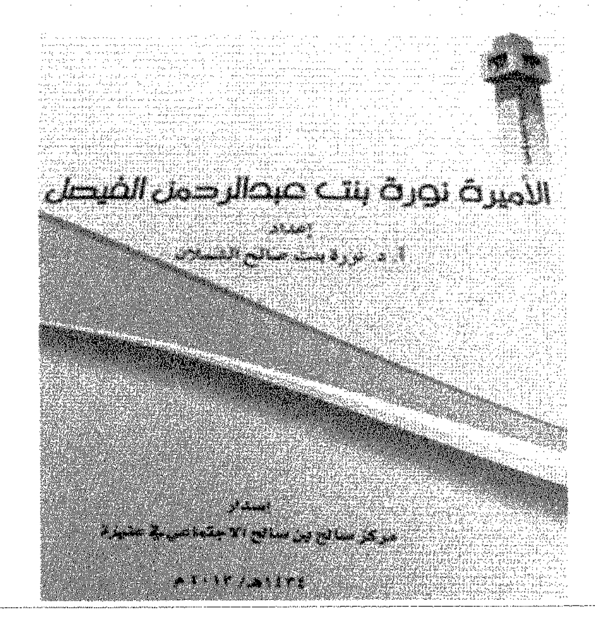
[illegible]

لا زلت محروسة
[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

من نورة بنت عبدالرحمن الفيصل إلى جناب الأجل الأمجد الأفخم الشيخ المكرم الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل [illegible] السلام عليكم ورحمة الله وبركاته [illegible]

[illegible]



في المجتمعات الشرقية بخاصة، يستأثر الرجل بذكر ما يخلّفه من مآثر اجتماعية أو ثقافية أو إنسانية خيرية، ويحظى من وسائل الإعلام بما يُمجّد مناقبه، وما تزال الأقلام تعتّم وتُذكَر على استحياء، شمائل النساء وخصالهن وأفضالهنّ، وعلى ما يبدعنه في الحياة من إنجازات ضمن ثقافة سائدة، تتجاهل جنس (جندر) المرأة.

ومن يطّلع على كتاب «النساء في التراجم الإسلامية» لروث رودد *(Ruth Roded)* ترجمة د. عبدالله العسكر (دار جداول ٢٠١٣م) وعلى كتاب «شاعرات من البادية» من تأليف عبدالله محمد أبو ردّاس وتقديم العلّامة حمد الجاسر (بدون تاريخ) وعلى كتب التراجم والطبقات وأعلام النساء وهي تزيد على مئتي كتاب موجودة في المكتبات العربية، يجد أن التراث القديم الإسلامي والعربي، كان أكثر إنصافاً للمرأة، حين سجّل عبر التاريخ نماذج خلّدت فضائل إنسانية نسائيّة في البذل والتضحية والإبداع الفكري، في حين تبدو ملامح العقوق ظاهرة أكثر في العصور المتأخرة وصولاً إلى الحاضر، وبخاصةٍ في البلاد العربية، لسيّداتٍ أنكرن ذواتهنّ من أجل الإسهام في العمل التطوّعي والخيري، وبرزن في العمل الإنساني والريادة فيه، وفي المجهود الاجتماعي على

وجه العموم، ولعل الاستثناء في المجتمع السعودي بل ربما يكون الدليل على ما تقدّم هو ذلك الكتاب الذي ألّفته أستاذة التاريخ في جامعة الأميرة نورة د. دلال مخلد الحربي (إصدار دارة الملك عبدالعزيز عام ١٩٩٩م بمناسبة الذكرى المئويّة) وتناول سيَر نساءٍ شهيرات في المجتمع السعودي عبر العصور المتأخّرة، وهو كتاب تعمل المؤلّفة حاليّاً على تحديث طباعته والتوسّع في موضوعه، وقد أصدرت في هذه الأثناء كتاباً جديداً عن الشخصية ذائعة الصيت «غالية البقمية» المتوفّاة نحو عام ١٢٣٣هـ (١٨١٨م)، أما الكتاب الثاني، فهو من تأليف أستاذة الأدب العربي في جامعة الملك سعود د. نورة الشملان بعنوان: الأميرة نورة بنت عبدالرحمن الفيصل، وقد صدر عام ٢٠٠٠م.

ومن المقالات التي تحدثت في صلب الموضوع، وانتقدت غياب الإفصاح لتسجيل تراجم صاحبات الفضل والنبل والإنجاز في مجتمعاتنا العربية، هو ما كتبته أستاذة التربية د. عزيزة المانع (صحيفة عكاظ، الأحد ٢٦/٤/٢٠٠٩م) بعنوان تراجم النساء، وهو ما تناولته مجدّداً في عمودها اليومي في الجريدة نفسها بتاريخ ٢٨ إبريل ٢٠١٣م.

ومن أبرز الخطوات التي أقدمت عليها الحكومة مؤخّراً وشكّلت انقلاباً تطويرياً باتجاه إبراز أسماء النساء، تسمية جامعة البنات الوطنيّة باسم شقيقة المؤسس الملك عبدالعزيز (نورة) التي كان يفاخر بها نسباً وبمآثرها حسباً، وهو ما فتح الباب لمزيد من الاعتراف بأفضال النساء

من خلال تسميات عديدة من شواهد التنمية بأسمائهنّ بعد أن تمّ رفع الحجُب الاجتماعية عن ذكرهنّ.

لقد نقلت الروايات الشفويّة غير المدوّنة أمثلة متناثرة عن تدبير تلك الأميرة، وعن مواقفها مع أخيها إبّان فترة التأسيس، وتناقلت الروايات بالأخص مساعدتها للمحتاجين وبذل الجاه في الشفاعة لإطلاق السجناء، حيث كانت النساء من أقارب هؤلاء المحتاجين يصلن إليها بسهولة ويسر، وفي ظلّ شحّ المادة المكتوبة عنها وعن غيرها، يظل تجميع الروايات الشفويّة إحدى الوسائل المتاحة للتدوين.

كان المجتمع في الماضي يبالغ في إخفاء دور المرأة في مجال العمل الخيري والتطوّعي الإنساني، ليس بحسب، من باب التعتيم على الأسماء الأنثويّة كما أشرت، بل ربما من باب الحرص على نكران الذات، مما يدخل في توجّه بعض الأسر إلى عدم المباهاة بما تقدّمه من معروف، وبالتالي إغفال ما تقوم به النساء والرجال على حدٍّ سواء من مآثر وأعمال.

وإن مما يضاف إلى ثقافة التعتيم تلك على الأسماء الأنثويّة، ما يلحظ من إخفاء أسماء المتزوّجات وكذا المتوفّيات عند كتابة أخبار الوفيَات وفي إعلانات النعي والتعازي، فلا يكاد يُذكر من تعريف للمرأة إلا أنها حرم فلان أو والدة فلان أو شقيقته أو كريمته.. وهكذا.

ترد هذه الخواطر، وجامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن للبنات في

الرياض، تقيم هذه الندوة عن سيرة واحدة من فضليات هذا المجتمع، استحقّت التكريم بإطلاق اسمها على هذا الصرح العلمي الكبير، بعد أن كرّمها المؤسس الراحل بالذكر الطيّب الذي ترسّخ في أذهان الأجيال من الآباء والأجداد، وبين الأيدي بحث كتبته الدكتورة مها بنت علي آل خشيل عن توظيف الرواية الشفوية في تدوين سيرتها، في ظلّ نقص المعلومات المكتوبة عنها.

إن من المعروف أن المصدرين المكتوبين الوحيدين السابق ذكرهما اللذين صدرا عن سيرتها من تأليف د. الشملان ود. الحربي قد اعتمدا إلى حد كبير على المصادر الشفوية في الأسرة المالكة والقريبات منها، في جهد مشكور تأخر الوصول إليه، لكنه استدرك ما يمكن استدراكه قبل وفاة البعض من كبار السنّ، فاستطاعت الباحثتان أن تقوما بالحد الأدنى الضروري من التوثيق لتدوين سيرتها، بهدف تعريف المجتمع بها، وما كانتا تعلمان حينها أن المجتمع السعودي سيكون على موعد مع رفع اسمها على هذا الصرح العلمي العملاق[١].

لكن المشكلة التي واجهت الباحثتان، لم تكن تنحصر فحسب مع نورة بنت عبدالرحمن، بل مع العشرات من سيّدات المجتمع من أمثال الأمهات اللواتي أشارت د. الحربي إلى بعض أسمائهن، والمئات اللواتي لم تذكرن

---

(١) اطلعت مؤخراً على كتاب «الرجل» لنجيب نصّار عن الملك عبدالعزيز، طُبع في حيفا بفلسطين عام (١٩٣٨م) وفيه إشارات عدة عن الأميرة نورة.

ممن تركن آثاراً عطرة ومآثر باقية في شتّى الحقول، وكان التكتم الذي تحدّثنا عنه من قبل والتقاليد المتوارثة قد فعلت فعلتها تجاههنّ في إخفاء الكثير من المعلومات التي لا يمكن الحصول عليها بعد فوات الأوان.

لقد وفّرت الباحثتان كما أشرت عناء التواصل مع المصادر الشفوية المحليّة الممكنة لكتابة سيرة الأميرة نورة عند إعداد الكتابين، لكنني أجد هذه الندوة مناسبةً لطرح فكرة تخصيص قاعدة معلومات لتوثيق السير النسائية، بالتعاون بين دارة الملك عبدالعزيز وقسم التاريخ في هذه الجامعة، وتشمل الأسماء السعودية و النساء المسلمات والعربيّات عبر العصور، وبخاصة ممن ظهرن في هذه الجزيرة العربية ولم تكتمل كتابة سيرهُنّ.

أما بالنسبة للبحث الذي بين أيدينا من إعداد د. مها آل خشيل، فإنه يُعدّ بمثابة خارطة طريق لتتبع المصادر، بما فيها الشعر بشطريه؛ الفصيح والعامي، والنُّتف المتناثرة من الإشارات المكتوبة في مختلف المراجع المطبوعة، وإن من يتتبّع المحاولات التي تمّت للأخذ بالمصادر الشفوية بمثل ما قام به الحرس الوطني في سنوات سابقة، وما تقوم به دارة الملك عبدالعزيز ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة يجد أن تلك المحاولات أفادت كثيراً في بناء التراجم والسير، وشكّلت مراجع قيّمة للباحثين والمؤلّفين.

ولقد سبقت لمحدّثكم تجربةٌ خصبةٌ في هذا الجانب في البرنامج التليفزيوني (شريط الذكريات) الذي سُجل قبل ثلاثة عقود مع عدد من شخصيّات كان لها دور في توحيد هذه البلاد وتأسيسها، حيث استفاد

العديد من الباحثين من معلومات وردت في تلك المقابلات، وبخاصةٍ بعد تحويلها إلى كتب، ومن بينها على سبيل المثال مقابلة مع الأمير مساعد ابن عبدالرحمن الأخ قبل الأصغر للملك عبدالعزيز والأميرة نورة.

يلمس المرء في مثل هذه البرامج التوثيقية، كيف يمكن للإعلام أن يكون في خدمة التاريخ، وكيف يتسنّى للمقابلة الإذاعيّة أو الصحفية أو التليفزيونيّة أن توثّق المعلومة وتحفظها أو تؤكّدها، وأن تُشكّل مصدراً غنيّاً للباحثين والمؤرّخين بالاستناد إليها والانتفاع بها، شريطة أن تُخدم المقابلة بما تستحقّه من التحضير والمراجعة والاستعداد.

أما د. عبدالعزيز الخويطر، وهو أستاذ التاريخ الذي سبق غيره في تضمين سيرته الذاتية توثيقاً لأدق ما مرّ به في حياته من تفاصيل، ووظّف الرواية الشفوية في كتابة سيرته التي بلغت ثمانيةً وثلاثين مجلّداً، فقد حثّ الكتّاب القادرين على اتّباع نهجه في تدوين كل ما يمرّ في حياتهم؛ دقيقه وجليله، وهنا ربما يُظنّ في زمنٍ ما أن شيئاً من تلك المعلومات غير ذي أهمية، لكن الواقع أن ما قد يكون كذلك عند البعض تكون أهميته مختلفة عند بعض آخر.

أشكر لجامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن إثارة هذا الموضوع، وأدعو الجميع إلى التأمّل في أهمية رصد التاريخ الشفوي الذي نغفله كثيراً، فهو مصدر في غاية الثراء لكتابة التاريخ، وبخاصّة عندما تعجز البدائل الأخرى، كما في حال التعامل مع تراجم النساء.

(١٩)

يوسف ياسين (*)

الصحافة والسياسة: المبتدأ والخبر

(*) أُعدت للمشاركة في ندوة عنه، من تنظيم دارة الملك عبدالعزيز ضمن برنامج «من أعلام المملكة العربية السعودية».



مستشارون سياسيّون يُقارب عددهم العشرين عملوا في فترات زمنية متفاوتة ضمن مجلس المستشارين في ديوان الملك عبدالعزيز، كان منهم سعوديون وفيهم عرب من مختلف الأقطار، وكان بعضهم سياسيين أو مجاهدين في أوطانهم أو مطارَدين من الاستعمار، وفي الوقت نفسه، كان هناك آخرون؛ جلساء وأصدقاء للملك المؤسس، لكنهم لم يكتسبوا صفة المستشارين رسميّاً، ومع ذلك كان مدوّنو سِيَرهم يطلقون عليهم هذا الوصف.

من المستشارين من استمر يؤدّي هذه المهمة سنوات طويلة، ومنهم من بقي فترات محدودة، ومنهم من كُلّف بمهام إدارية في الداخل أو بأعمال دبلوماسية في الممثليّات السعودية في الخارج، وكان يوسف ياسين قد لازم الديوان الملكي وبقي مستشاراً للملك ووزير دولة في عهد الملك عبدالعزيز ثم في عهد نجله الملك سعود، مسجلاً أطول فترة بقيها بين المستشارين، قاربت خمسةً وأربعين عاماً.

ويوسف ياسين شخصية سياسية إعلامية عربية سعودية، لكن صفته السياسية صارت في العقود الأخيرة تطغى عند المؤرخين على شخصيّته الإعلامية، فاستقر في أذهان الكثيرين بوصفه أحد مستشاري الملك

عبدالعزيز ورئيس الشعبة السياسية، بل لقد نسي المجتمع خلفيته الصحفية التي كان ينتمي إليها قبل هجرته إلى الرياض في عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) وكان صلاح الدين المختار في كتابه «المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها ج ٢ بيروت ١٩٥٧م» من القلائل الذين كتبوا عنه، فخصّص عن سيرته قبل التحاقه بديوان الملك عبدالعزيز فصلاً بعنوان: «يوسف ياسين: تاريخ حافل ووثائق خطيرة» وكنت كتبت عنه مقالاً عنوانه «يوسف ياسين أول من تولّى منصباً إعلاميّاً» (جريدة الجزيرة، العدد ٩٤٨٠ في ١٤١٩/٥/٢١هـ (١٩٩٨/٩/١٢م).

أوردت مراجع قليلة، من بينها كتابا «الأعلام» للزركلي و «معجم المطبوعات العربية» للدكتور علي جواد الطاهر، أن يوسف ياسين ولد في اللاذقية بسوريا سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩٢م) وسافر إلى مصر للالتحاق بالأزهر ثم بمدرسة (الدعوة والإرشاد) تحت إدارة الشيخ محمد رشيد رضا، وبسبب الحرب العالمية الأولى انضمّ في سنة ١٩١٤م إلى مدرسة صلاح الدين في القدس، وذكر فيليب دي طرازي في كتابه «تاريخ الصحافة العربية» أن يوسف ياسين اشترك مع محمد البديري في إنشاء جريدة «الصباح» المقدسية عام ١٩٢١م.

وبعد كثير من النشاط السياسي والتنقّل في بلاد الشام، والكتابة الصحفية في صحف القدس، التحق بالسلطان عبدالعزيز في الرياض سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) ورافقه في رحلته الأولى إلى مكة المكرمة بعد

ذلك بأيام، وبعد أسبوعين، أصدر بتكليف من السلطان جريدة «أم القرى» التي أصبحت الجريدة الرسمية للدولة.

شغل يوسف ياسين وكان عمره نحو ثلاثة وثلاثين عاماً رئاسة تحرير الجريدة مدة أربع سنوات، وذلك من سنة ١٣٤٣هـ إلى ١٣٤٧هـ، وقد حظي بثقة الملك وحضر معه معركة السبلة سنة ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م) ورافقه في أسفاره ورحلاته، وصار السكرتير الخاص للملك، ووكيل مديرية الشؤون الخارجية، ورئيس الشعبة السياسية، وكان ينوب عن الأمير فيصل عند غيابه عن وزارة الخارجية، ثم صدر مرسوم ملكي في عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٤م) بتعيينه وزير دولة، وبعد وفاة الملك عبدالعزيز سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م) واصل العمل مع الملك سعود وكان محل ثقته، وقد وافته المنية في مدينة الدمام بالمنطقة الشرقية إثر نوبة قلبية في يوم الخميس ١٥/١١/١٣٨١هـ (١٩/٤/١٩٦٢م) عن عمر يقارب الثامنة والسبعين، وأُهديت مكتبته لجامعة الملك عبدالعزيز، فرع المكتبات الخاصة، وذكر د. الطاهر أن مقالات يوسف ياسين في «أم القرى» لو جُمعت في كتاب لكانت مؤلّفاً مهمّاً، كما أشار د. الطاهر إلى عدد من الكتب التوثيقية والدينية التي صدّر لها يوسف ياسين بمقدّمات.

كان رشدي ملحس، وهو أديب وباحث وأحد مستشاري الملك عبد العزيز الذي اختاره يوسف ياسين خليفةً له في رئاسة تحرير «أم القرى» وفي رئاسة الشعبة السياسية، ود. محمد الشامخ أستاذ الأدب العربي بجامعة

الملك سعود من أوائل من تناولوا بالعرض والتحليل تاريخ نشأة الصحافة في الحجاز، التي صدرت في مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة في العهدين العثماني والهاشمي وبداية العهد السعودي، وبيّنا نشأة الجريدة الرسمية «أم القرى» التي حلّت محل الصحيفة الهاشمية «القبلة» ومن قبلها صحيفة «حجاز» الموالية للحكم العثماني في الحجاز، والدور الذي قام به يوسف ياسين لمدة أربع سنوات لتأسيس «أم القرى» وإدارتها وتحريرها وكتابة بعض افتتاحياتها، وكان د. الشامخ قد استلّ كتابه «الصحافة في الحجاز» الصادر عام ١٣٩١هـ (١٩٧١م) من رسالته للدكتوراه، ثم أتبعه في عام ١٤٠٢هـ (١٩٨١م) بكتاب قريب في موضوعه بعنوان «نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية» وقد اعتمد كثير من الباحثين في تاريخ الصحافة السعودية - ومنهم المحاضر - على بحث د. الشامخ الذي استفاد مما قدمه رشدي ملحس في هذا الميدان وأضاف عليه.

ثم تلاهما في البحث، مع الاهتمام بتحليل مضمون الجريدة في اثنين وعشرين عاماً د. منصور الحازمي، الذي أصدر في عام ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) كتابه «معجم المصادر الصحفية لدراسة الأدب والفكر في المملكة العربية السعودية» وخصصه لصحيفة «أم القرى» ولأسماء كُتّابها والأسماء المستعارة فيها، ثم أصدر كتاباً آخر مماثلاً وخصصه لجريدة «صوت الحجاز».

وكان ممن تبعهما في تتبُع مسيرة «أم القرى» وعلاقة يوسف ياسين بها كل من عثمان حافظ ومحمد بن عباس ود. علي جواد الطاهر ومحمد

عبدالرزاق القشعمي والعديد من الدارسين المتأخّرين الذين ألّفوا في تاريخ الصحافة السعودية، وفي السير والتراجم.

كان البعض، كما ذكر العلامة حمد الجاسر، ينظر إلى شخصية يوسف ياسين قبل أن تستقر في الأذهان صفته السياسية بعد استقراره في المملكة، من خلال عمله الصحفي في الجريدة الرسمية «أم القرى» لدرجة أنه صار يُعرف محليّاً ولفترة ليست بالقصيرة، بلقب (يوسف جريدة).

وذكر د. محمد الشامخ أن يوسف ياسين تولّى رئاسة تحرير جريدة «أم القرى» يعاونه من ذوي الخلفية الأدبية والصحفية كل من رشدي ملحس ومحمد سعيد عبدالمقصود خوجة وفؤاد شاكر وعبدالقدوس الأنصاري، ثم تحدّث عن الجريدة ورسالتها وشكلها وكتّابها... الخ، وقد استمرّت علاقة يوسف ياسين بالجريدة من بداية صدورها سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) حتى سنة ١٣٤٧هـ (١٩٢٧م) حيث خلفه في رئاسة تحريرها رشدي ملحس كما سبق، وكان يوسف ياسين يخفي مسؤوليته المباشرة عن رئاسة تحريرها تقديراً لكونها صحيفةً رسمية، فلا يضع اسمه على ترويستها ولا يُظهر توقيعه على كثير من الافتتاحيات والمقالات التي يكتبها، وربما استعاض أحياناً عن ذلك بذكر اسمه المستعار، كما سيأتي.

أما د. الحازمي، فقد فنّد بالتفصيل محتوى الجريدة، وأظهر فيما يخص يوسف ياسين الافتتاحيات التي يغلب على الظن أنه محرّرها، والمقالات التي كتبها خارج إطار الافتتاحيات، والاسم المستعار الذي

كان يوقّع به أحياناً وهو «قارئ» في حلقات عشر نقدية لكتاب «خواطر مصرّحة» لمحمد حسن عوّاد، كما ألمح د. الحازمي إلى تسع مواد غير افتتاحية وإلى سبع وأربعين افتتاحية مغفلة التوقيع، يرجّح أنها جميعاً بقلم يوسف ياسين.

وأورد د. الحازمي عشرين افتتاحية موقّعةً بتوقيع «كاتب خبير» ذكر قاسم الرويس لاحقاً أن يوسف ياسين هو صاحبه، وقد خصصها لأحداث الدبدبة، كما سيرد فيما بعد.

لم يمض على صدور الجريدة الرسمية «أم القرى» سوى عام ونصف العام حتى صدر مرسوم سلطاني (بتوقيع عبدالعزيز سلطان الحجاز ونجد وملحقاتها) بتأسيس «مديرية المطبوعات والمخابرات» وبتعيين يوسف ياسين مديراً لها يعاونه عبدالعزيز العتيقي، وكانت تلك المديرية بمثابة وكالة أنباء أو الناطق الرسمي، تعنى بإصدار البلاغات الرسمية الصادرة من الحكومة، وارتبطت لاحقاً مع وزارة الخارجية وصارت جزءاً من هيكلها التنظيمي باسم قلم المطبوعات، وربما انتهت بهذا الارتباط علاقة يوسف ياسين بها، وتُعدّ «أم القرى» ومديرية المطبوعات أولى المؤسسات الإعلامية السعودية، ونواة المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر التي أُنشئت سنة ١٣٧٤هـ (١٩٥٥م) في أوائل عهد الملك سعود، وتحوّلت في أواخر عهده إلى وزارة الإعلام، كما يُعدّ يوسف ياسين وعبدالعزيز العتيقي أول مسؤولَين إعلاميّين في تاريخ الإعلام السعودي الرسمي.

على صعيد التأليف، لا يُعرف ليوسف ياسين مؤلفات مطبوعة، لكن وزارة المعارف جمعت في عام ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م) حلقات الرحلة السلطانية بين الرياض ومكة المكرمة سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) المنشورة في جريدة «أم القرى» في أربع عشرة حلقة، في مؤلف واحد قام على مراجعته والتعليق عليه الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، ثم جُمعت مع غيرها من رحلات الملك عبدالعزيز بين الرياض ومكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة، المنشورة في الجريدة الرسمية وأطلق عليها مجتمعةً عنوان «الرحلة الملكية» صدرت عن جامعة الملك سعود، ثم عن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم عن دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤١٦هـ (١٩٩٦م).

وعلى خلاف ما كان يتبعه يوسف ياسين من عدم نشر اسمه على افتتاحيات الجريدة أو استخدام اسم مستعار في بعض المقالات، فإنه نشر حلقات هذه الرحلة موقعة باسمه الصريح.

وفي عام ٢٠١٢م، أصدرت دار جداول مجموعة الحلقات التي نشرها يوسف ياسين في صحيفة «أم القرى» تحت توقيع «كاتب خبير» عن رحلة الملك عبدالعزيز إلى الدبدبة في كتاب بعنوان «يوميات الدبدبة» من تحقيق الباحث قاسم بن خلف الرويس، والدبدبة روضة تقع شمال هضبة الصمّان في الشمال الشرقي من البلاد بجوار مدينة حفر الباطن، شهدت معركة (مغزى) باسمها، طارد فيها جيش الملك عبدالعزيز فلول

«الإخوان» سنة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م.

يقول الرويس عن تلك المذكرات: «يوميات الدبدبة هي أول مذكرات يومية في حروب الملك عبدالعزيز لتوحيد المملكة، وقد جاءت في عشرين حلقة مستغرقة فترة زمنية بدأت من ٢٣ جمادى الثانية ١٣٤٨هـ (٢٥ نوفمبر ١٩٢٩م) وانتهت في ٨ شوال ١٣٤٨هـ (٨ مارس ١٩٣٠م) وكان صاحبها ينوي طباعتها في كتاب مستقل ولا نعلم بعد ذلك الأسباب التي منعته من ذلك ! ومن المعلومات النادرة التي انفردت بها هذه اليوميات، ما حفظته من كنوز تاريخية ولمحات اجتماعية لهذا الوطن، ومن ذلك الحديث عن النظام العسكري لجيوش التوحيد في تلك الفترة الزمنية، حيث تطرقت اليوميات لهذا النظام بتفصيل لم يرد قبل ذلك في أي مصدر من المصادر».

ما تزال مذكراته - حسب علمي - غير مطبوعة، وكان أملاها بنفسه مُلبّياً فيها رغبة أولاده، وهي تقع في نحو مئتي صفحة، تتناول قصة حياته وأسرته منذ ولادته في مدينة اللاذقية وحتى هجرته إلى الرياض، وبالتالي فإنها لا تغطي فترة إقامته في المملكة العربية السعودية، ولا تأتي على جوانب عمله السياسي الذي ما يزال طيّ الكتمان والسريّة مثل كثير من السياسيين العاملين على مقربة من مراكز صنع القرار في المملكة، وتتجه أسرته إلى إصدارها بالرغم من نقصها، وإلى كتابة سيرته في إصدار.

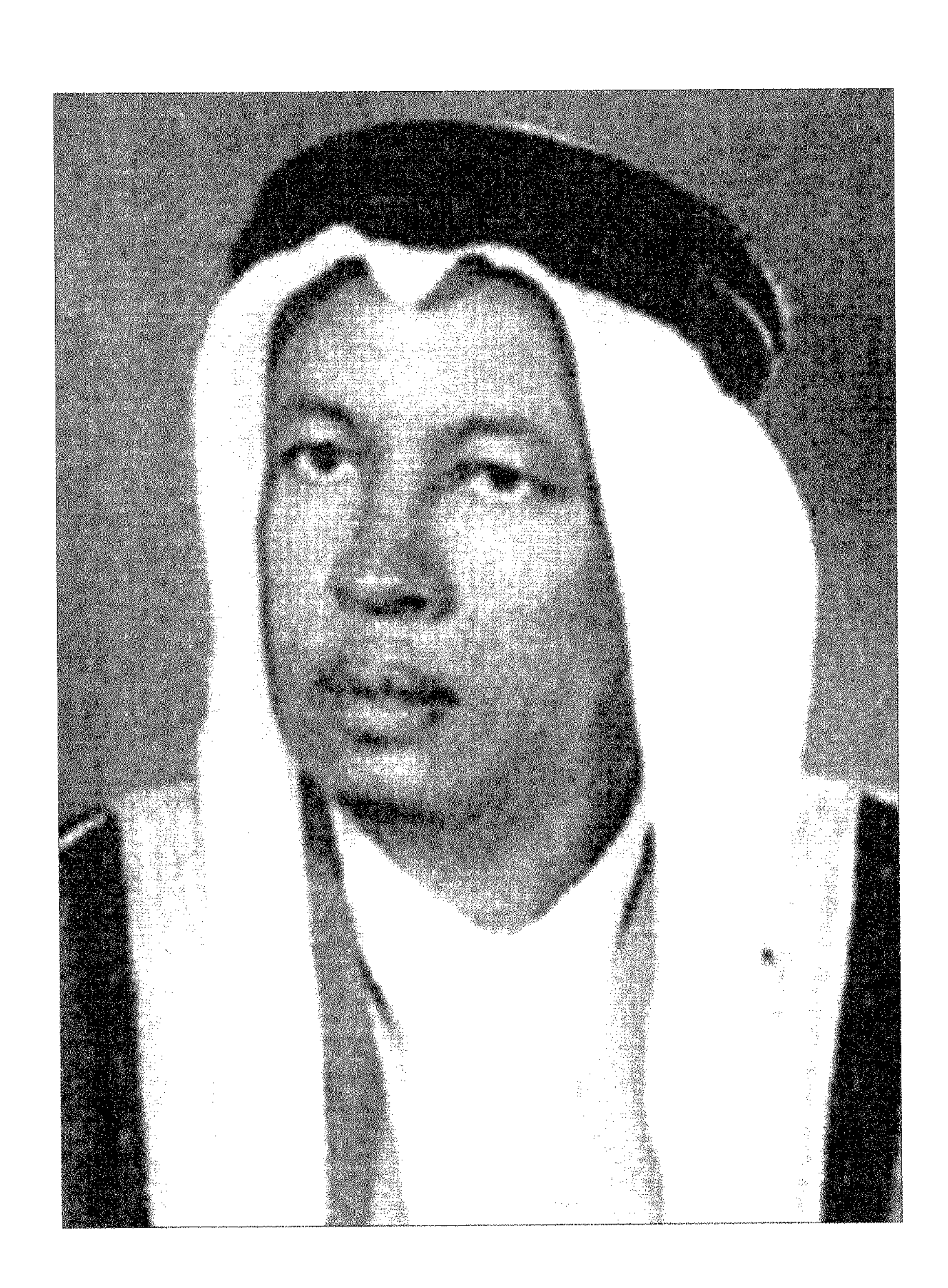
(٢٠)

(التوأمـــان)

عبد القدوس الأنصاري والمنهل (*)

تاريخ الصحافة السعودية في المدينة المنورة

(*) ألقيت في نادي المدينة المنورة الأدبي مساء يوم الثلاثاء ١٤٢٤/١/٨هـ (٢٠٠٣/٣/١١م)، ونشرت في جريدة الرياض، العدد ١٢٦٨٣ في ١٤٢٤/١/١٠هـ (٢٠٠٣/٣/١٣م)، والعنوان "التوأمان" مقتبس من اسم ثاني مؤلفاته، الذي يُعدّ أول محاولة قصصية له، وأول رواية سعودية، (مطبعة الترقي بدمشق ١٣٤٩هـ-١٩٣٠م).



أثق أن أمري في هذه المشاركة كقصة جالب التمر بالأحرى إلى طيبة المباركة، وأن كل واحد من مثقفيها يدرك جانباً من جوانب الموضوع أو كله، وكان الأنسب أن يلقى في أي منتدى إلا في هذا النادي، من أجل ذلك، عملت قدر الإمكان، على طرق الموضوع من زاوية مختلفة، علّي أتلافى تكرار معلومات معروفة، وحسبي أن أذكر أن هذا العنوان الذي اخترته لهذه المحاضرة، هو أحد الموضوعات القليلة، التي يظنها المرء سهلة فإذا هو ممتنع، وواسعة فإذا هو ضيق، وواضحة فإذا به محيّر.

كُتب الكثير عن التوأمين: عبدالقدوس الأنصاري ومجلة المنهل، حتى صار مجموع ما كُتب من مقالات أو دراسات عنهما، يحتاج بحد ذاته إلى فهرسة، وكدت لا أجد ما أكتب عنه لهذه الأمسية، لكنني وقد اختزلت كثيراً من المعلومات المعروفة عن المنهل ومنشئها، أتوقف عند محطات تُعد في تقديري، من أبرز ما يوجز به تاريخ الصحافة والطباعة في المدينة المنورة، وعلاّمتها (الأنصاري)، وتاريخ منهله العذب، الذي - أي المنهل - يُعدّ بحق موسوعة المعارف، وسجل الإدارة والآداب والعلوم خلال سبعة عقود، وأحد معالم الثقافة الشاخصة في بلادنا، لكن ما تأتي به هذه المحاضرة يظل غيضاً من فيض ما يمكن أن يقال عنهما.

وقبل الحديث عن المنهلين التوأمين: الأنصاري ومجلته، أورد مقدمة موجزة عن تاريخ الصحافة والطباعة في المدينة المنورة، الذي اقترن بدؤه بصدور صحيفة (الرقيب) لمحرريها إبراهيم خطاب، وأبوبكر الداغستاني، وكانت جريدة تخط باليد وتطبع على ورق الجيلاتين، وكذلك بصدور صحيفة (المدينة المنورة الأولى) التي حررها محمد مأمون الأرزنجاني بالعربية والتركية، وقد صدرتا بعد عام أو أقل من صدور أول صحيفة حجازية في العهد العثماني في مكة المكرمة (حجاز أو الحجاز الرسمية ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م).

ظهرت صحيفتا (الرقيب والمدينة المنورة الأولى) في عام واحد، هو سنة ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) إبان العهد التركي، وهو عام مشهود في تاريخ الصحافة في الحجاز، ظهرت فيه صحيفتان أخريان في مكة المكرمة (شمس الحقيقة وصفا الحجاز) وجريدة واحدة في جدة (الإصلاح الحجازي)، فصار مجموع ما صدر في مدن الحجاز في عامي ١٣٢٦هـ و ١٣٢٧هـ ست صحف، ما لبثت أن اختفت سريعاً لأسباب مختلفة فنية ومالية وسياسية.

والذي يغلب على الظن، أن صدور هذه الصحف دفعة واحدة في فترة زمنية متقاربة قد ارتبط بصدور الدستور العثماني (١٩٠٨م)، الذي أجاز للولايات الخاضعة للحكم التركي مبدأ إصدار صحف خاصة بها، تسمى باسمها وتنطق بصوتها وتعبر عن شؤونها، كما اقترن مع صدور قانون المطبوعات العثماني (في عام ١٩٠٩م)، وهي فترة زمنية شهدت

صدور صحف أخرى في ولايات عثمانية مختلفة من المشرق العربي، ومن بينها البصرة، وبغداد التي من طريف ما أعلم صدر فيها في العام نفسه جريدة لا علاقة لها بالأخرى، تحمل اسم (الرقيب)، لأديب وصحفي عراقي مشهور من أصل نجدي هو عبداللطيف ثنيان.

مرت سبع سنوات، كان الوضع السياسي والعسكري فيها في المشرق غير مستقر، سعى الأشراف خلالها إلى الاستقلال بالحجاز عن الأتراك، مستفيدين من ظروف الحرب العالمية الأولى، فما كان من الأتراك الذين اقتصر حكمهم على المدينة المنورة إلا ـ على قول أحمد السباعي ومحمد علي مغربي وغيرهما ـ أن نقلوا الجريدة الرسمية (الحجاز) من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، يشرف عليها السيد حمزة غوث، ويساعده في تحريرها الصحفي السوري بدرالدين النعساني، فصدرت في ١٢/٩/١٣٣٤هـ (٧/١٠/١٩١٦م) ثلاث مرات في الأسبوع قبل أن تصبح شبه يومية، في حين أصدر الهاشميون في مقابلها جريدة (القبلة) في مكة المكرمة، كما صدرت صحف هاشمية أخرى في مكة المكرمة وجدة.

ومع أن جريدة (الحجاز) صدرت قوية في المدينة المنورة، كما يبدو من شكلها وموضوعها، تساندها السلطة العثمانية وإن لم تصرّح بسمتها الرسمية، إلا أنها توقفت على الأرجح في عامها الثاني (١٣٣٥هـ ـ ١٩١٧م) بعد صدور (١٠٥) أعداد منها، متأثّرة بشحّ ورق الطباعة، ولتتعطل بذلك الحركة الصحفية في المدينة المنورة لعقدين قادمين.

أما بالنسبة لبدايات الطباعة في المدينة المنورة، فإن تفاصيلها ما تزال غامضة، تنتظر من يجتهد لإجراء تحقيق علمي حولها، فإذا ما سلّمنا بأن جريدة (الرقيب) كانت تطبع على الجيلاتين وتخط باليد، فقد أشار محمد لبيب البتنوني الذي زار المدينة المنورة في سنة ١٣٢٧هـ إلى جريدة (المدينة المنورة الأولى) مطبوعة بمطبعة البالوزة (البالوظة، التي تعني بالتركية نوعاً من الطباعة الحجرية)، وربما تكون تلك هي المطبعة العلمية التي أسسها كامل الخجا لتلبية احتياجات التجار من المطبوعات، لكن د.عباس طاشكندي يرجح أنها لم تجلب إلاّ في عام ١٣٢٩هـ (١٩١١م).

أما جريدة (الحجاز) المدنيّة التركية، وهي من أربع صفحات بالعربية، فيبدو أنها كانت قد طبعت بمطبعة حكومية عرفت باسم (مطبعة الحجاز) جلبت من مدينة حلب لهذا الغرض، رفقة بدر الدين النعساني، وقد اقترن وجودها في تقديري بوجود السلطة العثمانية ثم نقلت أو اندثرت بانتهائها، وقد يكون النعساني نفسه عاد بها إلى الشام، وذلك بدليل فترة انقطاع طويلة دامت عشرين عاماً (بين ١٣٣٥هـ و ١٣٥٥هـ) قد مرت دون أن يكون لتلك المطابع شأن طباعي يذكر في المدينة المنورة، حتى إن عثمان حافظ أشار في روايته لقصة إصدار جريدته مطلع (١٣٥٦هـ) إلى أن مطبعته القديمة (طيبة) كانت الوحيدة آنذاك، مما دعاه إلى أن يستورد مطبعة جديدة من مصر لتعزيزها.

ثم هناك مطبعة طيبة الفيحاء التي جلبها أحمد الفيض أبادي وعبدالحق نقشبندي (وربما مع غيرهما) سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٥م)، وكان مقرها مدرسة العلوم الشرعية، ثم آلت ملكيتها فيما بعد لعثمان حافظ كما أسلفت وأسماها (مكتبة ومطبعة طيبة)، وكانت بدائية بسيطة تستخدم لطبع الأوراق التجارية والكتب المدرسية، وقد لوحظ أن عبدالقدوس الأنصاري قد طبع فيها أول كتبه: إصلاحات في لغة الكتابة والأدب (١٣٥٢هـ)، ثم جلب عثمان حافظ مطبعة جديدة من مصر طبع عليها جريدته (المدينة المنورة الثانية)، وسمى المطبعة باسمها.

من هنا يستطيع المرء أن يجتهد في تلخيص بدايات الطباعة في المدينة المنورة على النحو الآتي[١]:

١ـ في عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) مطبعة أهلية صغيرة (طبعت فيها جريدة المدينة المنورة الأولى).

٢ـ في عام ١٣٣٤هـ (١٩١٦م) مطبعة حكومية صغيرة (طبعت فيها جريدة الحجاز).

٣ـ في عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٦م) مطبعة أهلية كبيرة (طبعت فيها جريدة المدينة المنورة الثانية).

ومن ثَمّ يتبين أن تحديد أسماء المطابع المدنّية وتواريخ إنشائها

---

(١) لمحمد سعيد عبدالمقصود ورشدي ملحس، أبحاث جيدة حول هذا الموضوع نشرت في (أم القرى).

ومعرفة أسماء أصحابها وعناوين الكتب الأولى والصحف التي طبعت فيها، يحتاج إلى تحقيق أدق، وقد كتب فيها كل من د. أحمد الضبيب ود. يحيى الجنيد و د. عباس طاشكندي وغيرهم.

أما بالنسبة (للمنهل)، فقد طبعت أعدادها الثلاثة الأُوَل في مطبعة طيبة، ثم نقلت إلى مطبعة الحكومة (أم القرى) في مكة المكرمة، وكانت تتألف من أربعين صفحة، بإخراج صحفي مبسط، وتبويب فني واضح.

كانت كل صحف الحجاز (التي صدرت في العهدين العثماني ثم الهاشمي) مشمولة بقانون المطابع والمطبوعات التركي الذي صدر في ١١/٧/١٣٢٧هـ (١٣/٧/١٩٠٩م)[1].

وفي ظل العهد السعودي، صدر ـ متأثراً بسابقه التركي ـ أول نظام للمطبوعات والمطابع في سنة ١٣٤٧هـ (١٩٢٩م)، أي قبل ثمانية أعوام من صدور (مجلة المنهل وجريدة المدينة المنورة)، وقد جدد هذا النظام بصدور نظام آخر للمطبوعات والمطابع عام ١٣٥٨هـ (١٩٤٠م)[2].

وكانت أول إدارة سعودية للمطبوعات قد استحدثت بأمر السلطان (الملك) عبدالعزيز في مكة المكرمة في محرم سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م)[3]،

(١) ألغى هذا النظام نظاماً تركياً سابقاً كان صدر في ٢/٨/١٢٨١هـ، وقد نشر الدكتور محمد الشامخ نصوص النظام في كتابه الصحافة في الحجاز، الصادر عن دار الأمانة ببيروت ١٣٩١هـ (١٩٧١م).

(٢) نشر الأول في جريدة (أم القرى)، في عددها رقم (٢٢٦) الصادر بتاريخ ١٦/١١/١٣٤٧هـ (٢٦/٤/١٩٢٩م) والعدد التالي له، ونشر الثاني في عددها رقم (٧٨٨) الصادر بتاريخ ١٦/١٢/١٣٥٨هـ (٢٦/١/١٩٤٠م) والعدد اللاحق له.

(٣) تضمن كتابي: الإعلام في المملكة العربية السعودية، دراسة وثائقية وصفية وتحليلية (١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م)، نص الأمر السلطاني المشار إليه.

ولما صدر نظاما المطبوعات والمطابع (في عامي ١٣٤٧هـ و ١٣٥٨هـ)، جعلا إدارة المطبوعات تلك مرجعاً للصحف السعودية، ولإصدار تراخيصها، وقد تحوّل اسم هذه الإدارة، بعد فترة وجيزة إلى اسم قلم المطبوعات، وأُلحقت بوزارة الخارجية عند إحداث الوزارة سنة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م)، وذلك على أساس أن جزءاً من مهام تلك المديرية هو إصدار البلاغات الرسمية المتعلقة بالأمور الخارجية، والأصل، أن كل الأجهزة الحكومية آنذاك كانت ترتبط بالأمير فيصل، فهو نائب الملك في الحجاز ووزير الخارجية ورئيس مجلس الوكلاء الذي تطور فيما بعد ليصبح مجلساً للوزراء.

تُساق هذه المعلومات لأن البعض كان يستغرب ارتباط شؤون المطبوعات بوزارة الخارجية، التي أصدرت ترخيص (مجلة المنهل وجريدة المدينة المنورة) وما صدر بعدهما، كما يستغرب اشتراط وجود كفيل غارم وتقديم ضمان مالي من أجل منح الترخيص، أو صدور صك شرعي به، فهي أمور تفهم من نظام المطبوعات المعمول به وقتذاك (وبخاصة المادة ١٥ من النظام الأول الذي صدرت المجلة في ظله).

سوف لن نستغرق الوقت القصير لهذه المحاضرة بالحديث مفصلاً عن أمور تعرفونها، فعبدالقدوس الأنصاري، ولد سنة ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م) وتربّى، بعد سن الخامسة، يتيماً في كنف أستاذه وقريبه الشيخ محمد الطيب الأنصاري، وقد حفظ القرآن الكريم في صغره،

وعمل بعد تخرجه من مدرسة العلوم الشرعية في التدريس، ثم في إمارة المدينة المنورة، ثم رئيساً لتحرير جريدة (أم القرى) بين ربيع الأول ١٣٥٩هـ وحتى نهاية ١٣٦١هـ، ثم سكرتيراً لمجلس الوكلاء، ثم موظفاً في ديوان نائب الملك في الحجاز، ثم في ديوان رئاسة مجلس الوزراء، وقد عشق القراءة والأدب متأثّراً بصديقه الأستاذ عبيد مدني، وبدأ كما سيأتي ذكره يكتب في (صوت الحجاز) مع بداية صدورها سنة ١٣٥٠هـ، وكان نجماً مضيئاً في سماء الصحافة السعودية، وفي عالم الشعر والأدب واللغة والتاريخ والآثار، وتوفي يوم ١٤٠٣/٦/٢٢هـ (١٩٨٣/٤/٥م) عن عمر يقارب الثمانين، مخلّفاً أكثر من (٣٠) كتاباً بين مطبوع ومخطوط، وعدداً كبيراً من المقالات والمحاضرات.

وإذا ما استبعدنا كتابات الرحالة والمستشرقين، وما كتب عن المدينتين المقدستين وما فيهما من معالم إسلامية، فإنه يحتسب لعبد القدوس الأنصاري ريادة الدراسات الأثرية في المملكة العربية السعودية، بمفهومها العلمي الحديث الذي يُعنَى بالتنقيب والرموز والكتابات القديمة، فحظيت بنسبة من كتاباته، وذلك منذ أن أصدر كتابه عن آثار المدينة المنورة سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٥م)[١] وهو الذي ذُكر أنه ترجم إلى الفرنسية، وأقيم له حفل ترحيبي نوّهت عنه في حينه جريدة (أم القرى، العدد ٥٤١)، وكذلك تحقيق أمكنة في الحجاز وتهامة ١٣٧٩هـ

---

(١) مطبعة طيبة الفيحاء في المدينة المنورة، في (٣٢٤) صفحة.

(١٩٦٠م)، وكتاباته عن العين العزيزية ١٣٨٩هـ (١٩٧٠م)، وقد بدأ يهتم بالآثار حسبما رواه عنه الدكتور عبدالرحمن الأنصاري في إثر ما لاحظه من أن فيلبي كان يركّز في دراساته الأثرية المحيطة بالمدينة المنورة على خدمة أغراض معينة في ذهنه، كما أنه لا يجوز أن يترك فيلبي وأمثاله من الرحالة والمستشرقين ينقلون إلى العالم الخارجي ما نحن أدرى به وأعلم.

واقترنت دراسات عبد القدوس الأنصاري عن الآثار، مع اهتماماته الأساسية بالتاريخ، فأصدر عام ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م) كتابه: بين التاريخ والآثار (٣٧٥ صفحة)، وموسوعة تاريخ جدة (المؤلفة من أكثر من ألف صفحة) ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م)، كما ارتبطت بولعه بالرحلات التي وثّق بعضها في كتب أو أعداد خاصة من (المنهل)، كرحلته إلى مصر ١٣٧١هـ (١٩٥٣م)، وإلى المنطقة الشرقية ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م)، ورحلته إلى الرياض ١٣٧٨هـ (١٩٥٧م)، ورحلته إلى بلاد بني سليم ١٣٩١هـ (١٩٧١م)، ومع ابن جبير في رحلته ١٣٩٦هـ (١٩٧٧م)، وطريق الهجرة النبوية ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).

ويحسب للأنصاري ـ كما سيأتي ـ اهتمام مبكر بكتابة ترجمات أبرز الشخصيات السياسية والثقافية في المجتمع السعودي، حتى تمنّى كثيرون على أسرة (المنهل) أن تقوم بجمع تلك التراجم في موسوعة واحدة، فلقد أصدر في حياته دراسات بيوجرافية مستقلة بعضها

غير مسبوق عن سيرة الملك عبدالعزيز والملك سعود وأحمد الفيض أبادي وعبدالرحمن السعدي والصحفي علي القرعاوي وعبيد مدني وعبدالمحسن الكاظمي، وتراجم أخرى في ثنايا المجلة عن عشرات من أعلام الفكر السعودي في عصره، فضلاً عن السلسلة التي أصدرها بعنوان: بُناة العلم الحديث في الحجاز، وكتابه عن أدباء المملكة.

وكما اهتم الأنصاري بالتاريخ والآثار والرحلات، كان الأسبق إلى لفت الأنظار إلى مصايف البلاد، والدعوة إلى الاهتمام بها، عبر مؤلف مبكر أصدرته مجلة المنهل في عدد خاص (١٣٦٠هـ - ١٩٤٠م).

يسجل للشيخ الأنصاري أنه كان من أوائل من طالب بإنشاء جامعة سعودية، وبتسمية المنازل والشوارع في مدن المملكة، وبإنشاء لجنة للبحوث العلمية، ومثلما كان من أوائل من دعا لافتتاح الإذاعة السعودية، فإنه، بعد افتتاحها، ظل يمدها بأحاديث في موضوعات مبتكرة وشيّقة، دوّن بعضها في العدد الخاص من مجلة (المنهل) بعنوان: أوعية وغلال (١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م)، وقام بتوثيق السنوات الأولى من تأسيسها من خلال عدد خاص قيّم من مجلة (المنهل) عنوانه: الإذاعة العربية السعودية، تاريخها وتطورها (١٣٧١هـ - ١٩٥١م).

وإذا ما عرفنا أن الأنصاري قد كتب أول محاولة تأليفية وقصصية له (التوأمان) وعمره لم يتجاوز الرابعة والعشرين، فقد بدأ يكتب مقالاته الصحفية في جريدة (صوت الحجاز) مع بدايات صدورها

في مكة المكرمة بتاريخ ١٣٥٠/١١/٢٧هـ (١٩٣٢/٤/٤م)، وذلك قبل ولادة مجلة (المنهل) بخمس سنوات، وقد ذكر د. منصور الحازمي، الذي قام بفهرسة المادة الأدبية في صحيفة (صوت الحجاز) أنه رصد للشيخ الأنصاري خلال هذه السنوات الخمس ما يقرب من (٣٥) مقالاً وبحثاً لغوياً وأدبياً وتاريخياً، وقد استمر يكتب فيها، لم يثنه عن ذلك صدور (المنهل)، بل لقد أصبح يواظب على كتابة زاوية بعنوان (ما قلّ) في جريدة (البلاد السعودية) التي تعد امتداداً لـ (صوت الحجاز) بعد توقفها في الحرب العالمية الثانية.

وبالإضافة إلى ذلك، كتب في الجريدة الرسمية (أم القرى) ونشر شيئاً من أشعاره قبل رئاسته لتحريرها (بين بداية عام ١٣٥٩هـ ونهاية عام ١٣٦١هـ) وأثناءها وبعدها، كما كتب في الصحف والمجلات الآتية: (الرابطة الإسلامية والحج والنداء الإسلامي والمدينة المنورة وعكاظ وقافلة الزيت والخفجي والأهرام والمقطّم والسياسة الأسبوعية والرسالة والكتاب والمعرفة والشرق الأدنى والرابطة العربية) وغيرها، كما ألقى بعض الأحاديث في الإذاعة المصرية، والمؤمل أن تسعى مجلة (المنهل) إلى تتبع كل المقالات الصحفية والأحاديث الإذاعية التي كتبها ونشرها، وتدوينها في دراسة بيبليوجرافية تساعد الباحث في العثور عليها، مشيراً في هذا الصدد إلى أنه قد استخدم في أحيان كثيرة أسماء مستعارة لبعض مقالاته، سواءً في مجلة (المنهل) أو غيرها،

فظهرت له مقالات بتوقيع ابن القاسم، وأبو العلاء وأبو نبيه والشاعر المجهول ورمز (ع. أ.)، وكان توقيع (باحث) من أكثرها استعمالاً، ولم يكن لذلك دائماً صلة بجرأة موضوعاتها.

هناك ثلاث مسائل، والمرء يقرأ في التاريخ الثقافي للأنصاري، تلفت النظر إلى مكانته الفكرية المتقدمة وريادته الإعلامية والأدبية، وهي مسائل لم تسلّط عليها الأضواء بما فيه الكفاية بعد من قبل دارسي تاريخه، لا وحتى من قبل (المنهل)، الذي خصص العديد من الأبحاث عنه منذ رحيله قبل عقدين من الزمن:

الأولى: تلك الاستفتاءات، وكذلك الندوات، المستنيرة في أبعادها، الثرية في مضامينها، التي أطلقها عبر (المنهل) بين فترة وأخرى، عن قضايا فكرية وأدبية جدلية، وكان يشارك فيها أبرز أعلام الثقافة والأدب السعوديين في عصره، يمارسون من خلالها عصفاً ذهنياً لآرائهم، في حوارات راقية واعية هادئة، ما تزال بعض محاورها تطرح في المجتمع السعودي وأوساطه الثقافية حتى اليوم، أي بعد مضي أكثر من نصف قرن على طرحها في (المنهل).

فمن أمثلة القضايا المطروحة في تلك الاستفتاءات والندوات الدورية عبر (المنهل): ندوات عن الأخلاق والتعليم، وعن خير الطرق لتعميم التعليم، وعن التعليم العام أم التعليم العالي، وعن الابتعاث إلى الخارج من عدمه، وعن الصناعة أم الزراعة، وهل استفدنا من

الأدب، وعن الوضع الأدبي الراهن بين الصعود والركود، واستفتاءات حول رسم برنامج عملي لرفع مستوانا الاقتصادي، وعن أثر الأدب الحديث في هذه البلاد، وهل يصلح أدبنا للتصدير، واستطلاع للآراء حول ذبائح منى، وتخطيط وسائل النهضة الصحفية[1].

أما المسألة **الثانية**، فهي تلك الصلة الفكرية التي كانت تربط الأنصاري بعبيد مدني، والتي يذكر أنها خلّفت بينهما، حصيلة أدبية مخطوطة تستحق التدوين والنشر، فكما أن من المعروف أن محمد الطيب الأنصاري، كان الأب الروحي ـ إن جاز التعبير ـ لعبدالقدوس، فإن عبيد مدني كان يعدّ المؤثر الثقافي والأدبي عليه منذ صغره، وقد شعرت من خلال التعمق في إعداد هذه المحاضرة أن شيئاً ما حول هذه المسألة، قد يكشف النقاب عنه قريباً من خلال مجلة (المنهل) أو من خلال د. عبدالرحمن الأنصاري، الذي يحتفظ لنفسه بإفشاء المزيد من التفصيل عنه، وكان عبدالقدوس قد تحدث عن صديقه عبيد مدني حديثاً ضافياً، كما نعاه إثر وفاته، في مقالين مطوّلين[2] ألمح فيهما إلى طرف من علاقتهما الفكرية وجهودهما في بدء ما أسماه بالأدب الحديث في المدينة المنورة، وقد بدا

---

(١) كان من أبرز الشخصيات الثقافية التي اشتركت في تلك الاستفتاءات والحوارات: الأمير عبدالله الفيصل وعبدالعزيز ابن محمد آل الشيخ ومحمد بن مانع وإبراهيم الشورى وعبدالله خياط وحمد الجاسر وعبدالله بن خميس وأحمد علي وإسماعيل الأنصاري وعبدالعزيز بن باز ومحمد حسن عواد وحسين سرحان ومحمود عارف وعلي فدعق وحسين عرب ومحسن باروم وعبدالله عبدالجبار وعبدالعزيز الرفاعي وأحمد إبراهيم الغزاوي وضياء الدين رجب وحسن قرشي ومحمد سعيد العامودي وأحمد السباعي وصالح قزاز ومحمد علي مغربي ومحمد مغيربي ومحمد حسن كتبي ومحمد عمر توفيق وعبدالله عريف وعبيد وأمين مدني ومحمد حسين زيدان وعلي وعثمان حافظ وأحمد عبدالغفور عطّار.

(٢) مجلة المنهل، ربيع الأول ١٣٧٨هـ وشوال/ ذو القعدة ١٣٩٦هـ.

واضحاً فيهما مدى تأثّر الأنصاري بصديقه ورفيق دربه، علماً بأنهما ولدا في عام واحد، وسلكا خطوات متقاربة في حياتهما.

أما المسألة **الثالثة**: فهي أن الأنصاري كان في الواقع موسوعي التخصص، لا يتردد المنصف في أن يطلق عليه لقب العلاّمة، فهو متشعّب الاهتمامات، متنّوع المواهب، وهو بدون مشاحّة، الأستاذ في الأدب والتاريخ واللغة والآثار، بالإضافة إلى العلوم الشرعية، ويكفي أن يُضرب المثل بموسوعة (مخطوطة) ضخمة عن النخلة، خلّفها، وهي تقع في (٧٠٠) صفحة، ويؤمّل أن تصدر مطبوعة في هذا العام عن دار (المنهل).

لم تكن تلك الريادات العلمية والثقافية سوى أمثلة من التنوّع المعرفي، والانفتاح الفكري لدى الأنصاري، تتوّج ما اشتهر به في الوسط الثقافي من تعمّق في الأدب وفروعه: الكتابة، والنقد، والقصة، والشعر، والرواية، وما اكتسبه في تعليمه المبكر من ثقافة إسلامية متأصّلة، فضلاً عما عرف عنه من أدب وخلق وسجايا إنسانية رفيعة المقدار.

واقترن اسمه في أذهان المثقفين بمجلة (المنهل) التي أصدرها في المدينة المنورة في ذي الحجة سنة ١٣٥٥هـ (فبراير ١٩٣٧م)، مسجلاً بها الريادة الصحفية، في كونها أول مطبوعة صحفية سعودية في طيبة الطاهرة، وأم المجلات الثقافية السعودية، وأقدمها وأطولها عمراً، وأول مجلة أهلية سعودية، وثاني مطبوعة صحفية سعودية أهلية في

المملكة بعد (صوت الحجاز)، إذ صدرت جريدة (المدينة المنورة) السعودية لعثمان حافظ بعد (المنهل) بشهرين.

وقد انتقلت مجلة (المنهل) إلى مكة المكرمة سنة ١٣٥٩هـ بسبب انتقال مؤسسها للعمل رئيساً لتحرير جريدة (أم القرى)، ثم توقفت عن الصدور مضطرة أربع سنوات ونيّف (بدءاً من شهر رمضان المبارك ١٣٦٠هـ ـ سبتمبر ١٩٤١م) بسبب شح الورق إبان الحرب العالمية الثانية، بعد أن مرت بها فترة اضطرت فيها إلى تقليص صفحاتها، ثم عاودت الصدور من مكة المكرمة في شهر محرم ١٣٦٥هـ (ديسمبر ١٩٤٥م)، وفي شهر شعبان سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) نقلت إلى جدة، حيث ما زال صدورها منتظماً، تقترب في عامنا هذا من السبعين في العمر.

وأقولها بصدق، إن عودة (المنهل) إلى أحضان أمه الأصل (المدينة المنورة)، هو بالنسبة لمحاضركم من أسعد تمنّياته الإعلامية، والتي أرجو أن يسعى ناديكم الأدبي وآل الأنصاري إلى تحقيقها.

لقد كان الكتابان: الفضي، الذي صدر بعد مرور ربع قرن على تأسيس (المنهل)، والذهبي، الذي صدر بعد نصف قرن، سجلّين ضافيين لمسيرة البلاد، السياسية والثقافية والإدارية، مع تراجم لعدد كبير من الأعلام والشخصيات، ورصداً دقيقاً لحركة التأليف والطباعة والنشر، ومسرداً لتفاصيل مفيدة عن الصحافة السعودية.

وفي تقدير المحاضر أن هذين الكتابين، هما وبخاصة الأول أفضل مرجعين عن الأنصاري ومجلته، فقد اشتملا على معلومات مهمة عن تاريخ (المنهل) وقصة الترخيص له، وعلى عرض لتطوّره التاريخي والفني، منذ أن بدأت فكرته سنة ١٣٤٨هـ، وعلى سرد مفهرس (مبوّب) للموضوعات التي نُشرت فيه، وعلى الأوّليّات العديدة التي سبق فيها غيره من الإصدارات الصحفية، وقد ذُيّل الكتاب الثاني بإعادة طباعة أول عدد من (المنهل، في ذي الحجة ١٣٥٥هـ)، وكانت نخبة من الأدباء والمفكرين، قد شاركت في الإشراف على إعدادهما.

وعودةً للحديث عن اهتمام الأنصاري ومنهله بالسير والتراجم، لا يملك من يطّلع على المجلة التي تقترب من الذكرى الثمانين لتأسيسها، إلاّ أن يسجل إعجابه بما تتضمنه من رصد كبير لتراجم العديد من الشخصيات التاريخية أو المجايلة (المعاصرة) لمؤسّسها، حيث تُعدّ من المراجع الرائدة في توثيق السِّيَر الموجزة للأعلام من الأدباء والمثقفين في القرن الهجري الماضي، وتوجد ـ كما سلف ـ ثلاثة مراجع «منهليّة» مهمة عن المخزون التراثي الذي تركه الأنصاري في هذا المجال:

أولها: المنهل الفضي في خمسة وعشرين عاماً، الصادر عام ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م).

ثانيها: المنهل في عدده الخاص عن الأدباء السعوديين الذي صدر في رجب ١٣٨٦هـ (نوفمبر ١٩٦٦م).

ثالثها: المنهل الذهبي الصادر بمناسبة مرور خمسين عاماً من عمر المنهل، والذي ظهر في محرم ـ صفر ١٤٠٥هـ (١٩٨٤م) بُعيد وفاة الأنصاري.

وفي هذه المراجع الثلاثة إضاءات موجزة عمّا تضمنته كتابات الأنصاري في مجال السِّيَر والتراجم، على أن الاعتماد الأساس في تتبع ما كتبه يكون على المجلة نفسها خلال أعوامها الثمانية والأربعين التي صدرت فيها إبان حياته، وقبل استعراض ما ضمنته المنهل من كتابات، تجدر الإشارة إلى نقطتين لهما صلة بهذا الموضوع:

١ ـ ما كتبه الأنصاري عن سيرته الذاتية، التي ربما تُعد من الترجمات الذاتية المبكرة، وهي بعنوان: (قصة حياتي) وقد حررها عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) وكان قد أشار إليها د. سعيد تقي الدين في كتابه: مجلة المنهل وأثرها في النهضة السعودية (دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٨٦م) وظهرت تلك السيرة (قصة حياتي) في كتيب صغير أُلحق بعدد ذي القعدة وذي الحجة عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) من مجلة المنهل، وفي كتاب تقي الدين ما يُغني عن الإعادة من حيث اهتمام المنهل بالنهضة الأدبية.

٢ ـ السِّيَر والتراجم التي أصدرها الأنصاري في كتب مستقلة، ومنها على سبيل المثال كتابه عن الشاعر عبدالمحسن الكاظمي، المطبوع في بيروت عام ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م) في (١٣٨) صفحة، وكتابه في ترجمة

حياة الشيخ أحمد الفيض أبادي الصادر عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٦م) ويقع في (١٠٥) صفحة، وكتابه عن سيرة الملك عبدالعزيز، الذي أصدره عام وفاته سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م) والكتاب عدد خاص من مجلة المنهل يقع في (١٠٧) صفحة، وكتابه عن الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي المتوفى عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) ويبدو أنه طُبع في القاهرة في ذلك العام، وكان الأنصاري ألَّفه برغبة من إبراهيم السليمان العقيل الذي عُرف بصحبة الأمير (الملك) فيصل، ثم سفيراً في مصر، وكتابه عن كفاح الصحفي علي القرعاوي المطبوع في دار الأصفهاني بجدة عام ١٣٧٨هـ، في (٨٠) صفحة، وكان القرعاوي هذا صحفياً توفي في حادث سير في يوم سافر فيه ليتابع قضية صحفية ضده.

وأحسنت إدارة المنهل صنعاً بتكشيف موضوعات المجلة حسب تصنيف المواد، وكان من ذلك فهرسة كل السِّيَر والتراجم التي ظهرت في المجلة منذ بداية صدورها، بحيث سهلت على الباحثين إجراء دراساتهم على تلك الموضوعات، والأمل معقود على المجلة لإصدار تلك الفهارس في مطبوعات متداولة، بل لعل المجلة تتقدم خطوة أخرى إلى الأمام في خدمة الباحثين، بإعادة إصدار تلك التراجم في كتاب من عدة أجزاء.

باستعراض ما تضمنته المنهل من سير أو تراجم طيلة تلك الفترة الطويلة من عمرها، يلحظ الآتي:

أ ـ بلغ عدد ما ظهر في المجلة من تلك التراجم (السِّيَر القصيرة والسِّيَر المطولة) ما يزيد على (١٠٥٠) مادة.

ب ـ بلغ ما ظهر في عدد المنهل الخاص عن أدباء المملكة عام ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) نحو (١٠٠) شخصية مع إضافة صورهم ونماذج من أفضل ما كتبوا (شعراً أو نثراً أو غيرهما).

ج ـ كان واضحاً تركيز المجلة واهتمام رئيس تحريرها ومؤسسها بأدب السِّيَر والتراجم، حيث شكّلت تلك المادة فقرات أساسية في كل الأعداد تقريباً، منذ صدورها وحتى وفاته.

د ـ شملت السِّيَر والتراجم التي ظهرت في المجلة أطيافاً مختلفة من الشخصيات المحلية والعربية والإسلامية والعالمية، وأجزم القول بأن هناك شخصيات (رجالاً ونساءً) لم توجد تراجم لهم إلا في هذه المجلة، خاصة تلك الشخصيات التي قُرنت تراجمهم بنماذج من إنتاجهم الأدبي، بحيث ظلت المنهل مرجعاً لما أتى بعدها من مؤلفات.

هـ ـ أسدت المجلة مع ذلك فضلاً على الباحثين، بأن قدمت تراجم نادرة لأدباء المدينة المنورة وأعلامها ومشايخها ومؤرخيها المعاصرين والسابقين، إذ من المعروف أن المنهل كانت أول مطبوعة أهلية سعودية تصدر في طيبة الطاهرة ثم انتقل مقر صدورها إلى مكة المكرمة فجدة حيث ما تزال تصدر.

و ـ لم تستثن المجلة، وهي التي نذرت نفسها للآداب والعلوم والثقافة، أياً من الموضوعات الإبداعية الأخرى، فخصصت عام ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) أي بُعيد وفاة منشئها، صفحات تتحدث عن تراجم أهل الفن من موسيقيين ومطربين وشعراء غنائيين ورسامين وغيرهم.

ز ـ ومن السِّيَر التي ظهرت في شكل سلاسل (متعددة الحلقات) تراجم ـ على سبيل المثال ـ لأمراء الحرم عبر التاريخ (٢٥ حلقة) وتراجم لأدباء وأديبات من الخليج العربي نحو (٢٠ حلقة) وتراجم مماثلة لأعلام الحرمين الشريفين، وهكذا.

لقد أسهم الأدباء والكتّاب، كل حسب طريقته، بخدمة أدب السِّيَر في عصرنا الحديث، وكان للأنصاري في مجلة المنهل، منهج خاص في كتابة هذا الفن، وهو أمر يقرر حق الريادة له في الإسهام والنهوض به.

كان (المنهل)، وما يزال، علامة مضيئة في التاريخ الثقافي لمدينة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ونجماً من نجوم الصحافة السعودية والعربية المعاصرة، ولم يعد مجرد مجلة من المجلات، فهو في شأنه ومقداره، يضاهي مجلات (المختار والمقتطف والهلال) في مصر، و(العربي) في الكويت ونحوها في أنحاء العالم العربي، ولابد أن نحافظ عليه حفاظنا على معالم الوطن وشواهده الحضارية.

وقد حَرَص الأنصاري على أن يجعل (المنهل) مجلة شهرية تخدم الأدب والثقافة والعلوم، وتتجنب الإقليمية والخصومات الأدبية، مبتعداً

في ذلك عما ظهر في صحف أخرى من مقالات جدلية، فطرق ميدان النقد الأدبي بأسلوب رزين بنّاء ونقاش فكري جاد، وكان من أبرز صوره ما دار بين الأنصاري وحمد الجاسر حول حركة (جيم جدة)، التي نشرت مناقشاتها في مجلة (المنهل) والمطبوعات الصحفية الأخرى، ثم ضمّها كتاب مطبوع للأنصاري بعنوان: التحقيقات المُعدة بحتمية ضم جيم جُدة.

وفت مجلة (المنهل) بما وعدت به من الإسهام في إحياء التراث الأدبي، وتشجيع القصة القصيرة والشعر الحر، والاهتمام بما كان يترجم من الأدب العالمي إلى اللغة العربية (وبخاصة في مجال القصة القصيرة)، وكانت ذات شخصية واضحة وثابتة متأثّرة بميول صاحبها فيما يكتب أو يَستكتب، حريصاً على تقسيم (المنهل) إلى أبواب ثابتة، ومواضيع متجانسة، كمنهل الشعر، ومنهل القصص، ومنهل التلاميذ والشباب، ومنهل الكتب والصحف ونحوها، واهتمت المجلة بأدب المرأة ونشاطها الفكري، وابتكرت فكرة الاستفتاءات المنشورة على صفحاتها، لمعالجة بعض الموضوعات الفكرية، مما كان يشترك في مناقشته عدد من الكتّاب المشهورين.

وامتاز (المنهل) منذ عامه الأول بفكرة إصدار أعداد سنوية ممتازة، وأعداد خاصة عن موضوعات محددة، تعدّ، في جودة المضمون والإخراج والطباعة، بمثابة كتب قائمة بذاتها، بلغت حتى الآن ما يقرب

من (٣٨) عدداً ممتازاً و (٥١) عدداً خاصاً، وكان من بينها ما نشرته مجلة (المنهل) لآخرين في مجال الأدب والرواية (منفصلة عن المجلة، هدية منها)، وذلك بالطبع بخلاف ما كان يؤلفه الشيخ الأنصاري من كتب مستقلة تحمل اسمه.

نجت مجلة (المنهل) من عملية إلغاء تراخيص الصحف والمجلات السعودية الفردية تمهيداً لإنشاء المؤسسات الصحفية سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٤م)، حيث استثنيت بقرار مجلس الوزراء الذي مهّد لصدور نظام المؤسسات الصحفية، وصارت القاعدة منذ ذلك الحين استثناء المجلات المتخصصة التي سارت على خطى (المنهل).

وبعد: لقد كُتبت مقالات عديدة عن فكر الأنصاري وتراثه في الأدب واللغة والتاريخ والآثار، وأبحاث أخرى عن مجلة (المنهل)، كان من بينها تلك الدراسة التحليلية الشاملة التي أصدرها د. سعيد تقي الدين في كتاب بعنوان: مجلة المنهل وأثرها في النهضة السعودية، وتناولت محتوى (المنهل) من شعب ثلاث: صحفية واجتماعية وأدبية، وأحصت كثيراً مما انفردت به مقالات (المنهل) ودراساته من مبادرات وخصائص خلال النصف قرن الأول من عمره، ومع ذلك، فإن توأمي الأنصاري و(المنهل) يستحقان ندوة علمية من إحدى جامعاتنا، تخصص للتعمق فيهما، وجمع شتات ما كتب وتدوينه، والتعريف به.

أما الأمنية الثانية فهي أن يتعاون المجتمع الثقافي لإعداد فهارس شاملة لهذه المجلة وإصداراتها الأخرى، ولا أجد أفضل من ناديكم، أو مركز أبحاث المدينة المنورة، لتبنّي هذه الفكرة والعمل على تنفيذها، خاصة وقد مهّد عبدالقدوس الأنصاري وابنه نبيه وحفيده زهير من بعده هذا الطريق، عندما دأبوا منذ أن أصدر المنهل كتابيه: الفضي ثم الذهبي[1] على إصدار كشافات دورية عن محتوياته، كما بذل آخرون محاولات جيدة لتحقيق هذه الغاية، وكان من أبرزها ما أصدرته مكتبة الملك فهد الوطنية من إعداد د. عبدالله سالم موسى القحطاني (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م)، وقد تضمن تكشيفاً للمجلة لمدة خمسة وأربعين عاماً (من ١٣٥٥هـ ـ ١٩٠٦م/ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م).

وحسبي في النهاية أن أقول: إن الأنصاري الذي مر في دنيانا هذه بين عامي ١٣٢٤هـ و ١٤٠٣هـ، هو من فئة من الرواد الذين يزداد تقديرهم بعد فقدهم، وقد لا يستوعب المرء مدى ريادتهم إلا بعد مضي فترة من الزمن على غيابهم، فهو علاّمة موسوعة، تقدم عصره، وفاق بيئته، وسبق محيطه والجيل الذي عاش فيه.

اليوم، لم تَعُد مجلة «المنهل» ـ كما سبق ـ ملكاً لآل الأنصاري وورثته، بل هي كنز للوطن، مثلما أن تاريخه وتراثه الثقافي كذلك، وينبغي

(١) أخذ الثاني تسلسل أعداد المنهل (٤٣٠)، محرم وصفر ١٤٠٥هـ (أكتوبر ونوفمبر ١٩٨٤م).

أن تُعنى الهيئة العامة للثقافة ومركز بحوث ودراسات تاريخ المدينة المنورة، بالحفاظ عليهما، مثلما تُعنيان بتراث بقيّة مفكّري الوطن، بجميع أنحائه، وهذه العناية هي مما يتوقّعه - بدهيّاً - المجتمع الثقافي والعلمي من وراء هذه الهيئتين الناشئتين.

(٢١)

الرشيد والسوركتي والأيوبي (*)

ثلاثي الدعوة في جاوة

(*) ألقيت في المؤتمر العالمي الثاني عن تاريخ الملك عبدالعزيز، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م) ونشرتها جريدة الشرق الأوسط، العدد ١٣٢٥٣ في ١٤٣٦/٥/٢٢هـ (٢٠١٥/٣/١٢م).



عبدالعزيز الرشيد

محمود شوقي الأيوبي

أحمد السوركتّي

ما إن بدأت بوادر الضعف تنخر في مفاصل الدولة العثمانية في مطلع القرن العشرين، حتى اتجهت الولايات الخاضعة لنفوذها ومنها ولاية الحجاز للعمل على الاستقلال من التبعيّة لها، وصار النفوذ السياسي لبريطانيا وفرنسا يأخذ في الاتساع في منطقة الشرق الأدنى، وبدأت القوى الإسلامية في مصر والقارة الهندية، وفي الحجاز، تتطلّع لملء الفراغ السياسي للهيمنة على المقدّسات الإسلامية، وذلك من خلال محاولات إعلان الخلافة الإسلامية وقيام الثورة العربية في بلاد الحرمين الشريفين.

وفي ظل هذا التدافع، ظهرت زعامة جديدة غير متوقعة، اكتسحت أرجاء وسط الجزيرة العربية، وخلطت في زمن وجيز وبدرجة من الدهاء السياسي والمناورة العسكرية الأوراق أمام الكيانات الكبرى، وكانت سيطرتها الشاملة والمفاجئة على الديار المقدسة مثار انبهار القوى الطامعة، سواءً من الإمارات المحيطة بالحجاز داخل شبه الجزيرة، أو من القوى الإسلامية خارجها كالهند ومصر وتركيا، أو من الدول العظمى.

ومع انهيار سلطة الهاشميين في الحجاز، ودخول الإقليم تباعاً، الطائف ثم مكة المكرمة فجدة والمدينة المنورة في الحكم السعودي، بدءًا من عام ١٩٢٤م، ظهرت دعايات معادية للحكم السعودي الجديد في الحجاز تنشط

في مصر وفي جزر الملايو (إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة وبروناي وما حولها حاليّاً) وفي شبه القارة الهندية (الهند وباكستان وبنغلاديش حاليّاً) في ظاهرة امتدّت نحو عشرين عاماً، بتحريض القوى السياسية الطامعة في الاستحواذ على الخلافة والسلطة على بلاد الحرمين الشريفين، ومن بعض الجمعيّات المرتبطة بها، وقد انضم إليها أو حرّض عليها أفراد من المنتمين للحزب الوطني الحجازي الموالي للأشراف في الحجاز.

تسبّبت تلك الدعاية مقرونةً بتدنّي الأوضاع الاقتصادية العالميّة وإرهاصات الحرب الكونيّة الثانية في إحجام جموع من حجاج القارة الهندية وأرخبيل الملايو (الجاوة) عن القدوم للحج، متأثّرين بما كان يشاع عن تدنّي الأمن في بلاد الحرمين الشريفين في إثر دخولها في الحكم السعودي، فتقلّصت أعداد القادمين للحج تدريجيّاً حتى بلغ هذا الأمر أدناه في حج عام ١٩٣٥م، عندما انخفضت أرقام القادمين للحج إلى نسبة متدنّية لم يسبق لها مثيل، وقد تصادف هذا الأمر مع مرور أعوام قليلة من إعلان توحيد الحجاز ونجد في كيان واحد (المملكة العربية السعودية ١٩٣٢م).

وبرغم ضعف الموارد نتيجة تلك الظروف، كان على الإدارة السعودية الجديدة في الحجاز أن تبذل جهوداً استثنائية لمواجهة الموقف وتأثيراته الإعلامية والاقتصادية، كان منها إنشاء مديريّة للدعاية للحج (١٩٣٦م) عُنيت بإيفاد مبعوثين إلى عدد من البلدان وبخاصة أرخبيل الملايو والقارة

الهندية ومصر، من بينهم شخصيّات سعودية وعربية موثوقة بعقيدتها وولائها وباقتناعها بصفاء نهج الحكم الجديد في الحجاز وسلامته مما يشاع، كما أصدرت تلك المديرية مجلة النداء الإسلامي باللغتين العربية والملايوية (١٩٣٧م) ومجلة الحج (١٩٤٧م) وكانت في معظم موضوعاتها تؤكّد على انتشار الأمن في الديار المقدسة، وعلى استقرار الأوضاع فيها، وتحضّ على أداء الحج للتأكد من ذلك مع تبيان التسهيلات المعيشية المتوافرة، وكان من بين علامات الاهتمام بالحجاج الجاوة والهنود، أن الإذاعة السعودية عندما بدأت في جدة عام (١٩٤٩م) خصّصت إذاعتين مستقلّتين أسمتهما الإذاعات الشرقية (باللغتين الأردية والجاوية) موجّهتين محليّاً وخارجيّاً إلى الحجاج والجاليات الناطقة بهما، وذلك لكثرة القادمين من الجاوة والهنود للعمرة والحج، وقد أضيف إليهما بعد سنوات عدد من الإذاعات الموجّهة بلغات أخرى.

الموضوع المطروح هنا، يأخذ الشيخ السوداني المجاور للحرمين الشريفين أحمد محمد السوركتّي، و (الكويتيَين) المؤرخ والصحفي عبدالعزيز الرشيد، والشاعر محمود شوقي الأيوبي أمثلة غير حصرية، لتوضيح تلك الموجة من الدعايات والحملات، وما جوبهت به من جهود تصبّ في الدعوة تبنّتها الحكومة السعودية في عهد الملك عبدالعزيز، وللحديث عن المنافسات التي جرت بين بعض الشخصيّات المهاجرة وبين المقيمين الحضارم الذين يعتزّون بأرومتهم العربية، ويفتخرون بأسبقيّتهم في الهجرة إلى بلاد

الجاوة، وكان هؤلاء الدعاة الثلاثة وغيرهم - مثل يونس بحري - من محرّكي هذا النشاط الدعوي والإعلامي.

وباستعراض ما كتب عن هذا الموضوع، يُلحظ أن المؤلّفات السعودية المحليّة لم تُولِه الاهتمام المستحقّ، وكانت المراجع الحضرمية والإندونيسية أكثر إفاضة في الحديث عن تلك الهجرات، وعن المؤثّرات الثقافية الناتجة عنها، وخصّت بالذكر المنافسات التي جرت بين السابقين من المهاجرين الحضارم وبين من لحق بهم من النازحين العرب ومنهم هؤلاء الثلاثة إلى بلاد الملايو.

وصدرت وما تزال ضمن دائرة المصادر الحضرمية والإندونيسية وخارجها مجموعة كبيرة من الكتب المعمّقة والرصينة التي تناولته بإفاضة، منها على سبيل المثال كتاب عن سيرة الشاعر الكويتي محمود شوقي الأيوبي، من تأليف الأكاديمية الكويتية د. نوريّة الرومي (١٩٨٢م) وكتاب عن سيرة المؤرّخ والصحفي الكويتي عبدالعزيز الرّشيد، من تأليف الباحث الكويتي د. يعقوب يوسف الحجّي (١٩٩٣م) وكتاب عن سيرة الشيخ أحمد محمد السوركتّي، من تأليف د. أحمد إبراهيم أبوشوك (٢٠٠٠م)، وهي كتب مهمة في مجال موضوعها.

وإن من ينظر في الجهود الدعوية والإعلامية التي بُذلت في عهد الملك عبدالعزيز وبخاصةٍ ما يوجّه منها للخارج، يُذهل من حجمها وتنوّعها وتأثيرها، ويبلغ التعجّب مداه عندما يعرف أن تلك الجهود قد اتّسمت

بنوعيّة عالية وبحجم واسع، وذلك بالرغم من عدم وجود متخصّصين في الإعلام آنذاك.

اهتمّت الحكومة السعودية بإيفاد الدعاة والمثقفين إلى جزر الملايو والقارة الهندية وآخرين إلى مصر وأوروبا وأمريكا، من أمثال محمد رشيد رضا وعبدالحميد الخطيب وعبدالعزيز العتيقي وأحمد السوركتّي وعبدالعزيز الرشيد ومحمود شوقي الأيوبي ويونس بحري وإبراهيم المعمّر وأمين الريحاني وغيرهم، مما لا يتّسع المقام للتفصيل في سيرهم.

وتورد الكتابات التي تناولت موضوع هذا البحث أوصافاً للأوضاع في أرخبيل جزر جاوة بعد نيل استقلالها من هولندا وبريطانيا، وهي أوصاف يفهم منها أن النشاط الدعوي والإعلامي وربما السياسي لم يبرز في تلك الجزر إلاّ في مطلع القرن العشرين، وربما كانت توجد نشرات عربية تخدم الجالية الحضرمية المتواجدة في تلك الجزر منذ زمن أقدم، كما توضّح تلك الكتابات انتشار بعض الاتجاهات الصوفية بين الطوائف ذات الأصول الحضرمية من آل (با علوي) المستقرة هناك، وهو ما اجتهد اللاحقون من المهاجرين في محاولة تصحيحها.

وربما كان الشيخ السوركتّي بمجيئه إليها أول من فتح ـ على ما أظن ـ الباب لهجرة المزيد من الجاليات غير الحضرمية، كما فتح تواجده الباب للتوسّع في إنشاء المدارس وللتنافس والصراع الفكري والصحفي بينها، وهو ما توضّحه بإفاضة تلك الكتب المذكورة وغيرها من المؤلفات والمقالات

الصحفية والمدوّنات الإلكترونية التي تصدر بين حين وحين.

ومن يتتبّع ما كُتب، يلحظ كيف كانت مدن في جزر الملايو وبخاصة في محيط إندونيسيا ميداناً تنافسيّاً سلميّاً خصباً وفسيحاً، تمثّل في التسابق لإنشاء الجمعيّات والمدارس الدعوية واستخدام المنابر وإصدار الصحف، في مظهر يمكن وصفه بالفوضى المنظّمة، التي ساعد في تهذيبها نضوج المشهد السياسي بعد خروج المحتلّين وتطوّر الحياة السياسية المحلية وبروز الكيانات الديموقراطية المعروفة حاليّاً.

بدا أكثر التنافس واضحاً في ساحة جزر جاوة بعامة، وفي سنغافورة وماليزيا وبعض المدن التابعة حاليّاً لجمهورية إندونيسيا، ومنها بتافيا (جاكرتا حاليّاً) وبوقور وسورابايا وباندونغ، وكان أكثر الفاعلين في هذا المشهد جماعات تنتمي للعلويين (وهم الطائفة السنيّة ذات الأصول الحضرمية المهاجرة قديماً وتعود أصولها إلى آل البيت وتنتمي في غالبيتها للمذهب الشافعي المنتشر حضرميّاً) وجماعات عربية مختلفة الجنسيّات هاجرت مؤخّراً وصارت نواتها تعرف باسم الإرشاديين نسبة إلى جماعة الإرشاد التي أسسها السوركتّي لاحقاً.

وقبل ظهور الإذاعات، كانت الصحف تصدر بالعشرات مستفيدةً من المرافق الطباعية المتوافرة، الوسيلة الإعلامية الأبرز للتعبير السياسي والدعوي، وقد بقيت الصحف نحو ثلاثة عقود بين الصدور والاختفاء بين عامي ١٩٠٦ و ١٩٣٧م، تختلف من حيث الجودة والاستمرار، وكان

منها في إندونيسيا بالتالي: جريدة الإقبال وجريدة الإرشاد ومجلة الشفاء وجريدة بروبودور ومجلة الذخيرة الإسلامية وجريدة القسطاس وصحيفة حضرموت وجريدة الوفاق وجريدة الأحقاف ومجلة الدهناء ومجلة المصباح ومجلة الرابطة وجريدة برهوت وجريدة الكويت والعراقي وجريدة الإصلاح وجريدة السائح العراقي وجريدة التوحيد وجريدة الحق ومجلة المرشد، كما ظهرت مطبوعات أخرى مثل المشكاة والمستقبل واليوم والترجمان ومرآة المحمدية ومرآة الشرق والسلام.

وفي سنغافورة، صدرت في تلك الحقبة بالتالي: جريدة الأيام وجريدة الإصلاح وجريدة الهدى وصحيفة العرب وجريدة القصاص وجريدة النهضة الحضرمية وجريدة الشعب الحضرمي وجريدة الجزاء وجريدة الحساب وجريدة المجد العربي وجريدة صوت حضرموت وجريدة السلام وجريدة المشهور وجريدة الذكرى وجريدة الأخبار ومجلة الأخبار المصورة.

وتذكر المصادر أن مبعوثي الملك عبدالعزيز، كانوا كما سلف، يركّزون جهودهم في توضيح الواقع الجديد للحجاز، وبذلوا ما في وسعهم لتفنيد الافتراءات التي تشوّه واقع الدعوة الإصلاحية، وكانوا يجدّون في تشجيع المواطنين الجاوة وزعماء الطوائف على أداء فريضة الحج على أمل جلاء الحقائق لهم، وقد اجتذبتهم الأجواء الاجتماعية السائدة هناك في أن ينهمكوا مع دوّامة الصراعات الطائفية المحلية، وفضّل البعض منهم الاستقرار الدائم في بلاد الجاوة حتى آخر حياتهم، وتمكّن عدد منهم

من زيارة الديار السعودية قبل تكليفهم أو في أثناء قيامهم بمهامهم تلك، وكانوا يسافرون إلى بلاد الجاوة من جدة عبر موانئ الحُديدة وعدن مروراً بالموانئ الهندية، وغنيّ عن القول إن هؤلاء المبعوثين كانوا كما سيأتي على درجة عالية من الكفاية الفكرية والثقافية التي مكّنتهم من الاندماج في المجتمعات الجاويّة المتنوّعة.

أوردت موسوعة تاريخ الملك عبدالعزيز الدبلوماسي، الصادرة عن مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض (١٩٩٩م) تعريفاً بالسوركتّي الذي يعني لقبه باللغة السودانية ـ كما يقول د. يعقوب الحجي ـ كثير الكتب، قالت فيه «**هو مدير مدارس الإرشاد الإسلامية في جاكرتا بإندونيسيا، ولد في دنقلة بالسودان عام ١٨٧٥م وانتقل بعد وفاة والده إلى الحجاز للدراسة مقيماً بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وفي عام ١٩١١م انتقل إلى جاوة للعمل مديراً لمدرسة جمعية خير العلوم العلوية بدعوة منها، ثم أنشأ في عام ١٩١٤م جمعية الإصلاح والإرشاد الإسلامية، واتصل بالملك عبدالعزيز لمعرفته بحرصه على نشر السلفية ودعم المسلمين، وأصبح يحظى بمؤازرته في مجال الدعوة في جاوة، وكان للشيخ السوركتّي جهود طيبة في المحافظة على وحدة العرب في إندونيسيا، توفي عام ١٩٤٤م في جاكرتا**».

وتحدّث كتاب أبو شوك الآنف الذكر عن تاريخ انتشار الإسلام في بلاد الجاوة مع وصول طلائع المهاجرين العرب مروراً بالموانئ الهندية، وتطرّق إلى بدايات الصحوة في المنطقة في أوائل القرن العشرين، مستشهداً بظهور

الإمام محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا في مصر وعادّاً مشروع الشيخ السوركتّي امتداداً لتلك الحقبة، ثم سرد قصة سعي العلويين الحضارم بين عامي ١٩٠١و ١٩٠٥م لإنشاء (جمعية خير) لتكون أول جمعية دعَوية خيرية في جاكرتا بدأت تتوسّع في إنشاء المدارس، تبعها تأسيس جمعية الإصلاح والإرشاد من قِبَل السوركتّي، مما فتح المجال لتأسيس جمعيّات ومدارس دينية أخرى تهتم بالدعوة، وقد نوقشت في الجامعة الإسلامية في المدينة النورة في عام ١٩٠٨م رسالة ماجستير عن جهوده في الدعوة، للدارس شفيق ريزا حسن.

أما بالنسبة للشيخ عبدالعزيز أحمد الرشيد فإنه أول من ألّف في تاريخ الكويت، وأول من أصدر مطبوعة صحفية فيها باسم «الكويت»، وتعود أسرته إلى آل البداح السعودية من أهل صلبوخ ثم الزلفي، وقد توقفت صحيفة الكويت بعد أن استمرت في الصدور نحو عامين، ثم زار جدة في نهاية العشرينيات، حيث تلقّى التكليف بالذهاب إلى جاوة ممضياً السنوات المتبقية من عمره، وقد تزوج ثانية في إندونيسيا وتوفي هناك عن ٥١ عاماً.

وأما محمود شوقي الأيوبي فقد كان شاعراً مجيداً، ولد عام ١٩٠٣م في الكويت في أسرة هاجرت من كردستان العراق، وقد درس في الكتّاب وفي المدرسة المباركية، ثم سافر إلى البصرة وبغداد لمواصلة دراسته في دار المعلمين العالية، وتولى التدريس في قرية أبي الخصيب بالعراق، وبعد فترة

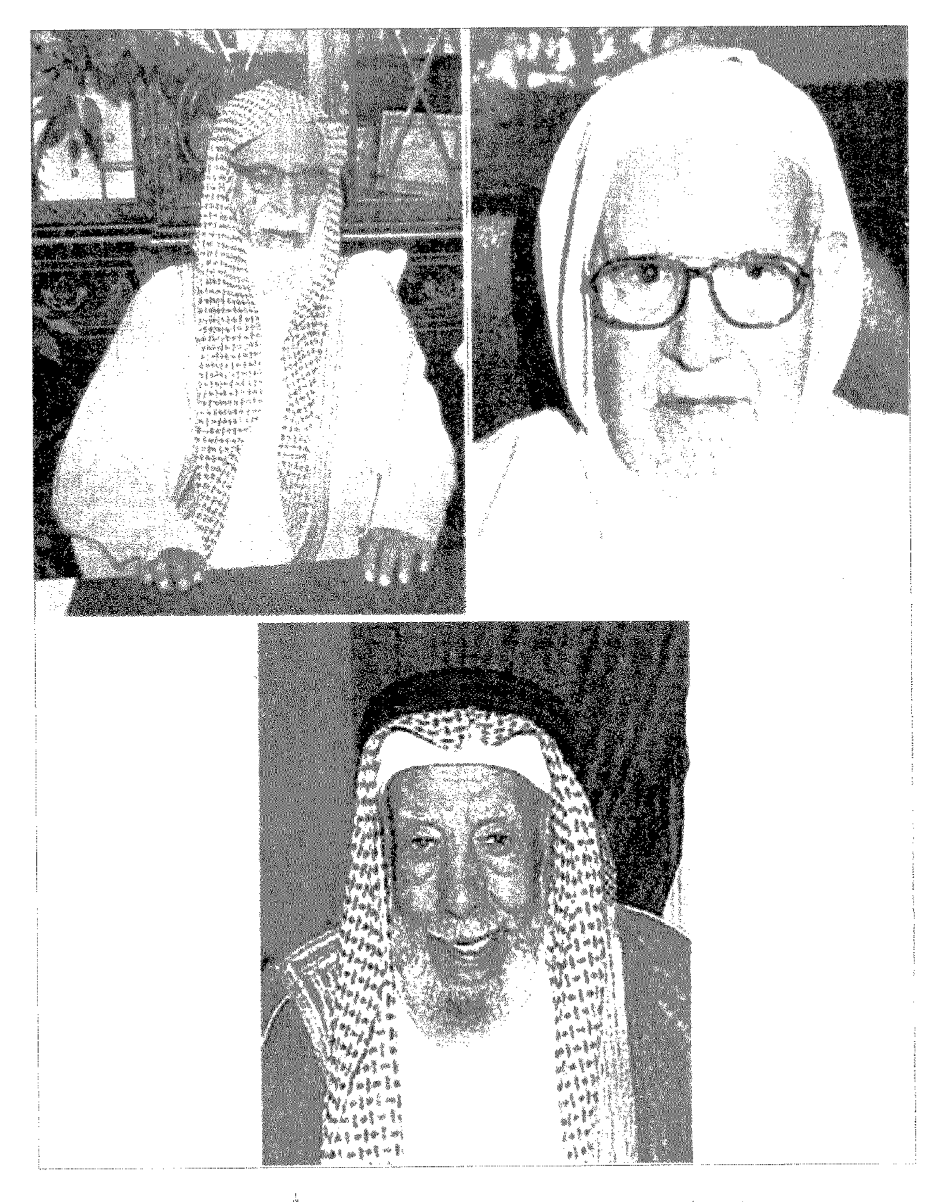
من التنقل بين العراق والكويت وبلاد الشام سافر إلى الأحساء فالرياض عام ١٩٣٩م وأدّى مناسك الحج، ثم هاجر إلى إندونيسيا للدعوة والتعليم بتكليف من الملك عبدالعزيز، وأقام هناك عشرين سنة عاد بعدها إلى الكويت ليقيم في قرية الشعيبة، وتوفي في مارس ١٩٦٦م وقد نظم العديد من المطوّلات الشعرية في مدح الملك عبدالعزيز، جمعتها دارة الملك عبدالعزيز في ديوان خاص به عنوانه: ديوان الملاحم العربية صدر سنة ١٩٩٩م بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيس المملكة العربية السعودية.

(٢٢)

حمد الجاسر وعبدالله بن خميس ومحمد العبودي (*)

البنات يحكين عن آبائهن

(*) ندوة: (النادي الأدبي بالرياض، الثلاثاء ٢٤ جمادى الآخرة ١٤٣٣ هجرية، الموافق ١٥ مايو ٢٠١٢ م)، ضمن نشاط كرسي صحيفة الجزيرة للأبحاث اللغوية الحديثة بجامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن الفيصل للبنات بالرياض، مجلة الجزيرة الثقافية، العدد ٣٧٤ في ٣/٧/١٤٣٣هـ (٢٤/٥/٢٠١٢م).



حمد الجاسر، ومحمد العبودي، وعبدالله بن خميس

أشعر اليوم أنني لبست ثوباً أوسعَ من قياسي، وخُضت في شأن أكبرَ من مقامي، وقد طُلِبتُ للتعقيب على سيرة هؤلاء العمالقة الثلاثة، ودعوني أصدقكم الشعور، أننا بعض ثمار غرس هؤلاء الرواد، بشكل مباشر كما في حال أميمة الخميس ومنى الجاسر وفاطمة العبودي، أو غير مباشر كما هو الحال مع معظم الحاضرين، ومحدثكم منهم.

إن الذي يجمع بين هؤلاء الرموز الثلاثة، لا ينحصر في الحياة العصامية التي عاشوها، ولا في البيئة المتقاربة التي نشأوا فيها، وإنما في سمات مشتركة إضافية، تفوّقوا في محيطهم بسببها، وفي مقدمة ذلك، وقوفهم إلى جانب المرأة، اعترافاً بكينونتها، حقوقها، تعليمها، مشاركتها، استقلاليتها، احترامها، فضلاً عن تذليل السبل لإسهاماتها الإعلامية، ويزيد تقدير هؤلاء الأعلام فيما يخص نظرتهم إلى المرأة، إذا ما تذكّرنا الأجواء التي ظهروا فيها، فهم خرجوا في بيئة نجدية سادرة في المحافظة، وفي فترة زمنية ممعنة في الانغلاق، بيئةٍ حُرمت فيها المرأة من أكثر الحقوق التي كرّمتها بها الشريعة والنظم وحقوق الإنسان.

ولم يقتصر الدور التنويري للجاسر وابن خميس والعبودي على النظرة الرفيعة إلى المرأة، بل امتد إلى كل مناحي الحياة، فكانت لهم

جهود علمية وعملية و «جهاد قلم» في مكافحة التمييز والفساد والانحراف الاجتماعي والخلل الإداري والهدر الاقتصادي، وعانى البعض منهم في بداية مشروعه التنويري معاناةً نفسية ومعنوية بليغة، ثم شاء اللّه، فيما بعد، أن يكون الثلاثة مراجع معتمدة للباحثين وللدولة، في أمور علمية كثيرة، فحازوا ـ عن جدارة ـ تكريم الوطن، واستحقوا الاحترام على مستوى العالم العربي.

ولعلنا نتأمل في لقب «علّامة الجزيرة العربية» أسبغه على ما أظن الأديب العربي الكبير طه حسين على الشيخ حمد الجاسر، زميله في مجمع اللغة العربية في مصر، فلا نرى الجاسر يأبه بنيله أو يضعه ضمن سيرته الذاتية، بل لعلنا ونحن بعض تلاميذه لم نجد بين أوراقه، حتى الآن، توثيقاً لهذه المقولة أو إثباتها، كما أنه، نفسَه، لم يعترف بها يوماً ولم يأذن لغيره أن يطلقها عليه، والشأن نفسه مع شيخنا الراحل جغرافي الجزيرة ومؤرخ اليمامة عبداللّه بن خميس، ومع شيخنا رائد الرحالة وعميد المؤلفين السعوديين أبي ناصر العبودي.

هؤلاء الثلاثة، يجمع بينهم أنهم لم يُفاخروا بألقابهم أو بمكانتهم العلمية والبحثية، أو يهزّهم الكبرياء وحب الظهور، فعاشوا تحت مقدار محدود من الأضواء فرضه احتفاء المجتمع الثقافي بعلمهم، ومضت حياتهم في قدر كبير من الثقة والتواضع ونكران الذات، ولقد قدر لي بكل الإجلال أن أقترب من تراث الجاسر وعلمه، وأن أدنوَ من شخص

ابن خميس وكتبه، وأن أجالس العبودي وأطّلع على جهوده البحثية الغزيرة ومؤلّفاته التي تجاوزت المئتين والخمسين، فخرجت من معرفتي بهم جميعاً أن المؤلف من جيلي يتعلم في مدرستهم مبادئ تواضع العالم والكبير، وكيف يكون العلم عندما يمتزج بالأخلاق والثقة بالنفس، وأن العلم يبدأ بالتواضع، ويُورِق بالأدب، وينمو بالأخلاق.

اليوم، لم تستعرض كريمات هؤلاء الرواد علم آبائهن، أو غزارة بحوثهم، ولا فكرهم التقدّمي والقومي والإسلامي، لكننا في الحقيقة سمعنا منهن ما هو أهم وأبلغ، إنه درس في الصبر والتحمّل والعزيمة والإنسانية، وأن هذه البيئة التي عُرفت بشُحّ النداوة والانفتاح في عصورها المبكرة والوسطى، قد أينعت روّاداً حفروا في الصخور، وسبكوا نوادر وإبداعات تصطفّ مع أثمن الكتب والمكتبات، وجواهر تقف بين أنْفَس القواميس والموسوعات.

يكفينا مثالاً من بين الأعمال الموسوعية العظيمة التي اشترك الثلاثة في توريثها للأجيال، واشترك معهم فيها ـ بإمامة حمد الجاسر ـ نخبة من كبار الباحثين من أنحاء البلاد، فألّف كل واحد منهم مجموعة من أجزائه: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، الذي بلغ في مجمله نحو ثلاثين جزءاً، يكفينا أنه يعدّ أوسع معجم مفصّل من نوعه في جغرافية الجزيرة العربية، سهولها وهضابها وجبالها ووديانها وواحاتها وحاضرتها وباديتها وسكانها وحدودها ومناخاتها، معجمٍ يضاف، بكل

جدارة، إلى ما خلّفه لنا ياقوت والبكري والهَمْداني وغيرهم.

إننا لم نأت اليوم لنُقدم حمد الجاسر وعبد الله بن خميس ومحمد العبودي، ولا لنعرض لكم كم أثروا المكتبة العربية بالمئات من المؤلفات والموسوعات، وطافوا أرجاء المعمورة للدعوة أو لتحقيق معلومة حتى خطفت المخطوطات أبصارهم، ولا لنتعرّف على مناصبهم أو على جيناتهم وفصيلة دمائهم، ولا على أبراجهم وكواكبهم، ولا في أي جامعة تخرّجوا، ولا أي شهادة عليا يحملون.

لكننا حضرنا لنستكشف سرّ النبوغ ومكامن التفوّق، فأحسبها جميعاً تجتمع في وصفة واحدة هي «الإرادة»، حيث يمكن للتلميذ في مدرسته أو بعد تخرجه، أن يكون الأديبَ المرموق، أو العالمَ المُبرّز، أو الباحثَ المتميز، متى ما توافر لديه الثبات ووضوح الهدف، تلك الإرادة التي جعلت من إنسان نحيل حُفر قبره أربع مرات، وفقد أحد ناظريه، وتحمّل من شظف العيش ما الله به عليم، وقاسمت مطبوعاتُه أسرتَه لقمة العيش، وشاهد صحيفته يُسحب ترخيصُها منه وتدار من غيره، وأجبرته الظروف على مفارقة دياره، وأحرقت النار في بيروت عصارة جهده وفكره ومقتنيات عمره، وذاق لوعة فقد الولد في حادثة طائرة فوق لبنان ومع ذلك عكف كل حياته في مكتبته، مما جعلته يُخلّف بحوثاً ما نزال نمتح من معينها، ولا نكاد نلامس أغوارها، وبقي البعض منها لأسباب رقابية طيّ الحفظ في أدراج

مكتبته، حتى ظهر جزء منها بعد رحيله، إنه الجاسر، وما أخواه ابن خميس والعبودي عنه ببعيد.

فالشيخ عبدالله بن خميس أثرى الساحة العلمية بعدد من المعاجم العلمية؛ الجغرافية والتاريخية والتراثية، وبالعديد من الموسوعات الفريدة، وبخاصة فيما يخص إقليم اليمامة، الممتد من الرياض إلى الأحساء، كما أن كتبه عن التراث الشعبي لمنطقة نجد تُعدّ مرجعاً مهمّاً للباحثين.

أما الشيخ العبودي، فقد اتجه لارتياد العمل الموسوعي والمعجمي، متفرّداً بعدد من الميزات، من أهمها تعدُّد المواضيع وتنوّعها، ونحا في منهجه منحى مستقلاً يخدم التراث والبيئة التي نشأ فيها (القصيم خصوصاً ونجد عموماً) وقد أثرى المكتبة الوطنية بمعاجم موسوعية فاقت التوقّعات عدداً ونوعاً، متحمّلاً بنفسه نفقات ذلك، وكان يعتمد على إمكاناته الذاتية في الجمع والتنقيح والكتابة والتصحيح والأمور الفنية الأخرى.

وبعد:

لقد شرّفتني جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن الفيصل، ومؤسسة الجزيرة الصحفية، ونادي الرياض الأدبي، بالمثول في حضرة الحديث عن عمالقة بلادي، واسمحوا لي أن أختم بالقول: إن العلامة ابن خميس والعبودي والجاسر لم يكونوا استثناءً في صون ثقافة الأمة وخدمة تراث

الجزيرة، فلقد سبقهم وجايلهم في حقول المعرفة أفذاذ من أعلام هذا الوطن، وستظل هذه الأرض المعطاء مُنجبةً مُورقةً سامقة، وعلينا أن نرعاها بالحب، ونرويَها بالعلم، ونسقيَها بالتواضع، ونتعهدَها بالولاء والإيمان والاعتزاز.

(٢٣)

خالد الفرج (*)

رائد الملاحم الشعرية الوطنية

(*) منتدى جعفر الشايب، محافظة القطيف بمناسبة اليوم الوطني (١٤٣٥/١١/٢٨هـ - ٢٠١٤/٩/٢٣م)، الجزيرة الثقافية، الأعداد ٤٤٧ في (١٤٣٥/١٢/٢٤هـ - ٢٠١٤/١٠/١٨)، و ٤٤٨ في (١٤٣٦/١/١هـ - ٢٠١٤/١٠/٢٥م)، و ٤٩٩ في (١٤٣٦/١/٨هـ - ٢٠١٤/١١/١م)، والمحاضرة مطبوعة.



ينتابني الشعور أحياناً عندما أستدني موضوعاً للكتابة عنه، أن الحاضر سيكون أدرى فيه من المحاضر، وأن على المحاضر الغوص في أعماق البحث من أجل الإتيان بالجديد قدرالإمكان، وكنت بدأت بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية مقالاً موجزاً عنه بعنوان: خالد الفرج؛ كويتي بحريني سعودي، مارس الطباعة في الهند (جريدة الجزيرة ٩٥٢٢ لعام ١٩٩٨م) متضمّناً أبرز النقاط عن حياته وعن آثاره الفكرية، فأحسست منذ ذلك التاريخ أن سيرته تستحق أكثر من مجرد مقال.

لكن اسمه بالرغم مما كتب عنه حتى الآن بدأ، يتوارى عن الأذهان تدريجيّاً، فلا يكاد يُذكر إلا لماماً، ولم يَعُد يُعرف إلا بتعريف، فأصبح التذكير به وبتراثه الأدبي دافعاً قويّاً لعقد هذه المحاضرة.

وخالد الفرج، اصطُلح على تسميته في سوريا ولبنان «شاعر الخليج» في لقب أطلقه عليه الصحفي الفلسطيني محمد علي الطاهر منشئ مجلة «الشورى» المصرية عام ١٣٤٣هـ (أكتوبر ١٩٢٤م) وهي تسمية للفرج لم تنطلق من فراغ، حيث ينحدر من أصول سعودية تعود إلى البدارين من الدواسر، وقد ولد في الكويت من أسرة ميسورة الحال، ووالدته هي شيخة بنت ثنيّان عبدالرحمن الثنيّان من قبيلة الخليفات القطرية، عاش في الهند فالبحرين

ثم في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، وأمضى العامين الأخيرين من عمره في بلاد الشام، قال عنه خالد سعود الزيد: «**حسبُك علماً أن تتفاخر بخالد الفرج ثلاثةُ أقطار كلّ منها تدّعيه لنفسها**».

فالفرج جمع الأمجاد من أطراف الخليج والجزيرة العربية، مجسِّداً في تنقّلاته وحدةَ المنطقة ومعبّراً في أشعاره عن هموم الأمة، وكان في زمنه ملءَ السمع والبصر، كوّن صداقات وتبادل المراسلات والقصائد الإخوانية مع عدد من رموز الثقافة في الكويت: (من أمثال عبداللطيف النصف وعبدالرحمن النقيب ويوسف القناعي وخالد العدساني وصقر الشبيب)، وفي البحرين: (من أمثال قاسم الشيراوي وعبدالله الزايد)، وفي المنطقة الشرقية: (من أمثال آل الجشي وآل الخنيزي والعوّامي والخطّي، علاوة على زميل دربه هاشم الرفاعي مدير الجمارك).

وهذا الأديب المولود في الكويت منتصف ربيع الثاني عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) المتزوج عليّة بنت أحمد بن سلمان البريكي الدوسري عام ١٣٤٢هـ ومن عائشة بنت عبدالله الفرج سنة ١٣٤٨هـ، ووالد كل من محمد وعلي وشيخة، والمتوفّى مستشفياً في لبنان سنة ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م) وقد تزامنت وفاته مع وفاة الملك عبدالعزيز بفارق عام واحد، هو مثقف وشاعر ومؤرّخ اشتهر من نظمه ملحمة «أحسن القصص» التي طبعت في القاهرة في (١٣٠) صفحة في حدود عام ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) من تقديم محمد علي الطاهر، ثم راجعها عالم قطر الشيخ عبدالله الأنصاري وطبعت في الدوحة

عام ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) وهي مطوّلة شعرية غطّت العقود الخمسة الأولى من حياة الملك عبدالعزيز منذ ولادته سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) وحتى دخل الحجاز في حكمه سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) وورد في ديباجة الملحمة:

هو ذا الدهر أكبر الأسفار
فيه أسمى العظات والاعتبار

ما الليالي فيه سوى أسطار
في طروس من نسج طول النهار

ملأت من تقادم الأعصار
صفحاتٍ ملئن بالأخبار

لذوي الاتّعاظ والإبصار

والملحمة مقسمة إلى عشرين فصلاً تشتمل على (٨٠٠) بيت سباعية التشطير على وزن واحد (البحر الخفيف) وقد نظمها وطبعها إبان عهد الملك عبدالعزيز عندما كان ملكَ الحجاز ونجد وملحقاتها، وضمّنها إهداءً قال فيه: «**وهذه منظومة تحتوي على سيرتكم كتبتها للحقيقة والتاريخ، لا مبالغة فيها ولا تحامل على أحد، وليست سوى صدى لما توّجتم به هام العروبة بأكاليل الفخار، وصفحات بيضاء أضفتموها إلى تاريخ العرب المجيد أنتم أعلم بجلائلها ودقائقها، نظمتها للأمة العربية التي رفعتْ رأسها بكم**».

كما اشتهر من آثاره الشعرية القصيدة البائيّة: «الخبر والعيان في تاريخ نجد» في خمسمئة بيت، نظمها على مرحلتين في عامي ١٣٦٧ و ١٣٦٨هـ

(١٩٤٧ و ١٩٤٨م) قائلاً في مطلعها:

إلى مجدك العلياءُ تُعزَى وتنسبُ
وفي ذكرك التاريخُ يُملَى ويُكتَبُ

تولى الباحث د. عبدالرحمن الشقير تحقيقها ونشرتها مكتبة العبيكان عام ١٤٢٠ هـ (٢٠٠٠م) في مجلد يزيد على خمسمئة صفحة، وقد توقّف توزيعه لاحقاً بسبب تعرّض أبيات من الملحمة لبعض القبائل، وذكر د. محمد الربيّع له مطوّلة شعرية تزيد على (١٠٠) بيت موجودة في ديوانه.

وبحسب الزيد، يوجد للفرج قصيدة لاميّة طويلة سمّاها «الملحمة الذهبية» نظمها بمناسبة الذكرى الخمسين لدخول الرياض، قال مطلعها:

بالحمد والتكبير والتهليل
شيّدت دوماً فخر هذا الجيل

وكنتُ نشرتُ مقالةً عن المطوّلات الشعرية التي وثّقت ملحمة توحيد المملكة (جريدة الشرق الأوسط، العدد ١٠٨٩١ لعام ٢٠٠٨م) ورصدتُ فيها ملاحم خالد الفرج ومحمود شوقي الأيوبي وبولس سلامة وفيكتور البستاني ومحمد عبدالله العوني وعبدالله العلي الزامل وأحمد إبراهيم الغزاوي وحسين سرحان وخير الدين الزركلي وعبدالله بالخير وفؤاد شاكر ومحمد ابن عبدالله العثيمين وغيرهم، ورجّحت أن يكون الفرج هو الرائد الأسبق بينهم في هذا النوع من الشعر الملحمي ذي الطابع السردي التاريخي.

وإذ تستفيض المراجع الكويتية والسعودية كما سنرى، في الحديث عن إنتاجه التأليفي المخطوط والمطبوع وعن الكتابات التي تناولت سيرته، فإنها تمرّ مسرعةً على محطات مهمة معيّنة من حياته دون أن توليَها ما تستحق من اهتمام، ومن ذلك دواعي هجرته المبكرة إلى الهند وعمره آنذاك سبعة عشر عاماً تقريباً، في إقامة امتدت حوالي خمس سنوات بين عامي: ١٣٣٤ و ١٣٣٩هـ (١٩١٦ و١٩٢٠م) وتكتفي بالإشارة إلى أنه تردّد عليها وأنه تعلم الإنجليزية وشيئاً من مبادئ الهندسة، ومارس النشاط التجاري من خلال إنشاء المطبعة العمومية التي طبع فيها بعض الكتب العربية بعضها كان على نفقة الملك عبدالعزيز، وذُكر أن نبوغه الشعري قد بدأ في الظهور في تلك المرحلة من عمره، وقد جاءت هجرته تلك مماثلة لهجرات العديد من أهل الخليج والأحساء ونجد الذين كانت الهند وجهتم المفضّلة، وكان والده قد سبقه إلى بومبي.

تقول الكاتبة الكويتية سعدية مفرّح في مقال بعنوان: «خالد الفرج شاعر الخليج كله» نشرته في مجلة العربي الكويتية عام ١٤٣٢ هـ (٢٠١٢م):

«إن خالد الفرج لم يبق في الهند طويلاً، بل خمس سنوات تقاطع فيها العمل الوظيفي التجاري بالعمل الثقافي، والذي توّجهُ بإنشاء المطبعة العمومية هناك لطباعة الكتب العربية، إلا أن الحنين إلى مرابع الطفولة والصبا قد بلغ أوجه فعاد إلى الكويت ليقضي فيها بعضاً من الوقت، قبل أن يتجه الى البحرين التي استقبلته بحفاوة تليق باسمه كمثقف بدأ يُعرف في المنطقة كلها».

تتناول الصفحات التالية ملامحَ من سيرته وأبرزَ الكتابات التي تحدثت عن شخصيّته وفكره، أما بالنسبة لإنتاجه الشعري، وبخاصةٍ ملاحمه الثلاث التي نظمها في سيرة الملك عبدالعزيز وفي مسيرة توحيد المملكة والأغراض الشعرية التي نظم بها وكذلك قصائده الإخوانية، فأدعها لذوي الاختصاص الأدبي ومنهم السيد عدنان العوّامي الذي سبق أن نشر في مجلة «الواحة» دراسةً متعددة الأجزاء عن أدب الفرج وعن القصائد التي لم تنشر له.

عاش خالد الفرج نحواً من ثمانية وخمسين عاماً، وتنقّل عبر كل إمارات الخليج تقريباً، ليجد ضالته في التوطّن أخيراً في المنطقة الشرقية حيث تكوّنت أسرته القريبة، ووجد من الاستقرار النفسي والمعيشي والوظيفي والأسري ما جعله يتفرّغ للفكر والإبداع، ومع أنه أقام في الكويت والبحرين والهند والأحساء والقطيف والدمام وتردد عليها، ثم أقام في بلاد الشام قبيل وفاته، وكانت إقامته في المنطقة الشرقية الفترةَ الأكثرَ خصوبةً وحيويّةً في حياته الفكرية والإدارية والأطولَ من الناحية الزمنية (قرابة نصف عمره) إلا أن الساحتين الثقافيّتين السعودية والكويتية تنافستا في الاحتفاء بسيرته وبتراثه عبر العديد من المؤلفات والدراسات النقدية والمقالات التي تليق بمكانته، فلقد ترجم له وكتب عنه كل من حمد الجاسر وعبدالله بن إدريس وعبدالرحمن العُبيّد وعدنان العوّامي وعلي باقر العوّامي ومحمد سعيد المُسلم ومحمد رضا نصر الله وصالح محمد الذكير وحمّاد السالمي وعبدالله شباط (من السعودية) وعبدالعزيز الرشيد وخالد سعود الزيد

وحسن الشّطّي وعبدالله زكريا الأنصاري وسعديّة مفرّح وعواطف العذبي الصباح وفاضل خلف وخليفة الوقيّان وعباس يوسف الحداد وسالم عباس خدادة وسليمان الشطي ونورية الرومي (من الكويت) وغيرهم ممن لا يتسع المقام للإحاطة بذكرهم، وقد أطلقت الكويت اسمه على إحدى مدارسها، وأصدرت له طابعاً بريديّاً ضمن مجموعة من أدبائها، وصنّفه مثقفوها على أنه كما سيأتي، من أبرز أدباء حقبته، وفي صفّ مجايليه من الشعراء المجدّدين الكويتيين، كصقر الشبيب وفهد العسكر.

تضمّن التراث الفكري لخالد الفرج مجموعةً من الكتب المطبوعة والمقالات التي نشرها في حياته، وبعضَ مخطوطات لم يتمكّن من استكمالها أو من طباعتها قبل وفاته، وكان العلامة حمد الجاسر من أقدم من تناول سيرته ومؤلفاته وشعره بالتفصيل، إذ رثاه بُعيد وفاته بمقال مطوّل في مجلة اليمامة (ربيع الثاني ١٣٧٤هـ - ديسمبر ١٩٥٤م) استعرض فيه أبرز محطات حياته وإنتاجه الفكري متتبّعاً هجرة أسرته ولأسباب غير معروفة في أواخر القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) من بلدة نزوَى في وادي الدواسر لتستقر في بلدة الزبارة في شمالي شبه جزيرة قطر، ثم رحلت إلى عُمان، ومنها اتجهت إلى الكويت، وقد خرج من هذه الأسرة ابنُ عمه الأديب الكويتي المعروف عبدالله محمد الفرج المتوفى في الكويت عام ١٣١٩هـ (١٩٠٢م) وهو موسيقي وملحّن مجيد، وله ديوان شعر بالفصحى والعامية أعده وطبعه خالد الفرج عندما كان في الهند في حدود عام ١٣٣٨هـ

(١٩١٩م) ثم أعيد طبعه مراراً.

وبينما عدّد الجاسر مؤلفات خالد الفرج، انفرد بالقول إن له مقالات في مجلة المجمع العلمي العربي عن الشهور العربية، وفي جريدة الأخبار المصرية عن بعض المشكلات السياسية، وفي مجلة الحج في نقد كتاب صحيح الأخبار لابن بليهد، فضلاً عن مجموعة من المقالات في الصحف الكويتية والبحرينية والسورية، وإنه ألقى بعض المحاضرات عن الشعر النبطي، وكان مفتوناً بنظم أبيات تحتوي على التواريخ بحساب الجُمّل (الأبجدية) مورداً أمثلة لذلك، منها شطر بيت أرّخ فيه زيارة الملك عبدالعزيز لمدينة الجبيل (المسمّاة تاريخيّاً بلدة البوعينين) قال فيه «**شرّفتم عينين أيّها الملك ١٣٤٨هـ**» ومنها بيت أرّخ فيه مناسبة تركيب أول مضخّة لرفع الماء في مزرعة يعقوب الهاجري في الأحساء قال فيه:

ومع الثنـاء أقول في تاريخهـا
«**للزارعين فتحت باب هنـاء**» (١٣٤٨هـ)

وفي كتابه «معجم المطبوعات العربية» المنشور بإشراف حمد الجاسر، استعرض الأديب العراقي د. علي جواد الطاهر سيرة الفرج وأبرز الكتابات التي تناولتها والمؤلفات التي صدرت عنه حتى عام ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) وهو عام بداية صدور المعجم بأجزائه الأربعة.

وشمله عبدالله بن إدريس بالذكر في كتابه «شعراء نجد المعاصرون» الصادر عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) وعدّه في طليعة شعراء نجد، وتحدث

عن أسرته وعن تنقّلاتها في بلدان الخليج، كما أورد نماذج من إنتاجه الشعري، ووصفه بـ «**المجدّد والعبقري وبصفاء الفكر وبروز الصورة وحسن توزيع الألوان**».

لكن الباحث الكويتي خالد سعود الزيد كان من أوفى من استقصى تراث الفرج وخدم سيرته، فألّف عنه كتاباً صدر في طبعتين سنة ١٣٨٩ و١٤٠٠هـ (١٩٦٩ و١٩٨٠م) بعنوان «خالد الفرج: حياته وشعره» وعمل على تحقيق دواوينه وحفظ معظم تراثه الشعري، فأصدر ديوان خالد الفرج من تحقيق الزيد نفسه (شركة الربيعان، الكويت ١٩٨٩م) وكان الجزء الأول من الديوان قد نشر في حياة الشاعر (مطبعة الترقي، دمشق ١٩٥٤م) كما أصدر الزيد للفرج ديوان النبط، يضم مجموعة من الشعر العامي في نجد مع مقدمة عن الشعر النبطي وتطوره (دمشق ١٩٥٢م) وبالإضافة إلى هذه الإصدارات خصّ الزيد الفرج بمقالات تحليلية منها: خالد الفرج تميّز بالأسلوب الساخر، مجلة العربي، يناير ١٩٦٥م، وأثر خالد الفرج على الحياة الفكرية، مجلة البيان، يناير ١٩٦٨م، والناحية الاجتماعية في شعر الفرج، مجلة الرسالة ١٩٦٩م، وقد بقيت كتابات الزيد أوفى مصدر للمعلومات عن حياة الفرج، باستثناء ما يتعلق بحياته في المنطقة الشرقية.

وتضمّن معجم البابطين لشعراء العربية المتعدد الأجزاء موجزاً عن حياة الفرج وشعره، مشيراً إلى اسمه الكامل خالد بن محمد بن فرج الصراف الدوسري، وأنه ولد في الكويت وتوفّي في لبنان، وقضى حياته العملية متنقّلاً

من الكويت إلى بومباي والبحرين والسعودية (القطيف والأحساء والدمام) وتلقى علومه المبكرة في الكتّاب، وعند افتتاح المدرسة المباركية عام ١٣٣٠هـ (١٩١١م) التحق بها، ونشط في الاطلاع على كتب التراث المختلفة، ثم بدأ حياته العملية مدرّساً في المباركية، فكاتبًا عند أحد كبار الكويتيين في الهند، وأسس في بومبي المطبعة العمومية التي طبع فيها مجموعةً من الكتب كان بعضها على نفقة الملك عبدالعزيز، وقد درس اللغة الإنجليزية والهندسة خلال عمله هناك، ثم انتقل إلى البحرين (١٣٤١هـ) ليصبح مدرساً بمدرسة الهداية الخليفية في البحرين وعضواً في المجلس البلدي البحريني، ثم صار مسؤولاً في بلدية الأحساء ورئيساً لبلدية القطيف.

وكتب عنه صالح محمد الذكير في المجلة العربية (العدد ١٢٤ لعام ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) مقالاً كشف فيه عن قصائد لم تنشر لخالد الفرج ومن بينها قصائد إخوانية مع بعض أدباء القطيف، ثم كتب مقالاً آخر موسّعاً بعنوان: مسافر زاده الشعر وحب الديار نشرته جريدة اليوم (العدد ٨١٧٨ لعام ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

ونشر عنه حمّاد السالمي في جريدة الجزيرة (العدد ٩١٦٢ لعام ١٤١٩هـ - ٢٠٠٠م) مقالاً استعاد فيه ملحمة «أحسن القصص» بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية لفتح الرياض.

وكان ممن ترجم له خير الدين الزركلي في موسوعة الأعلام، وعبدالله شباط في كتابه شعراء الخليج، ومحمد سعيد المُسلم في كتابه: ساحل الذهب

الأسود، وعبدالرحمن العُبيّد في كتابه الأدب في الخليج العربي، كما كتب عنه علي باقر العوامي ومحمد رضا نصر الله وآخرون.

أما بالنسبة لإنتاجه الثقافي والأدبي، فبالإضافة إلى الملاحم السالف ذكرها، أوردت المراجع أعمالاً كثيرة أخرى منها دراسة مطبوعة عن رجال الخليج، ومخطوطة مفقودة عن تاريخ نجد وما جاورها من البلدان (ربما تكون الموسومة القبائل والحمائل) وثالثة بعنوان: «علاج الأميّة في تبسيط الحروف العربية»، ويشير خالد الزيد إلى قيمة هذه الدراسة للمهتمين بتعليم اللغة العربية، ويبدو أن الفرج فكّر في وضعها في ضوء تجربته الطباعية المبكّرة في الهند، وقد طبعها في الدمام سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) ثم ألحقها خالد الزيد في كتابه عن خالد الفرج (ط ٢/ ١٩٨٠م) ولا أعرف ما إذا كان هناك من قام لاحقاً بالتأمّل فيها وتحليلها.

وذكر معجم البابطين في ترجمة الأديب خالد الفرج مصادر كثيرة عن سيرته وشعره، ومنها على سبيل المثال:

- مقال عن ديوان خالد الفرج لعبدالله زكريا الأنصاري، مجلة البعثة، يوليو ١٩٥٤م.

- عبدالعزيز الرشيد: كتاب تاريخ الكويت، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧١م.

- عواطف العذبي الصباح، كتاب: الشعر الكويتي الحديث، جامعة الكويت ١٩٨٩م

- فاضل خلف: دراسات كويتية (ط ٢) المطبعة العصرية، الكويت ١٩٨١م.

- محمد حسن عبدالله: الصحافة الكويتية في ربع قرن (كشاف تحليلي) جامعة الكويت ١٩٧٤م.

- إبراهيم غلوم: القصة القصيرة في الخليج العربي، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة ١٩٨١م.

- خليفة الوقيّان: القضية العربية في الشعر الكويتي، المطبعة العصرية، الكويت ١٩٧٧م.

- سليمان الشطّي: مدخل: القصة القصيرة في الكويت، مكتبة العروبة، الكويت ١٩٩٣م.

ولا يغفل النقاد بالإضافة إلى ذلك، عن تقويم النزعة القصصية عند خالد الفرج، وهو الذي كانت له محاولة تمثّلت بدايتها شبه اليتيمة في قصة «منيرة» التي عُدّت أول قصة قصيرة في الكويت والخليج (مجلة الكويت، نوفمبر وديسمبر ١٩٢٩م) وتبعتها مسرحيته الشعرية غير المكتملة «في بلاد عبقر ووبار» وقد رصدهما بالتحليل د. سليمان الشطي بمقالات، نشر أحدها في العدد السابع والعشرين من مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية بالكويت، وفي مجلة البيان، رابطة الأدباء الكويتية (عدد أكتوبر ١٩٨٠م).

وكانت مجلة البعثة الكويتية الصادرة في القاهرة، نشرت في عدد شهر فبراير من عام ١٩٥٤م (وهو العام الذي توفي فيه) مقابلةً موسّعةً معه تطرّقت لحياته ولإنتاجه الأدبي.

لم تفصّل المراجع كثيراً في جانب أخر من سيرته، وهو علاقته بالإذاعة

السعودية، فلقد ذكر خالد الزيد في كتابه أن الفرج عمل في الإذاعة السعودية بجدة أيام كانت تتبع إدارياً لوزير المالية عبدالله السليمان الحمدان (أي في حدود عام ١٣٧٠هـ ١٩٥٠م) وأن ابن سليمان كان معجباً بالفرج وكلفه بالإشراف عليها، وذكر الشيخ حمد الجاسر أن خالداً أقام في الحجاز في تلك الفترة نحو عامين مما قد يعني أن ارتباطه بالإذاعة كان خلال إقامته تلك، غير أنني لم أجد في مراجع الإذاعة ما يثبت أنه أشرف عليها، وقد يكون أسهم في إعداد بعض البرامج وتقديمها فقط.

ومن الطبيعي والفضل في ذلك لمثقفي المنطقة الشرقية الذين وثّقوا ذلك أن توجد تفصيلات أوسع بشأن موضوع إقامته في الأحساء والقطيف والدمام، ومسألة تولّيه إدارة بلديتي الأحساء والقطيف، وجهوده في تأسيس أول مطبعة في المنطقة الشرقية (المطبعة السعودية ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م) وذلك على النقيض من إقامته في بلاد الشام، التي يبدو أنها كانت في أساسها إقامة مرضيّة، حيث امتدت حتى وفاته بسبب مرض الدرن في أحد مستشفيات بيروت.

وبتتبّع علاقته بالمجتمع الثقافي في أثناء إقامته، التي قيل إنها امتدت نحو خمسة وعشرين عاماً في المنطقة الشرقية، تذكر المراجع أنه قدم من البحرين مع النزوح الجماعي المعروف لعشيرة الدواسر مطلع الأربعينيات من القرن الهجري الماضي (العشرينيات الميلادية) وهنا يذكر خالد سعود الزيد أن الفرج استجاب لتشجيع هاشم الرفاعي الكاتب آنذاك في الديوان السلطاني

للعمل في المملكة، وأن السلطان عبدالعزيز استقبله أحسن استقبال واختاره مشرفاً على بلدية الأحساء ثم القطيف، بينما يُستفاد من سيرة الفرج التي كتبها بنفسه أنه كُلّف ببلدية القطيف وكان مؤسسها سنة ١٣٤٦هـ، وأنه بنى له بيتاً جنوب بوّابة القلعة الغربية عند دروازة باب الشمال، وقد رصد الذكير في مقاله المنشور في جريدة اليوم قائمة بالمشروعات البلدية التي نُفّذت في عهده، وذكر أن المؤرخ المعروف مقبل عبدالعزيز الذكير المشرف آنذاك على مالية الأحساء رشّح الفرج لإدارة بلدية الهفوف، وقد تسنّت له في الهفوف والقطيف والدمام فرصة الالتقاء بمثقفيها.

يقول الأستاذ محمد سعيد المُسلم «**إن خالد الفرج قضى معظم حياته في القطيف، وكان لها الفضل في استقراره النفسي، وقد منحها في المقابل إخلاصه ووفاءه وعصارة أفكاره، واندمج في مجتمعها، وأصبح فرداً منهم، شاركهم أفراحهم ومآسيهم، وغذّى الحركة الأدبية فيها، وترك أثراً كبيراً في تطوّر الحياة الفكرية، وكان يلتقي الأدباء والمثقفين من أبناء القطيف**».

وبحكم هوايته للطباعة من خلال تجربته السابقة في الهند، بادر الفرج إلى تبنّي إنشاء أول مطبعة في المنطقة الشرقية (المطبعة السعودية بالدمام) التي سعى إلى تأسيسها بدعم من الملك سعود، وقد سافر إلى ألمانيا من أجل شرائها، وتابع تركيبها خلال إقامته الاستشفائية في سوريا ولبنان في العامين الأخيرين من حياته، لكنه لم يحضر تشغيلها، وقد أتاح تأسيسها للصحف الأهلية الناشئة في المنطقة الشرقية آنذاك أن تطبع محليّاً.

وتذكر المراجع أن خالد الفرج شارك أهالي الأحساء في استقبال الملك عبدالعزيز في إحدى زياراته للهفوف، وأنه كان أحد أعضاء الوفد المرافق لجلالته في زيارته للبحرين (٢ مايو ١٩٣٩م في عهد الشيخ حمد بن عيسى ابن علي آل خليفة) وقد ألقى قصيدتين في المناسبتين وفي مناسبات أخرى، كما تذكر المراجع مشاركته للشباب البحريني في تكريم أمير الشعراء أحمد شوقي عندما قدّموا له في القاهرة بتاريخ ٢٩ أبريل ١٩٢٧م مجسّم نخلة ذهبية مع قصيدة لخالد الفرج تُليت نيابةً عنه، تقول في مطلعها:

من منبت الدر تسليمٌ وتكريم
لشاعر اللغة الفصحى، وتفخيمُ
حيّاك في دارنا البحرينِ لؤلؤُها
والنخلُ إذ بَسَمَتْ فيه الأكاميم

ومن يقرأ في سيرة الفرج يجد أنه تردّد على القطيف والهند والبحرين والكويت في فترات مختلفة من عمره.

وعاش خالد الفرج بدايات المخاض السياسي في الوطن العربي، ومَن يتابع سيرته يجد أنه تفاعل مع التحوّلات السياسية التي مرّت بتلك الحقبة، كالاحتلال البريطاني للخليج وقيام الشيوعية واغتصاب فلسطين وبروز القومية العربية والحربين العالميّتين وقضية الجزائر، وغلبت على شعره نبرة التندّر أحياناً تجاه بعض التيارات، لكنه لم ينهج في تفكيره منهجاً متطرفاً، تقول سعدية مفرّح في مقالها الآنف الذكر:

«على قلق كأن الريح تحته، كان الشاعر خالد الفرج وهو ينتقل من قطر الى آخر حاملاً هموم القومية مغلّفة بإطار شعري واعٍ، ليسجلها في إبداعاته الكتابية المتنوعة، ولتصبح فيما بعد تاريخَه المضيء على امتداد الخليج العربي كله، ورُبما أبعد من ذلِك الخليج أيضاً... وهو الشاعر الكويتي الذي يحلو لبعض مؤرخي الأدب اعتبارُه سعودياً، على الرغم من أنه لم يكن ليهتم بتحديد تلك الهوية، فقد بقي طوال حياته عربياً حالماً بالوحدة وعاملاً على تحقيقها ليس في أشعاره ومقالاته وحسب، بل وفي مفاصل عملية مهمة في حياته الوظيفية».

وكان مما قاله حمد الجاسر «خرج في شعره إلى مجال أرحب، فعالج النواحي الاجتماعية العامة للأمة العربية، وتعدّى ذلك إلى الإشادة بعظماء العالم الذين خدموا بلادهم، فرثى شاعر العروبة أحمد شوقي وصديقه أمين الرافعي ومجّد الزعيم الهندي غاندي، وبجانب مديحه للزعماء العرب وجّه نقداً لاذعاً لآخرين رآى فيهم اعوجاجاً، وكانت له خبرة بمسألة إصلاح الحروف العربية وألّف في ذلك».

ويقول معجم البابطين: «كان الفرج فاعلاً إيجابيّاً في كل موقع عمل به، فدافع عن قضايا الخليج العربي والعروبة وفلسطين بخاصة، حيث عاصر أهم مراحل التحوّلات في المنطقة العربية، فرأى من واجبه أن يكون للشعر موقفٌ منها ووعيٌ بها».

وقال مقال نشر في مجلة العربي الكويتية بتوقيع كويتية: «يعدّ خالد

الفرج شخصية نهضوية عربية، وهو لم يكن شاعراً أو كاتباً فحسب، وإنما صاحب رؤية فكرية شكلت نسقاً متكاملاً من المبادئ والمفهومات تجسّدت في عمل دؤوب متصاعد مع سنوات عمره في كلّ المواقع التي حلّ بها وأقام (الكويت وبومباي والبحرين والقطيف والدمام ودمشق وبيروت) جمع خالد الفرج العمل إلى القول، فخاض غمار الحياة في مراكز تبني الكيان الحضاري للناس وشؤونهم، وهو في ذلك يوظّف معرفته ومثاقفته للحضارات الأخرى وما تدفّق من معارف وأحوال في العالم الآخذ بالتطوّر والمتسارع في القرن العشرين وصراعاته.. إن شخصية خالد الفرج الفكرية والإبداعية صفحات يتعدد عطاؤها مع تعدد القراءة وزوايا الرؤية لدى النقاد ولاتزال سطور فيها تنتظر قرّاءها».

وقال صالح الذكير في مقاله: **«إن من يقرأ في وطنيات الشاعر خالد الفرج لا يتصور أبداً أن لدى ذلك الشاعر المفكر الثائر على الاحتلال والجهل والفقر وقتاً يمضيه في قول الشعر الفكاهي والقصائد المرحة والدعابات اللطيفة».**

كما كتب غير هؤلاء عن السمات الإنسانية في شعر الفرج، مذكّرين بشكل خاص بالمواقف الوجدانية أمام حالة تحرّك الشجن وتثير الفكر، وهي حالة طفل من القطيف كان أبلهاً ومات أبوه مجنوناً، وكان الطفل «حمّادي» في حالته تلك **«يمثّل الفطرة الإنسانية الفاضلة، وفي شخصه تتوافر الخصال التي يتخيّلها الفلاسفة في أهل طوبى، حتى صار رمزاً جال معه الفرج في صور**

الحياة والناس في أسى وحذر»، فكتب محمد رضا نصر الله في العدد ٦٦٠١ لسنة ١٤٠٦هـ من جريدة الرياض مقالاً بعنوان: «**حمّادي وأوراق ضائعة من حياة خالد الفرج**» وأعقبه في الجريدة نفسها بمقال آخر، ثم أتبع المقالين بمقال ثالث في المجلة العربية بعنوان مماثل، استهلّه بنبذة من سيرة الفرج ثم بتحليل منهجه الشعري، مورداً بعضاً من قصيده المجهول مما لم يكتشفه خالد الزيد عند تأليف ديوان الفرج، وكان مما قاله الأستاذ نصر الله:

«وعلى مدى ربع قرن، كانت الأحداث الوطنية والعربية تلهبه، فتتوقّد قريحة الشاعر وتزيده ضرماً من الشعر والمواقف والأفكار، تلك كانت مكوّنات الرجل الذي أصبح واحداً من أبرز رموز التنوير الثقافي والاجتماعي في المنطقة العربية، كان الفرج نغمة خاصة ذات نشاز، نظراً لما شكلت آراؤه الفكرية وأعماله الاجتماعية من خروج على المألوف السائد الساكن في المنطقة، فهو أولاً يمحور شعره حول قضايا الأمة العربية، ويتبنّى بشكل خاص القضية الفلسطينية في بداية محاصرتها من قبل الاستعمار الغربي والصهيونية:

ما وعد بلفور إلا بدء سلسلة
من المظالم في التاريخ كالظُّلَم

وما فلسطين إلا مثل أندلسٍ
قضى على أهلها بغيٌ وعدوان

وانطلاقاً من هذا الموقف الواعي للقضايا العربية، ينتقد خالد الفرج الواقع السياسي الممزّق في الخليج، الذي لم يتصوره يوماً «**غير شعب واحد**

قد مُزّقت بيد العِدى وحداته» مما جعله يتطلع إلى بطل تتمحور حوله دول المنطقة، مثلما تمحورت ألمانيا الممزقة في شخص موحّدها بسمارك:

من لي ببسمركٍ يضم صفوفه
وعليه تجمع نفسَها أشتاتُه

فيعيد من هذي الممالك وحدة
والعلم تخفق فوقَها راياتُه

لكنه يجد في الملك عبدالعزيز الرمز الذي تمحورت حوله الوحدة الوطنية في الجزيرة العربية، فيهبّ لكتابة أول ملحمة شعرية في بطلها بعنوان: أحسن القصص.

وكان خالد الفرج، يتفاعل مع أهل القطيف تفاعلاً مباشراً بالمجتمع وفعالياته، مما انعكس في شعره، فهو في كل محفل ينشد، وفي كل مجلس يتحدث، فإذا ما تأثّر الناس لرحيل الشيخ منصور الزاير سنة ١٣٥١هـ يرثيه بقصيدة مطلعها:

قطرة الدمع من مآقي اليتيم
ماء طهر، به حنوط الكريم

وفي عام ١٣٦٣هـ يكتب قصيدة أخرى في رثاء الشيخ علي الخنيزي مطلعها:

ابكوا بدمع أو نجيع
شيخاً يعز على الجميع

وفي سنة ١٣٦٧هـ يغيب السيد ماجد العوّامي فيرثيه بقصيدتين، يقول مطلع الأولى:

أكليل شِعر على قبر من النور
في القلب لا في أديم الأرض محفور

ومطلع الثانية:

هل بالبكاء أو العويل
نطفي الأوار من الغليل

هذه القصائد وغيرها كما كتب محمد رضا نصر الله مما قاله الفرج في تلك الفترة الخصبة من حياته، لم يسجله الأديب الكويتي خالد سعود الزيد في كتابه عن خالد الفرج المطبوع سنة ١٩٦٩م بالكويت.

غير أن شعراً كثيفاً تركه الفرج، بقي لدى بعض الأصدقاء والتلاميذ، والحق أن في المنطقة ممن عاصر خالداً، شعراءَ يفوقونه في الصياغة الشعرية والعمق الأدبي بمواصفاته الكلاسيكية، من أمثال الشيخ عبد الحميد الخطّي والشاعر عبد الرسول الجشي والشاعر البحريني إبراهيم العريّض والشاعر الكويتي فهد العسكر، إلا أن اتصال شاعرنا بالصحافة العربية وهو في القطيف جعله أكثر شهرة، إضافة إلى أن الفرج كان متفاعلاً مع الحركة الأدبية والثقافية العربية والمحليّة في عصره أكثر من غيره، فهو بعد أن يحاول نفض الغبار عن الشاعر الكبير أبو البحر جعفر الخطّي بمقالة مهمة نشرها في مجلة المنهل في أواخر الستينيات الهجرية، نجده **كما**

يقول الشيخ حمد الجاسر يكتب تعليقات على كتاب الشيخ محمد بن بليهد «صحيح الأخبار» وينشرها في مجلة الحج، ولم ينس أن يمدّ صحف المنطقة مثل جريدة البحرين للزايد، والكويت لعبدالعزيز الرشيد، بنماذج من شعره الذي يضجّ ضجيجاً خطابياً بالأحداث السياسية العربية والعالمية، مما أثّر على فنّية الشعر عنده.

غير أن من بين التراث الشعري المجهول لهذا الشاعر العربي الخليجي الكبير قصيدةً هي من القصائد القليلة، التي وصلت إلى مستوى من التعبير الفني، تجاوز كثيراً مما كتبه سابقاً من شعر ذي نبرة خطابية عالية.

ففي قصيدة (حمّادي) المجهولة، ينساب نَفَسُ الشاعر شفّافاً حزيناً صادقاً وهو يغني خادمه الفقير حمادي بن مهدي بن جلال أحد الفقراء البائسين، الذي أوثقه الدين المهيض وأودعه سجن المرض الشاق حتى توفي سنة ١٣٥٠هـ، واهتم لتأبينه وعني بتقريظه خالد بن محمد الفرج الكويتي رئيس بلدية القطيف وقتئذ، هكذا يقول الشيخ فرج العمران في كتاب طريف له مجهول، وفي هذا الكتاب نجد مراسلات شعرية ونثرية بين المؤلف وخالد الفرج».

ثم يختتم محمد نصر الله مقاله عن الفرج، فيقول:

«وأحب هنا أن تكون قصيدته عن حمّادي بين يدي قراء أدب خالد الفرج، وهي قصيدة تُذكّر بشكل خاص بقصيدة الطلاسم الشهيرة لإيليا أبي ماضي وغيرها، وهي من القصائد الطويلة الرقيقة المنسابة كجدول من جداول عيون القطيف»، يقول في بداياتها:

بكيتُ عليك حمّادي كأنك بعضُ أولادي
بكاءَ عينه قلبي ودمعُ العين إنشادي
بكاءً كله صمتٌ بلا لطمٍ وتعداد
كأن الموت يفجعني بآبائي وأجدادي
فتغسل دمعتي حزني
وتطفىء لوعة الأحزان آهاتي وأناتي
وإخوانٌ يعزّوني بما يأسو جراحاتي
وإن فكرت في الماضي وأنسى كل لوعاتي
كأن الأمر لا يعني...!!

انتهى كلام محمد نصر الله.

واحتفى مهرجان القرين الثقافي في الكويت في دورته الثامنة عشرة عام ٢٠١٢م، بالشاعر الفرج وأُلقيت بشأنه محاضراتٌ وشهاداتٌ منها:

«لم يكن خالد الفرج مجرد شاعر ومؤرخ وباحث وقاص وكاتب مقالة، بل كان مفكراً، يحمل رؤية، ويحشد طاقاته لتحقيقها، كان يؤمن أن قوة أمته العربية تكمن في وحدتها، وان اللغة أهم مقومات وحدة الأمة، وان العلم والفكر المستنير هما السبيل للخروج من أسر التخلف والضعف «.....» وأن نزعة الاتجاه نحو الكتابة القصصية والقصيدة لها هدف عند خالد الفرج، وذلك لرغبته في أن يصل للناس ويثبت الجوانب الإيجابية للواقع، وأن قصة منيرة تحمل شكل القصة القصيرة، ولكن نفَسَها روائي،

وهي أول قصة قصيرة كويتية تحمل اسم امرأة «......» وأن خالد الفرج في تكوينه الثقافي المحلي والعالمي كان علامة بارزة في شعره، ولقد تأثّر بالهند خلال فترة إقامته فيها».

وعن رواد الأدب الحديث في الكويت يقول الأديب والمؤرخ الكويتي فاضل خلف **«أعتبر صقر الشبيب وخالد الفرج وفهد العسكر، رواد الأدب الحديث المعاصر في الكويت، فهم شعراء فنانون يختلفون عن سابقيهم الذين أعدّهم شعراء نظاميين ذوي طابع فقهي، فصقر الشبيب مثلاً شاعر فيلسوف، وكان متأثراً بأبي العلاء المعري، أما خالد الفرج فقد أتاح له اتصاله بالحياة الأدبية خارج الكويت بأن يجدّد ويأتي بشعر عربي رصين، وفهد العسكر علم من أعلام الشعر في الكويت، شعره متميز وملكته قوية، وهؤلاء الثلاثة يشكّلون المرحلة الأولى للشعر الحديث «وقال في مناسبة أخرى» كان الشعر في الكويت قبل صقر الشبيب (١٨٩٦ ـ ١٩٦٣م) وخالد الفرج (١٨٩٨ ـ ١٩٥٤م) وفهد العسكر (١٩١٧ ـ ١٩٥١م) نظماً لا روح فيه، ففتّح هؤلاء الثلاثة المجدّدون أبواب الشعر الرصين لمن جاء بعدهم من الشعراء».**

وبعد: من هذه الملامح الموجزة من سيرة شاعر الخليج رائد الملاحم الشعرية الوطنية، الذي ردّد الشباب العربي قبل ستين عاماً قصائد له شخّص فيها حال الأمة تشخيصاً لا يختلف كثيراً عن واقع اليوم، ونحن نستعيد الليلة في البال بيته الشهير:

هل في الجزيرة غيرُ شعب واحد
قد مُزّقت بيد العدى وحداتُه

وقصيدته الطويلة المعروفة «الشرق والغرب» التي ألقاها بمناسبة احتفاء النادي الأدبي في الكويت به (١٣٤٦/٣/٤هـ ١٩٢٧/٨/٣١م) وجاء فيها:

الغَرْبُ قد شدّدَ في هَجْمَتِهْ
والشَّرْقُ لاهٍ بعدُ في غَفْلَتِهْ
وكُلّمَا جَدّ بأعْمَالِهِ
يَسْتَسْلِمُ الشَّرْقُ إلى رَاحَتِهْ
فيجمعُ الغربيُّ وحْدَاتِهِ
والشرق مقسوم على وحدتِهْ
وذاكَ يبني العِلْمَ في بحثِهِ
وذا يُضيعُ الوقتَ في نظرته

ومنها:

يا قومُ في أحوالنا عِبرَةٌ
فليقم النائم من رقدته
فَمَنْ تَغدّى بأخي ضحوةً
حتماً تعشّى بيَ في ليلتِهْ
وكلنا يُنشِدُ في سِرّهِ
ما قالَهُ الشاعرُ في حِكمتِهْ

مَــنْ حُـلِـقـتْ لِـحْـيَـةُ جـــارِ لَـهُ
فلْيسكبِ الماءَ على لِحيتِهْ

واليوم، وبعد ستة عقود من رحيل هذا الأديب المبدع، نستعيد صفحات من سيرته لنزداد احتراماً لسطورها، فلقد كان في زمنه مجدّداً نهضويّاً وطنيّاً ورمزاً لوحدة الخليج العربي بأكمله، عاش رافع الرأس لا متزلّفاً ولا متكسّباً، وكان في ملامحه الشعرية واحداً من كبار شعراء الجزيرة العربية في القرن العشرين، الذين سجّلوا مسيرة هذا الوطن وتاريخ مؤسّسه، من أمثال شاعر اليمامة محمد بن عبدالله بن عثيمين والشاعر الكويتي محمود شوقي الأيوبي.

عاش خالد الفرج سنوات جميلة من عمره هنا في المنطقة الشرقية متنقّلاً بين القطيف والأحساء والدمام، وكان في القطيف بالذات يعُدّ نفسه خلالها فرداً قطيفيّاً ويعدّه أهلها واحداً منهم، وبقدر ما جسّد في شعره هموم الأمة فإنه جسّر في حياته مع الأهل الأكارم هنا نموذجاً للحمة وطنية صادقة ينبغي أن تحتذى بين أوساط النسيج المتنوّع في كل أنحاء الوطن.

ولئن كانت سيرته بسيطة واضحة وفيرة المراجع، فإن تلك المراجع على تنوّعها وتعدّدها لا تشير مثلاً إلى الأسباب التي جعلته كثير التنقّل في إقامته وفي أعماله، وهو ملحظ تكرّر في العديد من جوانب حياته وإنتاجه الثقافي يستلزم متابعة البحث والتأمّل.

وإذ يلزم توجيه الشكر لمن قام على جمع تراثه وتحقيقه واهتمّ بكتابة سيرته، وبخاصة الأديب الراحل خالد سعود الزيد والباحث عبدالرحمن الشقير وأدباء الكويت والمنطقة الشرقية، فالمرجو أن يتصدّى لها اليوم من جديد مَن يستكمل ما نقص منها في بحث علمي معمّق، ويؤكد على تقدير هذا الوطن له في معلَم في المنطقة الشرقية يليق بمكانته الرفيعة وبسجلّه الوطني المشرّف.

رحم الله شاعر الجزيرة خالد محمد الفرج، والتقدير الجمّ لأدباء القطيف وهم كما احتضنوه بالأمس يحتفون اليوم بذكراه، والامتنان للمهندس جعفر الشايب ولدارة الملك عبدالعزيز التي أسهمت في إقامة هذه الندوة بالتزامن مع مناسبة اليوم الوطني المجيد[1].

---

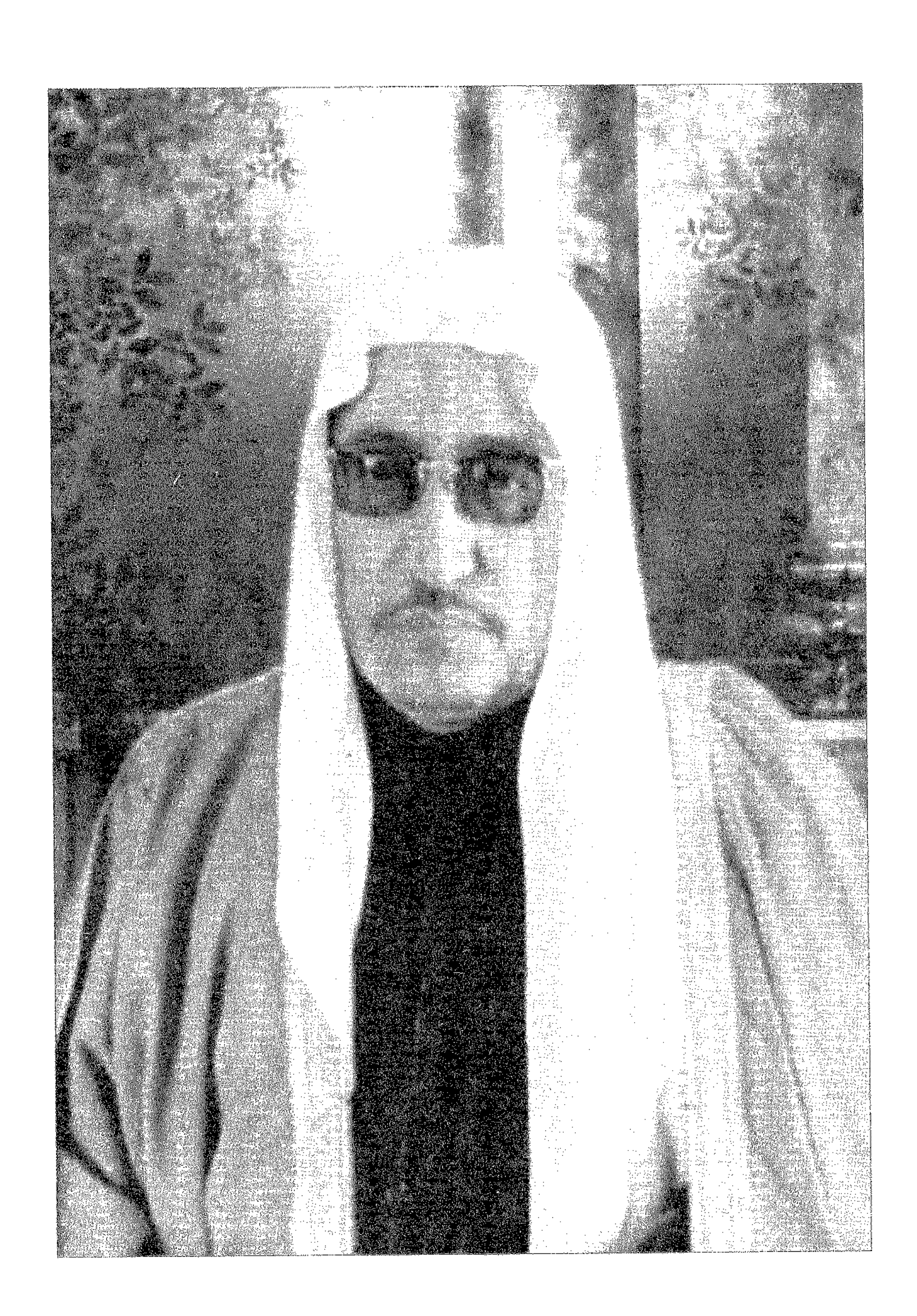
(١) ألقيت أيضاً في مجلس حمد الجاسر، السبت ١٤/١/١٤٣٨هـ (١٥/١٠/٢٠١٦م).

(٢٤)

حسن بن عبدالله آل الشيخ (*)

عمر قصير وحياةٌ حافلة بالعطاء

(*) الشرق الأوسط، العدد ١٣٦٩٠ في ١٥/ ٨ /١٤٣٧هـ (٢٠١٦/٥/٢٢م) ثم طوّرت محاضرة ألقيت هذا العام (١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م).



«كبسولة عمر» لم يتجاوز مداها خمسة وخمسين عاماً، أمضى قرابة نصفها في النشأة والدراسة، والنصف الثاني في عشق الأدب والثقافة، وممارسة وظائف عامة بأخطر المسؤوليات (القضاء والتعليم والصحة) في أصعب فترات التنمية، فأنزل الله البركة في حياته، وتذكّرت أدباء عرباً نابهين قدامى ومعاصرين، ممن عاشوا أعماراً قصيرة بحياة عامرة بالعطاء.

حقق غائبنا الحاضر من الإنجازات الفكرية والإدارية والعطاء الإنساني، قسطاً لم تُحِط به رسالتان علميّتان وثلاثة كتب وندوة وعشرات المقالات، وما يزال معاصروه ومن عملوا معه أو سمعوا عنه يستعيدون ذكره، ويُجمعون على فضله، ولمّا يكتشفوا بعدُ خفايا أعمال البرّ التي زرعها، والشفاعات التي أسداها، وأسرار مفاتيح السمعة و «الكاريزما» والهيبة في شخصيّته، ولا من أين اكتسبها، والصور الرائعة لبرّه بوالديه، وعطفه وحنانه مع أسرته وذويه.

هو حسن بن عبدالله آل الشيخ، المولود في المدينة المنورة مع فجر توحيد الوطن (١٣٥٢هـ/١٩٣٣م) أكمل تعليمه الجامعي بُعيد وفاة الملك عبدالعزيز (١٣٧٣هـ/١٩٥٤م) في أول مُنشأة سعودية للتعليم

العالي (كلية الشريعة في مكة المكرمة) وعمره آنذاك واحد وعشرون عاماً، حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، وعمل في مجال الإشراف على القضاء ملازماً لوالده رئيس القضاة وخطيب المسجد الحرام في مكة المكرمة، واختير في عهد الملك سعود وهو لمّا يبلغ الثلاثين (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م) وزيراً للمعارف مستمرّاً فيها مدة ١٤ عاماً، وفي منتصف عهد الملك فيصل أضيفت إليه حقيبة وزارة الصحة لمدة أربع سنوات (١٩٦٦ ـ ١٩٧٠م) وصار في مطلع عهد الملك خالد وزيراً للتعليم العالي عند استحداث وزارة مستقلة تشرف على الجامعات والبعثات والعلاقات الثقافية، وفاجأته المنيّة بعد اثني عشر عاماً وهو على رأس العمل، دون أن يتمكّن من تدوين سيرته، التي كان يمكن أن يبدع دون سواه، في تصويرها، بأسلوبه الأدبي الأخّاذ.

على الصعيد الاجتماعي، كان كل من تحدثوا عنه، كتابةً أو روايةً أو مجالسةً أو معاصرةً أو تعاملاً، يُجمعون على صورة ذهنيّة واحدة عنه، يُشكِّل الحياءُ والعطاءُ أبرز ملامحها، وأنه انفرد بـ «جاذبيّة استثنائية» بين المسؤولين من جيله، بكونه ليّن الجانب، لا يردّ مطلباً أو شفاعةً، يصدق عليه قول الفرزدق في قصيدته الميميّة المعروفة، فإذا لم يستطع تحقيق طلب السائل فإنه لا يرجع منه إلا طيّب الخاطر، بردّ مُريح أو ببديل مناسب.

تأثّر العاملون معه بإيجابيّته في التسهيل والمرونة، لأنهم يدركون

رغبته في ذلك لو وصل الأمر إليه، كان مدرسة في فكره وأسلوبه وأدبه وخُلقه وتعامله وتواضعه وترفّعه، وفي سمته وعِفّة لسانه ونعومة تعبيره وانتقاء مفرداته، وفي قلة الكلام وإيثار الهمس، وكان في الأعمال التي تقلّدها لا يستعلي ولا يدّعي ولا يُحقّر، يُشجّع ويتقبّل ويستشير، وإذا ما أُطلق اسم «الشيخ حسن» في مجلس، فهو عَلَم عليه، لا ينصرف الذهن إلا إليه حتى الآن.

توّجت مناقبه فضيلة بالغة المعنى، فالإقليمية والطائفية لم يكن لهما مكان في قاموس إعرابه، وفي المساعدات التي كان يقدمها لمن يتصل به أو يراجعه، فضلاً عمّا نعرفه فيه من وفاء للأقربين إليه، وقد بلغت به طيبته وحسن ظنه وثقته بالآخرين وقوعه أحياناً في مواقف تجرح سجلّه الحافل بالأفضال التي اعتمرت سيرته الذهبية، لكنها بقيت تحتسب له، دليلاً على كريم أخلاقه، وعلى عدم إضمار الضغينة لأحد.

لم تكن تلك السجايا المضيئة في شخصيّته كلَ ما اشتهر به في العمر القصير الذي عاشه، بل شهد له المجتمع ـ كما سيأتي ـ بالنجاح في التوسّع الأفقي العريض في نشر مؤسسات التعليم العام، وامتداده في كل الأنحاء المعزولة والمتناثرة والنائية في البوادي والواحات والجبال، وفي الصحاري، كانت المدرسة الابتدائية في تلك الحقبة أول ما يقابل عابر الريف أو القرية أو الهجرة ، تواصل وزارة المعارف بذلك برنامج الأمير فهد الذي استحدث وزارة المعارف (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م) وأمضى

فيها نحو تسع سنوات قبل أن ينتقل إلى موقع سيادي أعلى، ثم خلفه في الوزارة ـ لعام واحد ـ شقيقه الأكبر (عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ) قبل أن تصير الوزارة إلى شخصية المحاضرة.

تتوّجت السنوات التي تولّى فيها أعباء وزارتي المعارف ثم التعليم العالي، نجاحات نوعيّة عديدة في قطاع التعليم، من حيث تلبية متطلباته البشرية والصحية والإدارية واللوجستية، بما في ذلك تجربة فريدة لتغذية الطلاب دامت عدة سنوات، وبالتوسّع النّوعي والكمّي في برامج التعليم الفني ومحو الأميّة، وبإيجاد نواة للمجلس الأعلى للفنون والآداب، وبإيفاد البعثات من الجنسين وأزواجهم إلى مختلف بلدان العالم لتخريج آلاف الكفايات الوطنية المؤهلة، وبمدّ جسور العلاقات الثقافية مع دول العالم ومنظمات التربية والتعليم والثقافة، وبإضافة ست جامعات مع جامعة الملك سعود (التي أُسست في منتصف عهد الملك سعود ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م) وحظيت الجامعات السبع باستقلالية ومرونة إداريّة متطورة مكّنتها من استقطاب كفايات تدريسية عالية التأهيل، وأصبحت صروحاً ثقافية وبحثية مزدهرة، شهدت عشرات المؤتمرات العلمية والندوات والإصدارات والنشاطات الثقافية المنبرية، وكان يحضر جلساتها الافتتاحية والختامية.

وتكوّنت بمسعى منه وتحت رئاسته مؤسسات ثقافية وطنيّة مهمة في مقدمتها: دارة الملك عبدالعزيز (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م) التي أصبحت

مركزاً مستقلّاً لتوثيق التاريخ الوطني، والندوة العالمية للشباب الإسلامي (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) والمجلة العربية (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) التي آلت مرجعيّتها لوزارة الثقافة والإعلام حاليّاً، وقد أسهم بدور فاعل في كل أنشطتها وندواتها ومؤتمراتها ومطبوعاتها، وذلك فضلاً عن المؤتمرات الدولية والعربية والإسلامية، المنبثقة عن اليونسكو والأليكسو والإيسيسكو، وتلك الناشئة عن الاتفاقيات والعلاقات التعليمية والثقافية بين المملكة ودول العالم.

وتجدر بِنَا ـ ونحن نتصفّح بعضًا من سيرته، في زمن انخفض فيه مستوى الأمانة والنزاهة، وشاعت فيه، مع الأسف، بعض مظاهر الفساد المالي والإداري في القطاعين العام والخاص ـ الاستشهادُ بقول العلّامة حمد الجاسر عن عزة نفسه « لقد زهد فيما كان يشاهد النفوس تتهافت على اكتسابه، من عرَض الحياة الزائل، إنه زُهْدُ الترفّع عن مقدرة، وإدراكٌ لتفاهة ما تتكالب عليه الضمائر الضعيفة، بما تناله من جرّاء بلوغها رفيع المناصب، وقد تسنّم من أرفعها ما يشرئبّ لإدراكه ذوو الهمم العالية، لكن همّته كانت أسمى وأرفع من أن تنزل إلى مستواهم».

ولقد حظيت ملَكَته الأدبية والعلمية، ومتابعته الدائمة للحركة الفكرية المحلية والعربية، بتركيز كبير مما كتب عنه منذ وفاته، فهو واسع الاطلاع، صاحب قلم أنيق الكلمة والحرف، رفيع العبارة مع الإيجاز، يملك ناصية

البيان إذا خطب أو تحدّث أو كتب أو راسل، مع خط جميل راق، وأدب جمّ، وقد دأب ـ مع نهم القراءة ومتابعة الحركة الثقافية ـ على مواصلة خاصّته ومحبّيه ـ كما سيأتي ـ بمئات الرسائل الإخوانية رشيقة الأسلوب، التي كشفوا عنها بعد وفاته، وعلى تسجيل أحاديث إذاعيّة في السيرة النبوية وغيرها، وكتابة مقالات أسبوعية ـ في عدد من الصحف المحلية ـ بخواطر إصلاحيّة مستنيرة وجريئة، ونقد اجتماعي بنّاء، بعبارات موجزة، وعناوين متنوّعة، وأسهم في دعم حركة النشر والتأليف العلمي والثقافي عبر كل المؤسسات التي رأسها، وصدرت له ستة مؤلّفات منها ؛ دورنا في الكفاح (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م) وخواطر جريئة (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م) وكرامة الفرد في الإسلام (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م) والتنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ومعاملة الإسلام للمرأة (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م) وكتاب خواطر على الطريق الطويل المطبوع عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م أي بعد وفاته، وهي جميعاً تبرز أسلوبه وفكره، وصوره الإبداعية في الكتابة التي تحاكي روائع النثر العربي، ومساحة الحريّة التي كان يمارسها في النقد، والإصلاح الاجتماعي، وتقويم وسائل الإعلام والتوجيه والدعوة، والحثّ على تحرّي الحقائق والموضوعية في الكتابة التاريخية، وعلى التزام الوسطية والاعتدال، في أحاديث ومقالات نالت المرأة فيها نصيباً من فحواها.

وهكذا نرى أنه كتب في أغراض الكتابة النثرية؛ الأدبية والتربوية،

وكشف عن ذائقة رفيعة في النقد الأدبي للشعر الفصيح، وعن رأيه في الشعر النبطي، وعن طرح نافح فيه عن قضايا الأمة، وخُصِّص حيّزاً واسعاً من المقالات لعرض آرآئه في التربية السليمة ودور الأسرة والمسجد في بنائها، مشدّداً على خمسة أساليب للحوار: القدوة والرفق والأخلاق والموعظة الحسنة والصبر، في تنظير يستحق أن يدمج في مناهج التربية الإسلامية وأهدافها، عبّر فيه عن استيعاب كامل لأصول التربية الحديثة، وفق ما استلهمها من قراءاته، واستقاها من تعاليم الإسلام التي تعمّق فيها، ومن بيئته التي نشأ في محيطها.

وقد أصدرت «المجلة العربية» عام ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م مجموعة أعماله الكاملة في مجلد واحد، بلغت صفحاته سبعمئة صفحة من القطع الصغير، ثم تولّى ابنه د. عبدالرحمن إعادة إصدارها هذا العام في طبعة فاخرة، بلغت قرابة ستمئة صفحة من القطع المتوسط.

وكان مما صار حديث المجتمع ـ بعد وفاته المفاجئة عام ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ـ ما روته الصحافة، أن جاره في مقعد مجلس الوزراء (وزير الخارجية الأمير الراحل سعود الفيصل) عثر في اليوم التالي، على ورقة بخط يده تركها أمامه، وفيها دعاء وداعيّ مؤثّر مأثور، نُشرت في حينه، كما سرت في المجتمع رؤيا تبشّر له بالخير قبل شهرين من وفاته، رآها الشيخ محمد بن عبدالله المبارك (من الأسرة المعروفة في الأحساء) أطلعه عليها خطّياً قبيل وفاته، فشكره عليها.

برحيله المفاجئ (عند غروب شمس السبت ١٤٠٧/٥/١٧هـ - ١٧/١/ ١٩٨٧م) انهمرت عشرات المراثي النثرية والشعرية، من جمهرة من كبار الأدباء والشعراء والمثقفين، كمحمود عارف ود. محمد بن سعد بن حسين، وعبدالعزيز الرفاعي، ومحمد حسن فقي، الذي قال في مطلع قصيدته:

أأرثيك، أم أرثي النُهى والمشاعرا؟
وأبكيك،، أم أبكي الرؤى والخواطرا؟
أراك بقلبي ماثلاً كل لحظة
فتهتف في عيني ؛ أما زلت ذاكرا؟

وانعكاساً لمكانته العلمية، وللإجماع على تميّز مناقبه، وعلى حجم رصيده من الإنجازات الوطنية، ومن إنتاجه الفكري في مجال الثقافة والتربية والأدب والتوجيه الاجتماعي، أصدر الأستاذ حمد القاضي عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م أول كتاب عن سيرته بعنوان: «الإنسان الذي لم يرحل» في مئة وثلاثين صفحة، ضمّنها موجز ما قيل في رثائه وأبرز المعلومات عن أسرته وسيرته.

وعُقدت في العام نفسه، في صالون الأديب علي حسن أبي العلا - المتوفى مستشفياً في لندن عام ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م - للحديث عن سيرته ومآثره، ندوةٌ تأبينية بمناسبة مرور عشرة أعوام ونيّف على وفاته، حضرها في مكة المكرمة، أبناء الراحل وجمع من زملائه وعارفيه من رجال التربية

والتعليم، من بينهم الشيخ عثمان الصالح الذي أدار الندوة وألقى فيها قصيدة من نسجه، والدكتور محمد عبده يماني والفريق يحيى المعلّمي، والأساتذة مصطفى عطار وعبدالمقصود خوجة وحمد القاضي، وقد تبارى فيها الحاضرون في البوح بعواطفهم، وفي الإفصاح عن تجاربهم معه، وفي رواية ذكرياتهم عن مواقفه، كل بحسب موقعه منه، وفاضت فيها مشاعرهم تجاه فقده، وفي الندوة توثيق لمسيرة التربية والتعليم العام والعالي في عهده، وكان مما أبرزه المشاركون فيها من مناقبه على الصعيد الإنساني، أنه «قلب» يسير أمام القلوب بفيض محبّته، يبحث في استصلاح المخطئ، وتجنّب تطبيق التوصيات التي تتخذها الجامعات بمجازاته، كما أشادوا بمرونته المتناهية في تجاوز تعقيدات البيروقراطية، وهي علامة بارزة في شخصيّته ونهجه، وتبقى تلك الندوة التي مضى عليها عشرون عاماً، سِجلاً وافياً بالمعلومات الأساسية عن أسرته وعلاقاته وزملائه في جميع مراحل حياته، وهي جديرة بأن تصدر كاملة في مطبوع مستقلّ، مع أن المراجع اللاحقة، تستشهد ـ باستمرار ـ بما ورد فيها، وإن كانت تنقصها شهادات عن فترة تولّيه وزارة الصحة، التي ناهزت أربع سنوات، كما أسلفت.

وفي كلية اللغة العربية (قسم الأدب) بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، تصدّت الدكتورة ندى صالح أباالخيل عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م لسيرة حياته ونثره، في رسالة ماجستير ضافية من

أربعمئة صفحة، طُبعت ضمن مشروع طباعة الأطاريح العلمية، واحتوت على تحليل أدبي لأسلوبه في الكتابة النثرية، مع الاستشهاد الموثّق بنماذج من كتبه وخطبه وخطاباته ومراسلاته، فيما يمكن أن تُعدّ أشمل دراسة عن إنتاجه التأليفي والثقافي حتى الآن.

وفي كلية الدعوة وأصول الدين (قسم التربية) في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، نوقشت في عام ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٣م رسالة ماجستير من مئتين وخمسين صفحة، للدارس سامر محمد عبدالمحسن الأنصاري، وهو من سلك التعليم الخاص، تناولت جهود الشيخ حسن في التربية من جميع جوانبها، وتقصّي نماذج من كلماته التوجيهية للطلاب والدارسين، ومنهجه في النصح والتقويم، بأسلوب الرفق، والكلمة الرقيقة، البعيدة عن التنفير والتحذير، والحث على القراءة وانتقاء مادة المعرفة، والاصطفاف مع النظام العام، ورسم القدوة المضيئة، وقد تتبعت الرسالة ـ كسابقتها ـ مقتطفات من كلماته في حفلات التخرج السنوية في الجامعات، واقتبست نماذج لما كان يخص به معاهد تعليم المكفوفين وذوي الاحتياجات الخاصة، والأمل أن يسعى الباحث إلى تطوير الرسالة وطبعها لتكون متاحة لغيره من الباحثين.

وللشيخ د. ناصر بن سعود السلامة، قاضي الاستئناف بوزارة العدل، مخطوطان ينتظران الطبع، تنيف صفحاتهما على الثمانمئة، بذل فيهما جهداً بحثيّاً واسعاً، استقصى فيه نماذج من كلمات الشيخ حسن ورسائله

وخطبه ومقابلاته ومقالاته التي نشرها في مجلة المنهل واليمامة والدارة والتضامن الإسلامي والمجلة العربية (في نحو ٩٠ مقالة) والعربي الكويتية وصحيفة الجزيرة وعكاظ والندوة وغيرها، والمقدّمات التي خطّها لأعمال غيره، وكان مما تضمّنه المخطوطان ما يعتقد أنها أقدم كلمة ألقاها أمام الملك عبدالعزيز عام ١٣٦٥هـ وكان طالباً في مدرسة الرحمانية بمكة المكرمة، عمره ثلاثة عشر عاماً (أم القرى في ٢٩ صفر ١٣٦٥هـ) ومقابلة صحفية مستفيضة تكاد تكون الفريدة من نوعها في التعمّق في حياته وآرائه الخاصة، نشرتها مجلة الدارة في عدد ذي الحجة عام ١٣٩٥هـ وهو العام الذي انتقل فيه من وزارة المعارف إلى وزارة التعليم العالي في وزارة الملك خالد.

أما بالنسبة لمشاركته في برامج الإذاعة، فمحفوظة في مكتبتها، في سلسلة حلقات بلغت نحو خمس وأربعين حلقة، مدة الواحدة خمس دقائق بإلقائه، تناولت موجز السيرة النبوية الخالدة، والمؤمّل أن يستكمل الشيخ السلامة جمعها، تمهيداً لطبعها بصوته كما كانت.

إلا أن المقالات والقصائد وتراجم سيرته التي كتبت عنه في أثناء حياته وبعد رحيله ـ على محدوديّتها بالنسبة لعطائه ومقامه ـ لم تنل ما تستحق من التوثيق الشامل، كي تكون متاحةً للباحثين، ولعلها تكون مشروعاً قادماً للمجلة العربية، منوّهاً في هذا الصدد بالإيجاز الذي جعله الشاعر عبدالله سالم الحميد باكورة سلسلته «شخصيّات في الذاكرة:

حسن بن عبدالله آل الشيخ» المطبوعة في كتيّب سنة ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

وكم ننصف أبا هشام، لو اتّجه الباحثون في الدراسات التربوية والإدارية - بالإضافة إلى رصد إنتاجه الثقافي وتحليله - لو اتّجهوا لدراسة تأثير بيئته ومنهجه القيادي، الحافل بالمرونة، وبالاحتفاء بالأفكار التطويرية المستنيرة، حيث مثّلت عقليته الإدارية المنفتحة للتحديث في الوزارات التي تقلّدها، جانباً لا يقل في أهميته.

عرفت أبا هشام على المستوى الشخصي منذ أن بدأت العمل في وزارة الإعلام أواسط الثمانينات الهجرية (الستينيات الميلادية) وكنا نتلقّى منه باستمرار الخطاب تلو الخطاب بما يعنّ له من ملاحظات، تدل على متابعته لما كان يعرض أو يبثّ، ثم شاء الله أن أقترب منه في وزارة التعليم العالي بعد عامين من إنشائها، فتشرّفت بالعمل معه في شؤون الجامعات، وتلقيت منه - مرؤوساً في نحو عشر سنوات - من المراسلات والتوجيهات كما للعديد ممن سعد بزمالته، وشاركته بقدر متواضع بعض إنجازاته المشهودة، وما كان بالإمكان مقاربته في شموليّة الانتشار والفكر الإداري وغزارة الإنتاج الثقافي، فضلاً عن العطاء الإنساني، وكانت لي معه من الذكريات الأخوية مثل ما للعشرات أمثالي، وأجزم أن مراسلاته الإخوانية وأعماله الإنسانية الجليلة مع المئات من عارفيه وممن اتصلوا به، بالرغم من كل المحاولات للاستشهاد بنماذج منها وحصرها، لحَريّة - بحد ذاتها - بأن تفرد لها دراسة تحليلية اجتماعية،

حيث كان، بسبب من حيائه ودماثة خلقه، يتستّر على أعماله الخيريّة.

وكان يُكثر استخدام المراسلات الإخوانيّة، يجد فيها وسيلة حميمة، هي أقرب إلى نفسه من المواجهة، يُعبّر فيها بإفاضة، وبعبارات أكثر صراحة، عن محبته أو عتبه، مع من لهم به صلة أكثر من عارفيه أو زملائه أو مرؤوسيه أو ذويه، ولقد كان من شيَمه وشدة مجاملته، أنه يذوب خجلاً ومروءةً، عندما يزوره المعنيّ بملاحظاته، لإيضاح موقفه.

تلكم هي «خلاصة» سيرة واحد من أعلام الفكر والتربية، الذي أنصفته الوظيفة ولم ينصفه المجتمع الثقافي بعد الممات، تعلّق قلمي بالكتابة عنه، منذ أن ولج في محراب التراجم قبل عقدين ونيّف، وكان الخاطر يترقّب عقد ندوة موعودة عنه في الرياض، فإذا هي تتأخر، وقد انطوت صفحة هذا العَلَم من أعلام العلم والثقافة والمعارف، واستمر عاطر ذكره ينداح على مدى ثلاثة عقود، يستحث الحبر لتقديم ومضات من سيرته، لتعريف الشباب به، أما الكهول فإنهم ينافسون المُحاضر معرفة به.

وها هي « كبسولة حياته» التي بدأتُ بها المحاضرة، واختزلتُ التكرار عن حياته الشخصية، لكنها لا تكتمل دون أن تحكي قصة مدينة مغروسة في وجدانه، «الطائف» مرقد ضريح والدته، المحافَظة التي طالما أمضى فيها مع والده جميل الذكريات ووثيق الصداقات، وعقد فيها مع نسائم «الشفا والهدا» رواية عشق تعبّر سطورها وفصولها وصفحاتها عن وفاء لم ينقطع، وحب لم تتقاسمه معها سوى المدينة المنورة التي ولد فيها،

ومكة المكرمة التي ترعرع فيها، والرياض التي جرت فيها سفينة حياته الوظيفية.

ولئن قَصُر البيان عن لقاء ذكرى ثلاثين عاماً من رحيله المَهيب، بما يسمو إلى سمات مكارم الأخلاق والقيَم التي تحلّت بها صحائف اسمه وتجلّى بها رسمُه، وعن الغوص على درر محيطه، لاستجلاء كل مفاتيح شخصيّته، الظاهرة والباطنة، وعن مقابلة وجوهكم المشرقة، على أديم هذا المحفل الألِق.

ولئن عَجِزت الحروفُ عن الإتيان بما يليق بالمناسبة من تعبير، وبما يسامقها من الوفاء، فلن يفوتنا الترحّم عليه والدعاء له، وقد اجتمعنا اليوم نستذكر سطوراً من أدبه وصفحات من مناقبه، نموذجاً لرجال ونساء فضلاء، علّنا نستلهم منهم أسباب إجماع الناس على تقديرهم، والإشادة بسجاياهم.

ولا بد من إزجاء كلمة شكر لازمة لحضوركم، على عَبَق ذكر رمز أصيل من رجالات الوطن ونبلائه.

ثالثاً :

تكـــريم..



(٢٥)

جميل الحجيلان (*)

قراءة في سيرته المخطوطة

(*) منتدى عبدالرحمن السديري للدراسات السعودية في دورته السابعة وموضوعها: الإعلام اليوم: إعلام بلا حواجز، محافظة الغاط (٦ محرم ١٤٣٥هـ - ٩ نوفمبر ٢٠١٣م).



أُدرك يقيناً أن صلةً به، بدأت بعلاقة عمل ثم تحوّلت إلى أبوّة روحيّة وصداقة حميمة، لا يكفيها كلمة بهذا الحجم المتواضع، لكنها المناسبة التي فرضت نفسها، فلم يكن مناسباً تفويتها دون أن ترافقها مشاركة بشيء عن سيرته.

وقبل الدخول في الكلمة، لا بدّ من البوح بأن هذا القلم يقف إجلالاً لقامة من قامات الوطن، جسّرت طيلة خمسة عقود تناغماً متلازماً بين السياسة والإعلام لم يُدرك أسراره إلا القليلون من الساسة والإعلاميين، قامةٍ لم تتطلّع هامته منذ عُرف في الساحة الإعلامية والسياسية إلا إلى الأعلى، ولم يمتدّ ناظراه إلا إلى الأفق الأبعد، وهو لم يقبل أن يتّجه أي وجهة إلا بعد أن يجزم بأنها توصل إلى الهدف بمنتهى الاحتراف والرّقي والكفاية؛

- مرّ على الدبلوماسية، وكان متفرّداً بأسلوبه وبفكره وطرحه.

- ومرّ على الإعلام، فوضع نهجاً من الإبداع والذوق والأصالة،لم يصلها أحد قبله أو بعده.

ومع ذلك، فإن القلم الذي يخطّ هذه الحروف لن يتخلّى عن الموضوعيّة والشفافيّة وهما من غراسه، وإذا كان أحد لا يخلو من ترصّد

الشانئين فإن نواياه الحسنة وزنت غيرها ورجحت عليها، حتى تفرّد في الجمع بين ثنائية الدبلوماسية والإعلام بشموخ وأَنَفَة، وكان قبَساً من النزاهة والفكر المتجدّد، والتطوير الذي لم يتوقّف.

شخصيّة هذه الكلمة، وُلد في منتصف العشرينات في دير الزور، من أسرة سعودية من القصيم احترفت التجارة بين نجد وفلسطين وبلاد الشام والعراق ومصر، في رحلات على الركائب (الجِمال) اشتهرت شعبياً وثقافيّاً باسم «تجارة العقيلات» التي كُتب الكثير عنها، ثم تلاشت بعد انتشار السيارات قبيل منتصف القرن الماضي، بينما أقام بعض الأسر النجدية في تلك النواحي حتى اليوم، في حالة شاهدة على طرق التجارة، وعلى تواصل اجتماعي قديم رغم انعدام الأمن بين عشائر شمال الجزيرة ووسطها، والحجيلان أسر عدة، فصّلها الشيخ محمد ناصر العبودي في كتابه الحديث «معجم أسر القصيم» الذي صدر الجزء الأول منه عن أسر بريدة فقط، في ثلاثة وعشرين مجلّداً.

درس شخصية هذه الكلمة دراسته الأوّلية في دير الزور بسوريا، وكان من أساتذته علي الطنطاوي، الشيخ الذي ظل الحجيلان يبدي فخراً بالتتلمذ على يديه، ويبدو أن التلميذ كان مولعاً منذ صغره بالأدب والشعر، حيث ما انفك يتذكر تلك الأبيات التي كان الطنطاوي يستشهد بها من نظم المؤرخ والشاعر الكبير صاحب «معجم الأعلام» خير الدين الزِّركلي عقب دخول الملك عبدالعزيز مكة المكرمة، ومطلعها:

صبرَ العظيم على العظيم
جبّارِ زمزم والحطيم

وقد انشغل الحجيلان مرّة معي بإعراب كلمة «صبرَ» ولماذا وردت مفتوحةً، وكان الشيخ الطنطاوي مغرماً بشاعريّة الزركلي وبوطنياته، التي منها قصيدة مشهورة تغنّى فيها بموطنه «الشام» حينما كان الزركلي مهاجراً في مصر:

العينُ بعد فراقها الوطنا
لا ساكناً ألِفَتْ ولا سَكَنا

ولذلك، فلا غرابة أن تظهر لدى الحجيلان موهبة شعرية مبكّرة ظلّ الكثيرون لا يعرفون إلا قليلاً عنها، تبدّى ذلك في قصيدة وطنية عروبية كتبها في أعقاب حرب فلسطين (١٩٤٨م) ونُشرت في حينه بعنوان: صوت فلسطين، قال في مطلعها:

يا هزار الصباح ردّد ندائي
وارْوِ للشرق محنتي وبلائي

وأحسب أنه لو لم يأخذه الطموح لدراسة القانون في مصر لكان بكل تأكيد، انضم إلى قائمة المتخصصين في الأدب العربي.

الحديث عن ولع الحجيلان بالأدب وضلاعته باللغة، يكشف لعارفيه وهو يتحدث عن سر العبارة المنتقاة الخالية من الابتذال، التي تميّز

أحاديثه ومقالاته ومراسلاته، فهو إذا ما كتب تبهرك كلماته الراقية وأسلوبه الذي يقود إلى فكره ومقاصده، وهو ملمح ظل يلازم شخصيته كاتباً ومتحدثاً ودبلوماسياً وإعلامياً وإدارياً.

أضفى عشقه للأدب على تخصّصه اللاحق في القانون وعلى شخصيته، مهارةً في المنطق، وذوقاً في المرافعة، وحجةً في المواقف السياسية والاجتماعية، وهو الذي يستذكر مفتخراً بأنه خريج مدرسة د. عبدالرزّاق السنهوري، أحدِ أعلام الفقه الدستوري والفكر القانوني في الوطن العربي (توفي عام ١٩٧١م) كما أن تضلّع الحجيلان في علوم العربية واشتقاقاتها قد مكّنه من إجادة الفرنسية والإنجليزية، كتابةً ونطقاً وتحدّثاً.

عاصر ستة من الملوك السعوديين، بدءاً من الملك عبدالعزيز الذي أدرك العمل في أواخر عهده موظّفاً في وزارة الخارجية، وهو يتذكر دوماً تلك المهمّة التي جاءت به بُعيد تخرّجه من جدة إلى الرياض، ليترجم لمسؤول إسباني رفيع قابل الملك عبدالعزيز في أوائل الخمسينات الميلادية، ثم التحق الحجيلان بالعمل الدبلوماسي في السفارة السعودية في طهران (مع السفير حمزة غوث) وانتقل بعدها للعمل في السفارة السعودية في كراتشي عاصمة باكستان آنذاك (مع السفير محمد الحمد الشبيلي) وقد لفتت براعته الثقافية الأنظار إليه، فاختير عام ١٩٦١م مديراً عاماً للإذاعة والصحافة والنشر خلفاً لعبدالله بلخير، في فترة غلب عليها عدم الاستقرار في ذلك الجهاز، حيث كان الإعلام أحد

الميادين التي انعكست عليها التوتّرات الداخلية.

بعد نحو ثمانية أشهر أبدى رغبة في العودة للسلك الدبلوماسي، فعيّن سفيراً في الكويت فور حصولها على الاستقلال، وكان أول سفير عربي يصل إليها وسمّي بالتالي عميد السلك الدبلوماسي، وبعد عام ونصف عيّن أول وزير للإعلام (مارس ١٩٦٣م) في حكومة رأسها الأمير فيصل في أواخر عهد الملك سعود.

ومن المفارقات الطريفة، أن الحجيلان كان يكتب للإذاعة قبل أن يتولّى مسؤوليّاته الإعلامية، وأنه إبّان عمله وزيراً للإعلام كتب تحت اسم مستعار بعض التعليقات السياسيّة، ثم نشرها في كتابه الوحيد «الدولة والثورة، الدار السعودية للنشر ١٩٦٧م في ٨٠ صفحة».

في عهده الإعلامي، الذي أدرك فيه عاماً ونصف العام من عهد الملك سعود، وستة أعوام من عهد الملك فيصل، دُشّنت إذاعة الرياض التي خُصّت بمرسلات عملاقة، وافتتح التليفزيون في سبع محطات، وتحوّلت الصحافة من ملكية فرديّة إلى مؤسسات أهلية، وشهد الإعلام الخارجي طفرة نوعيّة مكثّفة قوامها الأفلام والكتب الإعلاميّة، وصارت المملكة قبلةً لزيارات أبرز رجالات الصحافة العربية والأجنبية، وانتقلت الوزارة إلى العاصمة، وحظيت وسائل الإعلام بفرص غير مسبوقة من برامج للتدريب جعلت الشاب الفني السعودي يقف بكفاءة في ذلك الزمن المبكر بمحاذاة الكفايات الوافدة، وفي عهده أيضاً كان للمرأة أول حضور

في برامج الإذاعة والتليفزيون.

مرّ الحجيلان بعد وزارة الإعلام بفترة انتقالية من أربع سنوات وزيراً للصحة (١٩٧٠م ١٩٧٤م) استرعى خلالها انتباه المجتمع لفكرة الوزير الإداري في مقابل الوزير التكنوقراط، وربما كان أول من تبنّى فكرة تفرّغ الأطبّاء في المصحّات الحكومية.

ثم بدأ مجدّداً رحلة مع الدبلوماسيّة، أخذته إلى ألمانيا مدة عامين، وإلى فرنسا عشرين عاماً، مارس خلالها هوايته مع السياسة والإعلام، بلغة فرنسية رفيعة منتقاة بزّ فيها أقرانه السفراء من الدول غير الفرانكوفونية، وطبّق خلالها مدرسةً دبلوماسيةً واضحةً قوامها الحزم الإداري والانضباط في عمل السفارة، والتأكيد على تقوية الصلات مع رموز البلاد التي أوفد للعمل على كسب صداقتها، دون إغفال رعاية المواطنين الذين خصّص لخدمتهم مساعداً متفرّغاً له بدرجة سفير.

وفي عام ١٩٩٦م، تحوّل نحو نوع آخر من العمل السياسي، عندما رشّحته المملكة أميناً عاماً لمجلس التعاون الخليجي، في نقلة قرّبته من وطنه بعد طول غياب، وجعلته على صلة مع صنف مختلف من الزعامات، نقلةٍ منحها ما استطاع من خلاصة خبراته وتجاربه السابقة.

وهكذا أمضى الحجيلان نحو أربعين عاماً في المجال الدبلوماسي، بينما لم يقض في المقابل في الإعلام سوى ثماني سنوات (١٩٦٣

١٩٧٠م) إلاّ أن اسمه ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالإعلام، حيث مارس العملية الإعلامية في فترة حرجة داخلياً وخارجياً، وأبدع في الزمن الصعب بما يستلزم صفحات، ولم يختلف أحد على أدائه الإعلامي المُضيء إلا فيما يتصل بتقدير الإجراء الذي اتُّخذ في عهده بتحويل ملكية الصحافة من مؤسسات فردية إلى مؤسسات أهليّة جماعية (١٩٦٣م) حيث نظر الفريقان إلى الإجراء من زاويا متغايرة، وما يزالان مختلفَين.

ومن حسن الحظ أن تقاعده عام ٢٠٠٢م جاء في عمر مناسب للاستمتاع بالترحال والتفرّغ لكتابة المذكّرات، فصار يوزّع وقته بنظام دقيق، يأنس بأحفاده، ويلامس محرّك الإنترنت للبحث والتوثيق، ويتابع كتابة مذكّراته التي أصبحت تقارب الستمئة صفحة، كما تفرّغ لأول مرّة، لحياة خاصة متنوّعة حافلة بالواجبات الاجتماعية، يشاطر أم عماد (كرم الورّاق) نشاطها الخيري ويمنّي نفسه بأن يدوّن جهدها التطوّعي، وهي التي شاركته حلاوة الحياة وقساوتها، ورافقته رحلة العمر منذ تزوّجا أوائل الخمسينيات الميلاديّة، وقامت على شأن بيتهما وتربية أولادهما (عماد وفيصل ووليد ومنى) فضلاً عمّا تقتضيه الالتزامات الدبلوماسية من واجبات.

ولقد قدّر على الصعيد الشخصي، أن يكون محدثكم أحدَ من صنعهم هذا الرجل على عينه، وصاغهم بتوجيهه، وتولاّهم برعايته، وعندما تستعيد الذاكرة اليوم ما تختزنه، وما تحتفظ به المراسلات المهنية

والأسريّة على امتداد نصف قرن، فإنه كان الوالدَ الحاضر والرئيسَ المساند، و لم يكرّر عليّ أبوعماد قولاً عبر السنوات القليلة الفائتة، مثل التوصية على مخطوط ذكرياته الذي شارف على الانتهاء، وكأنه يستأمن على أعز ما يملك، وهو لا يتردَّد في لقاءات خاصة معه في الكشف عن عمره الذي يسبح في أطراف شواطئ الثمانين، وفي سرد قصة طفولته الصعبة التي أمضاها في الشام مع والدته (وضحى الحجيلان ابنة عم والده) وكيف عانى وإخوته وأخواته بعد وفاة والدهم في عام التحاقه بأول عمل له في وزارة الخارجية، و أنه قبِل العمل في الخارج بسبب مزايا للعمل الدبلوماسي كانت تعينه على تلك المسؤوليّات، مما هو مفصّل في مذكّراته المخطوطة شبه المكتملة.

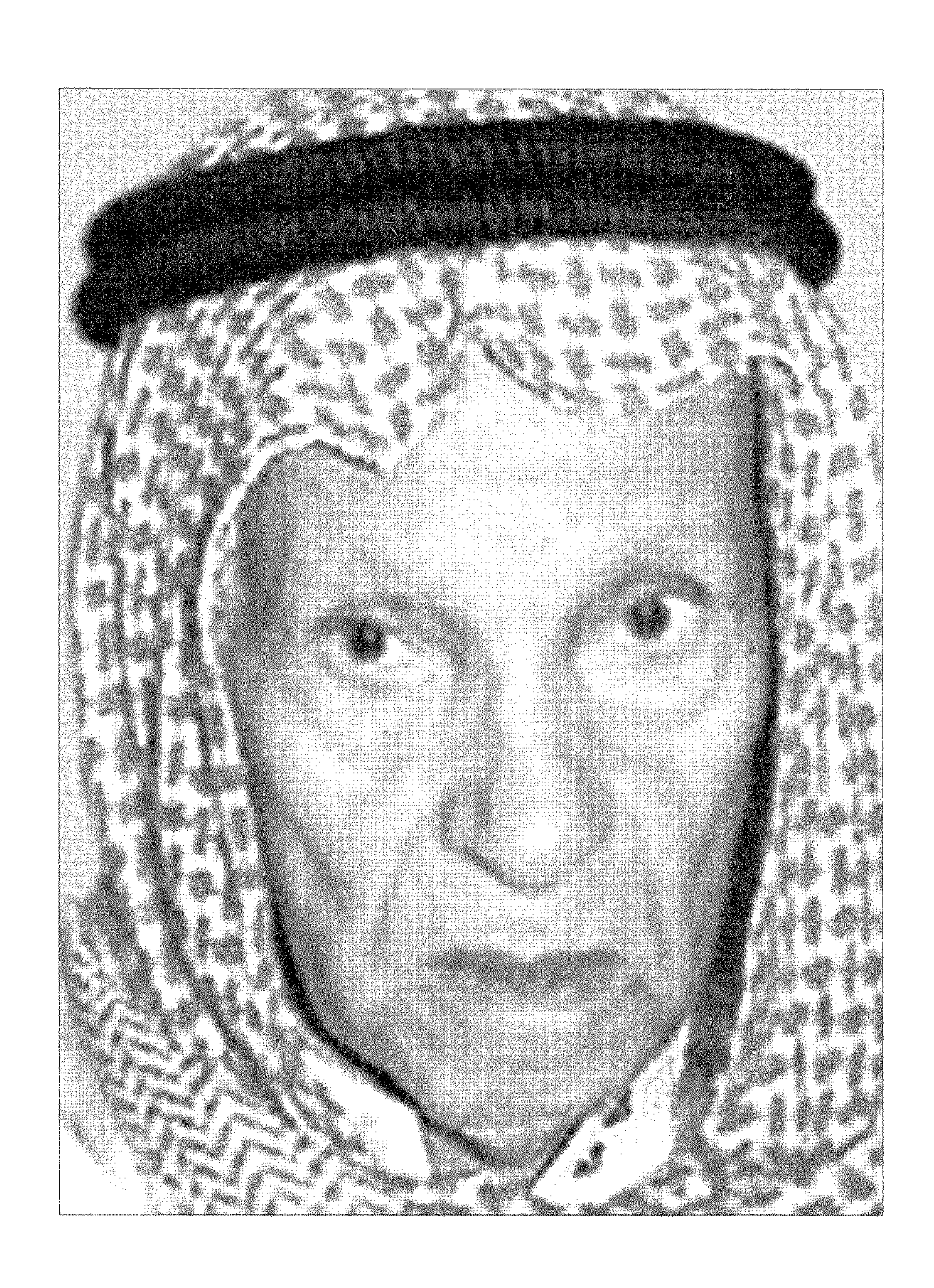
وبعد، إن المقام لا يتّسع لسرد الذكريات والمواقف مع الشخصيّة المكرّمة، فمحل ذلك سيكون في موقع آخر بإذن الله، واليوم، يثبت هذا المنتدى الرصين كما فعل في دوراته الست السابقة، أنه بعد جهد وتأمّل يختار شخصيّة العام بعناية، فهذا التكريم ينطبق عليه قول أبي العتاهية: لم يكُ يصلحُ إلا له، والمكرّم بجدارته المستنيرة وبكفايته وإبداعاته النوعيّة وبفكره الراقي، أهل لتكريم وطني أشمل سبقت إليه فطنةُ منتدى الغاط، تكريمٍ أتى «منقاداً» بكل الاحترام لمؤسّس الإعلام الحديث وصانع عصره الذهبي المجيد، الإعلام الذي نرجو أن يتكرّر نوعيّاً بأفضل صيغة تليق بهذاالبلد العظيم.

(٢٦)

عبد الكريم الجهيمان

قــرنٌ من التنويـــر

(*) بمناسبة تكريمه في مهرجان الجنادرية (٢٠٠٨م) ثم نُشرت غداة وفاته، الشرق الأوسط، السبت ٧ محرم ١٤٣٣ هـ، ٣ ديسمبر ٢٠١١م، العدد: ١٢٠٥٨.



شخصية أدبية مرحة، عاشت حياة بسيطة عصامية، مارس التعليم والصحافة، وجمع التراث الشعبي، وعالج مشكلات المجتمع بأسلوب جريء مستنير.

ظهر في بيئة معدمة في وسط المملكة العربية السعودية، في قرية نجدية، لا تختلف عن غيرها من بلدات الإقليم المحرومة من أبسط ضروريات الحياة، غذاؤها التمر واللبن والقمح، وفي محيط اجتماعي كانت «سواني» السقيا والتراث المعماري الطيني أفضل إبداعاته، غير أن الجهيمان برز واحداً من أفراد في محيطه يعدّون على الأصابع، تميّزوا بذهن منفتح يتقدمون عصرهم بعشرات السنين، وكانت تلك الظروف المعيشية القاسية شبيهة بتلك التي عاشها كل معاصريه من المثقفين النجديين، من أمثال حمد الجاسر وعبدالله بن خميس ومحمد العبودي، بل إنها الظروف نفسها التي مرّ بها أهل وسط الجزيرة العربية من بادية وحاضرة، حتى ظهور البترول منتصف القرن الماضي.

خرّج هذا الإقليم (الوشم) وعلى الرغم من قساوة الظروف المعيشية العصّية على الوصف والتحمّل، عشرات المشايخ والفقهاء الذين انتشروا في سائر الأقاليم المجاورة، وأعداداً من كبار رجال الأعمال المعاصرين،

وكان الجهيمان، الأديب والصحافي والتراثي، أحد أبرز المثقفين الذين أنجبهم هذا الإقليم، حيث ولد عام ١٩١٢م في بلدة القراين القريبة من شقراء (قاعدة الوشم)، التي تبعد مائتي كيلومتر شمال غربي العاصمة الرياض.

وقبل الاسترسال في بسط سيرته، نعرض لأبرز الكتب التي تناولت حياته وتراثه، ويأتي في مقدمتها كتابان ألّفهما صديقه الباحث محمد عبد الرزاق القشعمي، الذي لازمه في العقود الأخيرة، واهتم بجمع نوادره وإرثه الفكري، وكل ما كتب عنه من مقالات أو دراسات، حتى عُدّ مرجعاً أوليّاً عن الجهيمان وتراثه الثقافي، والمؤثّرات النفسية والاجتماعية في تكوين شخصيته.

الكتابان بعنوان: «الجهيمان.. سادن الأساطير والأمثال» (٢٠٠١م)، و «الجهيمان: رحلة العمر والفكر» (٢٠٠٨م).

وكان ناصر محمد الحميدي ألّف عام ١٩٩٣م أول كتاب صدر في سيرته: «الجهيمان.. رحلة أبي سهيل»، ثم جاء من بعده كتاب يتحدث عن تداعي الواقع في الحكايات، ويتخذ من أساطير الجهيمان نموذجاً، لمؤلفه عبدالله محمد العبدالمحسن (٢٠٠٥م)، فهذه الكتب الأربعة تغطي كل جوانب أدبه وسيرته، بما يغني عن تكرار ما فيها، وكنت قد كتبت مقالاً عنه بعنوان: من سلاح الهجانة إلى الأدب والصحافة،

الجزيرة، العدد ٩٠٦٠ في ١٥/٣/١٤١٨هـ (١٩/٧/١٩٩٧م).

اجتاز الجهيمان مفازات محيطه وتخطى أشواك دربه، واتجه في صغره إلى مكة المكرمة، حيث الانفتاح الثقافي، وحيث المكتبات ودور العلم، وحيث منارة الإشعاع والمعارف (الحرم الشريف)، وحيث يجد ما يكتسب منه، ويسد رمق أسرته، ويشبع نهمه في القراءة، فالتحق بسلاح الهجّانة نهاراً وبمدارس مكة المكرمة ليلاً، حتى إذا ما شدا طرفاً من العلم والثقافة، وخالط طلبة العلم، اتجه إلى مدينة الدمام على ضفاف الخليج وهناك بادر إلى إنشاء أول مطبعة وأول صحيفة أهلية في المنطقة الشرقية من السعودية (أخبار الظهران ١٩٥٤م)، أي أنه حذا حذو صديقه العلامة حمد الجاسر قبل ذلك التاريخ بعامين في الرياض.

ثم بدأ يرصد، بإصداراته التراثية (المتسلسلة في عشرة مجلدات) ما نطقت به الألسن وسجلته المسامع من أمثال وحكايات وأساطير شعبية.

لكنه، وبسبب آرائه التي تجاوزت عقلية من حوله، تعرض للتضييق، وصحيفته للإغلاق، ثم يأذن الله بعد فترة من الزمن، أن يتحوّل كل ما عده المناهضون لأفكاره بِدَعاً من القول، سنناً في زمننا هذا، بل فرائض وواجبات، وبخاصة ما تناول فيها قضايا تعليم المرأة.

قال عنه دكتور غازي القصيبي (صديقه وشبيهه في الكنية أبوسهيل):
«يجيئنا الجهيمان محمّلاً بأساطير الجزيرة كلها، حتى لتحسبه أسطورة من حكاياتها، ويروي لنا مَثَلاً بعد مَثَل لتظنه بشخصه صار مثلاً سائراً يردده السمّار، هذا الفتى الشيخ، بعباءته التي تحمل عطر العرار، ووجهه المنحوت من صخور نجد، وحياته التي زرعت الورود في قلب الشوك، هذا الفتى الشيخ أبو سهيل ذخيرة من ذخائرنا الوطنية» (٢٠٠٠م).

وهكذا كانت رحلته الطويلة مع الفكر والكلمة، تسترعي الأنظار منذ صدور جريدة «أخبار الظهران» المعروفة بجرأتها في الطرح من خلال المقالات التنويرية التي تعالج مشكلات اجتماعية تقف في طريق التنمية، وكانت الجريدة تخص قضايا المجتمع العمالي في شركة الزيت العربية الأميركية في الظهران (أرامكو) بالكثير من الاهتمام والشفافية.

أما بالنسبة لمؤلفاته - التي تصدّرتها الأساطير الشعبية وجمعها في خمسة مجلدات، والأمثال التي رصدها في عشرة أجزاء - فقد بلغت نحو عشرة كتب من بينها: «دخان ولهب»، و«أين الطريق»، و«آراء فرد من الشعب»، و«دورة مع الشمس»، و«أحاديث وأحداث»، و«مذكرات وذكريات من حياتي»، و«رسائل لها تاريخ»، وهي كتب تحمل أبرز ما نشره من مقالات منذ أن بدأها في الأربعينات من القرن الماضي أثناء

إقامته ودراسته في مكة المكرمة، والكتب على الرغم من قِدَم محتوياتها فإنها ما زالت تنبض بالحيوية إذا ما عرفنا الأزمان والظروف التي كتبت فيها.

كما تتضمن قائمة كتبه عدداً كبيراً من القصص والسلاسل الموجهة للطفل، تحت عنوان: «مكتبة الطفل في الجزيرة العربية»، وتحت عنوان: «مكتبة أشبال العرب».

أما الشعر، فعلى الرغم من تعاطيه وقرضه، وفي فترات مبكرة، وبلونيه الفصيح والعامي (النبطي)، فلم ينشر منه إلا القليل، لعدم اقتناعه بمستواه.

الجهيمان، كان رمزاً من رموز النزاهة، والداعي منذ صغره إلى المثالية، ومحاربة كل صنوف الفساد الإداري التي يعدّها سوسة المجتمعات العربية، يفاجئ المجتمع بعمل أراد أن ينزّه به ضميره من دنس المادة، وليضرب مثلاً في الإيثار والزهد، وليكون قدوة في خدمة الوطن، فنجده وعلى الرغم من تواضع وضعه المالي يتبرع عام ٢٠٠٤م بكل ما يملك لتأسيس مدرسة في إقليم الخرج المجاور للرياض، تسميها وزارة المعارف باسمه اعترافاً بالمثل التي ترسّمها في حياته، وكان قبل ذلك قدّم تبرعاً مجزياً مسهماً في إنشاء مركز الأمير سلمان الاجتماعي في الرياض.

هناك جوانب عدة في حياته اختزلتها هذه الترجمة، ومنها دراسته في مكة المكرمة، وعمله في التعليم، وافتتاحه مكتبة تجارية في الرياض، ورحلاته، لكنها محطات تناولتها بالتفصيل الكتب الأربعة التي صدرت عنه.

لقد كان عبد الكريم الجهيمان، نحيلاً في جسمه، بسيطاً في أسلوب معيشته، عروبياً في نهجه، عزيزاً في قومه، كبيراً في مقداره وتاريخه وشأنه الفكري، وإذا ما عُدّ التنويريون في المملكة العربية السعودية، ومنهم محمد حسن عواد وحمزة شحاتة وأحمد السباعي وحمد الجاسر وعبدالله بن خميس وعبدالله عبدالجبار، فإن اسمه يكتب متمّماً للقائمة، وسيبقى ذكره وتاريخه منهلاً للباحثين في مجال التراث الشعبي، وعلامة في تاريخ الطباعة والصحافة في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

(٢٧)

د. عبدالعزيز بن ناصر المانع (*)

عاشق المخطوطات

(*) بمناسبة منحه جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب، الشرق الأوسط، العدد ١١٠٧٨ في ١/٤/١٤٣٠هـ (٢٨/٣/٢٠٠٩م).



احتفت الندوة الأسبوعية للعلامة حمد الجاسر يوم ٢٠٠٩/٣/٥م بالرياض بفوزه هذا العام بجائزة الملك فيصل العالمية في مجال اللغة والأدب للعام ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م وموضوعها «تحقيق المؤلفات الأدبية الشعرية والنثرية المصنّفة بين القرنين الثالث والسابع الهجريين»، ليس لكونه فحسب أحد تلامذة العلامة، الملازم له أثناء حياته، واللّصيق بتراثه، ولكن لأنه المحقق المثابر الذي استحق الترشيح للجائزة عن جدارةٍ وعصاميّة وتأهيل، وكان الاحتفاء في عدد الحضور وعمق الدراسات المعدة للمناسبة تعبيراً صادقاً عن ابتهاج روّاد الندوة (الأسبوعية) بفوز مدرسة الجاسر نفسها، وعُدّ تكريماً متجدداً لتراثه ونهجه العلمي في تحقيق التراث، ولموقعه العلمي في خدمة الثقافة العربية، مُمَثَّلاً بأحد تلاميذه.

كان من عادة الجاسر (المتوفى عام ٢٠٠٠م) أن يخصص ضُحى أحد الأيام «ضحويّة» للالتقاء بمحبيه ومريديه والباحثين، فحرص تلاميذه من بعده ومن بينهم د. المانع على أن يستمر صالونه الأدبي هذا في موعده ومكانه في منزله (دارة العرب) وفق تقليد الجاسر، تُقدم فيه محاضرات متنوعة الحقول، وترصد موضوعاتها في مجلة دورية.

في تلك الندوة، تبارى فارسان من أركان المنتدى، وهما د. أحمد الضبيب (رئيس تحرير مجلة العرب الذي خلف الجاسر في تحريرها، مدير جامعة الملك سعود سابقاً، وعضو مجمع اللغة العربية في القاهرة) والدكتور محمد الهدلق (أستاذ الأدب العربي في تلك الجامعة، وعضو مجلس أمناء مركز الملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية) تباريا في الحديث بورقتين عن جهود المانع في البحث والتحقيق، فكان مما ذكره د. الضبيب أن الاهتمام بكتب التراث قد بدأ في إقليم الحجاز في مطلع العهد السعودي منتصف العشرينات من القرن الماضي، وقد برز من رواده باحثون من أمثال رشدي ملحس وحمد الجاسر وأحمد عبد الغفور عطار ومحمد أحمد العقيلي وأسعد طرابزوني الذين التزموا خط المحقّقين الأوائل وصنيع الناشرين القدماء في تصحيح النصوص وتحريرها ومقابلة النسخ وإضافة بعض الهوامش.

وبعد أن بدأت البعثات إلى الجامعات الغربية تؤتي ثمارها في الستينات الميلادية، ظهر جيل جديد من الأكاديميين الذين التزموا المنهاج الحديث في التحقيق، وكان منهم د. حسن الشاذلي فرهود و د. عبدالعزيز الخويطر ود. أحمد الضبيب ود. حسن باجوده، فلقد حملوا معهم المنهجية العلمية الصارمة، كما تعلموها في جامعات الغرب، وكان من أمثلة ما حُقق من كتب على أيدي هؤلاء المحدثين كتاب الإيضاح العضدي (١٩٦٩م) وتاريخ الشيخ أحمد المنقور (١٩٧٠م) وكتاب الأمثال

لأبي فيد السدوسي (١٩٧٠م) وديوان عبدالله بن رواحة الأنصاري (١٩٧٢م).

وبعد أن شهدت الثمانينات تطوراً ملحوظاً في المؤسسات البحثية داخل الجامعات، وإنشاء مكتبات مركزية عنيت عناية خاصة بالمخطوطات وكتب التراث، ظهر جيل جديد نبغ في صناعة تحقيق التراث، كان من أبرز أمثلته شخصية هذا المقال (د. المانع) الذي بدأ رحلته مع البحث والتحقيق في أطروحة الدكتوراه من بريطانيا (١٩٧٧م) وهي بعنوان: «ابن باطيش الموصلي وكتابه: غاية الوسائل إلى معرفة الأوائل، دراسة وتحقيق» وقد أخذ المانع بنصيحة المشرف البريطاني البروفسور جونستون على أطروحته، بالانخراط بمجرد عودته في العمل البحثي، والعمل على نشر أول عمل (تحقيق) له حتى ولو لم يكن راضياً عنه، فكان أن استهل نشاطه البحثي المنشور عام ١٩٨٢م بنشر كتاب (المنتخب من كتاب الشعراء) لأبي نعيم الأصبهاني (المتوفى عام ٤٣٠هـ) وتحقيق مؤلفه، ونشر في العام نفسه مع الدكتور وليد قصاب تحقيق كتاب (الأفضليات) لابن الصيرفي (المتوفى عام ٥٢٥هـ) ثم يسرد د. الضبيب قائمة النشاط التحقيقي الذي عكف د. المانع على إنجازه حتى هذا العام (٢٠١٦م).

أما ورقة د. محمد الهدلق، فقد ركزت في بدايتها على السيرة الدراسية والعملية لشخصية المقال، التي بدأت منذ ولادته في مدينة شقراء (قاعدة

إقليم الوشم غربي الرياض) مروراً بتخرجه (الأول في دفعته) في كلية اللغة العربية بالرياض، وانتهاءً بدراسة الدكتوراه في جامعة إكستر (١٩٧٧م)، وقد رصدت الورقتان جهوده في تحقيق التراث خلال العقود الثلاثة الماضية التي بلغت أكثر من خمسة عشر عملاً، كان من أواخرها تحقيق كتابي (قشر الفسر) لأبي سهل الزوزني و (الفسر الصغير) لابن جنّي اللذين حققهما خلال العامين الماضيين.

ثم ألقى د. الهدلق الضوء على بعض الجهود البحثية للدكتور المانع، وكان منها تحقيقه لصحة وفادة الشاعر الجاهلي الأعشى على المصطفى عليه الصلاة والسلام (والأعشى بالمناسبة من بلدة منفوحة التي تشكل جزءاً من الرياض حالياً) وهي الوفادة التي أفرزت قصيدته المشهورة:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا

وعادك ما عاد السليم المسهّدا

كما كان منها تحقيقه لقصيدة (الوصية) للأعشى، التي تقول:

ذريني لك الويلات آت الغوانيا

متى كنت زرّاعاً لسوق السوانيا

فلقد بذل د. المانع جهداً تحقيقياً أصيلاً أثبت فيه صحة نسبة القصيدتين للأعشى.

والدكتور المانع، الذي تسلم الجائزة، شخصية ودودة، لا تنفك روحه عن الدعابة، ولا تخلو جُعبته من أطرف الطُرف، رقيق المعشر، يتوارى عن المظاهر ولا يجيد التباهي في المحافل العامة، ولا الجلوس في الصفوف الأمامية، وهو يؤمن بأن الكتاب هو الإرث الحقيقي المُخلِّد لذكر المثقف متى ما صدر عن جهد أصيل، فثبتت صحة مقولته، وهو اليوم يتناول جائزة التميّز في البحث والتحقيق والتراث، والعمل الدءوب بين أرفف المكتبات عن عشق، وصدق د. الضبيب إذ يقول: «**إن الاحتفاء بالمانع يُعدّ احتفاءً بحركة تحقيق التراث في السعودية، وبجهود المحققين الذين مارسوا هذه المهنة عن شوق ومحبة، و د. المانع واحد منهم**».

مؤخراً، احتفى المجتمع الثقافي السعودي بالباحث والمحقق الجاد (أ. د. عبدالعزيز بن ناصر المانع) الذي استحدثت جامعته كرسيًّا باسمه بمناسبة فوزه، وينتظر بشغف مشروعيه الكبيرين؛ تتبّع طريق هروب المتنبي من مصر إلى العراق وتحقيقه جغرافياً وشعرياً، وإعادة تحقيق «معجم ما استعجم» لأبي عبدالله البكري الأندلسي، بالاشتراك مع عميد الجغرافيين في شبه الجزيرة العربية الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم.

إن تحقيق التراث والتعامل مع المخطوطات عمل مضنٍ، فيه الكثير من العناء والتحمل، ومغالبة النفس على الصبر، وبدأ يحتل في العقود الثلاثة الماضية المقعد اللائق به في الجامعات العربية، اعترافاً وإنفاقاً

ومكانة في المكتبات، ونصيباً من أطروحات الدراسات العليا، ومن الجوائز الثقافية المرموقة.

أما كرسي د. المانع في جامعة الملك سعود، الذي تأسّس في أعقاب فوزه بالجائزة (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) فحُدّد هدفه بتشجيع البحث والدراسة في علوم العربية وآدابها، وبنشر البحوث المعمّقة، عن طريق تحقيق المخطوطات، وعقد الندوات، وطبع الكتب والدراسات، وقد أنجز في السنوات السبع الأولى من إنشائه أكثر من خمسة وأربعين مشروعاً بحثيّاً وتأليفيّاً، وأقام نحو خمس وأربعين ندوة ودورة وشراكة بحثية ورحلة علمية، كما أمدّ مكتبة الجامعة ـ على مراحل ـ بعشرات الآلاف من المخطوطات والمصوّرات.

(٢٨)

د. عبد الرحمن الطيّب الأنصاري (*)

مكتشف الفاو

(*) الشخصيّة المكرّمة في منتدى عبدالرحمن السديري للدراسات السعودية، الجوف: الأربعاء (١٤٣٤/١/٨ هـ ٢٠١٢/١١/٢١م).



من بين الندوات التي عقدها منتدى عبدالرحمن السديري للدراسات السعودية في الجوف والغاط في سنواته الماضية، يأتي لقاء هذا العام سهلاً في اختيار موضوعه، يُسراً في انتقاء الشخصية المكرّمة، وزاد هذا اليسر بهاءً أن جاء اقتراحُ الموضوع من أحد أبناء منطقة الجوف النجباء[1]، فما كان المنتدى ليتردّد في اختيار الموضوع وهو يدرك أن البلاد بوجه عام ومنطقة الجوف بوجه خاص، تؤكّد البعد الحضاري للمملكة العربية السعودية، وهي تختزن على بسيطتها وفي جوفها أعرقَ مستودع أثري في الجزيرة العربية، يُقدره الأثريون بآلاف السنين، إذ تدل الحفريات والشواهد على أن دومة الجندل كانت أحد مواطن حضارة الأشوريين منذ القرن العاشر قبل الميلاد، وعهد البابليين منذ القرن السادس قبل الميلاد، أما الشويحطية فيعدّها الباحثون أقدم المستوطنات البشرية في غرب آسيا منذ العصر الحجري القديم، حيث يُقدّر تاريخها بمليون عام على عُهدة الرواة.

وما كان لهيئة المنتدى أن تتردد أيضاً في إقرار العنوان الفرعي للندوة في مجال الآثار (إنقاذ ما يمكن إنقاذه) وهي تعلم أننا ربما تأخرنا كثيراً

---

(١) د. عبدالواحد الحميد.

في الاكتشاف والتنقيب والحفريات والدراسات، بل وفي حماية الآثار واسترداد ما نُهب منها عبر القرون، وأننا سائرون كذلك ببطء في عرض ماتم اكتشافه في متاحف المناطق، وفي تنظيم المحميّات الأثرية وصونها وتوفير المرافق وتيسير وصول المواطنين و السواح والدارسين إليها.

في هذا المنتدى، تتكاشف مجموعة من أميز المتحاورين والمؤرخين والباحثين حول وضع الآثار، وتبثّ الشويحطية ودومة الجندل ومدائن صالح وجواثا والأخدود والربَذَة والفاو وغيرها شكواها وآمالها وتطلعاتها من خلال كلمات صريحة وأفكار صادقة، ينقلها المنتدى للمسؤولين كعادته بعد كل دورة.

وفي هذه المناسبة أيضاً، يكون للجوف ولهذا المنتدى، سبقُ تكريم عالم وطني هو الدكتور عبدالرحمن الطيّب الأنصاري، كرّس حياته لاستكمال ما بدأه علماؤنا الأوائل، وأسس في الجامعة أكاديمية حديثة لعلم الآثار، وقاد حملات علمية وطنية منظمة للتنقيب حتى اقترنت الفاو باسمه، وأسهم إسهاماً مميّزاً ومقدّراً في خدمة آثارالجوف بخاصة من خلال بحوثه، وعبر تنظيم ندوات أدوماتو ومجلتها الدورية التي تصدر عن مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، وأثرى المكتبة السعودية والعربية بالعشرات من المؤلّفات والأبحاث، لعل من آخرها تلك السلسلة التي تتبّع فيها قرىً ظاهرة على طريق قوافل البخور المعروف بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها، صدر منها أحد عشر كتاباً بمختلف اللغات، من بينها

كتابه عن الجوف الصادر عام ٢٠٠٨ م، وقد تتوّجت تلك السلسلة بالآية الكريمة ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ (سبأ: ١٨).

وكان للأنصاري تفنيد مستقل للعديد من الروايات الشعبية المتوارثة المتصلة بالآثار في شمال الجزيرة العربية وجنوبها، حتى صار اليوم مرجعاً معتبراً لعلم الآثار، يؤخذ برأيه بكثير من التسليم والاحترام، وسنداً علميّاً لهيئة السياحة والآثار في عملها المعرفي والتوثيقي والثقافي.

اغترف الدكتور الأنصاري أساسيّات العلوم الشرعية من مَعين والده محمد الطيّب الأنصاري المدرّس في الحرم النبوي الشريف، وتلقّى تعليمه المبكّر في مدارس المدينة المنورة، وتأثّر بمنهج ابن عمته العلامة الموسوعي عبدالقدوس الأنصاري، ثم صار قيّماً على إرثه وبخاصة مجلة المنهل التي صدرت قبل ثمانين عاماً في المدينة المنوّرة، ودرس اللغة العربية في جامعة القاهرة، ثم أكمل الدكتوراه في التاريخ في جامعة ليدز (١٩٦٦م)، وكان من الدفعات الجامعية المبكرة التي عادت تحمل الدكتوراه، وكوّنت نواة التدريس في الجامعات السعودية.

واليوم إذ يكرّم منتدى عبدالرحمن السديري للدراسات السعودية هذا العَلَمَ العلمي البارز، فإن الأنصاري في الواقع، أهل للتكريم في أكثر من صعيد، ويكفي أن يُقال إن «شيخ المتقاعدين» لم يُلقِ عصا الترحال بتقاعده، بل ظل يسير في الأرض بهمّة، يحمل عصاه بأفضل ما يكون

عليه التقاعد من نشاط ذهني وبحثي، حيث يشارك في العديد من المجالس واللجان والنشاط الاجتماعي والاستشاري والخيري، وأسس بمجرّد تفرّغه من عضويّة مجلس الشورى عام ١٩٩٩م دار القوافل للبحث والنشر في ميدان الدراسات التاريخية والحضارية والأثرية، التي أصدرت حتى الآن ما يزيد على عشرين كتاباً وعشرات المطويّات التعريفية في مجال تخصّصها.

وبهذه الندوة، يجتاز منتدى عبدالرحمن السديري للدراسات السعودية دورته السادسة، ضمن فعاليات تُعقد سنويّاً بالتناوب بين الجوف والغاط، وهو أي المنتدى أكثر سروراً بالتجاوب الكبير الذي يحظى به على مستوى المملكة، وبالتفاعل الذي يلمسه من المجتمع الثقافي، وبالقبول الذي يحسّه من المواطنين والمسؤولين كافة، ولا يسعه اليوم إلا أن يتقدّم بالشكر لكم لحضوركم، وللمشاركين جهودهم، وللمسهمين في التحضير له إتقانهم، ونسأل الله أن يحفظ هذه البلاد وقيادتها، ويصون لها وحدتها، وأن يديم عليها نعمة الأمن والاستقرار والرخاء.

(٢٩)

د. أحمد الضبيب (*)

سادن العربية

(*) ألقيت يوم الخميس ١٤٣٤/١/٢٢هـ (٢٠١٢/١٢/٢٦م) في مجلس حمد الجاسر، بمناسبة تكريم د. أحمد الضبيب من قِبَل مركز حمد الجاسر الثقافي، نُشرت في مجلة الجزيرة الثقافية، العدد ٣٨٨ في ١٤٣٤/١/٢٢هـ (٢٠١٢/١٢/٦م).



لعلّ مجتمعنا لم يعرف في حدود من عَرَفَ، أكاديميين سعوديّين أحياء متخصّصين، أخذوا على عاتقهم سدانةَ اللغة العربية وخدمتَها والحفاظَ عليها والدفاعَ عنها، مثلما هم نفرٌ قليل بيننا اليوم، منهم وربما في مقدّمتهم، زميلُنا أبو عمرو، الذي ينتفض غيرةً وثأراً من كل من ينال منها، أو يقلّل من فوقيّتِها وتفرّدِها، بوصفها لغةَ العرب التي اختارها الله وِعاءً للقرءآن الكريم.

إن كثيراً من المتخصّصين في الأدب العربي وفروعه يُتقنون اللغة نظريّاً، وأحسِب أن أغلبهم ينتبهون حين تلحن بعضُ الألسن والخُطبُ بها، وإن كان يوجد بيننا من تفوت عليه بعض مواقع الإعراب، فتصحبه الأخطاءُ أينما سار وفي أي مقام تحدّث، أما المعنيُّ بهذه الكلمات، فإن اللغة العربية تجري في عروقه بعفويّة، وتمرّ على لسانه بطلاقةٍ وسلاسة، والأهم من ذلك أنه ينتصر لها من أن تُظلمَ أو تمسَّ كرامتُها أو تهان.

هو كما أشرت، وبحكم تعمّقه وتخصّصه واهتمامه، يقف في صفٍّ متقدم من حرّاس العربيّة بين علماء هذه البلاد المدافعين عن استخداماتها في اللغة المحكيّة في الحياة العامة، وفي التعليم وفي

الاقتصاد، وهو في اجتهاده هذا لا يتنطّع في استخدامها، ولا يُعجِز سامعيه بغريب الألفاظ الفصحى، وهو مرجع في أصولها واشتقاقاتها وإعرابها.

وإن اختيار مركز حمد الجاسر الثقافي له لرئاسة مجلس الأمناء ولخلافة مؤسسها الراحل في رئاسة تحرير مجلته الأثيرة لديه «مجلة العرب» وهي التي عُرفت بعنايتها بلغة العرب وآدابهم وتراثهم لم يأت من فراغ، بل إن رئاسته للجنة العلمية التي تنظر في سياسة النشر في المركز، وتحدّد المطبوعات الجديدةَ بالنشر والإصدار من قِبل دار اليمامة للتأليف والترجمة والنشر، قد ضَمِنَ للدار أن تسير على خطى العلّامة المؤسس، وأن تنفّذ مقاصده في إنشائها قبل نحو خمسين عاماً.

د. الضبيب، الذي يُعدّ اليوم أحدَ أبرزِ علماء العربية في هذه الجزيرة، ممّن نفخر بسجلّهم في الدفاع عن اللغة، هو عضو عامل في مجمع اللغة العربية بالقاهرة في الكرسيّ الذي كان يشغله شيخنا الراحل حمد الجاسر، وعضو مراسل في مجمع دمشق الذي يخصّص العضويّةَ العاملة فيه للسوريين، وعضو مؤازر في المجمع العلمي العراقي، وعضو أكاديمية المملكة المغربية، وعضو مؤسسة آل البيت في الأردن، وعضو في مجالس أخرى لا يتّسع المقام لتفصيلها، وكم نتمنّى أن نراه قريباً على سدّة مجمع اللغة العربية الذي ظلّت بلادنا تترقّب إنشاءه منذ أعوام.

ما يميّز جهود أبي عمرو في صون العربية من طغيان الرطانة والعجمة، ومن خطر ظهور لغة مستغربة بين الشباب - خاصةً بالتواصل عبر الجوّال بدأت تكتسح حياتهم العامة - أنه يصدع برأيه في وسائل النشر والمنتديات، في كل مرة يحس فيها أن اللغة العربية تتعرّض للغزو في عقر جزيرتها وموطنها الأصل، فجاهد عبر مقالاته ومحاضراته ومؤلفاته بكل ما قَدِر عليه من وسائل المرافعة والإقناع، بضرورة أن تكون اللغة العربية في مهدها فوق كل اللغات منذ الصغر، وفي التعليم العام والعالي وفي الاستخدامات العلمية، دون أن يصادر حقّ من يريد تعلّمَ لغات رديفة أخرى وإجادتها بعد لغته الأم.

ومن بين مناشطه وكتاباته الثقافية المتعددة عبر أربعة عقود خلت، يحظى هذا المحور باهتمام خاص منه، ولعلّ مقالَه المنشورَ في جريدة الرياض عام ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م) بعنوان: الفصحى في بلاد الفصحى، كان أول مقال خصّصه لهذه القضيّة التي صارت تشغل جلّ تفكيره، وتضمّنت القائمة الوِراقيّة عناوين هادئة لمضامين هادرة، لكتابات تجاوزت سبع عشرة مقالة، وثلاثة عشر بحثاً ألقى بعضها محاضراتٍ في المحافل والصالونات المحلية والعربية، كمؤسسة الفكر العربي، ومؤتمرات مجامع اللغة العربية، وجائزة المدينة المنوّرة، وندوة مجلة العربي في الكويت، وجامعة الملك سعود، والنادي الأدبي في القصيم، ومنتدى الوفاء (الرفاعي باجنيد) في الرياض وغيرها، وقد اختارت مشاركتي هذه نقولات من

نموذجين من كتاباته، كي تتبيّن المرتكزاتُ التي ينطلق منها:

في عام ٢٠٠١ م، أصدر كتابه الموسوم: اللغة العربية في عالم العولمة، وفيه جملةً من الأفكار والموضوعات التي كتبها منافحاً عن شرف اللغة العربية، ومطالباً بإحلالها المكانة التي أحلها بها القرآن الكريم، وفي عرضٍ وافٍ عن هذا الكتاب في المجلة العربية، ظهر في ذلك العام، أستخلص الفقرات التالية:

«أضحت اللغة العربية في مواجهة العولمة همّاً مؤرِّقاً يشغل بال الغيورين على اللغة والثقافة والهويّة الحضارية للأمة العربية، وذلك من الإدراك الواعي بجسامة التحدّيات التي يحملها الزحف العولمي وخطورتها على وسائل الإعلام، وعلى التعليم و سوق العمل، وعلى مستوى النُّخَب في المجتمع، وقد دفع هذا الإحساس بالخطر عدداً من الغيورين على اللغة العربية والمهمومين بهُويّة الأمة الحضارية، إلى التنادي عبر الدراسات والمقالات وغيرها، تدقّ ناقوس الخطر لتنبيه المسؤولين والمثقفين والمبدعين، وفئات المجتمع العربي المسلم إلى الخطر الذي يتهدّد اللغة مصدرَ الهُويّة ومظهرَها، في ظل الزحف العولمي مبشّراً بزوال الحدود الطبيعية والمعنوية وسيادة الفلسفة الرأسمالية والثقافة الغربية».

ثم يقول العرض: «إن كتاب الدكتور الضبيب (اللغة العربية في عصر العولمة) هو صرخة نذير، تحمل حلولاً واقتراحاتٍ علميةً وعمليةً

لحماية اللغة العربية وتطويرها، وتكريس السلوك اللغوي الفصيح، للتخاطب والإبداع والحفاظ على الهُوية العربية».

يسعى المؤلف كما يقول العرض: «**إلى الخروج من الدراسات التبجيلية للغة وتلك التي تناولتها في التراث القديم ثم أعادت إنتاجها، إلى دراسة الواقع اللغوي للفصحى في هذا العصر تمهيداً للوصول إلى نتائج تعمّق الوعي باللغة الفصحى، وتساعد على الاقتراب منها في الكتابة والحديث وتستشرف آفاقها في المستقبل».**

ويحاول المؤلّف كما تقول المجلة العربية تعيينَ مواضع الخلل، ووضعَ بعض العلامات على طريق الاهتمام بالفصحى، لا لكونها لغةَ الدين والثقافة والتراث وعنوان الهُوية وأداةَ التواصل المشتركة بين أبناء الأمة فحسب، ولكن بوصفها أداةً من أدوات الرقي التي لا غنى عنها لأمة تنشد التقدم، مُذكّراً بأن اللغة والدين هما العنصران المركزيّان لأي ثقافة أو حضارة، ومن هنا فإن أي تحدٍ لثقافةٍ ما ينطوي على تحدٍّ للغتها، فهل تواجه العربية تحدياً من هذا النوع في عصر العولمة؟

يجيب د. الضبيب على هذا السؤال بالإيجاب، مؤكداً «**أن اللغة تواجه تحدياتٍ شرسةً من قِبَل قوى المصالح المادية الناجمة عن الاتصال بالأجنبي، ومن التأثير الإعلامي القائم على الصخب والضجيج والتبشير باللغة الإنجليزية على أنها اللغة العالمية، بينما لا يزيد عدد المتكلمين بها عن (٦,٧٪) من بين سكان العالم».**

ويرد د. الضبيب هذا الشعور المبالغ به بأهمية اللغة الأجنبية إلى «**الانبهار بكل ما هو أجنبي، وإلى الظن الزائف بأن التقدم لا يأتي إلا عن طريق إتقان اللغة الأجنبية، وهو شعور ناتج عن الهزيمة النفسية التي يعاني منها العربي، والإعجابِ بصانع الحضارة الغربية الذي يمثّل المنتصر والغالب في هذا العصر**».

ويشرح مؤلفُ الكتاب الواقعَ اللغويَ بدءاً بتداول الألفاظ الأجنبية في الأوساط الاجتماعية، وعلى لافتات المحلات، وفي مراسلات الشركات والمؤسسات، واشتراطات سوق العمل عند اختيار العاملين، مؤكداً «**أن اشتراط إجادة اللغة الإنجليزية يقف حائلاً الآن أمام المواطن العربي في وطنه دون الحصول على لقمة العيش، ويفتح الباب على مصراعيه للأجانب ليحلوا محله، مما أوجد أزمة لغوية ومَسَخَ لسان المواطن العربي، وامتدت آثاره إلى مجال التعليم، حيث ارتفعت الأصوات تنادي بتعليم اللغة الأجنبية للأطفال منذ نعومة أظفارهم، فوصل الأمر ببعض المدارس إلى تعليم المواد العلمية باللغة الأجنبية.**

ويذكّر هذا الواقعُ الأليمُ بواقع المشرق والمغرب العربي تحت الاستعمار، وما تمّ من محاولات لمسخ التعليم وطمس الهُوية العربية في دول المغرب العربي، وفي بعض بلدان الخليج».

ويناقش الكتاب دعاوى القائلين بأهمية تعليم اللغة الإنجليزية للصفوف الأولى من التعليم العام، وتدريس العلوم بها في الجامعات،

واللغة الإنجليزية وسوق العمل، واللغة الإنجليزية والمجتمع، واللغة الإنجليزية ومقياس التقدم.

ويفنّد المؤلف دعاوى القائلين بهذا بحجج منطقية ودلائل علمية بل وتجارب واقعية ناجحة، ويضرب المثل هنا بمصر التي احتفظت بلغتها العربية بفضل يقظة أبنائها المخلصين، وحققت كثيراً من التقدم يفوق عديداً من الدول الأفريقية التي خلف فيها المستعمر لغته.

وعلى المستوى العالمي، يضرب المثل باليابان التي حققت نهضة علمية عجيبة، على الرغم من الضعف الشامل الذي تعانيه اللغة الإنجليزية بين اليابانيين، ومعنى هذا أن اللغة الأجنبية لم تكن عاملاً رئيساً في نهضة اليابان الحضارية، ثم يقول:

«لقد أدّى تهميش اللغة الفصحى في حياتنا إلى التخلف الفكري والعلمي، وهي التي كانت على مرّ العصور وسيلة الإدراك والنقل للأداب والعلوم المختلفة، وعندما هُمّشت في حياتنا تراجعت قدراتنا الثقافية والعلمية، وتضاءلت لدينا القدرة على الابتكار والإبداع.

ولكي يتم تفعيل اللغة الفصحى من جديد لتأخذ مكانها الطبيعي في المشروع النهضوي، يقترح د. الضبيب وسائل ثلاث:

١ـ بث الوعي المجتمعي بأهمية الفصحى وإحيائها بين الكتّاب والمحدثين.

٢ـ إصدار القرارات السياسية التي تحفظ للغة مكانتها في المجتمع وتجعلها فاعلة فيه.

٣ـ توجيه الاهتمام نحو الدراسات المنظمة والمستوعبة والمنهجية لدراسة واقع اللغة العربية، ومعرفة المزاج اللغوي العربي المعاصر، واستخلاص القواعد التي تخدم الاستعمالات الفصحى المعاصرة.

ويضع د. الضبيب مسؤولية كبرى على الإعلام العربي بمستوياته وأجهزته ومسؤوليه، ويطالبه بتعزيز مكانة اللغة الفصحى في النفوس، كونها لغة المستقبل، وبإفساح مزيد من الوقت للفصحى وتقديمها في ثوب قشيب يغري على متابعتها، ورصد الأموال للترويج إعلامياً للفصحى والتعريف بها، وبإصدار التشريعات والأنظمة التي تحمي اللغة وتصونها من مزاحمة اللغات الأجنبية لها.

ويقول د. الضبيب: «إن الحديث عن اللغة الأجنبية لا يعني عدم فائدتها، ولا يعني الدعوة إلى الانعزال، وإنما توظيفها بما يناسب حاجة المجتمع، ويضيف: أن أجواء العولمة المنفتحة يمكن أن تعين على إيجاد وسائل وآليات لصالح اللغة، كما يمكنها أن تفيد من الثورة المعلوماتية وبحوث تعريب الحواسب ومستجدات الترجمة الآلية، ويعتقد أن كل المؤشرات تشير إلى أن المستقبل للغة العربية، التي جعلها الله وعاءً لكلمته الباقية إلى يوم الدين ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، وهنا يقدم د. الضبيب بشرىً تقول إن دراسة أجريت في اليابان على اللغات العالمية

تستهدف معرفة أكثرها وضوحاً صوتياً في استخدامات الحاسب الآلي، فأثبتت أن العربية تتصدر هذه اللغات من هذه الناحية....» انتهى عرض المجلة العربية.

وفي العدد ٦٥ من مجلة المعرفة الصادر عام ٢٠٠٩م، ظهر حوارٌ موسّع مع الدكتور الضبيب، نقتطف منه الفقرات التالية:

«فيما يخص القول بأن اللغة العربية لن تقوى ويصبح لها فعالية حضارية إلا بقوة أهلها، لست أظن أن هنالك تلازماً بين قوة اللغة وبين فعاليتها في التأثير الحضاري، اللغة يمكن أن تكون قوية في بيئتها وليس لها ذلك التأثير الحضاري خارج حدودها، اللغة العربية مثلاً كانت قوية في العصر الجاهلي في بيئتها، لكنها لم تكن ذاتَ تأثير حضاري على العالم، والفرعونية القديمة كانت قوية في بيئتها ولم يكن لها تأثير حضاري على غيرها، المشاهد في هذا العصر أن اللغة اليابانية قوية جداً في بيئتها وليس لها إشعاع حضاري خارج إقليمها، ولو بحثت عن كلمة يابانية في اللغة العربية لما وجدت ذلك (إذا استثنينا أسماء السيارات والأجهزة اليابانية وهي أسماء لعلامات تجارية، وليس لها دور في الاستعمال اللغوي خارجٌ عما وضعت له).

نعم؛ إذا قويت الأمة، وسيطرت عسكرياً أو ثقافياً على بيئات واسعة كانت أو ضيقة، فإنها في هذه الحالة يكون لها تأثير حضاري، في عصر شكسبير كان المتحدثون باللغة الإنجليزية لا يتعدى عددهم خمسة

ملايين نسمة، وكانت هذه اللغة محصورةً فيما يسمى بإنجلاند وجنوب اسكتلاندا فقط، ولم تكن دخلت إلى مقاطعة ويلز ولا إلى جزيرة أيرلندا (فيما يسمى بريطانيا الآن)، أما في أوروبا فلم يكن لها وجود بالمرة، ومع ذلك فقد كتب بها أروع أعمال الإنجليز، وهي أعمال شكسبير، فهل كانت اللغة ضعيفة في بيئتها؟ لا.. وإنما كانت محدودة الانتشار، ولقوتها في بيئتها استطاعت أن تستوعب العلوم والآداب وأن يبدع أهلها بها، واللغة الفرنسية في القرن الثامن عشر كانت أقوى تأثيراً من الإنجليزية، فقد كانت لغة الثقافة والفنون ولم تستطع الإنجليزية منافستها في أوروبا على الرغم من بداية القوة البريطانية في هذا العصر واتساع نفوذ الإنجليز السياسي والعسكري، اللغة القوية في مجتمعها (وهذا ما نريده للعربية) هي التي تنقل هذا المجتمع من التخلف إلى التقدم، وتساعد على اتساع نطاق العلوم والثقافة في المجتمع، أما اللغة الأجنبية فإن الاعتماد عليها وإضعافَ اللغة الأم يؤدي بالمجتمع إلى التبعية العلمية والفكرية، وليس وراء التبعية إلا القضاءُ على الهوية، ومسخُ الشخصية، واستمرارُ الضعف والتخلف».

ثم يقول د. الضبيب في الحوار:

«اللغة الأجنبية سلاح ذو حدين: إما أن تتعامل معها بحذر بحيث لا تطغى على لغتك الأم، وبحيث تتخذها وسيلةً لإغناء هذه اللغة من خلال الترجمة، وإشاعة العلوم والمعارف المستقاة من هذه اللغة باللغة

العربية بين أبناء أمتك، وحينئذ تكون قد خدمت نفسك وأمتك ووضعت هذه الأمة على عتبات التقدم، وإما أن تفرض اللغة الأجنبية على الجميع في التدريس والحديث والكتابة، وحينئذ تعزلُ لغتك عن معترك العلوم والتقنية، وتعزلُ أمتك أيضاً، وتصبحُ تابعاً تتلقى مايقذف به إليك الغرب من منتجات دون أن تكون لك إسهامات تنسب إلى أمتك أو تفيدها في الحياة، ثم يقول: أن تدرس وتكتب وتتحدث باللغة الأجنبية معناه أن تتحول إلى (خواجة) غير معترف به من الخواجات أنفسهم، كما أن إسهاماتك كلَّها تنسب لهم (وهذا ما حدث بالنسبة للنابغين العرب الذين نبغوا في الغرب) فكل إسهاماتهم لم يستفد منها إلا المؤسسات والشركات الغربية، وبالتالي عُدّت إنجازاتٍ غربيةً».

«إن تبنّي اللغة الإنجليزية أو غيرها من اللغات الأخرى فى كل مجالات الحياة هو بمنزلة الانتحار الذي تقدم عليه الشعوب المتخلفة دون أن تدري، ويكفي أن تعلم أن كثيراً من الشعوب في إفريقيا وغيرها سادت فيها اللغات الأجنبية وأصبحت لغاتها الرسمية، التي تتحدث بها، وتكتب بها، ظناً منها أنها ستكون جزءاً من هذه الأمة المتقدمة أو تلك، ولكنها لم تحصد سوى التخلف والبؤس والفرقة، بين تابعين لتلك الأمم لا يستطيعون فكاكاً منها، وبين محافظين على الهوية والشخصية».

«ما حدث في كل الحضارات القديمة والمعاصرة أن اللغة الأجنبية قد تصدى لمعرفتها بعضُ العلماء والتراجمة الذين نقلوا ما فيها إلى اللغة

الأم، ثم نشروا العلوم باللغة الأم بين قومهم المحتفظين بلغتهم والمعتزين بها، ومن خلال هذه العملية انتشر العلم في مجتمعاتهم واتسعت آفاقه، واستطاعوا بعد ذلك الابتكار، والحذف والإضافة إلى هذا العلم أو ذاك، وإذا أردت الدليل فانظر إلى تاريخ الحضارة الغربية المعاصرة، وإلى ما وصلت إليه اليابان الحديثة من تقدم تجد أن طريق الترجمة وتوطينَ العلوم باللغة الأم كان الطريقَ الوحيدَ نحو النهضة».

«إن ضعف اللغة العربية في الوقت الراهن يعود بالدرجة الأولى إلى أبنائها الذين تنكروا لها وضيّقوا أمامها سبل الحياة، ثم كان الاستعمار الخارجي سبباً في ضعف اللغة ومحاولة إلغائها من حياة العرب في البلدان التي استولى عليها، وكانت المقاومة شديدة في ذلك الوقت لإدراك الجميع أن الاستعمار يريد ربط هذه البلدان بقومه وثقافته لتثبيت أقدامه».

«وفي استفتاء أجرته مجلة الهلال سنة ١٩٢٠م عن مستقبل اللغة العربية بين مجموعة من المثقفين كان كثير منهم يرى أن انقشاع الاستعمار سيساعد على ازدهار اللغة العربية، وكانوا يتطلعون إلى اليوم الذي تقوم فيه الحكومات الوطنية فتمكّن للغة الأم، لكن المؤسف أن ما حدث هو العكس فقد رحل الاستعمار ولكنه خلف من بعض أبناء هذه البلدان من هم أشدُّ عداءً للغة العربية من المستعمرين، إما جهلاً بأهمية اللغة في النهضة، وإما رغبة في الحصول على مكاسب وقتية

في الشركات والمؤسسات الأجنبية التي انتشرت في البلاد العربية، وإما بسبب العمى الحضاري الذي يصيب التبعيين ويجعلُهم لا يرون الدنيا إلا من خلال عيون سادتهم الأجانب».

«إن اعتراف كثير من التربويين اللغويين بالإخفاق في تعليم اللغة العربية علامةُ صحة، ودليلٌ على التوجه الرشيد نحو حل هذه المشكلة، والحقيقة أن تعليم اللغة العربية في مدارسنا ومعاهدنا يجري ضمن ظروف غير مواتية للنجاح، نحن أولاً أخفقنا في تحديد فلسفة تعليمنا للغة، لمن نعلمها وعلى أي الأسس، ليس لدينا دراساتٌ تبيّنُ القدر الذي نحتاج إليه من النحو بناءً على مزاجنا اللغوي المعاصر، أو احتياجنا من القواعد النحوية في مجالات الحياة المختلفة».

«مازلنا نخلط بين حاجة المتخصص وحاجة المتعلم العادي الذي يريد أن يعصم لسانه ويدَه من الخطأ، ركزنا على حشد أكبر كمية من القواعد وحشو أدمغة التلاميذ بها دون النظر إلى مدى احتياجهم إليها».

«كان الإمام ابن حزم، يرى أن تعليم النحو يجب أن يكون كالملح في الطعام، بناءً على ذلك كان علينا أن نهتم بالطعام وهو مادة اللغة، ثم نضيف إليه ما نحتاج إليه من ملح، ما حدث هو اهتمامنا بالملح فأفسدنا الطعام ونفّرْنا المتعلمين، اللغة السليمة لا تكتسب بكثرة القواعد المحشوّة في الأذهان والمحشورة في الكتب، وإنما تُكتسب بالممارسة وهي على مستويات مختلفة، هذه الممارسة هي التي تجمع مايسمى بالمهارات

اللغوية: الاستماع والحديث والاستيعاب، مع القراءة والكتابة وغيرها، أهملنا نحن هذه المهارات، فالطالب يلتقي باللغة مفرّقةً في كتب مختلفة، مقطعةَ الأوصال لا رابطَ بينها، ولا يكاد يلمُّ بها بوصفها وحدةً متكاملة، ثم لا يعطى وقتاً كافياً لممارسة هذه اللغة قراءةً وكتابةً واستماعاً وتحدثاً، هدف المدرس أن ينهي الكتاب المقرر، وأن يحفظ الطالب القواعد، ويحلَّ الأسئلة والتمرينات، أما مقدار استفادة الطالب من ذلك كله فليس في الحسبان! كان أسلافنا القدماء يبعثون أبناءهم إلى البادية لا ليتعلموا القواعد، ويدركوا العلل النحوية، وإنما لكي يسمعوا اللغة، ويتحدثوا بها، وكان هذا يعصمُ ألسنتهم عن اللحن أكثر مما يفعل النحو».

ثم يواصل د. الضبيب فيقول:

«منذ سنوات زرت روضة للأطفال أنشأها الدكتور عبدالله دنّان في سورية ودهشت، لأن أطفالاً بين الرابعة والسادسة من العمر يتحدثون الفصحى بطلاقة دون أن يأخذوا حرفاً من النحو، يتحدثون العربية سليقةً وهم لا يقضون في المدرسة أكثر من ست ساعات يومياً، الوصفة السحرية لهذه الروضة أن الحديث لا يجري في المدرسة إلا بالفصحى، كل العاملين في المدرسة يخاطبون التلاميذ بالفصحى ولا يسمحون لهم بالكلام إلا بها».

«وحديث السليقة يجرنا إلى حديث آخر، وهو البيئة اللغوية التي يعيش فيها طلابنا، لاشك أن بيئتنا السائدة بيئة عامة، لكن أليس

بالإمكان أن نجعل من المدرسة بيئةً لغويةً نظيفة، إننا لم نعد هذه البيئة حتى الآن، وهي أمر مهم إذا كنا نهتم بلغة أبنائنا، كل لغات العالم تعلم في بيئات نظيفة لغوياً، غير متساهلة في اللغة المعيارية، إلا اللغة العربية فلا يعلمها إلا عوامّ وأشباهُ بالعوام، لابد إذن أن نعمل على إعداد مدرسين في المدارس يعون هذا الهدفَ جيداً، ويحققون مانصبو إليه من إيجاد البيئة النظيفة لغويّاً».

«لست أرى تعليم اللغة الإنجليزية في المرحلة الابتدائية لعدة أسباب منها: أن المرحلة الابتدائية هي مرحلة تأسيس بالنسبة للطفل في سنه المبكرة وهي المرحلة التي يبدأ فيها تشكيل شخصيته وانتماءاته، ولذلك فإن التركيز في هذه المرحلة ينبغي أن يكون على الثوابت، وأهم الثوابت هما الدين، واللغة العربية».

«يُقصد بالتعريب في التعليم الجامعي إلقاءُ الدروس الخاصة بالطب والعلوم البحتة والتطبيقية على الطلاب باللغة العربية، وإعدادُ أو ترجمة الكتب الدراسية والأساسية بها، ومطالبةُ الطلاب بكتابة بحوثهم وأوراقهم الفصلية باللغة العربية، وإجراءُ اختباراتهم بهذه اللغة».

«والتعريب يجعل الطلاب أكثر استيعاباً للمادة العلمية وتمكناً منها وفهماً لها ما دامت قد قُدّمت لهم بلغتهم الأم، لقد بدأت الأمم الناهضة خطواتها نحو امتلاك العلم والتقنية من خلال تعليم هذه

العلوم باللغة الأم، وإن دول العالم المعاصر المتقدمة والنامية إلا ماندر تدرس الطب والعلوم بلغاتها القومية، ولقد أمضى العرب ما يقارب ثمانين عاماً يدرسون هذه العلوم باللغة الأجنبية، ومع ذلك فإنهم فشلوا في امتلاك العلم والتقنية وتوطينها عن هذا الطريق، والتعريب لا يعني الانقطاع عن تعليم اللغات الأجنبية، بوصفها لغاتٍ مهمةً يطل منها الطبيب والعالمُ والمفكرُ على الجديد في ميدانه، فلابد من تكثيف تعليمها بهذا المفهوم لا لكونها لغة للتدريس».

«وقد ثبت فشل هذه السياسة التعليمية على مدى السنوات الثمانين السابقة (وهي عمر التعليم الجامعي الحديث في البلاد العربية) التي علمت بها العلوم والطب من خلال اللغة الأجنبية، فلم يجن الوطنُ العربي أيَّ تقدم يذكر في هذا المجال، وتكرّس اعتمادُه في جميع فنون التقنية على الأجنبي، ولم يُنتج شيئاً ذا بال ينافس به على مستوى العالم، وسبقته بلدان بدأت معه في البدايات الأولى، وشعوب هي أقل منه عدداً وأحدث منه حضارة».

ويواصل الدكتور الضبيب دفاعه عن اللغة العربية في هذا الحوار بالقول: «القرار في التعريب ليس قراراً تعليمياً ثقافياً، فقد قال المختصون رأيهم بضرورة التعريب، كما قال الوزراء والمسؤولون رأيهم في المسألة، ولم يبق إلا دعمُ هذا الرأي بالقرار السياسي الحاسم الذي يعيد للغة سيادتَها في بلادها، ويعينُ الأمة على المشاركة الجادة في الحضارة

المعاصرة، ويخرجها من التبعية العلمية والثقافية الذليلة.

إن أهل هذه البلاد عرب مسلمون، وهم الغالبية العظمى الذين ينبغي أن تراعَى أحوالُهم في هذا المجال، واللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، ومن هنا فإن لها السيادةَ في جميع المواقع ولا يجب أن يزاحمها فيها أيُّ لغة، وإن وجود الأجانب عندنا يُفترض أن يكون مؤقتاً، ولذلك فإننا لا يمكن أن نشكّل حياتنا في بلادنا على هوى هؤلاء الأجانب، بل الواجب أن يشكّلوا هم حياتهم بما يناسب وضعنا، وهذا هو الوضع الطبيعي في جميع أنحاء العالم، فالألماني لا يحادث العامل التركي في بلاده باللغة التركية أو لغة وسيطة كالإنجليزية، وكذلك الفرنسي لا يتكلم مع العامل الإفريقي ببلاده باللغة الوسيطة وإنما يكلمه بلغة الدولة الفرنسية، فلماذا نكون نحن بدعاً بين الأمم ونفرض على هؤلاء أن يتعلموا الإنجليزية ليتكلموا بها معنا كما نفرض على أنفسنا تعلم الإنجليزية كي نتفاهم معهم، لماذا لا تكون معرفةُ اللغة العربية ميزةً تعطي الأفضلية للعامل الذي يلمُ بها كي يقدُمَ إلى المملكة، شأنُنا في ذلكم شأنُ الدول الأخرى التي تحرص على بث لغاتها وثقافاتها في أرجاء العالم، وبين الوافدين حيث يتعرّف هؤلاء على ثقافتنا ويعرفوننا على حقيقتنا ويتعاطفون مع قضايانا.

لقد تسبّب اشتراطُ اللغة الإنجليزية للعمل في سوق بلادنا في قفل أبواب العمل أمام شبابنا المتخرج حديثاً من الثانوية أو الجامعة، وجَعلَ

الفرصَ مفتوحةً أكثر أمام الأجانب، وهذا ما لا يحدث في أي بلد يحرص على تشجيع العنصر الوطني وإحلاله مكان الغريب، قد تكون اللغة الإنجليزية مطلوبةً في بعض المناصب والمهام القيادية والفنية الدقيقة، ولكنها بكل تأكيد ليست ضروريةً في معظم الأعمال التي تجري في السوق».

ويختم د. الضبيب دفاعه عن سيادة اللغة العربية بالقول: «**إنني لست ضد تعلّم أي لغة أجنبية، ولا أشكّك في جدوى تعلّم اللغات، ولكني أطالب بتنظيم العلاقة بيننا وبين هذه اللغات بحيث لا تطغى على لغة ديننا وقوميتنا، وهي اللغة التي يجب أن تكون لها السيادةُ في الوطن، والواقع أن تشجيع العامية لا يقل خطراً عن تشجيع اللغة الأجنبية، فأي موقع تطرد منه الفصحى لتحله إحداهُما بدلَها يعدّ انهزاماً للفصحى، و يشكّلُ بالتالي خطراً على الثقافة العربية، ويسهم في إضعاف الأمة وفقدان هويتها أو تمزيقها».**

إن الدكتور الضبيب أخيراً لا يدعو فحسب، لعدم إفساح المجال للغات الأجنبية في حياتنا العامة والعلمية، لكنه نادى مراراً بإيقاف زحف العامية، وهو عندما لحظ أن العجمة بدأت تطغى في حياتنا العامة لدرجة أن جمعيّة تكوّنت مؤخراً تطالب بإحلال الإنجليزية محل اللغة العربية الدارجة، أسرّ لي متندّراً بأنه يفكر بكتابة مقال متسامح يدعو فيه للحفاظ على التخاطب بالعاميّة التي تظلّ أرحم من الرطانة بالإنجليزية.

وهكذا تتبيّن بعد هذه الاقتباسات الطويلة التي استشهدت بها نماذجُ

من كتاباته بشأن صون اللغة العربية، ومن حواراته الساخنة التي يسدّ فيها المنافذ على مخالفيه في الرأي ويقارع الحُججَ بأُخرَ مُقنعة، يتبيّن مدى التزامِه بهذه المدرسة التي ارتبطت في العقود الأخيرة باسمه، في نهج يؤيّده فيه من يؤيّد، ويختلف معه فيه من يختلف، وسيظل هؤلاء وأولئك يتمسّكون بآرائهم ويدافعون عن مواقفهم، يحميهم أدب الاختلاف، والاحترامُ المتبادلُ بين الطرفين.

أما إذا ألقينا نظرة عجلى على مؤلفاته فمنها:

- كتاب الأمثال لأبي فيد مؤرج بن عمرو السدوسي، دراسة وتحقيق، مطابع الجزيرة سنة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

- دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية، ترجمة مع تقديم وتعليق لكتاب د. ت. م. جونستون سنة ١٩٧٥م.

- الأعمش الظريف.

- آثار الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

- على مرافئ التراث، أبحاث ودراسات نقدية، الرياض: دار العلوم سنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

- بواكير الطباعة والمطبوعات في بلاد الحرمين الشريفين، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية سنة ١٤٠٨هـ.

- أوراق رياضية (نسبة إلى الرياض) مقالات ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

ـ اللغة العربية في عصر العولمة، الرياض: مكتبة العبيكان ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

ـ معجم مطبوعات التراث في المملكة العربية السعودية (٨ مجلّدات) وهو دراسة بيبليوغرافية مفصلة لما صدر من كتب التراث بجهود وطنية منذ دخول الطباعة في الحجاز سنة ١٣٣٠هـ حتى عام ١٤٣٧هـ (٢٠١٦م) برصد ما يقرب من (٣٠٠٠) كتاب، نُشرت مستقلة أو في بطون المجلات.

ـ بحوث عديدة عن حركة إحياء التراث في المملكة العربية السعودية، ومقالات كثيرة في مجلات علمية محكَّمة.

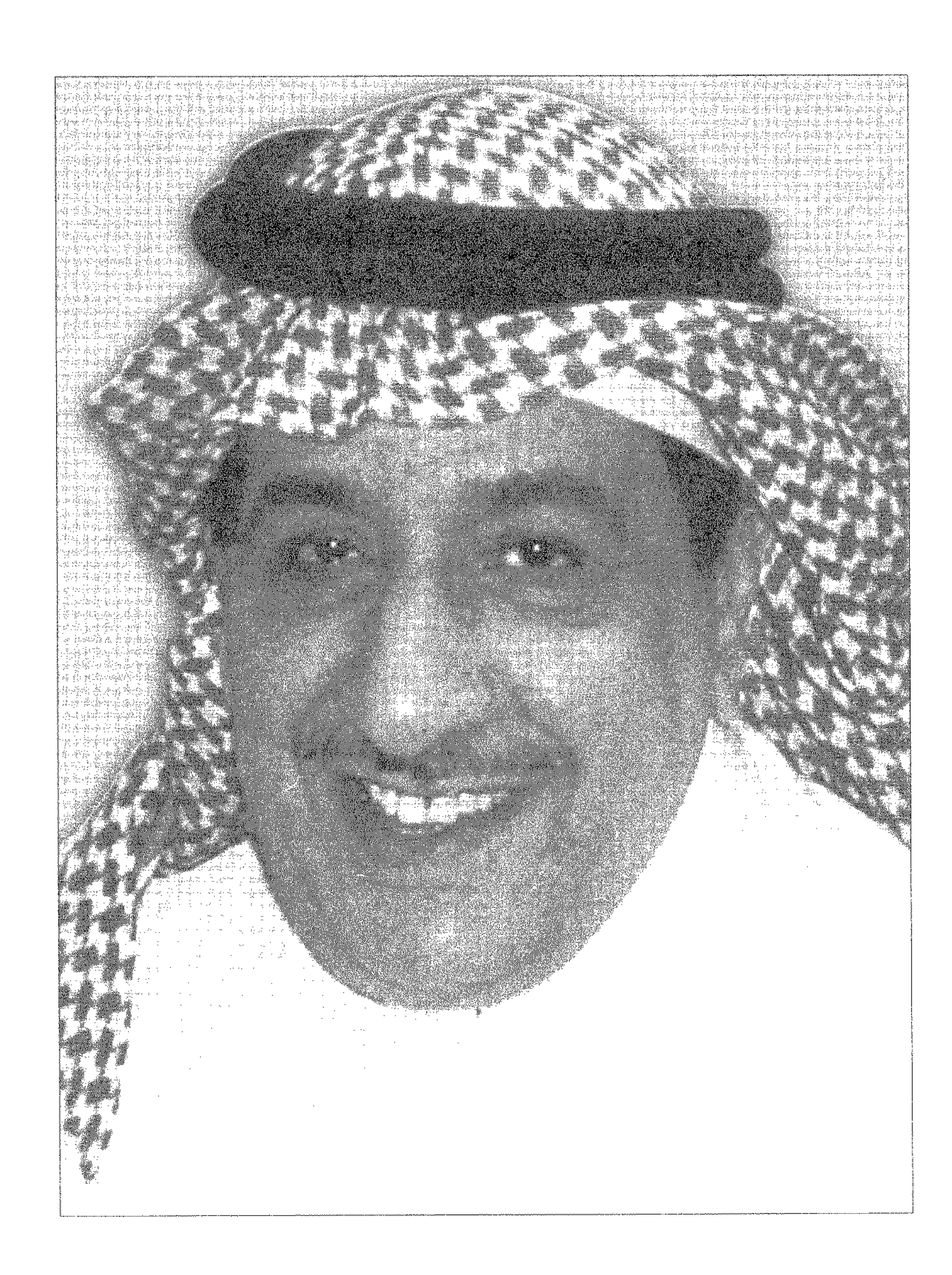
تحيّة للزميل الكريم، مع احتفاء مركز حمد الجاسر الثقافي به هذا العام، عَلَماً من أعلام اللغة والتراث في الوطن، وتحيةَ إكبار للنهج الذي يسلكه وأقرانُه للدعوة لاحترام مكانة لغة القرآن الكريم، وللوقوف على هذا الثغر المحصّن من ثغور الهُويّة الدينية والقومية والحضارية للعرب والمسلمين، مدّ الله في عُمرِ أبي عمرو لمديد من العطاء في خدمة التراث واللغة العربية.

(٣٠)

د. ناصر السلوم (*)

مهندس بوسم السعفة الذهبية

(*) في حفل تكريم أهالي عنيزة له، الجزيرة، العدد: ١٤٦٥٣ في ٢٥/١٢/١٤٣٣هـ (١٠/١١/٢٠١٢م).



إذا كانت المناصب سياسية أو إدارية أو تكنوقراطية، فإن السلوم بالتأكيد لم يكن من أرباب السياسة، ولا ممن يأبه بالبيروقراطية الإدارية، لكنه تكنوقراطي بكل ما تعنيه الكلمة.

والتكنوقراط بلغة القاموس هي «الطبقة العلمية الفنية المتخصصة المثقفة»، فالتخصص عنده هو الأصل، والقلم والفرجار وطاولة الرسم هي لعبته، والميدانية هي الأساس في عمله، إنسان لا يعتمر المشلح إلا نادراً، يدلف إلى مكتبه لينزع الغترة أحياناً، منصرفاً لأداء عمله بعيداً عن التكلّف و الرسميّات.

بالنسبة لي، لم أفكر يوماً فيه إلا وتذكرت هذا المصطلح الإداري «التكنوقراط»، لأنه ينطبق عليه أصدق الانطباق، فأبو محمد كان في عمله في وزارة المواصلات مثال الرجل المناسب في المكان الأنسب، الذي تدرّج في سلّم الوظيفة من أول عتباتها.

أما في عالم الوظيفة اليوم، فلم يعد مهمّاً فحسب، أن يتمّ اختيار المسؤول القيادي لكونه سياسيّاً أو إدارياً أو تكنوقراط، بقدر ما صار المجتمع يفكر بشأن آخر هو «الأمانة»، ولا أحسب يده بإذن الله، إلا مغسولة بمطهّر تتداوله صيدليّات «حماية النزاهة» في مجتمعنا.

عرفت أبا محمد من خلال صلة أسرية مع والده وجدّه، ثم تعززت في أثناء دراستنا العليا في ولاية أريزونا عام ١٩٦٨م بُعيد ولادة ابنينا في عام واحد في تلك الولاية؛ ابني طلال، وابنه محمد الذي اختطفه القدر في حادث سير في فرنسا عام ١٩٨٥م وعمره في الثامنة عشرة، وهو قَدَرٌ تقبّله والده بالإيمان، وخلّف في عينيه دمعة حزن لم تمحُها السنون، أبانت عن عاطفة جيّاشة مكنونة، لم يكتشف بعضَ أغوارها سوى الأقربين، وإن تبدّى أحدها عند تكريم سلفه ورئيسه السابق حسين منصوري، ولقد شاء الله لابنينا أن يولدا في عام واحد في بلد واحد (أريزونا) ويتوفيّا في بلد واحد (فرنسا).

تمتد جذور أسرته في هذه المدينة، التي تُكرّم اليوم فيه صورة المواطن العملي الدؤوب المخلص، لكن عنيزة التي أنجبت أجداده وأباه ووالدته (لولوة المحمد الدخيّل) وزوجات والده (نورة الناصر الشبيلي ومزنة العقيّل ومزنة التركي)، لم تقدر أي عنيزة على المنافسة مع المدينة المنوّرة التي اصطفاها والداه للإقامة، فصار قلبه موزّعاً بين موقعين يتنازعان انتماءه، وما ذلك التنافس عليه إلا لكونه من غرس كريم وطينة خصبة العطاء والإثمار، وقد كانت المدينة المنورة وما تزال، الجارَ الأقربَ للقصيم، التي اجتذبت أسراً نجدية عدة، امتزجت مع أهلها النجباء المُطمئنين، فبقي د. ناصر على الدوام يتذكّر تأثيرات مجتمعها على طفولته وبدايات نشأته، ويغرف كثيراً من ذكرياته المبكرة من بيئتها، حتى إذا ما استرسل

في سرد قائمة أصدقائه وزملاء دراسته، فإن الأغلبية تكون من مجتمع طيبة الطيّبة، أو من أقارب أسرته المقيمة فيها من أمثال صالح القاضي وعبدالله البسام وعبدالعزيز الناصر التركي.

على هذا، عاش وإخوانه إبراهيم والمهندس أحمد وأخواته نورة وفاطمة ومضاوي وفايزة في المدينة المنورة، كما درس فيها، ثم أكمل دراسته الجامعية في مصر كما سيأتي.

ارتبط اسم ناصر السلّوم بشبكة الطرق السريعة، التي تلقّن أصولها في أريزونا، الولاية الأمريكية الأكثر محاكاةً لصحراء الجزيرة العربية، ولا أُبالغ إذا ما قلت لقد أصبحت الجسور والأكتاف والمعابر وعقبات السراة وتهامة عند الكثيرين وأنا منهم، كلماتٍ مرادفةً لاسمه وصورته، وكان قبل ثلاثين عاماً (١٩٨٣م) اصطحب وكلاء الوزارات وكنت أحدهم لمشاهدة عقبة «شعار» المجاورة لأبها بعد انتهاء العمل فيها، وقد استوعَبَت تلك الأشغال معظمَ وقته عندما أصبح في موقع المسؤولية الوزارية، وحقق فيها داخل المدن وخارجها، نجاحات نوعيةً وكميةً باهرة، ففاقت أطوال الطرق المنفّذة في عهده مئة ألف من الكيلومترات في الدولة القارة، ما بين طرق سريعة ومزدوجة ومفردة وترابية وزراعية وصحراوية وتحويلات، يعدّها د. السلوم من أبرز إنجازاته الأهم اقتصاديّاً واجتماعيّاً، على اعتبارها شريانَ الحركة والنمو، وعنصرَ الأمن الداخلي والتنمية الوطنية، وقد أسهمت تلك المشروعات العملاقة

التي استُثمرت فيها الطفرة المالية الأولى وأُنفقت عليها المليارات سنوياً واستفادت فيها البلاد من الخبرات الأجنبية، أسهمت في رفع مستوى صناعة النقل البري، وفي نقل التقنية الحديثة لربط المناطق، وفي تأهيل المقاولين المحليّين، وفي تدريب الكوادر السعودية.

كانت وزارة المواصلات الجهةَ التي أمضى فيها أربعين عاماً، منذ حصوله على بكالوريوس الهندسة المدنية من جامعة القاهرة عام ١٩٦٤م، مروراً بالماجستير ثم الدكتوراه في التخصص نفسه من جامعة أريزونا في مدينة توسان بولاية أريزونا الامريكية عام ١٩٧٣م.

وقد تدرّج في وزارة المواصلات من أول مدارجها كما سلف، يُحاذر القرب من مكتب سكرتير الوزير «خاله سليمان المحمد الدخيّل»، كما كان الخال يتحاشى الأمر نفسه، وهو يرى ناصراً يلبس خوذة المهندسين بكل ثقة واقتدار لا يحتاج معهما إلى دعم أو واسطة من أحد، فعمل الدكتور ناصر مهندساً مشرفاً على طريق صلبوخ، أول المشروعات الميدانية التي رافق إنشاءها، ثم صار مديراً عاماً للطرق، فوكيلاً للوزارة ثم وزيراً، وقد استمر في منصبه هذا ثمانيَ سنوات، ثم استُدعي مرة أخرى للخدمة العامة أميناً عاماً لهيئة تطوير مكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة بين عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٩م، وكانت فترة خدمته في وزارة المواصلات، الأكثرَ تأثيراً في تجربته الوظيفية، عمّقت علاقاته بالموظفين وبالرؤساء، ووطّدت صلاته بوزيريها السابقين محمد عمر

توفيق، وحسين منصوري الذي وقف إلى جانبه مسانداً لبعثته، ومتابعاً لتحصيله، ومعلّماً له أساليب العمل الإداري المرن الذي اشتُهر به المنصوري في وزارته، متحمّلَين معاً تباين رغبات المناطق والمحافظات فيما يتصل بمسارات مشروعات الطرق، عندما يندر أن تُجمِع المدن حتى لو كانت متجاورة على رأي واحد، متى كانت اتجاهاتُ الطرق لا تمر بمحاذاتها، أو يكون لها النصيبُ الأوفرُ منها. وأحسب أن الدكتور ناصر قد غادر الوظيفة العامة، وهو لمّا يزال في قمة الحيوية وأوج العطاء، في وقت ما نزال بحاجة إلى خبرات مثله، وبلادنا تسير حثيثاً في دروب النمو والتحوّل في ميدان النقل والمواصلات.

ويعترف د. ناصر وهو في هذا الوزيرُ الأقلُ تذمّراً من وزارة المالية ومن نقص اعتمادات الميزانية، يعترف أن المواصلات نالت نصيباً من الدلال بين أجهزة الدولة، وحظيت بالدعم المالي والأدبي الأوفر من القيادة في عهد الملك فهد، كما لا يُخفي د ناصر، وميزانيةُ الوزارة يسيل لها لُعاب أهل المنافع، أنه وغيرَه من موظفيها إبان عملهم في الوزارة، كانوا عرضة لإغراءات الانخراط في دائرة تلك المصالح، لولا مخافة الله ويقظة الضمير.

تلكم هي «السعفة الذهبية» في النزاهة؛ وسمٌ لا يمّحي في سيرة الكبار، وحليةٌ للمتخصصين وأرباب المهنة، وتاجٌ على رؤوس الشرفاء، والمؤهلُ الأول لمثل هذا التكريم.

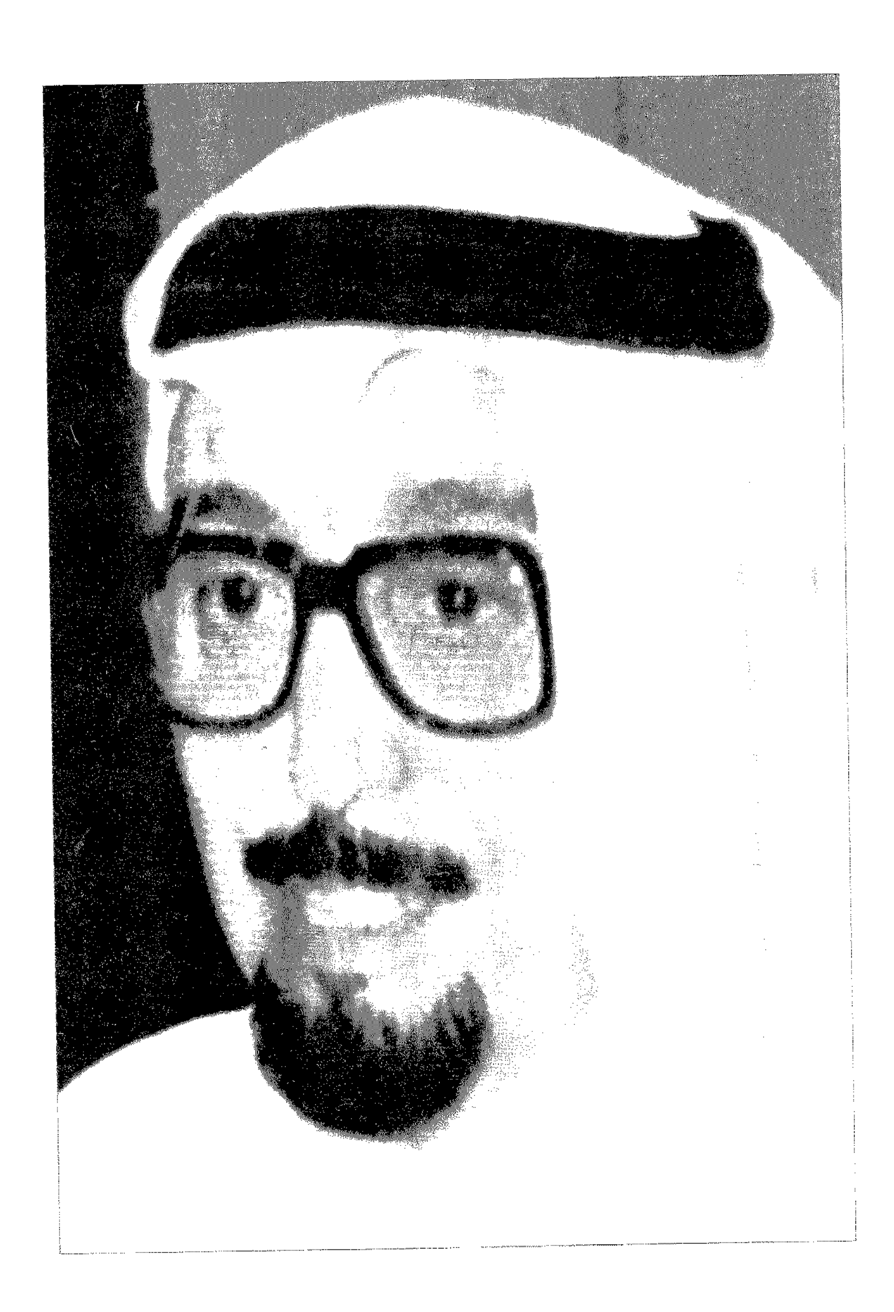
وذلكم هو ناصر، كما شهد له عارفوه في الكتاب الذي بين أيديكم، هو الشديدُ على نفسه في الميدان، الإنسانُ في تعامله، يقسو ليزدجروا، ويحزم لينجز، ويحنو ويأمر، احترم فيه المقاولُ عدلَه، وأحب فيه الاستشاري خبرتَه، وبنى مع الناس والموظفين درباً من الحب وجسوراً من البساطة والوئام.

(٣١)

محمد الفهد العيسى (*)

مجموعة إنسان

(*) بمناسبة تكريمه في مهرجان عنيزة الثقافي الرابع (١٤٣٤/١٢/٢٤هـ - ٢٠١٣/١٠/٢٩م) وفي مجلس حمد الجاسر (١٤٣٤/١٢/٢٨هـ - ٢٠١٣/١١/٢م)، الجزيرة الثقافية، العدد ٤١٥ في ١٤٣٤/١٢/٢٨هـ - ٢٠١٣/١١/٢م).



غريب أن ينظر أبو عبدالوهاب إلى نفسه ومنذ مطلع شبابه، على أنَّه «الفهد التائه» في حين أنَّه كان الحاضر دومًا في الوسط الثقافي وفي أذهان محبيه، وفي المجتمعات الستّة التي عمل فيها سفيرًا، وكان مجلسه مفتوحًا على الدوام منذ أن بزغ نجمه قبيل الثمانينات الهجرية من القرن الماضي (الستينات الميلادية) وكانت مشاركاته الثقافية لا تغيب ولا تنقطع، وإبداعاته الشعرية تتجلَّى في كلِّ منعطف مرّ بالوطن، وفي كلِّ مناسبة أُسرية أو عاطفية أحاطت به، وفي كلِّ لوحة طبيعيَّة سلبت خياله في ربوع ضيعة «بشرّي» بلبنان «ولوزان» في سويسرا، وكيف له أن يكون التائه، وهو الذي أقسم في إحدى قصائده الحديثة نسبيًّا أن لن يضيع.. ولن يستكين؟.

عرفه المجتمع الثقافي من خلال ما كان ينشره من مقالات وقصائد باسمه الصريح أو بأسماء مستعارة مثل «الفهد التائه وبدوي الدهناء والحطيئة وسليم ناجي» وسجّله عبدالله بن إدريس في كتابه (شعراء نجد المعاصرون) ضمن ثمانية من شعراء عنيزة التي قال فيها «**إن أكبر عدد من شعراء نجد ولدوا تحت خطرات نسيمها المنعش، حيث ترقد كثبان الرمال الصافية، وتتأوّد أغصان النخيل النضرة وأشجار الفاكهة الباسقة**» وقال عن شاعرنا في حينه: «**إنه شاعر عاطفي ذو طاقات فنيَّة رائعة في استغلال**

تلك الإمكانات الشعرية في إطار الذاتية المحدودة» وكان الكتاب قد طُبع عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) قبل أن يصدر أول ديوان للعيسى.

إن هذه الكلمة، لا تُقلّب في صفحات سيرته ولا تنقّب عن مفاتيح شخصيته، ولا تغوص في شعره، فهذا ما ستكشفه المقالات التي كتبت عنه في أثناء حياته وبعد وفاته، لكن الكلمة على ضيقها تتجوَّل بانوراميًا في تحوّلات حياته لتتوقّف عند ثلاث محطات مؤثِّرة شكّلت نفسيّته وتركت بصماتِها وآثارها الواضحة في تكوينه:

أولاها: تلك الحقبة المبكّرة من شبابه التي قضاها متنقلاً بين مدن الحجاز، وأودعت ثقافته المعرفيّة كثيرًا من المؤثِّرات، فأبو عبدالوهاب ولد في عنيزة، ثمَّ نشأ وترعرع في المدينة المنورة تحت رعاية جده لوالدته إمام المسجد النبوي الشريف الشيخ صالح العبدالله الزغيبي، ثمَّ عاش طرفًا من شبابه بين مكة المكرمة والطائف وجدة، وهي جميعها حواضر تجمع بين المحافظة والتمدّن المتنوّع (الكوزموبوليتان) تُكسِب ساكنها إرثًا ثقافيًّا ينعكس على طباعه وعلى تقاليد أهله وعاداتهم، فاستمرّ أبو عبدالوهاب في كهولته يستعيد صور مراتع صباه وذكريات مدرسته ومدرّسيه، ويتذكّر أيَّامًا قضاها في حارات مكة المكرمة ومصايف الطائف بين روابي شهار ووادي وُجّ والمثْنى، وفي مساجلاتٍ شعريةٍ شارك فيها، ولقاءاتٍ فكريةٍ جمعته بالمثقفين والأدباء في مقاهي مكة المكرمة في ذروة التألّق الثقافي لمحمد حسن عوّاد وحمزة شحاتة وعزيز ضياء ومحمد

حسن فقي وحسين سرحان ومحمود عارف وأحمد إبراهيم الغزاوي ومحمد سرور الصبّان وعبدالله بلخير وغيرِهم، ولعلها الفترة التي كشفت مواهبه وألهمته الحس الإبداعي في معرفة الألحان والأوزان الموسيقية والشعرية والتراثية، حتَّى شاهدناه عند انتقاله للرياض معقل التشدّد في الثمانينات الهجرية يعلّق شارة النوتة الموسيقية على مدخل بيته عند شارع الفرزدق قرب الإذاعة، وكأنك داخل إلى دار بيتهوفن أو موتزارت.

أما المؤثِّر العميق الثاني، الذي استمرّ أبو عبدالوهاب مصدومًا بانعكاساته النفسية عليه بقية حياته وتسبّب في إيقاف صعوده الوظيفي، فكان هجمةً شرسة تعرّض لها في منتصف شبابه من أحد المشايخ المتشدّدين (محمد أحمد باشميل) في أعقاب صدور بعض قصائده الجريئة مطبوعةً في لبنان، إذْ بقي في إثرها حبيس إقامة اختيارية فرضتها عليه ظروفُ تلك الزوبعة، بسبب ما تضمنته القصائد حقيقةً أو مُنتحلاً بعضُها من جرأةً نواسيّة وربما عقديّة غير مقبولة، خاصةً وقد كان حينها يشغل وظيفة قياديّة في وزارة العمل والشؤون الاجتماعيَّة، وبقيت تلك القضيّة التي سبّبتها قصيدة «ليديا» وبعض قصائد ديوانه على مشارف الطريق (دار العلم للملايين بيروت ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م) مثل قوله في أبيات من قصيدة أحلام لا تزيد عمَّا تحويه كتب التراث:

يا حبيبي كلُّ ما في الكون من حب وغزل
ودعـاءٍ مستفيض، بترانيـم القُبـل

فادن مني، نتعاطاها بأقداح الأمل
نشرع الكأس دهاقًا، لا نبالي من عذل

بقيت تلك الدعوى الاحتسابية التي نظرت فيها المحكمة في مكة المكرمة برئاسة الشيخ سليمان بن عبيد وترتّبت عليها تنحيتُه من منصبه الإداري مع استمرار راتبه، بقيت حديث المجتمع الثقافي في تلك الفترة (أواسط الثمانينات الهجرية، الستينات الميلادية)، ثمَّ حاول احتواء الأزمة فنشر في جريدتي المدينة وعكاظ اعتذاراً لم يكن محل ارتياح بعض المثقفين حينئذٍ، ولا أظن أن حديثًا في السنوات اللاحقة من عمره سيطر على مجلسه ومع محبيه أكثر من استعادة تلك القصة وما حدث فيها عليه من تداعيات «فضفض» عنها علنًا في اللقاء التليفزيوني (رجال في الذاكرة ١٤٢٧هـ من جزأين) وأفرغها نفسيًّا في قصيدته الجزلة: «حرية الفكر» المنشورة في ديوانه: (أين قفاة الأثر ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م) مبيّنًا فيها وجهة نظره في القضيّة وموقفه حيالها، وكان مطلعها:

صبراً أخا الحرف لا تعجل ولا تلُم
فلن أضيع أنا، أقسمت بالقلم
الشمس تشرق من كفي أشعتُها
إن تسجن الشمس عن أرضي وعن أُكُمي
سيعلم القوم صمتي في غدٍ ذهبٌ
والصوتَ من قلمي والحق ملء فمي
أني الأبيّ، سمائي فوق عالمهم
وفوق كل دعيٍّ ناعق قدمي

استثمر التلفزيون حديث النشأة (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م)، عزلة العيسى هذه ومعرفته بالألحان والأوزان الموسيقية، في محاولة مشتركة معه لتدوين التراث والألحان الشعبية من كل أنحاء الوطن، كالخمّاري والدحّة والسامري والناقوز والصوت والخبيتي والصهبة والمجرور والمزمار والخطوة والعرضة وغيرها، مع تبيان فروقاتها الإيقاعية، ومن، ثمَّ شرح طَرْقها وطُرُقها وأوجه التقارب والتباين بينها، ومقارنتها بما معروف من الفنون القديمة والموّالات والموشّحات والمقامات، وبشتّى أنواع الأدوات التقليدية كالطبل والسمسميّة والربابة والعود، وقد وُجدت بين أوراقه نصوصُ خمس عشرة حلقة لبرنامج «من ألحاننا الشعبية» كتبها أبو عبدالوهاب وقدّمتُها (١٣٨٧هـ-١٩٦٧م) وكانت فكرة البرنامج المقاربة لما يطبق اليوم في الجنادرية، تقوم على استضافة فِرق التراث الشعبي من كل أنحاء البلاد لتسجيل مقطوعاتها في استوديو التليفزيون بحضور المعدُّ والمُقدّم، والالتقاء بقادة تلك الفرق لشرح أوزانها، وكأني هنا أقرأ صفحات من سيرة الصديق المشترك «أبو علي الزامل» الذي عاش المؤثّرات نفسها وشارك صولات السنوات الأولى من نشأة الإذاعة والتليفزيون وجولاتهما، وكان يستضيف الفنانين الشعبيين في منزله ويُسجل لهم، وأحسب أن معرفة العيسى والزامل بتلك المعارف الفولكلورية كانت متقدِّمة في مجتمعها النجدي آنذاك، يجاريان فيها مطلق مخلد الذيابي صاحب الأغنية الشهيرة: «**يالله أنا طالبك حمرًا هوى بالي**» وطارق عبدالحكيم صائغ الأغنية السعوديَّة الحديثة أبي الموسيقيين

غير التقليديين الذي احتكر أداء أكثر قصائد العيسى الغنائية كان من أقدمها وأشهرها: (**أسمر عبر، لك عرش وسط العين، حبيبي في روابي شهار، حبيبي ضمّني ضمّة**) ثمَّ تبارى بقية الفنانين ومنهم طلال مداح ومحمد عبده وسميرة توفيق وهيام يونس لأداء كلماته الغنائية.

لم يكن أبو عبدالوهّاب يجيد الشعر النبطي ولا روايته، لكنه كان أينما حلّ يحمل قلمه الشعري بالفصيح المقفّى وبالمرسل، فأصدر في مسيرته الأدبيَّة الطويلة خمسة عشر ديوانًا (منها: على مشارف الطريق، وليديا ١٩٦٣م، دروب الضياع، والإبحار في ليل الشجن ١٩٨٠م، وليلة استدارة القمر ٢٠٠١م) وألّف كتابًا عن تاريخ (الدرعية قاعدة الدَّوْلة السعوديَّة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م تقديم العلامة حمد الجاسر) واشترك في مسابقة لكتابة كلمات نص جديد للسَّلام الملكي، وكتب بعض المقالات الاجتماعيَّة والقصائد الوطنيَّة والتمثيليّات والمسرحيّات التي قُدّمت نصوصها للإذاعة والتليفزيون (١٣٨٥ و١٣٨٦هـ) وخصّ ابنة عمّه ورفيقة دربه أم عبدالوهاب (فاطمة الصالح العيسى) بالأحلى من قصيده، وقد توفّيت بعده بأحد عشر شهراً (يونية ٢٠١٥م).

أما المؤثّر الثالث الذي فاق غيره من المؤثّرات، فإنَّ هذا الإنسان الذي لا تكاد الابتسامة والدعابة تفارقانه، مرَّت به وبأسرته مصائب بالغة الأسى، كان من بينها فقدُ الابن الأكبر عبدالوهاب، والبنت الكبرى فوزية، ثمَّ الابن الأوسط نزار، وحفيدتهم سارة (بنت عبدالوهاب)

رحلوا جميعًا فجأة وهم في عزّ الشباب وفي سنوات متقاربة، ثم فارق أبوعبدالوهاب الدنيا في آخر شهر رمضان المبارك (١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م) دون أن يعرف بوفاة الحفيدة التي سبقته إلى الدار الآخرة بفترة وجيزة، وقد نظم في بعض تلك الرزايا قصائد من جميل شعره وأكثره حزنًا وشفافية، واحتسب وحرمه وأولادهما د. إيمان وعدنان وعبدالعزيز وغادة في مصابهم وجه الله أبلغ احتساب.

وأحسب أن من نعم الله عليه أن جعل منه شاعرًا يُعبّر من خلال الحرف عن شكواه إذا ما اشتكى، وآلامِه إذا ما تألّم، فالشعر عند العيسى لا ينتظر تقريظًا من أحد بعد أن قال فيه د. غازي القصيبي (١٩٩٨م) **«لو تجسّد الشعر رجلاً لكان يشبه العيسى، يشبهه في أناقته، وفي كرمه، وفي طيبته، وفي وداعته، وفي دواوين شعره، إنّه يتنفس شعرًا، ويعيش شعرًا، ويأتيه الشعر من بين يديه ومن خلفه ولا يذهب إليه، مخلص للشعر، لا فجوة بين شخصيته الاجتماعيَّة وحياته الشعرية، فرومانسيته تنبع من حياته وليس من خياله، ورقّة شعره وهدوء معجمه تنبع من رقّة مشاعره، إنّه يكتبه دون تكلّف أو تصنّع» فالعيسى في نظر د. غازي كما نقلته جريدة الرياض «مخلوق شعري وديع أنيق، خفيف الوزن حسّيًا وشعريًا»**.

وقال عنه الزميل المبدع ورفيقي في زياراته الثقافية والمَرضيّة أبو يزن إبراهيم التركي عند رثائه **«حظّنا أنّه من هنا، وسوء حظّه أنّه لم يكن**

من هناك، وإلا لأصبح رقمًا إبداعيًا معادلاً لقيَم شعرية تبوّأت القمم لديهم، تواصل الشاعر العيسى ليرسم لوحات العشق للأرض والأنثى غير آبهٍ بالأصوات المعترضة، وأعطاه اغترابه عن الوطن سفيرًا دفقًا عاطفيًا جميلاً لا تثنيه الرقابة أو القيود، ولم يكن غيابه سوى حضورٍ هادئ أبعده عن ذاكرة الإعلام ليبقى في طليعة الأعلام، وجد العيسى سلواه في البحر والنهر والسهل والصخر والطفل والمرأة، ووجدنا عزاءنا في صورة شاعر أحب للحب وأضاء الدرب، وظلَّ شاعر الخصب في زمن الجدب».

وبينما يترقّب المجتمع الثقافي كتاباً عن سيرته الذي عكفت ابنته د.إيمان على إعداده، نُشر العديدُ من الدراسات الأدبيَّة النقديَّة لشعره، منها الرسالة الأكاديمية التي أعدّها جبر الفحّام عن شعره، واستلّ منها محاضرةً ألقاها في النادي الأدبي بالرياض بُعيد وفاته (الأربعاء ١٤ شوال ١٤٣٤هـ، الموافق ٢١ أغسطس ٢٠١٣م).

وتلك الدراسة المطوّلة التي نشرتها جريدة الرياض (١٠ يناير ٢٠١٣م) بعنوان شاعر الحزن الشفيف، وتضمّنت قراءات لشعره من نقّاد بارزين هم د. غازي القصيبي ود. عبدالعزيز المقالح ود. راشد بن عيسى ود. محمد عيد الخطراوي ود. محمد الشنطي وعبدالله عبدالرحمن الزيد.

ثم تلك الدراسة المعمّقة التي كتبها في شهر سبتمبر ٢٠١٣م أحمد محمد الواصل بعنوان: «**أبو الأغنية السعوديَّة الحافية**» مقررًا فيها أن

الأغنية السعوديَّة الحديثة قد تطوّرت مع منتصف القرن الماضي بواسطة ثلاثة مجدّدين هم ابن الطائف طارق عبدالحكيم، وابن مكة المكرمة إبراهيم خفاجي، وابن عنيزة محمد الفهد العيسى، وانتقلت معهم من الموروث الشعبي الجماعي بأدوات الطرب التقليدية إلى الأداء الفردي بالآلات والمعازف الحديثة والنوتة الموسيقية.

وقبل ذلك، نشرت المجلة الثقافية الصادرة عن صحيفة الجزيرة ملفًا ضافيًا عنه معنونًا بشاعر اللَّيل والشجن (العدد ٢٥٧ الصادر في ٢٠/١٠/٢٠٠٨م) وكتب فيه عبدالله ابن إدريس وعبدالرحمن السدحان ود. عبدالله المعيقل وآخرون.

وأخيراً، كان اختيار أبي عبدالوهاب للعمل الدبلوماسي في عهد الملك فيصل، بدءًا من موريتانيا (بلد المليون شاعر) خيارًا يتناسب مع روح هذا الفنان الجريء، الذي يكتب قصيدة الغزل واعيًا أن بين يدينا نصًا قرآنيًا صريحًا بأن الشعراء (يقولون ما لا يفعلون) ومتناسيًا أنّه يعيش في مجتمعات محافظة.

إن من يطّلع على نصوصه الشعرية القديمة والمتأخّرة بما فيها ديوانه الأخير «عندما يُزهر الحب» يجد صاحبنا هو كما كان (ابن الأربعين لم يتغيّر) مع أنَّه بقي في السنين الأخيرة من حياته عمودًا من أعمدة مسجده المجاور يطاله على ذات أربع كهربية، وكان في الوقت نفسه يكتب - كما فعل أبو العتاهية من قبله - في أغراض شعر التوبة ليمسح به ما كتب

في شعر الغواية، وكان حتَّى آخر يوم في حياته التسعينيّة يحوز القدرات الذهنية والشعرية مُمضيًا في لقاء ربه كل يوم أكثر مما يمضي مع أسرته ومجالسيه، حتَّى أكرمه الله باختياره إلى جواره في العشر الأواخر من رمضان المبارك.

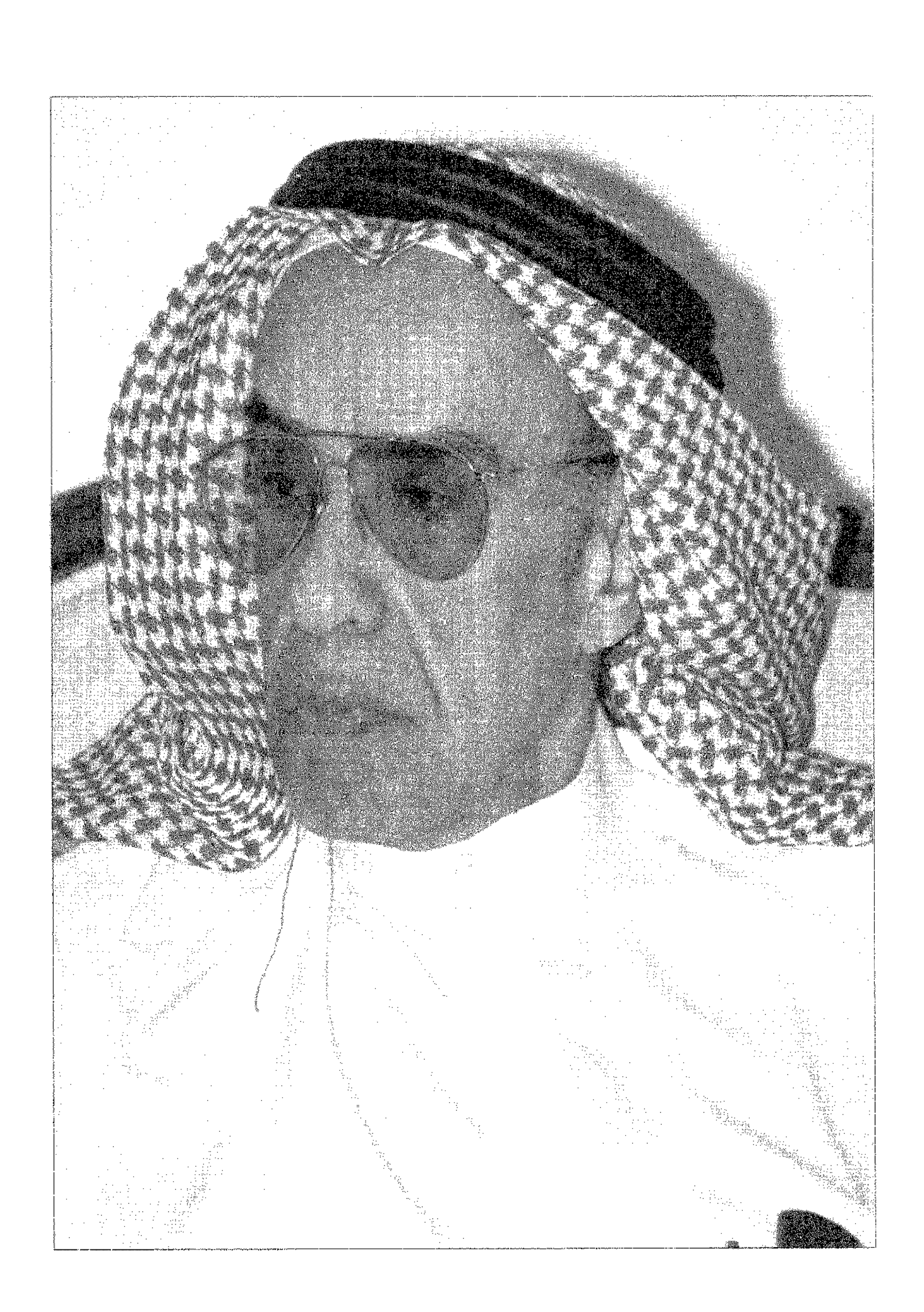
وقد شاء الله - قُبيل صدور هذا الكتاب - أن يلحق عدنان بوالديه وأشقائه، في ٢٨ صفر ١٤٣٨هـ (٢٨ نوفمبر ٢٠١٦م)، تغمّد الله الجميع بواسع رحمته.

(٣٢)

سعد البواردي (*)

بـــواردي الكلمـــة

(*) بمناسبة تكريمه في المهرجان الوطني للتراث والثقافة (الجنادرية ٢٩)، الشرق الأوسط العدد ١٢٨٦٩، بتاريخ ٢١/٤/١٤٣٥هـ (١٢/٢/٢٠١٤م).



قبل أسابيع، وفي لقاء مجلس أمناء مؤسسة حمد الجاسر الخيرية بالأمير (الملك) سلمان بوصفه رئيساً فخريّاً له، كان سموّه يداعبه بقوله: بواردي بلا بندق..! فالبواردي في العرف الاجتماعي والشعبي هو حامل البندقية.

والواقع أن لدى سعد البواردي سلاحاً أمضى من البنادق، وأبلغ من البارود، وهو سلاح الكلمة، الذي ما انفكّ يرفعه منذ أكثر من ستة عقود مجاهداً به، في وجه كل خلل اجتماعي، سلاحٌ لا تنقصه الصراحة، ولا يصدأ مع الوقت، ولا يتلاشى مع العاطفة، ولا تهزّه أعاصير الإحباط.

من سوء حظ الكاتب، أنه زامله في العمل التعليمي والثقافي، لكنه لم ينفتح على أعماق فكره ومكامن شخصيّته ومفاتيحها إلا بعد أن التقيا على أديم مجلس حمد الجاسر بندواته ومناسباته، وكانا أقرب ما يكونان صفاءً وحميميّة عندما تضمّهما مراكب الرحلات الثقافية، فهنا يتجلّى أبوعبدالرحمن في مزاج رائق صافٍ، ومجالسة تفيد المُرافق، من أديب يجيد الصمت والإنصات، لا يبتذل الطرفة، ولا يهذي بما لا يعرف، ولا يُعلّق لمجرّد التعليق، ولا ينتقد من أجل الانتقاد، وإذا تحدّث فعبارته منتقاةٌ موزونةٌ، وهو وطنيّ منصف، طيّب السريرة، لا يصبر على الخطأ و الخطل، ويطرب لجمال الطبيعة وحسن التنظيم، ينعكس مذاقه على هندامه وكلامه وطعامه.

تأثّر بقصد أو بدونه بالعلامة حمد الجاسر، فمشى وآخرون غيره من أمثال زميلنا الأديب عمران محمد العمران على خطواته، وحافظوا على نهجه ومدرسته ومجلسه في وفاء لا يبارى، وتعلّموا منه معايير الصراحة ورسالة الصحافة ومسؤولية الكلمة، وقد كان الجاسر والبواردي وُلدا في بيئة متقاربة الظروف الحياتية، متجاورة الموطن من إقليمي السر والوشم، لكن الجاسر وُلد وفي فمه ملعقة من عصير الحنظل، وولد الثاني (البواردي) على حال نسبيّة من اليُسر، فلقد كان والده أميراً لشقراء منذ مطلع العهد السعودي المعاصر في نجد، وذلك قبل ولادة المحتفى به بثلاثة عقود، ثم توفي وسعد لمّا يبلغ الثالثة عشرة بعدُ، وكان والده شاعراً نبطيّاً اشتهرت له قصيدة قالها في حرب شقراء مع ابن رشيد:

المباني تهاوي كل من جاها
ما يفك المباني كود أهاليها

ديرة صار داها اليوم برداها
ماتصح البلاد وعيبها فيها

كان ماتفزع اليسرى ليمناها
اعرف إن ما وطا هذيك واطيها

وكما تنقّل حمد الجاسر بين بلدات الوشم والقصيم ثم الرياض فمكة المكرمة، خرج البواردي من شقراء إلى عنيزة ليواصل دراسته فيها ثم انتقل إلى دار التوحيد بالطائف، لكن حظهما من التعلّم الذاتي كان أكبر مما

اكتسباه من التلقّن والحفظ والترديد.

وهكذا سار التلميذ بوجه عام على خطى شيخه الجاسر في أسلوب النشأة، وفي سلك الدراسة، وفي مسألة الزواج المتأخر، وقادتهما الصدف إلى مصاهرة أسرة بذاتها (العنقري)، ثم بفارق ثلاثة أعوام تماثلا في ممارسة النشر عندما قادا مشعل التنوير الصحفي في محيطيهما في الرياض والخبر، وبلغت التلمذة ذروتها عندما تعاونا معاً في إصدار مجلة اليمامة الحالية معاودةً الصدور في ظل مؤسسة اليمامة الصحفية (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).

واليوم يظل سعدٌ يردّد قول عوف الشيباني: «**إن الثمانين وبلّغتَها، قد أحوجت سمعي إلى ترجمان**» وهو لمّا يزال يمسك بالقلم في يمينه يواصل المقالة في عدد من المطبوعات، ويصدح لسانه في كل مهرجان يعنيه، يلتزم بحرية تعبير منضبطة سار عليها منذ اليوم الأول من صدور صحيفته «الإشعاع».

نزح سعد طلباً للرزق من شقراء إلى الخبر مروراً بالأحساء، ليعمل بالتالي في متجر لأدوات السيارات جامعاً بين الوظيفة والهواية، وقد بدأ يمارس الكتابة في «يمامة الجاسر» و «أخبار الظهران» للجهيمان والملحوق وفي صحيفة «البلاد السعودية» يرأس تحريرها عبدالله عريف، ثم صار بانتظام وبإنتاج غزير يكتب نثراً وشعراً، حيناً باسمه الصريح وحيناً بأسماء مستعارة، بحسب طبيعة الموضوع.

كانت مدينة الرياض (١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م) أسبق من المنطقة الشرقية بسنتين في إصدار المطبوعات الصحفية، باستثناء صحف أرامكو «مجلة قافلة الزيت وصحيفة الشمس والوهج بالإنجليزية» لكن الشرقية ما إن بدأت فيها جريدة «أخبار الظهران» لعبدالكريم الجهيمان وعبدالله الملحوق حتى تسابق صدور المجلات فيها، فلحقت بها صحيفة «الفجر الجديد» ليوسف الشيخ يعقوب، ومجلة «الإشعاع» لسعد البواردي، ثم مجلة «الخليج العربي» من الأحساء ثم من الخبر لعبدالله شباط، وانتهاءً بمجلة «مارد الدهناء» من سكة الحديد.

كان لافتاً للنظر في تلك الفترة إبان عهد الملك سعود تسارع صدور المطبوعات الصحفية في المناطق الثلاث: الوسطى والغربية والشرقية، وإن كانت السمة الغالبة عليها ضعفَ الإمكانات المادية والفنية، لكنها كانت تفخر بمستوى من الحريّة النسبية في ممارسة النقد الاجتماعي، وهي ظاهرة صحيحة إلى حدٍ ما لكنها جعلت معظم الصحف، والإشعاع من بينها، تدفع الثمن من أجلها بأنواع مختلفة من الإجراءات من بينها الإيقاف، ويكفي أن الظاهرة وهي ضعف بعض تلك الصحف دفعت الحكومة في عام ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م بُعيد إنشاء وزارة الإعلام، إلى تغيير نظام الصحافة مما كان يطلق عليه عُرفاً عهد الأفراد إلى ما سميت رسميّاً صحافة المؤسسات الأهلية الحالية.

وكان لافتاً للنظر ثانياً، أن المنطقة الشرقية التي أنجبت عدداً من المطبوعات الصحفية في السبعينيات الهجرية (الخمسينيات الميلادية) قد انكفأت فيها الصحافة في العقود الخمسة التالية مكتفية بصحيفة «اليوم» وبمجلة «الشرق» التي تحوّلت لاحقاً إلى جريدة يومية، في حين حافظت صحافة أرامكو على وضعها.

أصدر سعد البواردي مجلة «الإشعاع» الأدبية الاجتماعية الشهرية في مطلع السنة الهجرية ١٣٧٥ (سبتمبر ١٩٥٥م) واستمرت عامين، صدر منها خلالهما ثلاثة وعشرون عدداً جمعها مؤخّراً في مجلد واحد، مجلةً قاسمت سعداً حلالَه وراحتَه، لكنها باستقطابها أسماء لامعة وبثباتها على منهج من الصراحة والشفافية سجّلت نفسها علامة مضيئة من علامات النهضة الفكرية في شرق البلاد، وسجّلت صاحبها ورئيس تحريرها ضمن قائمة أبرز الروّاد في عالم الأدب والصحافة في المنطقة ذاتها، من أمثال عبدالله شباط ويوسف الشيخ يعقوب وشقيقه أحمد وعبدالكريم الجهيمان وعبدالله الملحوق وخليل الفزيع ومحمد أحمد الفقي وعبدالله الجشّي وخالد الفرج ومحمد سعيد المُسْلِم وعباس خزام وسعيد البريكي وموسى آل الشيخ حسّان وعبدالرحمن العُبيّد وموسى الشيخ علي ومحمد سعيد الخنيزي وأخيه عبدالله وحسن الشيخ فرج وعبدالمحسن الخنيزي ومهدي الشمّاسي وعبدالوهاب المجمّر وعلي باقر العوّامي وأخيه حسن، ومنهم من كتب بأسماء مستعارة مثل غازي القصيبي الذي نشر قصائده في تلك

الفترة تحت توقيع محمد العليني، ويمكن أن يضاف إلى تلك القائمة الشيخ عبدالله بن خميس وزملاؤه الذين أصدروا العدد اليتيم من مجلة «هجر» بالأحساء عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) وذلك فضلاً عن صحفيي أرامكو وعموم الأدباء وأرباب القلم، والصحفيين الآخرين المهاجرين من أبناء القطيف (كسلمان الصفواني).

لم يكن يدور في خَلَد البواردي عندما جاء إلى الخُبر وعمره في منتصف العشرينات، أنه سيلج إلى عالم الصحافة ولو من نافذتها، مقتفياً أثر أستاذه الجاسر في الرياض ونهج صديقه الجهيمان في الظهران، لكن التجربةَ بتحدّياتها كانت قد انغرست في ذهنه، وهواجسَ الكتابة الصحفية كانت تدغدغ خياله، فنجده يستجيب لاقتراح يأتيه من يوسف الشيخ يعقوب الذي تعرّضت صحيفته «الفجر الجديد» للإيقاف بأن يصدر البواردي صحيفة بديلة، جاعلاً من «الإشعاع» الذي ينبثق عن الفجر عند انبلاجه اسماً لها.

صمدت أخبار الظهران ومجلة الإشعاع سنوات قليلة، مشكّلتين علامتين بارزتين تُذكَران كلما ذُكرت الصحافة الأهلية في عنقود مدن المنطقة الشرقية (الدمام والخبر والظهران) ومنبرين للرأي النزيه الشفّاف، ضمن محيط تتلاطم فيه فورات الشباب المتحمس من عمّال أرامكو وغيرها، الذين أوقدت فيهم التقلبات السياسية وآلات الدعاية الثورية في المنطقة العربية رغبة استباق التغيير وطيش التقليد غير المدروس.

ومع أن الشاب المتحمّس المستنير سعد البواردي المتسلّحَ بالحرف والكلمة شعراً ونثراً الذي ولج عالم الصحافة مبكراً، كان يعي بتبصّر، مخاطر اللعبة الصحفية منذ بداياتها، حيث افتتح العدد الأول من الإشعاع بقوله «**ولا تنس يا صديقي القارئ أن المشعلَ الذي سنحمله من أجلك أبيضُ كالأمل الذي نعيش به، والمشعل يحوجه الوقود الذي يستمد منك قواه، والوقود الذي ننتظره منك: صراحةٌ في التعبير، ونزاهةٌ في النقد، والاتجاهُ معنا إلى ركب الحياة المندفع القوي**».

ويزيد في العدد الثاني من التأكيد على العزم على «**استمرار منهجه الثابت في ألا تكون الصحيفة بوقاً ولا مزماراً تدوّي منه صرخات عقيمة، وأن الصحيفة لن تتّخذ من لغة السباب والتهكّم أسلوباً تلج منه إلى قلب القارئ الساذج**» وقد طرق في العامين اللذين أصدر فيهما الإشعاع موضوعاتٍ اجتماعيةً حساسة في معيار تلك الحقبة، ليس أقلَها الدعوةُ إلى تعليم الفتاة، الموضوعِ الذي اكتوى به كثير من حملة القلم آنذاك.

ومع أنه كان يسير في صحيفته بوعي وبصيرة، فإنها لم تسلم في آخر عامها الثاني من الوقوع في المحذور غير المتوقع، عبر جرأة متزايدة في نقد ممارسة بعض الهيئات الحكومية، فكان حظها من العقوبة الإيقاف وحبسَ صاحبها لأكثر من شهرين، وانطواءَه نحو عام في صومعة داره في مسقط رأسه؛ شقراء، وهو ما ستوضّحه أوراق أخرى في هذه الندوة، تتحدث عن حياته العملية ومسيرته الأدبية والتأليفية، وعن مجلة الإشعاع ونهجها الصحفي.

وبعد؛ في مجتمعاتنا العربية، هناك شخصيّات لها تاريخ، ماض وحاضر، ولها مجد وإرث، نعايشها يوماً بعد يوم، لكننا نادراً ما نفكّر بإنزالها المنزلة التي تناسب مكانتها الرفيعة التي بنتها، أو بتكريمها التكريم الذي يتلاءم وتاريخها، شخصيّات نقابلها ونتعامل معها ونسمع عنها إذا كانت إدارية أو سياسية، ونقرأ لها إذا كانت شخصيّات ثقافية، كتّاباً أو شعراء أو باحثين، نتحدث داخل مجالسنا عن أبرز إنجازاتها ومآثرها، ثم لا نهتم بها إلا بعد أن ترحل ويفوت الأوان بانطفاء ضوئها.

إن كثيراً من الروّاد والأعلام، قد يتناقص الاتصالُ بهم في السنوات الأخيرة من حياتهم، وتخفت الأضواءُ من حولهم، ولولا أن الله يهبهم أُسَراً نشطةً مؤمنةً بأهدافهم أو تلامذةً أوفياءَ يخلّدون أسماءهم ويحافظون على مجدهم وإرثهم، لربما يكونون في عداد المنسيين الذين لا يدري المجتمع ما إذا كانوا أحياءً أم صاروا في قائمة الراحلين.

ثم لولا أن في مجتمعنا مؤسساتٍ رسميةً ومدنيةً من مثل هذا المهرجان تعمل في الوقت المناسب على إبراز مآثرهم والتذكير بهم وهم أحياء، لكان هذا الحكمُ التعميمي هو الأصدقَ، وما سعد البواردي وعبدالله شباط إلا من هؤلاء.

واليوم على صعيد العاطفة، هرولنا لنشهد هذا التكريم الوفيّ المُستحقّ له، وكانت المشاعر على جناح الحب والأخوّة قد سبقت الأقدام إليه، وهو الذي عهدناه أبداً منذ أيام «اليمامة والإشعاع» ملتهبَ الإحساس بالوطنيّة، مخلصَ الرغبة في التطوّر والإصلاح، صادق التعامل والأقوال والأفعال.

ولئن تأخرنا في تكريمه، فإنه قمّة لا يزيدها التمجيد شموخاً، ولا المديح رفعةً، ولا يبلغ بها الثناء منزلةً ومقاماً، وحينما كنا نكتم مشاعرنا نحوه فإنه الأعلمُ بما نكنّ، والأزهدُ بما يقال.

أحسب أن سعداً «وشمٌ» على جبين الثقافة الناصع، و «إشعاعٌ» في سماء التنوير، و «واحةٌ» في صحراء النوايا الصادقة، و «يمامةٌ» عاليةُ التحليق في فضاءات الكلمة المخلصة، دائمةُ التغريد في أجواء الحق والحقيقة.

يقول عاشق الوطن الشاعر سعد البواردي:

عيناي ، ما هابتا ليلاً و لا غسقا
فأنت يا موطني في مهجتي أَلَقا

أراك في كل وجهٍ من بني وطني
عينين لم تطبقا جفناً و لا حدقا

أراك فجراً تسرّيني نسائمه
و صوت حبٍّ يفيض الدفء مذ نطقَ

أراك فارس أحلامٍ... وما انتكست
له على العهد راياتٌ إذا امتشقا

أراك «رملاً» كلون التبر ألثمه...
أراك «طوداً» لكل الطامحين وقى

أراك «نخلاً» و «رماناً» و «أودية»
«الروض» فيها على من حوله عبقَا

أراك مهدَ حضاراتِ.. وسِفرُ علا
ضميرها فيك لم يهزم.. و ما نفقا

أراك تاريخ «أمسي» أمنيات «غدي»
أراك يومي.. أرى نفسي بكل لقا

أراك «حُراً» و «عدلاً» «عزةً» و «إباً»
أراك «طهراً» و «نبلاً» «عفة» و «تقى»

أراك أجمل وجهٍ قد فتنت به
فما لغيرك «حسناً» ناظري عشقَ

عشتَ سعداً لتملأ الأفق المتلهّف إلى عطائك، وحق للوطن أن يكرمك ويفخر بك، ولك أن تزهوَ بهذا التكريم، ولنا أن نطالبك بالمزيد من الإبداع.

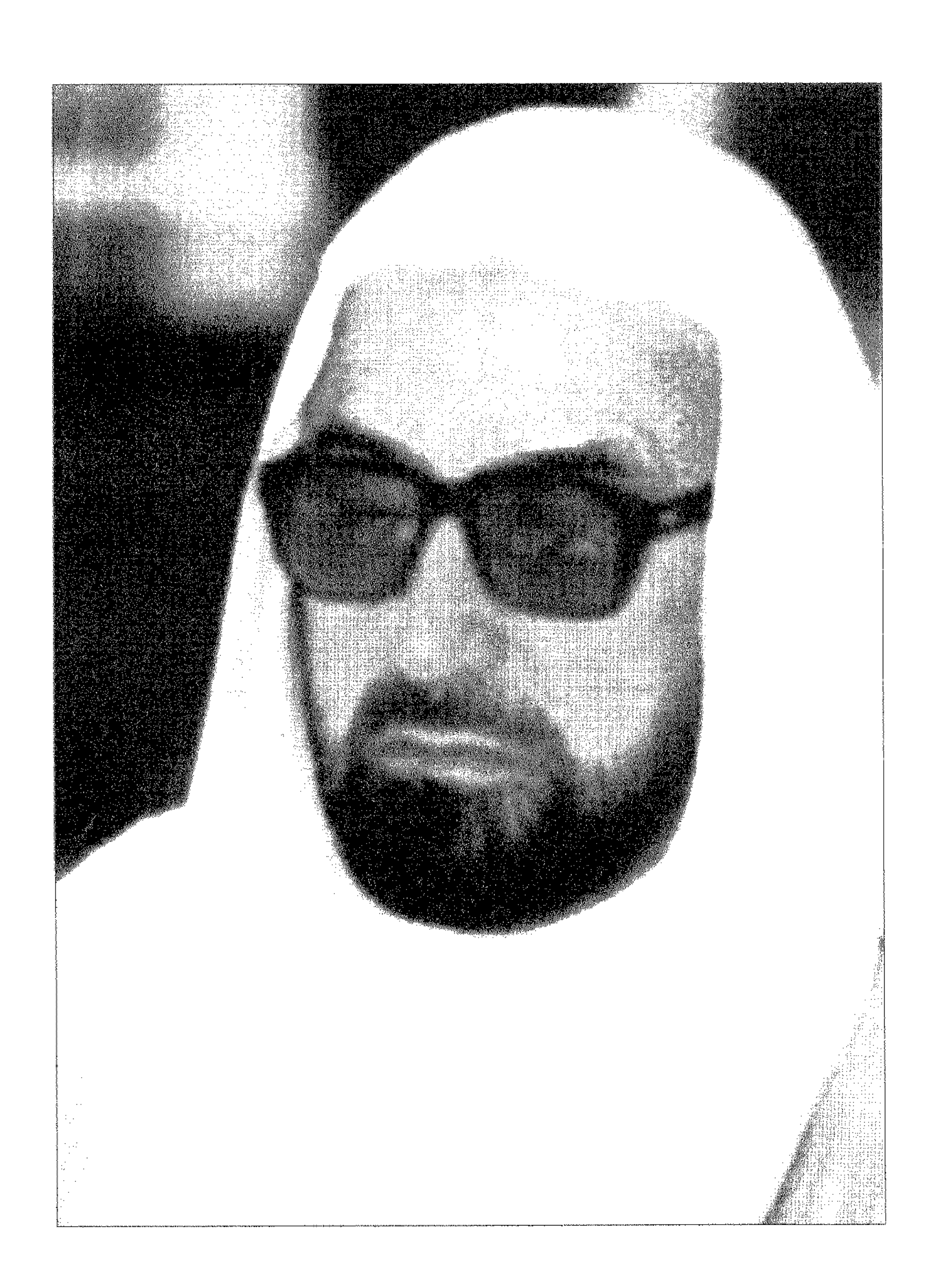
لك طول العمر يا سعد... والسلام.

(٣٢)

حمود بن عبد العزيز الفايز (*)

بين الشـورى والقضـاء

(*) في تكريمه في ندوة حقوق الإنسان ومكافحة الفساد بمركز الرحمانية الثقافي بالغاط (١٠/٣/١٤٣٣هـ - ٢/٣/٢٠١٢م)، الجزيرة، العدد ١٤٣٧١ في ١٠/٣/١٤٣٣هـ (٢/٢/٢٠١٢م).



لا أكتمكم القول، إن هذا المركز ظل لأكثر من عام، وهو يبحث عن أسلوب يستطيع بواسطته أن يكرّم فضيلته، دون أن يجرح مبدأً ظلّ مذ عرفناه جزءاً من شخصيّته وتكوينه، فهو في عداءٍ مزمن مع الأضواء، وهو في خطٍ معاكس مع كلمات الإطراء قيلت أمامه أو خلفه، فجاءت هذه المناسبة التي سمعنا فيها من زميلينا خلاصة تجربتهما مع عملهما الجديد في عامهما الأول، ليذهب إليه مضيفنا الدكتور زياد في منزله، ويقول له: «**يا أبا فيصل، إن قبولك الدرع هو تكريم لنا نحن، قبل أن يكون قدراً لك**».

في عالم اليوم، أناس نعرفهم بسيماهم، يعزُفون عن البهرجة، فلا تستطيع الأضواء العثور عليهم ولو حرِصَت، وآخرون لا يتزاور الوهج عنهم ذات اليمين ولا يُقرِضُهم ذات الشِمال، لأنهم يتجاذبونه إلى أنفسهم وعلى ذواتهم بالقوة، والشخصية المكرّمة بالحيلة هذه الليلة، من عجينة متوارية، لا يجيد فن تصدّر المجلس، وهو لا يحيد عن الظهور فحسب، لكنه يشقى به، يتعبه لأنه ضد ميوله وقناعاته.

هل رأيتم شخصيّةً في قدره وعلمه وتاريخه، لا تختزن قواعد المعلومات عنه سوى رؤوس أقلام؛ تاريخِ ميلاده الذي لا يخفيه عام ١٣٥٩ للهجرة، ومحافظة المذنب التي ولد فيها وقرية الفرعة التي احتضنته، وأنه درس في

معهد شقراء، و درّس في معهدي أبها والمجمعة وفي كلية الشريعة، وأن رسالته في الماجستير من المعهد العالي للقضاء كانت بحثاً عن الأسرة في الإسلام، وأنه اختير قاضياً في هيئة التأديب، متبوعاً بعضوية مجلس الشورى ورئاسة ديوان المظالم فيما بعد.

أما المقابلات الصحفية والإذاعية والتلفزيونية، فهي أصلاً خارجة عن قاموسه، والمشاركة باللجان والمؤتمرات والرحلات الرسمية والندوات، فهي عنده، قلّت أو كثرت، ليست مما يلائم قلم الضبط والتدوين في سيرته الذاتية، المعدودة الكلمات أصلاً.

عرفناه في مجلس الشورى وديوان المظالم، وفي السفر والترحال، وفي ممارسة هواية المشي، وفي جلسات السمر الإخوانية، وعلى مستوى العلاقات الاجتماعية، فوجدناه في كل موقع ومناسبة، تزداد المعرفة به وثوقاً، والمحبة عمقاً، والمنزلة احتراماً ورفعة وإجلالاً، وما ألفيناه يوماً مدّعياً بعلمه، أو بازّاً بأهليّته، أو متعلّياً بمكانته الإدارية، أو متشدّقاً بفتيا، أو متقدّماً لإمامة صلاة، ذلك أنه خرّيج مدرسة، لا يسجَّل فيها إلا الندرة من الرجال الأشداء على أنفسهم، مدرسةٍ ليست للفقه ولا للعلوم ولا للفلسفة، بل هي مدرسة في أصول الأخلاق، وأكرم بها من أكاديمية، وأعظم به من تخصص و دبلوم امتياز.

أعلم أنه ينحدر من بيت لا يخلو من قول الشعر، نبطيّه وفصيحه، بدءاً من والده، مروراً به وبأخيه، فما وجدناه يوماً ينشره أو يرويه، أو حتى يعترف به، لكنني وددت أن أسمعكم شيئاً من مرثيّته المؤثرة بوالده التي

تحايلت على ابنه للحصول عليها، يقول منها:

أقــول، وقـد أُبـلِغـت أنـبـاء أُسـرتـي
بــأن عـمـود الـبـيـت أصـبـح هـامـدا

أيـا رب غـفـرانـاً وعـفـواً لـمـن مضى
وصـبـراً وسـلـوانـاً لـمـن صـار فـاقـدا

بكيت بـدمـع الـعـيـن، لـو ينفع البكا
وأصــدرت آهــآت تـهـزّ الـجـوامـدا

ترى هل سلوا أهلي وأُنسُوا حبيبهم
ومـا حـالـهـم بـعـد الـفـقـيـد مـبـاعـدا

ومـا حــال إخـوانـي الـصـغـار وأمـهـم
تُرى هـل بكـوا؟ أعني سعـوداً وخـالـدا

فـيـا والــدي، إنــي فـقـدتـك والأســى
يُـمـزّق أحـشـائـي ويـبـقـي شـواهـدا

شـحـوبـاً وإطـراقــاً وسُـهـداً ولـوعـة
وزفــرات مـحـزون الـفـؤاد مُـكـامـدا

والليلة حينما يكرّم مركز الرحمانية الثقافي شيخنا الفاضل، الذي درس على عبدالله بن حميد وعبدالعزيز بن باز وصالح الحصيّن ونهل من زهدهم، فإنما يكرم في شخصه القيَم والعلمَ ولين الجانب، يكرم شخصاً يكرّس وقته ما استطاع لإصلاح ذات البين، شخصاً عَرف فيه أقرانه في المذنب والفرعة وشقراء رمزاً لعصامية جيله، في المشي حفاةً مسافات

من الكيلومترات طلباً للعلم، شخصاً تصدّر قائمة المتفوّقين الناجحين من دفعته في معهد شقراء وفي المعهد العالي للقضاء، شخصاً نرى فيه نموذجاً لتواضع العلماء والكبار، ومثالاً يحتذى للواثقين من أنفسهم، وقدوةً لذوي الأنفس العزيزة، وفقيهاً يذكّرنا بمذهب شيخه الراحل محمد بن جبير، وهنا أؤكد باسم زملائي، كم نحن مع أخينا د. زياد السديري نشعر أن قبوله لدرعه الصغير هو تقدير لنا جميعاً قبل أن يكون قدراً له.

(٣٤)

عبدالله بن إدريس (*)

مترجم «شعراء نجد المعاصرون»

(*) بمناسبة تكريمه في المهرجان الوطني للتراث والثقافة (الجنادرية ٢٥)، ثم صدور سيرته «قافية الحياة»، الشرق الأوسط: الثلاثاء ٣٠ ربيع الأول ١٤٣١هـ، ١٦ مارس ٢٠١٠م، العدد: (١١٤٣١).



سمّاه أحدهم: أديب التوازنات، وسماه آخر: البحر العذب، وقال عنه المحرر الثقافي لجريدة الجزيرة: إنه رمز مرحلة، وشاهد على مرحلة، ورائد المراحل، وأطلقتُ عليه المصطلح النقدي المعروف: السهل الممتنع.

ترجم قبل نصف قرن لأبرز «شعراء نجد المعاصرون» في حينه، فأصبح ابن إدريس يُعرف بكتابه الأوّل، وأصبح الكتاب الذي أعيد طبعه لا يُعرف إلاّ به، وحظي منذ صدوره بكثير من الاهتمام والنقل عنه.

قلّده الملك عبدالله وشاح الملك المؤسس عبدالعزيز، أرفع وسام سعودي، تكريماً من المهرجان الوطني الخامس والعشرين للتراث والثقافة، الذي يترادف اسمه وشهرته مع روضات (الجنادرية) التي تحيط بمدينة الرياض.

عرفت شخصية هذا المقال أول ما عرفته، أواخر الخمسينيات الميلادية، يزور المعهد الذي تخرّجتُ فيه، يفتّش على مناهجه وأداء أساتذته ومسلك طلابه، فيحسب له المعهد كله الحساب الذي يليق بصراحته ودقته وإخلاصه.

وعرفته قارئاً له، وقد أصدر دراسته الباقية (شعراء نجد المعاصرون) السالفة الذكر، وهو أول كتاب مرجع يُعرّف بشعراء نجد المعاصرين ويتحدّث فيه عن أدبهم وحياتهم، كتابٍ تتجدد قيمته وطبعاته، مع كتب مماثلة صدرت في الحجاز، تحكي بدايات الأدب السعودي بأطيافه الشعرية المتنوّعة، هذا العمل الرصين الذي يذكّر بما أصدره الطيب الساسي عن شعراء الحجاز، وبما أصدره محمد سعيد عبدالمقصود خوجة وعبدالله بالخير (من وحي الصحراء) من أعمال توثّق بدايات النهضة الأدبية السعودية.

وعرفته إعلامياً، وأنا أتردد عليه في منزله المجاور لإذاعة الرياض في شارع الفرزدق المجاور لمنزله في شارع الجامعة لأنتزع منه كلمات تربط برامجها في الأشهر الأولى من ولادتها قبل ما ينيف على خمسين عاماً (١٩٦٥م)، حيث حققت الإذاعة في أيامها الأولى مركزاً نوعيّاً مرموقاً بين مثيلاتها من الإذاعات العربيات.

وعلى مدى خمسين عاماً منذ افتتاح إذاعة الرياض ثم التليفزيون استمرّت صلةٌ معه لا تنقطع ولا تتأثّرُ إلا بعمق وازدياد، يمثّل بالنسبة لجيلي مرجعية الأستاذية والأخوة، ترفدها صداقة امتدّت مع أبنائه وبيته الكبير المفتوح.

وعرفه المجتمع الثقافي السعودي، شاعراً عملاقاً نافح عن الفصيح،

ودخل في معركة أدبية مع الشاعر الكبير عبدالله بن خميس (١٩٨٣م) منتقداً طغيان الشعر العامي (النبطي) في وسائل الإعلام، وعرفه ناقداً، وتنويرياً، وكاتباً جريئاً، وهو إلى جانب إجادته للشعر المقفّى، يُعدّ بحق أحد روّاد شعر التفعيلة الحديث.

أما إذا أراد القارئ أن يمتّع ناظريه بشيء من شعره، فلينحّ دواوينه الخمسة جانباً، وليقرأ قصيدته المتأخّرة التي خاطب بها عام ٢٠٠٨م قرينته الوحيدة «أم عبدالعزيز» وهي مكوّنة من خمسة عشر بيتاً.

وقد عدّها بعض النقّاد عند صدورها « قصيدة العام» وقال عنها د.غازي القصيبي «هذه ربما تكون أجمل قصيدة رومانسية كتبها شاعر من صحراء نجد، في زوجته، وقد بلغ التسعين، في بيئة ثقافية نجدية»:

أأرْحَلُ قَبْلكِ أمْ تَرْحَلين
وتَغرُبُ شَمْسي أمْ تَغرُبين

ويَنْبَتُّ ما بيننا من وجود
ونسلك درب الفراق الحزين

ويذبل ما شاقنا من ربيع
تؤرجه نفحة الياسمين

وتسكب سحب الأسى وابلاً
على مرقدٍ في الثرى مستكين

***

فإن كُنْتُ بادئ هذا الرحيل
فيا حزن رُوْحٍ براها الحنين
وإن كُنتِ من قد طواها المدى
فيا فجعة لفؤادي الطعين
لقد كُنتِ لي سعد هذا الوجود
ويا سعدنا بصلاح البنين
هُمُ الذخر دوماً بهذي الحياة
وهم كنزنا بامتداد السنين

***

سلكنا سويا طريق الحياة
وإن شابها كدرٌ بعض حين
لقد كُنتُ نعم الرفيق الوفيّ
وأنتِ كذاك الرفيق الأمين
لك الحمد يا رب أن صغتها
خدينة دينٍ وعقلٍ رصين

***

تسابقني في اصطناع الجميل
وتغبطني في انثيال اليمين
فيا زخّة من سحاب رهيف
ويا نفحة من سنا المتقين

حياتي بدونك حزٌ وقزٌ
وأنت على صدق ذا تشهدين

وينفض سامرنا موغلا
رحيلاً إلى أكرم الأكرمين

***

فهو شاعر يتّخذ مكانه باقتدار بين أدباء الجيل المخضرمين، ويتربّع في الوقت نفسه على سدّة الشعر، ينحو منحىً مجدّداً فيه، ودخل عالم الصحافة من أبوابها الواسعة، فأصبح نسيجاً مركّباً من التعليم والأدب والإعلام.

التقيته متدثراً بوقار زيّه العربي البسيط، وقد كان في رحلة استجمام واستشفاء في باريس، يزور ابنه الأصغر د. زياد (صاحب اليونسكو) الذي جمع له ثلة من الأدباء العرب، ليمتّعهم بذكرياته، ويتلو عليهم آخر قصائده، عن مشاهداته في جادة الشانزلزيه، وما فيها من صور الحضارة الفرنسية متعددة الوجوه.

عبدالله بن إدريس من مواليد حَرْمَة، المدينة التاريخية المعروفة في إقليم سُدير شمال العاصمة، تخصص في العلوم الشرعية والعربية، وعمل في التدريس وفي التوجيه التربوي، وفي المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، وتولّى رئاسة تحرير مجلة الدعوة، والأمانة العامة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ورئاسة النادي الأدبي بالرياض، وله

عشرة مؤلفات، وخمسة من الأبناء.

ذكرياتي معه تعود ـ كما قلت ـ إلى تلك الزيارة في عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) عندما زار مدينتي «عنيزة» شاب الثامنة والعشرين في الشهر الأول من وظيفته، مفتّشاً على المعهد العلمي، فيصادف ليلةً ثقافيةً شهريةً، شارك فيها ضيفَ شرف، بكلمة استهلها بذلك البيت الذي عبّر عن ملامح الهيبة في شخصيّته، وكأني به أشفق على طفولتنا من أن يُسمعنا بقية القصيدة التي تقول:

وإذا تكون كريهة أُدعى لها
وإذا يُحاس الحيس يُدعى جندب

وإذا الشَّدائِدُ مَرَّةً أَشْجَتْكُمُ
فأَنا الأَحَبُّ إِليكُمُ والأَقْرَب

عَجَبٌ لتلكَ قَضِيَّةً، وإِقامَتِي
فِيكُمْ على تِلْكَ القَضِيَّةِ أعجَبُ

أَلِمالِكٍ خِصْبُ البلادِ ورعْيُها
ولِيَ الثِّمادُ ورعْيُهُنَّ المُجْدِبُ

(والثماد: الماء القليل).

وكان قد نشر انطباعاته عن تلك الزيارات التفتيشية لمعاهد المملكة في صحيفة اليمامة في حينه.

ولقد عشت بوجه خاص مع أسلوبه الشيّق وصفَ طرَفٍ من بيئة نشأته

الأولى، وذكرياته في رباط الطلبة في ميدان دخنة ومسجد سلام، وأيامه مع مفتي البلاد الشيخ محمد بن إبراهيم وأخيه الشيخ عبداللطيف في دروسهما المسجدية وفي المعاهد والكليّات، ومع بقية مدرّسيها، في إلماحات تناولها ضمن مشواره الدراسي، وسردها في «قافية الحياة» بقلب مفتوح، وبشفافية ذكّرتني بالأجواء الدراسية نفسِها التي عايشتها بعده ببضع سنوات.

وفي كتابه «قافية الحياة» استطاع ابن ادريس التوفيق بين معشوقته (القصيدة) وتدوين مذكراته، وأن يكون لوالديه، ولمدينته الوادعة العريقة (حَرمة في سدير) ولوصف الحالة المعيشية والتعليمية والفلاحية فيها، والرياض التي أدرك دروازاتها الست وحاراتها القديمة، والمشايخ الذين قرأ عليهم، وصلاته بعدد كبير من الشخصيّات الرسمية والإعلامية والثقافية التي مرّت في حياته، وقصة شطب الملك فيصل لاسمه ضمن منشئي مؤسسة اليمامة الصحفية، وقصيدته الهجائية الأولى عند اختبار دخول المعاهد، وبداياته الشعرية في جريدة المدينة، والمقالة الأقدم في جريدة البلاد، ومطارحاته حول العامية، وخصوماته الأدبية مع أحمد عبدالغفور عطار وعبدالقدوس الأنصاري وعبدالله بن خميس، وعن ارتباط اسمه بشعر التفعيلة، وقصة مجلة الدعوة وطبخة «الكونياك» التي اشتمّ مجلس الوزراء رائحتها، والعمل في المعاهد والكليات، وفي وزارة المعارف، وفي جامعة الإمام، وفي نادي الرياض الأدبي، وعن رحلاته السياحية ومشاركاته في المهرجانات الثقافية، وزيارة الوهّابي

للنجف، وأن يفرد لشريكة عمره الوحيدة (أم عبدالعزيز) ما استحقّته منه من مشاعر وبخاصة قصيدته الشجيّة معها، وقصيدته المؤثرة عن مؤذّن الرياض الشهير «ابن ماجد» عند تجديد بناء الجامع الكبير، وهي وقفات موجزة لبعض محطات حياته التي اجتهد في اختصارها عن أن تبلغ أضعاف حجم «قافية الحياة».

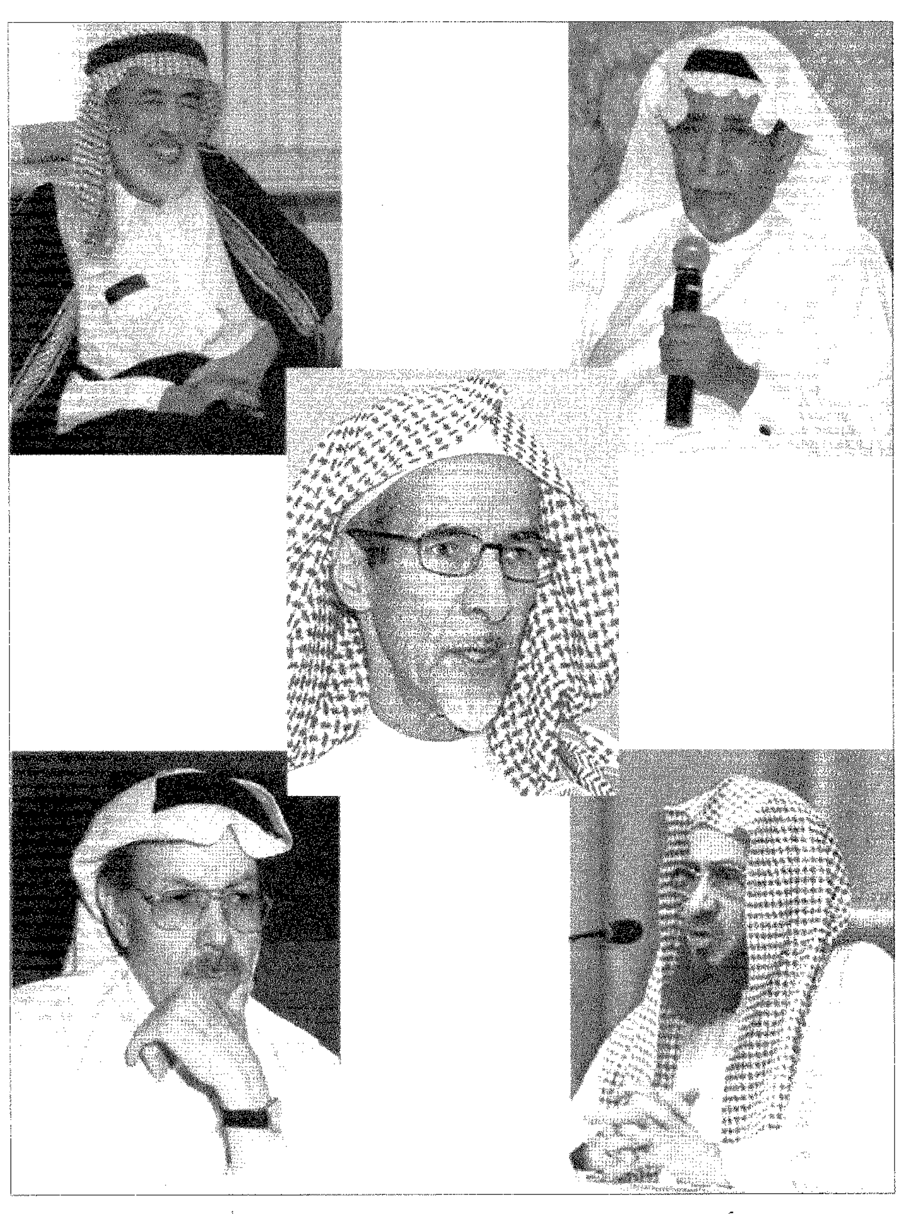
إنه «ابن إدريس» أحد رموز الفكر المستنير في الجزيرة العربية، كما عرفناه عبر خمسة عقود ونيّف، أستاذاً وأديباً وصديقاً، وتنويريّاً وسطيّاً، وأباً لأسرة متصافية، ومبدعاً متدفّقاً لشعر عذب، جعله حاضراً في ذاكرة الوطن، وطوداً من أطواد الفكر في المجتمع، وعلامة فارقة في الثقافة والتربية والإعلام، ونهجاً يلتزم الإسلامية والعروبية والوطنية، ألبسه الله ثوب الصحة والعافية، ومدّ له في العمر والعمل الصالح.

(٣٥)

حيرة قلم في تكريم قِمَم(*)

د. عبد العزيز الخويطر
د. عبد الله العثيمين
عبد الفتاح أبو مدين
أبو عبد الرحمن ابن عقيل
أحمد الصالح

(*) في مهرجان عُنيزة الثقافي الخامس (الأحد ١٨/٦/١٤٣٧هـ - ٢٧/٣/ ٢٠١٦م)، الجزيرة، العدد ١٥٨٨٧ في ١٩/٦/١٤٣٧هـ (٢٨/٣/٢٠١٦م).



من الأعلى: د. عبدالعزيز الخويطر، د. عبدالله العثيمين

وبالمنتصف: أحمد الصالح

ثم أبو عبدالرحمن ابن عقيل، وعبدالفتاح أبو مدين

قال الملك فهد عند تشكيل مجلس الشورى ما معناه «**نحن لا نجد صعوبة عندما نختار الكفايات، لكننا نحتار في المفاضلة بين المؤهّلين**» وأحسب أن هذا الموقف هو ما يواجه استحقاقات التكريم في المهرجانات الثقافية، ومهرجان عنيزة الثقافي ليس الاستثناء، ولكن فرط التكرار جعله الحقيقة.

في هذه المدينة حيث تتعانق النخلة والقلم، عَرَف تاريخها أن المعارف هي تاج التجارة، وأن العلم هو مبلغ الرصيد بين المدائن، وأن الثقافة ثروة وطنية مشاعة، تشبه رِكازَ الأرض وثمارَ الطبيعة وغيثَ السماء.

تذكرت مقولة الملك فهد مرتين وقف فيهما القلم حائراً، وهو يكتب عن سير شخصيات متنوّعةِ المواهب سامقةِ الكفايات، كانت الأولى عند الحديث قبل عامين عن ثلاث قامات فكرية متقاربة في نهجها وعطائها: حمد الجاسر وعبدالله بن خميس ومحمد العبودي مجتمعين، وكانت الثانية عند التفكير بهذا التقديم عن خمسة من رموز الفكر، على درجة عالية من التأهيل والعطاء العلمي والإنتاج الثقافي.

ولئن طاب لمحدّثكم أن يَعرِف المكرّمين الخمسة عن قرب، فإن المقام لا يتّسع للتعريف بهم بمستوى مكانتهم، فكل واحد منهم رمز يستحق مصنّفاً، ولكل منهم تاريخ لا تفيه صفحات.

فالدكتور الخويطر، هو أبو التاريخ، وعميد حملة الشهادات العليا، وإمام النزاهة والترشيد والتواضع، وهو «ثروة وطنيّة» جمع بمهارة بين الوظيفة القيادية والفكر، وارتبط اسمه بالتعليم والنظام والسياسة، كان شخصيةً واحدة بسمات متعددة، رحل بعد تسعين عاماً، محمود الذكر والخبر والأثر، وبحصيلة من المؤلفات تفوق (٢٥) عنواناً متعدد الأجزاء والموضوعات، منها «وسمٌ على أديم الزمن» الذي أبان فيه قدرةً مذهلةً على رصد يوميّات حياته منذ صغره، بحجم غير مسبوق فاق الأربعين مجلداً.

وأما الدكتور العثيمين، المرجع الموثوق في تاريخ الوطن، وفي سيرة الملك المؤسس، فإنه اغترف من ثلاثية التحصيل؛ مدرسة المعلّم ابن صالح، ومن فقه شقيقه الشيخ محمد، ومن تخصّص أستاذه د. الخويطر، وتنفّس الوطنية عبر رئات ثَلَاث؛ العروبة وفلسطين وعنيزة، وثار في إبداعه الشعري على ثُلوثية التخلّف؛ الجهل والتخاذل والانهزام، وتدثّر بثلاثة لُحُف: البساطة والموقف والإباء، وله من رصيد التأليف ثلاثون ديواناً وكتاباً، حظي تاريخُ الوطن وحياةُ فارس التوحيد بالنصيب الأوفى منها، ونالت مُلهمته «الفيحاء» بعضاً منها، فقال في

ديوان خصّصه لها:

حبيبتي، أنت يا فيحاءُ، مُلهمتي
ما خطّه قلمي شعراً، وما كتبا

كان منذ صغره، ومع اغتصاب فلسطين وثورة الجزائر وأزمة البريمي، يروح ويغدو، وفي حلقه غُصّة يتجرّعها قهراً وألماً من وضع محيطه العربي، يقول منذ ستين عاماً نثراً وشعراً عروبيّاً يستحث به الهمم، ويناهض به الخنوع والانهزام، يقرأ فيه واقع اليوم:

يا أخي؛ إن كبّلوا الأحرارَ ظلماً بالسلاسل
ورموا في السجن عسفاً كلّ قومي مناضل
ورأيت الشّيبَ والأطفالَ تُرمى بالقنابل
ورأيت الطغمةَ الحمراءَ تغتال الأرامل
ومضى يُمعن بالإرهاب سفّاحٌ مُخاتل
لا تخف، فالحكم حكم الفرد والإرهابُ زائل

وإذا ما ذُكر أبو مدين، فلا بدّ أن نستبين من بين كتبه العشرة «حكاية الفتى مفتاح ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م» سيرته الذاتية التي صدّرها د. عبدالله الغذّامي بمقدّمته، وسرد فيها عبدالفتّاح وقائع طفولة مبكّرة بدأت سنة ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م من بنغازي بليبيا، ثم بالنشأة في المدينة المنورة، بكثير من الشفافية التي عرفتها السير والتراجم

الحديثة، ولابد لتاريخ الصحافة أن يذكر مشاركاته الصحفية بدءًا من صحيفة «البلاد» وأن نذكر اشتراكه مع محمد سعيد باعشن لإصدار الصحيفة الرائدة «الأضواء ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م» وكتاب الأضواء، وأن نتذكر مجلة «الرائد ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠م» التي مَلَك امتيازها منفرداً، ولابدّ أن نُشيد به واحدًا من أنجح من مرّ على النادي الأدبي بجدة رئيساً لبضعة أعوام (بدءاً من سنة ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م).

لمع في عهده انتعاش منبري وحراك مطبوع من الكتب والدوريّات النقديّة والثقافية الرصينة كـ «جذور ونوافذ وعلامات» أعادت للوهج مخايلَ الحداثة ونفثاتِها، بعد عقود من ظهور كتاب محمد حسن عوّاد أول رئيس للنادي (خواطر مصرّحة ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٦م) الكتاب الذي احتفى به الناشئة من أدباء الحجاز في مطلع العهد السعودي، وقد شخّص الأديب الناقد د. عبدالله الغذامي أحد من عرفه عن قرب، سِيماءَ أبي مدين بقوله لصحيفة الرياض (**تعوّدنا في وسطنا العملي والعلمي على أن كلمة «الأستاذ» هي مفردة خصوصيّة تعني عبدالفتاح أبو مدين، وهو بحق أستاذ في المنهجية العملية والإنتاجية جعلت عملنا في النادي بجدة خليّة حيّة دائبة التحرّك والمحبّة والإنتاجيّة، إنها صناعة الأستاذ**).

أما إذا حاضر أبو وديع عن مفكّري الحجاز في القرن الماضي كالعوّاد وحمزة شحاتة وعزيز ضياء ومحمد سرور الصبّان ومحمد

حسين زيدان وأحمد السباعي وعبدالقدوس الأنصاري وعبدالله عريف وأحمد قنديل ومحمد علي مغربي وحسن قرشي وحسين سرحان ومحمود عارف وعبدالوهاب آشي ومحمد حسن فقي وأحمد إبراهيم الغزاوي ومحمد عمر توفيق، أو عن أدباء مصر كالزيّات والمنفلوطي وشوقي والمازني والعقّاد والرافعي ومحفوظ والسباعي وطه حسين وسلامة موسى، أو عن أدباء المهجر كإيليا أبي ماضي وجبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني فإنك تتمنّى ألّا يتوقّف.

قال صديقه الأديب السعودي محمود عارف (المتوفّى في جدة سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م) من قصيدة طويلة له بمناسبة تكريم أبي مدين في إثنينيّة عبدالمقصود خوجة بجدة:

صاحب الأضواء والرائد أُهدي
لك من أعماق قلبي صدق ودّي

جئتُ في تكريمك اليوم أُؤدّي
بعض أفضالك في حجم اختصار

يا أبا مدين يا رمز الشمم
يا رفيق الدرب في دنيا القلم

يومُ تكريمك، عيدُ الأصدقاء
في مقام الحب طاب الاحتفاء

وماذا عسى أن يُقال عن ابن الوشم الشيخ أبي عبدالرحمن محمد ابن عمر بن عقيل «خزّان المعلومات، وتلميذ الشيخين ابن حميد وابن باز» الموسوعي الذي جمع بين الفقه والتفسير والحديث والأدب والنقد والفلسفة والمنطق واللغة والبلدانيّات والتراجم والشعر بلونيه والعَروض، والمقالة البحثيّة المطوّلة، ومساجلة الأقران من الأدباء والعلماء، أديبٍ قرأ عن فلاسفة الغرب فرويد وديكارت وسارتر وروسّو وهوغو وموليير وهيغل ونيتشه، وظهر عليه في مقتبل عمره ميل نحو أهل الفن ثم انصرف عنه بتأثير من الشيخ ابن باز، وعَشِق «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسي الظاهري (من فلاسفة القرن الخامس الهجري) فكتب عن عبقريّته وتأثّر بمدرسته وأسس دار نشر باسمه، ثم تحفّظ على اجتهاداته العقدية، وأُعجب بأبي تراب الظاهري (المتوفّى في مكة المكرمة سنة ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م) وعقد مع القصيبي رفقة صداقة وفكر، وأصدر ما يربو على خمسة عشر مؤلّفاً بينها ديوانا شعر، وهو صاحب امتياز الدوريّة التاريخيّة «الدرعيّة» ومحرّرُها منذ أكثر من ربع قرن، أدار النادي الأدبي في الرياض، ورأس كَتَبَة مجلة «التوباد» التي تعنى بالبحوث الأدبية والفكرية من إصدار جمعية الثقافة والفنون، ونالت مقام الاحتفاء بين الأدباء، كما وضعت دوريّة «علامات».

واهتمّ بدراسة الشعر النبطي بوصفه وثيقةً للتاريخ بالرغم من مناصرته للفصحى، وهو يميل لاستخدام غريب الألفاظ، وسجّل

ومضاتٍ من سيرته في كتابيه «شيء من التباريح، وتباريح التباريح» ولقد أصبح أبو عبد الرحمن اليوم لا يُجارى من حيث الموسوعيّة العلميّة، وشهدت له جدارته أن يكون الشخصيّة المكرمة في مهرجان الجنادرية هذا العام.

وعندما تقرأ في شعر د. عبد الله العثيمين تلحظ أن بينه وبين قصيد خامس المحتفى بهم هذه الليلة أحمد بن صالح الصالح الذي اختار من السفر لقباً له، مع أنه بشيء من التشابه قاطن بين أحشاء محبّيه، قليل الترحال، ولا غرابة في الأمر فقد استلهما، العثيمين والصالح، الشاعرية من مورد عذب واحد، جداولِ هذه المدينة وأزقّتها وبساتين نخيلها.

«مسافر» الذي أصدر اثني عشر ديواناً، هو نجل أستاذ الجيل في عنيزة الذي يُخلّد هذا المركزُ ذكرَه، يُحْيي بحيائه وانزوائه وملكته الشعرية هيئة قامتين تربّى في هذه المدينة على يديهما، وصُنع على أعينهما؛ والدِه صالح بن ناصر الصالح وعمِّه عبد المحسن، غير بعيد عن عمّه الثاني عثمان الصالح مربّي الأجيال والأنجال بالرياض.

هل سمعتم إحساساً تغنّى بمسقط الرأس، بمثل هذه الخريدة التي صاغها مسافر قبل عشرة أعوام؟ وكأنه يقولها الليلة لتحيّة هذه الوجوه:

ومَن عنيزة في وجدانه وطن
ما غادرت حبها روح ولا جسد

أحبابَنا يا ذوي الألباب أيُ هوى
وأيُ قافية أبياتها جُدَدُ

حيّتكم الأرض أهلاً في محبتكم
في صفوةٍ من رجال الفكر قد وفدوا

أئمةٌ في بيان القول ما وردوا
إلا بأعذب ما في الوردِ، إذ وردوا

طيبوا مقاماً، ففي الفيحاءِ إن لكم أهلاً
وإن سفرٌ، يرعاكم الأحد

رابعاً :

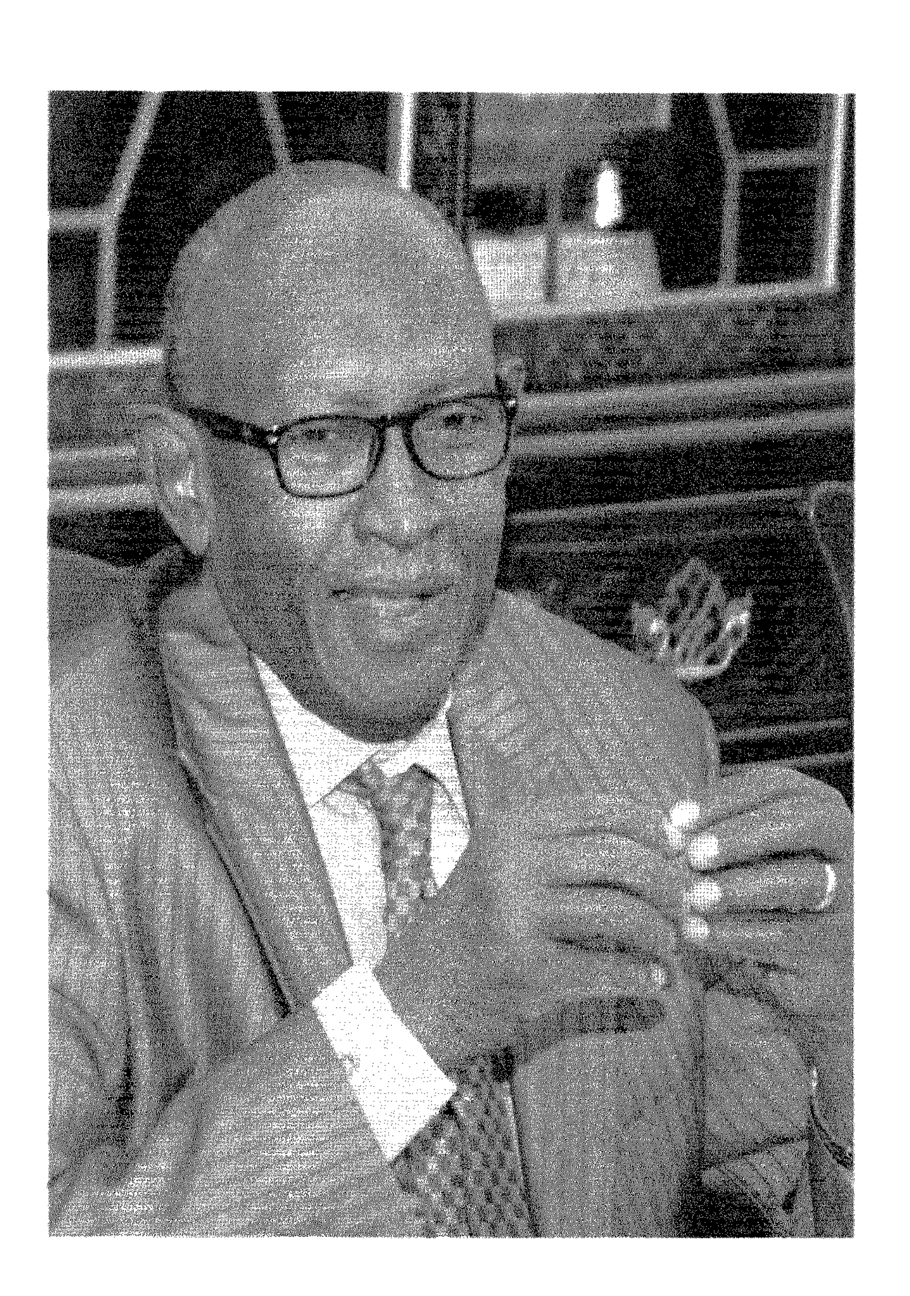
تقـــديم..

(٣٦)

د. علي شمو(*)

«ســـوار الذهـب» الإعـلامي

(*) في تقديم محاضرة له في مجلس حمد الجاسر، السبت ٢٧/٤/١٤٣٧هـ (٦/٢/٢٠١٦م).



يسرني بالنيابة عنكم أن أرحب بصديق وزميل وأستاذ عزيز، وهو يحل على أهله وعشيرته هنا، وقد وجدته بفضل الله على حال سَارة من الصحة، لم تزده السنين إلا إشراقةً وبهجة وحضوراً، ونحن، على بُعد المسافة ومشاغل الحياة، نتتبّع بسعادة، أحواله، واحتفاء الأوساط العلمية والمهنية به، وبتاريخه وبفكره المتجدّد.

هو قامة علمية وفكرية، وقيمة إعلامية عربية وإسلامية وأفريقية، يتحدث في المحافل الاجتماعية فيؤثّر في المكان باعتداله ووسطيته، ويحاضر في الندوات الإعلامية فيغترف من تجربة ثرية عميقة ورزينة، وهو في العروبة ذاك الأصيل الذي عاش بين أتون السياسة وفرقة الأحزاب، فلم تجرفه بانحرافاتها، تقرأ في سيرته فتحسبه «سواراً من الذهب» بعفته وسمته وهدوئه وعقله ووطنيته، إنه الأستاذ الدكتور علي شمّو، العربي الأسمر الجاذب، في خلقه ولغته ومنطقه.

جمع في تعليمه العالي بين دراسة الشريعة والقانون ثم الإعلام، وفي الدراسة بين الأزهر وجامعات السودان وأمريكا، وتدرّج في مدارج الإعلام من التقديم والإعداد إلى حقيبة وزارة الثقافة والإعلام، ووزارة الشباب والرياضة.

يُذكر الإعلام في السودان فيقترن باسمه (أبي الإعلام السوداني)، وترأس اتحاد الإذاعة والتلفزيون أحد منظمات الجامعة العربية.

وشارك في وضع مناهج الإعلام وتدريسه، وألّف فيه وفي تقنيته، واكتسب العضوية في المجالس العليا للجامعات والإعلام.

درّس في عدد من الجامعات السعودية والخليجية، وحضر كثيراً من المؤتمرات والندوات، وقام بدور محوري فيها، ونال عدداً من الأوسمة والجوائز، كان آخرها جائزة مركز العز بن عبدالسلام للدراسات العربية والإسلامية والأفريقية في الثقافة والآداب (الخرطوم ٢٠١٥م).

يختار اليوم موضوعاً من مواضيع الساعة التي تهم الأمن الاجتماعي والفكري، عن شبكات التواصل الاجتماعي، أو ما يسمى الإعلام البديل، أو الجديد، أو الإلكتروني، وتأثيراتها على الأمة، تعلمون أن هذا النوع من الإعلام غير التقليدي، أسهم إيجاباً بمزيد من الانفتاح، وبكسر عزلة المحافظة والخصوصية، وقَلَبَ معايير الرقابة.

وأحدث الكثير من المتغيّرات السياسية والإعلامية، وبدّل الاتصال الجماهيري إلى مفهوم التواصل الفردي التفاعلي، تخطّى الزمان والمكان، واحتكار السلطة والنخبة.

ولكن،،،،

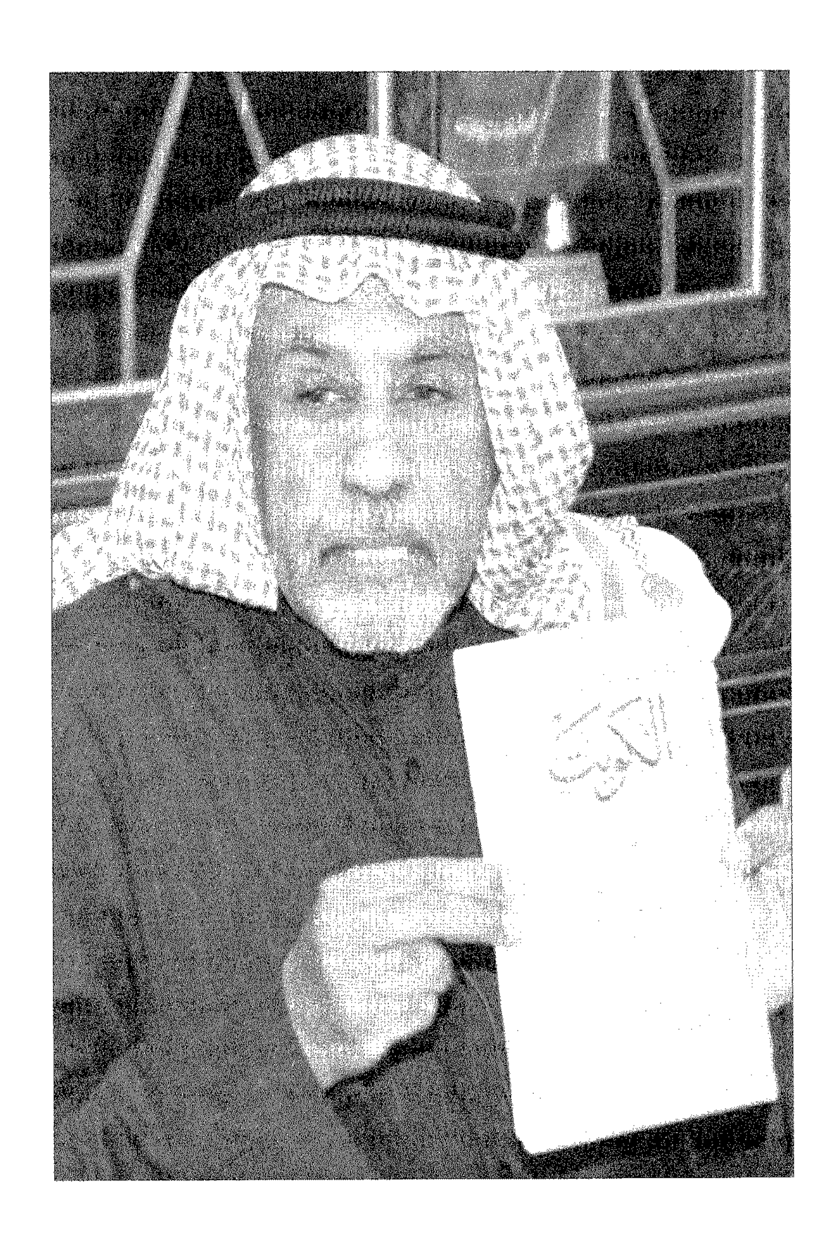
هذه الـ.. (ولكن) هي ما أرجو أن يجيب عنها؟!

(٣٧)

د. يعقوب يوسف الحجي (*)

نوخذة التراث الخليجي

(*) ألقيت في تقديم محاضرته في مجلس حمد الجاسر، السبت ١٤٣٧/٥/٢٨هـ (٢٠١٦/٣/٧م).



عندما بدأت أتجاسر على توثيق السير والتراجم منذ عشرين عاماً ونيّف، استهواني كتاب صدر في الكويت (١٩٩٣م) تمنّيتُ لو كنت كاتبَه، غبطت المؤلف على أسلوبه ومنهجه، صرت في صحبة مع الكتاب لاهتمامي بموضوعه بحثيّاً، ثم تعرّفت على المؤلف في الكويت، فازددتُ احتراماً لشخصيّته ولبساطته، خاصةً وأن بيننا اهتماماً مشتركاً بالكتابة في موضوعات التوثيق.

كان الكتاب عن سيرة الشيخ عبدالعزيز يعقوب الرشيد، مؤرخِ الكويت ورائدِ الصحافة فيها، أما المؤلف فهو ضيف المجلس هذا اليوم د. يعقوب يوسف الحجّي الذي اعتنى بسيرة الرشيد، وبإلقاء محاضرات عديدة عنه.

سأستبق د. يعقوب، لأقول: إن البيت الخليجي تكوين أسري واحد وأنساب مترابطة، لا تفصمها الحدود والجوازات، فعبدالعزيز الرشيد، ينتمي لعائلة البداح المعروفة في الزلفي وفي صلبوخ، وهو وُلد وعاش في الكويت، وأمضى فترة في البحرين، ثم زار جدة قبل منتصف القرن الماضي، واصطفّ مع نخبة من شباب الحجاز بينهم محمد صالح نصيف، لاستصدار صحيفة «صوت الحجاز» أول صحيفة أهلية سعودية، صدرت

عام ١٣٥٠هـ (١٩٣٢م) وهي نواة جريدة «البلاد» الحالية.

وقضى السنوات الأخيرة من حياته موفداً من الملك عبدالعزيز ضمن بعثة للإعلام والدعوة في جزر الملايو (إندونيسيا وماليزيا وما جاورهما) مع الشيخ أحمد السوركتّي (من السودان) ويونس بحري (من العراق) والشاعر محمود شوقي الأيوبي (من الكويت) وقد توفي الرشيد هناك قبل خمسة وثمانين عاماً.

هذا الموضوع «الأسر السعودية في الكويت، مع التركيز على عبدالعزيز الرشيد، نموذجاً» هو مفتاح حديث ضيفنا اليوم، وقد تناوله بعض الكتّاب في البلدين، منها كتاب بعنوان: (الكويت والزلفي، للباحث الكويتي حمد عبدالمحسن الحمد ٢٠١١م).

ضيفنا، كانت دراسته الجامعية الأولى في مجال الجيولوجيا، إلا أنه انجذب إلى السير والتراجم، واتجه وأجاد في العناية بما يمكن تسميته «أدب البحر وثقافة الغوص» أو «الفولكلور البحري الخليجي» وبسيَر النواخذة وربابنة السفن، فكتب وحقّق كتباً عدة، من أهمها «الروزنامات البحرية الكويتية» في ستة مجلدات، وكتابا «نواخذة السفر الشراعي، والنشاطات البحرية القديمة» وقام برحلات إلى سواحل أفريقيا تتبُّع فيها مرافئ السفن الشراعية الكويتية، ولا أنسى من كتبه في التراجم «سيرة الشاعر حجّي بن جاسم الحجّي» الصادر قبل عشرة أعوام.

أما في الشأن الاجتماعي، فله كتاب حديث عنوانه (الكويت كما عرفتها، قصة الوطن الذي ضيّعه أهلُه ٢٠١٣م) حاز اهتماماً كبيراً في الوسط السياسي والثقافي في الكويت، ولعل محاضرَنا يتحدث عنه.

إذا عُدّ الباحثون الكويتيون في الشأن التاريخي والتراثي وفي سير الشخصيات، فلا بد أن يوضع اسمه في قائمة المتميّزين الأوائل، فقلمه حاضر في المقالات والمحاضرات والدراسات، منها ما كتبه على سبيل المثال عن هجرات الحضارم، وعن رواد الحركة الثقافية في الكويت مثل يوسف القناعي وعبدالرزاق البصير.

د. الحجّي، عمل باحثاً في الشأن التاريخي والتراثي في مركز البحوث والدراسات الكويتية، الذي يرأسه زميلنا الأستاذ الدكتور عبدالله الغنيم، عضو مجلس الأمناء في مركز حمد الجاسر الثقافي، وقد نشر بعض كتبه، منها كتابه عن الشيخ عبدالعزيز الرشيد.

وبعد؛ ما أراني في هذا التقديم الموجز، إلاّ مختزلاً لسيرة ضيفنا المغمور، الذي لم تُنصفه الساحة الثقافية، الخليجية والكويتية، بما يستحقه من الذكر، فهو ـ كما أشار الكاتب في جريدة (الجريدة) الكويتية علي البداح ـ «**الباحث الذي جاد وضحّى بوقته وجهده وعلمه من أجل توثيق حقبة مهمة من تاريخ الكويت، واستطاع تسجيل ذكريات الكثير من نساء الكويت ورجالها الذين عاشوا فترة**

ما قبل النفط وما بعده، وسدّ نقصاً واضحاً في المعلومة الموثّقة عن هذه الحقبة، لقد كان يجالس رجال الكويت ونساءها، كل بمفرده، أمام الكاميرا أو المسجلة ليتحدثوا له بإسهاب عن حياة الكويت، وكان يحاورهم ويحاول الحصول على كل ما بقي في ذاكرتهم قبل أن يمحوها الزمن.

الدكتور يعقوب لم يجلس على مكتب مريح ليدوّن كتباً من أبحاث يعدّها غيره أو يحضّرها له تلاميذه، إنما قام بنفسه بالمتابعة والملاحظة والمقابلة والكتابة والمراجعة حتى تصدر بحوثه في كتب.

ويحسب له أنه الأغزر إنتاجاً من كل الكتّاب والمؤرّخين الكويتيين، والمكتبة الكويتية غنية بكتبه وأبحاثه ودراساته، ويستحق من كل كويتي أجلّ التقدير».. انتهى.

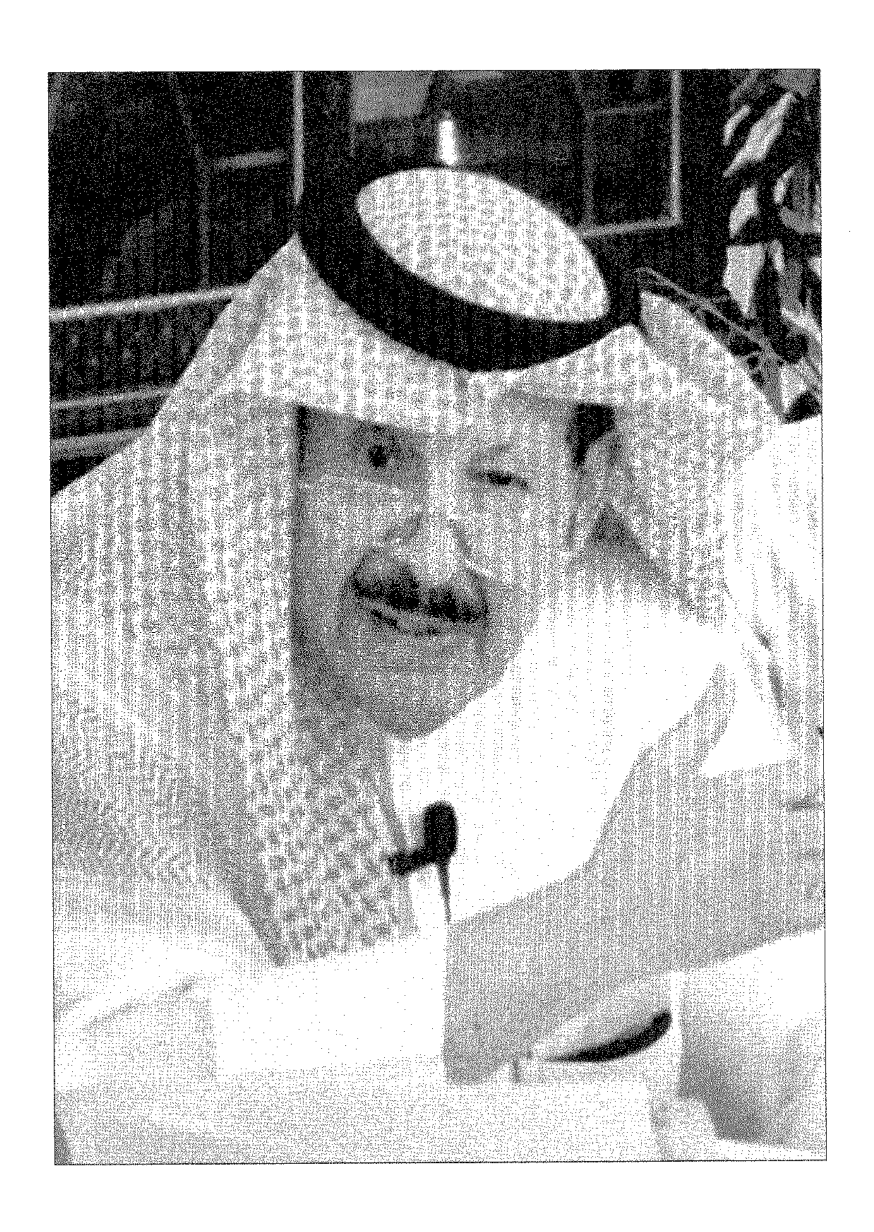
كلمة أخيرة للتذكير بوالده، الشيخ يوسف جاسم الحجي، وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، المذكور بالاقتراب من الجهود الخيرية وأعمال البر، حتى توافق المجتمع كويتيّاً على منحه اللقب الشريف (إمام الخير) وكان - أي والده - قد فاز عام ٢٠٠٦م بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، مناصفةً مع الشيخ صالح الحصيّن.

(٣٨)

يعقوب يوسف الإبراهيم (*)

التاريخ يجري في دمه

(*) في تقديمه محاضراً في مجلس حمد الجاسر، الجزيرة الثقافية، العدد ٤٣٢، السبت ١٤ جمادى الأولى ١٤٣٥هـ، الموافق ٢٠١٤/٠٣/١٥م.



هم إخوة أعتزّ بمعرفتهم عن قرب، وما زلت أتدارس التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي للكويت والخليج معهم، لظني أنهم مِنْ أعرف الباحثين المعاصرين به، وأن ما يجمع بين هؤلاء هو الجود النوعي في العطاء العلمي، والإحاطة الشاملة، والجديّة في البحث والاستقصاء، وأن الباحث المتتبع لكتاباتهم سيأخذها بارتياح مأخذ القبول والتسليم، وذلك لما عُرِفوا به من الإنصاف والالتزام بأصول البحث الرصين، وأن الدارس سيكون محظوظاً إذا ما قدّر له الاقتراب من أحدهم فكيف بكاتب هذا التقديم وقد عرفهم جميعهم مع أن التواصل معهم جاء متأخراً.

على مدى التاريخ، يجتمع على ساحل الخليج العربي ما نعرفه من الجذور والأبعاد والفضاءات، غير أن التواصل الثقافي بين شعوبه وأُسَره يظل دون الحد الأدنى، ناهيك عن الحد الأمثل بين كيانات لا يفصل بينها ـ بعد أن تنقشع سحابة الصيف ـ سوى قرار سياسي يقوله القادة والبرلمانات لتوحيد أعلامِها ونقدِها وعناوينِ سفاراتها، بعد أن اتّحدت شعوبها واقعاً في كل شيء.

إن في منطقة الخليج بعامة، كثيراً من الموضوعات العلمية البينية التي تنتظر جهداً بحثيّاً مشتركاً بين الدارسين وتعاوناً أوسع بين المؤسسات

الأكاديمية، فما زال الدارسون في جامعاتنا ينكفئون على أنفسهم، أو بين أقرانهم، أو مع أمثالهم في الخارج، ولم تنجح المنظّمات الخليجية بعدُ في إنعاش تعاونات ثنائية أوثق بين الباحثين للتصدّي لتلك البحوث، وكم يُسعدنا في هذا الصدد التنويه بكثير من التقدير لبشائر مثل هذا التعاون المأمول يتجسّد تحت مظلة مركز حمد الجاسر الثقافي بين الباحِثَين د. عبدالله الغنيم ود. عبدالعزيز المانع لإعادة تحقيق واحد من كتب التراث المهمة في مجال جغرافيا الجزيرة العربية (معجم ما استعجم) للبكري الأندلسي.

إن الكويت اليوم والأمس مثل غيرها من دول الخليج، ليست نفطاً ولا غوصاً ولا مجرد جِمال وصحراء، وإنما هي تاريخ وثقافة وعمقٌ حضاريٌّ وبُعدٌ إنسانيٌّ، استطاع مثقفوها أن يكتبوه ويُدوّنوه ويوثّقوه، واليوم يستضيف هذا المجلس باحثاً جاداً وقف نفسه ضمن ثلّة من الباحثين الكويتيين المتميّزين، لتدوين تاريخ بلادهم وصونه من الأخطاء، فالكويت كغيرها أيضاً من دول الخليج ما يزال تاريخها يتعرض للتشويه ولعل كثيراً منه لم يكتب بعدُ.

ولطالما ـ مع ضيفنا اليوم ـ تجاذبتُ أطراف الحوار والاهتمامات في بعض المسائل التاريخية والتوثيقية المهمة عن شخصيات ذات أصول من هذه البلاد من أمثال قاسم محمد الإبراهيم، ويوسف عبدالله الإبراهيم، وعبداللطيف باشا المنديل معتمد الملك عبدالعزيز في البصرة، والذين

يملأ تاريخهم دورالوثائق الكويتية والسعودية والهندية والبريطانية، وهاشم الرفاعي زميل الملك عبدالعزيز في الكتّاب بالكويت وأحد كتبته في ديوانه بالرياض، وعبدالله حمد النفيسي ممثل الملك عبدالعزيز في الكويت، وعبدالعزيز محمد العتيقي أحد المستشارين القدامى لفيصل بن عبدالعزيز نائب الملك في الحجاز في العشرينات، وهي موضوعات تفتح المجال للنقاش حولها في هذه الندوة، أو في ندوة قادمة؛ بإذن الله.

يعقوب الإبراهيم غير محسوب على المجتمع الأكاديمي في الكويت، وليس عضواً من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة، لكن من يجتمع به ويتناقش معه يجد أن التاريخ يجري منه مجرى الدم، وأنه أكثر من بعض الأكاديميين اهتماماً بالبحوث التاريخية بالرغم من إنشغاله بأمور حياتية أخرى.

ولقد قدّر لي مناقشة بعض المعلومات التاريخية معه، أو الرجوع إليه فيها، وتعوّدت الاتصال منه وراء كل مقال ذي طابع تاريخي أقوم بنشره ليدلي بملحوظاته وتصويباته، وتنصبّ معظم اهتماماته على كل ما يتصل بالكويت والعراق والخليج، وبخاصة ما يتعلق بتاريخ ولاية البصرة والكويت والمنطقة أيام نزاع العثمانيين وبريطانيا حول مشيخات الخليج، وبما يتصل بالحركة الصهيونية، وبالوجود اليهودي في بعض أنحاء الجزيرة العربية، وبسِيَر بعض زعامات الخليج، كآل الصباح وآل إبراهيم، والمنتفق، والشيخ خزعل، وبشخصيّات اجتماعية وسياسية مؤثّرة كعبداللطيف باشا المنديل

وقاسم الإبراهيم وطالب النقيب، وأُسَر كالإبراهيم والزهير، فإنه حجة في القول والمراجع والمعلومات، ي «توسّد» وثائق مكتبة لندن التي يرتادها بشكل متواصل حيث يقيم معظم شهور العام، ويغوص في وثائقها، ويصوّر ما يحتاج إليه، ويتابع حركة النشر ـ قديمه وحديثه ـ باللغتين.

ومما اطلعت عليه في هذا الصدد مشاركته في الندوة التاريخية التي عقدت عام ٢٠٠٨م في الدوحة بقطر عن تاريخ قطر (النشأة والتأسيس) حيث شارك ببحث مطبوع عن العلاقة بين قاسم آل ثاني وقاسم آل إبراهيم، وكان من أبرز ما قدّمه مؤخّراً بحثه الأصيل بعنوان: «**وهم الدولة اليهودية بشرق بلاد العرب أماني ساقتها أحلام الطبيب الروسي اليهودي روثستين**» (الشرق الأوسط، ديسمبر ٢٠١٤ م)، وبحثه المعمّق: ملامح من تاريخ الأرمن في العالم الإسلامي (الشرق الأوسط والقبس، يونيه ٢٠١٥م)، ودراسته عن اتفاق سايكس ـ بيكو، وبحثه غير المسبوق ـ في ثلاث حلقات ـ حول وعد بلفور، والتأكيد على أنه طبخه طهاةٌ صهيونيّون (الشرق الأوسط ديسمبر ٢٠١٥ م)، وقد أتبع هذه الدراسات بمقالات بحثية مماثلة عن الحرب العالمية الأولى.

وتألّق كثيراً في نقده اللاذع لما يدور في أروقة الجامعات العربية ـ جامعة الكويت مثالاً ـ عند مناقشة الأطروحات العلمية، فأصدر في ذلك كتاباً في لندن عام ٢٠١٤م، تناول فيه الموضوع، متّخذاً من رسالة ماجستير حول اليهود في الخليج نموذجاً لملحوظاته (انظر مقالاً بعنوان: جدل الإبراهيم

والمطيري حول يهود الخليج، الوطن الكويتية ٢٠١٤/٩/٢٤م، ومقالاً بعنوان: يعقوب الإبراهيم يكشف محنة الجامعة بين التربية والترضية: قسم التاريخ مثالاً، نقد كتاب اليهود في الخليج، السياسة الكويتية ١٤/١١/٢٠١٤م).

يقول موجز سيرته ـ وفق مركز المعلومات والدراسات في جريدة القبس ومكتبة البابطين اللتين تستحوذان على نشر بعض كتاباته وعطائه الفكري ـ إنه تخرّج في كلية التجارة من جامعة ليفربول، وعمل في الحقل المصرفي، وشارك في الإشراف الأكاديمي على عدد من الأطروحات العلمية المتصلة بتاريخ الكويت والخليج العربي، وبالإضافة إلى كتابه «تسمية الخليج» الذي صدر عن دار القبس سنة ٢٠٠١م، وقدّم فيه قراءة في أصول التسمية، وكتابه المُعنْون «من الشراع إلى البخار» الذي روى فيه قصة تأسيس أول شركة ملاحة عربية، وأصدرته دار الربيعان في الكويت عام ٢٠٠٣م، وكتابه عن العلاقات الكويتية الفرنسية منذ عام ١٧٧٨م، فقد رصد المركز والمكتبة أكثر من ثمانين عملاً بحثيّاً نُشر معظمها في جريدتي القبس والشرق الأوسط، وهو اليوم لمّا يزال الباحث والراصد الدؤوب والمتابع لما يقال ويكتب عن الكويت بخاصة والخليج بعامة، وقد أقلقه ما يُلحظ من ميل بعض الباحثين والمراكز التاريخية عن قصد أو بدونه، لتأصيل الأخطاء التاريخية وإضفاء الصّدقيّة العلميّة عليها، حيث يتحدث اليوم في مجلس العلاّمة حمد الجاسر، في هذا الموضوع مدخلاً لنقاش أوسع في

جملة من القضايا التاريخية.

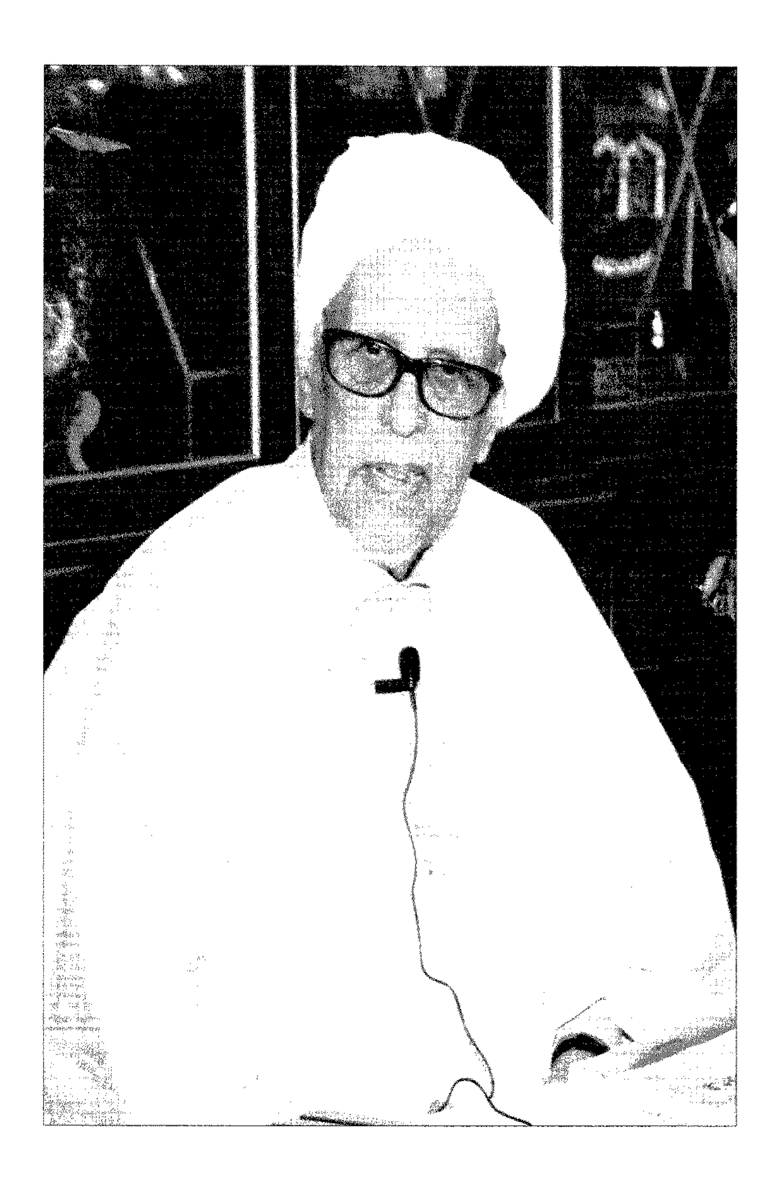
باسمكم، يُحيّي مركز حمد الجاسر الثقافي ومجلسه الأسبوعي، الباحث الكويتي الأستاذ يعقوب يوسف الإبراهَيم، الذي انتظرنا مَقْدَمه طويلاً من مقر إقامته في لندن، لنحظى به ضيفاً علينا اليوم بكثير من الترحاب.. !!

(٣٩)

د. محمد المختار ولد أباه (*)

شنقيط : بلد المليون شاعر.. وفقيه

(*) في تقديمه محاضراً في مجلس حمد الجاسر، السبت ١٤٣٥/٥/٧هـ (٢٠١٤/٣/٨م)، وفي مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي، الكويت، ١٤٣٥/٥/٢٢هـ (٢٠١٤/٣/٢٣م).



الذي أطلق تعبير «بلد المليون شاعر» لقباً على موريتانيا، أصاب بعض الحقيقة وفات عليه بعضٌ آخر، فموريتانيا ليست شعراً فقط وإنما هي بلد الأدب والفقه والعلوم، وبدلاً من المليون ساكن صارت اليوم تقارب الأربعة ملايين، وإذا كانت المصادفة أن اللقب الأول أُطلق من مجلة «العربي» الكويتية قبل أربعين عاماً، فإن الوصف الثاني ينطلق اليوم من مكتبة البابطين بالكويت، وهي تحتفي بأهلنا في بلاد شنقيط، الذين شكّلوا منذ قرون جسوراً من التوأمة الفكرية بين جناحي العالم العربي مغربه ومشرقه، وحققوا حلقات من التواصل المعرفي العميق بيننا وبينهم.

بعد أن عدت من نواكشوط في نوفمبر الماضي، سألني عديدون: ما أكثر ما استوقفك هناك؟ فكان جوابي إنه الشعر بلسان عربي مبين، مصداقاً لوصفها بلاد الشعراء.

قبل مئة عام أصدر نزيل القاهرة المؤرخ أحمد بن الأمين الشنقيطي (المتوفى عام ١٩١٣م) كتابه الشهير «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» المرجع الشامل عن موريتانيا؛ تاريخها وجغرافيتها وسكانها وشعرائها، ثم جاء ضيفنا قبل ثلاثين عاماً، العلّامة الدكتور محمد المختار ولد ابّاه وألّف كتاباً طبع مراراً بعنوان: الشعر والشعراء في موريتانيا، أكمل به ما بدأه سلفه، واستهلّه كسابقه

بمقدمة عن بلاد شنقيط، وعن دخول الإسلام والعرب فيها.

ولعل البعض منكم يتساءل في نفسه: ما علاقة موريتانيا بشنقيط وما مدلول الاسمين، والواقع أن هذه هي تلك، وموريتانيا ومعناها «بلاد الرجال السُّمر»، اسم أطلقه الرومان، ثم تبنّاه الفرنسيون عند احتلالهم لها في الثلث الأول من القرن الماضي، وشنقيط وتعني «عيون الخيل» بالأمازيغية (البربرية) بلدة تاريخية قديمة في وسط موريتانيا بتراثها المعماري الفريد وبمبانيها الأثرية التي تشبه بيوت الحجر والطين عندنا، هي الأصل والاسم التاريخي لمنطقة ممتدة بين مالي والسنغال والجزائر والمغرب، أسلمت وتعرّبت مع وصول الفاتح العربي عقبة بن نافع إلى شاطئ المحيط الأطلسي عام ٥٠ هـ (٦٧٠م).

وفي مشرقنا العربي وعلى مرّ التاريخ، جاء علماء شناقطة يتقاربون في أسمائهم، رضعوا بدايات العلوم العربية والشرعية في بلادهم، وغرفوا الثقافات المتنوعة من مصر وهم في طريقهم إلينا، واستكملوا معارفهم الإسلامية في الحديث والفقه وعلوم القرآن الكريم في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ثم أسسوا لدينا مدارس فكرية، كانت لها تأثيراتها العميقة في الأدب والعلوم، وأرست مصاهرة ثقافية متلاحمة بين ضفتي العالم العربي.

كان من هؤلاء الشيخ محمد الأمين فال الخير الحسني الشنقيطي الذي أقام قبل مئة عام في مكة المكرمة والمدينة المنورة وعنيزة وكان من طلبته الشيخ عبدالرحمن السعدي، ثم مرّ بالكويت بُعيد إنشاء المدرسة المباركية

التي أسسها المحسنون هنا، ودرّس فيها، ثم ارتحل إلى الزبير وأسس مدرسة النجاة المعروفة، وتوفي عام ١٩٣٢م.

تركت تلك المدرسة، التي اندمجت عام ١٩٧٢م في النظام التعليمي الرسمي العراقي، تركت أثرها التربوي العميق في بلدان الخليج بعامة وفي جنوب العراق والكويت والأحساء ونجد بخاصة، وتخرّج فيها عددٌ من رجال التربية والتعليم والاقتصاد في هذه البلاد، ومن بينهم مؤسس هذه المكتبة عبدالعزيز البابطين، الذي حاضر قبل عامين عن سيرة الشيخ الشنقيطي وإن لم يدركه، كما حفظ كثيراً من تاريخه وتراثه.

ضيفنا هذا اليوم، هو العلامة الدكتور محمد المختار ولد ابّاه، شخصية علمية، ولد سنة ١٩٢٤م، حفظ القرآن الكريم ودرس المتون في (المحاضر أو المحاظر) المدارس الشنقيطية العتيقة الشبيهة بالكتاتيب، انخرط سنة ١٩٤٨م في سلك التعليم وبدأ يمارس نشاطه السياسي في إطار حزب النهضة المناهض للاستعمار الفرنسي، شغل عام ١٩٥٧م منصب وزير الصحة ثم التعليم، وأسس أول كلية للتربية في موريتانيا، وترأس لجنة الإصلاح الشامل للتعليم، انتخب نائباً أول للبرلمان ورئيساً للجنة الشؤون الخارجية، واختير سنة ١٩٨٤م أميناً عاماً مساعداً لمنظمة التعاون الإسلامي في جدة، ثم عيّن رئيساً لجامعة النيجر، وعمل أستاذاً في دار الحديث الحَسَنية في الرباط، ورئيساً للمؤسسة الوطنية لجائزة شنقيط في موريتانيا، ثم أنشأ عام ٢٠٠٦م جامعة شنقيط العصرية في نواكشوط متخصصةً في الدراسات العليا

للعلوم الإسلامية والاجتماعية، وهو أول موريتاني يحصل على دكتوراه الدولة من السوربون سنة ١٩٧٥م، وشاعر اشتهر بإخوانيات منشورة، حصل على أوسمة استحقاق وشرف من دول عدّة، وهو عضو في عدد من المجامع العلمية العربية.

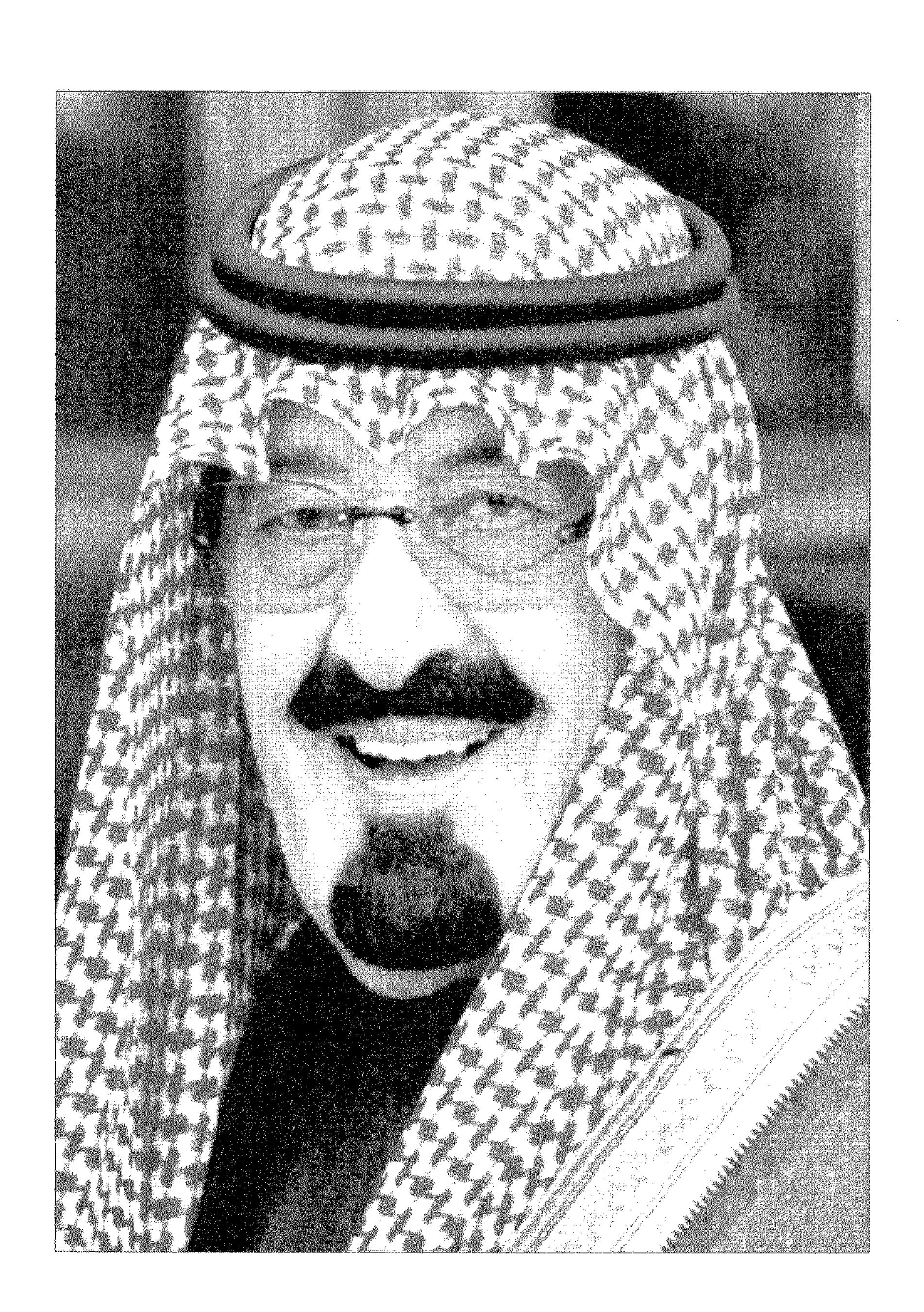
يتحدث الفرنسية والعبرية والسريانية، أصدر ما يقرب من عشرين كتاباً في مختلف مجالات الثقافة العربية الإسلامية، منها ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الفرنسية، وفي موكب السيرة النبوية، وتاريخ القراءات في المشرق والمغرب، وتاريخ النحو العربي، والشعر والشعراء في موريتانيا، ومدخل إلى أصول الفقه المالكي، وتاريخ التشريع الإسلامي في موريتانيا، ومدخل إلى الأدب الموريتاني، ونماذج من قراءات أهل المدينة المنورة.

والدكتور محمد المختار ينحدر من أسرة علم وأدب من ولاية الترارزة، اشتهر أهلها بالشعر والنحو والصرف والبلاغة وعلوم القرآن الكريم والفقه على المذاهب الأربعة، ومنها جاء مؤسس الجمهورية الإسلامية الموريتانية المختار ولد داده (المتوفى سنة ٢٠٠٣م) وعدد كبير من العلماء والفقهاء والشعراء والشاعرات، ومنهن مباركة بنت البراء المعروفة خليجيّاً.

العلّامة د. ولد أباه الوزير والسياسي والبرلماني والتربوي يحدثُنا عن إسهامات العلماء الشناقطة في الحركة العلمية في المشرق العربي في القرون المتأخرة.

خامساً :

رثـــــاء..



(٤٠)

عبدالله بن عبدالعزيز(*)

١٠ أعوام في الحكم

(*) كُتب أساساً بمناسبة انقضاء ثمانية أعوام في الحكم، الشرق الأوسط، العدد ١٢٥٧٧ في ١٤٣٤/٦/٢٤هـ (٢٠١٣/٥/٥م) ثم بعد وفاته.



توحّدت المملكة العربية السعودية قبل ثلاثة وثمانين عاماً ميلاديّاً إبان عهد مؤسسها الملك عبدالعزيز، الذي أمضى من قبل ثلاثين عاماً في جهد متصل لتجميع أطرافها قبل أن يعلن دمجها في دولة متّحدة، ثم حكم بعد ذلك أكثر من عقدين من الزمن قبل أن يوافيه الأجل عام ١٩٥٣م، فبهذا تكون مدة حكمه نحو ثلاثة وخمسين عاماً.

ثم تعاقب أبناؤه من بعده على العرش، فتولى ابنه الثاني سعود الحكم أحد عشر عاماً بعد أن كان الابن الأول «تركي» قد توفي في أثناء شبابه، ومثلها (أحد عشر عاماً) حَكَم خلفه فيصل الابن الثالث من أبناء الملك المؤسس، وتولّى من بعد ذلك الابن الخامس خالد بعد أن تنازل له شقيقه الأكبر محمد عن ولاية العهد، فحكم سبع سنوات (١٩٧٥ ـ ١٩٨٢م)، ثم تولى الابن التاسع فهد الحكم ممضياً فيه ثلاثة وعشرين عاماً ميلاديّاً (١٩٨٢ـ ٢٠٠٥م).

وارتقى الملك عبدالله بن عبدالعزيز سدة الحكم، وهو في التسلسل العمري لسلالة الملك عبدالعزيز الابن الثاني عشر من الذكور، فأمضى فيه نحو عشرة أعوام (٢٠٠٥ ـ ٢٠١٥م) وكان في الأعوام الأخيرة من عهد سلفه الملك فهد يمسك بمقاليد الحكم بشكل فعلي، لم يرغب بوصفه وليّاً للعهد إشهاره.

تزامن عهد الملك عبدالله مع جملة من المعطيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، التي استثمرها بشكل جيد وانعكست إيجابياً على فترته وعلى خريطة القبول الشعبي لعهده ولشخصه، فلقد بدأ بزيارة المناطق الإدارية الثلاث عشرة، وأطلق الوعود لتنمية اقتصادية أكثر توازناً، لدرجة أنه قرر في إحدى مكاشفاته بأن بعض المناطق لم تكن تحظى بما يكفي من برامج التنمية كما زار نماذج من البؤر الفقيرة، وأتبع وعوده بوضع برنامج فعلي من المشروعات الاقتصادية والاجتماعية المؤثرة، التي استفادت من ارتفاع مداخيل عائدات الصادرات النفطية المتزامنة مع عهده.

وكان من أبرز ما أُنجز في عهده إطلاق مشروع جامعة وأحياناً جامعتين في كل منطقة من المناطق الإدارية الثلاث عشرة ومحافظاتها الرئيسة، فارتفع عدد الجامعات في سنوات وجيزة من ثماني جامعات إلى ما يفوق خمساً وعشرين، كان من بينها جامعة للعلوم والتقنية عرفت باسمه في مدينة رابغ على البحر الأحمر، ومدينة جامعية كبرى للبنات في الرياض تحمل اسم عمّته الأميرة نورة بنت عبدالرحمن الفيصل، وصاحب ذلك إطلاق برنامج طموح غير مسبوق في تاريخ البلاد والعالم للبعثات الخارجية، فاقت مائة وخمسين ألف منحة دراسية لمختلف التخصّصات في معظم دول العالم، كما تبنّى عهده تأسيس عدد من المدن الاقتصادية الطموحة في بعض المناطق، بدأ بعض منها يعطي مردوداتها التنموية المأمولة.

ويُحسب لنهجه كثيرٌ من الأفكار التطويرية التي أمسك العصا معها

من النصف بين المرونة والمحافظة على صعيد الانفتاح الاجتماعي، كان من أبرزها إفساح المزيد من مجالات العمل للمرأة، ومنحها الفرصة للإسهام في صنع القرار، ملتزماً لأول مرة بفتح عضوية مجلس الشورى لها بنسبة لا تقل عن خُمس أعضاء المجلس، وبتعيين عدد من الكفايات النسائية الوطنية في مناصب قيادية في داخل المملكة وخارجها، كما لفت الانتباه في عهده إلى إعادة النظر في حالة التراتبيّة التقليدية في مسألة توارث الحكم.

وارتفع في عهده هامش حرية التعبير في وسائل الإعلام، منه ما اتّسق مع نهج حكمه مما صار يتسع صدر المسؤولين له، ومنه ما فرضه تنامي تقنية إعلام جديد لا يخضع للرقابة، محفّزاً الجميع على التقيد بالشفافية والانفتاح وفتح الأبواب لخدمة المواطنين.

وارتبط نمو الوظيفة الاجتماعية والثقافية لجهاز الحرس الوطني بشخص الملك عبدالله، من خلال رئاسته له مع مطلع الستينات الميلادية في أواخر عهد الملك سعود، وبخاصة بعد أن تبنى مشروع نادي الفروسية في عهد الملك فيصل، ومهرجان الجنادرية في عهد الملك خالد، المهرجان الشهير الذي اندمجت فيه فروسية الخيل وسباق الهجن (الجِمال) مع نشاط ثقافي وتراثي يتجدّد سنوياً.

وأسهمت مفاتيح الشخصية المتمثّلة في سمة العفوية في تفكيره في أن ينهج نهجاً منفرداً ومبادراً باتجاه التسامح وتخفيف التوترات السياسية العالقة مع بعض دول الجوار (اليمن وقطر وإيران مثلاً) وفي بعض

المصالحات الإقليمية، كما أحب فيه المواطنون طباع الحميمية والطيبة التي جعلته قريباً منهم، وأكثر تجاوباً وتلمّساً لاحتياجاتهم المعيشية المؤرّقة للبعض منهم، دون أن ينتقص ذلك من مواقف الحزم، وبخاصة عند تقاطع ذلك مع الشأن الأمني.

ومن أبرز ما اهتم به عهده، الاتجاه إلى تنمية وسائط الحوار الوطني بإنشاء مركز ينظم ندوات في داخل الوطن، وجلسات تحضيرية على مستوى المناطق يتم فيها تدارس الهموم الداخلية، ويشارك فيها مختلف شرائح المجتمع، كما اهتم كثيراً بفكرة الحوار بين الأديان والحضارات، وتبنّى إنشاء مركز عالمي مقره مدينة فيينا عاصمة النمسا لتحقيق هذا الهدف، وحضر قبل ذلك عدداً من المؤتمرات الدولية التي مهّدت لهذا الغرض.

أمور كثيرة، كانت على جدول أعمال الملك عبدالله وفي ذهنه، منها ما أنجز محققاً أهدافه، ومنها ما زُرعت بذرته وفي الطريق لأن يؤتي ثماره، ويمكن بإيجاز أن تُعدّ مواصلة الإصلاح، والانفتاح، واستمرار الحرب المعلنة على الفساد والإرهاب، وإشاعة الحوار، ونشر التعليم الجامعي أفقياً ونوعيّاً، والتوسّع في الابتعاث للخارج، ومناصرة قضية المرأة، وفكرة المدن الاقتصادية لتنمية المناطق، وتوسعة الحرمين الشريفين، واعتماد مشروعات تعميم السكك الحديدية للنقل داخل المدن المكتظّة وبين المناطق، أن تُعدّ من أبرز ركائز عهده.

(٤١)

نايف بن عبد العزيز (*)

مدرسة الأمن الشامل

(*) نشرت غداة وفاته المفاجئة، الشرق الأوسط، العدد ١٢٥٥ في ٢٧/٧/١٤٣٣هـ (١٧/٦/٢٠١٢م).



لم تكن المملكة العربية السعودية، ومنذ أن تأسست قبل أكثر من قرن، لتصبح من الدول المتميّزة في نظامها الأمني، لو لم تجعل منه على مدار العقود الركن الأول المساند للحكم، بعد أن كانت الجزيرة العربية فيما مضى مضرب المثل في الفوضى والافتقار إلى الاستقرار.

الأمن بالنسبة لهذه الدولة على وجه الخصوص، هو الوجه الآخر لرسوخ الكيان، وهو صمام الطمأنينة للحج والحرمين الشريفين، وهو الضامن الرئيس للصادرات النفطية، السلعة الأهم لاقتصاد العالم ولدخل البلاد، ومن هنا كان للأمن الأولوية القصوى للدولة عند إعلان توحيدها، فتأسست وزارة الداخلية السعودية في العام نفسه الذي بدأ فيه تكوين الوزارات عام ١٩٣٢م، جنباً إلى جنب مع إنشاء وزارة الخارجية، واختير للتعاقب عليها أفضل القيادات، بدءاً بالأمير فيصل بن عبدالعزيز وانتهاءً بالأمير فهد بن عبدالعزيز الذي اصطفى أخاه القوي نايف نائباً له طيلة عمله وزيراً للداخلية، قبل أن يصبح فهد بعدها ولياً للعهد في عهد الملك خالد.

نايف، تعلّم نظريات الأمن في مدرستين؛ الأولى في إمارة الرياض التي تولّاها ولأعوام طويلة، ثم في مدرسة أخيه فهد، لكنه اختط

لنفسه، فيما بعد، مدرسة قائمة بذاتها، تنظر إلى الأمن نظرة شاملة، بمفهومه السياسي والاجتماعي والاقتصادي والإعلامي، لدرجة جعلت وزارة الداخلية الحاضن الأول والقاسم المشترك لكثير من مفاصل الإدارة، أخذاً بالاعتبار الجوانب الإنسانية لكل هذه المفاصل الحيوية.

وعلى خلاف كثير من مفهوم وزارة الداخلية في بعض الدول، بقيت وزارة الداخلية السعودية بالنسبة للمواطن المحلي الكلمة المرادفة للأمن الاجتماعي، وكانت حتى وقت قريب جداً متاحةً للجميع، مفتوحة لكل المواطنين والمقيمين والمراجعين، في صفوٍ لم يُعكره في العقد الأخير سوى لسعات الإرهاب المعزولة.

وارتبط اسم نايف في المجتمع الثقافي، وعلى مدار ربع قرن من عمله الأمني والسياسي، برئاسة المجلس الأعلى للإعلام، الهيئة التي ظلت تُمثّل السلطة التنظيمية لشؤون الإعلام، والحد الفاصل بين طرفي العملية الإعلامية، التنفيذية والرقابية، وذلك إلى أن صار مجلس الشورى بعد إحداثه يقوم بشيء من هذا الاختصاص.

والذين عرفوا نايفاً عن قرب أو في وسائل الإعلام، وإن اضطر في السنوات الأخيرة إلى أن يُغلّب خط الحزم في مواجهة موجة الإرهاب العالمي والداخلي، فإنهم لم يروا فيه يوماً، شكلاً أو منطقاً أو تعاملاً، إلا ذلك الإنسان الذي يُخجلك بخطابه وودّه ولطف معشره، وكان

من أدلّ مظاهر سماته غير المُتكلّفة أنه ظل رغم الظروف الأمنية ذلك الذي يستجيب للدعوات، ويردّ على المكالمات الهاتفية في مختلف الظروف، ويحرص على القيام بالواجبات الاجتماعية والإنسانية مع الجميع، ويتّجه في أحاديثه وجهة ثقافية بعيدة كل البعد عن الوظيفة وعن المسؤوليات الأمنية اليومية.

كان نايف كما ذكرت، مَجمع السلطات الأمنية، وحاضن الأمن الوطني بمفهومه الشامل، وكان يُعرف بانتقاء العبارة، وباختيار لغة الخطاب، لا تصدر أحكامه إلا عن رويّة، ولا رؤاه إلا عن حكمة، تخلو مواقفه وتصرفاته من الصلف والتشنّج، يقرأ الأمور بكثير من الهدوء والموضوعية، ولهذه السمات المختلفة كان عن جدارة رجل الأمن المختلف، الذي وجد فيه الملك عبدالله الرجل السداد، ليشغل ولاية العهد بعد وفاة أخيهما الأمير سلطان (أكتوبر ٢٠١١م)، وحاز على احترام وافر بين الجميع بوصفه حكيم العائلة، ذا الفكر السديد، ومنطق الاعتدال والرويّة، وكانت له بصماته في احتواء أصحاب الرؤى الفردية المعارضة، وسيظل منهجه المتميّز والثابت في التلازم بين الأمن والسياسة، فكراً يُدرّس في أكاديميّات الأمن بالمفهوم الأوسع في قادم الأعوام.

الأمير نايف، وبالرغم من قربه لوسائل الإعلام، إلّا أنه كان قليل الظهور، لكنه إذا تطلّب الأمر ذلك، وبخاصة إلى مؤتمر صحفي، فإن الأنظار تترقّبه وتتجه إليه، لأنه - في رزانة بالغة - يشبع النقاش حقه، من

التفصيل والوضوح والمنطق، ومن لقاءاته التي أعتزّ بها لقاء أجريته معه في برنامج «مؤتمر صحفي التلفزيوني» عام ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، وندوة توثيقية تاريخية اشترك معه فيها الأستاذ محمد حسين زيدان والدكتور عبدالعزيز الخويطر، بمناسبة اليوم الوطني عام (١٣٩٥هـ/١٩٧٥هـ) فقدّم كل منهم فيها قراءة رصينة، بأسلوب تحليليّ عميق، لسيرة المؤسس ورجاله، وللأحداث المفصلية في تاريخ الوطن ومنعطفاته، وهما لقاءان لعل التلفزيون اعتنى بحفظهما.

برحيل الأمير نايف في غفلة من المؤرّخين وكتّاب التراجم، لا بد من التفاتة شاملة إلى سيرته الثريّة، ليتمّ توثيقها بما تستحقه، بوصفه أحد أعمدة التوازن في هذا الكيان وفي الوطن العربي، تلك الركائز التي صمدت للإرهاب بفكر ثاقب من تحصين الناشئة والمجتمع، فكان أن اختاره قادة الداخلية العرب على مدى عقود لرئاسة مجلسهم[(١)].

(١) صدر عن دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م، كتاب جمع كلمات الأمير نايف وخطبه في نحو ٧٠٠ صفحة.

(٤٢)

حمّاد بن محمّد الشّبيلي (*)

رحيل الأبناء يُذكّر بالآباء

(*) جريدة الجزيرة، العدد ١٥٨١٤ في ٥/٤/١٤٣٧هـ (١٥/١/٢٠١٦م).



من المواقف المحرجة للكاتب أن يكتب عن أولي قربى، إذ من الصعب عليه في مثل هذا الموقف أن يتحلّى بالموضوعية ويحافظ عليها، لكن رحيل هؤلاء ما كان ليمرّ دون أن يشارك القلم بالبوح ببعض الخواطر عنهم وعن آبائهم الذين تركوا من الذكر ما يستحق معه أن يُستذكر، ومن المروءة ما يتوجّب معها أن يُستحضر، وهم نماذج لكثيرين أمثالهم من روّاد مجتمعنا.

ففي النصف الأول من القرن الماضي، شهدت الرياض استقرار مجموعة من أبناء العمومة فيها، انتظم معظمهم في ديوان الملك عبدالعزيز، حيث عاصروا تكوين الشعبة السياسية وديوان البرقيات والخاصة الملكية، وبدايات إمارة الرياض والدوائر الحكومية الجديدة آنذاك، كان منهم على الأخص إخوة خمسة هم: عبدالله ومحمد وعبدالعزيز وسليمان ومقبل أبناء حمّاد الشبيلي، وقد سكنوا في بيوت الطين في شارع الثميري والقِري والعطايف ومصدّة وفي حلة آل بحير المسمّاة (الشرقية) غرب المقيبرة، ثم انتقل بعض هؤلاء الإخوة في النصف الأخير من السبعينيات الهجرية (الخمسينيات الميلادية) إلى حي عليشة الجديد شمال مستشفى الشميسي الحديث آنذاك، وما كان الإخوة الخمسة إلا نماذج مُعبرة من جيل الموظفين الروّاد الذين تركّز سكن معظمهم في الحارات القديمة

من أحياء الرياض، واكتسبوا وزملاؤهم جميعاً مكانة اجتماعية رفيعة في العاصمة، وكانت منازلهم ملتقىً لأمثالهم من سلك قدامى موظفي الديوان الملكي، من أمثال إبراهيم بن معمّر ومحمد بن دغيثر وعبدالله ابن عثمان.

كان أكبر هؤلاءالإخوة الخمسة عبدالله الحمّاد الشبيلي المعروف بلقب «أبو حمّاد» الذي عمل مبكّراً في إمارة الرياض، ثم صار مديراً لمالية الرياض سنة ١٣٥٥هـ (١٩٣٥م) وعمل أخيراً في الخاصة الملكية في عهدي الملك عبدالعزيز والملك سعود، وكانت وفاته في عام ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤م).

يليه أخوه محمد (والد شخصية هذا المقال) وكان المسؤول عن إدارة شؤون البادية التي تتخذ من مبنى إمارة الرياض بالصفاة مقراً لها، يرى الزائر لها وفود البادية، وبخاصة من المجاهدين في توحيد البلاد، تترى وهي تراجعها، وتتلقّى العناية في متابعة شؤونها، وتوفي عام ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م).

ثم أخوهم الأوسط عبدالعزيز، الذي عمل مديراً لديوان الجهاد في الديوان الملكي بين عامي ١٣٥٨ و١٣٧٨هـ خلفاً لعبدالله بن عسكر، ثم اختاره الأمير (الملك) سلمان في أثناء ولايته الأولى على إمارة الرياض في السبعينيات الهجرية ليكون وكيلاً للإمارة، وتوفي عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).

ثم سليمان الذي تولّى في آخر أعماله القصور والضيافات الملكية حتى وفاته عام ١٤٠٦هـ (١٩٨٥م) وكان قد مرّ من قبل برئاسة الحرس الوطني

وكيلاً لها في فترة رئيسها الأمير خالد بن سعود بن عبدالعزيز في أواخر السبعينات الهجرية وكان مقرّها آنذاك في شارع الشميسي الجديد، وآخر هؤلاء الإخوة الخمسة مقبل، الذي خلف أخاه عبدالعزيز في إدارة المجاهدين قبل أن يتولاها عبدالله الغاطي، وتوفي عام ١٤١٢هـ (١٩٩٢م) ومع الأسف أن أيّاً من هؤلاء الخمسة لم تدوّن سيَرهم.

وقد عمل على مقربة منهم، عبدالله وإبراهيم ابنا عمهم حمد الحماد الشبل أحد وكلاء الملك عبدالعزيز في البصرة (على غرار عبداللطيف باشا المنديل وعدد من أسرة الذكير، كما سبق وأشرت إلى ذلك في مقالات سابقة).

ولقد شاءت إرادة الله وفي فترات متقاربة، أن تتوالى وفاة مجموعة من أبناء هؤلاء الإخوة الخمسة بدءًا بأحمد بن مقبل وأحمد بن محمد الحمّاد، ثم الأخَوَان فهد وماجد ابنا عبدالعزيز، وخلَفهم في الرحيل سعود بن عبدالله الحمّاد، ثم تلاهم سعود بن عبدالعزيز الحمّاد، وبالأمس حمّاد ابن محمد، الذي يفصّل هذا المقال في شيء من ذكره نموذجاً لبقيّتهم.

لم يكن منبع الذكر الطيّب الذي تركه حمّاد بن محمد الشبيلي ناشئاً من كونه قد بلغ فحسب، مبلغ العمادة في الأسرة من حيث المكانة العُمريّة وهو الذي يغادر بالأمس متخطّياً الثمانين، بقدر ما أتى من سجلّ المواقف التي تأهّل للقيام بها، فكان ـ وأهل بيته ـ ممّن وهبهم الله قدراً كبيراً من الإحساس النبيل بالواجبات على مستوى المجتمع، وكان من الجُود على

درجة لا تبارى بين عارفيه، وفي الواجبات الدينية في مقدمة مؤدّيها، وكنت عرفته منذ تشرّفتُ بملامسة تراب العاصمة الحبيبة قبل خمسة عقود، وقد وجدت فيما وجدت لديه أنه اكتسب معرفةً جيدة يُغبط عليها في شؤون البادية، وذلك بحكم عمله السابق مع والده ثم في عمله اللاحق في إدارة المقررات والقواعد في وزارة المالية، وكان الباحث يجد فيه عند الحاجة مرجعاً مفيداً عن تركيبة القبائل وشرائح فئاتها وأفخاذها، وهي مهارة لا يحوزها في زمننا هذا إلا القلة من المتخصصين.

وهناك مجموعة أخرى من أسرة الشبيلي عملت مبكّراً في الديوان الملكي، لكن السياق لا يتّسع للحديث عنهم بالتفصيل، ومنهم عبدالعزيز الناصر الشبيلي (المتوفّى عام ١٣٦٤هـ) وابنه السفير عبدالرحمن المقيم في جدة حالياً، وكان الابن قد بدأ عمله في الديوان الملكي سنة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٥م تقريباً، ومحمد العبدالرحمن الشبيلي المتوفّى عام ١٤١٦هـ (١٩٩٦م) ومنهم ذائع الصيت السفير محمد الحمد الشبيلي (أبو سليمان) المتوفّى سنة ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩م) الذي دوّنتُ لمحاتٍ من سيرته في كتاب صدر سنة ١٤١٤هـ (١٩٩٤م) وكان الأخيران قد ابتدءا العمل معاً في الديوان الملكي في حدود سنة ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م.

لم تكن عاطفة القربى الدافع الأول وراء هذا المقال، بقدر ما هو التأثّر من تساقط أوراق من خريف تاريخ البلاد، لا يمكن تداركها إلا بمجهود أكبر لالتقاط ما تختزنه ذاكرة هؤلاء من معلومات ونحن نراهم وأمثالهم

من الكبار في سائر أنحاء البلاد يغيبون يوماً بعد يوم عن الدنيا فتختفي معهم صفحات من ذاكرة الوطن، ونحن ما زلنا ندور في فلك الازدواجية بين اختصاصات المراكز والمكتبات الوطنية المعنيّة بالتوثيق، مع التقدير لما يقوم به كل مركز في حدود إمكاناته واختصاصاته من جهود، وأحسب أن ذخيرة هذا الجيل وما سبقه من معلومات لا تتوافر في بطون الكتب، حيث تُفقد وتندثر بفقدهم وبتشتّت الوثائق بين مراكز المعلومات، مشيراً بالتقدير ما دوّنه الحرس الوطني سابقاً من مقابلات مع بعضهم، وما تسجّله دارة الملك عبدالعزيز ومكتبة الملك فهد الوطنية حاليّا، أو ما يحاول به بعض الباحثين والدارسين في جهود فردية مشكورة.

غياب هذه الشخصيات اليوم وأمثالها من جيل حقبة التأسيس، لم يكن كما ذكرت سوى ورقات صغيرة تساقطت دون توثيق، من سجلّات التاريخ المجيد لهذا الوطن، الثريّ بحاضرته وباديته، وبرموزه ورجالاته، وبتراثه وأمجاده، حريّ بنا ألا تُهمل مهما بلغت في حجمها، فالصورة وثيقة، والكلمة معلومة، والقصاصة قيمة تاريخية مضافة، والرواية صفحة فائقة المقدار في عالم التدوين والبحوث، وعلينا أن نتدارك أمثال هؤلاء من شمال البلاد وجنوبها ووسطها وشرقها وغربها، رجالاً ونساءً، في كل عهد وجيل قبل رحيلهم، ضمن برنامج ممنهج لاستكمال كتابة التاريخ وحفظه بالصوت والصورة إن أمكن، وإلاّ بالكتابة والتأليف في أقلّ تقدير.

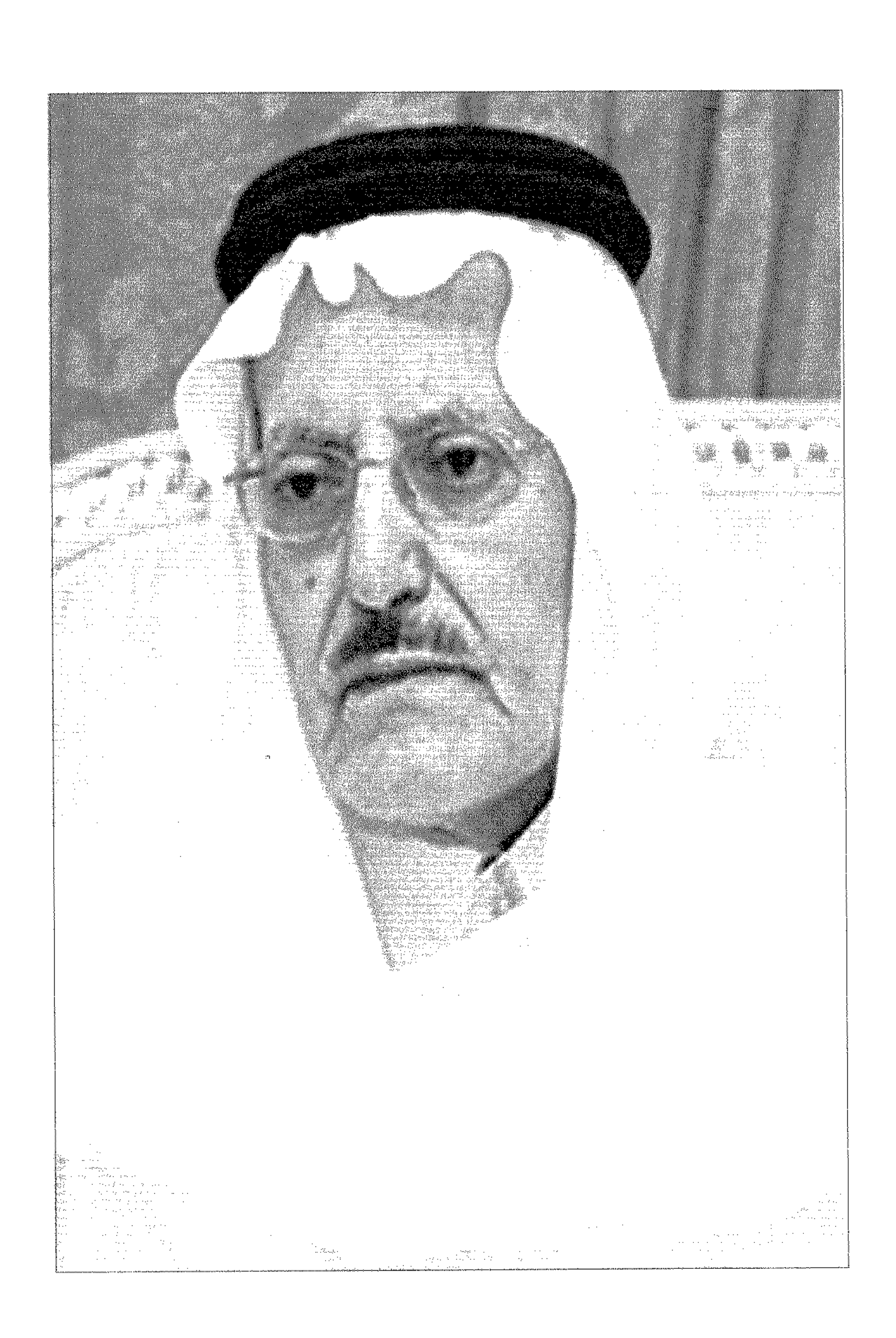
ولو سجّلنا في كل يوم ورقة واحدة مع أمثال هؤلاء الروّاد لأصبح لدينا في كل عام كتب من التاريخ الشفوي، ولو قام طلبة أقسام التاريخ والإعلام في كل منطقة بتتبّع تجاربهم ومكنونات صدورهم من المعلومات المختلفة؛ الثقافية والتاريخية، والاقتصادية والاجتماعية، لأضفنا إلى المكتبة الوطنية سنويّاً كنوزاً من الأشرطة والملفّات أكثر وأثمن من حجم رسائل الدكتوراه التي ربما كان بعضها ذات فائدة أقل.

(٤٣)

د. راشد المبارك (*)

بلاط العلماء والأدباء

(*) الشرق الأوسط، العدد ١٣٢٣٣ في ١٤٣٦/٥/٢هـ (٢٠١٥/٢/٢٠م)



في عُرف الصالونات الأدبية التي تميّزت بها الثقافة العربية وازدهرت في العصور الأموية والعباسية وفي الأندلس وربما قبلها، ثم استمرت في بغداد والشام ومصر والمغرب وفي الحجاز، ونقلت كتب الترات العربي مثل كتاب الأغاني للأصفهاني والإمتاع والمؤانسة للتوحيدي أخبارها وما كان يدور فيها، تقف أحديّة الدكتور راشد عبدالعزيز المبارك الأسبوعية في الرياض منذ عام ١٩٨١م شامخةً بين منابر الحركة العلمية والثقافية الأهلية، يشار إليها بوصفها نموذجاً حيّاً عامراً بالمطارحات الفكرية، ومن ورائها إنسان رضع الثقافة في أسرة أحسائية عريقة في العلوم والآداب والتاريخ والفقه والرواية والحفظ والتراث، فلا تكاد تجد فرداً من آل المبارك إلا وله باع في ميدان أو أكثر من هذه الميادين، ومن بينهم والده الشيخ عبدالعزيز حمد المبارك الذي نشأ في الهفّوف (الأحساء) وجاب إمارات الخليج ودرّس في الكويت وتوفي سنة ١٩٤٠م.

أبو بسّام المولود في الأحساء قبل وفاة والده بخمس سنوات، كرّس حياته لإحياء هذا الصالون الشهير، ولعله المتفرّد بين أعلام أسرة المبارك بالجمع بين العلوم (الفيزياء والكيمياء) والأدب وفروعه (النقد والرواية وقرض الشعر) لدرجة أن تعمّقه والتصاقه بالأدب صارا يطغيان على شهاداته

الجامعية والعليا في العلوم البحتة (جامعة جنوب ويلز، كارديف ١٩٧٤م) وكان في جمعه بين تخصص العلوم وهواية الأدب نموذجاً يذكّر بالعديد من العلماء والحكماء العرب والمسلمين القدامى والمعاصرين الذين اشتهروا بهذه الناحية (كابن رشد الحفيد وابن سيناء والخوارزمي ومصطفى محمود والمهدي بن عبُّود) وقد أصبح صالونه ملتقىً فكريّاً جادّاً يستقطب كبار الأدباء والعلماء، حيث يُعدّ - ومجلس الشيخ حمد الجاسر - أبرز الملتقيات الثقافية المنزلية في العاصمة الرياض، يشارك في ترتيب موسمهما السنوي متخصصون في مجالاتهما العلمية المتنوّعة، وكان ممن حضر أحدية المبارك وحاضر فيها الأديب السوري المعروف سليمان العيسى (وهو صديق الدكتور المبارك، توفي في دمشق سنة ٢٠١٣م) حيث قال في الندوة قصيدة مطلعها:

ضُمّي إليك بقايا بلبلٍ غَرِدِ

يا عذبة الملتقى يا ندوة الأحد

بلغ من انصراف الدكتور راشد عن تخصصه الأساس واهتمامه بهواية الأدب والشعر وروايته ونقده، أن بقيت علاقته بجامعة الملك سعود التي كان أحد أساتذتها، علاقة سطحية، واشتهر عنه أنه لم يتقدم بأبحاث علمية في مجال تخصّصه بهدف الترقية كما هو المعتاد من كل أقرانه أعضاء هيئة التدريس، وكان أن طلب التقاعد المبكر وهو لـمّا يزال في أول السلّم الوظيفي الأكاديمي، لكنه مع ذلك أنصف تخصصه في مؤلفاته، وكان كثير الاستشهاد

في سياق أحاديثه وتعليقاته بالنظريات العلمية المرتبطة بالكيمياء والفيزياء، وبلغ من احترامه للغة العربية أن طبّق على نفسه وعلى أسرته قانون التحدّث بها في المنزل، ونافح عنها في المحافل المحليّة والخارجيّة. فضلاً عن كونه بالطبع ضليعاً بها وبقواعدها، وراويةً للمئات من قصائد تراثها الشعري.

أمّا إذا عُدّ رموز الفكر والثقافة التنويريون في الوطن العربي، فإنه من المبرّزين بينهم والأكثر فيهم زهداً بالأضواء، وهو صاحب رأي وموقف، لا تنقصه الصراحة إذا كتب أو تحدّث، ولا العبارة إذا علّق، وهو لا يبالغ إذا امتدح، ولا يجامل إذا استُشير أو أشار، سخّر ماله ووقف إمكاناته وجهده للمنافحة عن قضايا الأمة وبخاصة مسألة فلسطين، واتّخذ من بعض أُمسيات الأحديّة ندوات صريحةً لمناقشتها ولاستضافة رموزها، وقام مخلصاً في أثناء الحرب العراقية الإيرانية مع عدد من المخلصين بمحاولة عمليّة في الوساطة بين الجارتين المسلمتين.

المعروف من كتبه: هذا الكون ماذا نعرف عنه، وكيمياء ألكمّ، وقراءة في دفاتر مهجورة، وشموخ الفلسفة وتهافت الفلاسفة، وفلسفة الكراهية، وشعر نزار بين احتباسين، والتطرف خبر عالمي، وديوان رسالة إلى ولّادة، وتعرّض للهجوم نتيجة انتقاده في أبحاثه لشعر المتنبّي وشعر نزار، وقد زاملته في المجلس الأعلى للإعلام بضع سنوات، قدّم فيها آراءً رصينة ومواقف منصفة حازمة، وأفكاراً تنويرية جريئة.

قال صديقه المفكّر السعودي د. أحمد التويجري وهو يرثيه اليوم: «**كان**

نبيلاً من نبلاء العرب، أديباً وشاعراً ومفكّراً من طراز رفيع، جمع بين الثقافة الواسعة والذاكرة القويّة، وإن مختاراته الشعرية التي طالما طالبته بنشرها تفوق كل ما اطّلَعْت عليه سواء في قديمه أو حديثه، وكان كريماً مضيافاً صاحب نخوة وشهامة، وطنيّاً حرّاً مطالباً بالإصلاح في السرّ والعلن».

وكانت الشرق الأوسط نشرت مقالاً ضافياً عنه لمحررها الثقافي ميرزا خويلدي بعنوان: راشد المبارك: المثقف الوسيط (العدد: ١٠٩٢٢ عام ٢٠٠٨م) وأصدر صديقه الدكتور عبدالله القفاري كتاباً عن سيرته بعد تكريمه في الأحساء عام ٢٠٠٨م بعنوان: (راشد المبارك؛ ريادة في الفكر والثقافة ٢٠٠٩م)[1] وكتبت عنه قبل سبعة عشر عاماً مقالاً بعنوان: راشد المبارك أو ابن رشد الصغير (جريدة الجزيرة: ١٩٩٧م).

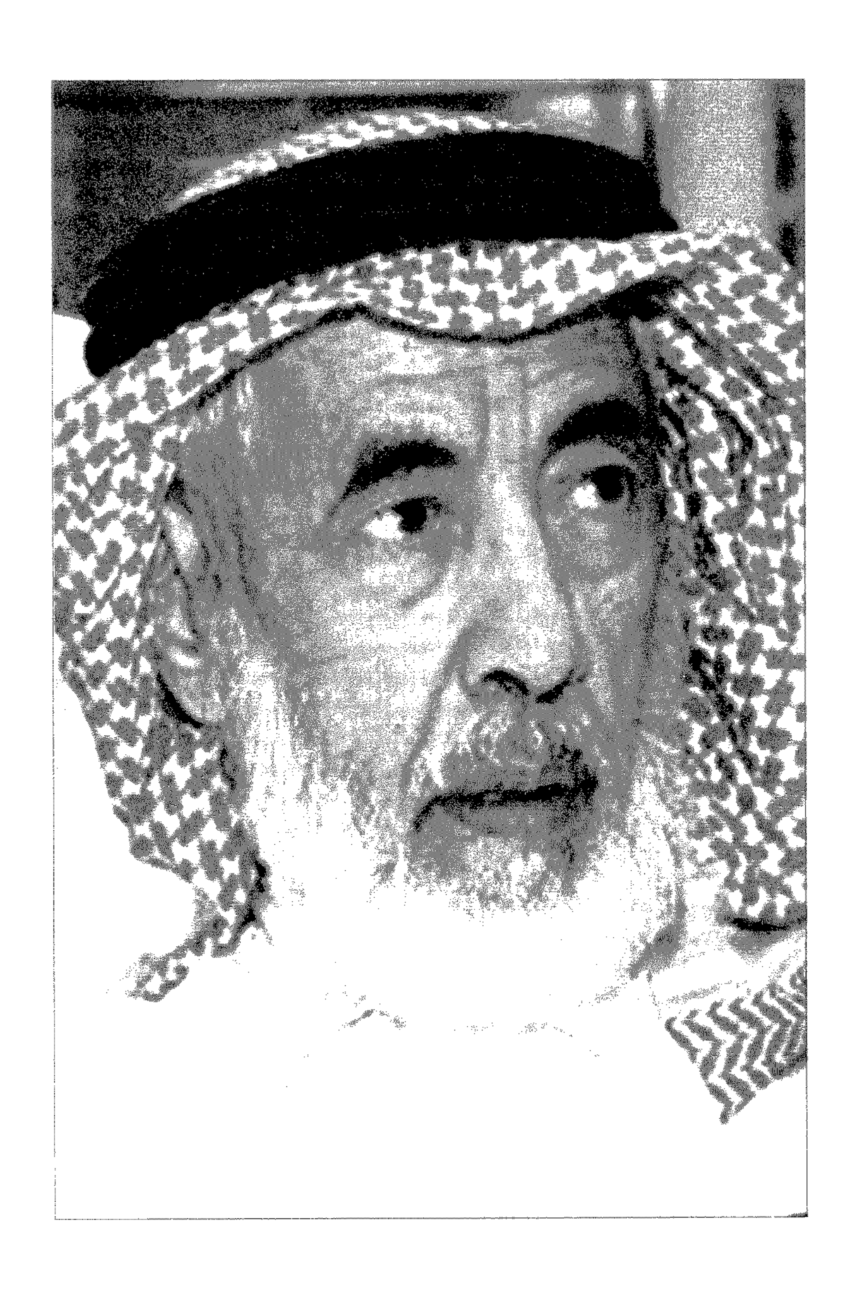
(١) أعاد إصداره حديثاً بعد وفاته (٢٠١٦م).

(٤٤)

د. عبدالله العثيمين (*)

يلحق بركب الخالدين

(*) في مجلس حمد الجاسر، ونُشرت في الشرق الأوسط، العدد ١٣٦٦٢ في ١٤٣٧/٧/١٧هـ (٢٠١٦/٤/٢٤م).



عندما أعود لجذور المعرفة التي جمعتني بالراحل، وهي قد تسبق زمالة أغلب من عاصره في جامعة الملك سعود أو في اسكتلندا، أجدها تعود إلى صفوف المدرسة العزيزية، الأولى في عنيزة، التي ضمّتنا معاً قبل ستين عاماً ونيف مع اختلاف بسيط في فصولنا، وأشعر أن تلك الأسبقية تفرض علي واجباً إضافيّاً للمشاركة في هذه الندوة الأخوية الصافية.

في تلك السنوات، ظلّلت مدرستَنا أبوةُ مربّيين عظيمين بقي اسمهما ورسمهما يتوّج تاريخ التربية والتعليم في المدينة، وهما الأستاذان صالح ابن ناصر الصالح وشقيقه عبدالمحسن، ومعهما في مجتمع المدارس الرائدة عبدالعزيز الدامغ وحمد الشريّف وعلي السيوفي ومحمد الخليفي وسليمان الشبل ومحمد المطوع وعبدالله العلي اليحيى وعبدالرحمن البطحي، وغيرهم.

وجمعتنا تلك الحقبة أيضاً، بنماذج عديدة من المدرسين، من بينهم على سبيل المثال أساتذة كبار كنا منذ تلك الأيام نستشعر بوادر الوطنية والإخلاص في نبرات تنظيمهم وإسهاماتهم التعليمية، وهم

على سبيل المثال عبدالرحمن الصالح العليّان وعبدالله العرفج ود. عبدالعزيز العلي النعيم وشقيقه عبدالله العلي النعيم وهم من قادة الحركة التعليمية فيها، وتبنّي مشروعات إنهاضها الثقافي والتنموي والتعليمي، فكان من مبادراتهم أن سبقوا تحت أضواء مصابيح الكيروسين (الأتاريك) بإقامة النادي الأدبي (١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م) الذي كان مُشعل النبوغ الفكري ومُؤجج الشعور الوطني عند الشعراء من المدرّسين، ومن الطلاب بخاصة.

وفي أحد منعطفات سوق المدينة المكتظّ بالبيع والشراء حتى وقت الغروب، كنّا نلحظ فتىً في ريعان الشباب، يخرج من منزله يخترق جموع الناس يتردّد على الجامع الكبير، ليتابع حلقات الشيخ عبدالرحمن السعدي بانتظام جنباً إلى جنب مع أقرانه من طلبة العلم من كل الأنحاء المحيطة بالبلدة، وهكذا قدّر لشقيقه الشيخ محمد بن عثيمين أن يحل محل الشيخ ابن سعدي في إمامة الجامع والتدريس فيه بعد وفاته عام (١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م) وكنا كثيراً ما نحضر دروسهم قبيل العصر، ونشهد كاتب الشيخ السعدي، الشاب عبدالله السليمان السلمان ذَا الخط الجميل، يجول في حركة وابتسامة دائمتين، يوزع وقته بين ملازمة الشيخ ابن سعدي وأداء واجباته التعليمية.

في تلك الأجواء، عاش معظم أبناء جيله ممن لم تجتذبهم الهجرة أو النزوح، بين منشغل بالدراسة أو بالتجارة أو بالزراعة والحرَف المختلفة، وكان عبدالله مثل كثير من الشباب المتفتّح القارئ يتنازعه شعور غامر من الحزن مما تعانيه الأمة من الظلم المتمثّل في اغتصاب فلسطين واحتلال الفرنسيين للجزائر وبوادر مشكلة البريمي والعدوان الثلاثي على مصر، وهو ما جعل الشعراء الشباب ينخرطون في نظم قصائد ثورية، تضاهي ما كان يقوله شعراء فلسطين والجزائر والعراق ومصر وبلاد الشام وغيرها(١).

مرّ في مسيرة حياته التعليمية بتحوّلات عدة، من بينها التردّد في اختيار مساره التعليمي الذي يستهويه أو الانخراط في مهنة والده وأعمامه (البيع والشراء) ومنها الفصل التعسّفي من المعهد العلمي لنشاطه الفكري، ثم من الجامعة بسبب مقال انتقد فيه مناهجها، وقد تغلّب على تلك الظروف بعزيمته، ومن المفارقات أنه أصبح عضواً في لجنة إصلاح المناهج في وزارة المعارف، وإن لم يتمكّن فيها من إفراغ كل ملحوظاته عليها، توجد الإشارة إلى هذه التحوّلات وغيرها فيما كتب عنه من مقالات أو مراثي، إلا أنه في حدود ما أعلم، لم يخلّف سيرة مطبوعة تكشف تلك التحوّلات.

---

(١) ورد في (ص ٣٧٥) نماذج من شعره ذي الطابع القومي.

وبالرغم من تلك المنغّصات، يُرى أبا صالح مبتهجاً دائماً، قريباً من ربه، باراً بوالديه، سعيداً بحياة أسرية مستقرة مع ابنة عمه، ينشرح صدره لمفاتن مدينته، ويطرب لكلمة إطراء فيها، أو لسماع مقطع من سامرّيتها.

قصدت من هذه المقدمة إعطاء مدخلٍ يصوّر أجواء طفولته، وبيئة نشأته، ونشأة جيله من الشعراء عبدالله الجلهم ومحمد الفهد العيسى وعبدالله الحمد القرعاوي ومقبل العيسى وعبدالله الحمد السناني وصالح الأحمد العثيمين وإبراهيم الدامغ وعبدالعزيز المسلّم ومحمد السليمان الشبل وسليمان العبدالعزيز الشريّف.

لقد احتفى به مجتمعه تكريماً واحتراماً، وظلّ استحقاقاً يتجدّد، فهو في الشعر ناصية، وفي التاريخ ثبتٌ وموضوعيّة، وفي التحقيق العلمي أستاذ، وفي الوطنيّة إباء ورمز، وفي معيار البساطة مقياس لا يتغيّر، وهو المرجع المعتمد والثقة في التاريخ المعاصر للجزيرة وفي سيرة الموحّد (الملك عبدالعزيز).

كان الراحل المولود عام ١٩٣٦م أستاذاً للتاريخ في جامعة الملك سعود بالرياض، وصار عضواً في مجلس الشورى، وأميناً لجائزة الملك فيصل العالمية التي ودّعته بإجلال يليق به في حفلها الأخير في الشهر الفائت، وكان كثيراً ما يفاجئ محفلها بقصيدة من نظمه تناسب

الموقف لتقديم أحد الفائزين، وتُطابق أبياتُها الحدث والظرف، وتلتزم قافيتُها بذكر اسم راعي الحفل أو بالإيماء للشخصيّة المكرّمة، وتكون من الجزالة والرقّة ما يجعلها حِليَةً من حُليّ الحفل وخريدة مشوّقاته، لكنه لم يتمكّن مرّةً من الإتيان بما يريد قوله، فنظم قصيدةً مطلعها:

لو يرحم الشعر أمثالي لوافاني
بما تودّون... من قولٍ وتبياني
لأرسمَ اللوحةَ النشوى، مجنّحةً
معبّراً عن أحاسيسي ووجداني
لكنّ شيطانه استعصى وفرّ على
شهباء عاصفةٍ من مربط الجان

وهو، مع هيئته الوقورة متيّمٌ في حب وطنه وعشيرته، ومسكون بأزمات أمّته، حاضر البديهة، عفوي التعامل، بسيط المظهر والمسكن والمأكل، لا تغادره الكلمة المرحة ولا القصيدة المازحة، يحبكها فصيحة، أو ينظمها تفعيلةً، أو يقولها نبطية، وإن شاءها فتارة قوميّة، وأخرى وجدانيّة، وثالثة حميميّةً.

ارتوى كما سبق، من معين شقيقه (الشيخ محمد العثيمين المتوفّى

عام ٢٠٠١م) وتأثّر به، وحافظ على إرثه وتراثه، وصار مجمعَ الأسرة من بعده، والأمينَ على سمات الزهد والصلاح في سمعته، والتزم في عدد من كتاباته بتوضيح ما نُسب للوهابية من مفاهيم مغلوطة، وكان الموضوع عنوان رسالته للدكتوراه ١٩٧٢م، وألّف وترجم في تاريخ الدولة السعوديّة، واؤتمن على تدوين سيرة الملك المؤسّس، وعلى رصد قصة توحيد هذا الكيان، وعمل على تفنيد بعض أخطاء المؤرخين والمستشرقين بشأن تأسيسه، وقد غلبت تاريخيّتُه شاعريّتَه، حتى صار المجتمع ينظر إليه مؤرّخاً أكثر منه أديباً وشاعراً، مع أن الشعر عنده هو الأساس منذ أن ترجم له كتاب «شعراء نجد المعاصرون» لعبدالله بن إدريس قبل ستة وخمسين عاماً.

حظي مسقطُ رأسه بالقصيم بنسبة من قصيده الوجداني الجميل، وخصّه بكثير من كتاباته، ولا غرابة في الأمر، فهو ينظر إليه نظرة المُغرم الوَلِه، يفضّله لإجازاته، فهو لا يكاد يغادره حتى ينازعه الشوق للعودة إليه، ولا أخالُه يغيب عنه مهما كانت الأسباب، ولا يقارنه بضيّعات لبنان، ولا يبادله بريف «أدنبرا» التي درس فيها، فهو يتغزّل دوماً برُبى عنيزة وبساتينها، ويستمدّ منها كثيراً من الصور الذهنية الزاهية المختزنة في ذاكرته منذ الصغر عن النشأة والطفولة فيها، والعادات والتقاليد، ويحفظ ما قيل فيها وعنها من أشعار، وإن سُئل عن فنونها فهو الخبير بضروبها وعَروضها وأوزانها، وبجلسات الحوطي والناقوز والسامري،

وهي التي اشتهرت بصنوف وألوان تراثية برعت بها وطوّرتها وأجادت تطبيقاتها، وقد يشارك هو أحياناً في الترنّم بفنّ (اللعبونيّات) وقد خصّص لعنيزة كتابه الثامن والعشرين «**أنت يا فيحاءُ مُلهمتي**» أصدره مركز ابن صالح الاجتماعي بعنيزة قبل اثني عشر عاماً، وبثّ فيه مشاعر لا تغيض ولا تنقطع، مستذكراً مراتع الصبا ومرابع الشباب، ومستعيداً ذكريات مدرسته ومدرّسيه وأقرانه، وحلقات الكتاتيب والمدارس الرائدة في التعليم الحديث، وأسواق المدينة وحياتها، وأيام العيد فيها، وندوات الثقافة الرائدة وديوانيًّاتها، ونزهات النفود وكثبان الرمال وغابات الغضا ووادي الرمة، ومنتديات السمر، عبّر عن ذلك في العديد من مقالاته وقصائده(١).

وبعد؛ يضيق المقام عن تعداد مؤلّفاته التاريخية وقراءة شعره، لكنّ من يتجوّل في دواوينه العشرة، وفي كتبه الثلاثين، يجد أن القضية العربية قاسمٌ مشترك استحوذ على همّه الأكبر منذ الصغر وحتى اليوم، وأن أسَفَه على واقع الأمة المعاصر يشكّل غمّه وقلقه، وأن تطلّعه للإصلاح الاجتماعي في الوطن العربي كان الشاغل الأبلغ لخاطره، في شعر وجداني أصيل وكتابات لا تنقصها الفصاحة والصراحة، عبّر فيها عن خلجات النفوس المكلومة بالواقع العربي الأليم.

---

(١) ورد نموذج منها في (ص ٣٧٥) من هذا الكتاب.

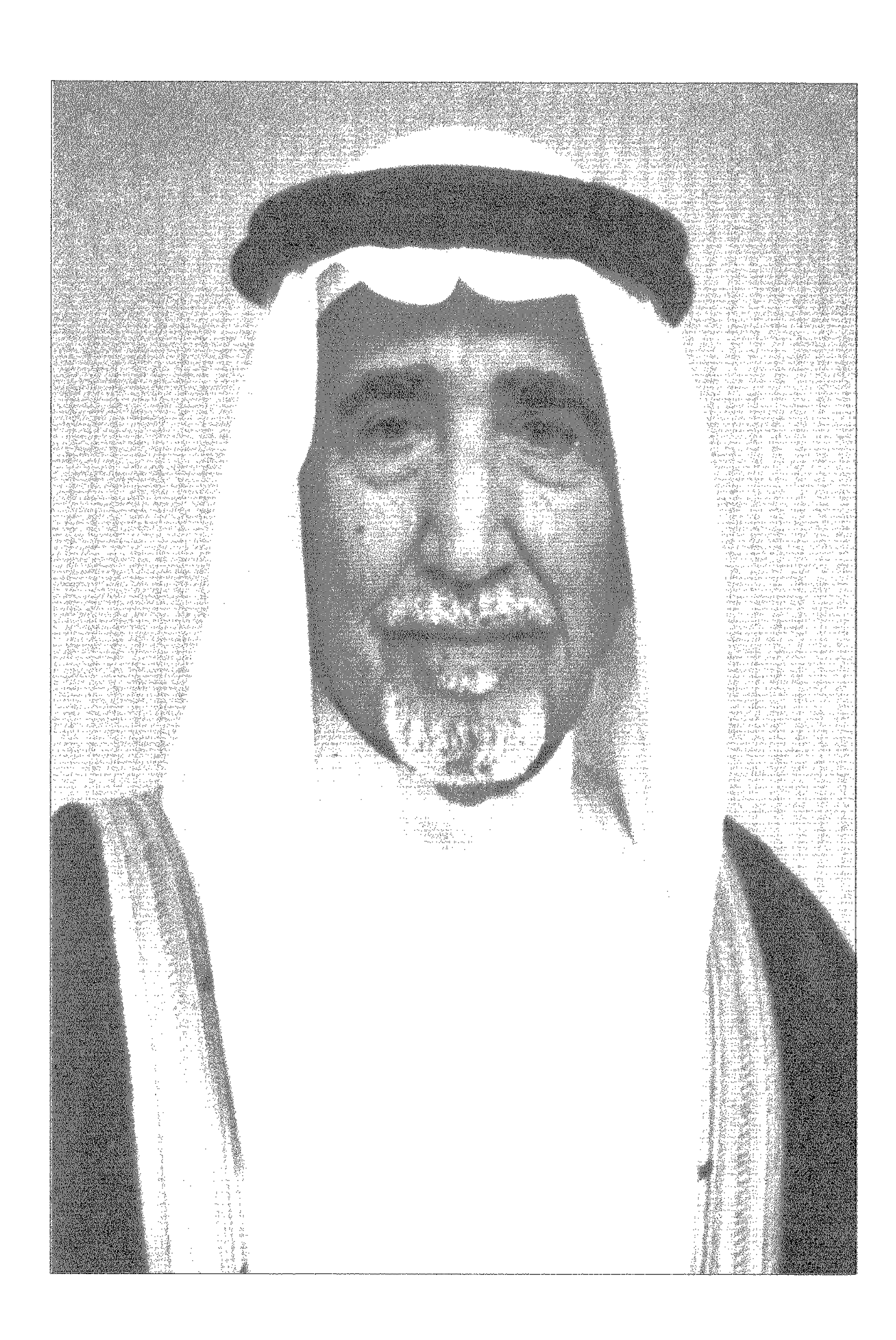
ذلكم، ما أمكن المقام التجوّل فيه، من سيرة المؤرخ والشاعر الدكتور عبدالله الصالح العثيمين، وقد لاقى وجه ربه في الرياض يوم الثلاثاء ١٤٣٧/٧/١٢هـ (٢٠١٦/٤/١٩م)، وهو العَلَم الذي بلغ من اقتناع المجتمع بموضوعيته وبعلمه أن صار يستند إلى أحكامه التاريخية، وبلغت ثقته بنفسه أن أصبح الاهتمام بالشكل والمظهر لديه من الأمور السطحيّة.

(٤٥)

د. عبد العزيز الخويطر (*)

إمام النزاهة والترشيد

(*) نُشرت غداة وفاته ، الشرق الأوسط، العدد (١٢٩٦٣) في ١٤٣٥/٧/٢٧هـ (٢٠١٤/٥/٢٦م).



الدكتور الخويطر بين الوزراء السعوديين، وبين الأكاديميين والباحثين، وبين وجوه المجتمع ومثقفيه، شخصية تفردت بالعديد من السمات، فهو في عالم الشهادات العليا الأول بين أقرانه، وفي دنيا التوزير الأكثر تعدّداً بالأصالة أو بالنيابة، وفي ميدان الوزارات غير السيادية الأقدم، وفي تدوين سيرته الذاتية الأطول باعاً، وفي البساطة والتواضع ولباقة الحديث والوفاء والتواصل بالناس يشار إليه بالبنان.

وعندما نتحدث عن الدكتور الخويطر، فنحن نقف أولاً أمام سيرة رجل لمّاح سريع البديهة بالغ الفطنة والانتباه، كما نقف في مواجهة إنسان واقعي عملي، لم تعرف المبالغة والتكلّف والمزايدة إليه طريقاً، ونحن، بعد هذا وذاك، نقف في مقابل شخصية متعددة المواهب والاهتمامات، حملت فلسفة خاصة في الإدارة وكل ما يتصل بها.

هو من مواليد مدينة عنيزة بمنطقة القصيم (٣٥٠ كم شمال الرياض) عام ١٩٢٥م، درس جزءاً من الابتدائية وأكملها في مكة المكرمة، ثم حصل على الليسانس من جامعة القاهرة (١٩٥١م) وعلى الدكتوراه من جامعة لندن (١٩٦٠م).

وفي تقديري أن تحليل صفات أية شخصية، لا ينبغي أن يؤخذ بمعزل

عن البيئة والجانب الوراثي اللذين كثيراً ما نغفلهما عند تناول سير بعض الأعلام، ومن يعرف والدَي شخصية هذا المقال يلحظ أنه تشبع بالكثير من صفاتهما، فهو ورث الترشيد والحزم وصفاء الذهن من شخصية والده، والرقة والبساطة من ملامح أخواله، واكتسب القرب من الناس من عمق انتمائه لبيئته (عنيزة بالقصيم) التي عاش فيها طفولته ثم غادرها وهو لمّا يبلغ الخامسة عشرة بعد، لمواصلة تعليمه في مكة المكرمة (١٩٣٧م)، فبقيت ذكرياته عن بلدته وعن العاصمة المقدسة متجذّرة في أعماقه، يغرف منها الكثير من كتاباته ويومياته حتى اليوم، فثقافته حجازية نجدية مصرية إنجليزية بحكم دراساته.

عبدالعزيز الخويطر، شخصيّة برزت على المسرح الأكاديمي عام (١٩٦٠م) بحصوله على أول شهادة دكتوراه (من بريطانيا في التاريخ)، وكانت جامعة الملك سعود (الأولى في الرياض) في الثالثة من عمرها، تنتظر جواداً سعودياً يمسك بمقْوَدها، وكان قد سبقه في الإشراف عليها ناصر المنقور ود. عبدالوهاب عزام.

أمضى في إدارتها والتدريس فيها نحو عشر سنوات، ثم صار يتقلّب في مناصب وزاريّة، بدءاً بديوان المراقبة العامة، ثم بوزارة الصحة والمعارف والتعليم العالي والمالية، إلى أن انتهى به المطاف وزير دولة، لكن خبرته وعزوفه عن الإجازات والسفر كان يغري زملاءه الوزراء بإنابته عنهم في معظم الوزارات.

وبالإضافة إلى أن الخويطر مثّل الطرف المحافظ في الإدارة الحكومية العليا، فهو في الواقع بهدوئه وسمته وصمته وبساطته مثّل أحد معالم الاستقرار والثبات في الدولة، فقد كان أكثر من وزير دولة، وأقرب إلى المستشار، إذا ما عرفنا أنه كان يكلّف بملفات سياسية مهمة، أو يُرسل إلى قادة ذوي ميول حادة، أو نهج ثوري، وترأّس لعقود في مجلس الوزراء «اللجنة العامة» التي تقوم بالتحضير لجلساته، ووضع جدول أعماله.

والواقع أن الصورة الانطباعية العالقة في أذهان البعض عن انعدام المرونة في نهجه الإداري، لا تخلو من المبالغة، فهو في أحيان كثيرة، وكما عايشته في وزارة التعليم العالي، يكون بالغ الإيجابية، متى ما اقتنع بسلامة ما يعرض عليه من أفكار.

أما فيما يتعلق بالإنتاج الفكري للدكتور الخويطر، وبخاصة في مجال التراث، وهو النتاج الذي رشحه للتكريم في المهرجان الوطني للتراث والثقافة (في الجنادرية) عام ٢٠٠٩م، فيمكن القول إنه مرّ بمراحل متنوعة، فهو لم يدخل إلى عالم التأليف إلاّ بعد مرور بضع سنوات على تخرّجه وأحسب أن سنوات انشغاله في إدارة الجامعة قد انقضت دون أن يصدر له سوى مؤلفين تحقيقيّين لمخطوطي تاريخ أحمد بن محمد المنقور وعثمان بن بشر، وهما من مؤرخي نجد الذين عاشوا في القرن الثالث عشر الهجري، ثم نشط في أوائل السبعينات الميلادية في تحقيق المزيد من كتب التاريخ والتراث وشعر الوطنية، فكان مما أصدر في تلك المرحلة ترجمة لأطروحته عن الملك

الظاهر بيبرس وتحقيق لكتاب الشاعر النجدي العملاق محمد بن عبدالله العثيمين، الذي عاصر الملك عبدالعزيز ونظم فيه المطوّلات.

ثم دخل خلال العقود الثلاثة الاخيرة في حياته في تأليف سلسلة من العناوين يتكوّن كل عنوان منها من أجزاء عدة، كان أولها كتابه التربوي الأصيل: (أي بُنَيّ في خمسة أجزاء) الموجّه للنشء من جيل الشباب.

وأصدر سلسلة أخرى من سبعة عشر جزءاً بعنوان: «إطلالة على التراث»، ثم أصدر كتاباً من ثلاثة أجزاء بعنوان: ملء السلّة من ثَمر المجلة وهو يقع في مجال التراث، لكن المفاجأة الأبرز في مؤلفاته المتعددة الأجزاء كانت ذكرياته التي رصدت سيرة حياته: «وسم على أديم الزمن» والمكوّن من أربعة وأربعين جزءاً، وهو مؤلف كشف عن أن كاتبه كان يرصد ومنذ طفولته أدق تفاصيل حياته، وأخذ في تأليفه منحى التسلسل الزمني (العُمْري) في حياته، هذا فضلاً عن مؤلفات أخرى ذات موضوعات وطنية واجتماعية كان يفاجئ بها القراء بين الحين والآخر وبعضها متعدد الأجزاء، ومنها على سبيل المثال: «يوم وملك» (١٩٩٨م) الذي روى أسطورة توحيد المملكة العربية السعودية، وكتاب «لمحات من تاريخ التعليم في هذه البلاد»، و «دمعة حرّى»، و «هنيئاً لك السعادة»، و «بعد القول قول»، و «نَزّ اليراع»، و «رصد لسياحة الفكر».. وهكذا، أصبح لشخصية هذا المقال أكثر من عشرين مؤلفاً، يصب معظمها في مجال التراث.

وبالاضافة إلى ما ذكر من مؤلّفات، نشط في تعامله صحفياً مع الأحداث

الاجتماعية والمستجدات الثقافية، فهو مثلاً لم يترك ظرف وفاة عزيز إليه إلا ورثاه بكلمة يروي فيها ما يجمعه به من صلات، ويبث فيها ما يشعر به من أشجان نحوه، مما كوّن لدى الخويطر من كلمات الرثاء حصيلة جمعها في كتاب للمراثي بعنوان «دمعة حرّى صدر عام ٢٠٠٧م»، وقد تحوّلت كثيراً من كتاباته المتجانسة ذات الموضوع المتقارب إلى عناوين لكتب قائمة بذاتها تحمل اسمه.

وفي ممارسته للعمل التنفيذي، كان الخويطر صاحب مدرسة فريدة في التحرير واحترام اللغة العربية، تخرّج منها عدد كبير ممن عملوا تحت إدارته، إذ لا يستخسر وقتاً يمضيه في التعريف بقاعدة لغوية، أو خطأ شائع، أو إعادة طبع أوراق المعاملة لعيب في صياغتها.

أما مؤلفاته، فإنها تمتاز بكونها إنموذجاً فريداً في أسلوبها وصياغتها والالتزام بقواعد التحرير، وفي مراعاة علامات الترقيم، كالهمزات والشرطات والشولات (الفواصل)، والنقاط والهوامش والفهارس وعلامات التنصيص والاستفهام والتعجّب والاقتباس، إلى غير ذلك من القواعد المكملة للشروط العلمية للنشر، وكذلك إعداد فهارس الأسماء والمواقع والأحداث والمراجع، علماً بأن له من أوائل مؤلفاته كتاباً عن طرق البحث، صدر في عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م).

أما أسلوبه في النقد والتحقيق وإبداعاته النثرية الثرية، فتذكّر القارئ بجيل الكتاب والباحثين التراثيين الأوائل والمعاصرين في أصالتهم، وفي

عراقة طريقتهم ونقاوتها وصفائها، وفي أسلوب الرواية والسرد والنقل والتناول والتحقيق، وهي مدرسة تعيد إلى الأذهان أسلوب الأصفهاني أو الزيات والرافعي والمنفلوطي. فهو ناثر مبدع، وناقد متذوّق، وراوٍ دقيق، ومحقق بارع، تدلل قائمة المطبوعات التي أصدرها على مهارة في صياغة الفكرة، وتدوين المعلومة، وتدفّق الكلمة، واختيار العبارة.

وذائقة د. الخويطر الأدبية جعلته قادراً على أن يصنع من الموضوع الصغير موضوعاً جذّاباً مهماً، وأن يلفت النظر إلى جوانب فنية قد لا يعيرها البعض ما تستحق من اهتمام، وأن يستنبط من أطرافه معطيات شيّقة ومفيدة، وما زلت أذكر مواقف نقدية عديدة تناول فيها دواوين شعرية أو رسائل صغيرة، استخرج منها وعنها دراسة مستفيضة، مع أن القارئ المثقّف يمكن أن يمر عليها مرور الكرام.

وأذكر كتابه «حديث الركبتين» الصادر عام ١٤٢٢هـ والذي يروي فيه تجربته مع إجراء عملية جراحية رئيسية لركبتيه معاً، ومن خلاله يعطي درساً للباحثين كيف يمكن للمرء أن يسجل ذكرياته، وأن يدوّن كل شيء مهما بلغ صغره، وكيف يمكن للباحث المتمكّن المحترف أن يلتزم بكل قواعد التوثيق والفهرسة والتحقيق، حتى وإن كان الموضوع المطروح مجرد ذكريات شخصية أو تجربة عائلية، فالكتاب، رغم صغره، فيه جوانب عدة تفيد التأليف والتدوين والباحث والقارئ، فهو يقول لأصحاب المقدرة على الكتابة: لا تحتقروا موضوعاً يمكن إشراك المجتمع في فائدته مهما كان

خاصاً أو بسيطاً أو محدود المحيط، كما أن الكتاب أنموذج جيد، لما يجب أن تكون عليه صنعة التأليف من تخصص واحتراف.

ولقد استفاد الدكتور الخويطر من انتقاله من مسقط رأسه عنيزة إلى مكة المكرمة، وعمره لمّا يتجاوز الرابعة عشرة بعدُ، ليلتحق بوالده الذي كان يعمل في مالية الحجاز، فجمع بين ثقافتي الحجاز ونجد، فتجده يتذكّر في كتاباته جذوره في مدينته، أسواقها، مزارعها، كتاتيبها، بيوتها، لهجتها وتراثها الشعبي، مساجدها، وتركيبتها الأسرية والاجتماعية، وكانت مجتمعة أحد مصادر إلهاماته وإبداعاته في الكتابة عن التراث، أما عندما يتحدث عن مجتمع مكة المكرمة، وقد انتقل إليها سنة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م، فإنه يغرف من انطباعات عميقة حفرت في ذاكرته الصغيرة، فهو يتذكر مدرسته ومعلّميه وحلقات الحرم الشريف، وحارات مكة المكرمة وعاداتها ومأكولاتها، وربما تحدث بمفردات مكية لا يتقنها إلا من عاش صغره هناك، والأمر نفسه ينطبق على إقامته اللاحقة في مصر وبريطانيا، حتى ليخيّل إلى سامعه أنه أمضى كل طفولته في كل واحدة منهما.

والدكتور الخويطر، ظل طيلة حياته من الأوفياء لكل من وما له حق عليه، وفي المقدمة وطنه وأساتذته وكل من أسدى إليه معروفاً، وقد أتحف القارئ بين حين وآخر بذكر من طوّقوه بالإحسان في دراسته أو بعثته، وشارك في تكريمهم، وفي رثاء من سبقوه، كما لم يبخل بوقته وفكره ومعلوماته على الباحثين، في مراجعة مؤلّفاتهم، والمشاركة في حلقات النقاش والندوات،

ووضع كل إمكاناته في خدمة الدارسين وطلاب العلم والمؤلفين، وكانت له إسهاماته الواسعة في كتابة مقدّمات لمؤلفات الآخرين، وفي مشاركاته في كتابه تعليقات أو شهادات يطلبها مؤلفون آخرون.

ولقد سئل مرة كيف تجد الوقت لمتابعة الأبحاث والمؤلفات وتلك الدراسات، فكشف عن سر قد يخفى على الكثيرين إذ قال: إنها ساعات الفجر التي نهدر في نومها أكثر ساعات النهار صفاءً في الفكر الذهني، وهدوءاً في الهاتف والشارع والمنزل.

ثم إن له ديوانيته التي استمرت، حتى قبيل وفاته، يجتمع فيها محبّوه، تعمر مساء الخميس والجمعة بالحديث الفكري المفيد، وتبادل المعلومة الجديدة والقديمة في العلوم شتى.

عرفته لأول مرة عام ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م عندما كان وكيلاً لجامعة الملك سعود، تلميذاً له في مادة التاريخ، وكاد حرصه على تطبيق قاعدة نظامية يفوت عليّ فرصة التسجيل في ذلك العام الجامعي، لولا عطف رئيس القلم د. عزت النص، وقد شاء الله أن أجتاز تلك المادة بتفوق، لعل مرده تحري مدرسته في تعليم فلسفة التاريخ.

ثم مرت بنا الأعوام، أدين له بالأستاذية في كل مراحلها، في صلة لم تنقطع، أتعلم من أسلوبه وأفكاره، وأراد الله أن يخلف الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ في وزارة التعليم العالي، إثر وفاته المفاجئة، وكنت إذ ذاك وكيلاً للوزارة، فجرت بنا سفينة الأعوام الأربعة التي قضيتها في صحبته في

رخاء ويسر، نفعتني في ذلك معرفتي السابقة والمستمرة بنهجه وأسلوبه.

كثير من الإداريين، ولا أقول القليل منهم، نعتوا إدارة الخويطر بصفات قد تصل إلى التعقيد والشدّة والإمساك المالي، وللإنصاف فإن من عرف أسلوبه عن قرب أيقن أنه صاحب مدرسة ثابتة لا تتغير، له قناعات راسخة لا تتقلّب أو تتلّون، فقد كان له فلسفة مالية محورها ترشيد الإنفاق، وعدم الاقتناع بأوجه الصرف المبالغ فيها، وهو لا يعتد بمظاهر الإسراف في المكاتب والتجهيزات، ولا يميل إلى ضم قطاعات أو نشاط لا يدخل في صميم اختصاص وزارته، وله رأي سلبي في كثرة تشكيل اللجان، لكنه ما إن يقتنع بأمر، فإنه لا يعطله، بل يبحث عن أسهل طريق لتمريره.

وأذكر في هذا السياق مواقف عديدة، مستشهداً بثلاثة منها تغيّر من الصورة السلبية النمطية التي يتصورها البعض عنه، وتؤكد موضوعيته واعتدال موازينه:

الموقف الأول: كانت الوظيفة التي شغلتها في وزارة التعليم العالي تمثل همزة وصل بين الوزارة والجامعات، وقد أبديت له في أحد الأيام تصوّراً لترشيد الأقسام العلمية المتكررة في المدينة الواحدة، أو الفروع المزدوجة في المنطقة الواحدة، فطلب مني أن أكتب عرضاً رفعه إلى الجهات العليا، دون أن يعرضه على مجالس تنسيقية كما كان متوقعاً منه، ويمكن الجزم بأن تلك الرؤى التي تضمنها ذلك العرض آنذاك، لا تقل عما يتم إقراره بين حين وآخر من المجالس التنظيمية والإشرافية.

الموقف الثاني: إنه عندما كلف وزيراً للتعليم العالي بالنيابة، وجد أن أحد الأنظمة المهمة، قد قُتل بحثاً في اللجان، وتعطّل فترة طويلة ينتقل من لجنة إلى أخرى، كلما عرض على لجنة قلبته رأساً على عقب، وشكّلته وفق منظور المؤثر من أعضائها، وكان من المتوقع أن تشكل له لجنة أخيرة لوضعه في شكله النهائي.

قال لي على طريقته: أريدك أن تمرّ علي بعد صلاة العشاء في المنزل لاستعراض وجهات النظر التي أبديت حيال كل مادة وتداولها، ولم تمض ليال ثلاث إلا وقد كان النظام جاهزاً للرفع إلى مجلس الوزراء.

الموقف الثالث: كانت لدى وزارة التعليم العالي لائحة تنظيمية مهمة، طورها المختصون في الجامعات لتنظيم بعض النشاط العلمي والمهني، وعندما اطلع عليها بصيغتها النهائية، ووجَدَت ارتياحاً في خاطره، وكان على الوزارة وفق المعتاد أن ترفعها إلى مجلس الوزراء، أو أن تنتظر انعقاد المجلس الأعلى للجامعات برئاسة الملك رئيس مجلس الوزراء لإقرارها، فإذا به يفاجئ كاتب هذه السطور باعتمادها، وتبليغ الجامعات للعمل بها.

فهذه الأمثلة تؤكد حقيقة أن الدكتور الخويطر على خلاف الانطباعات التي أشيعت عنه، وأنه كان على جانب كبير من الموضوعية والإقساط، فهو مستمع جيد، مع بساطة لا حدود لها، وحجة مقنعة، وبيّنة قوية، وهدوء في الطرح والمداولات.

(٤٦)

عبدالله بن خميس (*)

ما وراء الذكريات

(*) في اللقاء العلمي الذي عقدته دارة الملك عبدالعزيز بُعيد وفاته، الشرق الأوسط، العدد ١٢٨٦٨ في ١٩/٤/١٤٣٥هـ (٢٠/٢/٢٠١٤م).



إذا لم يكن عبدالله بن خميس أستاذاً لبعض القرّاء في الأدب العربي أو عميداً لمعهدهم كما هو الشأن لمن أدرك عهده مديراً لكليتي الشريعة واللغة العربية بالرياض، فإنه كان المدرسةَ كلَّها للجيل المخضرم من الإعلاميين والكتّاب السعوديين.

بالنسبة لكاتب هذا المقال الذي بدأ عمله الإعلامي عام ١٩٦٣م، كان حمد الجاسر وعبدالله بن خميس يتقدمان نخبة من أدباء العصر في الرياض، يشدّون من أزر الإعلاميين ويشجّعونهم، ويتجاوبون مع احتياجاتهم، وكانوا بارتيادهم مكاتب الإذاعة بانتظام لا تحسّ منهم كِبراً ولا استصغاراً للناشئين، فابن خميس من أكثر من تعاملت معهم الإذاعة والتلفزيون عند تأسيسهما بالرياض في منتصف الستينيات الميلادية، سواءً فيما يتصل بالرقابة والمشورة، أو بالإعداد والكتابة الإذاعية والتلفزيونية.

لم تكن علاقة كاتب المقال به عميقةً في بداياتها، لكنها كانت على قدرٍ من الودّ كافيةً لبلوغ داره ومزرعته ولتعميق الصلة بأولاده، ثم تحوّلت في العقود الأخيرة إلى درجة من الحميمية لا تكاد تكون إلا بين الوالد وولده، حميميّةٍ أظهرت المكنون حينما كان الأب مسجّى في غرفة العناية الفائقة

في الأيام الأخيرة من حياته، تتغشّاه رحمة ربه التي شملت عباده، وما كان الولد يشكو بثّه وجزعه على فراقه إلا إلى أرحم الراحمين، ولقد كان تكريمه في الجنادرية عام ٢٠١١م آخر ظهور علني وتعليق صوتي له قبل اعتلال صحته ووفاته في ذلك العام.

بدأ ابن خميس في الخمسينيات من القرن الماضي يسطع نجمه أديباً وباحثاً وشاعراً، يحتل مقعداً موسوعيّاً بامتياز بين علماء العربية، متخصّصاً في بحوث الجزيرة وجغرافيتها وفي تراثها الشعبي، يشارك في المؤتمرات والندوات وعضوية المجامع، وكانت صحيفته «الجزيرة» اسماً على المسمّى، منصةً لرأيه النزيه، ومنبراً لقلمه الحرّ، ومخزناً لأبحاثه العلميّة الرصينة، ومعرضاً لفكره المستنير، جمع فواتحها في كتاب من أنفس كتبه «من جهاد قلم» في جزأين.

وقد تحوّلت صحيفته من الامتياز الفردي إلى مؤسسة جماعية أهلية (١٩٦٣م) فاستمر بمنزلة الأب الروحيّ لها ولم يتخلّف عن اجتماعات مجلس الإدارة والجمعية العمومية، يُمثّل تسامحُه وسَمتُه عنصرَ الهدوء والتوازن بين مختلف الاتجاهات، وبقيت عينه وقلبه رغم تقدّمه في السنّ يرقبان صرح المؤسسة حتى أضناه العجز، فلقد كان الحاضنَ الأولَ لاستمرارها وحمايتها من أي صدع أو اختلاف، وكان بالطبع المرجعَ الذي تُستقى منه الحكمةُ وعزمُ الأمور.

وعندما احتفلت مؤسسة الجزيرة بمقرها الجديد برعاية الأمير

سلمان بن عبدالعزيز (الثلاثاء ١٨/٣/١٩٩٧م) والذي أطلق فيه اسم حيّ الصحافة لأنه يجمع دور المؤسسات الصحفية الرئيسية في العاصمة ومقر هيئة الصحفيين والشركة الوطنية للتوزيع ودشّن خلاله الريادة الإلكترونية لصحيفتي الجزيرة والمسائية بين الصحف السعوديّة قامت الصحيفة بإعادة طبع عدد تذكاري من عددها الأول في عهد مؤسسها ابن خميس (١٩٦٠م) وعدد تذكاري ثان لأول أعدادها في عهد المؤسسات الصحفية (١٩٦٣م) وأطلقت المؤسسة اسم ابن خميس المؤسس على مبنى المطابع تخليداً لجهوده في التأسيس.

تأليفيّاً، صدر لابن خميس جُملةٌ من المعاجم والموسوعات، تكوّن بعضها من عدد من الأجزاء، وتركّز أكثرها على تراث الجزيرة العربية وجغرافيّتها، خاصّاً وديانها وجبالها بمؤلفات فريدة امتازت بوقوفه بنفسه على الكثير منها، واهتمّ بالتراث وبتتبّع الشعر ومصادره، وخص الشعر الشعبي بالكثير من بحوثه ومؤلفاته، وقارن جذوره العاميّة بالفصيح، ودخل في منافحات أدبية مع العديد من الأدباء في هذا المجال، وأثرى الإذاعة السعودية بالمئات من حلقات برنامجه «من القائل» الذي نشر حصيلته في أربعة أجزاء.

وكما اهتمّ بالجغرافيا والتراث، كان له باع طويل في مباحث التاريخ لم يُستكشَف بعدُ، تجده مثلاً في موسوعته «تاريخ اليمامة» المكوّن من سبعة أجزاء، وفي مخطوطه المعنون: لمحات من تاريخ الملك عبدالعزيز

الذي كتبه بمناسبة الاحتفال بمئويّة تأسيس المملكة العربية السعودية (١٩٩٠م) وإن من ينظر إلى «معجم اليمامة» المكوّن من جزأين، الذي شارك فيه مع العلّامة حمد الجاسر في مشروع «المعجم الجغرافي للبلاد السعودية»، يجد أنه مليئ بالمعلومات التاريخية الخاصة بالمواقع والأشخاص والموضوعات المرتبطة بالإقليم الذي تشكّل جغرافيته جزءاً من نجد، وهو ما جعل المعجم يستجيب لما يرغب القارئ معرفته عن محيط اليمامة؛ جغرافيتها وتاريخها ومجتمعها، والواقع أن سلسلة المعجم الجغرافي ـ الذي أسهم في تأليفه نخبة من كبار أدباء السعودية وهم: الجاسر و ابن خميس والعبودي والعمروي والجنيدل والعقيلي والزهراني وغيرهم يضاف إليه ما كتبه ابن خميس مما يخص الجزيرة العربية مثل: المجاز بين اليمامة والحجاز ومعجم جبال الجزيرة «في خمسة أجزاء» ومعجم أودية الجزيرة «في حزأين» ـ هي كنوز معرفية رصينة، جغرافية وتاريخية واقتصادية واجتماعية عن أقاليم الجزيرة مجتمعة، وهي مراجع ثمينة يستعذب منها الباحثون اليوم بالقدر نفسه الذي يجدونه في «معجم ما استعجم» لأبي عبيد البكري الأندلسي و «معجم البلدان» لياقوت الحموي الرومي البغدادي وغيرهما، مع فوارق مهمة تُحسب للمؤلّفين المعاصرين، وهي الإحاطة باللهجات والوقوف على المواقع، وأحسب أنه لو لم يخلّف ابن خميس سوى هذه المعاجم لكفى.

جمعتني بالشيخ في سنة من السنوات، والجزيرة ما تزال في دارها

القديمة بالناصرية، لجنة لتصحيح مسابقة الجزيرة لشهر رمضان المبارك، يشاركنا تلك العملية الشيخ عبدالعزيز المسند واثنان من منسوبي المؤسسة.

وكان الشيخ عبدالله ضمن قائمة مختارة من كبار السن من أعلام هذه البلاد وروّادها الذين سجلت معهم حلقات من (شريط الذكريات) آخر برامجي التليفزيونية، أذيعت بداياته ثم توقّف، وقد حوّلت بعضها إلى كتب، ومن بينها حديثه الذي تجلّى فيه حافظاً وراوياً وجغرافيّاً ومؤرّخاً، وتألّق فيه أديباً وشاعراً وكاتباً صحفيّاً، ومن طريف ما أذكر عند تفريغ الشريط أن أشكل علي مواضع ذكرها في طريق جريان وادي حنيفة، مما يلي وادي سدوس ووادي حريملاء، هي الخُمَر وأبا الهشم وبويضة، حيث لم أتبيّن بدقة لفظه لها، ولم أجدها فيما اطلعت عليه من المراجع، فاستعنت في عام ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م) بسكرتيره للبحث عنها في بعض كتبه الجغرافية، وقد كان الشيخ قد ظهر عليه الإعياء الصحي، وكم كانت المفاجأة سارة علي أن يأتي الرد بصوت الشيخ نفسه، في فرحةٍ جمعت لي بين توضيح المعلومة وتوقّد ذاكرته، وقد وردت تلك الأسماء الثلاثة في الصفحة الخامسة عشرة من كتابي عنه.

عُرض ذلك الشريط كاملاً بحضوره وتعليقه في ندوة الشيخ حمد الجاسر عام ٢٠٠٨م، كما عرض في منتدى د. بامحسون الثقافي بمناسبة تكريمه عام ٢٠١٠م.

وبعد؛ تجمعنا الأعمار مع هؤلاء الشوامخ، ويحرص الأوفياء على حضور الملتقيات الثقافية عنهم، ثم تخبو صورهم تدريجياً عن المشهد لتبقى في ذاكرة الأهل والمحبين، والقامة ابن خميس هو كونٌ من الطاقات الفكرية والعلمية، لا يُختزل في رواية الذكريات معه، ولا تحصره ندوة، ولا تُحصيه الكتب السبعة التي أُلِّفت عنه، فهو علّامة شامخ، وشاعر وناثر لا يشقّ له غبار، وعلامةٌ فارقة لا تخفيها المسافات، ومعدنٌ لا يصدأ مع طول الأمد، وقوميّ بقيت القضية في صلب جوارحه، ووطني كتب في أحرج قضايا المجتمع في أيامه كشؤون المرأة والزيت والماء، وحريّ بهذا الملتقى أن يقرّر جادّاً إقامة معلم ثقافي يحمل اسمه ويستعيد تاريخه وينشر تراثه.

(٤٧)

د. عارف مفضّي المسعر (*)

من «رجاجيل» الجوف

(*) في ندوة تأبينية أقامها نادي الجوف الأدبي، الجزيرة الثقافية، العدد ٣٨٩ في ١٤٣٤/١/٢٩هـ (١٢/١٣/٢٠١٢م)، ونشرت في مجلة «الجوبة».



و «الرجاجيل» في الجوف، اسم ذو دلالة وعراقة لمعلمٍ أثري جنوب سكاكا يعود تاريخه إلى الألف الرابع قبل الميلاد، يعرفه المواطنون والمهتمّون بالدراسات التاريخية، ولا أحسب اليوم إلا أننا نتحدّث عن رجل فيه بعض من سمات ذلك الأثر من الأصالة والتاريخ والشموخ.

والليلة يستميحكم محدثكم العذر لاستعادة ما قاله مرّة، من أن اقترابه من هذه المنطقة لأول مرّة لحضور مهرجان أسبوع الجوف عام ١٩٩٦م، مروراً بالإسهام الثقافي في نشاطها، قد أكسبه كنزاً ثريّاً من الصداقات والمعارف لا تمّحي من الذاكرة، صداقات تخلو من الرسميّات والمنافع وتستقر على أديم المحبة والبساطة والاحترام، ومعارف لا تقاس بثمن أو بأوزان.

والجوف، وقبل أن تكون مخزن الآثار والتراث والفنون، والدّحة والسامري والحلوة والزيتون، هي بلد الجغرافيا والتاريخ والإنسان، بلد المعاني والفضائل والمكارم والأداب، الرابط بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، والطبيعة والجمال، لا يكون التفكير يوماً بالجوف وكرم أهلها وسجاياهم إلا وتتبيّن معالمُ «عارف»، ولا يُذكر اسمُ «عارف» يوماً إلا وتظهر صورته مقرونةً بالجوف، بهوائها وسمائها ونجومها، وبتضاريس

الماء والخضرة والرمال فيها.

كان «عارف» وإخوةٌ معه من الجوف بالنسبة لكاتب هذه السطور صورةً مصغّرةً من عروبة الوادي والسهول والنفود، وشمائل القبيلة والحاضرة وأمجادهما، كانوا لي نعم المستشارين والمراجع، والعونِ والسداد، والمفردات والجُمل، على أيديهم يعرف الباحث كل ما يودّ معرفته عن المنطقة وأهلها، وكل ما ينقله إلى الآخرين من خارجها مما يودون الاطلاع عليه عنها، يصير الباحث بفضلهم ملمّاً بالقدر الضروري من العلم عن الركن الشمالي الغربي من بلادنا، وما أجملَ أن يُرزق الكاتبُ بمراجع أوليّة بمثل كفاياتهم، بعد أن يكون قد تجاوز نصفَ عمره وهو الغافلُ عن أجزاءَ مهمةٍ من وطنه، ويعرفُ عن بلاد الغال أكثر مما يعرف عن بلاده.

كان محدّثكم بين عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٧م على موعد مع الجوف، عندما خطّ القلم أول رابط جمعه برجال القلم فيها، كتاباً يروي سيرة واحد من أمرائها، ومنذ ذلك التاريخ لا يكاد يمرّ عام دون أن يضعه الحظ على خط الالتقاء مع صالوناتها وأنديتها ومهرجاناتها، وما كان يدري أن تلك التجربة في تحرير الكتاب ستضعه وجهاً لوجه مع رموز الفكر عندهم من المربّين والمثقّفين والشعراء والأعيان، وكان عارف من بينهم، الوجهَ المضيءَ الهادئَ، ذا التجربة والحنكة والمثابرة والمصابرة والوطنية، والسجلّ النظيف في حياته ومنطقه وإدارته، ومن خلال مشاركة عارف

تلك، تعرّفت عن قرب على أبي عبدالسلام، وعلى كفايته الفكريّة والتأليفية، وخصاله الرفيعة وخلقه الكريم.

تضافرت من أجل سيرة الأمير عبدالرحمن بن أحمد السديري الذي تآخى مع المنطقة وأهلها قرابة نصف قرن (١٣٦٢ ـ ١٤١٠هـ/١٩٤٣ ـ ١٩٩٠م)، جهودُ تسعةٍ من مثقّفي المنطقة وثمانيةٍ من خارجها للمشاركة في التأليف، لم تكن صفحاتُه مقتصرةً على حياة الشخصية بقدر ما كانت قراءةً في تاريخ وطن وفصلاً في سيرة رجال، روت صفحاته حالَ المنطقة في تلك الحقبة، وقابل المشاركون فيه عدداً من رموزها من كبار السن ومثقّفيها ومن العارفين بتاريخها وتطوّرها، وكان عارف أحدَ تلك الأقلام التي شاركت في إعداد فصول الكتاب، أما الإشرافُ على تحريره فكان بالنسبة لمحدّثكم فاتحةَ الدخول إلى عالم من الحب المتبادل بينه وبين الأهل هنا، وحجز له مقعداً دائماً في مجالسهم، وعضويّةً عاملةً في مجتمعهم، وما حضوري اليوم إلا تعبير عمّا يربطني بأسرة الجوف من علائق متبادلة متعدّدة، ما كان للبال معها أن يخطر عليه الاعتذار عن هذه المشاركة، وما كنت مع تأبين عارف لأندسّ في مشاركة عابرة على هامش مناسبة أخرى، فعارف أهلٌ لمناسبة خاصة تليق بمكانته، وجديرٌ بندوة تعقد من أجله، وأن يكون الحضور له لذاته لا من أجل أحد غيره، خاصةً وقد حرمتني الظروف من زيارته في منزله هنا في سكاكا، أو من حضور ندواته المفتوحة في صالونه الثقافي، أو من استقباله قبل عامين

وعيادته في الرياض، عند محاولة نقله في طائرة الإخلاء في اللحظات الأخيرة من حياته، فأعادته متوفّياً إلى الجوف.

تحدّث عارف في مشاركته المستنيرة في كتاب عبدالرحمن السديري، بفصل عن تطوّر التعليم في منطقة الجوف، وهو العارف الخبير بهذا الشأن، خاصةً وقد كان في فترة من الفترات مديراً عاماً للتعليم فيها، ورافق كثيراً من أموره، مذكّراً بالأولويّات والمبادرات المبكّرة للتعليم، وعلى الأخص ما يتعلّق بأسبقيّة تعليم الفتاة، والبعثات الأولى، وبإنشاء نواة للتعليم الأهلي للمرأة، وبتأسيس مكتبات للجنسين، وبالاهتمام بإدخال التعليم المتخصص، وباستقلالية مديرية التعليم بالجوف بفصلها عن إدارة التعليم في المنطقة الشرقية حيث كانت تتبع في بداياتها، ويشاء الله أن يتزامن تأسيس أول جامعة في الجوف في ذلك العام (٢٠٠٧م) الذي كتب فيه ذلك الفصل عن التعليم في الجوف، ليشهد عارف اكتمال عقد التعليم الجامعي بعدد كبير من الكليات متنوّعة التخصّصات للبنين والبنات والتقنية في هذه المنطقة، قبل أن يفارق الدنيا.

والحديث عن أمور التعليم في الجوف، يقود إلى العلاقة التي تربط بين عارف وجوانب التنمية الشاملة في المنطقة، بتولّيه مسؤولية أمانة مجلس المنطقة، وبإسهامه، في الوقت نفسه، إسهاماً ذاتيّاً في مجال التنمية الثقافية على وجه الخصوص، بتأسيس دار معارف العصر للنشر والتوزيع، وبتحويل دارته إلى منتدىً ثقافيّ دوري رائد عُرف باسمه،

تطرح من خلاله قضايا الحياة الاجتماعية و الثقافية وشؤونها وكل ما يهم المجتمع من هموم وأمور، وبمشاركته الفاعلة في النشاط الثقافي الذي تصنعه مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، التي مضى على تأسيسها أكثر من نصف قرن، وخصّت التعليم والتنمية الثقافية وخدمة المجتمع بأبرز اهتماماتها.

لقد كان أولَ ما قرأه محدثكم عن الجوف كتابٌ وثائقيٌّ متعدّد الطبعات خطّه عارف أول مرّة سنة ١٤٠٨ هجرية (١٩٨٨م)، في إطار جهود رعاية الشباب للتعريف بمدن المملكة وقراها، وما كان تكليف عارف بهذه المهمة إلا دلالة معبّرة على ما يتميّز به من معرفة واطلاع على جغرافيّتها وعلى تاريخها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وعلى شواهد تطوّرها، وتركيبتها السكانية، فكان اختياره موفّقاً وسديداً، وبقي الكتاب مرجعاً أوّلياً للباحثين عن معلومات أساسيّة عن الجوف ومجتمعها، ومعالم النهضة فيها، فضلاً عن روابطها مع جيرانها.

قبل وفاة عارف بعامين، تحقّقت على يديه أمنيةٌ طالما ترقّبها كثيرون، وهي كتابة سيرة ذي الصيت العطر الشيخ فيصل بن عبدالعزيز المبارك، الذي ترك في أهل الجوف أثراً لا يُنسى، عندما قدِم من مسقط رأسه في حريملاء (شمال غرب الرياض) ومن أعماله الأخرى إلى الجوف في عام ١٣٦٢هـ (١٩٤٢م) لتولّي القضاء متزامناً مع تعيين الأمير عبدالرحمن السديري، وليبقى فيها نحو أربعة عشر عاماً حتى أذن الله برحيله إلى

الدار الأخيرة.

الشيخ المبارك، كان من أبرز مشايخ هذه البلاد في أواسط القرن الماضي، المعروفين بورعهم وانصرافهم للعلم والقضاء، وكان عارف ممن درس على يديهم، والعين لا تخطئ معلماً جميلاً يحمل اسمه في وسط مدينة سكاكا، أُقيم على أنقاض مسجده الأثري، وقد أصدر عارف كتابه عن سيرة الشيخ بعنوان: فيصل المبارك؛ مدرسة ذات منهج، من مئتي صفحة، كان مفاجأة سارة لكل من عرف الشيخ أو قرأ عنه أو سمع، وقد سجّل هذا الكتاب اسمَ عارف في تجربته التوثيقية تلك ضمن كتّاب السير والتراجم، وكان زميلنا الأستاذ إبراهيم خليف السطام قد أورد قبل ذلك بعام نبذة عن سيرة الشيخ المبارك ضمن كتابه عن مسيرة التعليم في منطقة الجوف الصادر عام ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).

إن من يتتبّع مسيرة عارف الثقافية، يجد أن التربية كانت القاسمَ المشترك بين كثير من اهتماماته وأعماله، وسيلحظ بشكل جليّ أن الفكر الإسلامي قد تمكّن من تفكيره، ليس من خلال ما كتبه عن شيخه المبارك فحسب، ولكن من خلال أبحاث وكتب عدة، يأتي في مقدّمتها رسالةُ الدكتوراه التي حوّلها إلى كتاب في عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م) بعد عشرين عاماً من تخرّجه، وطبعت ضمن سلسلة الرسائل الجامعية التي يصدرها مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية التابع لمؤسسة الملك فيصل الخيرية، والكتاب بعنوان: المنقول والمعقول في التفسير الكبير

لفخر الدين الرازي (٥٩٠ صفحة، في ثلاثة أبواب تحتوي على أحد عشر فصلاً)، والكتاب أكبر من أن يُختزل في موقف قصير كموقفنا هذا، لكن مقطعاً من مقدمة عارف يمكن أن تعطي فكرة عن هذا العمل الكبير، إذ يقول:

«إن الاهتمام بفكر الرازي، بوصفه صاحب مدرسة توفيقيّة في التفسير، إنما يعني الاهتمام بشأن الأمة الإسلامية في حاضرها، وبمحاولاتها الجادة للتقدّم على طريق الخير، وهو شأن تحتاج معه الأمة الإسلامية اليوم إلى اجتماع الكلمة ووضوح الرؤية أكثر من أي وقت مضى، فمشكلة العالم الإسلامي المعاصرة تكمن في جمعه بين الجانب النقلي للأمة الذي يمثّل التراث الإسلامي بأصالته وعمقه وقيمته التاريخية والروحية، وبين الاتجاه العقلي المتمثل في التيّارات العلمية الثقافية الغربية، حيث تبدو ملامح القضية الحديثة بارزة على شكل حوار بين الأصالة والمعاصرة، وتلك هي قضيّة المسلم المعاصر، الأمر الذي يقودنا إلى القول بأن طبيعة قضيّتنا اليوم هي في جوهرها شبيهةٌ بطبيعة عصر الرازي حين لملم شتات الأفكار المتناقضة، وصَهَرَها في بوتقة واحدة يتحقق بها السلام النفسي للمسلم من جهة، والاطمئنان العقلي من جهة أخرى، فيكون التراث أو النقل وسيلةَ لاستقبال ما يمليه العقل لصنع التقدّم، ويتحقق بذلك أمل منشود يُجنّب المسلم ما يعيش فيه من توتّر».. انتهى.

وكتاب آخر صدرت طبعته الثالثة سنة ١٤٢٢هـ (٢٠٠١م)، وتناول فيه التوجيه الإسلامي للنشء في فلسفة مفكر إسلامي آخر هو الإمام الغزالي، صدر عن دار المعارف للبحوث والنشر والتوزيع بالجوف (في أربعة أبواب مكوّنة من اثني عشر فصلاً ٢٠٠ ص)، ومرّة أخرى، يصعب على مقامنا هذا شرحُ مكوّنات هذا الكتاب الذي خصّص له ناديكم ذات ليلة قبل أكثر من عام ونصف أمسيةً لمناقشة مضمونه، لكن قراءة موجزة لبعض ما جاء في المقدمة يمكن أن تعطي فكرةً عنه، حيث يقول فيها:

«ولما كنا نعايش في العصر الحاضر دعوةً متزايدة للرجوع إلى تراثنا الإسلامي الأصيل، فيما يتعلق بالتوجيه الأخلاقي للنشء، شعوراً بالحاجة الى الاستهداء بذلك التراث، فإني قد وجدت في تحليل فكر أبي حامد الغزالي فيما يختص بهذه الناحية، ما يمكن أن نصل به إلى قدر مناسب من التوضيح لأساليب التوجيه الإسلامي للنشء، وما تقوم عليه هذه الأساليب من اعتبارات تختص بها النفس البشرية، حسبما يرى الغزالي، وما يمكن أن نلمّ به من معالم حددها كمنهج تعليمي، ووسائل عيّنها للتوجيه وتهذيب الأخلاق، ذلك أنه بمقارنة القيم الأخلاقية الإسلامية بغيرها من المدارس العالمية الأخرى التي حرصت على إيجاد أطر للتوجيه الفردي والجماعي، نجد أن أصول التوجيه الإسلامي للناشئة، بما اشتملت عليه من قيم روحية وإنسانية ومثل سامية، لا يمكن أن تصل إلى مرتبتها أي مدرسة من تلك المدارس،

من حيث الشمول والعمق وسلامة الغاية». انتهى.

وبعد: وحتى لا يصبح محدثكم كجالب الزيتون إلى بلاد الزيتون، لم يشأ أن يستحضر بنود سيرة عارف وأنتم الأعرف بها، ولا أن يُعدّد الأعمال الخيرية التي نذر نفسه لها، ولا المكارم التي عُرفت عنه، ولا كيف باشر التدريس في صغره قبل أن يحصل على الابتدائية، أو كيف جلس في مطلع شبابه للتدريس في جامع الشيخ فيصل المبارك في أيّام غياب الشيخ في الحج، لكن محدثكم أتى فرِحاً، يشاركُكُم حرصكم على استعادة ذكره بين الحين والحين، ومَن أجدر منكم أهل الوفاء في الاحتفاء برجل كرّس حياته لخدمة قضية التربية والتعليم والتنمية لموطنه، وحظِي باحترام وطنه وعشيرته لما عرف عنه من النزاهة والإخلاص والمروءآت.

وكم يسرّ المرء أن يرى وزارة التربية والتعليم، وقد اختصت اسم عارف بالتكريم في أثناء حياته مرفوعاً على إحدى المدارس التي شارك في تأسيسها، وكم يغتبط عارفُه وهو يجد اسم عارف حاضراً في كثير من المناشط الثقافية، وكم يغتبط وهو يرى مكتبة عارف تُهدَى اليوم إلى أعرق مكتبةٍ في الجوف ملحقةٍ بمؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية في سكاكا، لقد كان عارف كتلةً من أعمال الخير تتحرك في كل اتجاه، وكان من كل برٍّ قريب.

إن هناك أناساً لا تُدرك أهميتُهم و أثمانُهم إلا بعد فقدهم، أما نحن،

فقد عرفنا قيمة عارف عندما كان بيننا، وشعرنا بالفراغ عندما اختطفه القدر بشكل مفاجئ قبل عامين (مطلع نوفمبر عام ٢٠١٠م)، ونحسّ اليوم بخسارة كبرى بعد أن طالت غيبته.

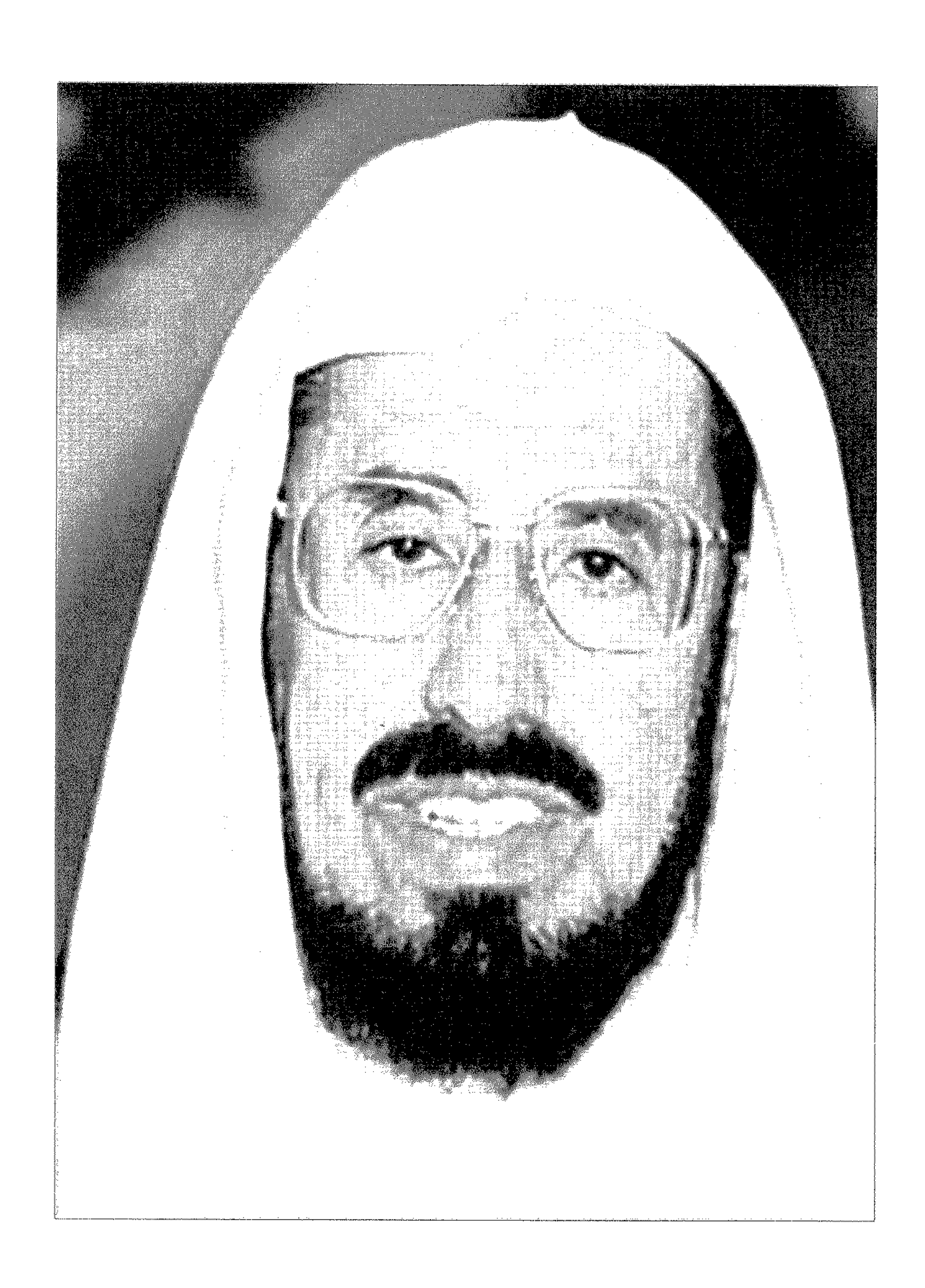
اللهم ارحم عارفاً وأكرم نُزُله، وعوّض محبّيه بحسن العزاء، واجبر مصاب الجوف بغيابه، واجزه خير الجزاء عمّا قدّم وأخّر.

(٤٨)

د. عبدالله اليوسف الشبل (*)

الإدارة بالأخلاق

(*) نشر غداة وفاته، الجزيرة، العدد ١٥٩٠٤ في ١٤٣٧/٧/٧هـ (٢٠١٦/٤/١٤م)



نموذج من المديرين قد يُظن أنه رخوٌ وضعيف فلما أصبح في موقع المسؤولية تبيّن أنه صنف من مدارس الإدارة يمكن أن يحقق بالخلق الكريم والمعاملة الحسنة والكلمة الطيبة ما يعجز عنه المعروفون بالجسارة وبالترهيب، والإدارة بالإخلاق التي يعنيها المقال لا تتعارض مع ضرورات الحزم والنزاهة وأركان الأمانة الأخرى في الوظيفة العامة بل تقوى بها.

تخطر هذه الرؤية كلما برزت صورة أبي عبدالعزيز الذي قدّرت للكثيرين من رجال التربية والتعليم معرفته عن قرب في المواقع العديدة التي تولّاها، وآخرها موقعه الوظيفي والتعليمي أستاذاً فوكيلاً فمديراً لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في العقود الثلاثة الأخيرة.

كُتب عنه القليل، لكن كل من تعامل معه يُجمع على أنه لا يعرف ارتقاء منصات الشهرة والبروز، وأن من صفاته الوسطية والتسامح في فكره الديني، والجودة في إنتاجه العلمي، والنزاهة المتناهية في إدارته، مع تنوّع معارفه وعلومه الحديثة التي يحيط بها مما أوجد له محبة خاصة وتقديراً عالياً في قلوب زملائه وذويه تبدوان جليّاً في

حضور الثلوثية التي يدعو إلى إقامتها ابنه عبدالعزيز في أثناء صحة والده.

كان من أبرز ما يُذكر لتاريخ هذا الرجل، حسَن السّمت عند تدرّجه العلمي والوظيفي في جامعة الإمام، حتى أصبح على سدّة إدارتها وبخاصة عند إشرافه على مشروع مدينتها الجامعية بالرياض، إبّان إدارة الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي فتبدّى ذلك في حُسنِ تدبير الأموال والمساحات المخصصة للمشروع وكفاية الإنجاز وملاءمته للغرض، والإفادة من تجربة الجامعات التي سبقت، فظلّت شخصية د. الشبل ماثلة في أرجائه حتى اليوم رغم انقضاء ربع قرن على إنجازه، بأكبر مقدار من الهدوء، وبأقل قدر من الضجيج الإعلامي.

ومع انشغاله بالعمل الإداري في الجامعة، فإنه لم يتخلّ عن مهنة التدريس فيها، وعن مناقشة أطروحات الدراسات العليا، وعن حضور الندوات العلمية، وعن الاهتمام بالتأليف والبحوث في مجال تخصصه (التاريخ الحديث) إذ كان قد حصل على الدكتوراه من جامعة الإسكندرية عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠م) وقد عكف على تحقيق مخطوطة المؤرخ محمد عمر الفاخري من مؤرخي القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين (الثامن عشر الميلادي) التي غطّت فترة تقدر بخمسة قرون من تاريخ نجد والدولة السعودية، وبالأخص الفترة التي انتهى

عندها تاريخ أحمد المنقور وحتى بداية الدولة السعودية الأولى، كما عمل على تحقيق مخطوطتي المؤرّخين ابن ربيعة وابن عبّاد، وبلغ تعداد كتبه ستة وعدداً من البحوث التاريخية والمراجعات والتعليقات، وهو يُعدّ من المؤرّخين المعتمدين في التاريخ الحديث للمملكة العربية السعودية، كما أنه شارك في عضوية مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز الذي يرأسه منذ عقدين الملك سلمان بن عبدالعزيز.

إن أبرز ما يتبادر إلى الذهن في الأجهزة الحكومية والشركات التي يتولّاها هذا الصنف من المديرين، هو خلوها من الشبهات، وهو أمر يكفي شهادة «حسن سيرة وسلوك» تعلّق على جبين المنشأة ويُطرّز بها تاريخها.

«الإدارة بالأخلاق» مدرسة لم تُدرَس بعدُ ولم تدخل ضمن نظريات العلوم الإدارية، مع أن لها مبادئ معروفة في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهّرة، وفي تطبيقات الخلفاء الراشدين ومن حذا حذوهم، وحريّ بجامعة الإمام أن يكون لها السبق في وضع الأسس لها حتى تكون مادة من المواد العلمية ضمن مناهجها.

تتواضع هذا السطور عن قدره في صدور عارفيه وزملائه وطلّابه، لكنها تتّسق مع نهجه، ولو كُتب مثل هذا المقال على تواضعه في حياته لما ارتضى أن يُقال فيه.

أكرمه الله بالأجر والمغفرة على ما قدّم من عمل، وما انتهجه وطبّقه من خُلق وخصال، وما تركه من أثر وسمعة مثالية علميّة وإدارية، فلقد حضر إلى الدنيا بهدوء، وأمضى حياته بصمت، ورحل عنها قرير العين في الدارين بإذن الله.

(٤٩)

عبدالرحمن إبراهيم القاضي (*)

الشعر يختبئ وراء الدبلوماسية

(*) الشرق الأوسط، العدد ١٢٧٠٧ في ١٤٣٧/٩/٣هـ (٢٠١٦/٦/٨م)، والجزيرة، العدد ١٥٩٥٩ في التاريخ نفسه.



ما أقسى أن يرقب المرء لقاء عزيز عليه في مرضه، ثم تعاكسه الظروف حتى اليوم الأخير من حياته، فتبقى حسرة في خاطره، وغصّة يتجرّعها بصبر، ويبتلعها بعميق حزن، يستشعر حكمة الله وإرادته في عدم تحقيق أمنيته، والسفير عبدالرحمن القاضي كان في وضع حقيق بزيارة محبّيه، أمضى الأشهر الثلاثة الأخيرة بين المشفى والمنزل، محتفظاً بذاكرة وفيّة لمحبّيه، وروح محتسبة عالية، ومشاعر كريمة لمن حوله، والطرفة المرحة لا تفارق مُهجته في بهجة متحرّكة في كل الظروف والمناسبات، ومع كل من يعرفهم من الرسميين أو الأصدقاء، اختار الإقامة في العقدين الأخيرين من حياته في القاهرة التي أمضى سنوات الدراسة الجامعية وبعضاً من سنوات العمل الدبلوماسي المبكّر فيها.

والراحل الكريم عن نحو ٩٠ عاماً، هو ابن المؤرخ والشاعر إبراهيم المحمد القاضي (المتوفى في ١٣٤٦/٢/٥هـ - ١٩٢٧/٨/٤م) الذي ترجم له العلّامة حمد الجاسر ضمن «مؤرخي نجد من أهلها»[1] وقد أُضيع معظم شعره، لكن ابنه يحفظ له قصيدة مشهورة قالها أبوه بحضور الملك

(١) أصدر د. فايز موسى البدراني الحربي و د. مريم بنت خلف بن شديّد العتيبي كتاب «تاريخ القاضي» يتضمن تحقيق تاريخ إبراهيم بن محمد العبدالله القاضي، الناشر مركز عبدالرحمن السديري الثقافي ١٤٣٧هـ ٢٠١٦م.

عبدالعزيز وهو يحل ضيفاً في منزل الأسرة بحارة «الجادّة» بعنيزة، وقد سمعتها منه يقول في مطلعها :

جـاك وادي حنيفـة يصطفـق كلـه

والبحـر جهز اللـي بـه وجـا ماشي

وهناك قصيدة أخرى رواها الشيخ حمد الجاسر في ترجمته لوالده موجهة للملك عبدالعزيز بشأن حائل ومطلعها :

كان أبو تركي تنهّض بجنحانه وقام

واعذاب طيور سلمى من الهول العظيم

كما أن الراحل الكريم هو حفيد «شاعر نجد الكبير» محمد العبدالله القاضي، المتوفى عام ١٢٨٥هـ، وقد ورث عنه الموهبة الشعرية والمعاني الرفيعة، لكنه حوّل تلك الموهبة من العامية الى مقطوعات إخوانيّة بالفصحى، محتفظاً بها في نحو خمسة عشر ديواناً مطبوعة في القاهرة محدودة التداول، ثم حالت ظروفه الصحية وضعف البصر دون الاستمرار في إنتاج المزيد وطبعه، ولم يرغب في نشر شيء منها صحفيّاً، وكانت قصائده خاصة لا يتجاوز معظمها عشرة أبيات.

تخرّج في جامعة القاهرة في منتصف السبعينيات الهجرية (أواسط الخمسينيات الميلادية) بتخصص الحقوق، وكان مع زملائه في الدراسة يمثِّلون الجيل الثاني من البعثات السعودية للدراسة في مصر، وفي الوقت

نفسه عاصر في عمله معظم الجيل المخضرم من الدبلوماسيين والسفراء والقناصل السعوديين، وعمل مع كثير منهم في عهد وزيري الخارجية (الأمير «الملك» فيصل ثم الأمير سعود الفيصل) من أمثال عمر السقّاف وإبراهيم السويّل ومحمد الحمد الشبيلي وعبدالرحمن الحليسي وعبدالرحمن منصوري وطاهر رضوان وعبدالرحمن العمران وعبدالعزيز وعلي الصقير وبكر خميّس وعبدالرحمن العبدالعزيز الشبيلي ومحمد المُرشد الزغيبي ومحمد إبراهيم مسعود وإبراهيم السلطان ومأمون كردي وناصر المنقور وفؤاد ناظر ومحمد المنصور الرميح وعبدالعزيز وحمود الزيد وجميل الحجيلان وعبدالرحمن أباالخيل ومحمد نوري إبراهيم وخالد الناصر التركي وعبدالرحمن البسام وعبدالله حبابي وغيرهم، وتدرّج في مختلف الوظائف في ديوان وزارة الخارجية واختير في نهايتها رئيساً للدائرة العربية، وقد حضر العديد من مؤتمرات الجامعة العربية والجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك، ومكث في الوظائف الدبلوماسية طويلاً قنصلاً عاماً في نيويورك، وفي السفارات السعودية في القاهرة ثم في بيروت، ثم عيّن في منتصف السبعينيات الميلادية سفيراً للسعودية في البحرين (سلفاً للدكتور غازي القصيبي) ومنها تحوّل إلى السويد، منتقلاً - بتندره المعهود - من الفرن إلى الثلاجة.

مال في السنين القليلة الأخيرة من حياته إلى الانطواء والتزام المنزل بسبب من ظروف نظره، وهو بطبعه يغلب عليه العزوف عن التدخّل في شؤون

غيره، لكنه كان يتابع الأحداث من وسائل الإعلام، ويشترك في تحليلها مع زواره المعدودين ويحرص على الموضوعية في المناقشة، ويكون له رأي في المستجدّات وفي الأمور الفكرية والسياسية برأي ثاقب مستنير يغترف من تجربته وخبرته الطويلة، وهو مع دماثة حديثه ومودة علاقاته، يقتصد في الإطراء، أما عن الأضواء فهو عنها بعيد كل البعد ولا يقيم لها وزناً.

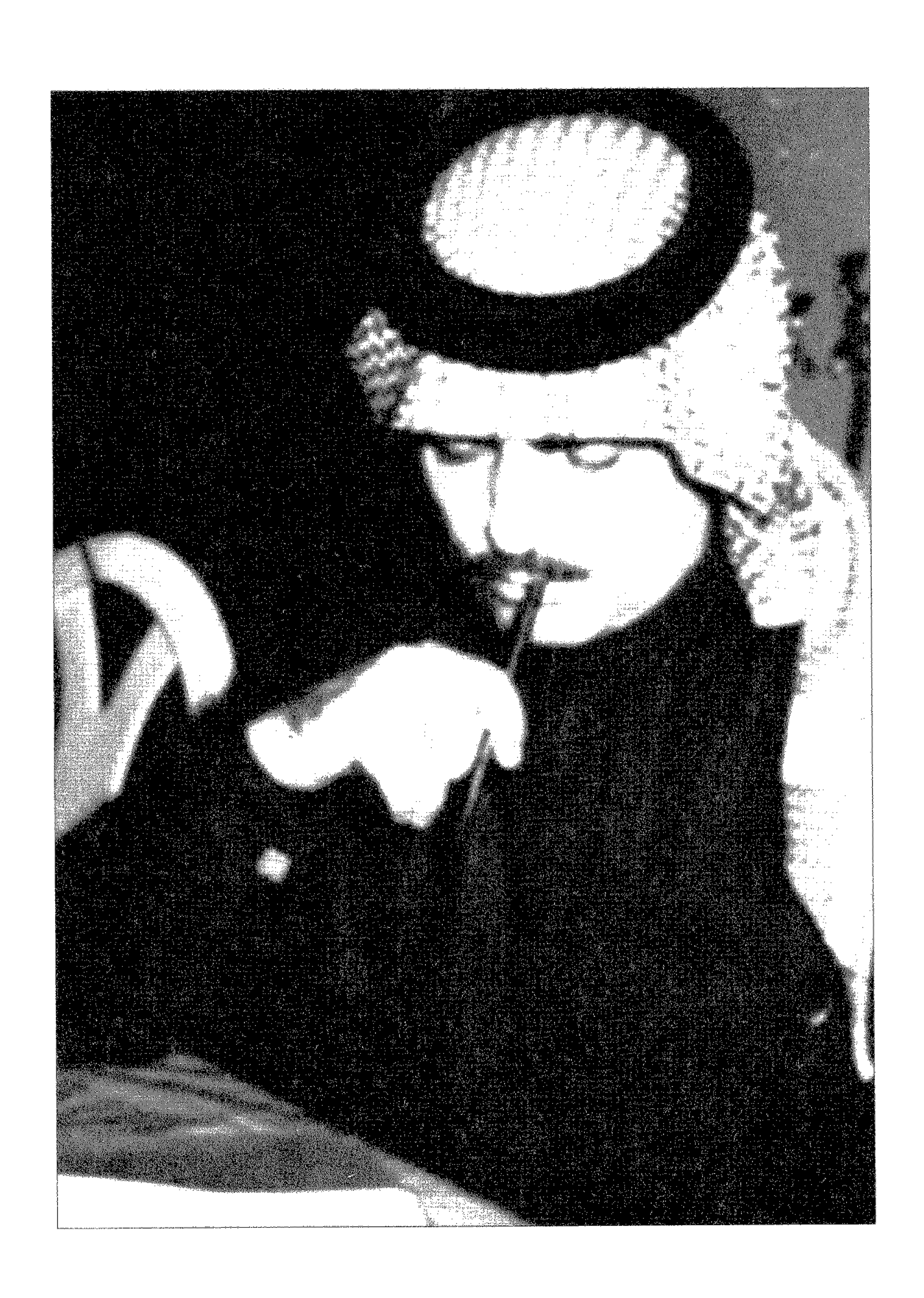
وكنت قد نشرت على صفحات جريدة الجزيرة (العدد ٩١٣٧ في ٤/١٠/١٩٩٧م) مقالاً موجزاً عنه بعنوان: «عندما يختبئ الشعر خلف الدبلوماسية»... !!

(٥٠)

ماجد الشبل (*)

لغة الاحتراف

(*) نشر قبيل وفاته عندما حال مرضه عن حضور لقاء الإعلاميين بالملك سلمان، الشرق الأوسط، العدد ١٣٤٨٨ في ٢٠/١/١٤٣٧هـ (٢/١١/٢٠١٥م).



يهتمّ الكثيرون في المجتمع العربي بمعرفة الأنساب والانتسابات المناطقية، لدرجة تدفع المهتمّ بها إلى المبادرة بالسؤال عن الانتماء بمجرد أن يسمع باسم يوحي بناحيةٍ أو عشيرة، يتبع ذلك بالطبع شعور بالزَهو عندما تتطابق الإجابة مع توقّعات السائل وحدْسه، دون اكتراث بما يلفّ الخوض في مثل هذه الأمور من حرج، نتيجة الشكّ والجدل فيها.

وبالرغم من وجود ماجد الشبل في الرياض منذ نصف قرن، فالسؤال ما انفكّ يُطرح عن جذوره الأُسريّة وعلاقتها بنجد، وما كان مثل هذا الاستفسار ليُطرح مجتمعيّاً بالطبع لولا الاعتزاز بكفايته الإعلامية الرصينة المشهودة، ولسان حال المواطن البسيط يُضمر المقولة الشعبية المعروفة «عسى الطيّب من ربعنا».

والواقع أن الأستاذ ماجد (محمد عبدالله الشبل) ينتمي إلى أسرة الشبل المعروفة في عنيزة بالقصيم، وهي ترتبط مع شقيقتها أسرة الشبيلي بعلائق الأصل والرحم، مُشكّلتين شجرة عائليّة موحّدة، غير أن أسرته المقيمة سابقاً في دمشق لا علاقة تربطها بإعلاميّة سابقة في قناة الجزيرة، تحمل الاسم نفسه (لونة الشبل) وترتبط حاليّاً بالنظام السوري.

وكان والده قد استقرّ في حيّ «الميدان» الشهير في دمشق الشام، أسوةً

بكثير من الأسر السعودية التي هاجرت مع حملات العقيلات النجدية المعروفة في القرنين الماضيين، وقد توفي الوالد قبل انتقال ذريته إلى الرياض، وكان ماجد أكبر إخوانه (عاطف وغالب وبشّار) المقيمين في السعودية، كما أنه أكبر أخواته (ماجدة وشكران ورحاب) وقد تزوجت الأولى والثانية من أبناء عمومتهن في السعودية، أما ماجد فكان قد تزوّج في فترة مبكّرة في الشام ورزق بابنته الوحيدة (سمر) التي تقيم معه في الرياض، وأنجبت أسباطه الأربعة (هلا وماجد ومنصور وفارس جوهرجي) وكان ماجد يكنّى أحياناً ـ بين معارفه ـ باسم والده عبدالله أو باسم ابنته، لكن البعض عرفوا أنه يحب اسم «راكان» بالرغم من عدم وجود هذا الاسم في أسرته فصاروا يلقّبونه به، وقد توفيت والدتهم في الرياض بعد أن أقامت معهم نحو ثلاثين عاماً.

ولد أبو سمر في دمشق عام ١٩٣٥م ولم تمكّنه الظروف من إكمال دراسته الجامعية أو من اكتساب لغة ثانية، لكنه عشق تخصّص اللغة العربية وكان هاوياً للأدب والشعر، وهو ما يفسّر براعته في إلقاء المقطوعات الشعريّة والنثريّة وفي سلامة أدائه من اللّحن، وقد التحق بالتليفزيون السوري عند افتتاحه في مطلع الستّينيّات، وتدرّج فيه حتى أصبح مديراً للتنفيذ (بمنزلة كبير المذيعين عُرفاً) واشتهر ببرامجه الحوارية والإخبارية والشعريّة وبالمسابقات.

وكنت قبيل افتتاح التليفزيون السعودي (يوليو تمّوز ١٩٦٥م) زرت التليفزيون السوري بغرض الاطلاع على تنظيماته ماكثاً فيه بضعة أيام ومُتّخذاً من مكتب الأستاذ الشبل مكاناً للتواصل مع الكوادر الإعلاميّة (من أمثال

خضر الشعّار وسهيل الصغير) حتى إذا ما انتهى الشهر، كانت وزارة الإعلام السعوديّة قد استقطبت عدداً من الكفايات الإبداعية اللبنانية والسوريّة، ومن بينهم ماجد الشبل وأحمد تاج الدين الشيخ وعدنان فرهود ومجموعة من الفنيين في مجال التصوير والمونتاج والإضاءة والديكور والتمثيل والماكياج ممن لا يتّسع المقام لتفصيل أسمائهم، وسبقتهم مجموعة من الكفايات التي تجمع بين الخبرتين الإذاعية والتليفزيونية مثل زهير الأيوبي ومنير الأحمد، وجاء في طليعة تلك النخبة عمر الخطيب الإعلامي الأردني الفلسطيني المعروف ومنير شمّاء الإعلامي الفلسطيني الشهير في إذاعة لندن، وتكاملت تلك الكوادر بامتياز مع الكفايات الإعلامية السعودية حديثة التدريب في الداخل والخارج، في مزيج متناغم قامت عليها تحدّيات البداية للإعلام السعودي.

وهو إعلامي مخضرم التجربة في كونه شارك باقتدار في التلفزيون العربي (السوري المصري حين الوحدة) والسوري بعد الانفصال، وشاهد أنماطاً من المحطات العربية، وعايش بداية التلفزيون السعودي ودخوله عصر تقنية الملوّن والرقمي.

وحافظ - بعد استقراره في الرياض منذ منتصف الستينيّات ومن ثمّ استرداده الجنسية الأصليّة في السبعينيات - على خطّ وطني ملتزم، وعلى نهج إعلامي متوازن، عازفاً عن الوظيفة التنفيذيّة، وظل وفيّاً لتقديم نشرات الأخبار والتعليقات وبرامج المسابقات وإجراء المقابلات الوثائقية مع المشاهير من كبار الأدباء والمثقفين والعلماء (ومنهم طه حسين وعلي الطنطاوي)

والفنانين العرب (ومنهم محمد عبدالوهاب) يتداولها الكثيرون عبر قناة «اليوتيوب» وبقي بعيداً عن المنافسة على المناصب الإدارية أو الدخول في المماحكات السياسية، يُمثّل كفاية إعلامية راقية تتكامل فيه عناصر الإبداع والمهنيّة (الصوت واللغة والأداء وانضباط المواعيد والجرأة الموزونة) مع فهم عميق لأسس الإخراج السينمائي والتلفزيوني المحترف يعشق مشاهدة كوادره ولقطاته وفنونه دون ممارسته، ويحوز الاحترام والحب من قِبَل جمهوره، تجلّى ذلك في ذكره المحمود، وفي تعاطف شبكات التواصل الاجتماعي معه بالتعليقات الودودة إبّان الظروف الصحيّة التي ألّمت به على مدى خمسة عشر عاماً مما تسبّب في غيابه يوم الأربعاء الفائت عن لقاء الملك سلمان بالإعلاميين.

ويُعَدّ في نظر معاصريه من الإعلاميين صاحبَ مدرسة دائمة الألق ونمطٍ واضح متجدد، وإن كان يميل إلى الصيغة الكلاسيكية والأصالة في العرض والتقديم، يتمنّى مجايلوه أن يسيروا على منواله، وكان وجوده وأقرانه المخضرمين من الإعلاميين المحترفين النوادر من السعوديين، ومن العرب (من أمثال خلدون المالح وسامي عودة) فضلاً عن الكتّاب والمُعدّين (كمحيي الدين القابسي) والمخرجين المحليّين والمتعاقدين (أمثال بشير مارديني ومنذر النفوري) وغيرهم ممن فات على القلم أو ضاق المقام عن استحضار أسمائهم أحد سمات التميّز و«كيمياء» الانصهار ومصدر الاعتزاز بحقبة مبكرة، اتسمت بكثير من التحدّيات رافقت نشأة التلفزيون السعودي في الستينيات والسبعينيات، حقبةٍ ستعود باحتراف أفضل مما كانت عليه، بإذن الله.

سادساً:

كشاف عام..

(أ)

(ح)



(ن)

***


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



تواضع ، تكن كالنجم لاح لناظرٍ

على صفحات الماء ، وهو رفيع

ولا تكُ كالدخَان يعلو بنفسه

إلى طبقات الجو ، وهو وضيع

(أبو تمَام)



ردمك : ١ ـ ٢٩١٦ ـ ٠٢ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

مطبعة سفير تليفون ٤٩٨٠٢٨٠ ـ ٤٩٨٠٢٣٦ الرياض